

أرشيف مقالات

المؤلف
نبيل فياض

أرشيف مقالات نبيل فياض
التي نشرها في موقع الناقد

استضاف موقع الناقد www.annaqed.com منبر نبيل فياض لأكثر من عام، ولكن محرر الموقع قرر إزالة منبر نبيل فياض في شهر تموز 2005، وهكذا اختفى الأرشيف الوحيد لمقالات نبيل فياض الأخيرة.

هذا الملف يحوي مجموعة مقالات نبيل فياض التي نشرها في منبره السابق على الناقد مرتبة من الأحدث إلى الأقدم، وقد جمعته لنفسي خلال فترة نشر الأرشيف على الناقد لتسهيل البحث عن كتابات نبيل فياض.

وبما أنني كنت قد حصلت عام 2004 على موافقة مسبقة من الكاتب نبيل فياض ومن محرر الناقد الكاتب بسام درويش على نقل مقالات نبيل فياض من الناقد إلى موقعي وموقع مرآة سورية، أجد أن بإمكاني نشر هذا الملف كاملا على الموقعين ليبقى متاحا لكل متابعي ومحبي كتابات نبيل فياض. وأتمنى أن يحصل عدد كبير من المواقع على موافقة الكاتب نبيل فياض لتوزيع هذا الملف.

الأيهم صالح
www.alayham.com
اللاذقية . سورية

الفهرس

رسالتي إلى المثقفين السوريين

www.annaqed.com

نبيل فياض، 22 يونيو 2005

الجرائد الأمنية المستقلة الجديدة.

فرحنا للغاية عندما رأينا، ونحن في الغربة، أن مواقع الكترونية "مستقلة" جديدة بدأت تظهر في سوريا، وتوسمنا في ذلك خيرا؛ لكن الواقع أثبت صحة ما يقال من أنه اسمع تفرح، جرب تحزن: فالمواقع الجديدة لا تعدو كونها مراكز أمنية معصرنة.

بعد عودتي من أمريكا، اتصل بي صحفي، قال انه يعمل مع الجريدة الالكترونية "سيريا نيوز"، التي يقال إن مالكها هو فراس طلاس، ابن وزير الدفاع السوري السابق، الذي تناولته بالنقد الشديد العام الماضي عبر حملتي ضد الفساد! اعتذرت عن لقاء الصحفي بشكل شخصي وفضلت التقاءه على الهاتف بسبب المشاغل الكثيرة. وهذا ما كان. استمرّ اللقاء الهاتفي 58 دقيقة و59 ثانية. وبعد ساعات تمّ نشر اللقاء بطريقة غاية في التشويه، أساءت إليّ وإلى أصدقائي وصدقيتي؛ وضمن أشياء كثيرة، يمكن لذاكرتي استرجاع الأمور المشطوبة التالية:

1 . قولي عن الصديق فريد الغادري إنه أكثر وطنيّة منّي – بما لا يقارن – وهذه حقيقة لا يضيرني نشرها. فأنا لو كنت مكان هذا الصديق، ببيته الهنيء ووضعه المادي الخارق، بحياته الوادعة بين غابات بوتوماك حيث تأتي الغزلان تحت شرفته كل صباح، لما فكرت يوما بالعودة الى سوريا– إلى التلوث ومعاداة البيئة، إلى التصحر والفوضى غير المنظمة، إلى المؤامرات الصغيرة والكبيرة، إلى الخوف من الغد والهرب إلى الماضي.

2 . قولي أيضا إن فريد كان يردد على الدوام، حين كنت أساله عن دوافعه لما يفعله: أريد مساعدة الشعب السوري في الوصول إلى الديمقراطية.

3 . إصرار الصحفي على أن فريد الغادري يريد أن يأتي على دبابة أمريكية لخلق حالة اقتتال داخلي ودمار في سوريا، وردي عليه بأن فريد كان يطرح على الدوام فكرة (الحل بدون بريمر)؛ ويقصد بذلك إننا في سوريا شعب ناضج ولا نحتاج إلى شخص مثل بريمر كي يكون مندوباً سامياً في الوطن.

4 . عندما ألح الصحفي على مسألة أن فريد يريد حلا عسكريا أمريكيا في سوريا وإصراري في المقابل على العكس، قلت له انك تريد مني القيام بدور محامي الشيطان وهذا ما لا اقبله. إذا كنت موضوعيا اتصل بفريد وهو لا يمانع في الحديث معك ومع غيرك.

5 . الحديث عن إمكانيات فريد الغادري المادية غير العادية، ودحض الادعاء بأنه يقبض من الأمريكان لتنفيذ مؤامرة ضد سوريا مع ان العكس هو الصحيح! ولدي وثائقي!

6 . الحديث عن مواقف فريد الإنسانية، وطرحنا معا لمشروع الخيار الثالث، أي لا بعث ولا اخوان بل صوت الغالبية العظمى الصامتة.

7 . الحديث عن لا طائفية فريد وهو المتزوج من سيدة لبنانية درزية، دون إن يلغي ذلك اعتزازه بانتمائه الإسلامي السني.

8 . الحديث عن منظوري الخاص للسياسة، كمثقف اضطره الخواء السياسي، الذي أدت إليه خمسون سنة من حكم البعث، إلى الدخول في هذا العالم غير الجميل ولا الأخلاقي المسمى بالسياسة، ومقاربتي الخاصة للأمر، كشخص تربى على القيم اللاهوتية التي فاضت عن الكسليك حيث لا يمكن الفصل بين السياسة والأخلاق والإنسانية، ولا اعتقد ان فريد بعيد في ذلك عني.

9 . الحديث عن الصحفي المعارض ميشيل كيلو وتناقضه الذاتي حين يهاجم فريد بزعم عمالته لأميركا ، وهو الوطني الغيور، ثم يهاجمني بزعم أنني موفد الأمن العسكري لدى الأمريكان لخرق حاجز كان من المستحيل خرقه، واشهد هنا أن ميشيل كيلو تفوق في ذلك على وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية! وشخصيا اعتقد أن هذه المسرحية فبركها معلمه السابق الذي أحيل إلى احد أسوأ أنواع التقاعد، والذي لم أتجاوب يوما مع دعوته للعمل عنده بدرجة مخبر مثقف.

10 . الحديث التفصيلي والمستفيض جدا بالأسماء والأرقام عن المجموعة التي وضعت في بيوتها وعن ضرورة متابعة العمل لاسترداد أموال الشعب التي سرقها هؤلاء. وكان هذا أهم ما في الحديث.

11 . الحديث التفصيلي أيضا عن علاقتي بأحد المسئولين التي انقطعت يوم 30 /2004/9 ، و ملاحظتي أن الأمريكان كانوا يعرفون بالتفصيل الممل كل شيء عن هذه العلاقة، فقد سئلت عنها ليلة وصولي بالذات الى واشنطن.

12 . تأكيدي الدائم، وأنا في هذا العمر، على أني لا أمتلك بيتاً ولا أرضاً ولا محلاً ولا أسرة ولا حساباً بنكيّاً في سوريّا، في حين يولد الغير، مثل الجيل الثاني من تلك الجماعة المسماة بالحرس القديم، وفي فمه ملاعق الألماس.

من هنا، وبسبب هذه التصرفات غير اللائقة بالعمل الصحفي، اعلن برائتي التامة مما نشر على لساني في هذا الموقع، واحذر كافة الصحفيين السوريين من نشر أي خبر يتعلق بي سلبا او ايجابا دون توثيق، في ظل الملاحقة القانونيّة. كما أطلب من المثقفين الموضوعيين والنزيهين أخذ الحذر من هذه المواقع التي تلبس كذبا ثياب الصحافة، وحقيقتها عكس ذلك.

نبيل فياض 00963116238726

الأخوان المسلمون وأسطورة التمثيل العددي

www.annaqed.com

نبيل فياض، 31 مايو 2005

حتى الآن، تبدو المراكز البحثيّة العالميّة الهامة منخدعة بأسطورة التمثيل العددي التي روّج الأخوان المسلمون، والتي ساعدهم النظام السوري، بطريقة غير مباشرة، كما سنبيّن لاحقاً، على ترسيخها في العقول. والمختصر المفيد لتلك الأسطورة يقول، إن الأخوان المسلمين يمثّلون رأي الغالبيّة الساحقة الشعب السوري، باعتبارهم الممثّلين الحصريين للسنّة، الذين هم الغالبيّة الساحقة من الشعب السوري. فكيف يمكن الردّ على مثل هذه الادعاءات؟

قبل أن نبدأ بتفنيد إدعاءات الأخوان، لا بدّ من مقاربة أسلوب الدولة في المساعدة غير المباشرة في هذا الخلق لتلك الأسطورة. في المقام الأوّل، الدولة السوريّة، كأي كيان قائم أساساً على اللاعلميّة أو على العدائيّة–للعلم، تفتقد على نحو شبه كامل أي منهجيّة توثيقيّة أو أي برنامج إحصائي علمي، كتلك التي تمتلكها الدول المتحضّرة؛ من هنا، فإن أي حديث عن النسب التمثيليّة للديموغرافيا السوريّة، بحسب توزعها الإثني أوالمذهبي أو الأيديولوجي–التحزّبي، يبقى أقرب إلى التخمين منه إلى أي شيء آخر. من ناحية أخرى، فالدولة السوريّة، التي تدرك تماماً خطر الطائفيّة على التماسك المستقبلي للكيان السوري، وتعرف تماماً أيضاً أن الطائفيّة تتفشّى في سوريّا، كالنار في الهشيم، وعلى أعلى المستويّات، تتعامل مع المسألة وفق مبدأ "دفن الرأس في رمال الأوهام خوفاً من وهج الحقائق"، بل تعتبر، بنوع من النفاقيّة المثقفة، أن الحديث في الطائفيّة من المحرّمات، مع أنه الأكثر تداولاً في سوق الإنتلجنسيا السوريّة اليوم، وذلك بدل التعاطي بعلميّة مع هذه المشكلة المزمنة، ودراسة أفضل السبل للتغلّب عليها. وتجاهل المرض ليس الطريق الأمثل للشفاء منه.

بعود على بدء، نتساءل: هل فعلاً أنّ الأخوان المسلمين هم الممثّل الشرعي والوحيد للسوريين؛ هل هم البديل المتاح الأوحد للنظام السوري، إذا ما شاءت الإرادات العليا التبديل؟ وهل حقّاً أنّ السنّة السوريين هم خمس وثمانون بالمئة من مجمل الشعب السوري؟ وهل أن كلّ السنّة السوريين أخوان مسلمون؟

نبدأ بتفنيد أسطورة أن السنّة السوريين يشكّلون خمساً وثمانين بالمئة من مجمل الشعب السوري. إنّ الإحصائيّات شبه الدقيقة التي لدي تقول إنّ العلويين يشكّلون الغالبيّة العظمى في محافظتين سوريتين هامتين: اللاذقيّة وطرطوس. بل أمتلك خارطة دقيقة جدّاً للمحافظتين تؤهلّني للقول، إن نحواً من خمس وسبعين بالمئة من سكانهما هم من الطائفة العلويّة. بالمقابل، فحمص المدينة وبعض ريفها الشرقي أو الغربي، تضمّ عدداً كبيراً من العلويين، ليس أقل من نصف سكّان هذه المحافظة التي تعتبر الثالثة في سوريّا. أمّا حماة، فمأهولة كريف بنسبة كبيرة من العلويين. والحقيقة أن الريف الحموي عموماً، هو ملجأ للأقليّات، بعكس حماة السنيّة المحافظة، التي لا تخلو من أقليّة أرثوذكسيّة في حي المدينة. دمشق أصلاً مدينة سنيّة مسيحيّة مع بعض الوجودالشيعي الإثني عشري. العلويون نزحوا إليها بعد قيام حكم البعث، لكنهم تكاثروا هناك إلى درجة أن أحياء بأكملها، وهي فقيرة عموماً، مكوّنة من البعثيين. وبحسب إحصاء تقديري، لا يقلّ عدد العلويين في دمشق عن سبعمئة ألف نسمة. يجب أن لا ننسى أيضاً الوجود العلوي في بعض مناطق إدلب المحافظة، وتوزّع موظفين علوي قوي في كلّ

المحافظات السوريّة. من هنا، يمكن القول، إن النسبة المئوية للعلويين لا تقل عن 18 بالمئة من مجمل الشعب السوري.

إذا انتقلنا الآن لأقليّة أخرى بالغة الأهميّة، خاصّة على الصعيد العلمي، وأقصد بذلك المسيحيين، فإن أبسط ما يمكن قوله إن المسيحيين موجودون في كلّ مناطق سوريّا تقريباً. ففي دمشق، هنالك أحياء هامّة للغاية، مثل القصاع بكل تفرعاته والدويلعة والطبّالة وباب شرقي، يشكّل المسيحيّون فيها الغالبيّة العظمى. بل يمكن القول، دون مبالغة، إن عدد المسيحيين في دمشق، يناهز المليون نسمة. في ريف دمشق، يسكن المسيحيّون في معظم بلداته، إمّا كغالبيّة مطلقة، مثل صيدنايا أو معلولا، أو كأقليّة كبيرة، مثل جرمانا وصحنايا، أوكأقليّة، مثل يبرود والنبك ودير عطيّة. الوجود المسيحي في حلب هام. مع أنهم منغلقون على ذواتهم، لكنهم غير موجودين في الريف الحلبي عموماً. في حمص، الوجود المسيحي هو الأبرز للعيان بين كلّ المحافظات السوريّة. فالمدينة تعجّ بالمسيحيين الذين يشكّلون الغالبيّة المطلقة في بعض أحيائها، كما أن قرى حمص الغربيّة مسيحية بالمطلق تقريباً. كذلك هنالك وجود مسيحي سرياني في قرى حمص الشرقيّة.

في اللاذقيّة أقليّة مسيحيّة هامّة، خاصة في حي الأمريكان. ولا تكاد تخلو بلدة هامّة في محافظة اللاذقيّة من أقليّة مسيحيّة، حتى القرداحة. بالمقابل، فحماة المدينة المحافظة السوريّة الأشهر، لم تعرف من الأقليّات غير المسيحيّة؛ مع ذلك، فالوجود المسيحي قوي تماماً في بعض قرى حماة، خاصّة محردة والسقيلبيّة وكفربو وعين حلاقيم. أمّا طرطوس المدينة، فلا تخلو من أقليّة مسيحيّة أرثوذكسيّة هامّة، مع وجود ماروني أرثوذكسي قوي في القرى. محافظة الحسكة السوريّة هي إحدى أبرز المحافظات بأقليتها المسيحيّة، خاصّة من غير الطوائف الخلقيدونيّة. وكانت القامشلي بلدة شبه مسيحيّة قبل أن يهجرها أهلها إلى دول الاغتراب. باستثناء السويداء وبعض درعا وقراها، فالمحافظات السوريّة الأخرى، لا تحتوي غير أعداد ضئيلة من المسيحيين: لكنهم موجودون حتى في دير الزور، التي يمكن اعتبارها الامتداد الطبيعي للعراق السنّي. بقي أن نشير، إلى أن النسبة المئوية للمسيحيين، برأينا هي حوالي 12 بالمئة، هذا دون أن نأخذ بحسباننا مسيحيي المهجر، الذين ما يزال كثير منهم يحمل الجنسيّة السوريّة.

الأقليّة الهامّة الثالثة في سوريّا هي الدروز. والدروز هم الغالبيّة الساحقة في محافظة السويداء؛ إضافة إلى وجودهم القوي في بلدة جرمانا الكبيرة، وفي صحنايا وبعض دمشق وريف إدلب. وإذا ما أضفنا إلى الدروز الإسماعيليين الموجودين أساساً في محافظة حماة [السلميّة وريفها، وبعض مصياف والقدموس] ومحافظة طرطوس [نهر الخوابي] وبعض حمص ودمشق، تكون النسبة لا أقل من سبعة بالمئة.

ثمّة أقليّة هامة يبدو أني أوّل من أشار إليها في المراكز البحثيّة الأمريكيّة هي المرشديّون. والمرشديّون موجودون بقوّة في بعض حمص وريفها، في ريف حماة المسمّى الغاب، في بعض ريف اللاذقيّة، وفي دمشق وقرية أو أكثر من ريفها. وربما أن هؤلاء يشكّلون حوالي 2 بالمئة من تعداد الشعب السوري.

الأقليّة الطائفيّة العربيّة الأخيرة التي يمكن ذكرها هنا هي الإثناعشريون. وهؤلاء موجودون في أحياء ثلاثة من دمشق، وفي بلدة السيّدة زينب القريبة من العاصمة السوريّة؛ في بعض حمص وقراها، وفي قرية من ريف حلب. وهؤلاء لا يتخطّون ربما 1 بالمئة من مجمل السوريين.

إثنيّاً: يشكّل الأكراد جزءاً كبيراً من الشعب السوري. ولا يقلّ تعدادهم بأية حال عن المليون ونصف المليون إنسان، أي أقل من عشرة بالمئة بقليل. غالبيّة الأكراد العظمى السوريين من الطائفة السنيّة، وإن كان فيهم قلّة لا تذكر من العلويين واليزيديين. مع ذلك، فالأكراد السنّة السوريّون أبعد ما يكون عن الفكر الأصولي بشكله

الأخواني، وأقرب في أحزابهم إلى التيارت القوميّة الديمقراطيّة غربيّة الطابع. لكن لا يمكن إنكار الوجود القوي للتيار الصوفي بأنواعه بين هؤلاء.

إذا عدنا الآن إلى السنّة السوريين العرب، يكفي أن نذكر إن أهم الباحثين النقديين للفكر الأصولي بكافّة أشكاله اليوم، على الصعيدين السوري والعربي، هم من جذور سوريّة عربيّة سنيّة: يمكن أن نذكر أسماء لامعة في هذا المجال، مثل: صادق العظم، الطيّب تيزيني، محمّد شحرور، علي الشعيبي، حسين العودات، يوسف الجهماني، زكريّا أوزون، وإلى حد ما، محمّد حبش.

بالمقابل، فإن قادة التيارات القوميّة العربيّة–الإشتراكيّة، بشقيّها الناصري أو البعثي، الشيوعيّة باتجاهاتها، القوميّة السوريّة، الليبراليّة، وغيرها من أصحاب الأيديولوجيّات العلمانيّة، هم من أصول سنيّة: وطبعاً ليسوا من دعاة الفكر الأخواني. هل يمكن أن نذكّر بأسماء مثل رياض الترك، ساطع الحصري، يوسف الفيصل، عصام المحايري.. إلخ؟

من ناحية أخرى، فإن المتدينين السنّة السوريين العرب، هم غالباً من تيارات صوفيّة لا علاقة لها بالأخوان. وهؤلاء هم الغالبيّة.

إنّ ما نراه في سوريّا من مظاهر دينيّة قد تبدو مخيفة للمراقب الغربي، لا يعدو كونه عموماً أحد أشكال الاحتجاج السياسي ذي الطابع الديني على ممارسات خاطئة للدولة. الدولة، بالمقابل، التي منعت كافّة أشكال الاحتجاج السياسي منذ وصول البعثيين للسلطة، أتاحت المجال أمام ذاك النوع من الرفضيّة الطائفيّة لأنها الشكل التنفيسي المتاح الأوحد. وحالما تفسح الدولة المجال لأشكال الاحتجاج الديمقراطي، سياسيّة الطابع، سينكفيء التيار الطائفي ذاتيّاً؛ لأنه لن يعود المخرج الوحيد لعواطف رفض الواقع.

من كلّ ما سبق؛ يمكن القول، إن الأخوان المسلمين، في أفضل الأحوال، لا يشكّلون أكثر من عشرة بالمئة من مجمل التركيبة السكّانيّة للسوريين. ولا يحقّ لهم بالتالي تقديم أنفسهم، بأي شكل، كممثلين حصريين لهذا الشعب.

نبيل فيّاض. خبير في شؤون الأقليّات. 32 كتاباً في المسائل الدينيّة في الشرق الأوسط. عشرات المقالات حول ديموغرافيّة الأقليات، جغرافيتها، عقائدها، وتاريخها.

حوار مع عضو الكونغرس كريس كينون

www.annaqed.com

نبيل فياض، 27 مايو 2005

في إقامتي غير القصيرة في واشنطن، كان مستضيفي شبه الدائم السيّد مارك كينون وزوجته بيتي. ومارك، الذي هو من ولاية يوتا، كان نائب رئيس المحكمة الدستوريّة العليا. والآن محال على التقاعد، وهو يعمل في المجال الإنساني مع زوجته التي تهتم شؤون القادمين من أميركا اللاتينيّة. مارك أيضاً يموّل منحاً دراسيّة إلى جامعة ب.واي.يو في سولت ليك سيتي، عاصمة ولاية يوتا. إذن، مارك من كنيسة ل.د.س. أو المورمون.

كان حديثي المتواصل مع القيادات المورمونيّة في واشنطن أوسولت ليك أو لوس أنجلوس هو عن ضرورة حماية حقوق الإنسان في الشرق الأوسط. والبارحة حصراً – الخميس – وكنت أتناقش مع بيتي حول مركزهم في القدس؛ قالت: الغريب أن طلبتنا، قبل ذهابهم إلى القدس للدراسة، يبدون متعاطفين مع إسرائيل بسبب العهد القديم وارتباط المورمونيّة القوي بالكتاب المقدّس. لكنهم بعد أن يعيشوا في القدس، يصبحون رسلاً للدفاع عن الشعب الفلسطيني في الولايات المتحدة.

إذن، الحقيقة أن شعوب المنطقة، بما فيها الفلسطيني، بحاجّة ماسة لأن تعيش كبشر محترمين، بالحدّ الأدنى من الحقوق. من هنا، كان اقتراح مارك أن التقي نواب الكونغرس من المورمون، وعلى رأسهم ابن أخيه، نائب يوتا عن الحزب الجمهوري، كريس كينون. وذلك من أجل التداول في مسألة حقوق الإنسان في منطقة الشرق الأوسط، خاصّة وأني أعيش هناك، وأحتك بالناس كثيراً وفي مناطق عديدة، وأعرف همومها وهواجسها.

توجهت إلى الكونغرس مع الصديق فريد الغادري. وكان كريس في انتظارنا في الموعد المحدّد. وبدا لي، على غير ما توقعت، أن كريس يمتلك من المعلومات الشيء الكثير، الأمر الذي يؤهّله للعب دور أكبر من الحالي في مساعدة هذه الشعوب في رفع كثير من الظلم الذي أحاق بها. واتفقنا مع كريس، كحزب الإصلاح السوري، على التنسيق الدائم واللقاءات المتواصلة. بل الغريب أني وجدت كريس يعرف بقصّة المعتقلين من منتدى جمال الأتاسي، الأمر الذي أزعجني وأسرني في آن: أزعجني لأني كنت أتمنّى، وأنا أرى كيف يعيش الإنسان في الغرب، أن أجد الشعب السوري يتمتّع، معنويّاً على الأقل، بما يتمتع به الغربيّون، وأسرني لأني أدركت أن المثقفين السوريين في أيد أمينة.

لا شكّ أن خطأ الدولة كان غير عادي في اعتقال هؤلاء التقدميين الإصلاحيين، الذين لم يحمل واحدهم يوماً "عصا" في وجه أحد؛ وبالمقابل، كان خطأ الإخوان المسلمين قاتلاً وهم يتسلّقون، بمكيافليّة مزعجة، ظهور اليسار من أجل الوصول إلى غاياتهم.

هل نخطيء حين نسمح لأنفسنا بان نكون رأس حربة لتيار يعرف الجميع انه غير ديمقراطي وأنه فقط يستعمل الديمقرطيّة للوصول إلى الحكم وبعدها على الدنيا السلام؟ لقد تعلّمت من اعتقالي السابق مدى كراهية هؤلاء للديمقراطيّة، حين كانت بيانات شماتتهم تملأ الفضاء والصحف! مع ذلك، فنحن، كحزب الإصلاح السوري، نبذل كل ما في وسعنا من اجل إطلاق سراح الإخوة في منتدى الأتاسي!

حسين عودات بشكل خاص، ويوسف الجهماني بشكل أخص، أكبر من أن يعتقلا وأحصن من أن يتعبا. حدث خطأ من منظور الدولة: لكن الخطأ لا يعالج بخطأ أكبر منه.

أمرأة من صوّان

www.annaqed.com

نبيل فياض، 25 مايو 2005

قال لي هارولد المزعج: يجب أن نذهب مشياً على الأقدام، من محطة القطارات إلى الكونغرس!

أجبته: صحيح أن الطبيب في سان دييغو طلب مني أن أمشي بضعة كيلومترات يوميّاً لأن قلبي في حالة سوء تناغم مع الواقع الخارجي بسبب الكسل وبعض الوزن الزائد، لكنه لم يقل لي أن أمارس أعمالاً شاقّة.

أحسست أن نفسي يوشك أن ينقطع وأنا أطارد ها الرجل المريع؛ وأمام مبنى الكابيتول، صاح: نبيل! هيّا! السيدّة بانتظارنا! أجّل تعبك إلى الغد!

كالعادة؛ نسيت باسبوري؛ وكالعادة أيضاً؛ تدخّل هارولد مبرزاً لهم على الباب بطاقته كموظّف رسمي، فسمحوا لي بالدخول دون أية وثيقة رسميّة.

عند باب مكتب السيّدة إليانا روس ليتنن، كان أحد موظفيها في انتظارنا، ليبلغنا أن إليانا في الطرف الآخر من الكابيتول، وأن علينا أن نستقلّ برفقته القطار ما تحت الأرض للوصول إليها.

امرأة قصيرة قليلاً، جهوريّة الصوت، هاجمت التجاعيد وجهها قبل الأوان، تتحدّث بلهجة عرفت بعدها أنها لهجة منطقتها: فلوريدا، في الساحل الجنوبي الشرقي لأمريكا؛ كذلك فقد عرفت أيضاً أنها من أصل كوبي!

سألتني إليانا بحماس لاتيني مفرط: تبدو متعباً؟

قلت: هارولد أركضني إليك؟

ضحكت بصخب، وطلبت من مرافقتها أن تأتي لي بزجاجة ماء.

نظرت إليانا إلي بتمعّن؛ وسألت: أنت تعيش في دمشق؟

أجبتها: نعم!

قالت: ألا تخاف؟

قلت لها: ليس لدي ما أخاف عليه!

وأسرتك؟ قالت!

رددت: ليس لدي أسرة. لدي أشقاء ولا شأن لهم إطلاقاً بعملي الثقافي!

وهل ستعود إلى سوريّا؟ عادت لتسأل من جديد!

أجبتها: نعم!

هل يمكن أن يعتقلوك – سألت!

قلت: كلّ شيء جائز !

كانت إليانا تحلّل الوضع في سوريّا وكأنها تعيش في دمشق. وكانت تطرح الفكرة بعد الفكرة، حتى وجدتني أفشل في ملاحقة ما تقول.

ما رأيك أن نأخذ بعض الصور التذكاريّة معي: أعتقد أنها يمكن أن تحميك إذا ما أرادوا اعتقالك، فالكلّ يخاف تصرفاتي؟ سألت إليانا من جديد.

وقبل أن أجيبها، أخذتني من يدي إلى بلكون الكابيتول، وهي تصرخ في أحد موظفيها: هات الكاميرا! أسرع!

وركض الشاب النيكاراغوي عربي الشكل، نزل درج بلكون الكابيتول، وراح يأخذ الصور، من تحت المطر الكثيف.

في الكابيتول، عملت إليانا دليلاً سياحيّاً لذاك المبنى الأجمل. فجأة، صرخت: أوه! لدي تصويت في الكونغرس! لقد نسيت! وركضت ببذلتها السوداء سريعة إلى القاعة؛ صارخة من جديد: لن أتأخر! انتظروا!!!

في الماضي، أطلقوا على مارغريت ثاتشر لقب "المرأة الحديديّة"؛ فهل تسمح السيّدة الجميلة بأن اسميها "المرأة المنحوتة من الصوّان"؟

العم برنارد وذكريات الماضي الجميل

www.annaqed.com

العم برنارد وذكريات الماضي الجميل: إنطباعات من واشنطن!

نبيل فياض، 24 مايو 2005

ليعذرني الرائع هارولد وزوجته الجميلة الطيبة جوديث، اللذان كانا أكثر من أهل في غربة واشنطن الحلوة، فقد كانت أجمل الساعات تلك التي أمضيتها مع هذا الرجل الاستثنائي، برنارد لويس، أو العم برنارد، كما يحلو للجميع أن يسمّوه!

اتصل به في نهاية نيسان الماضي هارولد؛ وقال له عندي صديق لا يمكن أن تصدّق، إذا ما عرفت معلوماته اليهوديّة، بأنه "سوري". ثم أعطاني الهاتف. وبعد دقائق، قال لي العم برنارد: تعال إلي في برنستون! ثم وفّر علي عناء الذهاب حين حضر هو ذاته، بأعوامه الثمانية والثمانين، إلى واشنطن.

كنت مع هارولد وأستاذ للعلوم السياسيّة في جامعة دنفر – أشرف على أطروحة الدكتوارة لكوندي رايس – ننتظر العم برنارد في محطّة القطارات في المدينة. تأخر القطار قليلاً! وأخيراً: وصل.

تلعثمت أمام هذا العلاّمة الذي صاغ كثيراً من منهجي في تناول التاريخ. لكن لأن هارولد وزميله كانا حاضرين، فقد كان الحديث كلّه سياسياً. وهذا ما أزعجني. نظر إلي العم برنارد بعينيه الثاقبتين؛ وقال: تعال إلي في المساء حتى نحكي في الثقافة. قلت له: ولا كلمة سياسة؟ قال: ولا كلمة – خاصّة أن الحكواتي هارولد لن يرافقني هذه المرّة – على غير عادته، لارتباطه بموعد آخر. والحقيقة أني لا أحتاج إلى مرشدين روحيين في آن.

في المساء، قصدت فندق الهايت ريجنسي، في قلب العاصمة الأمريكيّة، حيث يقيم العم برنارد. وبدأت أسئلتي تنهال عليه كالمطر.

في البداية سألته عما يعرفه، كأشهر باحث في أميركا اليوم، عن شكل اليهوديّة الذي كان سائداً في الحجاز زمن الإسلام الأوّلي: فالموضوع يشغلني منذ زمن طويل ولا أجد له جواباً. وكان ردّه إنهم طبعاً أرثوذكس، لكن لا توجد أيّة وثيقة من هذه الجماعة يمكننا الاستدلال بها على أي شيء عن اليهود زمن محمّد سوى الدلائل غير المباشرة، أي من الوثائق الإسلاميّة، بأنهم كانوا ينطقون بالعربيّة، وأن أسماءهم كانت عربيّة تماماً.

سألته بعدها عن مسألة حرق عمرو بن العاص لمكتبة الاسكندريّة، الأمر الذي أشرت إليه في كتابي "يوم انحدر الجمل من السقيفة"، وعارضني فيه دون دليل علمي بعض مشايخ سوريّا. فقال العم برنارد: قبل مدّة دعيت لحضور افتتاح مكتبة الاسكندريّة، فاعتذرت لمشاغلي الكثيرة، لكنّي أرسلت إليهم خطاباً يمكن أن يكونوا قرأوه نيابة عنّي. في هذا الخطاب أشرت إلى أن موضوع حرق المكتبة من قبل عمرو بن العاص بطلب من عمر بن الخطّاب خرافة لا أكثر ولا أقل. فعبد اللطيف البغدادي، الذي أشار للمسألة للمرّة الأولى، جاء بعد زمن ابن العاص بقرون طويلة. وعلى الأرجح أن البغدادي لفّق القصّة لإعطاء سابقة ذات مغزى ديني لمسألة حرق الأيوبيين التراث الفاطمي الفكري.

سألته: هل تعرف أنه في النصوص الإسلاميّة ورد أكثر من مرّة أن النبي محمّداً كان يذهب إلى بيت المدراس، وهذا ما يوضّح فكرتي التي أخذتها عن غايغر وشباير وهوروفيتس، من أن العلاقة بين الإسلام واليهوديّة أقوى بما لا يقارن من تلك التي بين الإسلام والمسيحيّة، بشكلها النصراني؟

أجاب بلهفة: أين قرأت ذلك؟

قلت: في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد! وربما في تاريخ الطبري!

قال العم برنارد: إذا كان ما تقوله صحيحاً، فهذا يعني أشياء هامّة جدّاً بالنسبة لنا كباحثين.

سألت العم برنارد من جديد: ما رأيك بظاهرة ما بعد الصهيونيّة في إسرائيل، الذين كتبتُ عنهم كثيراً؟

قال: حدّد لي أسماء!

قلت: بني موريس، آفي شلايم، وأيلان بابيه!

أجاب بصراحة غير عاديّة: بني موريس [وقد تراجع عن أطروحاته كلّها] جيّد؛ آفي شلايم لا أعرفه كثيراً. أمّا إيلان بابيه فهو يشكو من وضعيّة نفسيّة مغلوطة: أزمته نفسيّة لا بحثيّة!

سألته: ما رأيك في التعليم في سوريّا، حتى لا نقول البحث، لأنه لا يوجد عندنا ما يمكن أن نسميّه "بحثاً"، بالمعنى الفعلي للمصطلح؟

ضحك كثيراً؛ وقال: أنتم لديكم تاريخ تعليم وليس تعليماً. مثلاً: لديكم كليّة تعلّم تاريخ العلوم، اسمها خطأ: كليّة العلوم، ومثلها الصيدلة والجيولوجيا.. إلخ!

سألته: هل يمكن أن توضح قليلاً؟

قال: حين تكوّن الكتب التي تعلّم في كليّة العلوم من خمسينات القرن الماضي، هذا يعني أنّكم تعلمون تاريخ العلوم، لا العلوم!

سألته ثانية: ما رأيك بالمعارضة المثقفة في سوريّا؟

عاد ليضحك ضحكته العريضة من جديد؛ ويقول: في كلّ دول العالم الراقية هنالك فرق بين النظام والحكومة. في سوريّا النظام والحكومة شيء واحد. المعارضة عادة تعارض الحكومة لا النظام. لأن لا أحد يقبل بتغيير النظام في الدول الديمقراطيّة. من هنا، في سوريّا هنالك معارضون لا معارضة.

أخيراً، وقبل أن ننهي اللقاء؛ قال لي: احفظ الأبيات التالية إذا ما أردت العيش هانئاً في سوريّا.

وبلغة عربيّة رائعة، أدهشتني وأنا الذي تصوّرت أنه لا يعرفها؛ قال:

خلّ جنبيك لرامي وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

ربما استفتحت بالنطقِ مغاليق الحمام

إنما السالم من ألجمَ فاه بلجام

سألته: لمن هذه الأبيات؟

قال: لأبي نواس.. ربما.

===========

عواطف الست رغد

www.annaqed.com

نبيل فياض، 24 مايو 2005

وحملت لنا الأنباء خبراً كارثيّاَ!!! ما أسوأ هؤلاء الصحافيين الذين لا همّ لهم غير صدم أنظارنا وتلويث أسماعنا بمشاهد وتعليقات لا يمكن لأحد أن يقبل بها. ماذا فعلوا: أخبرونا؟

سنقدّم الآن مسابقة متعبة للأعصاب عمّا يمكن أن يكون هؤلاء البريطانيّون السيئون قد فعلوه!

المتسابق الأوّل: حكم أحدهم بلده بالحديد والنار فلم يسمح للمرء أن يفتح فمه حتى عند طبيب الأسنان؟ خطأ!

المتسابق الثاني: رمى أحدهم بالسلاح الكيماوي بلدة حلبجة الآمنة فقتل أهلها وشوّه من تبقّى منهم؟ خطأ!

المتسابق الثالث: جفّف الأهوار فقضى بالتالي على بيئة من نوعيّة خاصّة يبدو مستحيلاً استردادها؟ خطأ!

ذبح الشيعة بعد انتفاضتهم للمطالبة بحقهم في أن يكونوا بشراً؟ خطأ!

خاض حرباً عبثيّة ضد إيران أنفق فيها مليارات خلفتها له الست الوالدة من أزواجها الذين لا يستطيع كومبيوتر البنتاغون حصر عددهم؟ خطأ!

في الحرب ذاتها أشعل فتيل الطائفيّة وأزهق أرواح ملايين الشباب؟ خطأ!

خاض حرباً أخرى ضد الكويت أنفق فيها المليارات وقُتل فيها مئات الألوف من الشعب المسمّى بالعربي؟ خطأ!

أقصى 80 بالمئة من شعبه، أي الشيعة والأكراد، عن مرتبة البشر، وحكم بعشائريّة طائفيّة قذرة؟ خطأ!

أشاد سجن أبو غريب.. إلخ!!! خطأ

عجزتم جميعاً؟ اسمعوا: الخبر الكارثي هو أن الست رغد اللصة بنت اللص، انزعجت من منظر البابي بثيابه الداخليّة على صفحة جريدة بريطانيّة!!!

قديماً؛ كتب جان بول سارتر عن المومس الفاضلة. هذه أشهر مومس غير فاضلة في التاريخ العربي الحديث!

إنزو و.. خلف: انطباعات من أمريكا!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 22 مايو 2005

والحق يقال، إنني أحيي الرفيق إنزو الأمريكي وأتمنى له العمر المديد! وبلا نق، فإن 99.99 بالمئة [هل يذكّركم هذا الرقم بشيء؟] من الشعوب العربيّة، تحسد هذا الإنزو وتتمنّى لو كانت مكانه. سأذكر لكم أوّلاً أنواع الأطعمة التي يتناولها إنزو:

1 . النوع الأهم واسمه: هيلز سيانس دايت، وهو عجينة من لحم البقر والفرّوج المنكّه؛

2 . رسيبه: خلطة منكهة من لحم العجل والفروج والجبنة؛

3 . إيامس: بسكويت صغير؛

4 . بيغن ستريبس: شرائح بقر مقدّدة؛

5 . غريلين بايتس: حليب مع مسحوق العظام!

إذن، إنه الكلب الجميل . إنزو! وكما قلت من قبل، فحين تعبت عينا إنزو، أجروا له عمليّة مستعجلّة كانت كلفتها حوالي 2500 دولار، ووضعوا له بعد العمليّة نوعاً من القبّات البلاستيكيّة كي لا يحكّ عينيه!

إنزو إجتماعي للغاية! من هنا، كان لا بدّ من إيداعه فندق الكلاب بين فترة وأخرى. بكم الليلة: أوه! يا بلاش! 40 دولار فقط لا غير! ولأن أصحابه يخافون عليه للغاية، فهم يأخذونه دوريّاً إلى الطبيب، ومن عند الطبيب يشترون له أيضاً الطعام – لماذا؟ لأن طعام السوق تجاري وليس صحيّاً بل إنه قد يرفع نسبة الكولسترول في الدم! وكم تكلّف العمليّة؟ لا شيء! مئة وأربعون دولاراً! وغير ذلك؟ الكوافير الخاص بالكلاب! أجلّكم! لا أعرف كم يكلّف! لكني أشهد أن قصّة شعر إنزو أجمل من أي شينيون يمشّطه في دمشق أحد كوافيريّة سيّدات المجتمع المخملي – صرن أكثر من الهم على القلب بعد الانفتاح – الراقي!

إنزو لديه بانيو خاص به: لكنه يكره الحمام، رغم أن الشامبو الخاص به لا يؤذي العيون! صحيح أنه لا يشاهد التلفزيون، لكنه مدمن على متابعة الأخبار عبر الكومبيوتر النقّال! وللأسف، ليس لديه حتى الآن كومبيوتر!

خلف: صديقي في سوريّا الذي فقد نظره عام 1973، حين كان طفلاً، يلهو بقنبلة من مخلّفات الحرب! ولأن خلف لم يفقد غير نظره، فقد تزوّج. ولأنه لم يدخل المدرسة، وليست أمه أو المدام عضوة في الاتحاد النسائي، لم يلتزم تحديد النسل – أنجب المضروب أربعة أطفال في فترة قياسيّة.

خلف ذكي بما لا يقارن. وربما لو كان هنا في أمريكا لأصبح بروفسوراً في إحدى الجامعات الهامّة. لكن خلف في سوريّا. ووضعه مزر للغاية.

مرّة، وكنت في الجمهوريّة العربيّة السوريّة، قرأت في صحيفة رسميّة – على أساس أن هنالك صحافة غير رسميّة – أن ثمة قانوناً يمكن للمعاق بموجبه أن يحصل على معونة من الدولة أو على الأقل وظيفة تناسبه.

نتعت خلف وابن عمه صبح وطرنا إلى العاصمة. قدمت الطلب إلى رئيس الوزارة، وكان وقتها الفقير لكلّ الآلهة، محمد مصطفى ميرو [ما غيره – تبع صهيب ليمتد]! بلا طول سيرة، حوّلنا الميرو [أدفع نصف عمري لمن يترجم لي كلمة ميرو إلى لغة حيّة] إلى وزيرة شئونه الاجتماعيّة – بلا زغرة – الست بارعة القدسي، حرم الأخ المعارض في ج و ت أونكل صفوان القدسي.

ملاحظة:

قال لي مرّة مسئول بعثي إن هذا القدسي يصيبه بالمغص الكلوي حين يبدأ معلقاته في مديح ح ب ع إ!!! ثم تساءل: لماذا لا يُدحش في هذا الحزب/ ح ب ع إ / مادام أكثر إعجاباً به من الستربتيزي صدّام في عزّ شبابه! ما أبشع اللت!!! أوف! المهم، حولتني الست بارعة بدورها إلى منظمة خيريّة في دوما! وفي دوما، كدت أن أخلع ثيابي الداخليّة وأتبرع بها لرئيس الجمعيّة كثرة ما بكى واستبكى وأوقف واستوقف، من الفقر. ثم حولت إلى جمعيّة خيرية في بلدة من بلدات ريف دمشق الوهابيّة.

في البلدة – خير اللهم اجعله خير – قال لي الشيخ مالك الجمعيّة: يمكن أن نعطيه 500 ليرة سوريّة كل شهر، لكن ليس دائماً: يعني، أقل من عشرة دولارات أمريكيّة!!!!!

هل يحتاج الأمر إلى تعليق!؟

الذكرى العشرون للمركز الأهم

www.annaqed.com

نبيل فياض، واشنطن 22 مايو 2005

في حين تفتقد سوريّا بالكامل لما يمكن أن نطلق عليه اسم "مركز بحثي"،احتفلت النخبة الثقافيّة–السياسيّة في واشنطن البارحة، التاسع عشر من أيار، بالذكرى العشرين لإنشاء "معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط". أقيم حفل عشاء في المناسبة، في صالة أندرو ميلون، في قلب العاصمة الأمريكيّة.

كلمة الترحيب بالحضور ألقاها فرد لافر، رئيس المعهد. وتولّى تقديم الخطباء، روبرت ستانلوف، المدير التنفيذي للمعهد منذ عام 1993، وصاحب مجموعة مقالات شهيرة تحمل عنوان، "حرب الأفكار الشرق في الحرب على الإرهاب: مقالات في الديمقراطيّة للعموم في الأوسط". وبعدها توالى الخطباء. في البداية كان مئير شتريت، وزير النقل الإسرائيلي، وعضو حزب الليكود. وكان حديثه يتركّز عموماً حول مسألتي الانسحاب الإسرائيلي "باهظ الثمن" من غزّة، والأمن الإسرائيلي المفقود، وسط غالبيّة لا تقيم وزناً للديمقراطيّة.

بعدها أطل حسن أبو لبدة، وزير العمل والشئون الاجتماعيّة الفلسطيني. والذي حظي بالتصفيق الدائم من الحضور. كان أبو لبدة يرد عمليّاً على شتريت، حين قال إن إسرائيل التي تتباهى أمام العالم بالانسحاب من وحداتها السكنيّة من غزة، تقيم بالمقابل مئات الوحدات السكنيّة في الضفة الغربيّة وتكاد تطوّق القدس.

الثالث كان برهم صالح، وزير التخطيط والتطوير العراقي، الذي تحدّث بشيء من التفاصيل عن الأزمات المزمنة التي يعيشها العراق من صدّام حسين حتى اليوم. وطبعاً لم ينس الجميع، خاصّة وأن وولفويتس كان بين الحضور، طلب المساعدة الدوليّة لتحقيق الأمن والسلم وإرساء قواعد الديمقراطيّة وحقوق الإنسان.

اختتم الحفل بكلمة جميلة لبول وولفويتس، الذي استهل حديثه بذكر التغييرات الهائلة التي حدثت في عالمنا منذ عشرين سنة حتى اليوم. فذكر لقاءه بالجنرال فرانكو وحديثه معه عن مستقبل إسبانيا بعده، وكيف قال له الجنرال العجوز، إن إسبانيا ستكون بعده ديمقراطيّة كأميركا تماماً. وراح الجنرال – كما قال وولفويتس – يعدد الأسس التي يبني عليها حقائقه: الملكيّة الاسبانيّة، الجيش الإسباني، والاقتصاد الإسباني. ثم تطرّأ بعدها وولفويتس إلى ما حصل في الفيليبين ضد ماركوس، ثم انتقل إلى إندونيسيا، ليحط الرحال في التطورات الأخيرة في أوكرانيا وجورجيا. وكان حديثه عن التطورات في لبنان مسك الختام، حيث شدّد على آماله العريضة في انتظار الانتخابات المقبلة.

تمّ تقديمنا إلى السيّد وولفويتس في نهاية الحفل، كإثنين لا ثالث لهما، من سوريّا. وقد بدا لي واضحاً تماماً أن رئيس البنك الدولي يعرف جيّداً مضيفي السوري.

لقد كانت كلمات السيّد وولفويتس لي أكثر من مشجعة، كمعارضة سوريّة من الداخل. لكنها، بالمقابل، تحمل شكلاً من اللامعرفة بالوضع السوري الداخلي الجديد. ففي سؤاله لي: أما تزال على قيد الحياة؟ كان واضحاً تماماً أن الأمريكان، على أعلى المستويات، ما يزالون يعتقدون أن كل صوت معارض في سوريّا مصيره السجن أو النفي. من هنا، فقد عقدت اليوم اجتماع عمل مع إثنين من المسئولين عن أحد أبرز المراكز البحثيّة المهتمة بشئون الشرق الأوسط، واتفقنا على ترجمة مقالات المعارضة السوريّة، قويّة الصوت، إلى اللغة الإنكليزيّة: ورشحت لهم عدة مواقع سوريّة على الانترنت، منها، كلّنا شركاء.

نتمنى أخيراً على الدولة، وهي تعد لمؤتمرها القطري، أن تأخذ بحسبانها ضرورة أن تتعاطى بجديّة أكثر مع الرأي العام العالمي، الذي لا يضيرها إطلاقاً أن توصل إليه حتى صوت المعارضة فيها، حتى وإن كان الأمر برمّته لا يتعدّى "الشو أوف الديمقراطي".

أخيراً: لا بدّ أن أسجّل هنا ملاحظات ثلاث:

1 . هجوم برهم صالح، ونحن نتقدّم إليه، على الدولة السوريّة بتهمة تمرير إرهابيين إلى العراق؛

2 . كلام الكواليس عن لقاء عماد مصطفى، السفير السوري في أميركا، مع ديفيد ويلش، الذي حل محل وليم بيرنز، ومطالبة الأول الأخير بنوع من التعويض على الانسحاب السوري من لبنان، وردّ الأخير البارد؛

3 . كلام الكواليس أيضاً عن مطالبة أميركيّة للسوريين بإيفاد مجموعة مراقبة للمؤتمر القطري، ورفض السوريين للطلب الأمريكي.

===================

انطباعات من لوس أنجلوس

www.annaqed.com

نبيل فياض، لوس انجلوس، 18 مايو 2005

قد يظنّ المرء، الذي يزور لوس أنجلوس [يسمّونها هنا ل. أ.] للمرّة الأولى، أن معالم هذه المدينة–الدولة السياحيّة الأشهر هي الأكثر تأثيراً في الذاكرة، خاصّة حين يغادرها نحو مكان آخر. في ل.أ. مناطق قلّة من لا يعرفونها: والت ديزني أو ديزني لاند؛ هوليوود؛ الماجيك ماونتن؛ يونيفرسال ستوديو..إلخ! مع ذلك، فرغم الجمالية الهائلة لهذه المناطق التي تقتل بسحرها، لم يشدّ انتباهي، بين كلّ المنشآت الضخمة في ضواحي ل.ا. غير أماكن زرتهما بفضوليّة لا تضاهى: فندق للكلاب ومشفى للكلاب ومكتب للتأمين الصحي للكلاب ومول خاصّ بالكلاب.

إنزو هو اسم كلب الجماعة التي أقيم معها. ولأن إنزو تعب فجأة، فقد ارتأى أصحابه أخذه إلى المشفى. ومن باب الفضول – كما قلت – كان لا بدّ لي، كسوري، أن أحيط بتفاصيل حالة إنزو بالكامل. تم أخذ إنزو إلى أحد مشافي الكلاب. وهو، بالمناسبة، في السنة الثالثة من العمر. في استقبال المشفى تمّ تسجيل إنزو ثم إحالته إلى الفحص العام. وبعدها لوحظ أن إنزو يشكو من صعوبة في الرؤيا ولا بدّ بالتالي من زرع عدسات في عينيه، في عمليّة مستعجلة. بالمناسبة أيضاً، فقد شاهدت كلباً، وقد كسرت إحدى ساقيه، يمشي على كرسي متحرّك، لأنه لا يجوز في أميركا أن تحرم الكلب متعة التنزّه في حالة إصابته بما يعوقه عن المشي. في مشفى الكلاب هنالك فحوصات للسكري والقلب والكلى، وعمليات القلب للكلاب أقل من عادية هنا.

الفندق الخاص بالكلاب حكاية أخرى. في الاستقبال يسألونك عن اسم الكلب، عمره، هل عنده أي نوع من الحساسيّة، هل هو انطوائي أو يمكنه التعاطي مع كلاب أخرى، هل ثمة أدوية معينة يتناولها الكلب. ثم بعد ذلك يسألونك عن الدرجة التي تريد أن تنزل الكلب فيها: عادي أم لوكس أم سوبر. وكل كلب له من يهتم به من المختصيّن الذين يحملون حتماً شهادة مساعد طبيب بيطري.

مول الكلاب الذي زرته في يوربا ليندا، ضاحية ل.أ. الرائعة، شيء أكثر من مدهش: ألبسة للكلاب، نظّارات، أطعمة، ألعاب، وسائل للترويح عن الكلب المصاب بالإكتئاب، بل رأيت ثياب غطس خاصّة بالكلاب التي تهوى هذه الرياضة. وكلّ صنف تقف أمامه بائعة يتمنّى الزمان لو توقف حين جاءت إلى هذا العالم!

ولأن الكلب روح، لا بدّ من الاهتمام به حين يكبر في السن. من هنا، فقد رأيت من يؤمّن على كلبه في مكاتب تأمين خاصّة بالكلاب من أجل ضمان مستقبل الكلب إذا هرم وشاخ وأضحى وحيداً!!!

لا يمكنك أن ترى كلباً أو قطّاَ في أي شارع أمريكي: باستثناء تلك الحيوانات التي ترافق أصحابها إلى كلّ مكان. وفي لونغ بيتش، إحدى ضواحي ل.أ.، اكتشفت السرّ: ثمّة مأوى هائل الحجم للكلاب الضالّة، التي إمّا أن تبقى في المأوى بعناية كاملة، أو أن يأتي إلى المكان من يتبناها من البشر، بشروط دقيقة وخاصّة.

لا تعليق!!!!

انطباعات من واشنطن!

www.annaqed.com

نبيل فياض، واشنطن 18 مايو 2005

كم كانت أمريكا، بالنسبة لنا، قبل أن ننضج، ذلك الغول الذي يفترس الشعوب والناس والبلدان! كم كانت أميركا، بالنسبة لنا، قبل أن ننضج، مجرّد وسترن [كاوبويز] لا هم لهم، كبيض، غير افتراس الهنود الحمر واستعباد السود وسلخ رؤوس اليابانيين! كم كانت أميركا قميئة، مريعة، مزعجة، ونحن نتعالك شفاه الحديث، في التباهي بأخلاقنا العالية وتراثنا العظيم وأمجادنا الغابرة! ألم يلوثّوا أسماعنا، على الدوام، بأننا الشعب المتسامح الوحيد الذي أنجبته المجرّات! ألم تصبح أسطورة إحدى السذج من الألمان، شمس العرب تسطع على الغرب، حشيشاً أدمنه مثقفونا منذ أن تفتق دماغ تلك الساذجة عن أسطورتها تلك!

سألني مستضيفي الأمريكي الأبيض: ماذا تسمّون الأفارقة الأمريكان في ثقافتكم العربيّة؟ أجبته: زنوج! ذهل الرجل؛ وأردف بالقول: إذا قلت لأي أفريقي أمريكي هنا "زنجي"، يمكن أن يسحبك من أنفك إلى السجن!!! خجلت أن أقول له إن أستاذ العقاقير في كليّة الصيدلة حيث تلقيّت تعليمي . بلا زغرة . كان يسمّي السود: "عبيد"!!! بل قال لي فلسطيني التقيته صدفة في واشنطن، يعمل في منظمة اسمها "مسلمون ضدّ الإرهاب"، إنّ الشعب الفلسطيني ما يزال يسمّي السود حتى الآن، "عبيد"!!!

كنّا صغاراً! وكنّا نعتقد أن الكبار كبار! من هنا، فقد كنّا نصدقهم! وكانوا يحشون رؤوسنا بخرافات مثل: "نجاسة الغرب الكافر" و"وساخة الغربيين" بالمعنى المادّي للكلمة! كنّا أوعينا على مقولات؛ مثل "وحدنا نعرف معنى الطهارة"!

عندما التقيت ذاك المحلّل السياسي المجري الأصل الأمريكي الجنسيّة، الذي قدم لتوّه من سوريّا، حيث التقى وزير خارجيّة سوريّا المقبل، وليد المعلّم؛ سألته عن انطباعه الأوّل عن سوريّا؛ قال: أمور ثلاثة لفتت نظري في سوريّا: وساخة البلد؛ لطافة الناس؛ ووجود شرطيين كل عشرين متراً.

في واشنطن، في القرية الجميلة حيث أقيم، بتوماك، تمنيت لو رأيت عقب سيجارة أوحد؛ تمنيت لو رأيت شخصاً، ضمن أرتلة السيارات التي لا تنتهي، يرمي بمنديل ورق من شباك سيارته؛ تمنيت لو رأيت طفلاً يمشي . دون أهله . أو يلعب في الشارع؛ تمنيت لو رأيت حيّاً فرعيّاً للغاية ليس فيه سلّة مهملات هائلة الحجم!

في واشنطن ليست الشوارع وحدها نظيفة: الناس أيضاً أكثر من نظيفين! الناس ممتلئون بالحيويّة، في توجههم إلى أماكن عملهم، منذ الصباح الباكر! أما تلك النوعيّة التي تسوّق لنا في الإعلام، فأشهد أني لم أرها، رغم تنقلي على مدى تسعة أيام في أحياء واشنطن وضواحيها.

يتباهى السوريّون بالأمان المطلق في بلادهم! يتحدّثون بافتخار طاووسي عن الأمان في شوارع دمشق الذي لا تشهده في مكان آخر! بالمقابل، نجد بينهم نوعاً من التسويق لخرافة أن أمريكا أكثر بلدان العالم "لا أمناً"! أمريكا البلد الذي تخطف فيه النساء والأطفال في وضح النهار، تحت أعين الشرطة، دون أن ينبس أحد ببنت شفة!

قبل يومين، وكنت أشعر بنوع من الضجر غير العادي، قلت لمضيفتي الأمريكيّة: ما رأيك أن نخرج إلى شوارع واشنطن العامرة، نستريح من هدوء بتوماك القاتل! قالت جوديت: هيّا بنا! في بيثسدا أفنيو، انتبهت إلى أن الساعة قاربت الثانية عشر ليلاً! قلت لصديقتي محاولاً التغلّب على إحساسي بالخوف: لن ننزل من الجيب!

أفضّل البقاء فيها! نظرت المرأة القويّة إلي؛ وقالت: كم أنتم تخافون، يا سكّان الشرق الأوسط! مشيت قربها وهي تدمدم: هذه الغاليري تذهب إليها صديقتي اللبنانيّة! جميلة؟ كلّ بضاعتها إيطاليّة!! لكنها غاليّة تماماً! اللبنانيّون، كما تعلم، يحبون "الشو أوف!!" بالمناسبة: ما رأيك أن نأكل فلافل عند اللبناني جورج في شارع جورج تاون؟؟؟

الغريب أن واشنطن دي سي ممتلئة حتى التخمة بالأفارقة الأمريكان! في كلّ مكان تجدهم! في جورج تاون، كثيراً ما ترى أسود وزوجته البيضاء: أو العكس! امتزاج الأعراق والأديان في هذا البلد أمر أكثر من ملفت! حين تحدّثت إلى صديق العمر، ريك ساسي في أرلنغتون، دالاس، سألته عن ولديه، نك وكيري؛ قال: نك تزوّج أمريكيّة من أصل فليبيني أمها من هاوايي؛ كيري تزوّجت كندي من أصل ألماني أمه هولنديّة: ريك، بالمناسبة، من أسرة سوريّة الأصل، أمه أرمنيّة وزوجته هنديّة حمراء . كولين!

بالمقابل، فإن من يرى ويسمع أحاديث أخوتنا اللبنانيين المتحضّرين للغاية، دعاة حقوق الإنسان، مثل الكائن المدعو نعمة بعل زبّول أبي النصر، عن السوريين، يتمنى لو أن الله لم يخلق العرب! والسوريّون عموماً، في نظرتهم إلى شعوب أخرى، كالأكراد والغجر والفلسطينيين، ليسوا أقل عنصريّة من نعمة بعل زبّول هذا! بل في سوريّا نظرة إلى النازحين السوريين من قرى الجولان لا تقلّ عنصريّة عن نظرة كيب تاون في عز الأبارتيد إلى نلسون مانديلا!!!

بأية حال: عزاؤنا الوحيد، ونحن نرى أشكال الإيمان المغرقة في حضارتها في واشنطن، حيث يتعايش الكنيس والكنيسة والمعبد الهندوسي أو البوذي بأمان ودون تعصّب، أن الله . كما قلنا في مقالة سابقة . لم يخلق العرب!

ملاحظة: أتمنى حذف التعبير السامي "الله" من كلّ الأسماء العربيّة! وأولهم، نعمة بعل زبول! قبل أن يأخذه إليه إلهه!

نبيل فيّاض . من الطائرة التي تقلّنا إلى وفاء وبسّام في كاليفورنيا.

المفتي الحرامي.. صهيب الشامي

www.annaqed.com

نبيل فياض، واشنطن، 3 إبريل 2005

أما السيّد مصطفى ميرو [وقد ورد عند التيفاشي، قاضي **الأنكحة** في أيامه، أن اسمه مصطفى بيرو، لكثرة ما أعطى الناس – بالمصاري طبعاً – رخصاً **لحفر** آبار في محافظة حلب الشهباء، وقت ألزموه متصرفيتها]، فقد لقّب، رضي الله عنه وأرضاه، بالإسفنجة!!! لأنه يمتصّ كلّ شيء!– ياروحي! وبعد أن امتص متصرفيّة حلب وإدلب والمناطق المجاورة، جاءوا به، وهو التلّي، يعني من بلد العجيبة الثامنة، عبد الله الأحمر، كي يصبح الباب العالي لعموم بلاد سوريّا!!! وهكذا، مصّها من القامشلي إلى الرمثة: ولم ينفذ بجلده غير أهالي مجدل شمس والغجر ومسعدة وبقيّة قرى الجولان المحتل: بتعرفوا ليش؟؟؟

الكارثة الكبرى أن أحد الواردة أسماؤهم في الليستا إياها هو مفتي متصرفيّة حلب، الذي كان مرشحاً – واذلاه – لأن يكون مفتي الديار الشامية قبل أن يحتل المنصب وهبة الزحيلي بدعم من ابن بلدته دير عطيّة!!!

صهيب الشامي: كنت أعتقد أنه اسم لأحد الصحابة! صهيب؟؟؟ وهل هنالك أحلى من أن يكون اسم واحدنا صهيباً!!! اسم مسكون بالعزة والأنفة [لا أعرف ماذا تعني لكن دائماً كان شيخ من جيراننا يرددها أمامي] والكبرياء والسؤدد!!! والله؟؟؟ الشامي الذي يسكن حلب! لقد جمع المجد من ساقيه. صهيب الشامي: كم كان منظره رائعاً، ملفتاً، حضاريّاً، وهويتحدّث عن عظمة [دون تسكين الظاء] الإسلام وأمانته وكرمه وإخلاصه!!! تماماً مثل المسيو نضال زغبور، صاحب البرنامج الشهير في التلفزيون الأكثر متابعة في المجرّات الشمسيّة وغير الشمسيّة: تي في الجمهوريّة العربيّة السوريّة من ساحة الأمويين، لصاحبته أم عمّار!!! ليست سها عرفات يا ذكي! كم كان مثيراً للشبق شكل عمامته التي لا تشبه شيئاً غير دش جارتنا أم رياض، الذي ركّبه لها زوجها حتى لا تمل في غيابه: الصراحة أن أم رياض لا تملّ، لأنها لا تشعر به لا في غيابه ولا في حضوره. وقديماً كانت جارتنا البعثيّة، أم ماجد الحلموشي، تقول، في حكمة قوميّة عزّ نظيرها: إن غاب سيدي وإن حضر، رجلين ستي أربعة!

كان الأهم في صهيبا تلك العنجهيّة التي تميّز حديثه على الرائي تبع أم عمّار!! وكما قالت الكبيرة ماريّا في معلقتها الأرمنيّة، كان:

واثق الخطوة يمشي ملكاً ظالم الحسن، شهي الكبرياء

كان تلفاز الحراميّة يدهشنا به باستمرار! هذا قبل أن ينظر الله إلينا بعين الرضى والدش، ويغنينا عن تلك الكوارث! وكان ملفتاً سماحته أيضاً بتأكيده على ضرورة التحديث [يعني استعمال آخر ما ابتكره الماليزيون في علم النصب] في الدين، مع مراعاة الحفاظ على الجانب المشرق من تقاليدنا [يعني الرشوة واستخدام التأسلم لبلف العباد..]!

لماذا لا نتحدّث عن هؤلاء اللصوص بلغة جديّة؟ لأن الجديّة تعني، حتى في حالات النقد الأعنف، شيئاً من الاحترام! وهؤلاء لا يستحقون حتى أن يحتقروا! الأدهى أن بيرو أو ميرو أو طيرو – أنت وذوقك – كان يشارك العمّال السوريين عيدهم بعد الفضيحة مباشرة! دون أن يرف له جفن!

من سيحاسب؟ نحن نعمل المستحيل للدفاع عن سمعة سوريّا في الخارج: فترفع لنا ورقة بيرو وشيخه الحرامي – وبقيّة البوطة!

من سيحاسب؟ متى سيحاسب هؤلاء؟ متى ستتنقى سوريّا من أمثال هؤلاء؟

إذا كان المفتي الذي يفترض أنه ضمير الوطن لصّاً: فماذا سنقول عن عامة الشعب؟ إذا كان المفتي–القدوة حرامي، فمن سيعيق الناس العاديين عن السرقة، إذا توافرت لهم الظروف؟

حسبنا الله.. ونعم الوكيل!!!

مجلة "الرجل اليوم" ولقاء مع نبيل فياض

www.annaqed.com

اللقاء التالي أجراه السيد عساف عبود عن مجلة "الرجل اليوم" الإماراتية مع نبيل فياض. المقابلة نشرت على دفعتين في المجلة المذكورة وقد وصلتنا عن طريق السيد فياض لنشرها في منبره على "الناقد"

****

عساف عبود: مجلة الرجل اليوم الإماراتية . عدد نيسان 2005

في كل مرة يتحدث فيها نبيل فياض للصحافة لا بد ان يثير الزوابع ويصبح حديث الاوساط السياسية والثقافية والفكرية والدينية في سوريا وخارجها فهو معروف بنقده الواضح والصريح للفساد، ومعروفة ايضا حربه المعلنة على الاصولية والطائفية التي يراها متفشية بشكل مريع في المجتمع، حتى انها وصلت الى افكار حزب البعث الحاكم في سوريا في تناقض يراه مؤشراً خطيراً لسيطرة الفكر المتطرف في كل مكان.

مؤخرا تم توقيف فياض لمدة 33 يوماً من قبل اجهزة الامن السورية، وهو امر اثار زوبعة صغيرة معتادة ولكنها كبرت وتضخمت واعتبرها البعض هزلية، عندما اصدر بياناً عقب اطلاق سراحه يشكر فيه اجهزة الامن على احتجازه وعلى حسن معاملته.

في حوارنا معه بدأنا من هذا البيان لننطلق الى مناقشته في امور اكثر سخونة تتعلق بالوضع الداخلي في بلد بات على اجل.

س . ما مبرر اصدارك بياناً تمتدح فيه اجهزة الامن بعد خروجك من السجن؟

ج . السبب بسيط: كان كمّ المقالات التي تناولت مسألة توقيفي غير عادي، بما في ذلك بعض ما نشره الاخوان المسلمون السوريون! كان ثمة من يريد ضرب النظام بعصا توقيفي وهذا ما ارفضه قطعا. الوضع السوري ليس في افضل حالاته عموما وانا لا اريد ان ازيد الطين بلة. مع ذلك اشدد على القول ان التعامل معي من قبل جماعة الامن السياسي كان اخلاقيا الى درجة اللامعقول.

س . هذا يناقض كلامك لصحف كثيرة من انك اوقفت دون جريمة؟

ج . جريمة ماذا؟ هل ثمة من اخبرك انني ادخل لحم بقر مجنون من لبنان مثل مافيات الفساد لابيعه في علب المارتديلا؟ هل هنالك من اخبرك انني رغم راتبي الذي لا يتجاوز 400 دولار شهرياً امتلك فيلا ثمنها لا يقل عن 4 ملايين دولار؟ هل ثمة من حدثك عن دخولي في شبكات التهريب المنظم والمخدرات المنظمة والرقيق الابيض الشرعي؟ اذا كنت اول من اشاد بمن اوقفوه . وهؤلاء مثلي يخضعون لسواطير الفساد ذاته . لانهم كانوا اخلاقيين في توقيفه فانا افتخر ايضا بكوني اول من اوقف في سورية لنقده الاعنف للفساد والطائفية والاصولية على حد سواء. توقيفي في اعتقادي كشف العورات كلها: فمن ناحية اثبت ان الفساد والاصولية ما زالا صاحبي اليد الطولى في البلد رغم الاخطار الخارجية الهائلة التي تلفنا من كل الجهات، ومن ناحية اخرى اظهر ان حديث السياسيين السوريين عموما، عن الديمقراطية هو "حديث خرافة يا ام عمرو". بالمناسبة واصر هنا على موقفي فقد اثبت رجالات الامن الذين اعرفهم على الاقل انهم اكثر ديمقراطية وحضارة وانفتاحا من رجالات السياسة..

س . هل نفهم من كلامك وكأن عملية التوقيف تمت بشكل ارتجالي غير مدروس؟

ج . لا! اعتقد ان توقيفي اراح قطعان الاصولية التي تجتاح سوريا كالطاعون وركام الفساد الذي لا يهمه حتى لو انهار الوطن بسبب عوامل "الحت" الداخلية والخارجية. اقولها بكل اسف، الاصولية تعتقد ان سوريا "سُرقت" منها لهذا فهي لا تمانع ان يُعاد اليها ما سُرق حتى وان تم تخريبه.

س . قلت معاملة جيدة وتوقيف دون تهمة، كيف تفسر الموضوع؟

ج . تناهى الي مؤخرا ان احد المسؤولين الكبار انزعج من احدى مقالاتي في جريدة كويتية وهكذا تم توقيفي بما يرضيه ولا يسيء الي!

س . هنالك الكثير من المعارضين المقيمين في سوريا يتكلمون بشراسة اكثر منك ولا احد يحاسبهم. ما تفسيرك للموضوع؟

ج . انا انصح بقراءة ما كتبه الباحث الاميركي (جوشوا لاندس) في موقعه نقلا عن مسؤولين سوريين واقتراحاتهم باسلمة حزب البعث . على طريق غير المأسوف عليه المجرم صدام حسين في اخر ايامه . كي يصل الى الجماهير اكثر، كما انصح بقراءة ما نشرته بعض الجرائد الخليجية الليبرالية حول فضائح آل خدّام الذين لم يخدموا غير انفسهم! كم سيبدو الوضع مأساويا حين نعرف كنه "الالهة" التي نتشفع بها قسرا منذ خمس وثلاثين سنة. بالمناسبة لم يكتب احد بجرأتي لا في الداخل ولا في الخارج. مهمة المثقف هذه الايام قاتلة، خاصة وهو يرى الوطن ينهار ويكره اخذ دور الشيطان الاخرس

س . لكن هنالك من هم اجرأ منك؟

ج . من هم ؟

س . لا اريد تقديم اسماء لكن بالنتيجة ثمة اناس يتكلمون عن الاوضاع الداخلية السورية وعن التطوير وضرورة التحديث والخروج من حالة الفساد دون ان يعتقلوا ثلاثة وثلاثين يوما؟

ج . اعتقد ان دور التيار الاصولي محوري ولا اظن ان حلقة خدّام بعيدة كعقلية عن هذه الاصولية

س . انت تتكلم الان في مسألة التيار الاصولي: برأيك، هل هو قادر ان يصل الى مرحلة يفرض نفسه فيها على مؤسسات الدولة ؟ وهل يعقل ان تعتقل دولة باحثا لا هم له سوى مواجهة الاصولية حسب قولك؟

ج . لا شيء بمستغرب عن التيار الاصولي! اليس في تقاليدهم قتل شاعر لمجرد كتابته قصيدة لا تتماشى مع المتعارف عليه؟ اليس في تقاليدهم فسخ عجوز اسمها ام قرفة نصفين لامور مشابهة؟ اذا كان التيار الاصولي بلا عقل هل يعقل ان تفقد الدولة عقلها اذا ما ارادت عقد قرانها "العرفي" عليه؟ الامر اكثر من خطير، خاصة اذا ما عرفنا ان الولايات المتحدة التي ترتجف خوفا كل يوم من صواريخ وزير خارجيتنا الاسرع من الصوت تضع في حساباتها تصفية الاصولية الاسلامية مع كل حواشيها في الامن! كان الامر برمته مسرحية سمجة! قيل لي اني كوّنت (كذا) تنظيما اسمه التجمع الليبرالي في سوريا. تجمّع استثني منه الصديق جهاد نصرة ورفيق الزمن الطويل الياس حلياني واستاذا جامعيا درزيا، مشكّل من مخبرين بدرجة مثقفين، يخيف الدولة، في حين ان تنظيما نسائيا ارهابيا نسبيا اسمه "القبيسيات" يعمل دون كلل ولا ملل على تحويل نساء السنة في بلاد الشام الى دجاج طائفي غبي، يضم عشرات الالوف لا يجرؤ احد على مسّ شعرة من رأس امرأة منه. حين كنت موقوفاً تناقشت مع ضابط امن بيني وبينه ما صنع الحداد في مسألة القبيسيات، فقال: حين تجرأ الامن على استدعاء قبيسية انهالت الهواتف على الجميع وعلى اعلى المستويات فتم الاعتذار منها وربما ايصالها الى المنزل على سجادة حمراء.

في التجمع الليبرالي كنا مجموعة تنتمي الى الطيف الديني السوري بمعظمه: سنة، علويون، دروز، مسيحيون.. وكنا نضع امام اعيننا هدفين لا ثالث لهما: محاربة الطائفية ومحاربة الفساد. القبيسيات بالمقابل كمؤسسة تكفيرية

طائفية متحجرة اخطر على مستقبل سوريا من ارييل شارون! عندما يسيطر التيار الاصولي على عقول السوريات المستلبات اصلا فانه يضمن بالتالي وضع الجيل كله في جيبه! هؤلاء الصغيرات التكفيريات اللواتي هن المعول الابرز الذي سيعمل عاجلا ام اجلا على تحطيم الموزاييك الوطني. وتأجيل الدولة للانفجار لا يمنعه.

س . إلام تعيد هذه الردة على مستوى التطرف الديني او السياسي في سوريا؟

ج . لقد كتبت قبل مدة مقالة بالانكليزية عن هذه المسألة. باختصار شديد اقول: ابحث عن البعثيين! لقد اقفل البعثيون كل الابواب امام التيارات الديمقراطية الليبرالية الفعلية وتركوا الساحة مفتوحة بالكامل لمرضى التعصب والطائفية من امثال محمد سعيد رمضان البوطي الذي عُمّم بابهة ابوية من قبل رئيس جهاز امن سابق. وهكذا لم يكن امام المواطن السوري غير خيارين: البعث الموشوم بالانتهازية والاصولية التي تقدم ذاتها كذبا على انها خلاص الدنيا والاخرة. "فدخل قطار الوطن كله في الحيط"

س . والجبهة الوطنية التقدمية التي تضم احزاب لماذا ابعدتها؟

ج . الجبهة مقفلة منذ عام 1973 والتقدم مناط بالشاب العروبي المتقد محمد سعيد البوطي والطفلة المعجزة منيرة القبيسي! لقد كانت الجبهة تضحكنا الان صارت تثير اقياءنا. مجموعة تعود الى زمن "الطوهو بوهو"! مجموعة صبيتها المدللة الرفيقة وصال فرحة! مجموعة تنقسم باراميسومياً كقدري جميل الذي طلّق حرمه المصون وفتح حزبا لان حماته فضّلت ابنها عليه! مجموعة لا هم لها سوى المرسيدس والامتيازات ومجلس الشعب (هكذا اسمه) ماذا تستحق برأيك يا عزيزي؟

س . ثمة من يقول ان شهادتك مجروحة بالنسبة للتيار الاصولي فكتاباتك السابقة عموما كانت هجوما كاسحا على كل ما هو ديني. هل البلد ذاهب فعلا باتجاه التطرف الديني ام المسألة تنظير خاص بك؟

ج . البلد ذاهب! ما هذا السؤال الاغرب! لقد ذهب البلد!! الا ترى يا صديقي كمّ النقاب بين النساء السوريات بعد ان انتهى البوطي وقبيسيته وآل كفتارو من الحجاب؟ الا ترى كم الطفلات المحجبات امام مدارس حلب الابتدائية؟ هل مررت يوم جمعة امام مساجد دمشق ولاحظت الملايين الزاحفة بالابيض نحو منابر الاصولية في عاصمة الصمود والتصدي؟ هل ذهبت يوما الى جامع بلال الدمشقي وسمعت المعزوفات النشاز برعاية الدولة الحكيمة؟ الوجه الاخر للكارثة هو البعثيون! فمتحف الشمع المسمى بالقيادة القطرية يحظر كالسنهدرين أي فكر نقد ديني ويفتح الابواب امام كل ما هو نقلي. باختصار نحن نسير في خطى المرحوم المؤمن جدا انور السادات. "ومن جرّب المجرّب كان عقله مخرّب" كما يقول المصريون. بالمناسبة: لماذا لا تصدر القبيسية اياها فتوى بتحجيب الرجال الوسيمين استنادا الى حاشية المتحفي ابن عابدين؟! نسيت انها شافعية. لكن الشوافعة كما يقال يبيحون الزواج من الابنة غير الشرعية.. سأسكت!!!

س . لكن البعثيين يطرحون الان عملية تطوير للنهج الفكري والحياتي والتنظيمي؟

ج . البعث في زمن العولمة والصواريخ العابرة للقارات ورحلات المريخ يمشي كالسلحفاة المصابة بالاسهال. الجميل انه بعدما اطار صدام اياه العروبة بغزوة الكويت وسقط بعده الاتحاد السوفييتي وبقية الكتلة الاشتراكية ما يزال يتمسك باسمه التقليدي: العربي الاشتراكي. على فكرة الا تجد في اسم "بعث" نَفَساً اصوليا؟

س . انت تمنع على البعث حق تطوير نفسه؟

ج . ليطور نفسه كما يشاء شريطة ان يبعد عنا. ان يتركنا نعمل بنقدية تطويرية. لكن برأيك قل لي: هل حزب بعث 2005 هو ذاته بعث 1950؟ حزب البعث اليوم مليء حتى التخمة بانتهازية الوهابية والاخوان والاصولية. في منطقتي، البعثي وهابي في المنزل حتى الصميم!!

س . لكن الا تعتقد معي انها خطوة ايجابية اولى من القيادة السورية حين تطرح تطوير حزب البعث عندما رأت انها بحاجة الى ذلك؟

ج . هم احرار في تطويره في تغيير اسمه في حذف الاشتراكية في برامجه وشعاراته! كل ذلك لن يجدي نفعا لانهم فقدوا مصداقيتهم عند الناس عموما! المهم ان يتركوا غيرهم يعمل!

س . هل نستطيع اعتبار هذا جزءا من ردك على حلّ التجمع الليبرالي الذي حاولت تأسيسه؟

ج . لا، جهاد نصرة حل التجمع حين اوقفت لانه اعتقد انه بذلك سيسحب من الامن ذريعة اعتقالي. ما لا تعرفه ان مخبر الامن الطبيب ذهب الى الياس حلياني واقنعه بالمسار الليبرالي فاعتقل الياس هو الاخر!!! الم اقل لك انهم في الدولة لا يريدون غير القبيسيات والاخوان..

س . هل يمكن ان تعيد تأسيس التجمع؟

ج . حتما!

س . هل طلب منك اثناء التوقيف ان لا تتعاطى الشأن السياسي؟

ج . على الاطلاق

س . هل طلب منك ان تتراجع عن طروحاتك تجاه التطرف الديني؟

ج . اطلاقا!

س . يقول بعضهم ان عملية سجنك كانت لتلميع صورتك واخراجك بطلاً ؟

ج . هذا هراء شيوعي الاعتقال لم يغير بي شيء

س . لم يغير شيئا ولم يُطلب منك شيء؟

ج . على الاطلاق!

س . هل فعلا حدث ما تكلمت عنه في بيانك كمسألة تقديم الحليب بالفريز لك خلال توقيفك والتي وصل نقد بعضهم لها حدود الكاريكاتيرية؟ فهل تطورت الاجهزة الامنية الى هذه الدرجة ؟

ج . اولا: ما قلته كان جزءا من الحقيقة ولو تحدثت بالتفصيل لاتهمتني بالفانتازيا الامنية. لو اخبرتك ما كان يحصل بيني وبين السجانين من تواصل انساني لقلت اني اعمل "بروباغندا" مجانية للنظام. بالمقابل لم اسجن فعليا حتى اعرف الوضع العام في سجون الامن السوري. ما اعرفه من علاقتي الخاصة بقلة من ضباط الامن السوري لا يشير الا في اتجاه التفاؤل.

س . هل حمتك علاقاتك هذه اثناء توقيفك من أي ازعاج؟

ج . اعتقد نعم!

س . رغم ما طرحته في بيان تأسيس التجمع الليبرالي من تمسك بالوطن وحب للوطن الا ان احدى الصحف الكويتية نقلت عنك انك لا تريد البقاء في سوريا ساعة واحدة وانك مستعد لان تهاجر اليوم كيف نحلّ هذا التناقض؟

ج . اهم ما اثبته لي التوقيف اني كنت اعيش وهما اخذته عن السوريين القوميين اسمه (سوريا وطن الحرف)! سوريا: وطن الحفر! سوريا وطن الاصوليين وتجار لحم البقر المجنون! سوريا بلد الرشوة والسياسيين الذين لا يرون ابعد من انوفهم! سوريا بلد العدمية. طبعا احب ترك هذا البلد مرة والى الابد. لم اعد اتحمل الاصولية التي تفقسها بعض الدولة كل يوم. عرض علي الهجرة الى غير مكان لكني لست مستعدا لان اترك من وضع مستقر الى حد ما ماديا وان كان غير مستقر امنيا الى وضع ابدأ فيه من الصفر. على اية حال اصدقائي في الولايات المتحدة جادون هذه الايام في مساعدتي على المغادرة الى وضع مقبول.

بالمناسبة لقد عملت منذ عام 1999 على تأسيس مركز بحوث، وعملت كعادتي بجدية تفوق المعقول وكان عملي تبرعا بالكامل من قبلي، مع ذلك فهذا كله لم يشفع لي ويمنع بالتالي توقيفي!

س . وبماذا كان يهتم مركز البحوث هذا؟

ج . بالشؤون البحثية الاسرائيلية. على فكرة لو كنت عملت هذه المدة لصالح ال CIA بالاجر لاقامت الدنيا ولم تقعدها على توقيفي بسبب مقالة تطال بنى ايلة للسقوط!

س . ذكرت مرة انك لا تقترب من الاعلام السوري وانه لا يوجد مثقف يحترم نفسه يمكن ان يقدّم ما لديه عبر هذا الاعلام، وذكرت ايضا انك كتبت في الاعلام اللبناني، اضافة الى عملك الحالي عبر نوافذ كويتية وقطرية. لكن بيانك والردود عليه نشرت في الصحف السورية! هل هذا يعني ان قناعاتك تغيرت في الاعلام السوري خاصة بعد وصول الدكتور مهدي دخل الله الى وزارة الاعلام، التي شنيت على وزيرها السابق احمد الحسن، اقذع هجوم شنّ على وزير اعلام سوري في تاريخ هذه الوزارة؟

ج . قناعاتي لم تتغير بالاعلام السوري. الدكتور دخل الله ليس نادرا في تاريخ الاعلام السوري بل نادر في تاريخ الوزارات السورية. ربما ان الدكتور دخل الله يمتلك مشروعا في غاية الحضارية لكن هل توجد بحوزته الوسائل المعرفية لتحقيق هذا المشروع؟ لا ادري! هل يستطيع ازالة الخراب الذي احدثه السابقون؟ هل يستطيع اخراج المافيات من الاروقة؟ هل يستطيع التحليق دون مثقفين لا ادري!!

س . لكن الا ترى ان ما قام به الاعلام السوري في مرحلة توقيفك وبعدها من خطوات يمكن اعتباره مبادرة اولية؟

ج . لا شك ان سقف الحريات ارتفع قليلا صحفيا في المدة الاخيرة لكن المسؤول الاوحد عن ذلك هو وزير الاعلام الحالي لانه لا يوجد ما هو جديد في دنيا الاعلام السوري غيره. مع ذلك اصر على ان الوزير وحده لا يستطيع ان يقوم بالمهام كلها.

س . يقول بعضهم ان كتاباتك المتعلقة بالفكر السلفي الاسلامي ومؤسساته تهدف الى اخراج الاسلام من القيود البالية واطلاق روحه السمحاء للعالم لكن الواقع يقول ان هجومك كان علمانيا استئصاليا وانك لا تشبه، وان اختلفت المواقع، غير الفكر السلفي الاستئصالي الذي تنتقده! هل تعتقد ان مثقفي سوريا وتياراتها السياسية اطراف فاقدة للغة الحوار؟

ج . سوف نبدأ من الاخر. العلمانية الاستئصالية مصطلح جزائري روّج له في محاضرة الدكتور برهان غليون. ليس هنالك الان علمانية استئصالية! العلمانية حيادية حيال الدين الذي يبدو انه المقصود بالاستئصال.

بالمقابل، لا اعتقد ان الوقائع المعاشة غير المتخيلة تقول ان هنالك اسلاماً غير استئصالي الا في حال اعاد الاسلام تفسير النصوص وفق العصر على طريقة الدكتور محمد شحرور. اسألك هنا: بالمعايير الفقهية الدقيقة من اكثر اسلاما: المنفتح (كما يقال والامر غير صحيح) الشيخ يوسف القرضاوي ام طالبان؟ اذا كان القرضاوي اصح فقهيا لاقنع طالبان بعدم تفجير تماثيل بوذا. الاسلام الصحيح بالمعايير الفقهية الدقيقة طالبان فحسب. من تجربتي مع المشايخ في سوريا استطيع القول ان قصة الاسلام المعتدل تنتمي الى عالم الميثولوجيا ليس الا. اتذكر حين حاولت بدء حوار مع الشيخ محمد سعيد البوطي عبر كتبنا المتبادلة: ماذا كانت النتيجة؟ لم يترك فرع امن يعتب عليه الا وحاول تشويه صورتي فيه. بالمقابل فقد قام ابن المفتي الراحل بزيارة الامن الداخلي لاخبار رئيسه باني ماروني متشيّع (كذا) قادم لخلق فتن بين المسلمين. وتصور بالتالي كمّ الاستدعاءات التي كانت تأتيني! البوطي تحديدا حين اصدر كتابه (هذه مشكلاتهم) قمت بشراء 100 نسخة من هذا الكتاب من دار الفكر ووزعتها على معارف بمن فيهم رجال الدين المسيحي واليهودي دفعا للحوار الى الامام. هم لا يريدون الحوار لانهم يقفون على رمال متحركة ونحن نقف على صخور اثبت من الزمان .

س . هل يعقل ان كل رجال الدين المسلمون في سوريا غير قابلين للحوار؟ هل يوافقك الدكتور محمد شحرور في ذلك؟ وهل صنفوا الرجل تصنيفك اياه؟

ج . كل رجال الدين المسلمين السنة في سوريا معادون للحوار. قد يوافقني الدكتور شحرور قناعاتي، لم يسبق وتحدثت معه في المسألة لانها محسومة بالنسبة لي. اما التصنيف، فاعتقد ان الشحرور بنظرهم اسوأ مني: فانا علماني كافر واضح الهوية؛ الشحرور بالنسبة لهم متمركس يدعي التأسلم، وهو ليس كذلك قطعا.

س . لا يوجد حوار ايضا مع الدكتور شحرور؟

ج . لا اعتقد!

س . لماذ برأيك؟

ج . كما سبق وذكرت لان اسسهم المعرفية اوهى من ان تتحمل الحوار الموضوعي. لقد سبق ودعيت الى لقاء مع البوطي من قبل طرف اسلامي يدعي الاعتدال وكان ردّي ان البوطي لن يأتي لانه يعرف حدوده وحدودي ولم يأت. هؤلاء جماعات كتاتيب لا علاقة لها بالعصر لا من قريب ولا من بعيد!

س . هل يعقل ان كل ما يطرح حاليا من فكر اسلامي ليس اكثر من محفوظات دون قواعد فكرية؟

ج . الفكر كي يتطور يجب ان يكون نقديا والا لتحوّل في حالة المسلمين النقلية الحالية الى حالة متحفية مومياتية، جسد ميت سريريا ينتظر قرارا رسميا بإباحة الموت الرحيم! اذكر مرة، وكنت احاضر في دمشق حول مصادر البخاري في التلمود، سألت: كيف يمكن حل تناقضات البخاري حين يقال مرة ان النبي قال لفاطمة ابنته: فاطمة بضع مني فمن اغضبها فقد اغضبني, ثم يقول بعدها: ماتت فاطمة غاضبة على ابي وعمر، ليقول بعد ذلك نقلا عن النبي: من مات مخالفا امام زمانه مات ميتتة جاهلية! فوقف شاب ملتح وقال: حل التناقض سهل، فاحيانا يكون النبي غاضبا واحاديثه هنا يجب ان لا نأخذ بها، واحيانا يكون في وضعه العادي واحاديثه هنا معتمدة.

هؤلاء اشخاص سطحيون ليس باستطاعتهم مناقشة تراثهم بموضوعية فكيف بمناقشة من امضى عمره في دراسة تراثه وتراث الاخرين كالمسيحيين واليهود والزرادشتيين. هؤلاء اوهى من ان يحاوروا، وكشف ضحالتهم الفكرية اكثر من سهل. خطأ الدول ان تتعامل معهم كما حصل في سوريا واظهارهم بانهم اصحاب قضية.

س . موقفك العدائي لم يقتصر على الاصوليين بل طال الطرف الاخر أي التيار الشيوعي عموما.

ج . الطرفان يمتلكان الاسس ذاتها: التوتاليتارية ورفض الاعتراف بالاخر ومحاربة التعددية وحق الاختلاف.

س . الفكر الشيوعي الماركسي الجدلي لا يؤمن بالاخر؟

ج . طبعا. اين تعيش انت؟ هل نسينا التجربة السوفييتية وبقية الكتلة؟ باختصار الشيوعي قدري جميل والاسلامي محمد حبش وجهان لعملة واحدة!

س . لقد حاولت التأسيس لتيار ليبرالي كانت لبنته الاولى "التجمع الليبرالي في سوريا" لكن جورج كتن يسأل في "النهار" يوم 2004/10/11: (هل تنجح الليبرالية في بلد مثّل سوريا؟)

ج . سوريا متخلفة لان الغالبية فيها من السنة الاصوليين لكن الشعب ليس متخلفا كله. هنالك جزر حضارية في سوريا تضاهي السويد والدنمارك. الدولة متخلفة لانها متحالفة مع الاصوليين لكن ليس الشعب كله على نسق قدري جميل ومحمد حبش. سوريا بلد الطاقات الكامنة الهائلة، (امنع عنا اذى الاصوليين واعطنا حرية وانا كفيل بانتقال سوريا الى مصاف اكثر الدول تقدما).

س . محمد عابد الجابري يقول: هل يمكن ان تنجح الليبرالية في البلدان المتخلفة التي تفتقر الى طبقة بورجوازية متقدمة؟

ج . ومن قال لك ان سوريا تفتقر الى طبقة بورجوازية متقدمة؟ اذكر من اجواء الطفولة ان البورجوازية السورية الوليدة كانت هامة قبل الناصرية، مع ذلك البورجوازية ما تزال موجودة وان على نطاق ضيق. كارثة ان تعتبر هؤلاء المحدثي النعمة الجدد (بورجوازية سورية)!

س . لم تترك احدا في الموالاة او المعارضة الا وانتقدته الشيوعيون ينقسمون كالباراميسيوم مع كل اوكازيون، الناصريون قلة اصولية، السلفيون استئصاليون، البعث انتهازي شبه منته. ما البديل بنظرك؟

ج . في البلد اقليات بديلة كثيرة!

س . لا اريد حديثاً مغمغما عن اقليات! اريد فكرا بكادر محدد اعرف ما ستقوله تماما نظام مخلخل، بعث انتهازي مهترئ، تيارات اصولية تجتاح المنطقة بصيغ وهابية واموال وهابية، تيارات ماركسية متكلسة لا تستطيع كسر اصدافها، جماعات مجتمع مدني تصب حقدها على النظام في صيغ براقة. اين الملجأ؟ ما هي الرافعة التي لديها صدقية فكرية؟

ج . هنالك الكثير من الافراد الديمقراطيين الليبراليين اللاطائفيين الذين يبحثون عن لحظة حرية. عندما اعلنت عن انشاء التجمع الليبرالي الذي لم يكن حزبا بل تجمع ثقافي تحدث الي الاف الاشخاص من كافة ارجاء سوريا يريدون ان يكونوا معنا. اعطنا الفرصة وسوف ترى كم الطاقات الكامنة في هذا البلد. الدولة هي المسؤولة لكن الشعب كله سوف يدفع غاليا ثمن اخطاء هذه الدولة. ان اعتقالنا نحن الثلاثة انا وجهاد نصرة والياس حلياني: (انا صدق او لا تصدق من خلفية سنية شافعية، جهاد نصرة علوي، الياس حلياني مسيحي كاثوليكي) يكشف ان الدولة لا تريد غير الطائفيين. اذكر حين طلب مني المفتي الراحل احمد كفتارو الذي كانت تسوقه الدولة على انه "رب الاعتدال" وبحضور الشيخ زاهر ابو داوود اجراء حوار معه انهى "سماحته" اللقاء بعد السؤال الاول الذي طرحته عليه والذي يقول: هل تقبل ان تزوج ابنتك من شيعي او علوي او اسماعيلي؟ الدولة تريد هذا الصنف لانه يلغي العقل. هذا هو اعتقادي الراسخ! لكن الذي يفكر حتى وان كان يفكر بغير ما اعتدنا عليه افضل من الذي يعمل غرائزيا.

س . كتابك "مراثي اللات والعزى" اثار جدلا واسعا بسبب هجومك على رجال الدين المتشددين حيث انه يتهم هؤلاء بانهم مجموعات لا تسعى الى التطور اطلاقا. هل يمكن لهذا النهج الذي تسير عليه في كتاباتك ان يؤدي الى حالة حوار ام انه مجرد ثقافة استئصال؟ وما الفرق بينك وبين الطرف الاخر حين تجرّحه مقابل تجريحه لك؟

ج . "مراثي اللات والعزى" حالة فريدة ضمن مجموعة الكتب التي اصدرتها والتي كانت باكورتها "حوارات" الذي يدعو كما يشير اسمه الى خلق حالة حوار رفضوها كلهم. حين ارفض اسلوب تفكير الاخر الاصولي فرفضي لا يستجرّ ذيولا اجرامية. الطرف الاخر برفضه التكفيري للاخر لا يقف عند حدود السلبية في السلبية مع هذا الاخر بل يجرحه واذا ساعدت الظروف يقتله. هم باختصار مجرمون مؤدلجون: هذا كل شيء!

س . كثيرون يقولون انك محق فيما تكتبه من مقالات لكنهم بالمقابل يقولون انك تريد خلق حالة رعب عبر المبالغة في تصوير الانتشار الوهابي في الشوارع والازقة وانهم سيذبحون البشر ويقتلون الناس!

ج . انا لا اخلق حالة رعب: انا احكي عما حصل معي. هل تتصور ان طبيبا وهابيا من منطقة عملي تم توقيفه في الامن مع مجموعة من مساعديه لانهم كانوا يخططون لانهائي بالكامل عملياً وربما وجوديا؟ ارجع الى موقعي على الانترنت كي تعرف الاسماء وما حصل معي بتفاصيله!

س . ذكرت معلومات حول انتشار الوهابية في سورية وعن النقود التي يتم توزيعها في البلد؟

ج . لا اعرف غير مكان عيشي، منطقتي جيرود، حيث يتم توزيع نقود واذا اردت اعطيك اسماء. سمعت ايضا ان السلمية ذات الغالبية الاسماعيلية تعرف ازمة مشابهة.

س . هذا يتناقض مع ما هو حاصل على صعيد المنطقة حيث يبدو ان الانفتاح يقلّص دور المتشددين الاسلاميين؟

ج . انفتاح ماذا؟ هل تصدق ان محطات الرقص والغناء قادرة على التصدي للتشدد؟ فالدولة بالنسبة للناس فساد وعمالة ودكتاتورية في حين ان التشدد كما يقدم نفسه اصلاح واخلاق وتحرر من الغريب الاميركي. وهذا ينطبق على كل الدول الناطقة بالعربية. بل ان لبنان الذي يعتقد من يتابعه عبر محطاته الفضائية انه وطن الرقص والغناء والفن صار مأوى لكل من هو متشدد او تكفيري. الوضع كارثي صدقني.

س . في معظم مناطق العالم يتمترس المواطن خلف الدين عند مواجهة خطر خارجي. جورج بوش مثلا يطرح علنا امام كل العالم ان الله قال له ان اعمل كذا وكذا او انه ينفذ وصية المسيح؟ ومجموعة المحافظين الجدد تذهب الى الكنيسة ويمسك احدهم بيد الاخر زاعمين ان الله والمسيح يطلبان هذا او ذاك. ان اعظم دولة في العالم يقودها شخص من هذا الطراز وهو ما يعني اصولية دينية مسيحية. الاصولية الدينية ظاهرة في اميركا والغرب عموما فلماذا لا تأخذون منها الموقف ذاته الذي تأخذونه من الاصولية الاسلامية في سوريا؟

ج . لان الاصولية الاسلامية في سوريا سوف تؤدي الى تفكيك البلد ومن ثم دماره!

س . لكن المواطن عندنا لا بد ان يرى في تمترس رئيس الولايات المتحدة خلف الدين حربا صليبية على الاسلام؟

ج . هذا كلام غير علمي فأوروبا غير اميركا والصراع في اميركا بين المحافظين والليبراليين غير خاف على احد!

س . لكن رجل الشارع لا يعرف هذه التفاصيل؟

ج . هذه مشكلة الاعلام الجاهل المتخلف العنصري الذي يبدو محترفا في اجتزاء الحقائق!

س . لكن اوروبا الان تقبع خلف الاميركان؟

ج . علاقاتي الجيدة مع كثير الباحثين الاوروبيين تسمح لي باعطاء رأي ليس بعيدا عن الصواب! ربما في بلد كالسويد لا يصدق ان يكون هنالك تعصب للمسيحية! مع ذلك لا انفي وجود تعصب ضد الاسلام، والسبب هو المسلمون انفسهم. فالتعصب الاسلامي خلق حتى بين اكثر الاوروبيين تسامحا تعصبا ضد الاسلام.

س . لكن جورج بوش والمحافظين الجدد موجودون في كل اميركا قبل ظهور تيار الاسلام المتطرف؟

ج . اولا: انا اتحدث عن اوروبا المختلفة حضاريا عن اميركا لا عن الولايات المتحدة! ثانيا: تيار الاسلام المتطرف موجود على الدوام، الفرق هو الاضواء المسلطة عليه اليوم والثورة الاعلامية التي اتاحت للناس متابعة الاخبار للحظات من كافة ارجاء العالم!

ثالثا: يجب ان لا ننسى ايضا كيف استطاع الامريكان استغلال نزعة التطرف الاسلامي عن طريق تسليح انصارها لمحاربة الوجود السوفييتي في افغانستان وكانت نتيجة الحسابات الخاطئة طالبان والقاعدة والحادي عشر من ايلول سبتمبر.

ساضرب لك مثالا اخر، لقد عملت زمنا لا بأس به على تيار المؤرخين الجدد وحركة ما بعد الصهيونية وحركة المعادين للصهيونية في اسرائيل: هؤلاء شكلوا في مرحلة ما خطرا داهما على التيار الصهيوني في اسرائيل بل انهم سيطروا على جامعات هامة وغيروا المناهج الدراسية في اسرائيل. ورحنا نلمس مع حركة "شالوم اخشاف" تيارا سلميا قويا يهدد فعليا بالانقسام داخل المجتمع الاسرائيلي الذي كان يوحي انه متماسك. فجأة ظهرت حماس والجهاد الاسلامي وبدأت العمليات الانتحارية. وماذا كانت نتيجة هذه العبقرية؟ اجتاح اليمين المجتمع الاسرائيلي وتأوّج ذلك بوصول ارييل شارون الذي فرض اخيرا تصوراته حتى على حماس والجهاد بالذات. نحن شعب العواطف والحسابات الخاطئة.

زمن اسحق رابين استطاع تيار السلام اخراج 150 الف متظاهر في ما يسمى الان بساحة اسحق رابين في تل ابيب. من يسمع اليوم بشالوم اخشاف؟ اذا تنحى يوسي بيلين واستمرت حماس والجهاد في تلك العقلية لن نجد من يطالب بالسلام في طول اسرائيل وعرضها.

نحن الان في موقف ضعيف فلا كتلة سوفييتية ولا تماسك عربي واقطار سوريا الكبرى تتهاوى ضمن المشروع الاميركي: ليس امامنا سوى السلام الذي يشظي المجتمع الاسرائيلي. لمن لا يقرأ ليطلع فقط على اعداد مجلة "ازور" الناطقة بلسان صهيوني يميني متطرف ليعرف ذعر ذاك اليمين من السلام. السلام يجب ان يكون خيارنا في المرحلة القادمة. لقد فجروا مطاعم ومقاه وقافلات وقتلوا عسكريين ومدنيين لكن ماذا كانت النتيجة؟ هل هي في صالح القضية ام لا؟ ان من يرى كيف صفت اسرائيل رموز حماس في فترة قياسية يستطيع ان يحكم بسهولة على النتيجة.

س . هذا سيؤدي الى غياب حماس والجهاد الاسلامي وكل المجموعات الرافضة للحل السلمي مع اسرائيل التي بدورها لا تقدم الحلول على اطباق من فضة واخر ذلك الموقف من سوريا؟

ج . السؤال الهام: من الاقوى حاليا؟ والاقوى يفرض حلوله. لكن هذا لا يعني ان نكتفي بدور المتفرج لا بد من اضعاف الخصم وهذا لا يتم الا بالسلام. السلام ينقل المعركة الى داخل اسرائيل! لقد كتبت الباحثة الاسرائيلية "ميراف فرمسر" ذات مرة مقالة عنوانها "هل تستطيع اسرائيل الابقاء على تيار ما بعد الصهيونية" اظهرت فيها قوة هذا التيار والانقسام الصارخ بشأنه. اصوات السلام خفتت اليوم وربما صمتت لكن الافواه ما تزال حية ودورنا اعادة النطق اليها واول الطرق الى ذلك وقف التطرف الفلسطيني.

س . انت هنا تغيب العامل الاسرائيلي: تنسى التطرف داخل المجتمع الاسرائيلي وتعيد كل شيء الى حماس والجهاد الاسلامي؛ وسأعود هنا الى الموضوع الاساسي الذي طرحته في البداية فالتطرف واضح في الغرب تحديدا الولايات المتحدة. وفي اخر تصريحات بوش قال ان سوريا ضعيفة وعلى بشار الاسد ان ينتظر. قبلها كان بشار الاسد قد طرح مبادرة لتحريك العملية السلمية وكان الجواب الاسرائيلي على لسان بوش.. ما الحل؟

ج . الحل هو الالحاح على سلام قابل لان يُصَدّق.

س . هنالك من الطرف العربي من طالب بالسلام فقالوا: لا نريد! لذلك يجب ان لا نلوم الناس اذا ذهبوا الى حماس او الجهاد؟

ج . هل كان الطرح مقنعا؟ انا لا اتبنى موقف احد لكني لا افهم ان تطرح السلام وتعمل عندك اطراف معادية للسلام جذريا. يجب ان يُطرح السلام جديا ضمن شروطه الموضوعية المعروفة.

س . برأيك الى اين تسير المنطقة وهل التطرف يشظيها بمعنى تجزئة المجزأ وتفكيك المفكك كما قال البعض؟

ج . قبل مدة كتبت مقالة عنوانها: "الكانتونات السورية اللامتحدة" تحدثت فيها عن امكانية ان يفرط الموزاييك السوري بفعل التطرف، هذا مشروع رابين القديم! ان وجود دولة مسيحية واخرى علوية وثالثة سنية ورابعة شيعية يبرر وجود خامسة يهودية. التطرف يساعد الاسرائيليين على تحقيق كل اهدافهم.

س . يعني التطرف سيجتاح المنطقة ؟

ج . لقد اجتاحها وانتهى الامر. الاخوان المسلمون في مصر اكلوا الاخضر واليابس والسبب ان حلول الدول حتى الان امنية لا ثقافية: حلول ترقيعية لا جذرية. هل يعقل ان ترد على الاصولية السنية المتطرفة في سوريا بالمجيء بوزير علوي متشيع متطرف دينيا؟ التطرف لا يحارب الا بالنقد الداخلي الموضوعي وباعطاء مساحات متكافئة للجميع.

س . هل كل الاجراءات في العالم العربي لمواجهة الاصولية برأيك ساقطة ولن تنجح؟

ج . طبعا! لانها امنية: ولن تنجح؛ والحل بعلمنة الدولة!

س . هل يمكن للعلمانية ان تساعد؟

ج . حتما. في الغرب الباحثون والمفكرون العلمانيون هم الذين فتحوا الباب باتجاه النهوض والتقدم! السياسيون كانوا في الصفوف الخلفية! في سوريا ذات التعددية الواضحة الحل ليس في حزب البعث العربي الاشتراكي صاحب الرسالة الخالدة: الحل في علمنة الدولة.

(نهاية المقابلة)

الديمقراطيّة المعرفيّة: حول بيان الأخوان المسلمين الأخير!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 15 إبريل 2005

ولأنه في سوريّا من قلّة الخيل نشدّ على الكلاب السروج، فقد تفجّرت شبقاً تثاقفيّاً قوى ما يسمّى بالديمقراطيّة الوليدة، منطربة بسمفونيّة بيان الأخوان المسلمين الناقصة! بل في ظلّ الجري نحو المجهول–الحائط المسدود، الذي هو آخر صرعة في ديفيليه المعارضة السوريّة المحليّة، تنطّح محلّلون سياسيّون "مسيحيّون" [يخزي العين]، لتبيان حضاريّة إبستمولوجيّة البيان الأخواني الأخير الإرتقائيّة!!! ثم تنطّحت إحدى محطّات البترودولار، فاستضافت الأخ البيانوني لشرح الإيتمولوجيّا الميتافيزيكيّة للقاموس الديمقراطي السيّد–قطبي. وهنا، ذاب الثلج وبان المرج! وعدنا لقصص العلوي والسنّي والاسماعيلي، وحماة وإدلب ودير الزور وكوالا لامبور..إلخ!

نعرف تماماً أن النظام دموي قاتل إرهابي مخابراتي.. فهل كان الأخوان من الصنف الذي "القط يأكل عشاءه"؟؟؟ نعرف تماماً أن النظام قصف حماة وضرب الأخوان حيث ثقفهم، فهل تركهم هذا النظام في بريّة الله الخالية، وهم يصلّون مع الملائكة، واعتدى عليهم؟؟؟ نحن من حمص، وحمص "فشخة" عن حماة: وكلنا يعرف ماذا فعل الأخوان المسلمون في حماة قبل أن يضربهم النظام! كانت ردّة الفعل وحشيّة؟ قطعاً؛ لكن ما فعله الأخوان أيضاً كان أكثر من وحشي! أصابع النظام ملوّثة بالدماء؟ لكنّ أفواه الأخوان ما تزال إلى الآن تقطر دماً سوريّاً؛ ما تزال تأمل أن تمضغ أكباد الطوائف الصغيرة غير السنيّة: هل نذكّركم بأدبيّاتهم؟

نُلام كثيراً في الزمن الأخير على استخدامنا لمصطلحات مثل "علوي، درزي، سنّي، مسيحي.."؛ وكأن السوريين – ياحرام – لا يعرفون شيئاً عن ألفاظ كهذه؛ وكأن حمص واللاذقيّة وطرطوس.. غير مقسّمة طائفيّاً؛ وكأن دولتنا الحكيمة (قدّس) فرضت العلمانيّة والزواج المدني وكلّ ما له علاقة بالمدنيّة والتمدّن!!! نحن نستخدم هذه الألفاظ، لكننا لا نعيشها: لا نمقت شيئاً أكثر منها! نحن نفاخر أنه رغم انتمائنا "الإرثي" إلى الطائفة السنيّة، فنحن أكثر من انتقد الانغلاق المعرفي عند السنّة، مع معرفتنا الكاملة لعواقب انتقاد كهذا على كافة الصعد!

بعودة على بدء؛ نقول: في الفترة الأخيرة ظهر بورظانان للإخوان المسلمين في سوريّا الصمود والتصدّي: الأوّل اسمه حسن عبد العظيم، صاحب دكانة ناصريّة لا يوجد فيها منتج لم تنته مدته؛ والآخر اسمه هيثم المالح، صاحب "مول" حقوق–إنساني، كلّ البضاعة التي فيه.. مضروبة! والإثنان، لسوء طالعي، أعرفهما شخصيّاً!!! نبدأ من الثاني. فقد سمعت به مرّة من أحد معارفي، واعتقدت فعلاً أنّه من ينتمي إلى ثقافة حقوق الإنسان كما أعرفها في لبنان وخارجه؛ وكنت وقتها أتعرّض لمضايقات مزعجة من أخوتنا في أفرع الأمن الكثيرة [اللهم زد وبارك]! فاقترحت على الصديق الدكتور محمّد شحرور أن يتموعد لي إياه؛ وحين دقت ساعة الحسم، وجدتني في مكتبه في منطقة الحلبوني الدمشقيّة: وكان الرجل فعلاً قابض حاله جديّاً.. والله! بل لفت نظري عدائيته الشديدة لي – قيل لي لاحقاً أن العدائية طبعه ولا علاقة لي بالمسألة – التي تتناقض، كما علّمني اللاهوتيون، مع حقوق القطط! وتحملّته على مضض؛ لأني كنت بحاجة ماسّة لمن يقف بجانبي في هذه الأزمة القاتلة؛ وعوضاً عن تعاطف الرجل مع وضعي الأمني، تفاجأت به، مع شخص أقرع كان يرافقه أعتقد أنه علوي، يفتح النار علي بسبب مقالاتي العنيفة المعادية للإسلام!!! وصرت أشعر أني في أمسّ الحاجة إلى دوريّة أمن تنقذني من براثن الحقوقيين–الإنسانيين الكبيرين! بل راح يشن الهجوم على الأمن العسكري – وكأن خالتي كانت زوجة حسن خليل – الذي كان وقتها أوقف بعض الأبرياء الطيبين من التيّار الإسلامي في داريّا، لأنهم أرادوا العمل بالحديث

القائل: من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده.. يا حبيباتي! وزادت قناعتي بأن الرجل أخوان مصفّى، حين أكل القط لسانه، بعكس السيّد أنور البنّي أو السادة الأساتذة الكبار في سواسية، حين اعتقلت بتحريض من أخوته الطالبانيين في دمشق، مع المسيحي الكافر إلياس حلياني، والعلوي الأكفر جهاد نصرة: واحد علماني والآخران كما أشرنا: هؤلاء ليسوا بشراً وفق تعريف المالح، وبالتالي لا تنطبق عليهم حقوق الإنسان!!! ثم جاء بيان الأخ الواشش نزار نيّوف، الذي نشر فيه أقوال للحقوق-إنساني-الطالباني، هذا الذي يرفع الضغط، من نمرة الغالبيّة السنيّة والأقليّة العلويّة! إذن، وبصراحة مطلقة، فالأخ المالح للغاية هو القائم بأعمال حقوق الإنسان المسلم السنّي، الذي يفضّل أن يكون طالبانياً فإن لم يستطع أصولياً فإن لم يستطع أخوانياً وذلك أضعف الإيمان!!!

من ناحية أخرى، فمعرفتي بالسيّد حسن عبد العظيم قديمة للغاية، وذلك بسبب أحد أقاربي الذي يعمل زميرة عنده في مدينة حمص. وقريبي هذا، الذي هو أحد أقرب المقربين إلى السيّد عبد العظيم، والذي لا همّ له سوى إقامة الدعاوى – محاموه كلّهم من الدكانة الحزبيّة ذاتها: وكلّهم أيضاً يعودون إلى زمن المرحوم منقرع – على أقاربه لأسباب ماديّة مغرقة في تفاهتها: متخاصم مع أخته وزوجته وأولاده وأولاد أخته.. إلخ! هذا الرجل [أقصد الزميرة، لا البورظان]، إن صحّت التسمية، شنّ علي هجوماً مريعاً في أحد شوارع حمص، ولم يكن يومها الأربعاء، فقط لأني أثمت بحق الروح القدس، وقت قلت في تلفزيون الجزيرة: أنا باحث علماني! وراح هذا الرجل – راجع آنفاً – يزأر كشبل مصاب بالبواسير بأنه لا يفخر أبداً أن يكون من عائلته – لست من عائلته، بأية حال – من يقول إنّه علماني! وراح يناقشني، بثقافته الواسعة – لا يقرأ بأذنه غير خطابات عبد الناصر، أهم ظاهرة صوتيّة غير مطربة، بعد السيّدة أم كلثوم – أن لا فرق بين العلمانيّة والإلحاد! وانتهت العلاقة بيني وبين هذا الاشتراكي الناصري التقدّمي مرّة وإلى الأبد! وهذه مسطرة من الزميّرات التي تقوم بتوزيع "بروشورات" خالو حسن في المحافظات، معلّقات ندب الديمقراطيّة وشتم النظام الديكتاتوري الطائفي الشمولي! بالمقابل، فقد زرت مرّة السيّد حسن عبد العظيم في منزله في التل، على ما أعتقد، وكانت المناسبة أنّ ابنة قريبي الزميّرة كانت تقيم في بيته بسبب امتحاناتها النهائيّة في كليّة الاقتصاد؛ وكان انطباعي الأوحد أن البيت أكثر من أصولي!

حتى الآن لا أفهم على مَ اختلف الناصريّون والأخوان، ما دام الأصل هو ذاته؟ إنّ كلّ ذي بصيرة يدرك بأسهل ما يمكن أنّ الفارق الأوحد بين الأخوان والناصريين هو في التعليب: المادّة المعلّبة هي ذاتها.

الأخوان المسلمون، وبورظاناتهم، يريدون ديمقراطيّة سياسيّة لا معرفيّة لأنها السبيل الأوحد للوصول إلى الحكم، في بلد محكوم من قبل المنابر والمتمنبرين! الأخوان المسلمون وبورظاناتهم يرفضون الديمقراطيّة المعرفيّة لأنها تكشف الأساس الرملي الذي يشيد عليه الإسلام أسسه وبناه. وتجربتنا التي يعرفها الجميع مع هؤلاء المنافقين تكشف دون لبس عمق تناقضهم في الطروحات الحداثويّة الليبراليّة الديمقراطيّة: فهل يقبل السيّد البيانوني بشرعة حقوق الإنسان كما أقرّت في الأمم المتحدة بغضّ النظر عن الخصوصيّات الدينيّة أو الثقافيّة لمناطق بعينها؟ هل يقبل هذا البيانوني والجوقة التي تقرأ وراءه الأبانا بحقي كشخص، وفق شريعة حقوق الإنسان، أن أبدّل ديني – من هواياتي الشخصيّة التنقّل بين الأديان – فأصحو في الصباح مسلماً لأتغدّى بوذيّاً وفي المساء أصلّي "النؤمن" وأنام؟ هل يقبل هذا البيانوني بالزواج المدني الاختياري بحيث يمكن للمسلمة أن تتزوج من يهودي وللمسيحيّة أن تتزوج من هندوسي دون أن يحق لأحد الاعتراض؟ هل يوافق هذا البيانوني على حق الباحث في نقد من يشاء وما يشاء، بغض النظر عمّا يعتبره البورظانات مقدّساً؟ هل يقبل بيانونينا هذا بحق المرأة في العيش كما تشاء، دون توقف عند العقد الجنسيّة للحاخاميم وخلفائهم؟

المصيبة الكبرى في سوريّا أن النظام لم يترك غير هؤلاء، كاريكاتورات الديمقراطيّة، يلوثون أسماعنا بطرحهم لأنفسهم بدلاء لما يعتبرونه – والله ؟؟؟ – حكماً شمولياً؟

لقد جرّبنا الذين يسمونهم بالمعتدلين، ولم يكونوا غير إرهابيين كامنين؛ فهل تخرّب عقلنا إلى درجة تصديق طرح هذه البورظانات حين تتحدّث عن الديمقراطيّة؟؟؟

متى يعتقلنا الأمن السياسي؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 11 إبريل 2005

كم يسافر من سوريّا وإليها من مواطني البلد يوميّاً؟ وهل كلّ مواطن ملزم بأخذ رخصة من الأمن السياسي إذا ما أراد مغادرة الجنّة المسمّاة سوريّا حتى إلى جهنّم؟ هذا السؤال أطرحه بمناسبة محاولتي مغادرة القطر إلى الولايات المتحدة بدعوة من مركز بحوث في واشنطن دي سي، وتتبّع عناصر الأمن السياسي في منطقتي لتفاصيل القضيّة وكأنها "اغتيال الحريري"! من حقّ كلّ إنسان، مطلق إنسان، اختيار الأماكن التي يرغب بالعيش فيها أو زيارتها؛ ومن حق كلّ إنسان، مطلق إنسان، رفض العيش في ما يراه الآخرون جنّة واختياره العيش في جهنم، مادام وحده الذي يكتوي بنارها!

لدينا حسّ وطني؟! بصراحة مطلقة: لا!! فالوطن مرهون بالكامل للتطرّف الديني وعملائه!! لدينا حسّ قومي؟! لا!! فالسنوات الإثنتان والأربعون من عمر ثورتنا المجيدة كانت كافية لإشفائنا من الباكتريا القوميّة! لدينا انتماء؟؟ على الإطلاق!! فأيام السجن عند الأمن السياسي "دون تهمة" تكفي لغسل أجسادنا من وشم الانتماء! نمتلك إحساساً بتواصل إنساني مع من ينتمي إلى شكل تفكيرنا؟ حتماً! نعتبر أنّ الليبرالي الديمقراطي الأميركي أو غير الأمريكي أقرب إلينا بما لا يقارن من المسلم المتطرّف؟ وهل هذا سؤال يستأهل الإجابة؟! أليس البوطي، صنيعة الرئيس السابق للأمن الداخلي، يعتبر أن المسلم السنّي الشافعي الملتزم بقواعد دينه [بكلمات أخرى: الإرهابي الكامن] أقرب إليه من جاره غير السنّي؟؟؟ نحن، على الأقل، لسنا إرهابيين–إجراميين، ولن نكون!

بدأت معاناتي مع الأمن السياسي عام 1993، حين أُدخِلَ إلى معرض الكتاب في مكتبة الأسد عمل اسمه "ضوابط التكفير"؛ لشيخ سعودي نصف معتوه–نصف مجرم، اسمه محمود القرني! وكان الكتاب مطبوعاً في عمّان، وتوزعه دار نشر دمشقيّة، ذنب للأخوان المسلمين، يمتلكها أشخاص من آل دعبول! في الصفحة 163 من هذا العمل الإجرامي، كما ذكرتُ غير مرّة، يقال إن العلويين والإسماعيليين والدروز أشدّ كفراً ونفاقاً من النصارى [يقصد المسيحيين] واليهود؛ من هنا فالاقتراح الوجيه إسلاميّاً لعلاج هذه المعضلة الخطيرة، بعكس ما ينافق به البوطي والقرضاوي والأخت منيرة القبيسي، هو قتل الرجال وسبي النساء [كما سبى محمّد (ص) صفيّة بنت حيي وجويرية بنت المصطلق.. ومن شابه نبيّه ما ظلم] واستحلال الأموال [هل تذكرون بني قريظة؟] واستعباد الأطفال! وبما أن سوريّا مكوّنة من سنّة مطلوب منهم تنفيذ شرع الإله في غيرهم، ومن غيرهم مطلوب منهم أيضاً أن يقبلوا أن يُنفّذ فيهم شرع هذا الإله، فالكتاب التحفة كان يهدف إلى الدفع بحالة الإرهاب الإجرامي في سوريّا إلى حدّها الأقصى، خاصّة إذا ما عرفنا أنّ الأردن، مكان طبع الكتاب، والسعوديّة، مكان تأليفه – أشكر كلّ الآلهة على ما يحصل للسعوديين اليوم، لأن هؤلاء الذين لا علاقة لهم بالبشر، يدفعون غالياً ثمن ما كانوا يزرعونه لغيرهم – ليس فيهما أي من الطوائف المطلوب تنفيذ شرع الإله بها!

ملاحظة:

حين أفكّر بشكل الإله الذي قدّمه لنا محمّد، لا أشعر إلا بالرغبة العارمة في التخلّص حتى من لساني لأنه ينطق باللغة التي نطق بها هذا الرجل الذي لم يترك نقيصة إلاّ ووضعها في إلهه المريع! ما هذا الإله الذي لا يسرّه غير رائحة الدم وصوت السيوف تنحر الآخر كالشاة! ما هذا الإله الذي يجفل من رؤية ساق أو شعر لأنثى

عابقة بالحياة! ما هذا الإله الذي يخلق شعوباً كي تقتلها شعوب غيرها! باختصار: إنّ أسوأ ما فعله محمّد للبشرية هو أنه حمّل الإله الذي قدّمه لنا كلّ ما في داخله هو ذاته من عقد وشوائب!!!

إذن: الكتاب مفصّل على سوريّا، التي هي الدولة الوحيدة التي تحتوي هذه الطوائف. وكان الكتاب معروضاً بطريقة تجعل الأعمى يراه في دار النشر تلك. بالمقابل، كان كتابي، يوم انحدر الجمل من السقيفة، يُطارد كاللص من قبل مخبري القيادة القطرية وعناصر الأمن السياسي. أطلعت الدكتور طيّب التيزيني، الذي كانت له محاضرة يومها ضمن فعاليات المعرض، على المسألة، واتفقنا على أن أقوم من بين الحاضرين لأقرأ على خشبة مسرح المكتبة النص الموجود في ذلك الكتاب الإجرامي. وهذا ما حصل. حاول الضابط المسئول عن المعرض تقزيم الأمر باعتبار أن اليسار السوري [كذا] يريد إظهار نفسه عبر اصطياد نسخة مهرّبة إلى المعرض وتكبير المسألة لتبدو بحجم الفضيحة. ولمّا كنت أتوقع ذلك، فقد اشتريت سلفاً نسخاً كثيرة من الكتاب التحفة، وجعلتهم يوقعون في المعرض على كلّ وصل شراء. وكانت فضيحة بجلاجل: وكانت المواجهة عنيفة للغاية بيني وبين ضابط الأمن السياسي المسئول عن المعرض يومها، والذي ينتمي إلى الطائفة السنيّة ومن إحدى أكثر بلدات ريف دمشق تعصّباً دينيّاً.

بعدها، بدأت مطاردة كتبي من قبل هذا الضابط تحديداً إلى درجة أنه جعل بعض أصحاب المكتبات في دمشق يمضون على تعهد بعدم بيع كتبي: وقت كانت كتب التطرّف الديني تغزو كلّ الأمكنة في سوريّا؛ إضافة إلى أن المدن السوريّة الأخرى، التي توزّع فيها كتبي بطريقة كبيرة لم تعرف إجراء كهذا: وأخصّ بالذكر، حمص واللاذقيّة وطرطوس.

يوم 30 أيلول الماضي، اتصل بي هذا الضابط هاتفيّاً ليتأكّد من وجودي في مكان عملي؛ وبعد دقائق قام باعتقالي مع ضابط آخر لم أعد أراه! وفي الاعتقال، أدّت بعض التصرفات برعايته إلى إصابتي بانهيار مما استوجب نقلي إلى مشفى الشرطة في دمّر حيث ظللت تحت "حكم السيروم" حتى يوم 19 تشرين الأوّل. ولمّا خرجت، وكان طلبني رئيس الشعبة قبلها بساعات، قال لي الأخير، حين سألته عن سبب اعتقالي: نحن غلطنا، ونحن صحّحنا الغلط.

نعم! أنا ذاهب إلى الولايات المتحدة أوّلاً للعلاج: فالجروح النفسيّة والجسدية التي أصابتني من هؤلاء، منذ اعتقالي الأول في حمص في الأمن العسكري في الثمانينات إلى اعتقالي الأخير في الأمن السياسي لا يمكن أن تشفى إلاّ في الولايات المتحدة.

كان الأصعب في فترة الاعتقال، حين جاء إليّ الضابط ذاته في المشفى، وأنا بحالة يرثى لها، وقال لي إنّ كنائس [بروتسانتيّة حصراً] بعينها صعبة الاختراق على الأمن السياسي وعلي إن خرجت أن أساعده في اختراقها: نعم! بعد هذا العمر؛ بعد هذا الكم الكبير من الكتب والمقالات؛ بعد رسائل الدكتوراه التي تكتب عني في ألمانيا وانكلترا – أعمل مخبراً؛ وضدّ من؟ ضد الذين لولاهم لبقيت في سجن هذا الشخص "إلى يوم يبعثون".

قبل أن أغادر سوريّا قبل شهرين إلى قطر، للقاء في الجزيرة، اكتشفت أني ممنوع من المغادرة، وعلي مراجعة شعبة أمن بعينها. وفي الشعبة، قال لي رئيسها إن اعتقالي لم يكن بسبب التجمّع الليبرالي في سوريّا، ولمّا سألته عن السبب؛ أجاب: يمكن أن أخبرك ذات يوم!

ذات اليوم هذا لن يأتي، لأني طبعاً لا أمتلك ما يشجعني على رؤية الرجل إلاّ إذا كانت الحالة اضطراريّة: وهكذا، قمت مع الصديقين اللذين اعتقلا معي بوضع تصوّر تحليلي لسبب اعتقالنا: بما أن التجمّع هو الغطاء للاعتقال، فهنالك سببان لا ثالث لهما له: إمّا نقدنا الحاد، نحن الثلاثة، للتيار الأصولي، أو نقد رموز الفساد في سوريّا. وبما أن الصديقين الياس وجهاد لم ينتقدا عموماً رموز الفساد، فالأصوليون وأعوانهم في الأجهزة هم

السبب فيما حصل لنا في تشرين الأوّل الماضي؛ خاصّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار إلحاح هذا الضابط ذاته، أثناء التحقيق معي، على مسألة أن أعدّل لهجتي الانتقاديّة للإسلام.

إن ما نشر في الصحف السوريّة وغير السوريّة عن اعتقالي هو عشر الحقيقة: وأطمح للخروج كي أظهر للعالم كلّه الحقيقة كلّها.

نعم! أنا ذاهب إلى أميركا؛ بل وأقول بصريح العبارة أني تلقيت دعوة أخرى البارحة، العاشر من نيسان، من مؤسّسة بحثيّة ألمانيّة، للسفر إلى ألمانيا فقط كي أعرض قضيتي على الألمان، من أجل المساعدة في رد أذى التيار الأصولي وأعوانه عنّي.

يوم الجمعة القادم، وهذه المعلومة برسم الأمن السياسي، سوف نعيد تشكيل التجمّع الليبرالي في سوريّا: شاء من شاء، وأبى من أبى. فالوطن ليس ملكاً للسحاقيات القبيسيّات وشيوخهن في السلطة وخارجها.

الخلفيّة الجنسيّة للقبيسيّات

www.annaqed.com

نبيل فياض، 10 إبريل 2005

قبل سنوات تعرّفت إلى باحثة سوسيولوجيّة كنديّة، من المناطق الناطقة بالانجليزيّة، وكانت تجري دراسة حول القبيسيّات. والقبيسيّات، لمن لا يعرف، حركة نسويّة إسلاميّة سنيّة، تتبنّى المذهب الشافعي عقيدة، وكتابه الشهير الأم، منهجاً ومرجعاً. القبيسيّات، كتسمية، مشتقّة من "منيرة القبيسي"، المؤسّسة الفعليّة للتنظيم، والتي تنتمي إلى إحدى عائلات دمشق الموسرة ماديّاً، والتي انفجرت ماليّاً للغاية بعد تأسيس ابنتها للتنظيم. والقبيسيّات، رغم دفاع المستفيدين عن الحركة، من أمثال آل كفتارو، أشهر العاملين في البيزنيس الديني هذه الأيام، هن التنظيم الأخطر على السلم الاجتماعي والوحدة الوطنيّة بما لا يقارن؛ بل إنّ هؤلاء النسوة الطائفيّات، استطعن التسلّل، عبر العته الديني المتفشّي في سوريّا منذ زمن، إلى زوجات، ومن ثم بيوت، مجموعة من أهم رجالات الصف الأوّل السوري! بل نقل إليّ من مصدر أمني أثناء اعتقالي، أنّ استدعاء امرأة منهن إلى أحد الأفرع الأمنيّة المغرقة في قوتها، كان كافياً لتدخل مجموعة من مراكز القوى السنيّة بحيث أنها خرجت من التحقيق دون أن تمس شعرة من رأسها، بل إنهم صاروا مرتبكين في البحث عن عبارات اعتذار تليق بمكانتها الكريمة!

لا زلت أذكر كيف انفجرنا جميعاً في وجه أخي حين وضع ابنه في إحدى دور الحضانة التي تشرف عليها القبيسيّات! وما أكثرهن في مدينتنا: حمص!!! وأخي يسكن في حيّ علوي–مسيحي مع أقليّة سنيّة نادرة! وبسبب الشحن القبيسي للطفل ضدّ الآخر غير السنّي، بدأت المشاكل تسلّل إلى البيت الصغير حتى الإحراج، لأن هؤلاء الطائفيّات كنّ يملأن رؤوس الأطفال – والعلم في الصغر، كالنقش في الحجر – أن كلّ من هو غير سنّي وربما شافعي كافر بالمطلق: مع الذيول التي يستجرّها منطق التكفير! باختصار: كان تعليم هؤلاء الطائفيّات الصغيرات متركّزاً على التفاهات التالية: تكفير كلّ من هو غير سنّي؛ تحفيظ الأطفال بعض أدعية غبيّة من أمثال دعاء الدخول إلى المرحاض ودعاء الخروج منه [دون مبالغة، كان الطفل يتضايق للغاية قبل الدخول إلى المرحاض، لأنه كان مشبعاً حتى القمّة بأن التغوّط أو التبوّل دون دعاء، مسألة سيئة دينيّا]؛ والضغط باتجاه تحجيب النساء، كأحد أهم دعائم الإسلام! وطبعاً، منعاً لأية تراكميات عقديّة في نفس الطفل، سحبه أبوه من مدرسة القبيسيّات الواقعة في حي القصور الحمصي، ووضعه في المدرسة الإنجيليّة!

للقبيسيّات بنية تنظيميّة غريبة، تبدو أقرب ما تكون إلى وحدات الجيش النظامي: فالطاعة عندهن للآنسة [يمكن تشبيهها، مثلاً، برئيسة فرقة في شبيبة الثورة] مطلقة؛ واللباس التمييزي، الذي يمكن أن يساعد في معرفة درجة الآنسة في التدرج الهرمي للتنظيم، أكثر من واضح. بل يمكن أيضاً معرفة القبيسيّة بسهولة من شكل الوجه، الذي يتميّز حاجباه بافتقادهما أدنى درجات العناية، وبشرته الشاحبة "السمّاويّة" التي لا تعرف الماكياج أبداً. أمّا طريقة المشي، فحدّث ولا حرج: أحذية بلا كعب، غالباً ما تكون أقرب إلى أحذية الرجال، ومشية لا تشبه غير مثيلتها عند عسكر الشيشان أو عسكر السنغال أيام الانتداب الفرنسي لسوريّا. بل إن أحد أهم العاملين في الحقل الثقافي الإسلامي النقدي السوري، حدّثني، نقلاً عن قريبته القبيسيّة، بأن القبيسيّات يرتدين عموماً، تحت ثيابهن العسكريّة، سبع أطقم من "الكيلوتات"، يسمّى الأخير فيهن: مانع الحب! والغرض من هذا "الكيلوت" المانع للحب

هو إنهاك الذكر – الزوج إذا ما أراد أن يضاجع زوجته القبيسيّة؛ والواقع أن هذا الصنف من النساء نادراً ما يتزوجن، ربما من أجل التفرّغ للدعوة.

بالعودة إلى الباحثة الكنديّة التي درست هذا التنظيم بعمق وعلميّة نادرين، فقد كانت آراؤها كما يلي: القبيسيّات ردّة فعل خاطئة على وضع أنثوي خاطيء! كيف؟ كما يعلم الجميع، فوضع المرأة في الإسلام مهين للغاية. وقد سبق وأشرنا إلى سوء هذا الوضع في أكثر من عمل لنا، من أهمها: حوارات في قضايا المرأة والتراث والحريّة. فالمرأة، في نظر النبي، متاع؛ وفي نظر عمر بن الخطّاب، لعبة في زاوية الدار؛ وفي نظر علي بن أبي طالب، شرّ كلها، وفي نظر الشافعي، شؤم!!! وتشييء المرأة في الإسلام أكثر من واضح: فهي لا تعدو كونها وعاء لاستقبال السائل المنوي الذكري. المرأة في الإسلام، كما ذكرنا في غير مقالة، صنفان: حرّة، لا ترى الشمس، تلبّي غريزة التملّك عند الذكر، وجارية، تبدو أقرب ما تكون إلى عاهرة من نوعيّة رخيصة، تلبّي غريزة الجنس عند الذكر. أي: إمّا أم المؤمنين، أو عُريب. الحرّة، كلّها عورة، والأمة، لا عورة لها، أو أن عورتها بين السرّة والركبة، وبحسب أحد الأئمة، فتحتا القبل والدبر. من هنا، فالنفاق الإسلامي الذي يعتبر أن الحجاب فرض على كلّ مسلمة لا يكشفه سوى بضع غوص في التراث الإسلامي! الحجاب، كما نراه، فرض من أجل التمييز بين الحرّة والأمة: ومن يقول غير ذلك فهو إمّا منافق أو جاهل! أو: إما شيخ أو عامّي. على هذه الوضعيّة الأنثويّة المرضيّة ثارت القبيسيّة الأولى: لكن، كما قلنا، بشكل مرضي. – كيف؟ بدل رفض الإسلام المشييء للأنثى، وللإنسان عموماً، رفضت القبيسيّات الأنوثة! وانتحلن أحد أسوأ أشكال الذكوريّة الكاذبة. بدل رفض القبيسيّة للمفاهيم التي تحتقر الأنوثة، رفضت الأنوثة ذاتها، وصارت عبئاً على الذكورة. – يبقى السؤال الهام: هل القبيسيّات تنظيم سحاقي واقعاً، أم أنهن تنظيم ديني سحاقي النكهة؟ ميدانيّاً، أثبتت القبيسيّات أنهن غير سحاقيّات عموماً، لكن الطريق الذي تسير عليه هؤلاء النساء لا بدّ أن سيوصل إلى السحاقيّة شبه الكاملة يوماً. كتاب الأم لا يفيد في إيقاف إفراز الهرمونات في جسد المرأة؛ ومصادرة المشاعر عبر "الكيلوتات" أو الأدعية لا يعني قتلها. – لذلك، يبدو أن هذا الانتحال للذكورة سيوصل مع تراكم الزمن إلى حالة انتشار للسحاق بين القبيسيّات، خاصّة وأن الإسلام لا يبدو متشدّداً للغاية في هذه المسألة عموماً.
كان يمكن للقبيسيّات أن يكن حالة فريدة من نوعها في التحرّر الأنثوي الإسلامي: لكن هذا لم يحدث. وما دامت قبضة الأوانس تقبض على رقاب التابعات، لا يمكن الحديث عن ثورة تصحيحية ضمن هذه الحالة المرضيّ. أخيراً: في مصر، زمن عبد الناصر، كانت التنظيمات الأصوليّة تتشكّل تحت الأرض بانتظار الفرصة. ولما مات عبد الناصر وجاء السادات، خرجت تلك التنظيمات من تحت الأرض، وكانت النتيجة أن دفع السادات نفسه حياته ثمناً لاستخفافه بها. والقبيسيّات، مثل تابعات الشيخة وفاء كفتارو وغيرها من التنظيمات الأصولية الإقصائيّة، لسن أقل خطراً على وحدة المجتمع من أي تنظيم أصولي طالباني آخر. باختصار: لا يوجد في سوريّا، باستثناء أتباع الدكتور محمّد شحرور، ما يمكن أن نسمّيه "إسلاماً معتدلاً". في سوريّا إمّا أصولي صادق، أو أصولي منافق يرتدي قناعاً معتدلاً: من لا يصدّق، ليسأل البوطي.

القط.. ولسان قداسته!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 18 مارس 2005

في أواخر التسعينات من القرن الماضي، وكان كتابي، *أم المؤمنين تأكل أولادها*، يثير العاصفة إثر العاصفة في الوسط السنّي السوري، والتهديدات تنهال عليّ كالمطر من كلّ حدب وصوب، وجدت نفسي فجأة في طالع الفضّة، أمام بطريركيّة الروم الأرثوذكس؛ وفجأة أيضاً، وجدت نفسي أمام قداسة البطريرك، أغناطيوس هزيم، الذي لم أكن رأيته مذ زرته مع شخص شيعي من جيرانه في المنطقة، كي أقدّم له كتابي، *التلمود البابلي–رسالة عبدة الأوثان*! كنت منفعلاً للغاية، خاصّة بعد أن تكرّر هجوم الغوغاء على مكان عملي بتحريض من شيخ وهابي متبعّث، وسكوت الأمن السياسي المريب حيال كلّ ذلك: وكأني مواطن تايلندي! كان طلبي الأوحد لقداسته مكاناً في أحد الأديرة الأرثوذكسيّة أقيم فيه شهراً من الزمان، أريح فيه أعصابي من الوهابيين والأمن السياسي على حدّ سواء. وكان ردّ قداسته أصعب من خساسة الوهابيين وتواطؤ الأمن معاً. وكان الردّ يركّز على نقطتين: إن الروم الأرثوذكس شعب مستضعف في سوريّا، وهم بالتالي بحاجة أكثر مني إلى الحماية، وإنّ الموارنة الذين زرعوني يجب أن يتحمّلوا وحدهم الحصاد المرّ! وعرفت وقتها، للأسف، أنّ المسيحيين السوريين، بسبب جبنهم التقليدي المتوارث، سيرفضون من يأتي لهم بحقوقهم الطبيعيّة، حتى وإن قدّمها لهم على طبق من دم!

بصراحة تامّة، لم تكن لي أدنى علاقة بهذا البطريرك؛ وبصراحة تامّة أيضاً، كانت علاقتي بالجبهة المعارضة للبطريرك، ضمن الكرسي الأنطاكي الأرثوذكسي، قويّة للغاية، خاصّة المرحوم المطران ألكسي عبد الكريم، وهو بيروتي كان متروبوليت حمص وجوارها للروم الأرثوذكس، والذي استطاع، بأخلاقه غير العاديّة واستقامته التي لا لبس فيها وعمله الدؤوب في سبيل الطائفة، أن يفرض وجوده في هذه المدينة العنيدة، رغم ما واجهه في بداياته فيها من مشاكل! من هنا، وبسبب هذا الوضع تحديداً، كنت من أكثر العارفين بالبئر وغطاه، بل إنّ كثيراً من المناشير المعادية للبطريرك والكاشفة لأسراره، كانت تكتب بحضوري وتوزّع بمعرفتي، خاصّة وأنّ كل مسيحيي حمص، على اختلاف طوائفهم، يعرفون أنّ موقفي من المسيحيين السوريين وحريتهم وحقوقهم المدنيّة والوطنيّة أقوى من مواقف كلّ البطاركة الناطقين بالعربيّة، باستثناء قداسة البطريرك صفير! من هنا، فقناعتي مطلقة بأن قداسته "لا" ينفع بطريركياً لطائفة شامخة، عظيمة، استطاعت الصمود رغم الأنواء والمحن والإرهاب الإسلامي، وأعني بذلك، الروم الأرثوذكس! ومن هنا أيضاً، فقناعتي مطلقة بأن قداسته، وهو الذي لا يجارى في جبنه وهلعه من أخوته المسلمين الأصوليين بل إنّه يعمل ليل نهار على فتح الخطوط مع سادة الإرهاب الديني المرتدين "لكيلوت" الاعتدال، آل كفتارو، كان حجر عثرة في انتقال سوريّا إلى جنّة الليبراليّة–العلمانيّة وبالتالي التمدّن!

لا زلت أذكر كيف اضطررت لفتح النار على جماعات الإرهاب الشيعي الإثني عشري، وما أكثرهم في دمشق اليوم، في عملي الناري، *مقالة في القمع*، حين سحبوا خطّاً كهربائيّا موصولاً إلى مكبّر صوت موضوعاً على مئذنة مهجورة مواجهة لغرفة نوم قداسته، يذيعون منه آيات قرآنهم التي لا تخلو طبعاً من تكفير "للنصارى" وما يستجرّ التكفير الإسلامي خلفه من توابع إجراميّة: دون أن يجرؤ قداسته يوماً على الاعتراض!

ملاحظة:

كلّ من يعتقد أن التيارات المتطرّفة الشيعيّة أنظف وأقل عهراً من شقيقاتها السنيّة يكون واهماً تماماً: واسألوا القائمين – أو القاعدين – على مسجد الزهراء [يعني فاطمة ما غيرها] في حي الأمين الدمشقي!

اليوم، يبدو أنّ رأينا، كمعارضين، بقداسته، لم يكن يجانب الصواب! ففي ظلّ هذه الحملة العنصريّة التي تشنّ في لبنان على الشعب – ضعوا ألف خط تحت كلمة الشعب – السوري، "بالع الموسى على الحدين"، من قبل رموز من كنيسة قداسته نعرف تماماً أن باستطاعته "شكمها"، في حين يكتفي قداسته بالجلوس صامتاً كتمثالي المرحوم بوذا في داميان، لا نجد تعبيراً أقل من "خيانة الوطن" لصالح آل روتشيلد يمكن أن يصف قداسته!

يعرف قداسته تماماً أننا من أكثر المعارضين للنظام وللإرهاب الإسلامي الأصولي في آن؛ ويعرف قداسته تماماً أيضاً أننا دفعنا من أعصابنا وعمرنا وصحتنا ثمناً لهذه المعارضة! لكننا نرفض هذا البث لأشعة الكراهية الذي يقوم به جبران بن غسّان ومن خلفه إلياس عودة وجورج خضر ومن لفّ لفهما!

يعرف قداسته تماماً أنه، حين كان يضع المخدّة فوق رأسه كي لا يسمع آيات أحد الألهة التي تقول بكفر من يزعم بألوهيّة يسوع، تتقيؤها مئذنة شيعيّة إرهابيّة بمباركة من دولتنا الأصوليّة – أونكل حليم!!! – كنّا نحارب في الأقبية ونطارد من قبل عهرة الوهابيّة حتى في لقمة عيشنا، دفاعاً عن حق السوري، مطلق سوري، أن يكون مواطناً من الدرجة الأولى! من هنا، فنحن نرفض أن نوسم بالدفاع عن نظام، لا في الشرق ولا في الغرب: لكن المسيحيّة، كما تعلمتها من ألكسي عبد الكريم وملاطيوس برنابا وأمبروسيوس حاج وجوزف قزّي، ترفض الكراهيّة: الله محبّة، كما يقول القديس بولس، الذي لا تعرفه لا أنت ولا جبرانك ولا جورجك ولا إلياسك!

يسوع الذي أعرفه أفضل منك، وأدافع عنه أفضل منك، يقول إن لا فضل للإنسان في أن يحب من يحبّه بل في أن يحب من يكرهه: فكيف يمكن وصف قداستك، وقوبة مطارينك، وآل روتشيلد تويني، أبناء رعيّتك، بأنهم مسيحيّون!

طائفة قداستك، يا شيري، مقسومة بين سوريّا ولبنان، من هنا، فأنت والقرطة المذكورة آنفاً تبثون كراهية الأخ لأخيه، في سابقة مسيحيّة لم يسبقها عليك ولا سيزار بورجا!

أخيراً: كما لاحظت، وربما كما تعرف، فأنا أمتلك كثيراً من الحقائق: ولا مانع لدي، من موقفي المسيحي الحقيقي غير الجبان، أن أنشرها من هذا الموقع بالذات، إذا لم تتخذ أنت ومطارنتك موقفاً للجم الكراهية الوثنيّة الروتشلديّة!

لقد خرج "قط" من طالع الفضّة، يحمل لساناً في فمه – ثم مات.. القط!

****

انتحار الطوائف الصغيرة

www.annaqed.com

نبيل فياض، 16 مارس 2005

لمن لا يعرف: ففي الإقليم السوري اللبناني، ليس هنالك غالبيّة مطلقة طائفياً؛ ولمن لا يعرف أيضاً، ففي هذا الإقليم تسكن إثنيّات وطوائف نادراً ما نجد لها مثيلاً في منطقة الشرق الأوسط، ربما باستثناء العراق، الذي يمكن اعتباره الامتداد الطبيعي لبلاد الشام. التعايش الإثني-الطائفي في هذه المنطقة ليس حديثاً، كما هي الحال في الولايات المتحدة، ولا قسرياً، كما هي الحال في بعض دول الغرب: التعدّديّة وضعيّة متأصّلة-أصيلة، موجودة في هذا الإقليم منذ بدايات التأريخ البشري. وقد يكون الموقع الجغرافي لسوريّا ولبنان، في قلب العالم القديم، والذي جعل منهما ممرّراً لطرق القوافل وجيوش المتصارعين، أبرز الأثر في تعوّد سكانهما على توافد الغريب واستقراره ومن ثم تطبيع التعايش معه. من هنا، لم يكن غريباً، إذا ما أخذنا القرنين التاسع عشر والعشرين مثالاً، أن نصادف في بلاد الشام توافداً غير منقطع لأقلّيّات من مناطق كثيرة، ومن خلفيّات إثنيّة ودينيّة عديدة، مثل الأرمن والشيشان والشركس وغيرهم. بل يمكن القول إنه لولا هذا التقليد التعدّدي لما غادر المذهب الدرزي موطنه الأصلي، مصر، واستوطن بلاد الشام.

بالمقابل، نعرف من التاريخ الكنسي لمنطقة بلاد الشام قبل الغزو الإسلامي، أنّ سوريّا كانت المنبع الذي خرجت منه كثير من المدارس الفكريّة [الانشقاقات] اليهوديّة والمسيحيّة: ومن أهمّها، يهودياً، السامريّون والقرّاؤون؛ ومسيحيّاً، التيار المادّي ممثّلاً ببولس السميساطي، أحد مستشاري زنوبيا، وأساتذة آريوس من مدرسة أنطاكية؛ التيار النسطوري؛ التيار اليعقوبي؛ والتيّار المونوتيليتي-الماروني، الكاثوليكي حالياً. – دون أن ننسى جماعات أخرى كالنصارى والمنشقّين عنهم من الإبيونيين؛ وكذلك المندائيين والمانويين. – ولولا روح التسامح التعدّدية لما أمكن لهذا كلّه أن يكون.

وباستثناء الموارنة، الذين رغم خروجهم من حلب ومن ثم ريف حمص فإنّ غالبيتهم الساحقة تبدو اليوم مركّزة في بيروت الشرقيّة وبعض جنوب لبنان وشماله وشرقه، لا شكّ أنّ كلّ طوائف لبنان تتشابك مع نظيراتها السوريّة: لا العكس! بل يصل التشابك إلى حدّ الانتماء اللبناني إلى مراكز روحيّة دمشقيّة، كما هي الحال مع الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والسريان الأرثوذكس، أو الانتماء السوري إلى مراكز روحيّة لبنانيّة، كما هي الحال مع الأرمن الكاثوليك والأرمن الأرثوذكس وبعض الشيعة الإثني عشريين.

مع ذلك، ففي الربع الأخير من القرن العشرين، تسلّل الخلل إلى هذه التعدّدية الهامّة؛ وكان لذلك أسباب كثيرة؛ منها:

1 . تقوّي الأصوليّة السنيّة ومحاولتها الانتشار خارج موطنها الأم، أي السعوديّة والخليج؛ وكان لذلك العلل والمعلولات التالية:

(آ) طفرة أسعار النفط، التي جعلت شعب النفط يعتقد أنه "السوبر شعب" في المنطقة، والذي ظنّ أنّ بإمكانه، على سجادة بترو-دولاريّة، نشر عقيدته الأصوليّة بين شعوب لم تكن يوماً قابلة بها؛

(ب) تفشّي الفقر – ضمن أشياء أخرى كثيرة – بين سكّان بلاد الشام واضطرارهم بالتالي إلى اللجوء، بحثاً عن لقمة العيش، إلى الجنوب الأصولي، وعودتهم من ثم إلى موطنهم الأصلي بالريالات والوهابيّة؛

(ج) ضرب الأخوان المسلمين في مصر وسوريّا، ضمن ظروف معروفة للجميع، وهروب كثير من رموز هذا التيار الإرهابي المؤدلج إلى الخليج، ليلتقي بالتالي المال النفطي والأيديولوجيا الأخوانيّة الإرهابيّة: فانتقلت الأصوليّة، بشكلها الوهابي خاصّة، من مرحلة العشوائيّة البدائيّة إلى طور الإرهاب ذي الأبعاد الفكريّة؛

(د) التحالف الوهابي الأمريكي، خاصّة في أفغانستان، ضد ما اعتقد الأمريكان أنه الخندق الأهم في التحصّن ضد الشيوعيّة السوفيتيّة؛

(هـ) قيام الطالبانيّة في أفغانستان، واعتقادها أن باستطاعتها، عبر القاعدة، عولمة الإرهاب الأصولي!

2 . إعلان الجمهوريّة الخمينيّة الشيعيّة الإثني عشريّة في إيران، ليس دون رضى غربي، وأثر ذلك سلباً على الأقليّات الشيعيّة في لبنان وسوريّا.

3 . وصول العلويين إلى كثير من مفاصل الحكم السوريّة، وآثار ذلك السلبيّة، خاصة بعد الصدام الدموي بين الدولة البعثيّة السوريّة والأخوان المسلمين السنّة في الربع الأخير من القرن العشرين؛ فقد أدّى ذلك، بعد انتصار الدولة الساحق، إلى محاولة علويّة لأسلمة سوريّا، بأسوأ المعاني للأسلمة سنيّاً، لإظهار أنّ العلويين مسلمون لا شك في إسلامهم من جهة، وللقول إنّ الحرب كانت ضد الإخوان لا ضدّ الإسلام من جهة أخرى.

4 . انتشار الأصوليّة في لبنان مستغلّة جو الحريّة النسبي الموجود في ذلك البلد: وكان التمظهر الأسوأ لذاك المدّ الأصولي يتمثّل في حزب الله، الذي يمكن اعتباره غريباً أنطولوجيّاً بالكامل عن "روح لبنان"، ونحن ننظر إليه على أنه ليس أكثر من تجمّع إيراني متطرّف داخل وطن لبناني متناقض معه قطبيّاً. – دون أن ننسى الجزر الإرهابيّة السنيّة المتناثرة في مناطق لبنانيّة وفلسطينيّة.

مما لا شكّ فيه أنّ ما يحصل اليوم في لبنان وسوريّا لا يمكن أن يخدم غير طرفين لا ثالث لهما: إسرائيل والتيارات الأصوليّة. وكما قلنا مرّة، فنحن نعتقد أن هدف شارون في هذه الحقبة تهدئة الوضع الداخلي عنده وتوتير الوضع في الدول المحيطة بإسرائيل حتى الوصول إلى الحرب الأهليّة داخل كل دولة! وفي النهاية، لكلّ دولة، بما في ذلك إسرائيل، الحق في تنفيذ المخطّطات التي تساعدها على الحياة: وفي حالتنا هذه، الحق "على" من يساعد شارون على تنفيذ ما برأسه. بالمقابل، فالأصوليّة، التي هي الوجه الآخر للعملة الأمريكيّة، بوعي أو دون وعي، سوف تستغلّ كلّ ظرف ممكن للوصول إلى تحقيق أوهامها.

في الأزمة اللبنانيّة السوريّة الخانقة الأخيرة، بدا واضحاً أنّ تيّار الإرهاب الإسلامي، ممثّلاً بحزب الله، بدأ يكشف عن وجهه المخيف مع كلّ مناسبة تلوح له. بل إنّ أحد أقطاب هذا التيّار، المدعو محمّد رعد، لم يخجل، وهو يخطب في "موالاة" من كلّ الطوائف، في استعمال "التيمات" الشيعيّة الغبيّة إياها، وكأنه في مجلس عزاء قمّي. وفي هذا استهزاء بالحاضرين من غير الشيعة الأصوليين، مهما كانوا أقليّة، وإظهار أن الشارع اللبناني منقسم بحدّة لا سابق لها بين أصوليين إثني عشريين من جهة، وباقي الشعب اللبناني من جهة أخرى.

إنّ قراءتنا غير المتهوّرة للواقع اللبناني السوري، تقول ما يلي:

1 . لبنان كلّه على شفا الهاوية؛ والحرب الطائفيّة قادمة دون ريب؛ ففي اعتقادنا، أن المعارضة سوف تجتاح البرلمان اللبناني، وسوف يؤدّي ذلك، ضمن أشياء أخرى، إلى تجريد حزب الله من سلاحه، الأمر الذي سيؤدّي إلى الانفجار بين كبرى الأقليّات، الشيعة، وبقيّة الطوائف، خاصّة الموارنة والدروز والسنّة!

2 . إنّ من يلاحظ سلوك السوريين واللبنانيين هذه الأيام، ويرى بأمّ العين كيف يركّز هؤلاء، على أعلى المستويات، على مسألة الكثرة العدديّة في مسيراتهم الغبيّة، يدرك دون لبس، أنّ هذه الشعوب لم تصل بعد إلى سويّة البشر؛ فغريزة القطيع هي وحدها الفاعلة هناك: وحديث محمّد المزعج: تكاثروا فإني مفاخر بكم الأمم، يمكن استخدامه حتى عند آل الجميّل، دعاة الفرنسة والتغريب. – أريد أن أسأل هذه القطعان الفالتة: سويسرا لا

تعادل سكّانياً عشر بنغلاديش: فهل هذا يعني أن الأخيرة أهم من الأولى؟ هذا شعب داحس والغبراء: فقط، اختلف "الباكيج"! السوريّون واللبنانيّون، من منظور الحضارة، لم يغادروا يوماً مضارب البسوس، فهم يحملونها تحت جلودهم أينما حلّوا!

3 . ما نعتقده أيضاً، ضمن هذه الفوضى الأصوليّة التي يتمّ نشرها، بشكل منظّم، في منطقة الشرق الأوسط، فإنّ سوريّا، التي عمل فيها النظام على مدى عقود على قمع كلّ من هو ليبرالي أو علماني لصالح الأصوليّة السنيّة المقيتة – بإشراف من القيادة القطريّة المومياثيّة وزعيم "التوعّي" فيها من أيام خفرع، الرفيق العلوي أحمد درغام – هي الأكثر ترشّحاً للفوضى بعد لبنان والعراق! وفي اعتقادنا أيضاً، فالفوضى تعني، ضمن أشياء كثيرة أخرى، الصراع بين كبرى الطوائف، أي الأصوليّة السنيّة، وباقي فئات الشعب!

إنّ ما يحصل الآن، والذي بدأت شرارته الأولى بأخطاء العلويين الفادحة في لبنان، والتي استغلّها بغباء لا يجارى الدروز والموارنة، لا يعني سوى تسليم المنطقة بكاملها للتيّار الأصولي، الذي سيدشّن وجوده، تحت وطأة حقد الإقصاء الطويل، بتصفيّة التعدّديّة: أي العلويين والدروز والموارنة!

لا نشعر على الإطلاق بالأسى: لأنّنا حذّرنا وحذّرنا وحذّرنا – لكن: لا حياة لمن تنادي! إنها فتنة، تتصارع فيها الطوائف الصغيرة في بلاد الشام – وحين يتأكد الذئب الأصولي أن هذه "الأغنام" – كما وصفهم الكبش، جبران تويني – تهالكت، سوف ينقضّ عليها واحدة، واحدة!

شارون يبتسم كثيراً هذه الأيام؟ نعرف! لكن لا أكثر من براقش عند العرب! – واسألوا وليد جنبلاط!

****

الله.. لم يخلق العرب!!!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 16 مارس 2005

في نهاية الثمانينات، وكنت في منطقة الفنار الواقعة في بيروت الشرقيّة، في مدرسة تابعة للأب القديس، عفيف عسيران [شيعي تحوّل بنعمة من كلّ الآلهة إلى المارونيّة]، وكان برفقتي أيضاً الصديقتان الرائعتان إنسانيّاً – ربما لأنهما تعلمّتا عند الكويكرز في برمّانا – أنطوانيت زلزل وفابيان سعادة، وكنّا جميعاً نعمل تحت إشراف الأخ نور عبد المسيح [حلبي الأصل، اسمه جهاد بسيليس]، صاحب التلي–لوميير حاليّاً، قبل أن يتحوّل إلى البيزنس الديني، ويصبح اسمه نور كفتارو! وكان برفقتنا مجموعة من أطفال منطقة الجبل من المسيحيين، الذين هجّرهم الدروز – عمّو جان بولاد ما غيره – إلى علبة السردين المسمّاة، بيروت الشرقيّة! سألني طفل أرثوذكسي أذكر تماماً أن اسمه كان جورج أبي فاضل: هل تحبّ الدروز؟ فأجبته: طبعاً!.. وقامت القيامة! ركض الطفل في باحة المدرسة؛ صائحاً: يا ناس؛ إنّه يحب الدروز! وركضت راهبات "البون باستور"، اللواتي لا يشبهن غير فرح يسوع، واللواتي كن يعملن تطوّعاً على خدمة الأطفال، لضبط الأمور! وبعد أن هدأ الوضع، راحت فتاة ثلاثة أرباع فلاحة، اسمها ديديه، قادمة من كسروان، تلومني على جرح مشاعر الأطفال بإعلان حبّي للدروز؛ دون أن تنسى الغمز من أصولي الإسلاميّة [تسلملي هي ومحمّد (ص)] السوريّة، التي باعتقادها كانت سبب الخلل في حبّي لهؤلاء الكفرة!

ومرّة، في عزّ الحرب الأهليّة اللبنانيّة، وكنت برفقة الأباتي القديس الأبدي، أمبروسيوس حاج، في رحلة رياضة روحيّة قبيل عيد الميلاد لراهبات دير جبّولة للروم الكاثوليك، في منطقة البقاع؛ كانت صدمة الراهبات، خاصّة تلك السوريّة الطيبة، كريستين بطيخ، رئيسة الدير، مؤلمة عندما اكتشفن أنّ هذا الذي يرافق الأباتي ويساعده في الطقوس من أصول سوريّة–سنيّة!!!

كنت أتنقّل من تجربة إلى أخرى في تلك المنطقة المسمّاة بيروت الشرقيّة؛ وكثيراً ما كنت أحط الرحال في إحدى ثكنات القوّات اللبنانيّة، برفقة أحد الآباء، مبشراً بالحب واللاعنصرية وقبول الآخر! بل لا زلت أذكر تلك الليلة في ثكنة راشا، والبرد قاتل، والطقس أقرب إلى سيبيريا، وكان برفقتي صديقة علويّة تحوّلت إلى المارونيّة، اسمها سامية ميّة، وزوجها العاقوري طوني مرعب، وأصدقاء الأيام الصعبة، الذين كانوا يحملون اسم، جماعة الأخوة بالروح القدس: رينيه، ماي، إميل، إيلي.. وعماد!

كنت أواجه بالاستهجان من هؤلاء الحضاريين: كيف أستطيع التأقلم، كسنّي سوري، مع بيئة لبنانيّة مارونيّة؟ – وكأن السوريين صنف حيواني متنافر مع الصنف اللبناني؟! وكأن المسلمين نوع من قرود الشمبانزي لا يمكنه العيش مع صنف الغوريلا الماروني؟! أعتذر في النهاية من هذه الحيوانات البريئة لأنها أكثر ودّاً وحبّاً و"إنسانيّة" من هذه الكائنات الناطقة بالعربيّة!

في سوريّا، وبسبب ظرف لا علاقة لي به، عشت بين الشيعة الإثني عشريين في منطقة حيّ الأمين الدمشقي! وكانت النفايات هي ذاتها! فرغم دفاعي المستميت عن حق الشيعي في أن يكون مواطناً من الدرجة الأولى في بلد يسيطر عليه الأصوليّون السنّة وأبواقهم من العلويين، لم تستطع تلك الكائنات التعاطي معي خارج التعريف السنّي، الذي كنت أعنف من انتقده!

وحين انتقلت إلى ريف دمشق بسبب العمل، إلى وسط سنّي بالكامل، أزعجني عواء المشايخ الذين يعتبرون أن أي اقتراب من قطعانهم يمكن أن يوصل إلى ما لا تحمد عقباه!

شكراً جبران تويني!

لقد قالها، فأراحنا واستراح! نعم: إنهم قطعان غنم، ينتشر ثغاؤها بين ساحة الشهداء وساحة النجمة وساحة رياض الصلح.. إلخ!!!

نعم! لقد شهد شاهد من أهله! فهذه الطوفانات المبرمجة، لا تشبه غير القطعان الحيوانيّة، بالمعنى الأسوأ للكلمة! القطعان الحيوانيّة، تتجمّع دفاعاً عن البقاء، لا كراهية في الغير! وهؤلاء، الذين لا تحركهم غير الكراهية، أسوأ بما لا يقارن من كل أنواع الحيوانات!

كلّهم مسكونون بالكراهية: من محمّد رعد، الذي كان يتقيّأ شيعيّاً في النبطيّة، إلى جبران تويني، الذي كان يتغوّط "روتشلديّاً" [أرباً بالأرثوذكسيّة العظيمة، كما تعلمتها من المطران المعلّم، ألكسي عبد الكريم، أن يكون هذا الكائن ممثّلاً لها]، حتى نعمة الله أبي النصر، الذي لا يوجد في القواميس ما يمكن أن يصف ألفاظه في إحدى محطّات الكراهية التي يتملكها، بقيانها وغلمانها، سيّد العهر السعودي، المسمّى الوليد بن طلال، والذي لا تزال ذاكرتنا غير المثقوبة تحتفظ بمواقفه من رفيق الحريري، قبل شهور!

أعتذر من روح الأباتي أمبروسيوس حاج؛ أعتذر من الأب الصديق إيلي صادر؛ أعتذر من المطران القديس مسعود اليوسف؛ أعتذر من روح الغالي خليل رستم؛ أعتذر من الأب إلياس يعقوب؛ من القديس يوحنّا الخوند؛ من كلّ ماروني طاهر: إذا حاول أحد أن يصنّف هذا الوحيد الخليّة على الموارنة!

لكن المعارضة غير طائفيّة، وبالتالي لا يمكن وصفها بأنها تكره الآخر! إنهم الكراهية بأمها وأبيها: كراهية السوري!

سأذكر لكم المعطيات التالية:

زوجة بشير الجميّل، سولانج، سوريّة الأصل من عائلة التوتنجي؛

زوجة أمين الجميل، جويس، فلسطينيّة الأصل – مثل مادونا عرنيطة، صاحبة عاصي الحلاني – من آل التيان؛

نازك، زوجة رفيق، شرحه!

منى، زوجة إلياس الهراوي، شرحه!

نورا الشرباتي، زوجة عمو وليد جان بولاد، سوريّة الأصل، من أصول سنيّة يهوديّة!

إيلي كرامي...حمصي!

كريم بقرادوني... حلبي!

****

أمّا من يسمونهم بالموالاة، وهؤلاء يمكن تلخيصهم بعبارة "حزب الله"، فهم لا يستأهلون أن يضيّع واحدنا وقته في انتقادهم، لأن من يقتل حسين مروّة ومهدي عامل ومصطفى جحا لا تقبل الذئاب أن تحسبه عليها!

****

العرب، كل من ينطق بالعربيّة، مطعون في إنسانيته، حتى يثبت العكس! وإذا كانت تلك حال اللبنانيين، الذين أقرفونا بحديثهم عن الحضارة، فكيف هي حال اليمنيين: مثلاً؟؟؟

في كتابي الذي أعشق، *مراثي اللات والعزّى*، تنبأت أن ينقرض العرب.. وتمنيت على الشعوب المتحضّرة في هذا العالم أن لا تعيق ذلك! فهذه الكائنات عبء على كل ما هو إنساني؛ عواء هؤلاء في ساحات لبنان وغير لبنان يثبت كلّ حرف قلته في *المراثي*! اليوم يبدو أن العرب يقتربون من التدمير الذاتي!

وافرحتاه!

أيتها الشعوب العظيمة!

يا أبناء السويد والنروج واليابان والدانمارك!

لا تحاولوا منع هذا الانقراض! فالله ذاته مصاب بالدوار وألم الرأس من كلّ هذا الكره الساكن في عيون العرب!

الله محبّة! فالله لم يخلق العرب!

****

الجزيرة.. والخرزة الزرقاء

www.annaqed.com

نبيل فياض، 11 مارس 2005

أنا زعلان جدّاً من الصديق الإعلامي الشهير، فيصل القاسم، لأنه لم يخبرني أنّه سيستقبل في برنامجه المتخم بالمشاكل، الاتجاه المعاكس، السياسيين الكبيرين، كريم الشيباني ومحمّد (ص) [البخيل من ذكرت عنده ولم يصلّ علي] حمشو! طيب! يا معن! إذا كان فيصل نسي، هل يعقل أن تنسى أنت! أنتما تعرفان أني أعيش في قرية ممتلئة بالعيون الزرق والأسنان الفرق: هذا يجعل هاتين النضوتين عرضة للحسد، ولو كنت أعرف مسبقاً أن الشيباني وحمشو على الجزيرة، لوزعت في القرية خرزاً أزرق وأنياب ذئب تدمري وشبّاً (يمكن استخدام الشب لأشياء أخرى غير ردّ العين: اسألوا طنط أم طوني). يقولون في القرية إنّ جاري وليد، أبا محمّد، يفسخ سقف الباطون بعينه الزرقاء؛ ولمّا رأيت الشيباني "على الهواء"، سارعت إلى الاتصال بالأخت أم محمّد كي أطمئن أنّ وليد بعيد عن التلفزيون، فأخبرتني، والحمد لله، أن زوجها يعزّي عديله في زوج ابنة عمة زوجته الأولى! ارتاحت أعصابي!الله! وعدت لأتابع هذه الأمسية الخوفيّة [من خوفو لا من الخوف] الجميلة!

الله!!! كريم الشيباني.. نوستالجيا على حلّه! شو حلو وهو يخبرنا عن حزبه، الذي وحده الله – إذا كان عنده وقت – يعرف اسمه! شو حلو وهو يخبرنا عن قواعد حزبه الجماهيريّة في مدينة حلب! يا روحي! الحزب الديغولي بلا زغرة! حزب العمّال البريطاني؟ نعم يا أختي! كنّا حكينا سابقاً عن حزب أونكل صفوان والست بارعة، الذي يمكن دحشه كلّه، قاعدة شعبيّة وقيادة ومكتب سياسي، في سيّارة فولكسفاغن موديل 1961: وهذا الحزب قديم عريق مشرّش – ماذا يمكن أن نقول بالتالي عن حزب عمو كريم الذي لم يبلغ [من بلوغ] بعد!

لا يحرق قلبي غير اسمه: لقد حاولت وأجهدت مخّي كي أحفظ اسم هذا الحزب، ولم أستطع! على أيّة حال، يكفي أن تختار شيئاً من هذا القرطل القصبي الغريب: تقدّمي، وطني، ديمقراطي، إشتراكي، وتلبّق له – كما كانت المرحومة، طنط زهيدة، تلبّق لسوتيانها الضخم قميصاً أسود اللون، يُخفي الحجم الكارثي لصاروخيها العابرين للقارّات – حزباً من الجبهة الوطنيّة التقدميّة، وتخلص القصّة! يا أختي! أستغرب حتى الآن كيف أنّ دولتنا الرشيدة لم تحوّل هذه الجبهة، بلا زغرة، إلى متحف؛ فيأتي القاصي والداني للفرجة [صاروا فرجة!!!] عليها؛ ونلمّ عليهم مصاري، فيصبحون كائنات مفيدة للمرّة الأولى والأخيرة؛ لا مانع أيضاً من دحش حزب إسلامي في هذا المتحف، فتصبح المتحفيّة شكلاً ومضموناً: يمكن أن نُنكح الحزب الشيوعي من هذا الحزب الإسلامي، ونختار للحزب الوليد "الشمولامي" شعاراً مثل: يا عمّال العالم، صلوا على النبي!!! وتخيلوا لا متحفيّة هذا الحزب حين يكون الرئيس البوطي ونائبة [أو نائب] الرئيس تيتا وصال!!! وبالرفاه والبنين!

وحتى يكمل النقل بالزعرور، يا حلاوة!!!، استضافوا عضو البرلمان السوري، الاقتصادي، رجل الأعمال – كنت أسأل عمّو خالد، الذي أصرّ حين تزوجت ابنته وحطّوا صورتها مع عريس الهنا، الذي طلقته بعد ثلاثة أيام، في مجلّة الشبكة، أن يسبق اسمه اللقب "رجل الأعمال"، وكان لقبه "الباشا": شو يعني رجل أعمال، التي تصرّ على أن يسبق اسمك، بعد أن أسقط حزبنا القائد التهمة "باشا"؟ وكان يجيب: هذا لقب وين ما ركبته، بيركب – محمّد حمشو!

لمن فاته الفصل الأول من تراجكوميديا الانتخابات السورية من الذين باستطاعتهم قراءة العربيّة؛ أقول: بدأت الحكاية، يا سادة ياكرام: نحكي والا ننام؟؟ نحكي: ذنبكم على جنبكم! كان يا مكان، في قديم الزمان، قائمة

[قاعدة أحلى: صح؟] اسمها "العلم والإيمان"؛ وهذه القاعدة – أرجو أن لا يترجم الأمريكان الواطين النص ويعتقدوا أنهم من أبناء لادن – كانت مرشحة للبرلمان السوري! كونغرس؟ حاضر: للكونغرس السوري! وكانوا، يا حبيباتي، كلّهن شباب حلوين: بياخدوا العقل! إيه: وبعدين؟ وكانوا، كلهن من الطايفة – كلّو طايف على كلّو – السنيّة!! لا والله! ليش الكذب؛ فوّتوا معهن واحد مسيحي حتى يعرف الغرب الامبريالي الحقير الواطي أنو عنّا وحدة وكرامة وإتحاد ووثبة وقرداحة وطنيّة!

العلم والإيمان ما بتزبط!!! سدّه يا مشاغب! قصّة آدم! تضربوا أنتو وآدم! خلص! ما ضلّ عنّا مشكل غير قصّة آدم! قصّة آدم مدحوشة من قبل الغرب الإمبريالي للحفاظ على منظومتنا الابستمولوجيّة في أدنى درجات الارتقاء المعرفي! ونوح؟ مين نوح؟ المطرب! طوفان يأخذكم جميعاً! بلا وطنيّات مفختة! إذا لم تؤمنوا بأننا فضّلنا بني إسرائيل على العالمين فأنتم كفرة؛ ولن نسمح لكم بانتخاب قائمة العلم والإيمان!

أنتم مزعجون تماماً! خلص، حبّكت! برنامج سياسي أو اقتصادي؟ ما هذه التفاهات! قلنا لكم: العلم والإيمان! ألا يكفي هذا؟ أنتم والله العجب العجاب! العلم يعني النشوء والارتقاء، والإيمان يعني آدم والفاميليا المقدّسة! هنا الجماليّة في الأمر! لا يوجد تناقض! القائمة تحلّ كل التناقضات! العلم اختصاص القومي السوري المسيحي، والإيمان اختصاص الباقين! أنتم جوعى وعاطلون [عن العمل طبعاً]؟ تسلّحوا بالعلم والإيمان! تريدون استعادة الأراضي المغتصبة من الخليج العربي [الفارسي: حتى لا يزعل آية الله السيس تاني] حتى سبتة ومليلة؟ تسلّحوا بالعلم والإيمان!

والله فهمنا: العلم والإيمان! ما هو التفسير السياسي-الاجتماعي لهذا المصطلح الأغرب؟ يعني: إذا قلت لكائن من وطننا الصامد المتصدّي، إنّه لا بدّ أن تنتخب قائمة العلم والإيمان، وردّ عليك هذا الكائن: ما هي المكتسبات التي قد أحصل عليها في حال انتخبت هذه القائمة المصون؛ ماذا ستقول له؟ سأقول له: سد بوزك! أنا واثق من أنكم، أيها الجيل المشاكس، عملاء للغرب وأذناب لأمريكا والاستعمار والصهيونيّة! أنتم تريدون تعريفات دقيقة لشعاراتنا الأعظم، فقط لإفراغها من أي مضمون! أنتم تدوسون الشعارات العظيمة بأقدامكم المارينزيّة – سوف يأتي يوم نأكل أكبادكم فيه: سوف ترى؛ "إنّ غداً لناظره قريب".

لكن نيافة سناتورنا الحمش مخمّس الرحمات [هل يمكن أن نربط بين حمشو وأحد أرقام اللغة العبريّة]، قال إنّه "طلع" يا محلا نوره بانتخابات ديمقراطيّة كاسحة؛ مع أنه لم يشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى قائمة "الجبهة الوطنيّة التقدميّة"، المفروضة على الشعب السوري منذ أيام آحاب!

صدقوني – وليس في هذا الكلام أدنى نفاق لدولتنا الرشيدة الزبيديّة – أنه لو لم تفرض الدولة قائمتها لكانت مصيبتنا أقرب ما يكون إلى تسونامي سياسيّة، بكلّ معنى الكلمة. بمعنى أنه لو لم تكن الدولة تفرض تلك الأسماء التي لا تخلو من مثقفين، لكان بوندستاغنا الموقّر ممتلئاً حتى الثمالة بأسماء من أمثال المرحوم محمود دياب، الذي لم يغادر عرشه الإلهي منذ أيام مينا موحّد القطرين حتى افتكره الله في الدورة الشهريّة الماضية؛ وغيره من نخبة مثقفي البدو في حمص، الذين لا يفرّق أحدهم بين الألف و"الكوندوم"!

محمّد (ص) حمشو: وما أدراك ما محمّد (ص) حمشو!!! مئات ملايين الليرات السوريّة تُصرف على الدعاية الانتخابيّة من قبله في أيّام في بلد حيث راتب الطبيب لا يتجاوز الآلاف السبعة! بطاقات هويّة كان يؤتى بها بالنقود من مناطق نائية فقيرة لانتخاب قائمة العلم والإيمان! أساليب دعائيّة لا تذكّرنا إلاّ بسلالة العرّاب من أجل كرسي يعرف القاعد عليه أنه "لا ينفع ولا يضر".

خارج قائمة الجبهة، ونحن هنا نتكلّم بموضوعيّة مزعجة للجميع؛ لا يوجد غير نوعين: تجّار الطائفيّة وسارقو قوت الشعب الذين يطلق عليهم خطأً اسم "تجّار". ولو أنّ الدولة لا تفرض بالصرماية بعض أسماء، لكان مجلس

شعبنا أكبر قن لديوك أعداء الشعب! ما الحل؟ ديمقراطيّة التصويت في مجتمع أمّي، لا ينقصه غير العقل، هي تسمية أخرى لأغبى أنواع التحقير الذلتي! ديمقراطيّة التصويت لا تعني غير أن يمسك اللصوص وأحباش [ديوك روميّة] الله، كما يسميّهم نيتشه، برقبة الوطن، لسحبه إلى الهاوية!

كما قلنا في لقاء أخير مع الصحافة الهولنديّة، سوريّا تحتاج أوّلاً للديمقراطيّة المعرفيّة، التي تعني فيما تعنيه، أن يكون لي في الوطن المساحة ذاتها التي لأحباش الله! وحين سأمتلك – أنا وغيري من العلمانيين الليبراليين . حيّزاً لا بأس به من إمكانيّة التعبير المعرفي، فهذا يكفي لهز الأسس الأيديولوجيّة الواهية التي يقيم عليها أحباش الله وسبونسراتهم بنيانهم الرملي: لكن ما دامت القيادة القطرية موجودة، ما دام أحمد درغام موجوداً، لا حياة لمن تنادي.

****

وليد جنبلاط: سوق ماريكا وسعيد عقل!!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 1 مارس 2005

قبل سنوات طويلة، وكنت وقتها في بتغرين في ضيافة أحد القوميين السوريين، هارباً من جونيه وحرّها ورطوبة صيفها؛ وكان السائق الذي يتوّلى مسئوليّة تنقّلي، قومياً سوريّاً من منطقة عاليه، من طائفة الروم الأرثوذكس؛ وكان الشاب مهجّراً إلى تلك الضيعة في المتن الشمالي، التي تدور في فلك آل المرّ، المنتمين إلى الطائفة ذاتها، والذين يعتبرون من أقرب حلفاء سوريّا إلى قلب دمشق، والذين أعطوا لبنان أيضاً أوّل سفيرة فوق العادة لإسرائيل، أي الأديبة مي المرّ! وحين سألت السائق عن سبب تهجيره، وهو المنتمي إلى أحد الأحزاب الوطنيّة، التي كان الحزب التقدّمي الاشتراكي [لاحظوا العنوان] أهم الأسماء فيها، قال السائق: لأني مسيحي، وهم دروز! ووقتها ذكر لي الشاب أنّ وليد جنبلاط يجلس على نحو متكرّر قرب سيّارة والده، يبكي، ويستذكر اغتياله على يد من يعتبرهم أعداءه اليوم! ثمّ أكد لي الخبر ذاته صديق من أبرز الأسماء في الحزب التقدّي الاشتراكي!

اغتيل رفيق الحريري وكانت هناك محاولة لاغتيال مروان حمادة . وقبلهما حسن خالد وصبحي الصالح وبشير الجميّل ورشيد كرامي؛ لكن أيضاً اغتيل طوني فرنجيّة وداني شمعون وإيلي حبيقة: فهل أنّ دماء الأخيرين ماء ودماء الأولين ميرون؟ وهل أن التناول الانتقائي لأسماء الشهداء في لبنان يمكن أن يدخل في خانة الموضوعيّة؟ نعم! لقد اغتيل الرئيس الحريري بطريقة هي الأسوأ . والاغتيال كلّه سيء! وكان السيّد جنبلاط أشهر امرىء قيس في هذه الفاجعة، فلا أحد أوقف واستوقف وبكى واستبكى مثله! فهل يمكن أن نذكّر الأستاذ وليد جنبلاط بما كان يقوله في الحريري ذاته قبل أشهر، وذاكرتنا ليست مثقوبة؟ ما علينا! لقد تعوّدنا من السياسيين الناطقين بالعربيّة التنقّل حيث شاءوا من الهوى، فليس هنالك من حبيب لا أوّل ولا آخر!

لا تعتقد، يا سيادة الوزير السابق أو الأسبق – لا فرق – أنّنا ندافع عن النظام السوري، فمواقفنا منه لا تقلّ نقديّة – لكن بمنطق ودون تحريك خارجي – مما يعتقد بعضهم أنّها مواقف نقديّة لكم! لقد دافعنا، رغم ما قلناه بعد اعتقالنا لأسباب سنشرحها يوماً، عن هذا النظام، لأنه لا يوجد حاليّاً أفضل منه؛ ولأنّ تحسّن الأداء عند هذا النظام، رغم رفضنا لمنطقه السلحفاتي، ملفت قياساً لسنوات حكمه القليلة! – نحن نكتب من قلب دمشق، نقاوم المخرز بعينين عاريتين، ونضع رقابنا طوعاً بين سندان الدولة ومطرقة الإرهاب الأصولي! لقد كتبنا بحقّ أحد الحاكمين السابقين بأمره من السوريين في لبنان ما لم يجرؤ على الهمس به أحد من هذه المعارضة الأغرب وقت كان هذا الرجل يتعامل مع كلّ اللبنانيين كقصّر في إحدى الإصلاحيّات! وكان "التغنيج" القطار الأوحد الذي يمكن أن ينقل هذا القاصر من خانة الموالاة إلى خانة المعارضة: فحين كان يغنّج هذا الحاكم بأمره زوزو أكثر من لولو، كان زوزو يقفز مباشرة من بوب الموالاة إلى بوب المعارضة: ومعروف تماماً كيف كان "يصرف" التغنيج في بلد يحكمه "المستر دولار"! فهل هذه ديمقراطيّة في بلد طلع الشعر على أسنان القائمين عليه، وهم يتغنّون بالتقاليد الديمقراطيّة الراسخة فيه؟ الديمقراطيّة الفعليّة لا يمكن لها أن تتواجد إلاّ حيث توجد الحضارة الراسخة: والعرب، كلّهم، لا علاقة لهم بالحضارة: العرب، كلّهم، صنف رديء يختلف فقط بالعبوة الخارجيّة – في اليمن والسعوديّة، مثلاً، الصنف رديء والعبوة أردأ، في لبنان الصنف رديء والعبوة أنظف! هل نحن نتجنّى على "أشقائنا اللبنانيين" حين نقول "إنّ العبوة أنظف والصنف الرديء هو ذاته"؟ إنّ ممارسات بعينها، شهدتها بأم عيني، وبعضها يعرفه القاصي والداني، تشير إلى أنّ سويسرة الشرق لا تقلّ لا حضارة عن أي كيان عروبي أو

إسلامي آخر – الفرق بين سوريّا، مثلاً، وسويسرة الشرق، هو أن السوريين متخلّفون تقليديّاً ويعرفون أنهم أكثر تخلّفاً من دول كانت تأكل لحم البشر قبل عشرين عاماً، في حين أنّ اللبنانيين أقل حضارة من التوغوليين – بما لا يقارن – ويتظاهرون بما يفيد العكس: يعني، إضافة إلى التخلّف المريع، نفاق مع الذات والآخرين! وهاكم الأدلّة القاطعة:

هل تعتقدون مثلاً أن الشعب اللبناني، الذي توحده العدائيّة لسوريّا، يمثّل وحدة وطنيّة، كما أصمّوا آذاننا هذه الأيام؟ لا! المسيحيّون الكاثوليك يعتبرون أنفسهم أقرب إلى فرنسا أو إيطاليا؛ الشيعة مربوطون على أبواب قمّ؛ الأرثوذكس يونان – وربما روس – ناطقون بالعربيّة؛ السنّة، حرسهم الله، يعملون بريموت كونترول أصابع من يمسكه تشكو من تشققات على النمط السعودي؛ والدروز: وحده الله يعرف أين يمكن أن يضعوا القدم الثانية إذا وضعوا الأولى في بيروت أو دمشق.

أمّا الأحزاب على الطريقة اللبنانيّة فحدّث ولا حرج: الكتائب، الأكثر تمسّكاً بالانفتاح على الغرب، حزب عائلي طائفي مناطقي حدوده من الشمال والشرق والغرب والجنوب: بكفيّا! التقدّمي الاشتراكي: درزي بلا منازع! أمل نبيه برّي ما غيره: من جماعة ثارات كربلاء؛ حزب الله [أنصحه بالتوحد مع حزب البعث الذي يبدو أنه يدور في الإطار الطائفي ذاته فيصبح اسمه "حزب الله العربي الاشتراكي"] شقيق لأمل في الطائفة؛ المرابطون: سنّة بيروتيّون! الجماعات التي تعتمد حبيب الملايين منهجاً ومعلّماً: سنّة من كافة المناطق! القوات اللبنانيّة: مسيحيّون من غالبيّة مارونيّة!..إلخ!!!

في توغو، قامت الدنيا ولم تقعد لأن الابن حلّ محلّ أبيه في رئاسة الجمهوريّة: فماذا يمكن أن نقول عن سويسرة الشرق، معارضة وموالين – لا نعتب على أية دولة أخرى من تلك الناطقة بالعربيّة، أقلّه لأن لا أحد فيها يزعم أنه أكثر ديمقراطيّة من المملكة المتحدة – في الشأن ذاته؟

يمكن أن نقدّم أمثلة معروفة للجميع:

وليد جنبلاط هو ابن لكمال جنبلاط؛

بيير الجميّل ابن أمين الجميّل، الذي هو ابن بيير الجميل سنيور؛

نديم الجميّل ابن لبشير الجميّل؛

نائلة معوّض زوجة رينيه معوّض؛

بهيّة الحريري شقيقة رفيق الحريري؛

الياس المرّ "جدّاً" ابن ميشيل المرّ وصهر إميل لحود؛

سليمان ابن طوني ابن سليمان ابن..؛

دوري شمعون شقيق لداني وابن لكميل؛

فارس بويز صهر عمو الياس الهراوي وحمامة سلامه؛

أسامة ابن معروف سعد؛

إميل ابن إميل لحود؛

جيهان أخت هويدا الهاشم؛

غسان، صاحب القطط الأربع، ابن الياس الرحباني؛

آل الخازن حفظهم الله والإقطاع القروسطي؛

عمر كرامي، صاحب الكلمة الأشهر – لا فضّ فوه – منورجيون [سوف نريهم] شقيق باهت لرجل أكثر "بهتاناً" اسمه رشيد كرامي: وهما ولدا..؛

كارلوس إدّه ابن شقيق ريمون إدّه؛

جبران تويني ابن غسّان؛

بهاء ابن رفيق؛

ملاحظة:

لو أن الاكليروس يستطيع الزواج عموماً، لرأيت المطران فلان ابن المطران فلان ابن المطران فلان.. حتى بطرس الرسول؛

هذا الشعب، حتى لا ينخدع أحد، لا يختلف في القبليّة والطائفيّة والإزعاج عن أي شعب ناطق بالعربيّة آخر، من نواكشوط إلى مملكة – هكذا اسمها – البحرين!

التمييز العنصري الذي يمارسه اللبنانيّون، كالسعوديين وباقي الكائنات الخليجيّة، بحق الذين يعملون في سويسرة الشرق من غير الغربيين، كالهنود والباكستانيين والمصريين وأخيراً لا آخراً السوريين، لا يدلّ إلا على نفسيّة بدويّة مريعة مهما كان سمك الجينز الذي يغطي الوشم الكثيف! ولا زلت أذكر تلك الحلقة التي قدمتها مع الأخ نور، في إذاعة صوت المحبّة، زمن الحرب، حول اضطهاد الآسيويين وغيرهم من العاملين على الأرض اللبنانيّة!!

إنّ ما لا يعرفه وليد جنبلاط وبقيّة الجوقة من المعارضين أو الموالين – شهدنا وسمعنا أسلوبهم الحضاري في التخاطب، وأخص هنا بالذكر نعمة الله أبي النصر وعمر كرامي – أن هذا التهييج العاطفي اللاإنساني للعامّة والحشويّة ضدّ الشعب السوري لن يفيد إلاّ في تدمير البلدين، الذي أراه أقرب من النفس إلى الأنف: وليد جنبلاط يعرف أكثر من غيره المعاناة متعدّدة الأوجه للشعب السوري، ولا حاجة لهذا الشعب إلى معاناة من نوعية جديدة! وليد جنبلاط يعرف تماماً أن لا سبيل إلى نقل سوريّا إلى تايلند أو إلى نقل لبنان إلى كاليفورنيا: هذه جغرافيا، والجغرافيا طبيعة، والطبيعة أقوى من البشر، مهما كانت "حكمتهم"!

وليد جنبلاط وجوقة التخلّف من المعارضين والموالين يسعون بالفعل إلى خلق عنصريّة من نوعيّة جديدة، تبعد الأخ عن أخيه والأب عن ابنه والأم عن ابنتها! دون أن ننسى دور أحدهم من السوريين، الذي أسميناه "سيّد تحويل الصديق إلى عدو".

زمان، وبحضور الصديق الكاتب أنطون شعبان، تحدّث إليّ المفكّر سعيد عقل عن أسواق ماريكّا اللبنانيّة، التي أشرفها ماريكّا البرج: أي، رجال الدين والصحفيين والسياسيين. أخشى أن يصبح وليد جنبلاط زعيم السوق الأخيرة "بلا منازع".

كلمة أخيرة للسوريين واللبنانيين: كلهم لصوص، من الطرفين! لا تدعوا أحداً يستغبيكم! كفانا تصديقاً لهؤلاء من أصحاب الملايين، الذين يبيعوننا شعارات ويشترون بثمنها قصوراً وأرصدة في سويسرة الفعليّة.. إلخ!!! على أية حال، كلّ فاسد سوري يمتلك صنواً في لبنان، من المعارضة أو الموالاة! وكما يقول المثل الشعبي: اصطدمت العاهرات فبانت الحقيقة!

رسالة مفتوحة إلى قداسة البطريرك صفير

www.annaqed.com

نبيل فياض، 1 مارس 2005

قد لا يعرف كثيرون أنّ علاقتي العضويّة بالطائفة المارونيّة تجاوزت حدود الانتماء الثقافي–الحضاري، لتصل مرحلة التبنّي المطلق، غير المناقش، لما يطرحه هذا الصرح العظيم، المسمّى "بكركي"، من قرارات. وقد لا يعرف كثيرون أيضاً أن تبلور نظرتي للكون وفهمي للحياة ومقاربتي للأديان بدأت في الكسليك! ففي هذه الجامعة الأهم، تعرّفت إلى الأباتي الراحل، الصديق الأصدق، أمبروسيوس حاج، الذي تعلّمت على يديه معنى أن يكون الإنسان إنساناً؛ معنى أن تحبّ من يعاديك – أنت لا تعادي أحداً – معنى أن تصلّي لمن يسيء إليك – أنت لا تسيء لأحد – معنى أن تغفر لمن يضطهدك – أنت لا تضطهد أحداً؛ وعن أمبروسيوس حاج كتبت أحلى ما يمكن لإنسان أن يكتب، خاصّة بعد رحيله الأصعب؛ وهناك أيضاً تعرّفت إلى الأب الصديق جوزف القزّي، الذي تعلّمت على يديه المعنى "إسلام"، والذي أعتبره الآن، بعد رحيل أمبروسيوس، مرشدي الأوحد، الذي أحتاج إلى شحن منه، بين الفينة والأخرى. – دون أن أنسى، بالمناسبة، أشخاصاً عبروا بسرعة لكن صورهم ما تزال تسكن عمق ذاكرتي غير المثقوبة: الأباتي بولس نعمان، الأب لويس خوند وشقيقه القديس الأب يوحنّا، الأب غسطين مهنّا، الأب إيلي خليفة؛ وطبعاً نيافة المطران الصديق الأبدي مسعود اليوسف والراحل الغالي المونسنيور خليل رستم من الإكليروس السوري الماروني!

قد لا يعرف كثيرون أنه بسبب علاقاتي المارونيّة تمّ اعتقالي في حمص في الثمانينات في الأمن العسكري على يد ضابط اسمه أحمد اليوسف؛ ومن المعتقل الرهيب خرجت، كما كتبت غير مرّة، بأمراض لا أزال أعاني منها حتى الآن! مع ذلك، لم أتوان لحظة في الدفاع عن القضيّة المارونيّة العادلة من قلب دمشق، ومحاربة التيارات الأصوليّة التي تهدّد أوّل ما تهدّد الوجود المسيحي في الشرق، منبع المسيحيّة، رغم ما أتلقّاه من هجوم لا سابق له من هذه التيّارات: من لا يصدّق، ليراجع فقط كم التهديدات بالقتل التي ما برحت تنهال عليّ من المواقع الوهابيّة على شبكة الانترنت! وتحريض شيوخ الوهابيّة للعامّة ضدي، في مكان عملي، واكتفاء ضابط الأمن السياسي، واسمه ريّان مخايل – وهو، بالمناسبة، مسيحي!!! – وقتها، بتأنيبهم بلطف شديد، وقد سمعت وقتها أيضاً أنّ مبلغاً كبيراً تمّ دفعه لإخراج الشيوخ وأذنابهم من الورطة: المثل الأكثر شيوعاً في سوريّا منذ فترة: "ادفع تفرح"! – دون أن ننسى في غمرة هذه "اليرموك" الأصوليّة الإرهابيّة ضدّنا، منع أعمالنا على أعلى المستويات في سوريّا، على يد بعض المسئولين العلويين الذين يلهثون وراء شهادة حسن سلوك وإيمان سنيّة أصوليّة لن ينالوها يوماً.

لا سبيل للإنكار أن أخطاء النظام في دمشق كانت أكثر من مريعة: أهمها تردّده في عزّ قوته في فرض العلمنة في بلد تعدّدي أكثر مما ينبغي، وتلكؤه في التحديث، خاصّة علي صعيد التربية، وقمعه المبرمج الاسترضائي للأصوليين لليسار العلماني من مختلف الطوائف، طمعاً باعتراف أصولي سنّي.

رغم كلّ ما سبق، يبدو أنّ ما يحاك اليوم من مخطّطات للمنطقة صار يستدعي أن نضع أحقادنا وآلامنا جانباً، لأن السفينة، حين تغرق، لا تفرّق بين كبير وصغير، بين رجل دين وعلماني، وبين غنّي وفقير. والمخطّط، كما نراه، ونقلاً عن أحد آباء الكسليك من المخضرمين للغاية، والذي أبلغني بذلك قبل نحو شهرين، يقول بتهدئة الوضع "الأمني" داخل إسرائيل، أي بين الفلسطينيين وإسرائيل من ناحية، ونقل الصراع إلى داخل كلّ دولة عربيّة من ناحية أخرى: وهل هنالك أسهل من إشعال فتيل الطائفيّة، خاصّة بين السنّة والشيعة، شرارة لتفعيل الحروب

الصغيرة؟ شارون لا يستطيع أن يحارب الدول المحيطة به إلى الأبد، ولا يمكنه أن يضمن أي سلاماً معها، لأنه سلام حكومات لا سلام شعوب! شخصيّاً، وأقولها بصراحة مطلقة ودون خوف، كنت معجباً للغاية بالعبقريّة اليهوديّة [كتابي الأوّل كان عن "كافكا"؛ ومقالاتي الأهم كانت عن "فرويد وماركيوزه وبروست وغيرهم"؛ وكنت متعاطفاً للغاية مع قضيّة الهولوكست، بل إن أوّل مقالة كتبتها في حياتي، وكنت في الثامنة عشرة من العمر، كانت عن فانيسا رد غريف، لأنها مثّلت شيئاً للدفاع عن ضحايا الهولوكست! لكن بعد إقامتي الطويلة في جونيه، ورؤيتي لما حصل للمسيحيين على يد الإسرائيليين في الشوف، ومن بعدها لمسيحيي الجنوب، وكنت وقتها في دير فيطرون مع المتروبوليت الصديق فارس معكرون؛ ومن بعدها أحاديث الراحل الأصدق أمبروسيوس حاج لي حول تجربته ككاهن ماروني في إسرائيل: كلّ هذا جعلني أتراجع عن مواقفي السابقة من إسرائيل، واحة الديمقراطية في الشرق الدكتاتوري، كما كانوا يقولون، وقناعتي المطلقة اليوم أنّ الإسرائيليين لا يهمهم غير مصلحتهم الخاصّة، حتى لو اقتضى الأمر التضحية بأقرب الحلفاء إليهم، كما حصل مع جيش لبنان الجنوبي والسيّد أنطوان لحد! ولا أعتقد أنّ ثمّة من هو أفضل من التيارات الإسلاميّة الإرهابيّة لتنفيذ الأغراض الإسرائيليّة في تفجير الحروب الطائفيّة الصغيرة، كما هو حاصل في العراق على يدّ أبي مصعب الزرقاوي!

إنّ اغتيال الرئيس الحريري بهذه الطريقة الإسلاميّة الواضحة، يعني أنّ مخطط التفجير المتنقّل إياه بدأ في لبنان على أمل امتداده إلى سوريّا: فتشتعل المنطقة كلّها، عدا إسرائيل! وفي نهاية الأمر، كلّ من هو إسلامي أو يحمل دماً إسلاميّاً في عروقه، يعمل فقط في خدمة المشروع الإسرائيلي، إن في فكره المتخم حتى القرف بالخرافات الحاخاميّة، أو في أعماله التي لا تحمل سوى البصمات الحشمونيّة، إرادياً كان ذلك أم لا إرادي! وحين نرى بأم العين من استفاد من اغتيال الرئيس الحريري ومن تضرّر، فسوف نفهم تماماً من قتله! الحريري كان رجل النظام السعودي الأهم في بلاد الشام، وبين النظام السعودي وجماعات الإرهاب الإسلامي معركة يعرفها القاصي والداني؛ من ناحية أخرى، لا يمكن المرور دون تساؤل على العداء السعودي القطري والعلاقة القطريّة الأوضح بإسرائيل وجماعات التطرّف الإسلامي على حدّ سواء.- كذلك فاغتيال الرجل، في اعتقادنا، سيكون الباب الذي ستدخل منه إسرائيل والإسلاميّون المنطقة إلى جهنم الحرب الطائفيّة!

إنّ زعزعة الوضع السوري اللبناني على الطريقة الجنبلاطيّة لا يعني غير الرمي بالمنطقة كلّها في أحضان التطرف الإسلامي. أخطاء السوريين، كما قلت، قاتلة؛ وقد كنت في جونيه وقت سقوط العماد ميشيل عون؛ ورأيت دون "ماكياج" التصرّفات المريعة لبعض الضبّاط السوريين – أعرف تماماً أن كثيراً من هذه التصرّفات لا يزال ساري المفعول حتى اليوم. لكن أخطاء اللبنانيين قاتلة أيضاً حين لا يرفعون الصوت، وهم سادة الإعلام الحرّ في المنطقة، ضدّ كلّ من يمارس خطأً من السوريين: من هو الذي باستطاعته ملاحقة أخطاء عشرات ألوف العسكر والاستخباراتيين؟

الأزمة اللبنانيّة، بفعل ترهّل الزمان وتداخل العوامل الخارجيّة والداخليّة، تبدو أكثر من معقّدة: لكن الحلّ لا يكون بالمقابل في رمي المنطقة في أحضان الأصوليّة. موقفنا من النظام السوري ليس إيجابيّا، ولا أعتقد أنكم لم تسمعوا بنبأ اعتقالي لأني انتقدت رموز الفساد والأصوليّة ذات الوجود الأخطبوطي في قلب القرار السوري: واسألوا الأب قزّي فعنده الخبر اليقين – لكن حين سنخيّر بين هذا النظام، الذي يتغيّر نحو الأفضل لكن ببطء والأصوليّة الإسلاميّة الإرهابيّة: فسوف نختار حتماً النظام السوري؛ لكن ضمن شروط لا بدّ من الالتزام بها:

1 . تنظيف القوى الأمنيّة السوريّة من الانتهازيين والاستبداديين والذين لا همّ لهم سوى تضخيم ثرواتهم، خاصّة بعض الموجودين في لبنان، وتحديداً أحدهم الذي صار مثالاً يحتذى كمحترف في نقل الأخوة إلى خانة الأعداء؛

2 . تنظيف الوطن من الإرهاب الأصولي، خاصّة بعض الواقفين في صدر الصورة، والذين أجدني واثقاً في القول، إنهم سيكونون في صدر الصورة أيضاً في حال قيام منظومة حكم أصوليّة – لا سمح الإله – إن في لبنان أو سوريّا؛

3 . توقف السوريين عن تبني بعض التيارات الإرهابيّة الإسلاميّة بذريعة أنه يمكن استخدامها في المعركة "المصيريّة مع العدو الصهيوني"؛ لأن هذه المعركة، كما تشير كلّ الدلائل، بعيدة للغاية: أبعد من موتنا؛ ولأن هؤلاء، كما بدا واضحاً من اتفاق عبّاس–شارون، محكومين بقرارات غيرهم، حتى وإن أظهروا العكس.

4 . إفساح المجال فعليّاً أمام التيارات الديمقراطيّة العلمانيّة الليبراليّة اللاطائفيّة كي تثبت وجودها، خياراً ثالثاً، بدل الخيارين الوحيدين، اللذين أُلزمنا تقليدياً بأن نُحشر بينهما.

إن ما يحصل في لبنان الآن يعني أن الأقليّات، خاصّة المسيحيين، الذين لولاهم لكان لبنان يمناً أخر، سائرة في طريق الانتحار؛ ومعها ستأخذ حتماً كلّ الأقليّات الجديدة الناشئة كالليبراليين والعلمانيين، الذين سيكون مصيرهم القتل الحتمي في حال مدّ الأصوليّون أيديهم إلى الحكم.

إن ما يحصل اليوم في العراق أكثر من كارثي؛ وصورة ابراهيم الجعفري ووراءه حسينه وباقي الركام الخرافي، تحت عنوان الديمقراطيّة الذي لا يبعث في هذه الحالة الأشذ إلاّ على الإقياء، يستدعي من كلّ الأقليّات التضامن لا التنافر ضد المدّ الإرهابي الجارف، بمباركة إسرائيليّة.

إننا نرى بأم العين، كزرقاء اليمامة، الدمار القادم تحت الرايات الخضراء ووسطها "الماغين دافيد"؛ من هنا، فنحن نتوجّه إليكم للجم هذا الجنون، لأنكم إضافة إلى الحكمة، التي لا تنقص كثيرين في الشرق، تتحلون بالشجاعة التي صارت العملة الأندر عند الجميع.

باستطاعتي شخصيّاً الهروب، صائحاً: ليكن بعدي الطوفان! لكني مصمّم، كمعلمي وكمرشدي أمبروسيوس حاج، أن أحارب من أجل ما أعتبره حقّاً حتى الرمق الأخير!

والحق يحرّركم

****

العمامة أم البسطار: الإسلاميّون السوريّون وخرافة الاعتدال!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 23 فبراير 2005

.. وسألني محدّثي الغربي المهتم "للغاية" بالشأن السوري: "هل تعتقد أنّ فلان وفلان وفلان من التيّار الإسلامي السوري يمكن تصنيفهم في خانة الاعتدال أم لا؟" وشعرت طبعاً بالخوف من سؤال محدّثي! "هل أن الغرب بدأ يفكّر جدّياً بأشياء كنّا نعتبرها قبل زمن من رابع المستحيلات؟" – كنت أسأل نفسي طيلة أكثر من عشرة أيّام. الغرب، بكلّ أسف، لم ينظر إلى الشرق الناطق بالعربيّة إلاّ من منظوره الذاتي، الذي غالباً ما يكون خاطئاً، أو وفق تقارير عملائه، الذين أثبتوا على الدوام أنّهم الأبعد عن الموضوعيّة، وفق التعريف الغربي للمصطلح! وكنّا عايشنا . وما نزال نعايش . الأزمة الأمريكيّة في العراق، الناجمة إلى حدّ كبير عن حقائق عملائها، الأوهام بلا منازع، قبيل دخولها العراق! بل إنّ سؤالاً أكثر إزعاجاً ما برح يطارد مخيّلتي: "هل يطرح هؤلاء أنفسهم، بلعبة مزدوجة لا يعرف أحد إلى أين يمكن أن توصلنا، كبدلاء معتدلين في حال حصول أي تغيير؟" يبدو أنّ قدر المواطن السوري أن يعيش بين زنزانة البسطار الأرضيّة وجهنّم العمامة الماورائيّة: مع ذلك، يظلّ البسطار أرحم من العمامة . أقلّه لأن أرضويّة البسطار تتيح لك بعض المجال في مناقشته، في حين أن ماورائيّة العمامة، تحجب عنك أية مساحة لنقاشها، فأطروحاتها من الله: وأنّى للبشري أن يناقش الإلهي؟

حتى الآن، ثمّة من يناقش من السذّج أنّ بعض التيّار الإسلامي "السنّي" السوري يمكن أن يكون معتدلاً: بل وصلت السذاجة . ربما الخنوع المتوارث . ببعض رجال الدين من المسيحيين إلى المشاركة في ندوات "حوار" [كذا] مع أحد رموز الذين يتمّ تسويقهم اليوم . هل بمباركة أمريكيّة، خاصّة وأن والد المذكور كان أحد الرؤساء الفخريين لكنيسة المونيين الأمريكيّة المشبوهة؟ . كمعتدلين إسلاميين سوريين لا يشقّ لهم غبار!!!

<u>بن لادن أم القرضاوي:</u>

ما زلت أذكر تماماً، وكنت وقتها في قطر، حين ذهب يوسف القرضاوي إلى أفغانستان لإقناع القتلة الطالبانيين بوقف تدمير تماثيل بوذا! . تخيّلوا ماذا كان سيفعل المسلمون لو أنّ أحدهم طالب بتدمير الكعبة بوصفها وثناً مزعجاً يقتل كثيراً من عابديه سنويّاً؟ . وعاد القرضاوي المعتدل بخفّي حنين! لماذا؟ لأن القتلة الطالبانيين أكثر إسلاميّة، بما لا يقارن، من القرضاوي المعتدل! فقد استطاعت العصابة المجرمة الملتزمة بدينها، إفحام القرضاوي "المسوّق" جيّداً كمثقّف إسلامي لا سابق له ولا لاحق، بأدلّة فقهيّة من خزانة القرضاوي الصفراء ذاتها، بأن تدمير تلك التحف ذات الطابع الديني البوذي، يتماشى بالكامل مع أدلة الشرع . والعكس صحيح! ووفق منظورنا الخاص، فإن أي مسلم لا يستطيع الالتزام بفقهه ودقائق تاريخه وتفاسيره وشرائعه المملّة دون أن يكون مجرماً! شخصيّاً: أفضّل بن لادن على القرضاوي ونسخه الباهتة! بن لادن مجرم لا يخجل من إجرامه؛ القرضاوي، بالمقابل، يضيف إلى الإجرام الكامن، الذي فقط ينتظر الظرف المناسب للتعبير عن ذاته، نفاق الاعتدال!

النسخ السوريّة الأغبى:

ولأني أعرف كثيرين منهم، وكانت لي معهم التجارب الأسوأ، فإن الحديث عن اعتدال هؤلاء يشكّل نوعاً من الاستغباء الذاتي، الذي لا يمكن لأحد أن يحسدنا عليه! هؤلاء قتلة مخصيّون: وإذا ما حصل وعادت إليهم، لظرف ما لا نرجو حدوثه، ذكورتهم الضائعة، فسوف يقتلون بأشنع مما فعل الطالبانيّون في كابول قبل التحرير الأمريكي: يدفعهم حقد مضاعف . حقد غريزة القتل المكتسبة بالتقليد، وحقد كبت سنوات الإخصاء الطويلة! هل تريدون أسماء؟ لا! لم يستطع الاعتقال خصيَ إرادتنا وجرأتنا، ونحن ما نزال مستعدّين لذكر الأشياء بأسمائها! البوطي؟ نعم! هذا الرجل الذي عمّمه أحد ألوية الأمن الداخلي في "خطيئة" استراتيجيّة ستدفع سوريّا كلها ثمنها يوماً، هو أسوأ ذئب طالباني والذي استطاع إقناع الدولة بأنه حمل الاعتدال الوديع! الحقيقة هي أن الدولة تعرف أنّه يكذب عليها، وهو يعرف أن الدولة تعرف أنه يكذب عليها، والدولة تعرف أنه يعرف أن الدولة تعرف أنه يكذب عليها! ما همّ! كلنا نعرف أن الباطنيّة هي الموضة الأكثر تداولاً هذه الأيّام! هذا البوطي، كما ذكر لي شخصيّاً، وصل تحكّمه بالدولة إلى درجة أن رئيس جهاز الرقابة في الإعلام السوري المدعو محمّد حذيفة [الأدهى أن هذا الكائن الغلط درزي]، كان يتصّل ببوطينا وقتها لأخذ موافقته على كتابي "*حوارات*". الجميل أن البوطي وافق على نشر الكتاب ليس لأنه ديمقراطي–حضاري، بل لاعتقاده أن ليس باستطاعة أحد الردّ عليه . ينظر إلى نفسه كعشرة أثمان إله . خاصة حين يكون من عمر أولاده! وجاء كتابي " *الجمل*" ليكشف عن إجرام هذا الكائن وإرهابه الكامن! فقد راح يقفز، كما أشرنا أكثر من مرّة، كالكنغارو المصاب بالحرقص، من هذا الضابط إلى ذاك؛ من هذا الفرع الاستخباراتي إلى ذاك: وكانت النتيجة منع الكتاب واختفائي في شقّة صديق عراقي–إيراني اسمه ظافر الساعاتي أكثر من ثلاثة أشهر! أمّا آل كفتارو، أشهر مسوّقي الله–البيزنس، فقد كان لي معهم، وهم المعتدلون الذين يتراقص إليهم نيافة المطارنة من أجل الحوار [كذا]، أكثر من قصّة: كثيرون يعرفون موقف المفتي الراحل الذي طاردني طويلاً من أجل حوار معه، وكانت النتيجة إنهاء الحوار مباشرة حين سألته ما إذا كان يوافق على زواج ابنته من مسلم غير سنّي؟ وكثيرون أيضاً يعرفون ما قاله ابنه محمود في الأمن الداخلي [أيضاً] من إني ماروني أرسلني الكسليك لخلق فتنة بين المسلمين: يالطيف!!! وكانت النتيجة "نطوطة" جبانة من قبلي– كنت أخافهم وقتها: والله!!! – بين جادة الخطيب وساحة الميسات: اسمك واسما أبيك وأمك ومن من أقاربك اعتقل أو هرب من سوريّا.. إلخ!!! وأنا أجزم أن هؤلاء، لو كان باستطاعتهم قتلي، لما تردّدوا ثانية! والكاتب حين يمنع عن الكتابة في ما يفترض أنه وطنه، فتلك فعلة لا تختلف كثيراً عن القتل: إنها أسوأ منه! إنها نوع من حضور المرء لجنازته الخاصّة!

العلويّون... أزمتنا!

كما أشرنا أكثر من مرّة، فالعلويّون، كمسئولين، هم الوجه الآخر للكارثة الأصوليّة الإرهابيّة السنيّة! وبعض ضباط المخابرات من العلويين، على سبيل المثال لا الحصر، كانوا يمسكون مع الأصوليين بيد الوطن الأخرى لإيصاله إلى الحائط المسدود! بعض ضباط المخابرات من العلويين، وهم الذين طعن في دينهم على الدوام، كانوا يسابقون الأصوليين في الرالي الأسرع نحو هاوية الإرهاب فقط ليدفعوا عن أنفسهم تهم الكفر؛ من ناحية أخرى، فقد كان العلمانيون المستضعفون الهدف الأسهل لإثبات تأسلم هؤلاء الضباط عبر تكسير أقلام العلمانيين وكتم أنفاسهم – مع ذلك، ما تزال شهادة حسن السلوك الأصوليّة عصيّة عليهم! وكي يكتمل النقل بالزعرور، تمت إناطة الشأن الرقابي الفكري بمجموعة من العلويين المتأسلمين، برئاسة أحمد درغام، متلهفة أكثر للحصول على

شهادة حسن السلوك تلك! وكانت النتيجة كارثيّة على كلّ ما هو حضاري في سوريّا: هل تصدّقون أن البوطي استطاع منع تصوير مسلسل عن يزيد بن معاوية "ما غيره" تحت عنوان الفتنة الأشهر؟

المنطقة كلّها اليوم فوق برميل من الديناميت! والولايات المتحدة تريد فرض ديمقراطيتها السياسيّة على كل المنطقة، شاء من شاء وأبى من أبى: كما كان يقول الختيار! الديمقراطيّة السياسيّة في سوريّا، باعتراف الجميع، لا تعني غير ارتداء البرلمان السوري للجبّة والعمّة، واقتصار المعارف على نجاسة دم البعوضة، ووقوف سقف العلم عند مسألة الشيطان خنزب، الذي يدخل بين المؤمن وصلاته فيسهو عنها؛ الديمقراطيّة السياسيّة في سوريّا لا تعني غير أنه إذا وضعنا أوكسجين مع هيدروجين ينتج لدينا ماء "بإذن الله تعالى"، وانتشار جماعة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف في الشوارع، تحت راية "حكم الغالبيّة"، لفرض حجاب الله أو أهورا مازدا أو رع [اختر، أنت وذوقك] على كل من هو سافر عاهر فاجر، وانقسام المجتمع ثقافيّاً بين من يسبل يديه في الصلاة ومن يشبكهما فوق بطنه.. وما إلى ذلك من الأمور فائقة الأهميّة!!!

الديمقراطيّة المعرفيّة أهم بما لا يقارن من الديمقراطيّة السياسيّة، التي لا تعني غير حكم الرعاع وكبرائهم من النوع المشائخي! القرود في غابات الكونغو – زائير موبوتو سيسيسيكو سابقاً – تعرف أن النظام السوري قوي اليوم، ويستطيع فرض هذه الديمقراطيّة "بالبسطار" تمهيداً لأي انتقال قد تفرضه الظروف إلى الديمقراطيّة السياسيّة: وإذا ظلّ التردّد سيّد الموقف، كما حصل مع منع مسلسل يزيد – بالمناسبة، حين أوردت بعض أخبار تهكميّة حول هذا الخليفة أمير "المؤمنين" [نحمد الله على تصنيفنا بين الكفرة]، ومن ذلك خبر حول قرده المسمّى أبو قيس، احتج أحد الرقباء من قيادتنا القطريّة المغرقة في حكمتها، لأن أبا قيس هو لقب لرئيس مجلس شعبنا الموقّر السابق – كما أمر الحاكم بأمره بوطينا، فسوف نصل حتماً إلى مرحلة يحكمنا فيها أحد السيستانيين من مسوقّي المتعة وثارات كربلاء! الديمقراطيّة المعرفيّة، وقاطنو العصفوريّة يعرفون بالمطلق أن المشايخ يقفون على أرض مغرقة في رمليّتها، تعني تكريس انتماء المواطن لوطنه لا لعشيرته أو طائفته، كما هي الحال في عراق ما بعد صدّام، القومي الاشتراكي؛ تعني تكنيس التراث المشائخي الذي يسود الآن فقط لأن البديل مفقود: هل يعقل أن يظل مواطننا، مهما كانت قدراته الذهنيّة متواضعة، يؤمن في ظل فكر نقدي بأبينا آدم والسيّدة حرمه، وعمّنا نوح وسفينته التي تنافس الأساطيل السادس والسابع والثامن والتاسع، ويونان باشا الذي ابتلعته بلطيّة متوحشة قذرة، وصوفيا لورين اليمن، مدام بلقيس، صاحبة الساقين إياهما، ومسيو سليمان، صاحب الموبايل العجيب، الذي كانت يتلقى المسجات من عصيّات كوخ وأنواع البرغش المختلفة وفيروسات الإيدز العصيّة على التشخيص.. حتى آخر تلك الخرافات الحاخاميّة، التي لو أخبرت بها سكّان دير الصليب لطاردوك بالأحذية حتى الناقورة لاعتقادهم أنّك تستخف بعقولهم؟!

سوريّا الآن على مفرق طرق: وحين ستهوي سوريّا في جهنم الخرافة على الطريقة السيستانيّة المريعة، فسوف لن يلام غير البسطار العلوي، الذي حمى العفن العمائمي الذي سيلف، كالمشنقة، عنق الوطن بالطائفيّة والدجل التلمودي.

****

نصوص سرّانيّة (4)

www.annaqed.com

نبيل فياض، 22 فبراير 2005

إضافة إلى الطقوس الليليّة الخاصّة التي يمارسها اليزيديّون حيال موتاهم في اليومين الثاني والسابع، نراهم يقيمون أيضاً طقوساً أخرى لا تقلّ عنها أهميّة. ففي هذين اليومين ينحرون الذبائح – كلّ وفق قدرته الاقتصاديّة – ويدعون إلى بيوتهم جميع أهل القرية دون استثناء تقريباً. يذهب أهل الميت إلى بيوت الأصدقاء والجيران موجهين لهم دعوة حضور "الخير على الميت"؛ في حين يكلّفون "الكزبر" – شخص بمثابة فراش عند المختار – بالذهاب إلى بقيّة البيوت، وتوجيه الدعوة إلى أصحابها؛ قائلاً لهم: " تفضّلوا إلى الخير في بيت فلان"! فيردّون عليه: "الله يقبله!" وفي السابق كان اليزيديّون يطبخون "الهريسة" عن أرواح موتاهم؛ أمّا الآن فإنهم يطبخون شتّى أنواع الطعام، كالأرز والبرغل والكبّة وغيرها. كما أنّهم يوزّعون قسماً من الطعام على بيوت الأصدقاء والجيران والأقارب؛ وأي بيت لا ترسل له حصّته قد يزعل ويفسّر الأمر على أنه خلاف ما..! ويهتم اليزيديّون بشكل خاص بإطعام الفقراء والمعوزين من هذا "الخير".

لا بدّ أن نشير هنا إلى أن مراسم الوفاة تكلّف ذوي الميت مبالغ كبيرة أحياناً، لذلك فإن أقارب الميت وأصدقاءه يساهمون مع ذويه في تغطية المصاريف التي يتمّ إنفاقها في أسبوع الحداد، كلّ في حدود إمكانياته. ولا يجوز لأهل الميت أن يبقوا بذمتهم أي دَين من هذه النفقات، وإلاّ فإنّ "الخير" يعتبر غير مقبول.

من الضروري الإشارة إلى أنّ اليزيديين يمتنعون عن تأدية كثير من طقوس الوفاة يوم السبت، فهم لا يزورون فيه قبور موتاهم، ولا يأخذون "السفرة" إلى بيت الميت، ولا يذهبون للتعزية من قرية إلى قرية أخرى؛ وإذا تصادف يوم السبت مع اليوم الثالث أو السابع أو الأربعين أو الذكرى السنويّة، فإنهم يؤجّلون إقامة الدعوة [حفلة الخير] إلى وقت آخر، وفق ظروفهم ورغباتهم.

وهم أيضاً يمتنعون خلال فترة الحداد عن تخمير العجين وأكل البصل وشطف بيوتهم بالماء، وغيرها من العادات.

من الجائز اختصار مدّة الحداد إلى ثلاثة أيام أو خمسة، لكن لا يجوز اختصارها إلى عدد زوجي من الأيّام.

في الأمسية الأخيرة من أمسيات الحداد، يتوجّه "القوّالون" ورجال الدين وبقيّة الحاضرين بالقول إلى ذوي الميت إنه من الضروري أن يعودوا إلى أعمالهم الطبيعيّة وأن يغسلوا ملابسهم وأجسامهم: فالدنيا دار فناء، والإنسان مصيره الزوال عاجلاً أم آجلاً؛ عندئذ ينهض أقرب شخص للميت فيقدّم ما شاء له من النذور "للقوّالين"، وفق وضعه المادّي؛ ثمّ يقبّل أياديهم، واحداً واحداً، شاكراً إياهم على ما بذلوه من خدمات جمّة في سبيل ميتهم أثناء أسبوع الحداد. ولأهل الميت الحقّ في ارتجاء "القوّال" أن يستمرّ في زيارة قبر ميتهم حتى اليوم الأربعين.

غالباً ما يمنح اليزيديون حاجيّات الميت الشخصيّة إلى شيخه أو أخيه في الآخرة [الأخ الديني] لاعتقادهم أن هؤلاء هم الشهود في اليوم الآخر على سيرة الميت عندما كان على قيد الحياة. لكنهم يحتفظون بواحدة من حاجيّاته للذكرى.

تختلف ملابس الحداد عند اليزيديّة عمّا هي عليه عند بقيّة الناس، فهم لا يرتدون الملابس السوداء على الإطلاق، وتكتفي النساء بارتداء ثوب بني فاتح، مع نزع غطاء الرأس؛ أمّا الرجال فإنهم لا يغيّرون أزياءهم أبداً

إلاّ إذا كان المتوفي عزيزاً عليهم للغاية؛ عندها يعمدون إلى ارتداء "الشماغ" فوق رؤوسهم بعد قلبه إلى اللون الأحمر الفاتح! أما إذا كان واحدهم يرتدي العقال، فغالباً ما يكتفي بنزعه وشدّ الكوفيّة فوق الرأس.

لا يستحمّ أهل الميت أو يغسلون ملابسهم إلاّ بعد انقضاء فترة الحداد؛ وقد يستمر الأمر حتى أربعين يوماً.

يعتقد اليزيديّون أنه من الخطأ شرعاً ارتداء ملابس الحداد على المسنين. وقد يستمرّ ارتداؤهم لملابس الحداد عاماً واحداً فقط؛ وقد يتواصل سنوات، وأحياناً العمر كلّه.

يستمرّ اليزيديّون على "إخراج" غداء الميت وعشائه صباحاً ومساءً وأخذه إلى بيوت الفقراء كما تقتضي العادة – يجوز أخذه إلى بيوت غيرهم أيضاً – حتى اليوم الأربعين؛ بعدها يقتصر الأمر على أيّام الأربعاء والجمعة والأعياد، حتى يقام الحفل الخيري السنوي عن روح الميت. ثم يستمرّون في إخراج حصّة من الطعام لجميع موتاهم في الأعياد والمناسبات.

إذا تراءى الميت لأحدهم في الحلم، سرعان ما يخرجون حصّته من الطعام إلى أي بيت كان في القرية.

في عيد رأس السنة [سه ري ساله] يأخذون البيض المصبوغ والأطعمة إلى المقابر، فيأكلها الحاضرون هناك أو يرسلونها إلى الفقراء.

لا بدّ أن نوضح أخيراً – كما أشرنا غير مرّة – أنّ اليزيديين يؤمنون بنظريّة الحلول، أي تناسخ الأرواح. فهم يعتقدون أنّ الروح تظل تنتقل بعد الموت من إنسان إلى آخر حتى يوم القيامة، فالله يمتحنها في تجوالها الأبدي من جسد لآخر على مرّ الأجيال والدهور. فالروح لا موطن لها غير الإنسان، الذي يكون، باعتقادهم، قد عاش سابقاً حياة أخرى في صورة ملك أو لص أو حيوان..إلخ! وهكذا، فسوف تظلّ الروح تتقمّص أبداً هذا الجسد بعد أن تفارق ذاك؛ وفي رحلتها الأبديّة هذه قد يكتب الله عليها التعاسة والعذاب والشقاء، أو قد يقدّر لها الرفاه والنعيم والسعادة. لكنه ربما يبقيها هائمة على وجهها في انتظار مصيرها الأبدي المجهول.. فيا له من امتحان صعب!!!

دعاء الترقيني:

الترقيني أو التلقين، دعاء يردّده القوّال فوق القبر أربعين يوماً، وقد يستمرّ في ترديده في الأعياد والمناسبات أيضاً؛ أمّا مضمون هذا الدعاء فهو خليط من اللغتين العربيّة والكرديّة [اللهجة الكرمانجيّة]، ولا يستبعد وجود كلمات تركيّة أو فارسيّة فيه. وبالنظر إلى أن اليزيديين لا يبيحون كتابة تعاليمهم الدينيّة، فمن المرجّح أنّ تغييرات عديدة قد طرأت على مضمون هذا النصّ وشكله، حتى بات من المتعذّر، في الوقت الحاضر، فهم الغرض الذي كان يرمي إليه الدعاء بشكل دقيق، حتى من قبل القوّالين أنفسهم الذين يردّدونه الآن بعفويّة ظاهرة، دون أن يحاولوا التفكير في ماهيته. ومن المرجّح أن الدعاء انتشر بين اليزيديين في فترة حرجة جدّاً من تاريخهم، عندما استطاع الشيخ عدي بن مسافر الأموي أن يجذبهم إلى دعوته، فوقعوا حيارى بين نزعة التخلّي عن دينهم القديم ورغبة التمسّك بالدين الجديد. وعلى أي حال فإن ما حدث كان أحد أشكال المزج التوفيقي بين التيّارين.

في نصّ الدعاء، نجد نوعاً من التناقض الصارخ بين فقرة وأخرى؛ فهو يبدأ، على سبيل المثال، بالقول باللغة الكرديّة: "ئش قه ولي شيخ فه خرى حه قي، ئه ق ريا مريدا حه قي"؛ ومعناه بالعربيّة: "من قول الشيخ فخر الحق، هذا هو طريق المريد المستقيم"؛ ثم يكمل النص بلغة عربيّة ركيكة: "السلام عليكم يا أهل القبور؛ ينزل عليكم هنتي [هنائي] من جنتي من دوعاية [دعاء] الله والرسول". ورغم حدّة التناقض، فقد كان المشرّع في غاية الذكاء، فرغم محاولته نشر مبادىء الديانة الإسلاميّة بين أكراد المنطقة، لم يرم، في الوقت ذاته، إلى نسف دينهم القديم، أيّاً كان شكله، في سبيل تحقيق دعوة خطرة، بمعنى إقامة دولة أمويّة، وعديّ بن مسافر كان من الأمويين، على أنقاض دولة بني العبّاس. إلاّ أنّ الحركة فشلت في عهد "الشيخ حسن"، سليل خلفاء بني أميّة، الذي أعدمه بدر الدين لؤلؤ في قلعة الموصل؛ وفي دعاء "الترقيني" إشارة واضحة إلى ذلك: "وه كى مه له ك

شيخ هسن لى نه كه تن شقاتي": "كي لا يصيبكم ما أصاب الملك الشيخ حسن من شقاء"؛ هذا وفي الدعاء كلمات يصعب ردّها إلى أصلها وتفسير معناها؛ الأمر الذي يعني صعوبة فهم معنى فقرة بأكملها. ولا بدّ أن نلاحظ هنا أن المتكلّم يتحدّث حيناً بلسان الإله، مثل "من جنّتي"؛ ثم يقول، "دعاء الله والرسول". وهذا الأمر كثير الحدوث في النصوص الدينيّة اليزيديّة؛ ومن المعروف أنه لدي اليزيديين أكثر من ثلاثمئة قصيدة دينيّة الطابع [ننصح هنا بمراجعة مجلّة *لالش* اليزيديّة المغرقة في أهميتها البحثيّة].

النصّ الكامل للترقيني:

"ئش قه ولي شيخ فه خرى حه قي، ئه ف ريا مريدا حه قي توى دايم توى باقي. السلام عليكم يا أهل القبور، ينزل عليكم هنتي من جنتي من دوعاية الله والرسول. ئش قولي: أنتم باسمي كنتم ما كي ما كنتم، دنون المراجعة، قلوبنا، متواجهة، ينزل عليكم تانجه. كه رمه كن وده نك هلينن ته رقينى ياسين سه ر من نه جونين ته رقينى ئش ياسيني ده م ده م ئش خاف النوتى شعر نه ش قانونى حه رقه ئش كاف الله ومولى جملى. عالم رسوب فقيري. باسم الله، وبالله، وتالله، أبدي أمتي ئش قسمائى زيدا. كلّمت كل خطا، خطا ئش غيب، غرز ئش غضب. عاف برضا، رضا ئش رحمه، شيخ وبير أوسطا ومربي، يارو برابيت آخرتي وفه رز ئلما سونه تى إنجيل بي فكرت شريعتي. بارتي نه بر القاتى البى صراتى وكى ملك شيخ هسن لى نه كه تن شفاتى. مدين ودولت زى تهاتى ئل ديوانه شيخادي ومه لك شيخ هسن أبو الوفاتي. هه زار ره حمه ت والله تل أمي قه بد ستانى كه ل فى جفاتى".

دعاء السفرة:

وهو خليط من العربيّة الفصحى والعاميّة والكرديّة؛ يمكن اقتراح ترجمته كما يلي:

"الحمد لله! الحمد لله الذي أعطانا، الذي سقانا، الذي كسانا والذي علاّ وحدتنا؛ الذي فضّل ابن آدم على جميع خلائق الله! الذي أنعم على صاحب الطعام؛ اجعل صاحبه من نعمتي، من جنّتي، على هدى [.. لفظ صعب] والذي كان له فيها [السفرة] السبب، مقبول القربان بإذن الله! لتكن هذه سفرة سفرائيل الجليل ومن بركة ابراهيم الخليل. كلّ من منح هذا الطعام تصبح الجنّة له مناماً، والجحيم يحرم عليه، بهمة اسم الشيخ عدي وملك شيخ حسن، عليهما السلام".

ملاحظة:

نرجو من الأخوة اليزيديين تقديم أي اقتراح بشأن النصوص التي نحرص باستمرار على مواصلة تقديمها خدمة للثقافة ببعدها الإنساني.

نصوص سرّانيّة (3) أوراق يزيديّة: مراسم الوفاة عند اليزيديين

www.annaqed.com

1 . طقوس وعادات وتقاليد:

تتكرّر زيارة النساء للقبر صباحاً ومساء، على الصورة التي ذكرناها آنفاً طيلة فترة الحداد البالغة سبعة أيام. وفي كلّ مرّة يجب أن يردّد "القوّال" فوق القبر دعاء "الترقيني" إضافة إلى الدق على الدف والنفخ في الشبّابة على حدّ تعبير اليزيديّة. ولأهل الميت بعد انتهاء فترة الحداد أن يطلبوا من "القوّال" مواصلة ترديد "الترقيني" على فقيدهم أربعين يوماً؛ فيذهب عندئذ إلى القبر وحده لتنفيذ واجبه الديني وبدون الدفّ والشبابة. وتستمرّ زيارة النسوة للقبر أيضاً أربعين يوماً دون القوّالين. وفي هذه الحالة يكون عليهنّ أن ينثرن البخور من البيت إلى المقبرة داخل "طاوة" تحملها إحداهن وهي تمشي في المقدّمة على أن يجري إلقاء الجمرات الناريّة والبخور قرب القبر. بعد الأربعين تقتصر زيارتهن للقبر على أيام الأربعاء والجمعة والأعياد، حاملات البخور معهن إلى المقبرة أيضاً.

وكما ذكرنا، فإن فترة الحداد المقرّرة عند اليزيديّة هي سبعة أيام؛ ومن الجائز اختصارها إلى خمسة أيام عند الضرورة القصوى، كأن تكون حالة ذوي الميت الاقتصاديّة متدنيّة؛ وهم يولون اليوم الأوّل والثالث والسابع واليوم الأربعين والذكرى السنويّة أهميّة استثنائيّة حيث ينحرون فيها الذبائح ويقيمون الولائم ويوزّعون الخيرات، إكراماً لروح الميت.

لا يفارق منزل الميت طيلة فترة الحداد عدد من القوّالين وبيره وشيخه وأخ الآخرة، إن كانوا من أهل المنطقة!

يقوم أصدقاء الميت وأقاربه وجيرانه بأخذ " سفرة طعام " إلى بيته ثلاث مرّات يوميّاً، ويمكن "للسفرة" أن تتضمن أي طعام كان. ولا يجوز لأهل الميت أن يطبخوا خلال فترة الحداد – عدا الأيام الأوّل والثالث والسابع – وعليهم استدعاء الأقارب والجيران والأصدقاء ليشاركوهم صباحاً ومساء في تناول طعام "السفرة" المتجمّع عندهم؛ وما زاد عنهم يوزّع على الفقراء والمعوزين. أمّا بقيّة أهل القرية فيأخذون "السفرة" إلى بيت الميت مرّة واحدة وفي أي وقت كان بعد فترة الحداد.

ابتداء من اليوم الأوّل للوفاة يستمر توافد أهل القرية على منزل الميت صباحاً وعصراً ومساء. ومن عادة اليزيديّة تقديم القهوة المرّة والسجائر في هذه المناسبة، فيقول كلّ معزّ : "الله يرحمه".

يشارك اليزيديّة في طقوسهم هذه أصدقاؤهم من المسلمين والمسيحيين دون أي اعتراض طبعاً؛ إلاّ أنه من غير المباح لهم الحضور في الأمسيّات حيث يمارس اليزيديّون طقوساً دينيّة، حسب رأيهم، على جانب كبير من السريّة والكتمان.

تمارس هذه الطقوس ليلاً فقط، إذ يتقاطر بعد الغروب أهل القرية رجالاً ونساء على منزل الميت ليشاركوا أهل الميت في مصابهم من جهة، وليستمعوا إلى النصائح والتعاليم الدينيّة من جهة أخرى. وعادة ما يجبس الرجال على شكل حلقة يتصدّرها "القوّالون" وبقيّة رجال الدين، في حين تنزوي النساء في مكان آخر من البيت إلى أن يكتمل المجلس "الديوان".

عندها يقترح أي شخص الكفّ عن الأحاديث الدنيويّة التي لا أخر لها والاستماع إلى علم "الشيخ عديّ بن مسافر".

يتهيّأ القوّالون لممارسة الواجب الملقى على عاتقهم، فيرجون أكبر الحاضرين سنّاً كي يجلس مقابلهم، فيخاطبوا الحاضرين من خلال التحدّث إليه. وهنا تتجلّى لنا مركزيّة دينيّة صارمة قد لا نجد لها نظيراً حتى في أنظمة كثير من الأحزاب أو الجمعيّات التي تعمل في أقصى حدود السريّة؛ إذ ينقطع الحاضرون عن التدخين وشرب

الماء، ويعتدلون في جلستهم بكلّ خشوع ورهبة، وكلّهم آذان صاغية لما سيردّده القوالون؛ وإذا حضر أيّ شخص بعد هذا يظلّ واقفاً إلى أن يأذن له القوّال بالجلوس؛ بقوله: "دوعايا"؛ أي، "دعاء".

يبدأ الحديث أكثر القوّالين تضلّعاً في العلم، بعد أن يستأذن من بقيّة القوّالين ورجال الدين الحاضرين فيأذنوا له. وفي البداية ينادي القوّال الشخص المسنّ المواجه له باسمه؛ فيجيبه بكلمة: "بلى". ويمهد القوّال لموضوعه بمقدّمة يمجّد فيها الشيخ "عدي"، ويعدّد مآثره وفضائله. ثم يدخل في صلب الموضوع. وعادة ما يكون قد هيّأ في ذهنه مسبقاً موضوعاً بعينه، ذا هدف ديني أو اجتماعي. وفي مجالس كهذه يدور الحديث حول عبادة الله والموت والحياة وتمجيد الفضائل الانسانيّة من جهة، ومحاربة الشرور الاجتماعيّة من جهة أخرى. على أيّة حال، القوّال حرّ في اختيار موضوعه بالمطلق، إلاّ أنه يختار بصورة عامّة قصصاً ذات مغزى من سيرة الشيخ عدي أو أحد أصحابه ليقارنها مع وقائع آنيّة، مؤكّداً كلامه بفقرات [سبقات والمفرد سبقة] من قصائد دينيّة عديدة [أقوال الشيخ عدي]، يختارها بحيث تناسب الفكرة المطروحة. وهكذا، يستمر في الحديث حتى يكتمل موضوعه في حدود فترة زمنيّة لا تتجاوز النصف ساعة. ويعقب ذلك استراحة قصيرة يتناول الحاضرون خلالها الماء ويدخنون. يطلق اليزيديّة على هذا الحديث اسم "الصحبي"؛ أي الحكاية الدينيّة.

بعد الاستراحة مباشرة، يعود القوّال ذاته إلى مخاطبة الرجل المسنّ المواجه له. وبعد مقدّمة قصيرة، يشرع القوّال بإلقاء "قول" "مسكين وزار"؛ وهي قصيدة دينيّة [قول] تعالج بأسلوب شعري وفلسفي موضوع الموت كنهاية حتميّة لكلّ إنسان. وإذا كان بين الحاضرين عدد من رجال الدين على علم بهذه القصيدة، فإنهم يساهمون مع "القوّالين" بترديدها غناء، وإلاّ فإن القوّال يكتفي بإلقائها خطابة على مسامع الحاضرين، شارحاً لهم بالتفصيل مغزى كلّ فقرة من فقرات القصيدة، وهم يقبلون بكلّ كلمة من كلمات هذه القصائد أو "أقوال الشيخ عدي" على أنها حقائق ثابتة لا يرقى إليها الشك أبداً. وحين يصل "القوّال" إلى نهاية القصيدة [القول] يختم الموضوع ؛ بالقول: "ئه م كيمن وشخادي ته مامه".

هنا يتقدّم أحد أقارب الميت من القوّال مقبّلاً يده، قائلاً: "الشيخ عدي يقبل خدمتك"؛ تقديراً له على ما بذل من جهد في سبيل الميت. أمّا بقيّة الحاضرين فقد يقبّلون الأرض أو يقبلون يد أقرب رجل دين يجلس معهم أو يقبّلون زيقهم "طوق يزيد" أو يقبّلون "براة" تحفظ عادة في جيوبهم لاعتقادهم أنها تدفع عنهم الشرور عند الملمّات.

عند نهاية الأمسية يقدّمون العشاء للقوّالين؛ وعليهم أن يأكلوا منه ولو لقمة واحدة؛ أمّا بقيّة الحاضرين، فيقدّمون لهم "باشيفي"، وهي كلمة كردية معناها "ما بعد العشاء". ومن الأفضل تقديم الزبيب ضمن "الباشيفي"؛ وفي حال تعذّر الحصول عليه، فإنهم يستعيضون عنه بالتين أو التمر أو السكّر. وكلّ شخص ملزم بتناول ولو قليل من الباشيفي.

عند الانتهاء من تناول العشاء والباشيفي يردّد القوّال دعاء "السفرة"؛ وعلى كل يزيدي أو يزيديّة تناول ولو شيء رمزي من الطعام أو "الباشيفي" بعد دعاء "السفرة" مباشرة. وبعدها يقدّمون القهوة والسجائر، على أن يبدأوا بالتقديم للقوّالين قبل الجميع. وهكذا، تنتهي طقوس ليلة الوفاة الأولى. ويتفرّق الحاضرون في ساعة متأخرة من الليل؛ بعد أن يقول كلّ منهم لذوي الميت: "الله يرحمه".

تجري في باقي الليالي – عدا الليلتين الثالثة والسابعة – الطقوس ذاتها وبالصورة ذاتها التي ذكرناها آنفاً، إلاّ أن القوّالين لا يعيدون قصيدة "قول مسكين وزار"؛ وإنما يستعيضون عنها بقصيدة أخرى من القصائد الدينيّة الكثيرة التي يحفظونها. ويمكن أيضاً أن يقتصر الاحتفال على ترديد قصيدة [قول] دون "صحبي" في المقدّمة.

في اليومين الثالث والسابع يتخذ الاحتفال أهميّة خاصّة، حيث يمارس "القوّالون"، إضافة إلى ما ذكرناه، طقوساً تختلف عن سابقتها يسمّونها "سماع". و"السماع" يجري بعد حكاية "الصحبي". وهنا ينبغي أن يترجّى شيخ الميت

من القوّالين إجراء "السماع" على الميت؛ وإذا كان رجلاً يطلب "القوّالون" إحضار الدف والشبّابة اللذين يحتفظ بهما في منزل الميت خلال فترة الحداد. يقف الجميع إجلالاً واحتراماً عند إحضار الدف والشبابة كونهما مقدّسين عند اليزيديّة. يبدأ أحد "القوّالين" بالدق على الدف ويواصل آخر النفخ في الشبابة؛ وتنضم إلى القوّالين فرقة من "الكواجك" أو رجال الدين ليواصلوا تأدية السماع غناءً على أنغام الشبّابة والدف. عند بعض مقاطع السماع يقف الحاضرون إجلالاً ويبدون خشوعاً لا نظير له؛ وعند مقاطع أخرى يقف القوّالون وهم يواصلون العزف والغناء وقد طغى عليهم الحماس الديني. وهكذا، تستمرّ الجلسة حتى نهاية السماع. وهنالك خمسة سماعات؛ هي: سماع القانوني وسماع شرف الدين وسماع الشيخ شمس وسماع زرزاي وسماع العالي؛ وكلّ سماع يختلف عن الآخر من حيث الكلمات ومن حيث الأداء أيضاً. وكما ذكرنا، فالقوّالون يؤدّون أي سماع يطلبه منهم شيخ الميت؛ وتكون تأديتهم للسماع بمصاحبة دف واحد وشبّابة واحدة فقط، إلاّ إذا كان الميت قد أسدى في حياته خدمات دينيّة لليزيديّة؛ وفي هذه الحالة يجوز استخدام دفّين وشبابتين أو أكثر. لكن السماع لا يقال إذا كان المتوفي امرأة، إلاّ إذا كانت من نسل أحد القوّالين. من ناحية أخرى، فإن إجراء السماع يتطلّب موهبة خاصّة في حفظ اللحن والغناء والحركة. وطبعاً لا يظهر بين كلّ جيل من القوّالين من يتحلّى بهذه الصفات غير عدد محدود للغاية لا يتجاوز أصابع اليدين؛ الأمر الذي ألجأ أولاد القوّالين إلى البحث عن سبل أخرى للعيش، وهو ما أوجد وضعاً يهدّد بزوال هذا التراث الذي يبدو نادراً ما دوّن منه. وفي اعتقادنا أن الواجب الحضاري يملي على كلّ يزيدي أو يزيديّة المساهمة في إنقاذ هذا التراث من الضياع بضياع حافظيه.

نصوص سرّانيّة (2) أوراق يزيديّة: مراسم الوفاة عند اليزيديين

www.annaqed.com

نبيل فياض، 13 ديسمبر 2004

طقوس وعادات وتقاليد

يؤمن اليزيديّة باليوم الآخر، وما يعقب ذلك من ثواب أو عقاب، وفي الوقت ذاته يعتقدون بنظريّة الحلول، أي تناسخ الأرواح، ويذهبون إلى أنّ الروح تبقى هائمة إلى أن يهيء الله لها فرصة التقمّص مجدّداً. لذلك نراهم يولون موتاهم أهميّة كبيرة، ويمارسون إزاءهم طقوساً قد لا نجد لها نظيراً عند غيرهم.

قد تختلف مراسم الوفاة عند اليزيديين من منطقة إلى أخرى في بعض السمات الثانويّة؛ إلاّ أنّ هنالك طقوساً هامّة لا يمكن التهاون فيها أبداً، وأي تهاون فيها يعتبر إساءة كبرى لذكرى الميت في مثواه الأخير.

ويمارس اليزيديّون بعض الطقوس إزاء موتاهم بصورة سريّة للغاية. . فما الذي يفعلونه في السرّ؟

حاول بعض الكتّاب والمؤرّخين إماطة اللثام عن تلك الطقوس السريّة، إلاّ أنّ محاولاتهم لم تثمر؛ بل إن آراء بعضهم جاءت غريبة إلى درجة السخف، حيث ذكر أحدهم أنّ اليزيديّة يغسلون موتاهم بماء البصل.

لا بدّ أن نشير بصراحة تامّة إلى أنّه من الصعب للغاية تقديم صورة واضحة وشفافة ومتكاملة عن مراسم الوفاة عند اليزيديين، لأسباب لا مجال لشرحها هنا؛ لذلك سنكتفي بعرض صورة لمراسم الوفاة في بلدات بحزاني وبعشيقة وباعذرة، حيث يمارس اليزيدييون هذه الطقوس بشكل انموذجي دون تهاون في صغيرة أو كبيرة؛ من هنا، فإن الحديث عن مراسم الوفاة سوف يقتصر على ما يجري فقط في هذه المناطق، دون تطرّق إلى طبيعة المراسم في بقيّة المناطق اليزيديّة، لتشابهها في الأصول الرئيسة.

لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن مراسم الوفاة لا تنطبق على الأطفال دون سنّ العاشرة.

يشارك اليزيديين أصدقاؤهم من المسلمين أو المسيحيين في مراسم الوفاة ذات الطابع العلني، دون اعتراض من أحد طبعاً؛ لكن من غير المباح حضور غير اليزيديين في المراسم التي تقام ليلاً حيث يمارسون طقوساً سريّة على جانب كبير من السريّة والكتمان.

عندما تحين منية اليزيدي، يسرع أهله بطلب أقاربه وأصدقائه وشيخه وبيره وأخيه الديني، أي أخ الآخرة، إن لم يكن من المتعذّر حضورهم. وإذا ظلّ المحتضر يعاني سكرات الموت زمناً طويلاً فإنهم يعزون ذلك إلى غياب أحد هؤلاء الأحبّة الذين تمّ ذكرهم. عندها يلقون عند رأس المريض حاجة من حاجيّات الشخص الغائب كبديل عن حضوره. ويعتقد اليزيديون أنّ الملك عزرائيل، عندما يخطف روح إنسان، إنما يذبحه ذبح الشاة.

تجري للميت عمليّة "التفنيط" في لحظة الموت بالذات؛ والتفنيط تقليد ديني فائق الأهميّة، حيث تذاب "براة الشيخ عدي" في طاسة ماء لتسكب منها عدّة قطرات في فم الميت. ويفضّل أن يقوم بالتفنيط أحد رجال الدين؛ وفي حال عدم وجود أي من هؤلاء، يجوز أن يقوم بذلك أي يزيدي آخر. ويتشاءم اليزيديون إذا مات أحدهم في الغربة دون تفنيط، ويعتبرون ذلك دليل نحس بالنسبة للميت.

لكلّ عائلة يزيديّة مقبرة خاصّة تجاور أحد المزارات المنتشرة حول قراهم. والمكلّفون شرعاً بحفر القبر هم بيت الكوجك. وعلى ذوي الميت إبلاغهم بحدوث الوفاة كي يقوموا بحفر القبر في المكان الذي ترتأيه العائلة. ويحتّم

على أهل الميت أيضاً أن يرسلوا في طلب إثنين من القوّالين. وكثيراً ما يطلق اليزيديوّن العيارات الناريّة كدليل على إعلان الوفاة.

المكلّفون بغسل الميت هم شيخه أو بيره أو أخوه الديني. ويسكب هؤلاء عادة طاسة ماء أو طاستين على رأس الميت ليشرع الآخرون في غسله. ولا يجوز أن يقوم أهل الميت بغسل ميتهم، ويستخدم اليزيديون الصابون في غسل موتاهم، شريطة أن لا يكون قد استعمل سابقاً. أمّا القتلى فلا يغسلون عندهم أبداً، بل يكفّنون مباشرة.

بعد الغسل يؤدّي "القوّالون" لحناً دينيّاً خاصّاً فوق الميت، بمصاحبة "الدف والشبابة" المقدّسين. وفي موضع غسل الميت تماماً يوقد سراج طيلة فترة الحداد بعد غروب الشمس مباشرة.

يلبس اليزيديّون الموتى ثياباً بيضاء جديدة غير مستعملة إطلاقاً. ويجب أن يكون زيق الثوب مفتوحاً على شكل دائرة يسمّونها "طوق يزيد"؛ ومن الضروري أيضاً شدّ حزام من القماش على وسط الميت، رجلاً كان أم إمرأة. والكفن مصنوع هو الآخر من القماش الأبيض. وبعد التكفين يقوم شيخ الميت بربط الكفن من جهة الرأس بواسطة خيط شرط أن يقوم الشيخ ذاته بحلّه وقت الدفن. ولا صحّة لما ذكره معظم الكتّاب من أنّ اليزيديّة يحشون منافذ جسد الميت بالقطن، كما هي الحال عند المسلمين عموماً.

يترك الميت مسجّى في مكانه لحين إحضار "الداره به ست"؛ والداره به ست كناية عن سدية مكوّنة من خشبتين معمّدتين في ماء "العين البيضاء"، في "لالش"، مقرّ حج اليزيديّة. وتربط هاتان الخشبتان بحبال من الصوف. ولا يستخدم اليزيديّة التابوت في نقل موتاهم، إلاّ إذا توفي اليزيدي في مكان بعيد كثيراً عن موضع سكنه؛ عندئذ يجب أن يوضع التابوت فوق "الداره به ست". وحين نقل الجثمان من الغرفة إلى فناء المنزل [الحوش]، لا بدّ من رفعه عن الأرض وإعادته إليها ثلاث مرّات متتالية. ويربط الجثمان بالحبال فوق "الداره به ست" جيّداً؛ شريطة أن يكون رأس الميت إلى جهة الأمام.

وفي الوقت نفسه يهيئون طبقاً من الخبز، يضعون فوقه شيئاً من الحلوى أو الفاكهة، كالزبيب أو التين أو التمر، أو السكّر أو التفاح أو البرتقال: وهو ما يطلقون عليه اسم "كور بالا له". وهو في الأساس غذاء لحفّاري القبور، ومع الزمن تحوّل إلى تقليد ديني محض. إضافة إلى ما سبق، يتقيّد اليزيديّون عند فتح القبر بنحر ذبيحة من إناث الطيور أو الحيوانات، التي لا بدّ أن تؤخذ كلّها أو جزءاً منها بعد طبخها إلى بيت الكوجك الذين قاموا بحفر القبر. وعادة لا يأكل هؤلاء الذبيحة بل يعطونها للفقراء.

يبدأ القوّالون بتأدية ألحان دينيّة أخرى على الميت وهو فوق "الداره به ست". وعادة ما ترتفع في لحظات كهذه أصوات العويل والنحيب: ما أمرّها من لحظات قاسية، وما أمّر فراق الأحبّة إلى الأبد..! وسرعان ما يغيّر القوّالون الألحان الدينيّة؛ وعندها يرفع "الداره به ست" عن الأرض ويعاد إليها ثلاث مرّات متتالية؛ ثمّ يحمل فوق الأكتاف، ويبدأ الموكب سيره إلى المقبرة. ويكون القوّالون في المقدّمة، وهم يواصلون تأدية الألحان الدينية. يليهم حاملو "الداره به ست"؛ وإلى جانبهم يسير شخص ما وقد رفع "الكور بالا له" على رأسه. ويتبعهم رجال الدين ثمّ المشيعون من رجال ونساء. ويعمد أهل كلّ بيت يمرّ الموكب من أمامه إلى رشّ الماء حيث يسير النعش. ولكلّ عائلة طريق خاص من البيت إلى المقبرة لا يجوز تغييره، حتى لو وجدت طرق أخرى.

لا يبيح اليزيديّون للنساء حضور الدفن، لذلك يتمّ إيقافهن قبل الوصول إلى المقبرة بقليل. لكنهن يجلسن للحظة في طريق العودة إلى بيوتهن. ويسود الاعتقاد بأن من لا تجلس في الطريق قد تأخذ معها النحس إلى البيت. وتتكرّر استراحة النساء هذه عند كلّ زيارة إلى المقبرة. والاستراحة لا تشمل الرجال.

عند الوصول إلى المقبرة يتوقّف القوّالون عن تأدية الألحان الدينيّة بعد وضع "الداره به ست" على الأرض. ويجلس المشيّعون على شكل حلقة. ثم ينصرف أحد القوّالين إلى ترديد دعاء "سه رى مه ركي"، قرب القبر؛ حتى إذا انتهى منه أخذ يردّد قولاً آخر هو "الترقيني". وهذان الدعاءان يجب أن يردّدهما "القوّال" بصمت قبل الدفن.

يقوم حامل طبق "الكور بالا له" بعرض ما في الطبق من طعام على المشيّعين؛ وهم لا يتناولون شيئاً منه عادة؛ وقد يقضم بعضهم منه كسرة خبز بقطر لا يزيد عن ثلاثة سنتيمترات. وبعدها يرسل الطبق إلى إحدى العوائل الفقيرة في القرية.

عند إنزال الجثمان في القبر يقوم الشيخ بفتح الكفن من جهة الرأس؛ ووجوه الموتى عند اليزيديّة تُدار باتجاه الجنوب، على أن يكون الرأس إلى جهة الغرب والجسم ممدّداً على الجانب الأيمن. وهم يبنون حول الجثّة جداراً من الطين والحجارة، يضعون حوله ألواحاً صخريّة عريضة على أن لا تلامس صدر الميت. يقوم شيخ الميت برش التراب فوق الجثّة ثم يتبعه المشيّعون، الذين يشاركون بدورهم أيضاً في إهالة التراب على الجثمان حتى يعلو القبر بمقدار شبرين فوق سطح الأرض. وعند طرفي القبر توضع شواخص حجريّة كي لا تضيع معالمه مستقبلاً. وقبور اليزيديّة تمتد من الشرق إلى الغرب.

بعد الانتهاء من الدفن ينزع كلّ مشيّع حذاءه، ثمّ ينفض باطن قدميه وكفيّه قبل الانصراف.

يكون آنذاك أقرباء الميت قد أوقفوا عند مدخل المقبرة. يتقدّم كلّ مشيّع لتقديم التعازي إلى ذوي الميت، بعد أن يصافحهم. وأي كلمة رقيقة تصلح عندهم للعزاء؛ كأن يقال: "الدايم والباقي الله"؛ أو: "الله يرحمه"؛ أو: "الله يجبر قلوبكم"؛ أو: "أمر الله على الرأس وعلى العين". يعود بعدها المشيّعون إلى بيت الميت حيث يقدّمون لهم القهوة المرّة والسجائر.

لا يدفن اليزيديّون موتاهم ليلاً إلاّ إذا كان القبر قد افتتح قبل الغروب.

يصنع اليزيديّون نعشاً رمزيّاً للميت، يتركونه في فناء المنزل إذا كان المتوفّى رجلاً. والنعش الرمزي عبارة عن سرير خشبي أو حديدي، توضع فوقه بعض الأغطية .

بعد العودة من المقبرة مباشرة، يبدأ القوّالون بتأدية ألحان دينيّة إيقاعيّة فوق النعش الرمزي. وتجتمع النسوة حول النعش الرمزي وهن يضربن صدورهن ويلطمن خدودهن. وقد تعفّر النساء وجوههن بالطين أو "الرماد" إذا كان الميت عزيزاً؛ أو قد يعمدن إلى قصّ جذائلهنّ مبالغة في الحزن. وبعد فترة من النواح والعويل فوق النعش الرمزي، يتجه موكبهنّ إلى المقبرة حيث ينبغي أن يعزف القوّالون الألحان الدينيّة مرّة أخرى فوق القبر، في حين تجتمع النساء حول القبر، ليواصلن اللطم والبكاء. وقد لا يعدمن من بينهنّ شاعرة تعرف كيف تثير لواعج النفوس بقصائد رثاء حزينة.

إذا كان الميت في شرخ الصبا، فإن نوعيّة من النساء تستدعى لمواصلة اللطم، في حين يكون قرع الطبول وعزف المزامير على أشدّه؛ كلّ هذا شريطة أن تكون مهمّة القوّالين قد انتهت.

نصوص سرّانيّة

www.annaqed.com

نبيل فياض، 7 ديسمبر 2004

من المعروف أن منطقة شرق المتوسّط كانت وما زالت إحدى أهمّ مراكز الفكر السرّاني [الباطني] في العالم؛ وماتزال هذه السرّانيّة حيّة للغاية في الطوائف المسمّاة "باطنيّة"، خاصّة في مناطق إيران وسوريّا وتركيّا حتى ألبانيا. فهذا الخط الممتد من غرب إيران، أي العلي–إلهيّة وربما الشيعة الإثناعشريّة كلّها، بمن فيهم فيليّو العراق؛ مروراً باليزيديين والكاكائيين والابراهيميين والشبك؛ ومن ثم القزل باش الأتراك والنصيريين [العلويين] في سوريّا وأسيا الصغرى؛ وإلى حدّ ما الدروز والإسماعيليين؛ حتى البكطاش في ألبانيا. وفي هذه المقالات سنحاول إلقاء الضوء على بعض من تلك الطوائف السرّانيّة؛ وسنبدأ بميثرا الذي انتقل كثير من تفاصيل عبادته إلى إحدى الديانات الهامة عالميّاً، أي المسيحيّة. دون أن ننسى أن عبادة ميثرا ازدهرت في قرون ما قبل الإسلام في مناطق النصيريين الحاليّة.

ميثرا: الإله المهزوم!

لا يمكن فهم الوضع الميثولوجي–الديني لمنطقة الشرق الأوسط إلاّ عبر تلك اللوحة الفسيفسائية التي يساهم كلّ معتقد في إضافة حجر صغير إليها بحيث يبدو أن تجاهل تفصيل صغير من تلك المعتقدات يمكن أن يشوّه الصورة البانوراميّة الميتافيزيكيّة!

يحتفل كلّ المسيحيين تقريباً بعيد ميلاد المسيح في الخامس والعشرين من كانون الأوّل . ديسمبر من كلّ عام! ومع أنّ المؤمنين بالمسيح يختلفون فيما بينهم حول ماهيته، فالمسيحيّة الأرثوذكسيّة تقول إنه "إله منبثق من إله"، رغم تناقض المسيحيين الأرثوذكس حول بعض التفاصيل، في حين تقول بعض المسيحيّة اللاتقليديّة، كشهود يهوه، أو جماعة لاهوت الصيرورة، والمسلمون، إنه نبي مرسل مع بعض الاختلافات في التفاصيل، فإن كلّ أولئك المؤمنين أن يسوع هو المسيح يرفضون قطعيّاً اعتبار يسوع إله الشمس: فمن أين جاء الاحتفال بعيد ميلاده يوم الخامس والعشرين من كانون الأوّل . ديسمبر، البداية تقريباً لعودة النهار عن القصر، وولادة الشمس، إذن؟ ومن هو إله الشمس هذا الذي أخذ يسوع بعض سماته والذي ما تزال بعض سمات عبادته، كعيد الميلاد مثلاً، موجودة في المسيحيّة حتى الآن؟

ميثرا: مدخل تعريفي!

لا شكّ أن أهورا مازدا، إله الخير في الزرادشتية، أهم إله في البانثيون الإيراني القديم. لكن هذا لا يعني أنه كان الإله الأوحد بالنسبة لهم؛ فبمحاذاة أناهيتا، كان ميثرا أحد الآلهة الرئيسة في ذلك البانثيون؛ وهو الذي عبر حدود العالم الفارسي ليصبح من ثمّ أهم إله في الديانة السرانيّة–الباطنيّة التي كانت شائعة آنذاك في الامبراطوريّة الرومانيّة! بل غالباً ما ذكر ميثرا في الأفستا والأدب الزرادشتي الحديث؛ كما أنّ الأفستا تكرّس له ترتيلة بأكملها! إضافة إلى ما ذكرناه آنفاً، يمكننا الإشارة أيضاً إلى الميثراكانا، وهو احتفال سنوي كبير يقام في الشهر السابع من التقويم الزرادشتي، مكرّس لميثرا أيضاً، كما يدلّ اسمه، واستمرّت أشكال معدّلة منه حتى دخول المسلمين المنطقة.

ثمّة مراجع أخرى عديدة تقودنا كلها إلى إله الشمس هذا: فالمخطوطات الأخمينيّة، بدءاً بأرتحشتا الثاني (404–309)، تذكره جنباً إلى جنب مع أهورا مازدا وأناهيتا؛ وعلى نقود الامبراطوريّة كان اسمه ميورو، وكان يصوّر كإله للشمس؛ وفي المانوية البارثيّة والسوغديانيّة يظهر تحت اسم ترتوس ليغاتوس؛ أمّا في المانوية الفارسيّة فيظهر باعتباره سبرتوس فرنس، وهكذا.

في الأساس، ميثرا هو إله النور: فهو الذي يجرّ الشمس بخيوله السريعة؛ وهو أوّل من يصل إلى قمّة جبل هارا، مركز الأرض، ومن هناك يراقب منازل كلّ الآريين؛ وهو الذي يشعّ بأنواره الذاتيّة فيجعل أشكالاً عديدة من العالم مرئيّة صباحاً. في العالم الإيراني، بجانب كونه إله النور الذي يحمل سمات شمسيّة (تُفسّر تماثله مع الإله شمش في منطقة ما بين النهرين) قويّة، يمتلك ميثرا أهميّة واضحة كإله للحرب! وإذا ما أردنا مقارنته بآلهة البانثيون الهندوسي، ميثرا أقرب إلى أندرا منه إلى ميترا في الفيدا، أسفار الهندوس المقدّسة. لميثرا أيضاً سمات الآلهة المسؤولة عن هطول المطر وهو ما يؤدي إلى الازدهار بحماية الماشية من الموت عبر توفير المراعي الكثيرة لها!

تشكّل عبادة ميثرا وأناهيتا التجدّد الأساسي في الزرادشتيّة بعد زرادشت، وتمثّل أهم توافق للزرادشتيّة مع التعدّديّة الإلهيّة القديمة. ومن المفيد هنا أن نشير إلى دور ميثرا كمحام عن "آشا"، النظام والحقيقة . المبدأ الأساسي للديانة الإيرانيّة–الهندوسيّة القديمة، والزرادشتيّة أيضاً . الذي ينقذه من وصمة التعدّديّة الإلهيّة التي أدانها زرادشت أصلاً.

يُعتقد عموماً أنّ ميثرا–الإله أقدم ربما من تاريخ انفصال فرع غزاة الهند الآريين عن جذعهم الإيراني، وذلك لأنه مذكور في الوثائق السنسكريتيّة والفارسيّة القديمة!

منذ عصور ما قبل الزرادشتيّة، تسلّلت عبادة ميثرا الإيراني، إله الشمس والعدالة والعقود والحرب، إلى روما، وهناك عرف باسم ميثراس، في القرنين الثاني والثالث للميلاد؛ وكان لهذا الإله المؤمنون به كجزء من الولاء للإمبراطور. لكن فرض المسيحيّة كدين رسمي للإمبراطوريّة الرومانيّة من قبل الإمبراطور قسطنطين في بداية القرن الرابع للميلاد، هزم المثرويّة بسرعة لتحلّ المسيحيّة محلها.

الديانة الميثرويّة:

بعد مرورنا السريع على بعض جوانب ميثرا الإله، نصل الآن إلى الميثرويّة الديانة، التي أُشيدت أساساً على هذا الإله الإيراني، لكنها تطوّرت من ثم، تاريخيّاً وجغرافيّاً، وفق الأمكنة التي وصلت إليها أو تاريخ وصولها.

إنها ديانة سرّانيّة ذات بناء قريب من ذلك الذي تميّزت به الديانات السرّانيّة الأخرى، وأساسها فكرة تتحدّث عن إله يجتاز سلسلة حوادث معقّدة دون هزيمة. ومع أن الميثرويّة ديانة إيرانيّة الجذور، وهو ما تشير إليه حقيقة أن ميثرا عُرف على الدوام كإله فارسي، فالديانة أخذت شكلها العام خارج إيران، حين انتشرت داخل الإمبراطوريّة الرومانيّة. فالميثرويّة استهوت العالم الروماني بسبب فلسفتها السرّانيّة، التي تركّز على حياة النفس وصعودها، كما سنفصّل لاحقاً، عبر العوالم الكونيّة السبعة. ويتجسّد هذا الصعود في سبع درجات استهلاليّة، متأوّجاً من ثم في المستوى التصاعدي للنجوم الثابتة أو aeternitas.

المنابع:

يُقال عموماً إنّ آسيا الصغرى هي على الأرجح نبع الميثرويّة والأرض لتي انطلقت منها تلك الديانة، حيث تواجدت الجماعات الفارسيّة وكهنتها، الذين كانوا يسمّون بالماجي [المجوس]، في نهاية مرحلة الحكم الأخميني

(بدءاً بالقرن الخامس قبل الميلاد وانتهاء بالقرن الرابع قبل الميلاد). كانت هذه الجماعات تفضّل حلولاً توفيقيّة مع الديانات المحليّة، من هنا فالاعتقاد السائر هو أنّ الميثرويّة، كما وصلت إلينا، ليست غير نتيجة لتهجين عناصر كثيرة. وهكذا لا يمكننا فهم الميثرويّة أو تفسيرها دون أن نضع بحسباننا المقابلة بين العالمين الدينيين لإيران وبلاد ما بين النهرين. فانتشار العناصر الفلكيّة فيها يوحي أنّ ديانة بابل الفلكيّة، التي تطوّرت بشكل خاص في الألف الأولى قبل الميلاد، لعبت دوراً هامّاً في تكوّن الميثرويّة. ولا بأس من الافتراض أنّه في زمن أكثر قدماً اتحد الإله الإيراني ميثرا مع شمش، إله الشمس في بلاد ما بين النهرين.

تشير عناصر كثيرة إلى انتشار كبير لعبادة ميثرا في النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد في المناطق الغربيّة لحدود الدولة الأخمينيّة، من آسيا الصغرى إلى بابل وأرمينيا. وفي هذه الحالة لا يمكننا الحديث عن ميثرويّة، بل فقط عن عبادة الإله ميثرا المختلفة عن الأصل الذي كانت عليه في إيران الزرادشتيّة. لكن النسخة الإغريقيّة للإله الإيراني، في القرن الأوّل قبل الميلاد، واضحة المعالم. وكما تُظهر نُصب كالنيكوس Kallinikos وأنثيوخوس Anthiochus، يتماثل ميثرا مع هليوس وأبولو وهرمس. أمّا بالنسبة إلى فهم تطوّر الديانة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، فإن شهادة بلوتارك Plutarch في "*حياة بومبي Pompy*" تبدو ذات أهميّة خاصّة. فهي تتعلّق بعبادة ميثرا وفق الصورة التي انتشرت بها بين قراصنة كيليكيا، في منطقة جنوب آسيا الصغرى، التي يفترض أنها منبع الطقوس الاحتفاليّة السرانيّة للميثرويّة وقت كان بلوتارك على قيد الحياة. لدينا أيضاً منابع للميثرويّة أكثر قدماً من السابقة، من ذلك بوزيدونياس Posidonias، على الغالب. وهكذا، يمكننا تتبع أثر العبادة الرومانيّة لميثرا وصولاً إلى العام 100 ق.م.

كانت فترة حضانة الديانة الجديدة طويلة على الأرجح. وفي Thebas يطالعنا نصب لميثرا، نراه فيه وهو يقوم بذبح عجل، الأمر الذي يدلّ على وصول الديانة إلى روما بالذات. وقد كان هذا بداية الانتشار العريض للميثرويّة، الذي نصادفه في ظلّ الأباطرة الفلافيين Flavian، في الربع الأخير من القرن الأوّل للميلاد. لكننا لا نستطيع تحديد المراحل الخاصّة بتحوّل الإله الإيراني هذا إلى إله الرومان السرّاني. مع ذلك، يمكننا أن نستنتج أنّ للتحوّل أساساً ميزتين رئيستين من ميزات الإله الإيراني: ميثرا هو إله النور، القريب من الشمس، وميثرا هو إله الخلاص.

من المنابع يمكننا التأكّد من السمات الشمسيّة لميثرا، لكن ميثرا ليس تشخيصاً للشمس، مع أن اسمه، مثر Mithr، هو أحد أسماء الشمس. في الأفستا، يبدو هذا الإله وكأنه على علاقة بهفار خشيتا Hvar Khashaeta أو الشمس المشرقة، مثلما هي العلاقة بين ميثرا الروماني والشمس Sol. أمّا بالنسبة إلى الاستدلال على طبيعة الإله الإيراني كإله خلاص فيمكن الوصول إليه من براهين كثيرة. من ذلك على سبيل المثال، أسطورة توفيقيّة هامّة من الحقبة البارثيّة عن المخلّص، خالق الكون، الذي كان ميثرا، المولود في مغارة، نصيراً له. أمّا عيد ميلاده، الذي كانوا يحتفلون به يوم 25 كانون الأوّل . ديسمبر، فقد كانت تصحبه دلالات خاصّة وأعياد تجلّ شهيرة، واعتبر رمزاً لطقس ملكي مصاحب لمسألة إدخال أحدهم في الديانة.

تاريخ ميثرا:

قبل زرادشت، أي القرن السادس قبل الميلاد وما قبل، كان للإيرانيين آلهة كثيرة؛ وكان ميثرا أحد الآلهة ذات الأهميّة الفائقة. ومع أنّه مذكور كإله فارسي هام في مدوّنات الكتّاب الإغريق، خاصة تلك التي تعود إلى الزمن الهلنستي، إلاّ أنّ تاريخه غامض. وكما يذكر أحد المراجع، ففي الزرادشتيّة يصادفنا ميثرا كمجرّد يازاتا، وهو أحد

أنواع الملائكة، قوّة من نور تحارب إلى جانب أهورا مازدا. وما نزال بحاجة إلى من يبرهن على أن مكانته كانت أعلى من ذلك.

لقد كان إله العقود والالتزام التبادلي. وفي رقم مسماري من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، يذكر ميثرا كإله للقَسَم. اسم ميثرا الإله مترادف مع كلمة ميترا، التي تعني "عقداً"، كما يقترح أنطوان ميليه. وفي بعض المصادر الهندوسيّة الفيديّة القديمة، يظهر الإله ميترا كصديق وإله للعقود. ويصح ترجمة كلمة ميترا بمعنى العقود والصداقة على حدّ سواء. فالعقود والالتزام التبادلي تفضي إلى نوع من الصداقة. باختصار، يمكن أن يشير ميثرا إلى نوع من العلاقات الإنسانيّة أو إلى شيء يقيم بين بني البشر علاقات جيّدة. دُعي ميثرا المداوي أيضاً. وكما أشرنا من قبل، فهو إله الشمس الذي يغمر بنوره المضيء كلّ شيء. ويقال إنه ربما كان إله الملوك، كإله للإلتزام التبادلي بين الملك ومحاربيه، لذلك فهو أيضاً إله الحرب. إضافة إلى كلّ ما سبق، فميثرا كان إله العدالة، الذي يكفله الملك. وحيث كان الناس يهتمّون بالعدالة والعقود، كان ميثرا يفرض تبجيله.

كان شائعاً بين الشرقيين في حقب مختلفة الأسماء المشتقة من ميثرا، كميثريداتس (اسم أحد الملوك في آسيا الصغرى).

منذ داريوس (522-486 ق. م.)، كان ملوك الفرس من السلالة الأخمينيّة زرادشتيين. لكن داريوس وخلفاءه لم يكونوا يميلون إلى خلق الصعوبات السياسيّة لأنفسهم عن طريق اقتلاع الاعتقادات القديمة التي ظلت عزيزة على قلوب كثير من النبلاء. وتدريجيّاً راحت الديانة الزرادشتيّة تحتوي عناصر من الديانات القديمة، متعدّدة الآلهة. فألفت التراتيل على شرف الآلهة القديمة. وكان هنالك أيضاً تراتيل مكرّسة لميثرا، يوصف فيها الإله كإله للنور السماوي، عليم بكلّ شيء، يحمي العهود، ويصون الحقيقة في عالمنا هذا والعالم الآخر؛ لكنه قبل كلّ شيء، العدو الأكبر لقوى الشرّ والظلام . وهكذا فهو إله المعارك والانتصارات.

في أواخر الحقبة الأخمينيّة، سيطرت السمات الزرادشتيّة على تلك الوثنيّة، في هذه الديانة التي كانت تحتوي عناصر متمازجة. فالتضحية بالثور، التي كان الزرادشتيون يأنفون منها، لم تكن تذكر قط. وحين أخضع الاسكندر الكبير الامبراطوريّة الفارسيّة لنفوذه عام 330 ق. م.؛ بدا أن البنيان القديم للمجتمع سوف ينكسر بالكامل، فلم تعد عبادة ميثرا مباحة في فارس.

كانت عبادة ميثرا قد انتشرت في الأماكن التي غزاها الفرس؛ ووصلت، بشكل خاص، إلى وادي الفرات حيث استقرّت لفترة طويلة للغاية؛ حتى أن كثيراً من الكتّاب اليونان والرومان تحدّثوا عن هذا الإله كإله آشوري. فرع آخر من تلك الديانة ترسّخت أقدامه في كيليكيا؛ وكانت أهميته خاصّة نظراً للتطوّرات اللاحقة التي عرفتها الديانة. ولسبب أو لآخر، لم يخترق ميثرا قط الأجزاء الغربيّة من آسيا حتى أوقات متأخرة، أي بداية ظهور المسيحيّة. لكن فهمه تعدّل بالطبع عبر الاحتكاك مع الديانات الغريبة، خاصة، كما أشرنا مراراً، حين بدا أنه تماثل مع الشمس، أو تقارب منها على الأقل. ونتيجة لزيادة عدد المؤمنين به في الغرب، أخذت عبادته شكلاً سرّانيّاً، هذا إذا لم تكن السرانيّة جزءاً فعليّاً منها؛ إضافة إلى طقوس الإدخال في الدين، احتفالات التطهير والتكفير وما شابه، من تلك الطقوس المناسبة لعبادة كهذه.

في القرن الأوّل قبل الميلاد، وصلت المثرويّة إلى العالم الروماني، عن طريق القراصنة الكيليكيين، الذين أسرهم بومبي. أمّا زمن أغسطس فالمعرفة بميثرا كانت قليلة في الإقليم الروماني، مع ذلك فقد أحرز وجوداً تدريجيّاً راسخاً في إيطاليا، نتيجة توسّع روما باتجاه آسيا.

ظلّ أرستقراطيّون محليّون يبجّلون ميثرا في الجزء الغربي من الامبراطوريّة الفارسيّة. كما كان يعبده الملوك والنبلاء في المناطق الحدوديّة الواقعة بين العالم الروماني-الاغريقي من جهة، والعالم الفارسي من جهة أخرى.

وحين أقرّ تيريداتوس الأرمني بالسيادة المطلقة للإمبراطور الروماني نيرون، أدّى طقساً ميثروياً، مشيراً بذلك إلى أن إله العقود والصداقة وطّد علاقات جيدة بين الأرمن والرومان العظماء. كما كان ملوك كوماجينه، الواقعة جنوب شرق تركيّا الحاليّة، يجلّون ميثرا. ويعتقد أنّ الملك ميثريداتيس البونطوسي كان يعبد ذاك الإله، وأن حلفاءه من القراصنة كانوا يقومون بطقوس ميثرويّة، عام 67 ق. م. لكن عبادة ميثرا لم تلق رواجاً شعبيّاً في العالم الإغريقي قط، لأن الإغريق لم يستطيعوا أن ينسوا قط أن ميثرا هو إله ألدّ أعدائهم الفرس.

لا توجد أيّة إشارة إلى الإله الفارسي في العالم الروماني حتى بداية القرن الميلادي الثاني؛ مع ذلك، فمنذ عام 136 وما بعد، كان ثمّة عدد من النقوش المكرّسة لميثرا. ومع نهاية القرن الثاني بدأت الديانة تنتشر بسرعة في صفوف الجيش وبين طبقات التجّار والعبيد؛ وكانت كلّ تلك الطبقات مكوّنة إلى حدّ كبير من الآسيويين. وازدهرت عبادة ميثرا بشكل خاص في محطّات الجيش، وعلى طرق التجارة؛ كما انتشرت بشكل معتبر في الموانيء. وكان الدليل الأهم على ازدهار الميثرويّة هو ذاك الذي قدّمه ساكنو الحدود من الألمان. ويبدو أنّ روما ذاتها أيضاً كانت مكاناً مفضّلاً للديانة. ومنذ القرن الثاني للميلاد، راح الأباطرة يشجعون على انتشار الميثرويّة، لأنها تدعم الحق الإلهي للملوك. فقد كان الفرس يعتقدون أنّ الملك الشرعي إنما يحكم بنعمة أهورا مازدا، الذي كان يظهر معروفه بإرسال هفارينو . Hvareno . أي هالة نار سماويّة؛ وفي رأيهم أن الشمس هي التي تمنح الهفارينو. من هنا يصبح ميثرا، المتماثل مع سول أنفكتس Sol Invictus، ذاك الذي يعطي السلطة والنصر للبيت الملكي.

استخدمت فرضيّات كثيرة لتفسير انتشار الميثرويّة في العالم الروماني كانت أكثرها قرباً إلى المنطق تلك القائلة إن الميثرويّة الرومانيّة كانت في الواقع عملية خلق جديد، قام به عبقري دين عاش في أواخر القرن الأوّل للميلاد، حيث أعطى الطقوس الفارسيّة القديمة تفسيراً أفلاطونيّاً جديداً مكّن الميثرويّة من الانتشار في العالم الروماني.

ونعيد من جديد، إن الميثرويّة الرومانيّة، كالميثرويّة الإيرانيّة، كانت ديانة الولاء للملك. لذلك يبدو أنها شُجّعت من قبل بعض الملوك، خاصّة كوموس (180- 192)، سبتمس سيفروس (193- 211)، وكركلاً (211 – 217). أمّا الموالون الذين عرفناهم من النقوش الميثرويّة، الذين كانوا من الجماعات المقرّبة من الملوك عموماً، فقد كانوا أشخاصاً يؤمنون بإله يمكن أن يوصلهم إلى ترقية سريعة.

راحت أسرار الميثرويّة، التي انتشرت بين نهاية القرن الأوّل والقرن الرابع، تموت تدريجيّاً. وكان أقصى امتداد لها عند منتصف القرن الثالث. في إيطاليا، نجد الدليل المحسوس على انتشار الميثرويّة في الأماكن التالية: روما، أوستيا، Latium Etraia، كامبانيا، Cisalpine Gaul؛ مع ذلك، يمكن لمراكز أخرى أن تبقى في الذاكرة: أكيليا؛موانيء صقليّة الرئيسة: باليرمو، سراقوسة، وكتانيا؛ كذلك فقد انتشرت الديانة الميثرويّة أيضاً على تخوم الراين؛ في النمسا وألمانيا؛ في الأقاليم الدانوبيّة: بانيا، ميسا، داشا؛ في فرنسا: دالماتا، وادي الرون وأكيتانيا؛ تراشا؛ بلجيكا؛ في انجلترا: في لندن وفي الشمال في هارديان؛ في شبه جزيرة إيبريا ومقدونية كان انتشار الأسرار أقل؛ لكن أثرها لم يكن موجوداً في اليونان. تظهر لنا بعض الأدلّة عن وجود للديانة على طول سواحل المتوسط الآسيويّة والإفريقيّة: لكن حضورها كان محصوراً في الموانيء البحريّة الكبيرة، خاصة في الأقاليم الآسيويّة.

عام 275 م. بدأ سقوط الميثرويّة، مع ضياع اقليم داشا Dacia من الامبراطوريّة الرومانيّة. وكان للاضطهاد المسيحي للميثرويين دوره في إسقاط تلك الديانة. وظل أباطرة الرومان يفضّلون الميثرويّة، التي كان الجيش يعتنقها، حتى قضى قسطنطين على كلّ الآمال. لكن حكم جوليانوس واغتصاب أيوجينوس للعرش أعاد بعض الحياة إلى الآمال الميثرويّة، وجاء انتصار ثيودوسيوس، عام 394، ليحبط تلك الآمال نهائيّاً. وظلّت الميثرويّة

على قيد الحياة في بعض مناطق الألب حتى القرن الخامس الميلادي، وكان تمسّكها بالحياة أكثر في موطنها الآسيوي.

الميثولوجيا واللاهوت في الميثرويّة:

خلقُ العالم هو الموضوعة المركزيّة في الميثولوجيا الميثرويّة. فوفقاً للأساطير، يرسل إله الشمس رسوله، الغراب، إلى ميثرا ويأمره أن يضحّي بثور. ينفّذ ميثرا الأمر ليس دون تردّد؛ وفي نقوش كثيرة يظهر ميثرا وهو يشيح بوجهه حزيناً، عندما ينفّذ أمر التضحية بهذا الثور. لكن في لحظة موت الثور، تحدث معجزة عظيمة. فالثور الأبيض يتحوّل إلى القمر؛ وعباءة ميثرا تتحوّل إلى قبة سماء، تحتوي كواكب منيرة ونجوماً ثابتة؛ ومن ذيل الثور ودمه تخرج أولى سنابل القمح والعنب؛ ومن أعضائه التناسليّة تسيل البذور المقدّسة التي يتم تلقيها في أحد الأوعية. ومن مزيج هذه البذور المقدّسة تمّ تشكيل أوّل مخلوق على وجه المعمورة. وإحدى التراتيل الميثرويّة تبدأ بجملة: " أنت افتديتنا بإراقة الدماء ". بدأ الليل والنهار متناوبين، ثم بدأت القمر – يعتبر القمر أنثى في الميثولوجيا الميثرويّة – دورتها الشهريّة؛ وراحت الفصول تتوالى عبر السنة، وخلق بالتالي الزمان. لكن مخلوقات الظلمة، التي أزعجها النور المفاجيء، تخرج من الأرض، فتلعق أفعى دم الثور، ويحاول عقرب امتصاص البذور المقدّسة من أعضائه التناسليّة. وعلى النقوش التي بين أيدينا، غالباً ما يظهر أحد الأسود. بموت الثور وخلق العالم، يبدأ الصراع بين الخير والشرّ: وهكذا هي حياة الإنسان. الغراب يمثّل الهواء، والأفعى التراب، والأسد النار، والوعاء الماء. من هنا يبرز إلى الوجود عناصر أربعة: الهواء والنار والماء والتراب، التي تخلق منها الأشياء كلّها. بعد تقديم الأضحية، يظهر ميثرا وإله الشمس في الأسطورة الميثرويّة وهما يتناولان معاً الطعام، إذ يأكلان اللحم والخبز ويشربان الخمر. من ثمّ يركب ميثرا عربة إله الشمس، يسوقها عبر المحيط، داخل الأثير، حتى نهاية العالم.

أعاد الميثرويّون الرومان تفسير الأسطورة وفق مصطلحات الفلسفة الأفلاطونيّة. فالتضحية تحدث في مغارة، والتي تعتبر صورة للعالم؛ والمسألة تشبيه بلاغي للمغارة في جمهوريّة أفلاطون. أما تيماوس فيساوي بين ميثرا والخالق. ومثل وسيط الخلق عند أفلاطون، يدعى ميثرا وسيط خلق كلّ الأشياء. كما يعرف تيماوس جيّداً قضايا العناصر الأربعة، الوعاء، خلق الزمان، وهجوم الحيوانات الشريّرة على الكائن الجديد. ومذهب الروح الميثروي مرتبط للغاية مع فلسفة أفلاطون وأسطورة الخلق عنده. وكما عند تيماوس، فروح الإنسان تنزل من السماء. فتعبر عوالم كواكب سبعة، لتستحوذ على الجسد في نهاية الأمر. أمّا واجب الإنسان فهو تحرير الجزء الإلهي، أي النفس، من قيود الجسد وتصفيته عبر امراره بالكواكب السبعة نحو عالم النجوم الثابتة الخالد، الذي لا تبديل له. وكان ميثرا ذاته قد قدّم سلفاً أمثولة الصعود إلى السماء، وذلك حين غادر الأرض في عربة إله الشمس.

تستند معرفتنا الحاليّة بالميثرويّة على مابين أيدينا من فيدا، أفستا، كتابات بهلويّة، والتماثيل المعبّرة عن الديانة. والأخيرة تشمل بضع مئات من المنحوتات، إضافة إلى معابد كثيرة، هي مغارات ما تحت أرضيّة، أو أبنية تحاكي المغارات في أسلوبها المعماري. ويتراوح معدّل استيعاب المعبد بين خمسين ومئة شخص.

ثمّة تصوير أنموذجي أساسي، متواجد بوفرة هائلة في متاحف أوروبا، يمثّل على الدوام ميثراس، بهيئة شاب يرتدي قبعة مخروطيّة الشكل وثياباً متطايرة، وهو يقوم بذبح الثور المقدّس، وفي التصوير نلمح أيضاً عقرباً، يهاجم كما سبق وأشرنا أعضاء الحيوان التناسليّة، وأفعى تشرب من دمه، وكلباً يقفز نحو جرح في خاصرته.

كذلك غالباً ما نصادف في التصوير إله الشمس، ورسوله الغراب، شجرة تين، أسداً، إبريقاً، وحملة مشاعل. وفي بعض النماذج يحيط بالنقش إطار من أشخاص ومشاهد نجدها في النقش ذاته. وكان كومونت قد صنّف النقوش الصغيرة إلى نوعين: الأوّل، غير محدّد الزمن، أو أرفان أكارنا، ويدعى باليونانيّة: Κρδςος
يتطابق هذا النوع من النقوش عند منظّري تلك الأيام مع ما يسمّى باليونانيّة χρδνος؛ وهو ما يطلق عليه باللاتينيّة Saturnus.

تظهر إحدى مجموعات النقوش أهورا مازدا والصاعقة، رمز القوّة، بين يديه؛ مجموعة أخرى تصوّر لنا عيد ميلاد ميثرا. وهنا نرى الإله عار، يقطف فواكه وأوراق من على شجرة تين فيها الجزء العلوي من الألوهة؛ وأمامها تهبّ الريح على ميثرا؛ يطلق الإله سهماً على صخرة، فيتفجّر منها نبع ماء؛ نرى الثور في قارب صغير، ثمّ يصوّر بعد ذلك وهو موشك أن تُشعل فيه النيران من قبل شخصين؛ يهرب الثور، ويطارده ميثرا؛ يحمل ميثرا الثور على كتفيه؛ يركع هيليوس أمام ميثرا؛ تتشابك أيادي ميثرا وهيليوس فوق مذبح؛ يحمل ميثرا قوساً ويركب جواداً؛ يتناول ميثرا وهيليوس الطعام من وليمة مشتركة؛ وأخيراً يركب ميثرا وهيليوس عربة الأخير ويجوبان المحيط – هذا ما تناقلته لنا نقوش أسطورة ميثرا.

دون تلك النقوش لم يكن باستطاعتنا استعادة بعض أسطورة ميثرا، التي يمكن القول إن معظمها ضاع. من تفاصيل تلك الأسطورة نعرف، أنّ ميثرا ولد من صخرة، ولم ير تلك الأعجوبة غير بضع رعاة، جاءوا يحملون إليه الهدايا، وكانوا يحبّونه إلى درجة العبادة. وبعدما عملت الريح على تبريده، ذهب الإله حديث الولادة إلى شجرة تين، فأكل من فاكهتها، وألبس نفسه أوراقها. بعدها راح يقهر كائنات هذا العالم، واحداً بعد آخر. كان الشمس – الشمس هنا مذكّر – أوّل ما التقى به ميثرا، وانتهى الإثنان إلى معاهدة صداقة. من ثمّ، قام ميثرا بأسر الثور المقدّس الذي خلقه أهورا مازدا. وبأمر من الشمس، الذي أرسل رسوله الغراب، ضحّى ميثرا – ماردّداً – بالثور. ومن الحيوان،الذي مات رغم إرسال أهريمان رسله لحمايته، خرجت حياة الأرض. ارتفعت روح الثور إلى الكواكب السماويّة،وأضحت الروح الحارسة للمحاصيل والماشية، والتي سميّت سلفانوس Silvanus. وبهذا العمل، كان ميثرا خالق الحياة. أثناء ذلك، يرسل أهريمان جفافاً مخيفاً إلى الأرض. لكن ميثرا يحبط هدفه عن طريق إرسال سهم على صخرة، واستجرار المياه منها. من جديد، يعود أهريمان لإرسال طوفان، لا ينجو منه غير رجل بمفرده يركب مع ماشيته أحد القوارب. وأخيراً تحاصر النار الأرض، ولا ينجو منه غير خليقة أهورا مازدا. وبعد أن ينتهي ميثرا من عمله، يتناول مع الشمس وجبة طعام للمرّة الأخيرة؛ وكما أشرنا من قبل، يأخذه الشمس في عربته إلى مثوى الخالدين، حيث يواصل من هناك حماية المؤمنين.

المعابد الميثرويّة:

كما أشرنا مراراً، فإنّ أغلب ما بين أيدينا من شواهد بشأن الميثرويّة كانت أركيولوجيّة، ومعلوماتنا عنها استندت أساساً إلى تحليلنا للنقوش والأوابد. وهكذا، فإن عالم الميثرويّة الكبير، فرانز كمونت، حاول إعادة بناء ميثولوجيا تلك الديانة ولاهوتها ونظرتها إلى الكون واسكاتولوجيتها وطقوسها، معتمداً في عمله أوّلاً على تلك التصاوير الناتئة التي ظلّت محفوظة في الميثرايوم Methraeum – فما هو الميثرايوم؟

إنه أحد أنواع المعابد، المخصّص لاجتماع أتباع الميثرويّة. ولأن جزءاً منه كان تحت الأرض، فقد بدا كنسخة طبق الأصل عن تلك المغارة التي أمسك فيها ميثرا بالعجل السرّاني وقتله. من الناحية الشكليّة، كان المعبد مستطيلاً، طويلاً، واضح المعالم، فيه مقاعد جانبيّة مبنيّة من القرميد، كان أتباع الميثرويّة يجلسون علها في الاحتفالات الطقسيّة، ومن هناك ينظرون إلى صورة ميثرا الموجودة في كوّة خاصّة عند نهاية سرارة المعبد.

وغالباً ما نجد مذبحاً أمام الصورة. على السقف، تطالعنا صورة لقبّة السماء المرصّعة بالنجوم. ولأن من المفترض أنّ هذا المعبد–الكهف تمثيل للكون، فهو يحتوي إشارات إلى النجوم والنباتات. يلعب الماء دوراً تطهيريّاً في الميثرويّة، فقرب كلّ معبد، لابدّ من وجود نبع ماء طبيعي أو اصطناعي. وفي أغلب الأحيان، تحيط بالمعبد–الكهف غرف أخرى، قد تكون مخصّصة لطقوس الإدخال في الديانة، أو أنها مجرّد معابد صغيرة الحجم. وكان العرف السائد يقتضي أن يكون الدخول إلى تلك الأمكنة من ممرّ خارجي. من الصفات الإضافيّة التي تميّزت بها تلك المعابد–الكهوف عن غيرها من المعابد الأخرى المكرّسة لآلهة الديانات الشعبيّة: حجمها المتواضع! – إضافة إلى كونها غير عاديّة ومختلفة عن أية معابد غيرها. وعادة ما يقوم بالخدمة في المعبد، حيث تصل الصلوات إلى قمتها في وليمة يشترك بها الجميع، جماعة صغيرة، مؤلّفة من بضع عشرات من الأشخاص. وتتمّ كل الطقوس الاحتفاليّة في المعبد تحت نور اصطناعي. والديانة مقصورة على الذكور، ولا يبدو أنها كانت تتضمّن درجات كهنوتيّة.

كانت المعابد–الكهوف الميثرويّة مزدانة بنقوش ورسوم تصويريّة من الجص؛ إضافة إلى تماثيل لآلهة نافذين وتماثيل لآلهة الكواكب. قرب المقاعد العريضة كان هنالك على الجانبين ممرّان ضيّقان. وعلى المقاعد يصادفنا المؤمنون، إمّا راكعين أو في وضعيّة الاتكاء. وعند أحد طرفي الممر كان هنالك على الدوام نقش أو تصوير يمثّل التضحية بالثور. لكن النقش كان يتحوّل أحياناً إلى تمثال دوّار، تمثّل خلفيته الوليمة التي كانت بين ميثرا وإله الشمس. وفي حين أنّه من غير المحتمل أن يكون الاحتفال الطقسي المتمثّل بتقديم أحد الثيران قرباناً يُنفّذ على الدوام، فإن الوليمة التي يشارك بها الجميع والتي تُقام في احتفالات الإدخال في الدين الطقسيّة كانت سمة نظاميّة في الديانة الميثرويّة. مع ذلك، فطقس التضحية بالثور الاحتفالي هو أحد أهم الاحتفالات الميثرويّة. لكننا لا نعرف ما إذا كان هذا النمط من الاحتفالات الطقسيّة كان قبل زرادشت أم بعده. بالمناسبة، فقد شجب زرادشت هذا النوع من الأضاحي؛ من هنا، يبدو أن هذا الاحتفال الطقسي جزء من وثنيّة إيرانيّة قديمة. وهذه النتيجة تعزّزها وثيقة هندوسيّة تظهر ميثرا وهو يشارك متردّداً في التضحية بإله يدعى سوما؛ وهذا الإله يظهر على شكل قمر أو ثور أبيض. وفي النصب الرومانيّة، نجد ميثرا يضحّي متردّداً بالثور الأبيض، الذي يتحوّل إلى القمر. ويبدو هذا التفصيل المرافق للوحة وكأنه يثبت أن طقس التضحية بالثور الاحتفالي يرجع إلى زمن ما قبل زرادشتي. وبما أن العقود والقرابين مرتبطة ببعضها، فقد كانت المعاهدات قديماً، تكرّس بوليمة يشارك فيها الجميع.

مباديء الإدخال في الميثرويّة وطقوسه:

بالإشارة إلى الطقوس الميثرويّة، فقد حفظت لنا مؤلّفات القديس جيروم ومخطوطات غيرها، حقيقة أن الصوفي أو السرّاني (mystic أو Sacratus) الميثروي، يمرّ في سبع درجات أو مراحل، إذا ما أراد الدخول في الديانة، ربما تكون إشارة إلى الكواكب السبعة التي تعبرها الروح أثناء صعودها. ووفقاً لتدرّجها، تسمّى هذه المراحل كما يلي: الغراب أو Corax؛ العريس أو Nymphus (وردت في مراجع أخرى: العروس؛ وأحياناً يقال: المخبأ)؛ الجندي أو Miles، ويرمز إلى الجهاد ضدّ الشر خدمة للآلهة؛ الأسد أو Leo، ويرمز لعنصر النار؛ الفارسي أو Peres، ويمكن مقارنته بمفهوم إسرائيل أو صهيون عند المسيحيين؛ رسول الشمس Heliodramus، وهو رسول من الشمس وإليه؛ وفي مراجع أخرى يقال إنه الشمس ذاته؛ والأب أو Pater، وهي درجة تدخل الصوفي في عداد أولئك الذين يمكنهم توجيه الديانة حتى نهاية حياتهم. وهذا هو الترتيب الروماني للميثرويّة.

==================

صمت المثقفين المريب: في الدفاع عن الحقيقة والأمن السوري!!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 7 ديسمبر 2004

للأسف الشديد، نادر للغاية وجود المثقفين في سوريّة اليوم؛ فعندما أردت أن أكتب في مسألة الابستمولوجيا الارتقائيّة، بمشاركة الفيلسوف الألماني غيرهارد فولمر، لم أجد من يعرف الأخير، الشهير للغاية في عالم الفلسفة الألماني المعاصر، غير الراحل نايف بلّوز، أستاذ الفلسفة السابق في جامعة دمشق. وحين زارتني الباحثة الدانمركيّة الأشهر، باتريشيا كرونه، في دمشق، واتفقنا على ترجمت كتابها الصعب، *الهاجريّون* [نشر في بيروت ومنعه أحمد درغام في دمشق]، لم أجد من يعرف كرونه بين كلّ مثقفي دمشق الذين صادفتهم غير الباحث والمفكّر صادق جلال العظم. وحين دعيت من قبل مجموعة إسلاميّة في دمشق لإلقاء محاضرة حول المقاربة الاستشراقيّة للقرآن . تحدّثت فقط عن شباير وآرثر جفري وغايغر وهوروفيتس وغريمّه . تفاجأت بأن هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم "باحثين إسلاميين"، ليس فيهم من يعرف شيئاً عن تطوّر نظرة الاستشراق للإسلام، والمدارس الاستشراقيّة والفروق بينها. بل إنّ أحداً لا يعرف شيئاً عن قضيّة مصحف اليمن، التي تثير منذ زمن عاصفة "هادئة" في أوساط الغربيين المهتمين بالشأن الإسلامي.

بالمقابل، فحين قدّمت كتابي الضخم، *"النصارى"*، الذي يحكي عن تلك الطائفة المسيحيّة التي عاشت في منطقة نهر الأردن وجبال سوريّة الساحليّة بين القرنين الأوّل والخامس للميلاد، وكانت عاصمتاها بلّة [الفحل الأردنيّة اليوم] وبويريا، الواقعة جنوب أنطاكية وشرق اللاذقيّة، والتي عنها انشقّت طائفة الإبيونيين الهامة للغاية بسبب علاقتها كعقائد بكثير مما جاء به الإسلام، أثار استغرابي أن معظم رجالات اللاهوت المسيحي في سوريّة لم يفهموا ما كتبت: لأنهم لا يمتلكون الحد الأدنى من الثقافة اللاهوتيّة بما يؤهلهم للدخول إلى عالم العقائد المسيحيّة المعقد، أو إلى تاريخ الكنيسة الأكثر تعقيداً.

مثّل ذلك أيضاً الأميّة في اللغات الأجنبيّة التي تتفشّى بين مثقفي سوريّة عموماً. حيث يندر أن تجد بينهم من يجيد تماماً لغة أجنبيّة، أو يستطيع التعبير عن ذاته خارج اللغة العربيّة: في معظمهم خريجو كليّات علوم إنسانيّة أدخلوا إلى الصحافة أو ما شابه بواسطة لا علاقة لها بالفكر. من هنا، كانت صدمتهم هائلة بالتجمّع الليبرالي في سوريّة، لأنهم تفاجأوا بشيء لا يعرفون عنه أي شيء. وسوريّة، بكل أسف، لم تعرف خارج الماركسيّة والأصوليّة الإسلاميّة أي شكل ثقافي هام: يمكن هنا استثناء بعض المحاولات القديمة التي قام بها معجبون بالفلسفة الوجوديّة أو البنيوية أو الفرويدية وغيرها من مدارس التحليل النفسي لتقديم شيء إلى القاريء العربي . محاولات انتهت تماماً الآن. بالمناسبة، فإن ما قدّم من الفلسفة الوجوديّة، على سبيل المثال، كان الأسهل للمترجم؛ فالرجل الأهم في تاريخ الفكر الوجودي، هايدغر، لم يقدّم كما يجب حتى الآن: ربما لصعوبة فلسفته.

إذن، باستثناء أسماء تعدّ على أصابع اليد الواحدة، لا يوجد مثقّفون في سوريّة. والندرة المثقفة الحاليّة، تقترب من حافة الاعتزال وربما العزل.

من هذه النخبة المثقفة النادرة: المفكّران الصديقان صادق العظم ومحمّد شحرور. الأوّل علماني لا ديني، والثاني علماني مسلم. وهذان الرجلان كنت ألتقيهما باستمرار في أحد الأفرع التابعة للأمن العسكري، عند صديق هو لواء ودكتور في الفلسفة الغربيّة في آن. وهناك كانت حواراتنا، التي كان يحضرها إضافة إلى السابقين، الباحث المهندس زكريّا أوزون والدكتور عاصم العظم وأحياناً الدكتور أحمد برقاوي. وكان الحوار في ذاك الفرع الأمني

أكثر من صريح ويتجاوز الجرأة بما لا يقارن. ومن تلك الحوارات تعلّمت شخصيّاً رفض الخوف: الخوف الذي سكنني بعد تجربة اعتقال مريعة في الأمن العسكري أيضاً، فرع حمص، في الثمانينات. كان النقاش يمتدّ من السوسيولوجيا إلى السياسة، من بوبر إلى نيتشه، ومن فويرباخ إلى القرضاوي: دون تعصّب أو إزعاج أو خجل. بل كثيراً ما كنت أنسى أني في فرع أمني، لعمق ديمقراطيّة الحديث، ثم أعود إلى ذاتي لأسأل بصوت عال: هل أنا في الكسليك أم في فرع مخابرات سوري؟

هذا اللواء الدكتور، الذي انتهت علاقتي به بعد اعتقالي، يستحق من المثقفين الفعليين، وسوريّة تشهد هذا الحراك الثقافي الديمقراطي غير المسبوق، أن تذكر أفضاله علينا بأنه أوّل من رعى خليّة ثقافيّة علمانيّة ديمقراطيّة فعليّة في سوريّة. وإذا كانت ثمة من يخشى من المثقفين أن يقال إنه كان عميلاً لهذا الضابط أو ذاك، إذا انكشفت علاقة الإثنين، فإن أبسط قواعد الصدق مع الذات تتطلّب منّا، كأناس نسعى نحو التطوير بكلّ قوّة، التحدّث إلى المجتمع الذي نسعى لتطويره بصراحة، فنحكي عن هذا المسئول الاستخباراتي الذي نتلمّس فيه عنصراً غاية في الفعاليّة لإشعار الناس أن رجال الأمن مثل باقي قطاعات الشعب فيهم الجيد وغير الجيد وبالتالي لا داعي للخوف من التعاطي معه بوضع الجميع في سلّة واحدة، وبالمقابل يفهم الناس أن المعارض يمكنه أن يلتقي مع رجل السلطة دون أن تكون علاقتهما تابع-متبوع، إذا كان اللقاء يفيد في دفع الحراك الثقافي الاجتماعي نحو الأمام.

سوريّة تتغيّر: ومن واجب المثقفين الفعليين أن ينصفوا هذا الرجل العظيم "المظلوم"، الذي كانت أفكاره ومواقفه النبيلة حجر الأساس الذي أقمنا عليه بناءنا المعرفي الذي نسعى لأن نعلي أبراجه.

عن أيام الملح والصمت والأمل المقهور! (2)

www.annaqed.com

نبيل فياض، 7 ديسمبر 2004

"أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح، بماذا يملّح؟" . كان أحد أجمل الأقوال التي وردت في الأناجيل على لسان المسيح. وكنت أحبّ الملح على الدوام. ربما كان السبب انخفاض ضغط الدم عندي الذي لا أعرف أسبابه. في المشفى، حيث أمضيت أياماً لا تنسى، بصمتها وقهرها، عرفت للملح دوراً آخر. فحين استرددت وعيي، أدركت أني أمضيت أكثر من أسبوعين بأسنان وسخة: لم يكن بحوزتي شيء اسمه فرشاة أسنان أو معجون. طلبت من منير، الأقرب إلي من الجميع . ربما لأنه من شرق حمص مثلي . أن يحضر لي فرشاة ومعجون. فطلب من أحمد أن ينزل إلى أحد المحلاّت لإحضار ما طلبت: كانت المسألة برمتها صعبة عليّ للغاية؛ فأنا لم أعتد أن أطلب من أي كان شراء أشياء لي دون أن أعطيه ثمنها، ووقتها لم يكن معي قرش واحد. ذهب أحمد إلى السوق، وعاد دون أن يحضر الفرشاة والمعجون؛ ولما سألته قال إنه نسي. تضايقت للغاية، خاصّة من منير، الذي شعرت أني قريب مني بطريقة غير مألوفة. كان شعوري أنّ منير طلب من أحمد خفية أن لا يأتي بما طلبت، ربما لأن لا أوامر عنده. في المساء جاء العشاء؛ وكان مكوّناً، كالعادة، من شرحات بطاطا مسلوقة وكثيراً من الملح، وقطع معكرونة كان الشباب يسمّونها " نباريج "، أي خراطيم. كنت آكل البطاطا مع الملح كي يرتفع ضغط الدم عندي. نظر منير إليّ ملياً؛ وقال: هل تعرف ما هي فوائد الملح غير رفع الضغط؟ أجبته: لا! قال بلغة الحكيم الواثق من ذاته: تنظيف الأسنان! دخل إلى الحمّام، بعد أن تناول بعض الملح برؤوس أصابعه، وراح يفرك أسنانه الوسخة! أعجبتني الفكرة؛ فأخذت كثيراً من الملح، ورحت أكرّر ما فعله منير قبلي! اجتاحتني نوبة آلام أسنان هائلة؛ فقد كنت أُخذت قبل أن أكمل تصليح أسناني؛ ويبدو أنّ إهمالها هذه الفترة الطويلة زاد الوضع سوءاً. لقد كشف الملح اللعين عن ندب أسناني غير القليلة. ارتبك منير كعادته حين أتألم، وركض إلى الممرّض رواد طالباً منه دواء لأسناني. أعطاه الأخير حبتي سورغام 300. تناولت الحبتين معاً؛ وظلّ منير يسهر بجانبي حتى نمت بعد منصف الليل بأكثر من أربع ساعات.

في اليوم التالي جاء مهنّد وأحمد ذاته. طلبت من مهنّد ما كنت طلبت من منير سابقاً. تظاهر مهنّد أنه سيرسل أحمد كي يأتي لي بالفرشاة والمعجون. ذهب أحمد، وعاد كالعادة بخفّي حنين. شعرت بالقرف من هذه اللعبة؛ فسألت مهنّد تفسيراً لما يحصل؛ وبسلوكه التمثيلي؛ قال: لا نستطيع أن نحضر لك ما تريد – ليست لدينا أوامر! وعدت إلى الملح السيء؛ وعاد إليّ الألم الأسوأ! وركضت إلى رواد أطلب حبّة سورغام، فلم أجد! وأمضيت ليلة عامرة بالألم الذي لا يوصف.

اليوم الذي بعده كان دور سامر وعزيز: والإثنان كانا من حمص؛ أو من ريفها. كنت دائماً أشكو لسامر أي شعور داخلي بأن منير أخطأ بحقّي. كان شعوري أن منير كان يكذب عليّ. قال سامر: لا توجد لدينا أوامر على الإطلاق؛ النقيب كان يقول باستمرار، هاتوا له كلّ ما يحتاج! وبالفعل، أرسل عزيز إلى محل قريب وجاءني بفرشاة ومعجون من النوعيّة الأرخص. وعندما بدأت أنظف أسناني للمرّة الأولى منذ حوالي عشرين يوماً؛ بدأ الدم يتدفق من لثتي. كان الألم شديداً. همس سامر: الشباب يحبّون "طقطقة البراغي"؛ أرجو أن تخفي الفرشاة والمعجون. فأخفيت المعجون تحت فرشة السرير البلاستيكيّة البيضاء؛ وأخفيت الفرشاة وسط أنابيب "شوفاج" الحمّام!

جاء النقيب، وكان مهنّد؛ سألت الأوّل: هل ممنوع علي اقتناء فرشاة ومعجون؟ قال: لا! اذهبوا وهاتوا له ما يريد! وصار بحوزتي فرشاتان ومعجونان! فقد خفت أن أخبرهم بما فعل سامر! وما زلت أحتفظ إلى الآن بأدوات تنظيف الأسنان التي وصلتني من معتقلي، ذكرى تراكميّة لألم لن تندمل جروحه.

****

في الرواية التوراتيّة من سفر التكوين، نعرف أن الإله حوّل سكّان سدوم وعمّورة إلى أعمدة ملح حين غضب عليهم. بل إنّه طلب من نبيّه لوط وعائلته، إذا ما غادروا القرية التي توشك على أن تدمّر، أن لا ينظروا خلفهم، فإنّ من ينظر خلفه سيحوّل إلى عامود من الملح. وكانت امرأته الوحيدة التي نظرت خلفها، ربما شدّها صوت الأنين المتصاعد من القوم الآثمين. . فصارت عامود ملح!

في المنطقة حيث أعيش دون أدنى انتماء، ثمّة مكان مترام الأطراف يقال له الملاّحة! والملاّحة، كما يشير اسمها، صحراء صغيرة من الملح! وتقول الأساطير إنّ قوم لوط كانوا يسكنون هذه المنطقة. بل هنالك سوسيولوجيّاً هنا ما يشير إلى أنّ القضيّة برمتها ليست بعيدة عن الحقيقة. وفي المنطقة توجد تماثيل ملحيّة تشبه الكائنات البشريّة، تعيد إلى الذاكرة شيئاً من أسطوة لوط.

في هذا العالم الملحي، أقطن وحدي: لا أزور أحداً على الإطلاق؛ ولا أحد يزورني. خمس سنوات ونصف تقريباً في صحراء الملح هذه، أعيش منقطعاً عن العالم المحيط. أعيش راهباً حبيساً في وادي قنّوبين.

سوريّا، كلّها، بالنسبة لي، أضحت سدوم وعمّورة! سوريّا، كلّها، صارت صحراء ملح. وكما هاجر لوط نحو الغرب، هرباً من شرق الخطيئة؛ أنتظر أن يجرّني ملاك الربّ باتجاه دوران الشمس! وأنا أعده أني لن أغامر أبداً بالنظر إلى مستنقع الملح إياه، حتى لا أصبح عامود ملح آخر!!!

من يحب سوريّا: فليحبّها! من يؤمن بخرافات الأوطان والأهل والأحبّة: ليؤمن!! من يصدّق حتى الآن أكذوبة "الشام الشريف" وأن يسوع جاء إلى معلولا أو مار بولس مرّ في باب شرقي: ليصدّق!!! هذه حكايا أطفال غير مؤدّبين لم تعد تقنع أحداً!

الوطن، بالنسبة لي على الأقل، هو المكان الذي يحفظ لي كرامتي! الوطن هو المكان الذي أشعر أن لي فيه من أحبه: ويحبني! الوطن هو البيت الذي أنام فيه بلا خوف؛ أعيش فيه دون اضطراب؛ أحب فيه دون سيف "مسرور"! وسوريّا أبعد ما تكون عن ذلك! فحين عشت في جونيه، وكان الصراع الماروني السوري في قمته، لم أشعر يوماً أن هذا الشعب غريب عنّي: وما زلت حتى الآن ألجأ إلى جونيه إذا ما أردت التنفّس!

قبل اعتقالي كتبت "من يشتري هويتي السوريّة؟": وكنت أقصد العكس! اليوم أبحث عمن يقبل أن يبدلها لي ولو بهويّة صوماليّة! سوريّا ليست وطننا: ليست وطن أحد! سوريّا بلد مرتهن للفاسدين والطائفيين والإرهابيين والقتلة! سوريّا وطن الذين يأتون بلحم البقر المجنون لوضعه في معلّبات يأكلها الشعب! سوريّا وطن للوهابيين الذين يحاربون في سبيل تفتيتها أكثر؛ في سبيل نقلها إلى عالم الظلمات أكثر؛ في سبيل قمع رجالها ونسائها وزهور الربيع أن تتفتّح!

لقد أخذت منّا سوريّا شبابنا وصحتنا وأحلى أيامنا؛ لقد أعطتنا سوريّا، بقمعها وإرهابها، كلّ أصناف الأمراض الخبيثة: ورمتنا في صحراء العمر!

رائع أن يهرب واحدنا في طريق لوط قبل فوات الأوان! رائع أن ينجو واحدنا بما تبقى في عمره من ساعات عمره؛ بما تبقى من جسده دون خلايا قاتلة: إلى الغرب!

رائع أن نهاجر بما هرّبناه منهم من لحظات براءة؛ بما أخفيناه تحت ثيابنا الهرمة من تعابير طفلة!

رائع أن "**تعيش**" في زمن الموت السوري!

==================

الأزمة المعرفيّة للشعب السوري

www.annaqed.com

نبيل فياض، 7 ديسمبر 2004

في الثمانينات تمّ اعتقالي في الأمن العسكري في حمص، ووضعت لأيام هي الأسوأ في حياتي في إحدى الزنزانات الإفراديّة؛ وكانت التهمة (؟؟؟) العلاقة مع الكنيسة المارونيّة. فقد كنت في زيارة للمطران الماروني جورج أبي صابر، المقيم في طرطوس وقتها، حيث أخبرني أن السفير الفاتيكاني سيأتي لزيارة حمص، وطلب مني أن أضع المونسنيور والأخ، مسعود اليوسف، راعي أبرشيّة اللاذقيّة المارونيّة اليوم، في صورة الزيارة، وأن يتمّ التحضير لها كما يجب. وهذا ما كان. بل أذكر أن المونسنيور اقترح علي، بسب علاقتي غير العاديّة بالمطرانين الراحلين، ألكسي عبد الكريم (روم أرثوذكس) وملاطيوس برنابا (سريان أرثوذكس)، أن أقوم بدعوتهما شخصيّاً لحضور اللقاء مع الموفد البابوي. كان الشيء المستهجن بالنسبة للأمن العسكري وقتها، . وفي سوريّا نادراً للغاية أن تجد من خرج من جلده الطائفي أو العشائري . هو أن أعرف، وأنا المنتمي إرثيّاً إلى الطائفة السنيّة، بمجيء شخص غير عادي إلى الكنيسة المارونيّة قبل الأسقف ذاته، وأن يُطلب منّي شخصيّاً دعوة بقيّة الكنائس إلى اللقاء. ولأن السوريين، بغالبيّتهم الساحقة، لا يستطيعون فهم "أبسط" مفاهيم حقوق الإنسان، وأولها حقّ الإنسان في اختيار ما يشاء من عقائد، مهما كانت العقيدة التي شاءت الصدف أن يولد عليها، فإنّ أحداً في سوريّا لا يستطيع فهم ما أعني حين أقول، إن انتمائي الثقافي المعرفي هو للمارونيّة الحضاريّة، وإنه لولا الكسليك، وأحدّد هنا الأب جوزف قزّي والأب الراحل أمبروسيوس حاج، لكنت الآن مثل أي مثقّف سوري، لا يرى أبعد من أنفه. – وأكرّر من جديد أن هذا الانتماء هو الأوّل والأخير عندي، رغم عمليّات التخوين والاضطهاد والتهجير المبرمجة، التي تتمّ بحق الموارنة خصوصاً والمسيحيين عموماً؛ وأنه لولا الموارنة لكان لبنان يمناً آخر، أو بأحسن حال، سوريّا أخرى! ورغم أني لم أتعرّض للضرب أو الإهانة أثناء الاعتقال في الأمن العسكري، إلاّ أن ظروف الاعتقال، بحدّ ذاتها، كانت أكثر من مريعة: فقد وضعت في زنزانة 120×70 سم، في قبو مؤلّف من ثلاث وعشرين زنزانة ومرحاض، حملت الرقم 17؛ ثم ارتجوتهم أن أُنقل إلى زنزانة أخرى لأن سقف تلك الزنزانة كان ينقّط علي ماء بارداً، وكان وقتها كانون الثاني؛ فنقلت إلى أخرى حملت الرقم 4. وكان أصعب ما في التجربة التعذيب الذي كان يجري بعد منتصف الليل: كان وقع أقدام السجّان، وهو يهبط درج القبو المريع؛ صوت فتح القفل على أحد المساجين تمهيداً لتعذيبه؛ صوت السجين وهو يعذّب . كانوا يتركون الباب مفتوحاً كي نسمع أصوات الألم على الأرجح .؛ وأصعبها إطلاقاً انتظار واحدنا أن يفتح الباب عليه ويسحب من رقبته إلى مكان التعذيب! ولأني لم أتناول طعاماً طيلة مدّة التوقيف . كان الطعام سيئاً جدّاً يوضع في طاسة بلاستيكيّة؛ وكان على المساجين تناول الطعام بحسب تسلسل أرقام زنزاناتهم من ملعقة واحدة . فقد خرجت من الاعتقال بثقب في الأمعاء الغليظة أدّى بي بعدها إلى عارض صحي صعب، ما زلت أدفع ثمنه حتى الآن. وبعدها، هربت إلى جونيه، واحة الحريّة الوحيدة في شرق أوسط الإرهاب؛ وحاولت برفقة آباء الكسليك البحث عن تعاف من أوجاعي وكراهيتي لكلّ ما هو سوري: لولا أمبرسيوس حاج، الذي علّمني معنى أن تقبل الآخر بضعفه وتخلّفه وإرهابه، لما استطعت أن أدخل هذا الوطن الأغرب يوماً.

وبسبب هذه التجربة المريعة، آثرت أثناء إقامتي السوريّة، بعد عودتي إلى دمشق في أعقاب سقوط العماد ميشيل عون، أن أبتعد تماماً عن كلّ ما هو سوري، رسميّاً كان أم شعبيّاً. لكن أعمالي البحثيّة التي لا تنقصها المشاكل، كانت تجعلني على الدوام في فوهة المدفع. وهكذا، كانت الاستدعاءات "اللطيفة" تتابعني عقب إصدار أي كتاب لي . مع ملاحظة أن أعمالي ممنوعة كلّها في ما يُقال إنه الوطن الذي أحمل هويته، بقرار من المدعو أحمد درغام، رئيس ما يسمّى بمكتب الإعداد القطري؛ والسبب هو رفضي العمل عند صديقه، بشير نجّار، رئيس مباحث أمن الدولة وقتها، مخبراً بمرتبّة مفكّر: وكان لقاءي به "بيضة ديك"، رتّب له السيّد محمّد دعبول، مدير مكتب الرئيس الراحل، حافظ الأسد . دون أن ننسى الهجوم الشعبي الأصولي علي شخصيّاً، والذي وصل إلى حد توزيع مناشير في شوارع دمشق ضدّي، تحمل بصمة وزير الأوقاف الحالي، زياد الأيوبي؛ وتهديدي الدائم بالتصفيّة من قبل شيخ من التيّار الوهابي في منطقتي، المدعو راتب خضرة: بمعرفة الدولة وأجهزتها الأمنيّة . وربما برضاها. ولمّا قام طبيب من التيّار ذاته، اسمه عبد الجوّاد عرابي، بتدبيج تقارير كاذبة ضدّي، تفيد بأني أشتم الدولة ورأسها باستمرار، بمساعدة عقيد في الأمن الجوّي كان كل ذنبي معه رفضي استغلاله المادي لي؛ الأمر الذي كان يمكنه أن يودعني في سجن أحد الأفرع ليس أقل من ستة أشهر (كذا)؛ قام أحد الأصدقاء من المتنفذين، بعد كشف المؤامرة "بالصدفة البحتة"، بتعيين رجلين لمرافقتي في عملي بشكل دائم . وسُحبا بعد اعتقالي الأخير.

لمّا بدأت أنشر مقالات، بالعربيّة والإنكليزية، في نقد الأسس المعرفيّة لحزب البعث وللفساد ولمسلّمات النظام السوري، راحت الاستدعاءات الأكثر من مهذّبة، خاصّة من الأمن العسكري، تتوالى! بالمناسبة، لا أنكر معرفتي بل وعلاقتي العميقة للغاية ببعض كبار المسئولين في شعبة الأمن العسكري: وعلى رأسهم رئيس الشعبة، الذي استدعاني عام 1993 في أعقاب صدور كتابي *"يوم انحدر الجمل من السقيفة"*، والضجة التي أثارها التيّار الأصولي بعدها، خاصّة محمّد سعيد رمضان البوطي. ورغم المرّات النادرة التي التقيت فيها الرجل، إلاّ أنّه لا مناص من الاعتراف بأن ثقافته في الفكر اليهودي كانت أكثر من مثيرة للإعجاب؛ ولا أنكر أيضاً أن حمايته لي كانت غير عاديّة، خاصّة بعد أن هوجم مكان عملي أكثر من مرّة من قبل التيّار الأصولي! من ناحية أخرى، فقد ارتبطت بعلاقة غاية في الإنسانيّة مع أحد كبار الألوية في الأمن العسكري، الذي ألجأني إليه الصديق المفكّر محمّد شحرور، بعد تعرّضي للأخطار من قبل التيّار الوهابي في منطقة عملي. ودون مبالغة، فقد كانت علاقتي بهذا "الإنسان" الأقوى في زمن وجودي الدمشقي؛ ووصل إعجابي بهذا الرجل الأنظف بين كلّ من عرفته من مسؤولين إلى درجة أني كنت أكرّس كمّاً كبيراً من وقتي، وهو ما منعني عن كتابتي الصحفيّة والبحثيّة، من أجل فكرة مركز بحثي يعنى بالشئون الإسرائيليّة على كافة الأصعدة؛ وظللنا على هذه الحالة حقبة لا تقلّ عن أربع سنوات؛ أفدت شخصيّاً منها للغاية في تكوين تصوّر بانورامي للحالة البحثيّة في إسرائيل: ولمّا أعددنا مخطّطاً متكاملاً للمشروع، ذهبت الفكرة إلى غيرنا. وبصراحة مطلقة أذكر هنا، أنّ ما حفزني على العمل في المشروع ليس شعور العدائيّة تجاه أحد، فقد تعلّمت من الرهبان الكاثوليك أساتذتي فلسفة محبّة الأعداء، كما فسّرها يسوع، ومار بولس بشكل خاص؛ بل رغبتي الذاتيّة في تقديم كلّ مساعدة لهذا الإنسان غير العادي، أخلاقيّاً وثقافيّاً وحضاريّاً.

قبل اعتقالي بفترة قصيرة، حاول وزير الإعلام السابق، أحمد الحسن، إثارة الأمن العسكري ضدّي، في محاولة مستميتة منه لاعتقالي؛ وفشلت المحاولة. وبعد اعتقالي بساعات، تمّ تغيير هذا الرجل الذي لا يوجد في أجندتي ما هو ضدّه شخصيّاً، بل كان انتقادي له لا يخرج عن إطار تحويله وزارة الإعلام إلى تكيّة أصوليّة. وهذه المحاولة من قبل وزير يفترض أنه مثقف وحام للمثقّفين أظهرت . ضمن أشياء أخرى لا حصر لها . الأزمة

المعرفيّة عند الشعب السوري: العقل التوتاليتاري. وبشكل عام، الشعب السوري، كنخبة مثقّفة، محكوم بالعقليّة الماركسيّة وبعض الجزر البعثيّة الصغيرة التي لا تقل توتاليتاريّة عن أختها الماركسيّة؛ وكعوام، يجرّه الأصوليّون الإرهابيّون من أنفه! إذن، الشعب السوري يفتقد عموماً أهم شرط موضوعي للدخول في عالم الحضارة المعاصر: ثقافة قبول الآخر. وفي مجتمعنا المعاصر لم يعد هنالك إمكانيّة لوجود نقاء عرقي أو قبلي أو قومي أو ديني: فالتعدّدية هي هويّة القرن الحادي والعشرين الأولى!

من أبرز الدلائل على الأزمة المعرفيّة التي يعيشها السوريّون عموماً هي تلك الندوة التي أقامتها بعض القوى السياسيّة في سوريّا، أثناء اعتقالي الأخير، والتي لم تكن غير منبر ساهم فيه شيوعي منشق اسمه قدري جميل، وأصولي منشق، اسمه محمّد حبش، وكان الهدف منها ليس التضامن مع شخص اعتقل بلا مبرّر مهما كانت هويته الثقافيّة، بل التشفّي من الفكر الآخر غير التوتاليتاري عبر الهجوم الأمي ثقافيّاً على الليبراليّة والليبراليين العرب [أفضّل: الناطقون بالعربيّة]! وكانت ثالثة الأثافي أن تنبري إحداهن من الجماعة التي تسمّي ذاتها "لجان إحياء المجتمع المدني"، لمهاجمة الليبراليّة بالعنف، دون أن ينسى الحضور بهار الخيانة وملح العمالة والصهينة والأمركة، الذين اعتادت أعيننا وأنوفنا عليهم منذ أن هبطت المصيبة الناصريّة ومن بعدها البعثيّة على الجسد السوري، مطيحة بالتالي بالبورجوازيّة مرّة وربما إلى الأبد. كان باستطاعتي التماس عذر لهؤلاء لو أن واحدهم، خاصّة ذلك الشيوعي المتسلّق، كان يمتلك الحد الأدنى من فهم أبجديّة الليبراليّة كفلسفة. . فوقت الصفقات والاجتماعات الجماهيريّة لا يترك له ما يكفي من الوقت كي يقرأ جريدة: فكيف بفلسفة عميقة متشعّبة كالليبراليّة؟

إن الاعتقال الذي عشت، مهما كانت سيئاته، يدفع إلى صدر الصورة مجموعة أسئلة لا تفارق الذهن:

1 . هل يوجد قانون في سوريّا؛ وهل أن هذا القانون المفترض قابل للتطبيق على الجميع، دون تمييز؟ وهل أجهزة المخابرات فوق القانون أم تحته؟

2 . هل يوجد مثقّفون فعليّون في سوريّا؟ أليس بعض جنرالات المخابرات، مهما كان عددهم . لديّ مثال واحد على الأقل . قليلاً، أكثر ديمقراطيّة وحضارة وقبولاً بالرأي من كلّ مثقفينا، باستثناءات نادرة؟

3 . هل تغيّرت سوريّا أمنيّاً فعلاً، بين الثمانينات، وقت اعتقلت في حمص، و2004، زمن اعتقالي الدمشقي: أم نحن الذين تغيّرنا، فصار حبسنا في زنزانة منفردة، وإسماعنا صوت التعذيب، الذي أكّد لي كلّ الحراس أنه انتهى من السجون السوريّة، شيئاً من الماضي؟

4 . هل نكافأ، ونحن الذين أضعنا كلّ عمرنا في سبيل التثقيف النقدي للسوري ولغيره من الناطقين بالعربيّة؛ نحن الذين أضعنا سنوات طويلة من أجمل سنوات العمر، وقت كان غيرنا يستثمر أيامه في رفع رصيده المصرفي من حساب قوت الشعب، في محاولة خلق مركز بحثي، أيّاً كانت الدوافع، يهدف إلى مساعدة جهاز الأمن العسكري، أو بعضه، في فهم أفضل لواقع من يعتبرهم هذا الجهاز أعداءه، بسجن غير واضح المعالم من قبل جهاز آخر؛ بل هل يعقل أن يستدعي جهاز الأمن العسكري هذا ذاته، بعد خروجي من اعتقال الأمن السياسي، صديقي الأوحد، الذي يعيش معي لرعايتي أمنيّاً في وسط وهابي معاد ورعايتي صحيّاً في ظرف هو الأسوأ، وهو النقيب عدنان إبراهيم، وإفهامه أن التعاطي معي شيء يسيء إليه وإلى مهنته كضابط؛ وإذا كنت شخصيّاً مشبوهاً "وطنيّاً" إلى هذه الدرجة بنظر الأمن العسكري، فكيف يسمح رئيس هذا الجهاز لنفسه باستقبالي كلّما استدعى الأمر ذلك؛ لماذا كان يصرّ رئيس فرع فلسطين على رؤيتي ويستقبلني في مكتبه بطريقة أكثر من وديّة؛ ولماذا كان يسمح لي على مدى سنوات بدخول الفرع 225، الذي كنت أزوّده ببحوثي المتعلّقة بالشأن الإسرائيلي؛ دون حسيب أو رقيب؟ وهل المطلوب إشعاري بأن الدولة كلّها تخلّت عنّي وهي تضغط الآن كي تجعل حتى المؤمنين بما أفعل يتخلّون عنّي، لدفعي باتجاه الهرب أو تقديم المزيد من التنازلات؟

5 . إن تصفيتي جسدياً ليست بالأمر الصعب؛ والأمن السياسي، فرع ريف دمشق، هو الذي استدعى الشيخ الذي هاجم مكان عملي والعصابة التي كانت تأتمر بأمره؛ ولم يوقف أي منهم ثانية. كذلك فالأمن العسكري، فرع المنطقة، هو الذي أوقف الطبيب الملتحي وعصابته قبل مدّة، ولا أظن أن الوثائق اختفت من أدراجهم. بالمقابل، فإن هجومي الأعنف على رموز الفساد في سوريّا، لن يمرّ بسهولة. وهكذا، يمكن للطرفين التعاون في تصفيتي، ويضيع الجاني بين الفاسد والأصولي المسلم.

أزمة سوريّا ليست أزمة مخابرات أو مثقفيّن: إنها أزمة الشعب الذي يخرج منه كلّ هؤلاء. والشعب السوري غير قادر عموماً، وعلى المدى المنظور، لأسباب يعرفها الجميع . هل نذكّركم بتراثنا المقدّس أو شبه المقدّس الذي يدعو إلى الغثيان . على الخروج من الشرنقة التي شنق ذاته بها. . من لا يصدّق: ليسأل القبيسيّات والمسؤولين الذين يقفون خلفهن!!!

سورية: العيش المستحيل

www.annaqed.com

نبيل فياض، 19 نوفمبر 2004

وانتهى "التجمع الليبرالي قي سورية" بضربة واحدة، مرة وربما إلى الأبد: بالمقابل، فقد ازداد نشاط التجمعات الأصولية الارهابية التكفيرية كالقبيسيات على سبيل المثال لا الحصر، بعد أن اطمأنت إلى أن النظام لن يسمح لغير الأصوليين بالنشاط!! وفي منطقتي جيرود، النشاط الوهابي في قمته تحت مرأى ومسمع وتغاضي الجميع! بل إن هنالك كلاماً عن أن أحد العاملين في الحقل الطبي في هذه المنطقة . أخوه مسؤول بعثي . يتلقى تبرعات من الحركة الوهابية في السعودية، وقد عاد للخطبة في أحد مساجد جيرود بعد أن منع فترة لا بأس بها!
التيار الأصولي في العراق وفلسطين يقود الحرب المعلنة ضد الأميركان والإسرائيليين: وسورية تريد على الدوام لعب دور رأس الحربة ضد ما يسمى الصهيونية والامبريالية الأميركية: فهل يمكن أن نفهم من ذلك سر العلاقة الحميمة الحالية السورية . الأصولية، والمحاولة السورية المستميتة لضرب كل من يفكر بالنشاط "وفق منهج غربي؟"

دعونا لا نضخم الأمر على الطريقة العربية، ونتعاطى مع المسألة بحدودها الفعلية! فالتجمع الليبرالي قي سورية لم يكن يوماً تهديداً لأمن الدولة، مهما بدت أفكاره لبعضهم تخريبية; والأسباب هي التالية:

1 . التجمع الليبرالي في سورية، كما أردناه، لم يكن حزباً، بل كان تجمعاً لبعض أصحاب الشهادات العليا ممن يفترض أنهم يمتلكون ثقافة ليبرالية . تحررية لا بأس بها، هدفه الأول والأخير نشر ثقافة الحرية في بلد يسعى للدخول إلى عالم الديمقراطية الواسع: والديمقراطية، دون وعي لأسس الحرية ومقولاتها تصبح نوعاً من الفوضى!

2 . بالمقابل، هنالك تجمعات لا يخفى على أحد طابعها المهدد لمستقبل الوطن ووحدته الوطنية، مثل تنظيم القبيسيات الطائفي الأصولي الرجعي، الذي يعتبر الشيخ سعيد البوطي أباه الروحي، والذي ينتشر كالنار في الهشيم في الأوساط السنية السورية: كذلك ثمة تجمعات سياسية معارضة لا تخفي نقدها للنظام لا في منشوراتها ولا في لقاءاتها العامة والخاصة، مثل الاتحاد الاشتراكي العربي، جماعة حسن عبد العظيم! ولا أحد يقترب من هؤلاء!

3 . منذ البداية الأولى، اعتمد التجمع الليبرالي في سورية الشفافية المطلقة في كل تحركاته، بل كنت أقوم شخصياً بوضع أحد كبار المسؤولين في صورة ما نود عمله مرحلة فمرحلة دون أدنى حرج لأن اعتقادي كان راسخاً في أن التجمع كان يهدف أولاً وأخيراً إلى خدمة الوطن!

4 . لا أعتقد أن مجموعة مكونة من تسعة أشخاص، ثلاثة منهم على الأقل مندوبون لقوى أمنية، يمكن أن تهدد بلداً لا يقل عدد سكانه عن ثمانية عشر مليون إنسان!

من هنا، يمكن القول، إن تهمة إنشاء التجمع غير ذات فائدة لتوقيف شخص في سورية 2004 أكثر من شهر: أما العلاقة مع السفارات، التي اتهم بها، والتي أشارت إليها غير صحيفة، فالمسألة لا تتعدى سهرة في بيت المستشارة السياسية في السفارة الألمانية بدمشق، بحضور مثيلتها الكندية، والحديث كله كان عن هايدغر ومسألة الأنطولوجيا السورية (علم الكائن السوري) التي كنت أريد العمل عليها اعتماداً على الميزات العامة للسوري الفرد وعلم الكينونة عند هايدغر! – فلماذا حصل ما حصل، خاصة وأن وضعي الصحي لا يحتمل الدرجة الدنيا من الضغط النفسي، وأنه لولا تدخل القائمين الجدد على الأمر لكنت الآن على الأرجح في غير هذا العالم؟

باختصار شديد: مقالات "السياسة"!.. فما نشرته في هذه الصحيفة الليبرالية الكويتية في السنة الأخيرة أثار تحفظ كثيرين ممن لم يعتادوا قبل الآن على سماع أخفض همسات النقد، فكيف بصوت أكثر من جهوري وأوضح من مزعج؟ بل لدي من الأدلة ما يوحي بأن محاولات اعتقالي كانت قائمة على قدم وساق بتحريض من وزير الإعلام السابق وأحمد ضرغام، رئيس ما يسمى بمكتب الاعداد القطري: فإذا كان هذا نمط تفكير من يفترض أنهم رعاة الثقافة والفكر في سورية، فما بالك بغيرهم؟

من هنا، فإن العيش في سورية لمن يفكر بشكل مختلف ضرب من المستحيل: ونحن بشكل خاص، الذين لا مع الدولة بخير ولا مع الحركات الأصولية بخير، نعتقد أن بقاءنا في هذا البلد في حال توفر أي بديل مقنع، ضرب من الجنون: وهاكم الأسباب:

1 . ليست الحياة البشرية طعاماً وشراباً ونوماً فقط؛ فالأبقار تأكل وتشرب وتنام: الحياة البشرية أساساً صيرورة تفكير متصاعدة بهدف نقل الانسان دائماً إلى سويات أكثر علواً! وحين يحرم كائن بشري من التفكير، كما هو حاصل معنا على يد دكتاتور الثقافة السوري إياه، فإنه يحرم بالتالي من السمة التي تميز البشري عن الحيواني! ونحن نفضل أن نعيش بشراً في بوركينا فاسو على أن نُحجر كحيوانات في سورية!

2 . حياتياً، وكما يعرف كثيرون، فنحن مهددون بحياتنا ولقمة عيشنا من قبل التيار الأصولي الذي ينتشر بقوة لا مثيل لها في سورية اليوم. وكما قلت أكثر من مرة، فقد تمت مهاجمة موقع عملي مرات عديدة بتحريض من شيخ أصولي لا أعرفه مرتبط بالجماعة الوهابية اسمه راتب خضرة؛ مع ذلك، فحين استدعي المهاجمون والمحرض إلى الأمن السياسي، فرع ريف دمشق، لم يوقف أحدهم للحظة، بل لم يمنع الشيخ المتطرف إياه عن منبره!!!

3 . بعدها، استلم راية القتال ضدي طبيب ملتح لا أعرفه، اسمه عبد الجواد عرابي، بالتعاون مع ضابط في الأمن الجوي كل ذنبي معه أني رفضت استغلاله لي بعد أن أدخلت ابنه المسمى نبراس في مدرسة اللاسلكي بدمشق، وكانت المحصلة أن الإثنين خططا لسجني عن طريق تلفيق تقارير عني تفيد بعدائيتي للسلطة ورئيسها! ولولا تدخل الأمن العسكري الحاسم، لكنت الآن مرمياً في أحد أقبية الأمن الجوي! الطريف أن هذا الطبيب، بمجرد اعتقالي، بدأ بمضايقة أحد أصدقائي من الحزب السوري القومي الاجتماعي، بعد أن سُربت إشاعة بأن خروجي من المعتقل ضرب من المستحيل!

4 . منذ أن تم اعتقالي في الثلاثين من أيلول سبتمبر الماضي، سُحب الشخصان اللذان أوكلت إليهما مهمة مرافقتي بعد سلسلة الاعتداءات التي قام بها الأصوليون ضدي، وأضحى ظهري الآن مكشوفاً للغاية، خاصة وأن الاعتقال أظهر للأصوليين، بما لا يقبل الشك، أن الدولة لا تمانع تصفيتي على أيديهم!

من هنا، فقد توجهت عبر تلفزيون الحرة وراديو سوا وكثير من وكالات الأنباء الغربية برغبتي في الهجرة إلى أي مكان يُضمن لي فيه حياة كريمة وإمكانية إكمال مشروعي في الدين المقارن الذي يمنعه أحمد ضرغام منذ أكثر من عشر سنوات!

الحياة في سورية، بالنسبة لي، صارت ضرباً من المستحيل: وعبر هذه الصحيفة التي أدت بعض مقالات لي فيها إلى التوقيف أكثر من شهر، لا يسعني إلا التوجه إلى الدول الديمقراطية الليبرالية، برغبتي في مغادرة سورية، كشخص مفرد، إلى مكان أستطيع فيه النوم دون خوف والعيش دون خوف والكتابة دون خوف.

نبيل فياض nfayyad@excite.com

عن أيام الملح والصمت والأمل المقهور (1)

www.annaqed.com

نبيل فياض، 16 نوفمبر 2004

الثلاثاء، الثامن والعشرون من أيلول:

كان فرحي باكتشاف عدّون أكبر من أن تتحمّله أيامي المثقلة بمئة صنف من الموت والغربة والانكسارات غير المتقطّعة! كان فرحي بقديسي العلوي أكبر منّي: لذلك كنت أخاف منه عليّ؛ كنت أهرب منه إليّ؛ وكان يطاردني كصوتي حتى في أزمنة الصمت!

قلت لمحمّد، طفلي الضخم الذي أعيش على شَفَاه منذ أكثر من أربع سنوات: سيصل عدّون اليوم الساعة الحادية عشر ليلاً؛ يجب أن ننتظره على مفرق حاجولا لأن السير صعب في ذاك الوقت المتأخّر! ومقابل الدرب المودية إلى بلدة يبرود القلمونيّة الجميلة، انحدر عدّون من البولمان القادم من بانياس؛ وعاد الهدوء ليلفّنا باتجاه البيت!

قال عدّون بلغته الآمرة الواثقة كالعادة: "أنا أعرف تشاؤمك من تشرين الأوّل، لذلك" يجب "أن تأخذ إجازة من العمل عشرة أيام على الأقل، وتأتي معي إلى البحر"!

أجبته بالإيجاب، وأنا أعرف في قرارة نفسي أن بحراً من الاستحالة يقف بيني وبين رغبة عدّون بالهجرة من غابة الحزن!

دائماً تربطني بالخريف عدائيّة فشلت في تبريرها! كانت أمّي تكرهه! وحين ماتت في شرخ الصبا، وكنّا صغاراً، اختارت تشرين الأوّل بالذات كي تهرب فيه من الحياة: وكان بالصدفة ربما مترافقاً برمضان!!!

كنت أستشرف مصيبة قادمة؛ وكان عدوّن يحاول عبثاً بفرحه المنكسر تشظية إحساسي بانهيار قادم! لقد أعاشني هذا المستوطن على تخوم الجنون تسعة أشهر من الفرح المتواصل؛ وكان ذلك أكبر من أن أتحمّله – كان علي أن أدفع في شهر واحد فاتورة الأشهر التسعة كلّها!

"هذه صور علي ومريم" – قال عدّون، محاولاً باستماتة إعادة النسغ إلى عروقي الميتة! أخذت أجمل الصور لولديه اللذين أعشق، وعلقتها فوق "الكلوب" الساكنة قرب رأسي! وقرب صورة الطفلين كانت صورة عدون طفلاً يركب درّاجة هوائيّة، يحدّق كعادته بمقلتين تعريّان المرء من ثيابه!

الخميس، الثلاثون من أيلول، الليلة الأخيرة قبل الأوّل من تشرين:

كانت أصابعهم المتمرّسة تعبث بغرفتي الصغيرة بحثاً عن شيء لا وجود له! وكانت عيناي معلقتين بوجهي الطفلين اللذين أعشق! غادرت المكان معهم، وعلي ومريم يصرخان بي من خلف الصمت الموحش: إلى أين؟

في الزنزانة الكبيرة، كان علي ومريم ينامان قربي، فوق الفراش الاسفنجي القديم الوسخ الضيّق الذي كنت أتمدّد عليه، وأنا ضائع بين الوعي وغيابه! كان علي يفترش يدي اليسرى، ومريم تتكوّر فوق راحتي اليمنى! كنت أهرب بوجهي من نظرات الطفلين المتعبة: وكانا يلاحقان حدقتي أنّى توجهتا!

الخميس، الثالث عشر من تشرين الأوّل:

للمرّة الأولى أشعر بمن حولي: كان قد مضى علي في غيبوبة طويلة ثلاثة عشر يوماً. كان منير، حارسي الحمصي الصامت، يمسك بزجاجة حليب بلاستيكيّة، يحاول إقناعي بشربها، بعد ما أمضيت كلّ مرحلة الاعتقال بلا طعام أو شراب. جلس منير على سريري الأبيض الكريه، أخذ مشطاً رخيصاً، وراح يهذّب شعري الذي تناثر

حول وجهي بلا إذن مني! فجأة، دخل شخص، ورمى إليّ بمجلّة لم أحلم يوماً بقراءتها! كتلة من كلام غبي أجوف مغلّفة بعنوان "الشرطة".

راح منير يقلّب صفحات المجلّة المزعجة بأصابعه الغليظة أمام وجهي، فيدي اليمنى معاقة بألم الخثرة التي رافقت تدفّق السيروم المكثّف في شراييني، ويدي اليسرى معاقة بخيط السيروم المشنوق إلى قاعدة حديديّة عاليّة صدئة! كانت المجلّة صادمة بإزعاجها. فجأة، ودون سابق فرح، سقطت تحت عيني مقالة عن الشاعرة والرسامة، مها بيرقدار الخال، التي كنت أهاتف أختها سوزان أحياناً في الزمن البيروتي الأجمل!

كانت مها تمسك بكأس الموت، أتجرّعها من تلك الكلمات المعلّقة بين الله والجحيم:

أقصى التمنّي

دفن هادىء قرب بحيرة

دموع تسكن المناديل

صمت شجر

سقته يوماً يد عند المغيب

لم يكن قد مضى شهر على وصيتي لعدّون بأن أُدفن في قريتهم سرابيون، التي تحمل اسم قديس مسيحي: كنت – ومازلت – أثق أن عدوّن وحده هو الذي سيحمل زنابق بيضاء إلى موقعي الساكن الصامت الهادىء الأخير! وكانت قريتهم منغرسة بين البحر والشجر!

حملتني كلمات مها، نعشاً مقلوب الغطاء، من مشفى دمّر إلى سرابيون: كان عدّون يحمل الصندوق الخشبي المستطيل من مقدّمته، وفي الخلفيّة كانت مريم وعلي يجاهدان بتعثر الأطفال لمساعدة أبيهما في نقل صديقه إلى جنة راحة الزنابق البيضاء!

عادت مها تصرخ بصمتها في صَدفتي التي يحاول منير كسرها:

هو العمر

ملائكة الوقت حول سريري

تعلن بأنني أشيخ

وأن خطواتي ليست كالأجراس

حقّاً... أشيخ

لأن صبري كصبر النمل

هل حقّاً سأغادر هذا المشفى–السجن لأرى عدوّن دون الزنابق البيضاء؟

هل سأعود لأكتب وأمدّ أصابعي النحيفة نحو فضاءات يريدون تكسيرها أمام أنفاسي؟

هل باستطاعتي الحلم بليلة أخرى وحيدة تحت قمر سوكاس وصخورها القديمة؟

هي لحظة

وأغرق ليلاً آخر

في ظلمة يقال عنها سعيدة

<u>الثلاثاء، الأوّل من تشرين الثاني:</u>

مثل أروفيوس، وكنت أقف أمام كنيسة بولس الرسول الدمشقيّة الشهيرة؛ هبط عدّون من سيارة أجرة صفراء، يحمل باقة ورد شبه قرويّة، وكثيراً من الحلوى التي أحب! كنت أنتظره بثيابي السوداء التي اشتراها لي منير وشعري الذي استطال على غير عادته! حاولت بصفاقة أن أقهر الدمعة التي وقفت في عيني كي تهطل: لكنها رفضت!

تلعثمت كبدوي يجتاز شارعاً مزدحماً في مدينة كبيرةٍ للمرّة الأولى! "لم أكن أعتقد أني سأراك حيّاً"! صرخت فيه وهو يرميني بباقة ورده الرائعة؛ " الشيء الأوحد الجميل في أيام الاعتقال المريعة تلك هو اكتشافي عمق حبّي لتلك الوجوه القليلة النادرة التي أدمنتها في وجودي!"

صمت كياني: "كان علي ومريم يصلّيان لك باستمرار"!! قال عدّون بفرح أخرس!

استندت متعباً إلى يده اليمنى على غير عادتي، وضعنا من جديد في زحام دمشق الجميلة!

نبيل فيّاض، (مقالة مابعد الاعتقال الأولى)

حزب البعث: أقلية ساحقة وشعب مسحوق!

www.annaqed.com

30 سبتمبر 2004

نبيل فياض

"الديمقراطية لا تعني ابداً استبداد الغالبية"

يبدو ان ثقافة بعض البعثيين السوريين، على اعلى المستويات، خصوصا في التاريخ الحديث، لم تغادر السفح قط؛ بل يبدو ان هذا البعض، كما تقول بعض المعطيات في الايام الاخيرة، يعيش، كجماعة القاعدة، في طورا بورا معرفية تعزلهم حتى عن وسائل الاعلام التي تنتشر سلطة اولى في كل حي ومقهى ومنزل: ربما انهم منشغلون بنوع معين من الاعلام ونوع معين من الفضائيات، تحديدا اولئك الذين يمتلكون تاريخا بعينه، عرفت احدى حلقاته وزارة الاعلام السورية!!!

ايام الرفيق الاحمر التوتاليتاري بريجينيف، ومن بعده الرفيق الوردي هلامي الملامح غورباتشيف، كان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي السابق حزب الغالبية الساحقة: بل الحزب الاوحد! وجاء بعدهما الرفيق السابق المليء بكل الالوان، بوريس يلتسين، ليحول حزب الغالبية الساحقة الى قلة منبوذة، بل محظورة، ليصبح من ثم حزبا لكمشة من المتقاعدين لا صوت لهم خارج بعض المناسبات اللينينية حيث يرفع بعض عجائز، لا يشعر بوجودهم احد، اعلاما حمراء عليها شعارات بروليتارية! وما يصح على روسيا، يصح على غيرها من دول المنظومة الاشتراكية والاتحاد السوفياتي السابق!

في التاريخ العربي المعاصر، لدينا تجربتان تزعجان الاعين بالوانهما الفاقعة: الاخ جمال عبد الناصر، والرفيق صدام حسين. الاول، لفق حزبا اسماه الاتحاد الاشتراكي (كافية لاستبعاد كل من هو غير اشتراكي) العربي (كافية لاستبعاد كل من هو غير عربي كالاقباط)، وكان افضل انجاز له انه اطلق على رأسه رصاصة الرحمة بعد موت المؤسس، حبيب الملايين، فلم يعد ثمة ما يذكرنا بتلك الظاهرة الصوتية اللاطربية غير وجه مصطفى بكري، احمد سعيد نسخة 2004، غير المعدلة، الذي يصدمنا به بين الحين والاخر بعض المحطات التي تفوح منها رائحة الاخوان! الثاني، بالمقابل، استولى على حزب اسمه حزب البعث العربي (استثنى ثلث الشعب العراقي) الاشتراكي (استثنى الثلث الثاني)، وكان الاوحد عالميا على الارجح الذي يفوز في الانتخابات بنسبة مئة في المئة على الاقل، بمعنى انه لا يحق لاحد ان يموت او ينجب او يصاب في حادث مروري يوم انتخاب القائد الملهم، كما كان الاوحد في المجرة الشمسية الذي عدد المنتمين الى حزبه اكبر من عدد البالغين في شعبه! وكما يعرف الجميع، فقد تبخرت ملايين البعثيين العراقيين، الغالبية الاكثر سحقا مما يتحمل السحق، مع اقتراب اول دبابة اميركية من حدود بغداد الجنوبية، وثبت بما لا يترك مجالا للشك ان الاصولية وحدها كانت غالبية الساحقين، حتى في ازهى العصور الصدامية!

هذا القول نورده بمناسبة الحديث الذي ادلى به رئيس مجلس الشعب السوري، الاستاذ محمود الابرش (قبل

قراءتي للتصريح، كنت اعتقد ان رئيس هذا المجلس ما يزال الاستاذ عبد القادر قدورة)، الذي حاولت ان اعرف عنه بعض امور قبل الرد، فلم اجد غير ما لا يسرني شخصيا: ضمن فهمي الخاص للانتماء الوطني ومعنى المواطنية الحقة، خصوصا ما يُشاع عن بعض امور اثناء اقامة الاستاذ الابرش الباريسية، واسبابها! للاسف الشديد، وبسبب غياب الشفافية الكامل في اصول التعاملات الرسمي في سورية، نجد ان الشائعات المغرضة تنهش كثيرين، على اعلى المستويات: من ناحية بعض التصرفات ذات الطابع الشخصي او العام، الانتماء الوطني وصحته، واشياء اخرى كثيرة مشابهة!

نحن نعتبر اي مواطن مقيم في سورية منذ زمن بعينه مواطنا سورية كامل الحقوق، مسلما كان ام بوذيا، شيشانيا كان ام انغوشيا، شريطة ان يكون انتماؤه لسورية هو الاول والاخير، لا ان يكون عربيا سوريا بعثيا قوميا في دمشق، وشيشانيا غروزنيا مسخادوفيا اصوليا (على سبيل المثال لا الحصر) في هذه العاصمة الاوروبية او تلك . وشريطة ان يقدم، بكل شفافية، شهادة حسن سلوك اخلاقية مادية.. الخ!
اذن، ودون حاجة لبرهان اوضح، حزب البعث ليس حزب الغالبية الساحقة؛ وهنالك فرق لا يدركه غير اصحاب البصيرة بين الحقيقة ووهم الحقيقة! وحتى ان كان حزب البعث، كما يصدمنا وهم الحقيقة، حزب الغالبية الساحقة: فهل يبرر له هذا قمع الحريات على مدى اربعين عاما تقريبا؟ ان تلميذا في صف الديمقراطية الاول الابتدائي يعرف حتما ان الديمقراطية لا تعني سحق حقوق الاقليات؛ وان حرية الرأي لا تعني تغييب الرأي المخالف. . فماذا قدم حزب الغالبية الساحقة هذا للناس في سورية؟

اقتصاديا: كما اشرنا باستمرار، يكفينا فخرا انه بسبب الانجازات البعثية فائقة النظير على الصعيد الاقتصادي، فان اكثر من مليون سوري يعملون في لبنان، الدولة الصغيرة الخارجة لتوها من حرب اكلت الاخضر واليابس، والتي لا نفط فيها ولا فوسفات ولا انهر ولا سهول حوران الزراعية.. الخ! بالمناسبة، اتمنى على رئيس مجلس شعبنا الموقر زيارة مكتب العمل في دمشق ليعرف النجاح الاقتصادي الهائل الذي حققه البعثيون الافاضل!
حضاريا: تكفي زيارة دمشق، التي تفتقد النشاط الثقافي الفعلي او الفني (توجد فيها دار سينما . بالمعنى العصري . وحيدة فقط) الفعلي، او العمراني الفعلي، ومن ثم التوجه غربا نحو بيروت، الخارجة من حروب الاخوة الاعداء، لاكتشاف شيخوخة عاصمة الامويين والبعث، وصبا عروس شرق المتوسط!

ديمقراطيا: لا حاجة بنا للتذكير بالحجر على العقول الذي يمارسه البعثيون في سورية وقمع الحريات ذي الطابع المؤسساتي؛ لا حاجة بنا للتذكير بانعدام الصحافة الحرة . أفضّل: انعدام الصحافة . والتلفزيونات الحرة والاذاعات الحرة، لا حاجة بنا للتذكير بجبهة دمشق الوطنية التقدمية التي يمكن وضع احد احزابها (حزب صفوان القدسي الذي لا اعرف اسمه) في سيارة فولكسفاغن قديمة واحدة، وانشقاق الاخر موسميا، مع اوكازيونات نهاية الصيف، بسبب الصراع على المرسيدس وعضوية "البرلمان"؛ مقابل الحرية اللامحدودة التي يعيشها اللبنانيون من برلمان حر الى صحافة حرة الى احزاب حرة.. الخ!
ملاحظة بسيطة: بسبب الحرية يستطيع لبنان تشغيل نحو من مليون سوري!!..
بحمد الله، لم يحكم البعثيون غير قطرين عربيين؛ وكانت النتيجة صراعات دموية بين الجناحين، بغض النظر عن اسطوانات التخوين التي يشتركون بها مع الناصريين! حكم البعثيون، بحمد الله، قطرين عربيين فقط، وبدل ان يتعاون الطرفان في سبيل رفع سوية الشعبين السوري والعراقي، هدر الطرف الشرقي اموال الشعب العراقي .

وما اكثرها . في تخزين ترسانة اسلحة، قام هو ذاته بتدميرها: وكأنها ارث خاص به! وكان يمكن لهذه الاموال الجبارة التي اهرقها في ترسانة اسلحة عبثية وحروب عبثية . هل يسمح لنا الرفيق عبد الباري عطوان بالاشارة السريعة الى قصور الصدام وفقر العراقيين؟ . ان تغير وجه المنطقة والخليج لو حولت الى استثمار مياه شط العرب لارواء منطقة يقتلها العطش! بغض النظر عن مشاريع مشابهة لا حصر لها، كان بامكانها نقل شعوب المنطقة، حضاريا، الى المستوى اللائق بهم!

حضرة رئيس مجلس شعبنا!

قبل سنوات دخل مجلس شعبنا الموقر فنان اسمه محمود جبر: فهل تعرف لماذا؟ لقد انتخبه الدمشقيون، وهو الغريب عن دمشق، فقط لانه اشيع انه قال للاستاذ قدورة ان ميزانية كلبه اكبر من ميزانية اية عائلة عمالية سورية! هل يمكن ان ندرك من هذا الحدث غير العادي "عمق" حب الناس لكم؟

الأستاذ عبد الحليم خدّام: إلى أين ستقودون الدولة والمجتمع؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 20 سبتمبر 2004

قبل الخوض في أيّة تفاصيل، لا بدّ من الاشارة إلى مجمل تغييرات تجتاح سوريّا منذ أكثر من عام، لا يمكن تقنين مسبباتها في عامل وحيد، مهما كان هامّاً، محليّاً أم إقليمياً أم دوليّاً؛ ومن تلك التغييرات يمكننا الوقوف عند الأمور التالية:

الانفتاح الايجابي على العقليّة النقديّة غير العميلة خاصّة من قمّة الهرم السوري؛ والتراجع الملموس للعقليّة الانتهازيّة، التي يمثّلها المتبعّثون بأفضل ما يمكن، والتي طالما أخفت أغراضها النفعيّة تحت قناع نظريّة المؤامرة أو الصراع مع قوى لا نعرف أين تبدأ ولا كيف تنتهي: وحين تكون القمّة إيجابيّة نقديّاً، يصعب على من هو دون القمّة اتخاذ مواقف مخالفة، خاصّة وأن النَفَس العالمي العام لم يعد يتقبّل إطلاقاً العقليّة الأحاديّة؛ ولم يعد في وسع أيّة دولة أيضاً أن تعيش ضمن ستار حديدي على الطريقة الكوريّة الشماليّة، وبشكل محدّد إذا كان وضعها الجيوسياسي يفرض عليها عكس ذلك؛

التغييرات الجذريّة في صفوف القوى الأمنيّة، كالأمن الجوّي على سبيل المثال لا الحصر، واستبدال العسكريين الأميين تقريباً والذين كانوا يتعلّمون فقط عبر نظرية التجربة والصح والخطأ من الذين احتلوا مقدمة الصفوف أمنيّاً زمناً طويلاً، بأشخاص لا تنقصهم الخبرة العمليّة ولا الثقافة الواسعة المدعّمة بشهادات عالية أكاديمياً، الأمر الذي يعني تفهّماً أفضل لصيرورة التغييرات التي تعصف بالمنطقة على كافة الأصعدة؛

وصول قطاع كبير من الدولة إلى الاقتناع أخيراً بأن مجموعة المثقفين النقديين ليسوا معادين "للوطن"؛ ورغم كلّ ما يقوم به المتضررون من تعميم العقل النقدي سوريّاً، فالوضع حتى الآن مريح، بل إنّه يتقدّم باستمرار، وإن ببطء ودون مستوى التوقعات؛

اقتناع غالبيّة الناس أن أحد أسباب الوضع غير المرضي الذي نعيشه اليوم هو الانتهازيّة–الشعاراتيّة لمجموعة المتبعثين الذين لا همّ لهم غير مصالحهم الخاصّة: وأية جولة في سوريّا، ريفاً ومدينة، تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن رموز التبعّث لم يكن همها غير تسويق شعارات لا يؤمن بها أحد "فقط" لرفع رصيدها المصرفي–العقاري–الرأسمالي!

في حديثه الأخير إلى إحدى الدوريّات السوريّة، قال الأستاذ عبد الحليم خدّام، نائب الرئيس السوري، إنّه يعارض تغيير القانون السوري، خاصّة الفقرة التي تقول إن حزب البعث هو قائد الدولة والمجتمع! وبذلك أثبت الأستاذ خدّام، بكلّ أسف، صحّة ما نقوله دائماً، من أنّ بعض السياسيين السوريين، يقفون على يمين الجميع، بما في ذلك المؤسّسة الأمنيّة! إضافة إلى ما سبق، فقد أثبت هؤلاء السياسيّون أنهم يفتقدون إرادة فهم أن العالم تغيّر بالكامل بعد سقوط الكتلة السوفيتيّة وبرجي التجارة العالميين! – مع ذلك، فالأستاذ خدّام، كسياسي خُضرم أكثر من أيّ شخص آخر في القيادة السوريّة، لا يمكن أن ينطبق عليه ما قلناه باستمرار حول قضيّة التغيير وإرادته؛ إذن، لماذا يأخذ تلك المواقف اليمينيّة غير المبرّرة من مسائل حُسمت في بلدان من نمط بوركينا فاسو، التي فيها أكثر من ثلاثين حزباً تتطاحن في سبيل الوصول إلى السلطة؛ وما الذي يدفع به إلى الإصرار على أن حزبه "يجب" أن يظلّ قائد الدولة والمجتمع؛ وهل أنّ حزب البعث مؤهّل أيديولوجيّاً للاستمرار كقائد لدولة تغيّرت ظروفها للغاية منذ عام 1963، ولمجتمع متحرّك بطريقة أقرب إلى الأمواج العاتية على شاطيء بانياس؟

إذا جعلنا الأخير أوّلاً، وانطلقنا من نقاش موضوعي لمسألة المنطلقات العقائديّة الأبسط لحزب البعث العربي الاشتراكي، لكانت النتيجة مفجعة: فقد طرح هؤلاء مقولة "وحدة، حريّة، اشتراكيّة"، فإلى أي مدى كانت هذه المقولة قابلة للتطبيق، بل إلى أي مدى ساهم البعثيّون في تعميم هذا الشعار عربيّاً، أو تنفير الناس منه؟ دون أدنى شك، فالحدود القطريّة العربيّة، باعتراف الجميع، مسألة تخطيط مصلحي غربي أوّلاً وأخيراً: ومن يعرف تاريخ "لبنان الكبير"، على سبيل المثال، يدرك دون جهد يذكر أنّ مسألة الحدود النهائية لهذا القطر أو ذاك لا علاقة لها، إطلاقاً، بأي من المكوّنات الأساسيّة للشأن القومي! إنّ من درس تاريخ المنطقة في الخمسين سنة الأخيرة، وشاهد بأم العين تصرّفات البعثيين في الكويت أو لبنان حيث تمّ التصرّف في الحالتين كاحتلال كولونيالي استبدادي في ما يفترض أنه قطر شقيق، يفهم سبب نفور الشعبين الكويتي أو اللبناني من قضيّة الوحدة إياها، ويعترف لنفسه على الأقل بالتالي أنه إذا كان الأوربيون قد رسموا الحدود العربيّة على الورق، فإن البعثيين وغيرهم من ناصريين وما شابه، بتصرفاتهم التي يعرفها الجميع، رسموا الحدود في القلوب والأعين! الحريّة، من ناحية أخرى، قضيّة لا تثير في النفس، حين تذكر بعثياً، غير الشعور بالغثيان: هل ثمّة مبرّر لذكر فظائع الطاغية صدّام حسين بحق الحريّة في العراق؟ هل ثمّة مبرّر للترحم على الديمقراطيّة–الليبراليّة الوليدة التي عرفتها سوريّا زمن ما أسموه "الانفصال"، والتي كان يمكن لو أنها استمرّت أن لا يصل البلد إلى سلسلة الانهيارات التي يعرفها حاليّاً؟ هل ثمّة مبرّر للتذكير بالإنهاء التعسّفي لكافة أشكال الحريّات بعد وصول البعثيين إلى السلطة عام 1963؟ هم احتفظوا بالحريّة لأنفسهم، ومنعوها عن غيرهم في ظل الشعارات الكبيرة التي ملّها الناس: وفي هذا كانوا التنظيم الأكثر انسجاماً مع مبادئه والأكثر تناقضاً مع الحريّة كفعل أخلاقي! أمّا الاشتراكيّة فحدّث ولا حرج: وكما قلنا باستمرار، فرموز التبعّث، بعد أن سرقت القطاع العام في ظل الشعارات [شعارات ليس إلاّ] الاشتراكيّة، استدار أبناؤهم الآن لسرقة الشعب كلّه عبر مشاريعهم الرأسماليّة التي يمولونها من النقود التي سرقها آباؤهم الاشتراكيّون! هل ثمّة من يؤمن اليوم بالاشتراكيّة في المنظومة البعثيّة؟ هل أن الأستاذ خدّام، وأولاده وبناته، يؤمنون فعلاً بالاشتراكيّة؟ من تصريحاتهم وممارساتهم الكثيرة يظهر هؤلاء وكأنهم أعتى أعداء للاشتراكيّة: فلماذا تاجروا بنا كلّ هذه المدّة بشعار انتهى بالتقادم، واستداروا إلى النقيض تماماً ليتاجروا بنا من جديد؟

إن كبت الحريّات وتغييب النقد البنّاء ومنع الشفافيّة تحت عناوين لم يعد زيفها خافياً على أحد، إضافة إلى التهام القطاع العام بتدريجيّة مدروسة لصالح الرأسماليّة الفاسدة الوليدة هو المبرّر الأهم برأينا لإصرار بعضهم على الدور الريادي للبعث في قيادة الدولة والمجتمع! بالمقابل، فنحن نقبل بهذا الدور، شريطة الحفاظ على حقوق غير البعثيين، إذا قالت صناديق الانتخاب "الحرّة"، بالمعنى المتعارف عليه دوليّاً، كلمتها، وأعلن معظم الشعب على رؤوس الأشهاد أنه يوافق على استمراريّة حزب البعث كقائد للدولة والمجتمع!

في ظل الاشتراكيّة إياها، أشاد الأستاذ عبد الحليم خدّام قصوراً أين منها حكايا ألف ليلة وليلة تحتاج إلى دخل رأسمالي لا مثيل له في بلد حيث أكثر من نصف السكّان يعيشون تحت خط الفقر؛ في ظلّ الاشتراكيّة إياها أشاد أولاده مصانع "عصيّة على النقد بسبب تقنين الحريّة البعثي الشهير"، افتتحوا مطاعم ومجلاّت – وجوب التمظهر التثاقفي – لا يجرؤ أحد على سؤالهم "من أين لك هذا؟"، وتناثرت حولهم الأقاويل في الداخل والخارج دون أن يسمح للشعب–الزوج المخدوع بأن يعلم شيئاً وإن كان "الآخر"!

مما لا شكّ فيه، أن البلدات والمدن السوريّة تتأثّر للغاية بشخص من يخرج منها من رجالات سلطة: وكلّ من يقارن دير عطيّة، القريّة الصغيرة السوريّة التي أوصلها مسئول أوحد إلى مصاف قرية سويسريّة "دون مبالغة"،

ببانياس التي قدّمت للقيادة السوريّة ثلاثة من أبرز رموزها، ومنهم الأستاذ خدّام: بانياس التي لا تشبه بأصوليتها وتخلّفها غير كابول طالبان، يفهم تماماً لماذا يريدون أن يظلوا قادة للدولة والمجتمع!

الأستاذ خدّام، المحامي المثقف الذي نعرف جميعاً أنه الأبعد عن الأصوليّة، الفيروس الذي يندر أن تجد سوريّاً وقد نجا منه، مطلوب منه في هذه المرحلة، خاصّة وهو يعرف تماماً أن الوطن باق وكلّ ما عداه زائل، أن يعمل جاهداً على تغيير هذه الفقرة تحديداً في الدستور، من أجل إقصاء المتبعثين الانتهازيين عن رقاب الناس من ناحية، وإشراك الشعب كلّه في عمليّة بناء الوطن من ناحية أخرى.

****

لن نقبّل يد الخميني يا .. وزير الإعلام!!!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 13 سبتمبر 2004

.. ولمن لا يعلم، فإن وزير الإعلام السوري، أحمد الحسن، كان أوّل سفير لسوريّا في إيران الملالي، بزعامة أكبر إرهابيي القرن العشرين، الخميني! ولمن لا يعلم أيضاً، فقد نُقل إليّ، ممّن ينتمون إلى عشيرة وزيرنا العشائري "بلا منازع"، أنّه كان السفير الأوحد الذي يقبّل يد إمام الإرهاب الأشهر!

إنّ أسوأ أصناف السوريين هو العلوي أو السنّي أو الإسماعيلي عندما يتخمخم [من خميني]! وفي ظل شيوع المعارف الذي يشهده عالمنا اليوم، فإن أحداً من الذين كان يطلق عليهم "باطنيّون" [يُقصد بذلك عموماً الطوائف التي أعطت العقل دوراً رائداً: أي، الدروز والعلويّون والإسماعيليّون]، لم يعودوا باطنيين إطلاقاً؛ خاصّة إذا ما عرفنا أن "*كتاب الحكمة*" الدرزي، الذي اعتبر لفترة أكثر الكتب باطنيّة، صار في متناول الجميع، ليس دون موافقة ضمنيّة درزيّة! من هنا، ففي اعتقادنا أنّ الطائفة الوحيدة الباطنيّة الباقية في العالم هي تلك الإثناعشريّة الخمخميّة، وكل من تبعها بإحسان إلى يوم الدين!

ورغم أننا لم نصدّق قط أية دعوى صادرة عن تلك الأصناف الباطنيّة الخمخميّة، فنحن لا نستطيع فهم تلك التغييرات الجذريّة في الإعلام السوري، بعد اعتلاء وزيرنا اللاطائفي صهوة جواد تلك المؤسّسة الديماغوغيّة منذ أيام المرحوم أحمد اسكندر، وانحدارها أكثر، على طريقّة الصدّام قبل عمليّة تحرير العراق، نحو التخمخم، حتى أسميناها تكيّة الوزارات ووزارة التكايا، إلاّ في ضوء القبل المقدّسة إياها!

.. ولأننا نعيش هذه الأيام في سوريّا عرساً [بلا مأذون] ديمقراطيّاً تحسدنا عليه السويد والدانمارك وميكرونيزيا، وتتقاطر إلينا الوفود من النرويج وهولندا وأندورا ده لا فيلا لدراسة هذا العرس وإمكانيّة نقله، مع الإسكي، إلى بلدانهم الأصليّة؛ فقد أضحى أقل من عادي أن يقول كلّ مواطن، وزيراً كان أم رقاصة، ما عنده، أعجب ذلك الدولة أم لم يعجبها! ولأننا في سوريّا، ضمن أعرافنا غير المعقلنة المتوارثة منذ أيام المرحوم أمين الحافظ واللامرحوم أحمد أبو صالح [عندما كنّا صغاراً، كنّا نهتز بفيروس الوطنيّة ونحن نسمع مطربتنا البعثيّة تصدح:

عربيّة عاشت مطهّرة   تاريخها بدمائها كتبَ

ثم اكتشفنا؛ يا للهول!!!، بعد أن كبرنا وأُشفينا من فيروس الوطنيّة البغيض، أنّ العربيّة المطهّرة [ليس عند الصفّوري] ذات التاريخ الدموي، كانت تمضي لياليها في شقّة أخينا البعثي، أحمد أبو صالح، باعتبار أن زوجته أجنبيّة و"سبور" جدّاً، مع رئيسنا ورئيسه السابق، بحمد الله، أمين الحافظ] نعتبر أنّ الكرسي قطاع خاص لمن يُجلس عليه، فهذا الكرسي اللامؤسّساتي، كالحرباء تماماً، يأخذ لون المؤخّرة التي تدفئه! وهكذا، فوزارة الثقافة السوريّة، زمن الدكتورة نجاح العطّار، كانت مركز ثقل أيديولوجي-خطابي-تعبوي، ينافس أعتى الوزارات المختصّة بهذا النوع من المهام، لتتحوّل بعدها إلى ما يشبه بانسيون "الأشراف" في فيلم نساء الليل، لتُصاب بعد ذلك بالجلطة الدماغيّة، فلا وزارة ولا من يوزّرون! وزارة الإعلام، بالمقابل، لا تختلف كثيراً عن شقيقتها الثقافة، وبالتالي فهي تتلبّس سمة من يقعد عليها، أو يقعدها في حضنه! وحتى لا ندخل في تاريخها الطويل الممل الذي لا يستأهل التعب، خاصّة وأن مطلق دولة تمتلك الحدّ الأدنى من الفهم الحضاري للشأن الديمقراطي لا بدّ أن تقفل مؤسّسة كهذه وترمي بمفتاحها في اليم العباب، فإنّ آخر التطوّرات الطارئة على وزارتنا الحكيمة كرونولوجيّاً هي التحوزن المتخمخم: بمعنى تحوّلها إلى رأس معمم بالسواد وشفاه لا همّ لها غير تقبيل ما تصل إليه من هذا

الآية لله أو ذاك! وهذا شأنها! فكلّ وزير حرّ بوزارته! ما شأننا نحن؟ قد يقول أصحاب الألسن الطويلة إن وزارة الإعلام تعمل بالضرائب غير القليلة المستوفاة من عرق الشعب؛ لذلك لا بدّ أن يكون للشعب رأيه في آلية عملها! لكننا كأشخاص عشنا على الدوام على هامش الهامش، لا يهمنّا إطلاقاً إن صارت وزارة الإعلام حوزة خمخميّة، أو حوّلت منصّة صواريخ كلاميّة للصمود والتصدّي، أو أضحت كباريهاً للنهضة والتقدّم: شريطة أن لا تسحبنا من أنفنا وتجبرنا على تقبيل ما تطاله شفاهنا من جسد الخميني الطاهر للغاية! لكن ما حصل في الأيام الأخيرة أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الوزارة سيئة السمعة لم تكتف فقط بأن حوّلت ذاتها إلى منتجع خمخمي نجمة ونص يسوّق كلّ من يمشي ورأسه إلى الوراء، وأثبتت بالتالي مقولتنا المكرّرة عن التحالف الأصولي البعثي، وهذا شأنها، بل أخذت قراراً بمحاربة كلّ من هو غير بعثي أو خمخمي، عبر استخدام ما تحت أيديها [وغير أيديها] من سلطات لم نعتد من قبل أن نسأل: من أين لك هذا؟ فبعد أن فشل وزير الإعلام في الإساءة إلينا عبر القنوات التقليديّة، استكتب أحد هواة الشهرة، من الذين لم يتركوا شخصيّة لامعة ثقافيّاً إلاّ وهاجموها طلباً للوصول مع أنه تجاوز كثيراً سن اليأس، ليشنّ علينا هجوماً قذراً لم يسبق للساحة الثقافيّة السوريّة أن عرفت مثله في كل المعارك التي دارت فيها! ونوعيّة الهجوم المشن، الذي لا يخرج بأية حال في مفرداته عن ذلك المستخدم في ساحة المرجة الدمشقيّة أو القرى المتخمخمة في سوريّا، تظهر دون ريب النوع الأخلاقي لذلك الصنف من البشر الذي أطاحنا حظّنا التعيس في هاويته الإعلاميّة! وسوف لن نناقش الآن تلك المفردات البذيئة كي لا نجرح مشاعر القرّاء من جهة، خاصّة حين يتعرّض متخمخم باطني قميء "لا يعرف أحد قرعة الذي خلّفه من أين"، لنا كأسرة ونساء وأهل؛ ولأننا نأمل من القضاء السوري، رغم وجود وزير عدل ألمعي على رأسه، أن يردّ لنا شيئاً من حقوقنا المهدورة على باب أحمد الحسن، من جهة أخرى!

إنّ هذا العمل الذي أُخرج بالتعاون بين الخمينيين، وزير الإعلام الذي يضع بصمة وزارته العتيدة على سلّة الزبالة تلك [صديق علوي سوري أصيل، قال لي في معرض ردّه على الكتاب الذي ارتأينا أن لا ينشر – الردّ طبعاً – كي لا يعرف بالكتاب أحد، إن هذه التحفة كلّها مؤخرة، فهو العمل الأول الذي لا مقدّمة فيه ولا وسط ولا..]، وأحد الكويتبين من ركام الشيوعيّة المتخمخمة، يوضح دون لبس عمق التناقض الأخلاقي الذي تعيشه تلك الفئة الباطنيّة الخمخميّة سيئة السمعة! فهل يُعقل أن يُسمح لشخص، فقط لانتمائه الخمخمي العشائري، بأن يردّ على كتاب لنا لم توزع منه نسخة في سوريّا، وفق حدود علمنا، لأن اسمنا المزعج للبعثيين والخمخميين يصيب أحمد ضرغام، دكتاتور الثقافة السوري، بأليرجي حادّة عند رؤيته؟ نحن نعلن على رؤوس الأشهاد أننا ليبراليّون محبّون للغرب، نتبنى دون خجل القيم الغربيّة، الأمريكيّة بشكل خاص؛ فهل الردّ على هذا يكون بالزعم أني لا أمانع أن تحترف أختي أو زوجتي الدعارة؟ نحن نعلن بالألم نشرح أننا نعمل بهدي شريعة حقوق الإنسان، كما أقرّتها الأمم المتحدة، دون شطب خمخمي أو متبعث، فهل هذا يستتبع أن نرمى بكلّ تلك الأوصاف البذيئة التي لا تستعملها غير طبقة معينة معروف أن لا علاقة لها بالكتابة ولا بالثقافة؟ نحن لا نخجل من الاعتراف بأن اليهودي الليبرالي أقرب إلينا بما لا يقارن من أي خمخمي أو متبعث، من الذين يقتلون الناس في أوسيتيا أو الفلوجة أو الشيشان أو السعوديّة أو.. إيران؛ فهل يستدعي هذا رمينا بكل تلك الألفاظ التخوينيّة والسوقيّة؟ وإذا كنّا بالفعل، بنظر وزير إعلامنا وكويتبه، يهوداً وصهاينة، لا همّ لنا غير تسويق الفكر المعادي في وطن التقدّم والاشتراكيّة، بلا زغرة: فلماذا لا يقدّمان ما بحوزتهما من وثائق "دامغة" للمسئولين إياهم، وهكذا يتمّ القبض علينا ويستريحون منّا، هم وحلفاؤهم من أبي مصعب الزرقاوي حتى آخر طالباني في أفغانستان وخمخمي في إيران؟ إذا لم يكن ذلك صحيحاً، فمن حقّنا أن نطالب، وعلى أعلى المستويات، بردّ اعتباري ليس أقله وضع حدّ لهذا التيار الخمخمي الذي ينخر البلد تحت رايات مهترئة!

كلمة أخيرة أحرص على همسها في أذن الوزير وكويتبه: إذا كنتما تعتقدان أن شتمنا والدفاع عن البوطي بخمخميّة باطنيّة لا يشق لها غبار يمكن أن يحذف تكفيركما من كليّة الشريعة: فأنتما مخطئان! ومن جرّب المجرّب.. .. ..!

نبيل فيّاض

ملاحظة:

اطرف ما في هذا الكتاب التحفة، سعي مدبجّه الدؤوب، وهو المعروف بأنه من أصحاب دعاء صنمي قريش الأشهر، إلى الحصول على شهادة حسن سلوك سنيّة، عبر التبخير غير المسبوق لخليفتنا الثاني، عمر بن الخطّاب وأم المؤمنين السيّدة عائشة بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم – آسف على باطنيتي الوقحة، لكني لم أستطع إلا التأثر بهذا الجو المخمخم!

الشذوذ الجنسي في سوريا

www.annaqed.com

نبيل فياض، 7 سبتمبر 2004

ما لا شكّ فيه أنّ المسألة الجنسيّة في سوريّا، مثلها مثل بقيّة الأقطار الناطقة بالعربيّة، تعرف توترات تكاد تصل تخوم الانفجار لأسباب كثيرة؛ نذكر منها:

أوّلاً:

الانتشار المتزايد، على نحو جائحي، للتيارات الأصوليّة في البلد؛ الأمر الذي يعني مزيداً من الكبت والفصل الجنسي غير المعقلن؛

ثانياً:

الانتشار الكبير، بالمقابل، لوسائل الاتصال الحديثة؛ وما يتضمنه ذلك من استخدام غير مسبوق لصحون الأطباق الطائرة والرسيفرات التي تُشرى أساساً لالتقاط محطّات البورنو التي تزيد الوضع صعوبة، خاصّة في حالتنا هذه؛

ثالثاً:

تآكل الطبقة الوسطى وانضمامها الراسخ غير البطيء إلى الطبقة الفقيرة؛ وإذا ما حاولنا مقارنة دخل المواطن السوري ونسبته إلى مصاريفه مع دخل أي مواطن في الدول المتحضّرة لكانت النتيجة كارثيّة: هل يوجد بلد في العالم يمكن أن تشكّل فيه فواتير الكهرباء والماء والهاتف أكثر من ثلاثة أرباع دخل المواطن؟ – وما يعنيه ذلك من مشاكل اجتماعيّة ليس أوّلها الدعارة بشقيّها الأنثوي والذكوري، الذي ترفض الغالبيّة "النعاميّة" الاعتراف بها؛

رابعاً:

وبسبب المسائل المشار إليها آنفاً، وغيرها كثير، لا نفاجأ إذا ما رأينا التأخر غير العادي لسن الزواج. إذن: كبت هائل تسوّقه التيارات الأصوليّة + شحن جنسي لا سابق له في كلّ مكان + فقر + تأخر سن الزواج = أزمات جنسيّة غير قابلة للحلّ! ومن ذلك مسألة المثليّة الجنسيّة، التي تصادفنا في كلّ مكان من البلد، والتي يرفض كثيرون، بفعل العقد المستعصية، الاعتراف بوجودها!

إن اهتمامنا الدائم بهذه القضايا، من الدفاع عن حقوق الأقليّات الإثنيّة أو الدينيّة أو ذات الميل الجنسي غير المعمم، هو جزء أساسي من اهتمامنا بحقوق الإنسان، التي يوجد حتى الآن في سوريّا، خاصّة أولئك الذين قدموا من بيئة ريفيّة منغلقة على الحضارة، ومعظمهم من ورثة الشعارات الحزبيّة الفارغة التي عفا عليها الزمان، من يرفض الإقرار بها تحت رايات خداع ذاتي أُنهي مفعولها. إنّ المثليّة الجنسيّة، المسألة القسريّة سلوكيّاً باعتراف كلّ مدارس التحليل النفسي، تحتل أسفل السلّم في التدرج الانحداري لحقوق الإنسان السوري: المثلي جنسيّاً، يُعامل عموماً كمنحرف محترف لأحد أنواع الدعارة الذكوريّة؛ من هنا، فالدفاع عن إنسانيّة هذه الأقليّة، التي قد تتجاوز المليون في سوريّا، قضيّة لا بدّ منها بغضّ النظر عن مواقف أولئك الذين لا يفقهون ألف باء علم النفس أو الحريّة أو حقوق الإنسان: خاصّة الذين يظهرون الرفض العنيف لهذا السلوك، وهم في واقع الأمر يكشفون بذلك عموماً رفضاً لحافز مدفون في أعماقهم، ويخشون إن تعاطفوا معه أن يشار إليهم بالبنان بوقائع عايشوها ثم رفضوها بتغيّر الظرف، لكن ذكرياتها ما تزال تعشش في رؤوسهم! وفي اعتقادنا أن العنف في رفض فكرة ليس غير الدليل الأبسط على تمكّنها من شخص الذي يرفضها! وكلّنا نعرف أن المثليّة الجنسيّة، مع ممارسة الجنس

مع الحيوان، انتشرت وما تزال منتشرة في تلك الأجواء الشعبيّة أو الريفيّة حيث يساهم الفرز الجنسي وإهمال الأهل والتخلّف الثقافي الاجتماعي في تعلّم الطفل ذاتيّاً عبر تجارب الصح والخطأ!

هذه المقالة سبق ونشرت في مجلّة قبل زمن لا بأس به؛ *أبيض وأسود* العدد 57؛ وضمن دفاعنا الدائم عن حقّ الإنسان في العيش الكريم، وبسبب التواتر المتصاعد للمتابعين للناقد في سوريّا، نرى أن إعادة نشرها لا تخلو من المنطق!

ليس أصعب من الكتابة برصانة في موضوع لم يتم التعامل معه، في الأدبيّات العربية، إلا ما ندر، بغير التسفيه أو السخرية.

الشذوذ الجنسي، كمصطلح، يحمل من الأصداء السلبية المجحفة بحق الإنسان، بغض النظر عن ميوله، ما يكفي لرفض التسمية. وفي الدول التي تحترم حق الإنسان في ممارسة حياته كما يشاء، لا يوجد مصطلح كهذا للتعبير عن رغبة ما لفرد من جنس ما حيال فرد آخر من الجنس ذاته. في اللغات الأوربية الغربية، نجد تعبير homosexual، الذي يرجع في أصوله إلى اللغة اليونانية، لا اللاتينيّة، كما قد يعتقد بعضهم، والذي يعني (شخصاً ذا ميول جنسيّة حيال الجنس ذاته). مع ذلك، فقد شاع استخدام المصطلح البسيط ، gay عالميّاًََََ، للتعبير عن هذا النوع من الميول.

حتى الآن، لا يوجد اتفاق عام على الأسباب الكامنة خلف ميل كهذا: ففي أحد الكتب الذي قمنا بترجمته عن الظاهرة . وما يشبهها . ولم ينشر حتى الآن!! ركّز المؤلّف الإنكليزي، أنطوني ستور (أقرب إلى يونغ منه إلى غيره) على الجانب الاجتماعي . التربوي في خلق هذا السلوك الجنسي؛ فالطفل الذي ينشأ في بيتٍ الأبُ فيه قاس أو لا مبال، والأم عاطفية للغاية أوهي التي تتولى مسؤوليّة العائلة، يمكن أن يكون مثليّا جنسيّا؛ بالمقابل، ثمة من يرى أن المسألة برمّتها جينية، أي أن قدر هذا الشخص، جينيّا، أن يكون مثليّا جنسيّا. مع ذلك، فمن دراساتنا غير السطحيّة في المسألة، نعتقد أن الرأيين كليهما لا يجافيان الصواب. فكثيراً ما نرى طفلين يتربيان في البيت ذاته، مع ذلك، يكون أحدهما مثليّا جنسيّا والآخر لا؛ بالمقابل، فكثير جدا من الذين تجبرهم البيئة، خاصة في الأوساط المتعصبة والمتزمتة، على السلوك المثلي في مرحلة ما قبل النضج، يطوى هذا كله في غياهب النسيان بعد الزواج.

جنة المثلية الجنسية:

قد يبدو صادما لعيون كثيرين أن نُظهر أن دمشق أكثر مثلية جنسية من مدينة تشتهر بذلك أي سان فرانسيسكو؛ ففي أحد الأيام، وكان في بيتي الدمشقي الصديق الباحث ايكارت فورتز، يعد كتابا لجامعة ايرلنغن حول بعض ما كتبت، وكنّا نتسامر حول مسألة الإباحيّة الجنسيّة الغريبة الموجودة في الغرب؛ قال إيكارت:

نحن في الغرب أفضل منكم؛ فالإباحيّة التي تتحدّث عنها موجودة في الشرق الناطق بالعربيّة أكثر ربما من الغرب؛ الفرق بيننا وبينكم أننا لا نكذب في المسألة ولا نتجمّل، في حين أنتم تختبئون وراء أصابعكم وتنكرون واقعاً أوضح من الشمس. نحن نكشف الموضوع ونتعامل معه بعلنيّة؛ أولاً، لأن السلوك الجنسي مسألة إفراديّة لا يحقّ لأحد التدخّل فيها؛ ثانياً، لأن وضعَ سلوكٍ يمكن اعتباره مرضيّاً تحت الأضواء يمكن أن يساعد في دراسته ومن ثم علاجه أو تقويمه، بدل وضع الرأس في الرمل وإظهار أن المجتمعات الناطقة بالعربيّة، المنخورة بأسوأ أنواع الأمراض الاجتماعيّة والجنسيّة، قطع من الجنّة لا مكان فيها لغير الملائكة والقديسين! وهكذا، عرفت من إيكارت بوجود شخص أميركي من سان هوزيه، قرب سان فرنسيسكو، يدعى ادوارد غ، موجود في دمشق فقط بغاية السياحة الجنسية المثلية. ولما التقيت بالمذكور أخبرني أنه يملك دليل "السياحة الجنسيّة المثلية" العالمي والذي فيه معلومات كثيرة عن هذه الفعاليات في دمشق: فنادق، حمامات، مقاه.. كان ما قاله ادوارد مريعاً: ليس

بمعنى تقويم الظاهرة أخلاقياً، بل بمدى انتشارها أفقياً إلى درجة صادمة. وبعدها التقيت بكثير من الغربيين الذين يتحدثون في المسألة دون حرج، وعرفت أن بعض العاملين في سوريا من غير السوريين يفضّلون البلد على غيره فقط لأنه يلبي رغباتهم بأوفر مما قد يتواجد في بلدانهم الأصلية.
كان من الضروري دراسة المسألة بنوع من البحثية الرصينة لأنها تمس قطاعاً من الناس أعتقد أنه غير قليل في المنطقة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، بسبب الإرث الديني . الاجتماعي . المتعلق بالتقاليد، ينظر العامة إلى هذا النوع من الناس لا كبشر عاديين مختلفين في مذاقاتهم الجنسية عن القطاع الأكبر، بل ككائنات مريضة أخلاقيا: ذكور محترفون للدعارة. وهكذا، سعيت إلى لقاء أحد المثليين من الشريحة المثقفة جداً، وأعطيته استمارات قام مشكوراً بتوزيعها على مجموعته، وكانت النتائج الإحصائية هي التالية:

السن: 15 . 20 بنسبة 20 %
السن: 20 . 30 بنسبة 60 %
السن: 30 . 40 بنسبة 20 %

. السؤال المتعلق بالذي قبله: هل الفصل بين الجنسين يلعب دورا في المثلية الجنسية؟
نعم بنسبة 60 %
لا بنسبة 40 %
. هل يلعب التعصب الاجتماعي دورا في زيادة المثلية؟
نعم بنسبة 52 %
لا بنسبة 48 %
. كيف ترى مستقبل المثلية في المنطقة؟
سيء بنسبة 84 %
جيد بنسبة 16 %
. ما هو دور الزمن في تقبل الناس للمثلي؟
سلبي بنسبة 76 %
إيجابي بنسبة 24 %
. هل تفضل أن يكون في سوريا منظمات مثلية كما في دول العالم المتحضر؟
نعم بنسبة 84 %
لا بنسبة 16 %
. هل تحب الهجرة إلى دول الغرب؟
نعم بنسبة 52 %
لا بنسبة 48 %

من هذه الاستبيانات الأولى من نوعها، المغرقة في بساطتها، نكتشف أشياء ربما تكون جديرة بالاهتمام: دور العامل الديني . الاجتماعي، الذي يتجلّى في الفصل الجنسي، في مسألة المثلية الجنسيّة. اعتراف المستبينة آراؤهم أنّهم مارسوا الجنس، في معظمهم، للمرّة الأولى، قبل سن النضج، وهو ما يعني أن

الأمر كان أقرب إلى الاغتصاب أو الفعل اللاواعي في أحسن الأحوال منه إلى علاقة عاديّة، بمعنى أنّها برضى الطرفين أو بإدراكهما لما يفعلان.

إظهار نسبة كبيرة من المستبينة آراؤهم أنهم، لو كان الأمر بيدهم، لما تمنوا أن يكونوا أو يبقوا مثليين، وفي اعتقادنا أن النسبة الصغيرة 28 % التي قالت إنها لو خيرت لاختارت لأن تبقى مثلية، ليست سوى مجموعة من صغار السن الممتلئين بالشبق والذين لم يقدّروا كفاية معنى كون المرء مثلياً في مجتمع كالمجتمع السوري المتزمت.

الخطير في الأمر، مع أخذنا بعين الاعتبار عنصر المبالغة، اعتبار معظم أشخاص العينة أن نسبة المثليين تتجاوز 20 %

من دراساتنا، خاصة كينزي، نعتقد أن ما ينطبق على المجتمع السوري وما يشبهه من مجتمعات، لا ينطبق بالضرورة على المجتمعات الأوربية التي أجرى فيها فرويد وأدلر بحوثهما، أو المجتمع الأميركي الذي قام كينزي بتجاربه عليه. وهكذا، يمكن تلخيص نتائج المقارنة على النحو التالي:

بسبب العلاقة المشوهة بين الرجل والمرأة في مجتمعنا المحكوم بمفاهيم دينيّة . اجتماعية قديمة منافية بالكامل لفهمنا الحالي للحياة والعلم، فالذكر في مجتمعنا لا يشعر بالراحة، خاصة في سن ما بعد الطفولة، مع الأنثى بمثّل ما يشعر ذلك مع صديقه من الجنس ذاته؛ لهذا فالحميمية الجوهرية، خاصة مع تذكّرنا للحاجز الإحراجي الذي يطبع العلاقة ذكر . أنثى عندنا، تكون أقوى في الحالة ذكر . ذكر.

هذا الإحساس بالإرباك الذي يطبع عندنا العلاقة ذكر . أنثى، يجعل من الصعب على الرجل أن يطلق لذاته العنان في علاقته مع الأنثى: وهو الشرط الضروري للوصول إلى حالة عالية من الإشباع الجنسي.

كما سبق ولاحظت، فالكبت الجنسي المترافق بتوتر جنسي شديد في مجتمع مسكون بالشبق أصلاً في تراثياته وأمثاله ومفاهيمه الدينية . الاجتماعية، دون أن ننسى إضافة المحرضات التي وصلتنا أخيراً عبر الفيديو سي دي أو الستالايت، يجعل من الصعب على المراهق إفراغ شحنته عبر الجنس الآخر: أمامه حلان: العادة السرية أو المثلية الجنسية اللاواعية، وكثيرا ما تكون الممارسة هنا تبادلية (بغض النظر عن الإفراغ في الحيوان والذي شارف على الانتهاء حاليا باستثناء مناطق في جنوب سوريا وشرقها): وهكذا، يدخل إلى واجهة الصورة ما يمكن أن نسميه هنا بالانطباع الأول، أي هذه اللذة الغامضة التي يحصل عليها المراهق للمرة الأولى والتي تبقى ملازمة له حتى بعد الزواج، والتي قد تعاود فرض ذاتها إذا توافرت لها الظروف الموضوعيّة. لا ننسى طبعاً هنا الإشارة إلى ما قاله معظم المحللين النفسيين من أن التربية الخاطئة، في بيت حيث الأب عنيف وقمعي وصارم والأم مفرطة في الحنان، تنطبق على أغلب البيئات العربيّة التقليدية. ثمة حالات عايشناها، الميول المثلية تظهر فيها على الطفل في سن متقدمة للغاية، ونعتقد هنا أن المسألة جينية بالكامل.

هذا يعني أننا نعتقد بدور العاملين، الاجتماعي والجيني، على حد سواء، في خلق الميل المثلي عند الفرد الذكر.

الإناث والمثلية الجنسية:

لاشك أن دراسة المثلية الجنسية عند الإناث مسألة أقرب إلى الاستحالة في بلد كسوريا؛ مع ذلك، فقد حالفنا الحظ في لقاء بعض المثليات جنسيا من الأمريكيات أو الأوروبيات اللواتي كن يجرين بحوثاً في المسألة، بطريقة علميّة إلى حد ما، لكن النتائج التي توصّلن إليها، في اعتقادنا، كانت محكومة سلفاً بالمدرسة التحليل . نفسية التي تنتمي إليها الدارسة والبيئة الثقافية . الاجتماعية التي جاءت منها.

مع ذلك، ثمة ظاهرة قامت إحدى الكنديات بدراستها، تنتشر بشكل أقرب إلى المرضية بين نساء دمشق بخاصة، بمن فيهن طبقات ما يسمى المجتمع الراقي، وكنا نتناقش باستمرار بشأن النتائج التي لم تكن تخلو من العلمية. لا يمكن النظر إلى هذه الطبقة على أنهن ضحايا لمنظومة ذكورية وقحة في استغلاليتها للأنوثة، لأنهن يشاركن، بوعي أو دون وعي، في الدفاع عن قداسة الأسس المعرفيّة لهذه المنظومة.

الأنوثة في سوريا، كغيرها من الأقطار اللاعلمانية المحكومة عملياً بقوانين نصف بدوية من القرون الوسطى، مهانة حتى الحضيض في عالم حيث تتهاوى الفروق بين الناس على اختلافهم. ورغم محاولات الحكومات (ذكورية بحتة إلى حد ما) المتعاقبة تحسين الوضع الأنثوي، تبقى المسألة غير ذات جدوى مادامت الأعراف والتقاليد أبعد ما تكون عن العقلنة من ناحية، ومادام بعض الذين في الواجهة أسوأ نتاج للعقل الذكري على مر العصور. من مظاهر هذا الامتهان للأنوثة، نذكر على سبيل المثال:

إعفاء المرأة من الخدمة العسكرية وإشعارها بالتالي أنها كائن مكانه البيت الذي يحميه الذكر.

حرمان المرأة من حق منح الجنسية لأولادها أسوة بالرجل.

الاستمرار في التعامل مع ما يسمى بجرائم الشرف بأريحية ملفتة.

التفريق بين الرجل والمرأة في مسألة النصيب في الإرث مع انتفاء الأسباب المودية لهذا التفريق.

إبعاد المرأة سياسياً عن موقع القرارات الهامة؛ وهي إن استوزرت، فإنما تستوزر في وزارة أنثوية، كالتعليم والشؤون الاجتماعية.

ملاحظة :لا يمكن مقارنة الوضع السياسي للمرأة السورية بمقابله عند اللبنانية التي لم تحظ حتى الآن بمقعد في أية وزارة.

لقد ثارت هذه الطبقة على هذه الحالة المرضية بأسلوب مرضي: فبدلاً من التخلص من هذا التراث المخجل بحق المرأة ناقصة العقل والدين والتي هي شر لابد منه ويستشرفها الشيطان إذا خرجت من بيتها، حاولن التخلص من الأنوثة، عبر انتحال ذكورة كاذبة؛ وهو ما يوحي ربما بأنهن مثليات جنسياً.

لا نعتقد أن قدر هؤلاء التحول في المستقبل غير البعيد إلى حركة سحاقية مخيفة، لكننا شبه واثقين أن هذا الانتحال لذكورية كاذبة، هذا الرفض غير الواعي للأنوثة لأنها مهانة، سيؤدي بهن حتماً إلى هاوية من توترات نفسية نراها واضحة في سلوكهن، سيكون الجنس المثلي، بسبب الانغلاق على الذات، أحد أشكال التنفيس عنها.

إن المسؤولية تقع أولاً وأخيراً على عاتق الدولة التي تدخل القرن الحادي والعشرين، تحمل في يدها إنترنت، وعلى رأسها عقال: التحديث صار ضرورياً جداً، لأن العقلية البدوية التي ما تزال تتحكم بمناهجنا التعليمية المدقعة في تخلفها وتناقضها (يدخل أستاذ البيولوجيا ليحدث الطلاب عن داروين ثم يدخل بعده أستاذ الدين ليحدث الطالب ذاته عن أبينا المزعوم آدم) وتمتد من ثم لتطال كل شيء، تخلق في لاوعينا الجمعي توترات لا سبيل إلى حلّها.

ضرورة تدريس التربية الجنسية في المدارس؛ فالبلد مقبل على انفتاح، شئنا أم أبينا؛ ومن يرى تصرفات كثير من الغربيين في سوريا يعرف حتماً أن جائحة الإيدز قاب قوسين أو أدنى منّا.

اتخاذ قرارات جريئة حاسمة، حتى وإن عارضت التيارات الأصولية ذلك، لإعادة المرأة إلى وضعها الطبيعي؛ فالمجتمع لا يتغير نحو الأحسن إلا بتحسين وضع النساء فيه.

ضرورة وضع لجنة لدراسة مسألة عقلنة الأعراف.

وأخيراً، إشراك المرأة في العمل السياسي الفعلي بفرض من الدولة؛ والأمر الواقع يتحول بمرور الزمن إلى عرف.

هل الإسلام ديانة إرهاب؟

www.annaqed.com

<u>نبيل فياض، 3 سبتمبر 2004</u>

لا أستطيع، منطقيّاً، وضع من لا يشاركني نمطيّة قناعاتي الدينيّة في خانة الكفر!

****

شئنا أم أبينا، فنحن ننتمي إلى الأرومة العربيّة، التي تدين بالإسلام؛ وشئنا أم أبينا أيضاً، فنحن نُعامل من الآخر، غير العربي أو غير المسلم، مهما ادعينا العلمنة والليبراليّة والالتزام بحقوق الإنسان، كما عرّفتها الأمم المتحدة، كعرب مسلمين، لنا ما للعرب المسلمين، وعلينا ما عليهم! من هنا، عوضاً عن التنكّر للعروبة والإسلام وشتمهما ليل نهار، ليس من غير المعقول أن نسعى إلى مقاربة منطقيّة إلى ما نراه أنواع خلل بنيويّ في العقل العربي الإسلامي، والتي أدّت في نهاية الأمر إلى وسم العرب المسلمين بالإرهاب!

<u>الخلل الأول: جدليّة فهم العلاقة بين الإلهي والبشري!</u>

الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن المسلمين عموماً يفتقدون المنطقيّة الصحيحة لفهم العلاقة بين الإلهي والبشري؛ فرغم تسليمهم جميعاً بأن الله مطلق القوّة وأن لا مجال للمقارنة بينه وبين بني البشر في هذه المسألة، إلاّ أننا ما نزال نلمح في تصرّفات كثير من المسلمين تعاملهم مع الإلهي وكأنه بحاجة إلى وصاية البشري، بمعنى انعكاس الآية منطقيّاً بل وقرآنيّاً، حين نجعل من الإنسان مدافعاً عن الإله؛ في حين أنّ كافّة المعطيات النظريّة تفيد بما يعاكس ذلك! الله، وفق المنظور الإسلامي، لو شاء لجعل الناس كلّهم مسلمين! إذن؛ فهو لا يشاء – فلماذا يريد المسلمون أن يجعلوا العالم كلّه مسلماً، ويعارضوا بالتالي إرادة الله ذاته؟ من هنا يمكننا القول، إن بعض المسلمين، خاصّة المتطرّفين منهم، يستخدمون مفهوم إرادة الله كغطاء لتسويق إراداتهم الذاتيّة؛ ويعملون على فرض ما يدعون أنه تنفيذ لرغبات إلهيّة في حين أنهم ينفّذون رغائبهم الخاصّة! مع أنّ الله، بحسب المفهوم الإسلامي بالذات، لا يحتاج إلى البشري لتحقيق ما يشاء: يكفيه أن يقول: كن! فيكون!

<u>الخلل الثاني: فهم الغير انطلاقاً من الأنا!</u>

سوف ننطلق هنا من أمثلة عينيّة تفسيريّة، يمكن أن تساعد في فهم هذا الخلل الهام! فكباحثين في اللاهوت اليهودي–المسيحي، كنّا نتفاجأ بنوع من السذاجة غير المألوفة عند غالبيّة المثقفين الإسلاميين في مقاربتهم للديانتين "السماويتين" الأخريين: اليهوديّة والمسيحيّة! في المسيحيّة، على سبيل المثال، لا يوجد ما يمكن أن نسميّه بمفهوم "الكتاب المنزّل"! في الإسلام، بالمقابل، يبدو مفهوم "الكتاب المنزّل" المحور الأوّل والأخير الذي يدور الدين حوله! في المسيحيّة أيضاً، بعكس الإسلام، يحتل المسيح المرتبة الأولى إيمانيّاً، متخطّياً بذلك العهدين القديم والجديد؛ فهو، بالنسبة للمسيحيين، الكلمة الحيّة المعاشة؛ أمّا الأسفار المقدّسة، ونقصد بذلك الأناجيل وأعمال الرسل والرسائل والرؤيا، فهي أقرب ما تكون إلى وسيلة لإيصال هذه الكلمة الحيّة المعاشة إلى البشريّة كافّة! من هنا، ليس من المستهجن أن ينشأ في الوسط الأكاديمي اللاهوتي المسيحي ذلك العلم الواسع المسمّى "بالنقديّة الكتابيّة"، أي نقد الكتاب المقدّس، بفروعها الكثيرة التي أضحت أكثر من أن تبحث بمقالة بسيطة؛ بمعنى أنّ قداسة الدين لم تقف حائلاً ضدّ إعمال العقل في العهدين، والوصول من ثم إلى نتائج يمكن اعتبارها في نظر كثيرين متطرّفة، وربما غير مقبولة! ولابدّ هنا من التذكير بمفكّرين مسيحيين أثاروا لغطاً كبيراً في الكنيسة لكنهم لم يقصوا عنها بسبب آرائهم غير المألوفة، من أمثال تيير دو شاردان أو هانس كونغ أو

بولتمان، أو بتيارات مسيحيّة مفرطة في عقلنة اللاهوت، من أمثال جماعة لاهوت الصيرورة! بالمقابل، الكتاب المنزل في الإسلام مقدّم على كلّ ما عداه، وتناقله الحرفي الشغل الشاغل شبه الأوحد للاهوتيين المسلمين؛ أمّا النبي، فهو، عقائديّاً، مجرّد ناقل للوحي! لهذا، فالباحثون الإسلاميون عموماً، ينطلقون من ذواتهم في تعاملهم مع الأناجيل وبقيّة أسفار العهد الجديد، التي هي مجرّد نصوص كتبها أتباع المسيح حول سيرته الذاتيّة والتي قد تبدو أحياناً غير متساوقة أو رسائل بعيدة عن المؤسّس زمنيّاً، على أنها الإنجيل "المنزّل" على عيسى: وفكرة التنزيل، كما أشرنا، غير واردة لا من قريب ولا من بعيد في اللاهوت المسيحي؛ مع ذلك، فاللاهوتيّون المسيحيّون يفهمون بالكامل مصطلح التنزيل الإسلامي! من هنا، وباستثناء بعض كتابات قدّمناها للمكتبة العربيّة أهمها كتابا *النصارى والمسيح والميثولوجيا*، لا توجد دراسات موضوعيّة تبحث في اللاهوت المسيحي، صادرة عن مثقفين عرب من خلفيّة إسلاميّة؛ مقابل مئات الكتب التي تغطّي كل الحقول الإسلاميّة، الصادرة عن باحثين مسيحيين بلغات عدّة! وما ينطبق على الفهم الإسلامي للمسيحيّة، ينطبق أيضاً على الفهم الإسلامي لليهوديّة، التي تشعبت إلى درجة التناقض، من جماعة إعادة البناء أو الريفورم، الذين يتعاملون مع النصوص المقدّسة على أنها ميثولوجيا بمراس تاريخيّة [راجع هنا كتابنا: *ابراهيم بين النصوص التاريخيّة والدينيّة*]، إلى تيّار الأولترا–أورثوذكس، من أمثال ناطوراي قارتا، الذين يأخذون النصوص المقدّسة بحرفيّتها التنزيليّة، مروراً بالقباليين الذين يحاولون كسر حدّة الحرف بشيء من التصوّف الأفلوطيني! والساحة اليهوديّة، التي لا تنقصها العقلانيّة إلى حدّ ما، تتسع لأشخاص من نمط زئيف هرتسوغ، ينكرون شخصيّات الكتاب المقدّس بنوع من الإصرار المعنّد ربما، إلى عوباديا يوسف وأرييه درعي، اللذين يأخذان التوراة بعقليّة المجسّدة المسلمين! وحتى الآن لم نحظ بعمل أو نقاش حول اليهودية من الأطراف الإسلاميّة، يحملان أدنى بصمات الموضوعية، التي تخرج عن إطار المقولات التقليديّة المتوارثة! وما قلناه عن هذين الدينين ينطبق أيضاً على الأفكار الوضعيّة!

إنّ أبسط متطلبات العلم، في تناول الآخر، هي النظر إلى هذا الآخر بمنظاره هو، أو بمنظار حيادي على الأقل، لا بمنظارنا نحن! ودون ذلك، سنظلّ ندور في حلقاتنا الذاتيّة الخاصة، التي لا يمكن أن تزيد على تراكمنا المعرفي شيئاً!

<u>الخلل الثالث: افتقاد حسّي الزمان والمكان!</u>

لو سألت أحد سكّان الحجاز، في القرن السابع الميلادي، عن مفهومه للسماء؛ لأجاب: إنها سقف لا عمد له، تزيّنه الأضواء، أزرق اللون نهاراً، مظلمه ليلاً؛ ولو أعدت السؤال ذاته على شخص في طوكيو في القرن الحادي والعشرين؛ لقال: هنالك فراغ تسبح فيه النجوم والكواكب؛ واللون الأزرق سببه فيزيائي، لا علاقة له لا بالسقف ولا بالأعمدة! ولو سألت بالطريقة ذاتها عن بقعة دم تتناثر على أحد الطرق؛ لأجاب الأوّل: سائل لزج أحمر قاتم؛ وأجاب الثاني: كريّات حمراء وبيضاء.. إلخ! إذن، للتراكم المعرفي دوره في فهمنا للأمور، وهنا يلعب الزمن الدور الأهم! من ناحية أخرى، لتبدّل المكان دوره الهام أيضاً في تبدّل المفاهيم والعادات والأعراف والتقاليد! في المكان تتداخل العوامل البيئيّة بالمناخيّة بالطبيعيّة لتنسج منه شيئاً مغرقاً أحياناً في خصوصيّته. وإذا ما أخذنا مثالاً ما اصطلح على تسميته بالديانات الرعوية والديانات الزراعيّة، يمكن القول إنّ التقويم، ومن ثم الأعياد، في الديانة الرعويّة، مرتبط بالقمر؛ في حين أنّ الأعياد، في الديانات الزراعيّة، ترتبط بالشمس! المسيحيّة، الزراعيّة بامتياز، كلّ أعيادها تعتمد التقويم الشمسي؛ في حين أن اليهوديّة، الزراعيّة الآن، والرعوية ذات يوم، والتي تحتفظ بسمات من الطرفين، تمتزج في تقويمها وعاداتها الشمس بالقمر! الإسلاميّون، في تناولهم لكلّ الأشياء من "منظور الأبديّة"، يسقطون من حساباتهم دائماً مسألة النسبيّة ذات الدور المحوري؛ وإذا ما أخذنا مسألة الأنوثة على سبيل المثال، والتي تمتزج فيها العناصر الاجتماعيّة بالبيئيّة بالميثولوجيّة، فسوف نجد أن الفقه الإسلامي ما يزال

يتناول مفاصل فيها عفا عليها الزمان وكأنها محوريّة: من ذلك قضيّة التقسيم غير الموجود حاليّاً للنساء إلى حرّات ومستعبدات، وما ينتج عن ذلك من قضايا تستهلك كثيراً من الوقت والجهد كالحجاب، الذي هو وجد أصلاً للتمييز بين الحرّات وغير الحرّات! لكن الانغلاق الإسلامي على الأنا المتضخّمة، التي لا ترى شيئاً عداها، يجعل من مناقشة أي شيء دون عدائيّة، وبالحدّ الأدنى من الموضوعيّة، ضرباً من المستحيل!

الخلل الرابع: العقل النقلي لا النقدي!

مما لا شكّ فيه أنّ الفكر الغربي الحالي لم يصل إلى ما هو فيه إلاّ عبر روح النقد، التي تسلّلت، باديء ذي بدء، من نافذة الشكوكيّة! في الفكر الغربي، ومنذ أيام اسبينوزا، لم يعد ثمّة شيء بمعزل عن روح النقد؛ بلّ إن مفكّرين عظماء من نمط نيتشه في *عدو المسيح* و*شفق الأوثان*، أو فويرباخ في *جوهر الدين* و*جوهر المسيحيّة*، قبل أكثر من مائة عام، لم يتركوا مسلّمة إلاّ وتناولوها بسهام العقل، غربلوها في منخل المنطق، فرفضوا ما رأوا أنه مناقض لمقولات الواقع الموضوعي، وقبلوا ما هو عكس ذلك! وقد تسلّل النقد، بمرور الزمن، ليطال كلّ البنى المعرفيّة في الغرب. بالمقابل، فقد وقفت طبقة رجال الدين في الإسلام حاجزاً ضد أية مقاربة عقلانيّة للتراث تحت ظلال حجج واهية، فكرّست بالتالي تقديس النقل في مواجهة العقل. وهكذا، فإذا كان ثمّة حاجز على التفكير أو المخيّلة يمنع الخوض في عالم اللامحسوس، دنيا المخيّلة أصلاً، فمن المنطقي بالتالي أن تكون المقاربات النقديّة إلى العالم المحسوس ممنوعة أيضاً. من هنا، ليس من المستغرب أن تتسع النقديّة في الغرب، منذ أيام فلهاوزن، لتجتاح أدقّ تفاصيل الكتاب المقدّس بعهديه؛ في حين يمنع على المسلمين التفكير نقديّاً حتى في نصوصهم التاريخيّة!

الخلل الخامس: العزلة المعرفيّة عن الفكر العالمي

في عالم الاستشراق الألماني، على سبيل المثال، يصعب أن نجد مقولة إسلاميّة لم يناقشها هذا المستشرق أو تلك المستعربة! وإذا ما حاولنا الدخول إلى حقل الدين المقارن الألماني، الذي نناقش مقولاته منذ سنين، والذي يعرف هذه الأيام نهضة حقيقية خاصة في لايبتسغ، يمكننا أن نصادف عملاً طليعيّاً لأبراهام غايغر من بدايات القرن التاسع عشر، والذي حمل اسم *ماذا أخذ محمد عن اليهوديّة*، مروراً بيوسف هوروفيتس، الذي ترجمنا له عمله المختصر المفيد *رحلة محمّد السماويّة* [حملت الترجمة عنوان: *حكايا الصعود*] حيث تناقش قصّة الإسراء والمعراج بتحليليّة فائقة، وهاينريش شباير، صاحب العمل الموسوعي، *الحكايا الكتابيّة في القرآن* [نشرنا أجزاءه الثلاثة الأولى]، حتى تلمان ناغل، الذي اشتهر بتحليله النقدي لظاهرة الاعتزال. هذا غيض من فيض يحتاج إلى أعمار كثيرة لفهمه واستيعابه.- فما هو الواقع المعرفي عند المسلمين، الذين هم الأجدر بمناقشة تراثهم وتحليله بعين الناقد غير المنحاز؟ تبدو عبارة "العطالة المعرفيّة" التوصيف الأشمل للوضع البحثي الإسلامي. ليس هذا فحسب، بل إنّ الذين ينصبّون من أنفسهم أولياء أمور الثقافة في البلدان ذات الغالبيّة الإسلاميّة، إنما يسعون بكلّ ما أوتوا من قوة، إلى إقامة سدود نقليّة ضد أية محاولة نقديّة يمكن أن تهز شيئاً من المتعارف عليه في هذا الوسط. وكلّ من يعرف تجاربنا في سوريّا، وتجربتنا الوحيدة في الكويت، وقت احتج التيار الإسلامي الأصولي على إدخالي بعض أعمالي إلى معرض الكتاب في الكويت، بل طالبوا بمحاكمة المسئولين عن هذه السابقة، يدرك دون جهد عقلي أنّ طبقة الكهنة الإسلاميّة، تحتكر لذاتها، دون أدنى مشروعيّة، حقّ فهم الإسلام وتفسيره وتقديمه للغير، مسلمين كانوا أم غير مسلمين: وكلّه في إطار الانغلاق على الذات والفهم التقليدي النقلي الذي يسقط من اعتباره أي شكل مقاربة عقلانيّة! ليس هذا فقط، فضمن هذا الانغماس الصَدَفي في الأنا البالغة التضخّم، ترفض هذه الطبقة أي منظور يخالف ما تناقلوه، وتستخدم إمكانياتها الهائلة، عبر ما نسميّه "العمامة في خدمة السيف"، لإسكات كل من تراود له نفسه التفكير بغير أسلوبها!

إنّ مناقشة هذه الأنواع من الخلل المعرفي، بشفافيّة عالية ودون تحفّظ، قد تكون أحد المداخل إلى معالجة الأسس المعرفيّة للإرهاب! الإرهاب ليس حالة جينيّة وراثيّة مستحيلة العلاج أو التعامل: الإرهاب، أولاً وقبل كل شيء، حالة معرفيّة لا يمكن القضاء عليها إلاّ بتشخيص أسبابها وأعراضها وطريقة الاستشفاء منها!

الكهنوتيون الإسلاميّون، عبر تغذيتهم لأنواع الخلل المذكورة آنفاً – وغيرها كثير – هم المسئولون، أوّلاً وأخيراً، عن إفساد عقول الأجيال بخرافات عفا عليها الزمان، عن حصر الناس ضمن مقولات بعينها لا تخلق غير الكراهيّة والبغضاء بين بني البشر، وعن مصادرة كل فكر جديد لا يروق لهم.

وكما قلنا وسنقول باستمرار، الله لا يحتاج إلى تلك الطبقة المستحاثيّة النتنة كي تدافع عنه: إنه الأقوى بعرف الجميع؛ وإذا ما أعدنا فهم الألوهة بطريقة تخالف ما أورثتنا إياه الطبقة ذاتها، فذلك يعني إعادة تقديم الألوهة إلى العالم الذي نفّرته الطبقة منها!

الله حب: وبذلك فهو يسكن في قلوب الجميع؛ وحين نقنن فهمنا لله بالدم والسيف والكراهية فنحن بذلك نجعله على قياس تلك الطبقة فقط!

أبعدوا الكهنوت الإسلامي عن احتكار الله خدمة لمصالحه الماديّة أولاً؛ غيّروا كليّات الشريعة، وسوف تجدون كيف ينتهي الإرهاب دون خدمات الأمريكان أو البريطانيين!

هل نعمل في إسرائيل؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 28 أغسطس 2004

في شتاء 1997، رافقت أحد أقاربي، السيّد تميم دعبول، الذي كان وقتها ملحقاً ثقافيّاً سوريّاً في البرازيل، إلى بلدة القبو، التابعة لمحافظة حمص؛ وكان الهدف من الزيارة إيصال بضع ألوف من الدولارات إلى أسر هناك يعمل أبناؤها في البرازيل، ضمن البعثة الدبلوماسيّة السوريّة إلى بلد السامبا. ولمّا سألت السيّد دعبول عن النشاط الذي يقوم به هؤلاء في سبيل تقديم الوطن إلى من لا يعرفه؛ قال: يسكرون في الليل، ويطاردون البرازيليّات في النهار! ولمّا استنكرت أن تذهب نقود الشعب بهذه الطريقة السافلة، واستفهمت عمّن يقف خلف هذه الظاهرة المرضيّة؛ قال: هؤلاء مرسلون "تنفيعة" من قبل صديقك المثقّف التقدّمي اليساري الوطني، مسئول القيادة القطرية البعثيّة، "الدكتور" – لا أظن أنّ شهادته من خارج المنظومة الشيوعيّة التوتاليتاريّة – أحمد ضرغام!!!

ورغم أن كويتباً لم يسمع به أحد من أذناب مفتينا، الرئيس الفخري لكنيسة صن ميونغ مون، ادعى أنّ ما ذكرته عن أكبر الفاسدين في سوريّا، صديق أحمد ضرغام، المدعو بشير نجّار، كان تلفيقاً؛ بل وطالب كويتبنا الديمقراطي المخابرات، التي يكفّرها وأمثاله خمس مرّات في اليوم، بوضع حدّ لي لأني تجاوزت كلّ الخطوط الحمراء؛ فإني أتحدّى الجميع، خاصّة هذا "الضرغام" البعثي الآيل للسقوط، مع قيادتيه، أن يكذّب حرفاً مما أكتب على صفحات *السياسة* و*بيروت تايمز*!

هذا الحديث أورده بمناسبة منع كتابين لي، أخذا من الجهد والوقت أكثر من سنوات ست، على يد مفكّرنا الكبير والمنظّر الأيديولوجي البعثي، الرفيق أحمد ضرغام. والعملان هما: *حكايا الطوفان*، الذي يناقش قصص الطوفان الدينيّة–الميثولوجيّة من سومر إلى مير مح؛ والثّاني *قصّة النبي ابراهيم بين الوثائق الدينيّة والتاريخيّة*، والذي استندت فيه إلى آخر ما كتبه توماس تومبسن، أستاذ العهد القديم الدانمركي، زئيف هرتسوغ، الأركيولوجي الإسرائيلي الشهير، في المسألة؛ وهاينريش شباير، أستاذ الدين المقارن الألماني!الأطرف أنّ الكتاب الأوّل، أي *حكايا الطوفان*، سبق وأخذت الموافقة عليه من قيادة أحمد ضرغام القطريّة الحكيمة لكني كنت أضع على الغلاف اسماً آخر كمؤلّف؛ وقد فُقدت (!!) الموافقة في دار النشر التي كنت أنطت بها طباعة الكتاب ثم تراجعتُ عن ذلك لأسباب ذاتيّة؛ ولمّا أعدت العمل لأخذ الموافقة باسمي، منعه الرفيق البعثي المثقّف، لأني، وكما ذكرت عشرة آلاف مرّة، رفضت العمل مخبراً عند صديقه الأفسد، بشير نجّار!

عام 1997، زارتني في دمشق الباحثة الدانمركيّة الشهيرة، باتريشيا كرونه، وكانت برفقة أحد الباحثين الإيرلنديين من جامعة كامبرج! ولمّا سألت السيّدة كرونه عن طريقة تعرّفها إلى أعمالي؛ قالت: إنها وجدت كتبي حول الدين المقارن، الممنوعة بالكامل في وطن الحرف، سوريّا، في جامعة بار إيلان في إسرائيل! بل إنّ السيدة كرونه، التي تركت بعدها كامبرج إلى برنستون في الولايات المتحدة، أصرّت علي إكمالي ما بدأه أفراهام غايغر وهاينريش شباير ويوسف هوروفيتس في ألمانيا، بمشروع يتناول التقاليد الإسلاميّة ما بعد القرآنيّة وعلاقتها بالهاغاداه [القصص اليهوديّة من التلمود والمدراش والتوراة وغيرهم] كون الباحثون المذكورون آنفاً توقفوا فقط عند النص القرآني في أعمالهم التي لا تخرج عن دائرة الدين المقارن! ولمّا كانت السيّدة كرونه تحاضر أحياناً في الجامعة العبريّة في القدس وتكتب في المجلّة الصادرة عن تلك الجامعة المسمّاة بالدراسات الإسلاميّة، فقد ارتأت أن أكمل هذا المشروع، بإشرافها، وبالتعاون مع أحد إثنين: إمّا البروفسور حاييم ملكوفسكي، أستاذ الهاغاداه في بار إيلان، أو البروفسور يوسف برغمان، أحد أبرز المختصيّن الإسرائيليين في هذه المسائل! وفي الزيارة الثانية

للسيّدة كرونه إلى دمشق، جاءتني بنماذج من أعمال البروفسور ملكوفسكي؛ وعادت لإلحاحها بأنّ الوقت يمرّ، والساحة الثقافيّة البحثيّة تفتقد كثيراً عملاً أكاديمياً من هذه النوعيّة؛ ورغم إدراكي لمسألة العمر الذي يمضي دون فائدة، خاصّة وأني أعيش في بلد " المراوحة في المكان "، سوريّا؛ فقد رفضت العرض!

وحتى لا يساء فهمي، فأنا لم أرفض العرض من منطلق وطني على الإطلاق: رفضته لأن القانون السوري، المفصّل بحيث لا يطال المسئولين أو أولادهم وأقاربهم وحاشيتهم [كان الحديث متواتراً ذات يوم عن علاقة لابنة أحد كبار المسئولين السوريين، والتي تقيم في فرنسا، بالإسرائيليين: دون حسيب ولا رقيب] يمكن أن يودي بي إلى السجن إذا أنا بدأت بمشروع "ثقافي" كهذا، حتى وإن كان الهدف النهائي منه خدمة الحضارة البشريّة، عبر الدفع بها معرفيّاً إلى الأمام! فالحقيقة الناصعة التي لا تخفى على أحد، أنّ إحدى وأربعين سنة من الحكم البعثي لسوريّا، أشفت الشعب تماماً من فيروس الوطنيّة، الذي كان قد وصل إلى قمته قبيل الاحتلال الناصري للوطن، عام 1958، عبر ما أسموه بالجمهوريّة العربيّة المتحدة! وكلّ من يتجوّل في سوريّا، ويرى بالعين المجرّدة ما فعلته بها عصابة الصمود والتصدّي، من الفساد الممنهج إلى سرقة أموال الشعب إلى القصور الأوقح إلى مصادرة الشواطىء النادرة إلى نشر التلوّث إلى المرتديلا الفاسدة إلى السيارات الفارهة [سمعنا أخيراً أن دولتنا الحصيفة استردّت من وزير دفاعنا السابق، سيّد الصمود والتصدّي، نحو ثلاثمائة سيّارة، لا أعتقد أنّ بينها كوريّة أو يابانيّة واحدة] ..!!!، لا يحتاج إلى ذكاء خارق كي يعرّف المصطلح "وطنيّة"، بحسب قاموسنا السوري!

"الوطنيّة"، وفق تعريف القاموس السوري للمصطلح، هي أن تمضي إحدى وثلاثين سنة في حالة لا سلم ولا حرب، يدفع أثناءها الفقراء، خاصّة الذين نزحوا من الجولان، أسوأ ضرائب حالة الحرب الفعليّة!

"الوطنيّة"، كما يقولنا قاموسنا إياه، أن يعتبر القائمون على الوضع، من أمثال رفيقنا الضرغام، أنّ الشعب كلّه غير ناضج، معاق فكريّاً، بحاجة لمن يرشده ويفكّر عنه؛ ولأنهم يعرفون جيّداً كيف يفكّرون عن ذواتهم وعن الشعب، فقد وصلوا مع محاسيبهم وأبناء الضيعة وأخوة الحاكورة إلى سويّات قياسيّة في البطر، ووصل بقيّة الناس إلى سويّات قياسيّة أيضاً في الطفر!

"الوطنيّة"، وفق القاموس ذاته، هي أن يبيعنا السادة التقدميّون أوراق عملة شعاراتيّة غير قابلة للصرف في أي بنك، في حين يحوّلون هم أنفسهم تعب الشعب وعرقه إلى ملايين تتكاثر، كالفطر، باستمرار في بنوك الغرب؛ دون أن يكون لأحد الحق بالاعتراض، لأننا دولة مواجهة

تقف رأس حربة أمام المخطّطات الرأسماليّة الأمريكيّة الصهيونيّة حتى آخر الاسطوانة المشروخة الشهيرة إياها، والتي أضحت تضحك الثكالى ويهزأ منها الرضّع! ولا داع لأن نذكّر هنا بما نشرته السياسة قبل أيّام، حول أمين عام حزبنا المساعد، والطريق التي أنفق عليها من أموال الشعب: مع أن الأستاذ عبد الله الأحمر هو أقل من تناولته ألسن الناس بالنقد في سوريّا في السنوات الأربعين تقريباً الماضية!

"الوطنيّة" تعني أيضاً أن يمتصّ هذا الضابط أو ذاك، وفق مصطلح التفييش السوري العسكري الأشهر، دمّ المجنّد الفقير، الذي إن رفض عومل وكأنه في غوانتنامو! بالمناسبة، لا أعتقد أنّ وزير دفاعنا السابق يعرف بهذه القصّة؛ ومن رأى المعركة الشرسة التي دارت بين أحد أبنائه وأحد أبناء المسئولين من المصائب الساقطة، في مربع التلال الوطني التقدّمي، على جبهة الأخت الفدائيّة مايا نصري، يعرف تماماً آلية العمل التي كانت سائدة في وكر النسور ذاك!

"الوطنيّة" هي أن يحتكر أربعة أشخاص أو خمسة مقدّرات سوريّا على الصعد كافّة؛ وحين يجرؤ المرء على إشارة ولو سريعة إلى هذا الخلل غير العادي، تبدأ الجوقة الصامدة المتصدّية بعزف أسطوانات لا حياة في هذا الوطن

إلاّ للتقدّميين والإشتراكيين – على طريقة مدام أمّ عمّار التي ورثت رئاسة الحزب الشيوعي السوري عن المسيو زوجها، وأدخلت الأستاذ ابنها إلى برلماننا الموقر نكاية بأمثالنا من الرجعيين!

"الوطنيّة" هي أن تنتمي إلى طائفة، إلى عشيرة، ليصبح اسم سوريّا من ثم اتحاد الكانتونات الطائفيّة السوريّة؛ أن تأخذ موقفاً معادياً من كل من لا يذعن لمفاهيمك وآرائك، مشيخيّة كانت أم متبعّثة؛ أن تغذّي، كمسئول، كلّ ما اسمه " تقسيم " لأنه بالتقسيم والتفتيت وحده يمكن لهم البقاء: هل سمعتم، مثلنا، عن اعتقال نحواً من خمس وعشرين شيخاً في حماة السوريّة، التي كنّا فيها الأسبوع الماضي، ورأينا بأم العين الانتشار السرطاني – لا يمكن مقارنته إطلاقاً بالوضع الذي ساد قبيل أحداث حماة الشهيرة – للحركات المتطرّفة، الإرهابيّة، تحت مرأى ومباركة الجميع على الأرجح؟ هل تعرفون أن سيّد الثقافة المطلق على التراب السوري، المدعو أحمد ضرغام، والذي يؤكّد بما لا يقبل الشك التحالف الأصولي البعثي، يفتح كلّ الأبواب أمام الفكر النقلي، في حين يحارب حتى اللهاث كافة أشكال النقديّة، بباطنيّة لا تبارى؟

إذن، ودون عناء الدخول في التفاصيل، فنحن "لسنا" وطنيين؛ ولأن الوطنيّة صارت الاسم الآخر لكلّ الموبقات، ولأن التقدّم صار العنوان الآخر للانتهازيّة: نحن لا علاقة لنا لا بالوطن ولا بالتقدّم!

من المخزي أن تكون أعمالنا متوفّرة في جامعات بار إيلان والعبريّة وحيفا، في حين نجدها ممنوعة بالمطلق في ما يفترض أنه وطننا! من المخزي بعد أكثر من أربعين عاماً من القبع التبعثي على قلوبنا تحت عنوان الصهيونيّة أن نشعر أن أشخاصاً ليبراليين حضاريين مثل آفي شلايم أو زئيف هرتسوغ أو يسرائيل فنكلستاين أقرب إلينا، بما يستحيل وصفه، من إرهابيين ثقافيين ذاتويين من أمثال أحمد ضرغام وبقيّة القيادة الحكيمة! من المخزي أن نحاول مدّ أيدينا للغرباء الذين غسلوا دماغنا بأنهم أعداؤنا لحمايتنا من الإرهاب الديني والإرهابيين الدينيين ممن يقال إنهم أبناء الوطن! من المخزي أن يحاول من قالوا لنا إنهم أعداؤنا استمالتنا إليهم ثقافيّاً، بكلّ السبل، في حين يسعى من يفترض أنه ابن بلدنا ومحافظتنا لقمعنا، بكل سلطانه ونفوذه، فقط لأننا جرحنا كبرياء صديقه الحرامي! من المخزي أن نشعر أنّ نساء رائعات من نمط شولاميت آلوني أو ياعيل ديان أو تامار غوزانسكي أقرب إلينا، بما لا يقارن، من شيخات الإرهاب والتكفير اللواتي يتنقّلن كخفافيش الليل في كلّ الشوارع الخلفيّة في المدن السوريّة!

في سوريّا، كما يعرف الجميع، نحن ممنوعون بالمطلق عن العمل الثقافي؛ وإذا كان هنالك من يعزّينا بأن قصّة البعث وقيادتيه وتسلطهم المعيب في زمن الحريّات سوف تختتم بنهاية أسعد وسوف يُنقل كلّ أولئك الآيلون للسقوط إلى متحف الشمع التاريخي، فنحن نرى أن الزمن، الذي يصادرنا فيه أحمد ضرغام ومن على شاكلته منذ أكثر من عشر سنين، يمر دون رحمة؛ من هنا، فمن حقّنا، ونحن نرى الانجازات العسكريّة والاقتصاديّة والوطنيّة التي حققها أولئك، أن نتعامل مع من نشاء، دون خوف ولا عقد؛ نحن نكتب الآن للبشريّة كلها، لا للسوريين ولا للعرب ولا للمسلمين وحدهم؛ لقد تاجروا بنا حتى الموت من أجل ما أسموه "المعركة"؛ وكانت في الواقع معركة خلبيّة أبطالها حبّات الفياغرا وبعض الفنانات والمتفننات من صاحبات السيارات الفارهة التي تأخذ حتى بنزينها من لقمة الشعب، وميدانها غرف النوم والمرابع الليليّة وفنادق النجوم الخمس، ومن حقّنا الآن أن نحرّر أنفسنا عبر السلام الذي يريده الجميع؛ من حقّنا أن نكتب حيث يفتح لنا المجال، أن نمارس حقّنا في التفكير حيث لا يراقبنا أحد، أن نعيش حيث لا تلوّث ولا فساد!

في سوريّا نطارد في حياتنا الفكريّة من قبل المتبعثين، رؤوساً وأذناباً؛ ونطارد في حياتنا الماديّة من قبل التيار الوهابي، الذي عمل وما يزال يعمل، تحت أعين الأمن والسلطات المسئولة، لقتلنا بكل السبل! والحياة القصيرة

كرفّة العين لا تتحمّل كلّ هذا القرف: فهل نعذر في ذهابنا، من أحمد ضرغام ومشايخه ومتبعثيّه، إلى الحدّ الأقصى؟

الخامس والعشرون من آب: كلّ عام ونحن في الفرح!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 23 أعسطس 2004

لم أعتد يوماً تلك التهنئات التقليديّة التي تبدو بعيدة عن القلب، قريبة من الشفاه!

لم أحاول يوماً الاحتفال بعيد ديني أو غير ديني؛ حتى لا أشعر بيني وبين نفسي على الأقل، أني محسوب على هذا أو ذاك! وحتى عندما تغنيّت بمار مارون في عيده، التاسع من شباط، فذلك فقط لأن مار مارون يمثّل في اعتقادي وجهاً نظيفاً سوريّاً في زمن التلوّث!

مع ذلك، لا أستطيع أن أمنع نفسي من معايدة هؤلاء الطيبين في عيدهم الفرح، ومناشدتهم الصلاة لنا أكثر، كي نصبح البلد الأحلى والأقلّ طائفيّة: ففي تلك القلوب الخيّرة لا يسكن غير الله!

كنت آمل أن أحضر العيد في حمص أو الغاب أو اللاذقيّة، لكني أُفهمت بلطف شديد أن هنالك أشياء ليس باستطاعتي حضورها؛ وهي التي آمل حضورها لأني أحتاجها، روحيّاً على الأقل!

كلّ ما هو خيّر.. من الله! وفي بحثنا الدائم عن الروح، لا نبالي أين نصادفها: في شطحا، أم في عيد ميلاد كريم خان في السلميّة؛ في دير كفيفان أم في السلاطة! الله واحد والطرق إليه كثيرة!

منذ أيام مار مارون لم يأتنا قديس سوري نترنم به في العيد والفرح! شكراً للأخوة الذين يترنمون بأقوال لقديس سوري غاب عنا قبل سنوات، وظل في قلوب أحبائه.. وقلوبنا!

****

كفّر، كفّر، والبقيّة تأتي: مشايخ سوريّا وزمن الفساد!

www.annaqed.com

نبيل فياض 12 أغسطس 2004

تفترض الناس عموماً أنّ رجل الدين، من كافة الملل والنحل، هو صوت ضمير الأمّة الحي، غيمة الإيمان التي تمطر طهارة زمن القحط والفساد، بسمة النظافة وقت تطاردنا غيلان الوجوه المتجهمة الكئيبة، لتنزع من أعيننا دهشة الفرح الطفولي وأمل انتظار ما لابد أن يأتي يوماً.

يختلف الناس عموماً في تعريف رجل الدين: فمنهم من يرى أنّه الوسيط بين الله وبني البشر، "فما يحلّه في الأرض، يُحلّ كذلك في السماء"؛ ومنهم من يرى أنّ وظيفته طقسيّة–روحانيّة لمساعدة الجماعة على مزيد من التلاحم غير السياسي؛ ومنهم من يرى فيه مصلحاً اجتماعيّاً عمله أوّلاً مكافحة الفساد والأمراض الاجتماعيّة؛ ومنهم من يراه سياسيّاً مناضلاً ثوريّاً هدفه، كالمهدي المنتظر، إشاعة العدل في الأرض بعد أن امتلأت جوراً وظلماً.

مع ذلك، فقد قارب بعضهم، مثل نيتشه، خاصة في كتابه *عدو المسيح*، رجل الدين من منظور مختلف بالكامل. فهذا المفكّر الهام، يعتبر رجال الدين – بلغته: الديوك الروميّة – النماذج البشريّة الأسوأ، والتي أدّت إلى تلويث العقل البشري بعلل لا يمكنه الاستشفاء منها. ويصل في نهاية الأمر إلى نتيجة متطرّفة، مفادها أنّه إذا أردت أن تعرف حقيقة مسألة من زيفها، ما عليك إلاّ أن تسأل عنها أحد رجال الدين، وتعكس ما يقول. ولا أعتقد أن فويرباخ، خاصة في جوهر *الدين* وجوهر *المسيحية*، خرج كثيراً عمّا طرحه نيتشه، وإن كانت لغة فويرباخ أقل شاعريّة وحدّة! [راجع هنا كتابنا: *نيتشه والدين*]. وقد أوردنا في كتابنا المذكور آنفاً إجمالاً لأنواع الخلل النفسي، التي ذكرها نيتشه، والتي رأى أنها يمكن أن تجعل من صاحبها رجل دين بامتياز. وباستثناء غبرييل مارسيل وربما كارل ياسبرز أيضاً، فقد سار المفكّرون الوجوديّون، في نقدهم لشخص رجل الدين، في هدى نيتشه، الذي يمكن اعتباره، مع سورين كيركغارد، أحد سلفي الفلسفة الوجوديّة، التي شكّلت يوماً الضمير العام في أوروبا الغربيّة بشكل خاص. ولم يكن الشيوعيّون والعبثيّون والفوضويّون أقلّ حدّة من الوجوديين في انتقادهم لشخصيّة رجل الدين.

هذا في الغرب حيث تهاوت صخور القداسات منذ أن وضع اسبينوزا ازميله الصلد في قاعدتها بالذات، حتى بولتمان وهرتسوغ وفنكلستاين! أمّا في الشرق، فما زالت الهالات القديمة على حالها، بل يمكن القول إنّ الحالة العقلانيّة ارتكست مع هذا الانتشار الأفقي غير العادي للحركات الأصوليّة المعادية للعقل، ومحاولة بعضهم، قصداً أو دون قصد، تمييع الحدود بين ذاته وعالم الماوراء، بحيث يبدو أي انتقاد له وكأنه محاولة دنيويّة مرفوضة لمدّ اليد إلى عالم الغيب. وتحت اسم حماية المقدّسات أو الدفاع عن التراث أو مواجهة حملات التغريب تمّت مصادرة العقل لصالح النقل؛ بل إنّ المحاولات اللطيفة غير العنيفة في نقديتها أو نوعية المصادر التي تقاربها– بعكس فلهاوزن في تصديه لمسألة التقاليدTraditionen في العهد القديم أو بولتمان في طريقته المسمّاة "إزالة الصبغة الميثولوجيّة عن المسيح"– والتي كان من روّادها علي عبد الرازق ومن ثم فرج فودة وسيّد القمني، أقامت العالم الإسلامي ولم تقعده، وانتهت بعزل علي عبد الرازق وقتل فرج فودة ووضع سيّد القمني على أسوأ القوائم السوداء. ولم تكن هذه الحرب الظلاميّة على كلّ ما هو عقلاني نصرة للدين كما كانوا يضحكون على العوام، فالبشري أضعف وأهزل من أن يقاوم الإلهي، وعدم الخوض في تفاصيل الماضي لا يلغي من كتب

التاريخ يوم الدار وحرب الجمل وصفين والنهروان وكربلاء والحرّة: كان الغرض منها عدم التشكيك بالسند المعرفي الذي يستند إليه رجال الدين هؤلاء حتى لا يُشكّك من ثم بهم أنفسهم ويُسحب بالتالي البساط من تحت أقدامهم، فيفقدون ما هم فيه من عزّ وسلطة وثراء. الإلهي، إبستمولوجيّاً، لا يمكن للبشري الإحاطة به، سلباً أو إيجاباً، لأنه، كما يقول لانغه في *تاريخ الماديّة*، لا يمتلك من القدرات الشعوريّة أو الادراكيّة التي تمكّنه من ذلك؛ من هنا، فإن تصوّرات البشري لما هو إلهي لا يخرج عن إطار المفاهيم المتداخلة بقوّة مع وضع هذا البشري الزماني-المكاني.

في انتقالنا من التعميم إلى التخصيص، يمكن القول إن مشايخ سوريّا، أي رجال الدين فيها من المسلمين، يتمتّعون بكلّ الميزات المذكورة آنفاً، خاصّة وأن البعثيين، كما أشرنا على الدوام، يحاولون الرفع من سويّة المشايخ، كي يدفعوا عن ذواتهم تُهم الكفر والعلمنة، التي ما انفك المشايخ يرمونهم بها، بنوع من الابتزاز المستهلك! وهكذا، فقد كان باستطاعة رجل الدين هذا، الذي يكفّر كلّ من لا يدور في فلكه صباح مساء، إقناع رئيس وزراء غاية في الذكاء والثقافة واللاطائفيّة، كعبد الرؤوف الكسم، أنّ الكتاب الفلاني، الذي يناقش مسائل تاريخيّة يعرفها كل من قرأ في التراث الإسلامي، سوف يشعل فتنة "نحن بغنى عنها"؛ وكانت النتيجة صدور قرار على أعلى المستويات بمنع الكتاب وملاحقة كاتبه!

ولأنه لا أحد يطلب العنب من الشوك، فقد كان من غير العقلاني absurd أن نتوقع من المشايخ موقفاً إيجابيّاً من مسائل حريّة التعبير والديمقراطيّة وحقوق الإنسان؛ فتلك التعابير كانت على الدوام النقيض المباشر لما يطرحه رجال الدين من أحادية رأي واستبداديّة مفهوم ورفض المقاربة العقليّة لما يعتبر نقلاً فوق العقل. من هنا، فقد ساهم المشايخ، ورجال الدين عموماً، في إضفاء مزيد من الاستبداد على الواقع السوري بتجلّياته الكثيرة، في الأربعين سنة الماضية.

ولأن المشايخ يفتقدون الحدّ الأدنى من اللاذاتيّة بحيث يوافقون على نقائضهم المفاهيمية مثل حريّة الرأي والليبراليّة والتعدديّة، فنحن نستطيع أن نستوعب الأسباب التي تجعلهم الأكثر صمتاً في مواجهة الاستبداد؛ لكننا بالمقابل، لا نستطيع حتى الآن أن نستوعب ما الذي يجعلهم يصلون بالصمت إلى حدّه الأعلى وهم يشاهدون بالعين المجرّدة، أهم معلولات الاستبداد، أي الفساد، وقد استشرى في كلّ زاوية وحارة ومؤسّسة في سوريّا؟

بغضّ النظر عن موقفنا الشخصي من بعض ممارسات كرديّة أثناء مطالبة الأكراد بحقوقهم الأبسط، التجنيس، فإن مشايخ الأكراد، الذين يحتكرون منذ زمن القرار الديني في دمشق، صمتوا بالكامل أمام هذا الحق الطبيعي؛ من ناحية أخرى، يعرف كلّ سوري أنّ المطالبين بالحقوق المدنيّة الفعليّة والديمقراطيّة وباحترام حق الاختلاف ضمن التعدديّة لا يمتّون بصلة إلى أي وسط إكليروسي، بل هم من الجماعات الليبراليّة أو اليساريّة، التي قد تكون النقيض الفعلي لما هو بعثي أو كهنوتي! ومن تجارب عايشناها مؤخراً، يمكننا القول بثقة لا ينقصها الوضوح، إنّ الطرف المشائخي أو المحسوب على المشايخ، في ظلّ هذه الثورة "الكلاميّة" التي تعيشها سوريّا اليوم، هو الأكثر عدائيّة للديمقراطيّة والنَفَس التعدّدي، تحت عناوين غير قابلة للنقاش، من منظورهم طبعاً.

إنّ الكارثة الفعليّة التي تكاد تطيح اليوم بسوريّا، التي تحاول تلمّس طرق للخروج من الاستبداد، هي الفساد. فالفساد بكافة عناوينه، الخافتة أو المتلألئة، هو العدو الأوحد للشعب السوري ومستقبله؛ الفساد، الذي لا يفرّق بين شرطي المرور، الذي صار عاديّاً أن يطالبك بما له بمناسبة ودون مناسبة، والمسئول الرفيع، الذي يرفض المساومة في حصته من الصفقة، صار السوس الذي ينفّر الناس من الواقع السوري، ابن البلد قبل الغريب! مع ذلك، فمن على المنابر المتاحة لهم، المحظورة على غيرهم من غير المدجنين، لم نسمع يوماً إدانة لفاسد أو تشهيراً بواقعة فاسدة؛ بل هنالك من يؤكّد أن كثيراً من المشايخ، وأحدهم يقبع الآن خلف القضبان في أحد

السجون السوريّة، ليسوا بعيدين كثيراً عن صفقات الفساد، أو عن تسويق هذا الفاسد أو ذاك لأن لديه ما يملأ الفم بحيث لا يعود بالإمكان غير التمجيد بحمده.

إذن، كيف يملأ هؤلاء أوقات الذين ينصتون إليهم اسبوعيّاً، ممن يعدّون بالملايين؟ بالتكفير؛ فمرّة نكتشف أن الشيخ محمّد حبش كافر؛ ومرّة أخرى يتنافسون في تكفير محمّد شحرور؛ وفي نوبة ثالثة يكفّرون صادق العظم؛ وهكذا، لا يصدّقون سماع رأي نقدي حتى يفتتحون "رالي" تكفير، يتبارى فيه الجميع في سوق رعيّتهم إلى حائط اللاعقلانيّة المسدود! والدولة السعيدة بشدّ الانتباه عن المسائل الحسّاسة غير المرضي عنها، تصفّق بشدّة لحلفائها المعممين، "الضمير الحي المفترض للأمّة"، كما قلنا من قبل!

قديماً قيل: اسمعوا أقوالهم ولا تعملوا أفعالهم! والآن نقول: لا تسمعوا أقوالهم، ولا تعملوا أفعالهم.

****

عدنان.. وإعادة اكتشاف الله !

www.annaqed.com

نبيل فياض، 8 أغسطس 2004

.. وتأتيني على الدوام رسائل واتصالات كثيرة، تسألني عن "عدّون"، الذي أذكره في مقالات هنا وهناك؛ بل إن بعضهم استغرق في تفسيراته ليربط بين آرائي في المارونيّة الحضاريّة وعدّون، وليخلص بالتالي إلى نتيجة مفادها أنّ عدون رمز ماروني يرفض الكاتب توضيحه: وكانت تلك المصادفة الأجمل، لأن ما يربط عدنان، وهو العلوي، بالمارونيّة الحضاريّة، في اعتقادي على الأقل، أسمى من أن تفصم عراه.

قرب البلدة الشرقيّة، المخبوزة في تنور التصحّر وكراهيّة الآخر، حيث أعيش، وحيث فشلت سنوات خمس أن تزيل ما بيني وبين أهلها من سديم غبار "التعوس" وعواصف فوارق أسلوب العيش، يستوطن كاسر، بقسريّة لا أحسده عليها!

كان كاسر القادم من الغرب، ببراءته التي تجرح أيامنا الملوّثة، بطيبته التي تخجل وقاحة أنفاسنا، باخضرار عينيه الذي يرطّب تصحّر ليالينا – الواحة التي أسكن إليها كلّما أردت التنفّس دون شعور بالاختناق؛ الأردن الذي أُعمّد فيه من ثقل خطايا مصارعة الآخرين بلا حب؛ المسجد غير الأقصى الذي أسري إليه "ليلاً" كلّما انتابتني نوبة إيمان!

عند كاسر، ذات ليل شتائي متعب جميل، التقيته؛ وكان أكثر ما شدّني إليه أنّ والده كان ضحيّة إرهاب الأخوان المسلمين الذين يريدون إزالة وجود كلّ من لا يشاركهم أسلوب قناعاتهم؛ ودون أن أعرف اسمه، تمنيّت عليه أن يرحل قليلاً باتجاه الغرب، ويأتي ليساكنني عزلتي المرّة، ويكسر بالتالي شعوراً يطاردني كظلّي!

وجاء!.. وبفرحة طفل يكتشف للمرّة الأولى العالم الذي حوله، أعاد عدّون اكتشافي لمعنى أن تحيى، أن تمارس فعل العيش خارج الفلسفة والسياسة وصراعات الديوك التي لا تنتهي! وكان من الأصعب علي بالطبع، وأنا الذي أدمنت الوحدة كأسوأ أنواع المخدّرات، أن أتحسس قربي على الدوام صوت أنفاس لا تهدأ وهمهمات خجولة لا تكاد تلامس الشفاه!

أخجلني اضطرابي، على غير عادتي، حين سألني أحدهم عن اسم هذا الصديق المرافق لي باستمرار، والذي يبدو وكأننا تعايشنا مرّة في جيل سابق، قبل أكثر من ألف عام؛ وكان ردّي السريع، لأني لا أعرف اسمه: اسأله! وسأله؛ فقال: عدنان، من قرى بانياس! واكتشفت بعدها أني كنت أعايش عدنان دون أن أعرف اسمه أو من أين جاء! وتذكّرت صديقي الأزلي، الشاعر جورج هاشم، الذي عايشته ذات يوم في سن الفيل ثلاثة أيام بلياليها، يقرأ لي فيها أشعاره المجنونة، ويشرب البيرة التي أكرهها؛ وقبل أن أغادر، سألته: ما اسمك؛ حتى أقول لهم إذا سئلت، عند من كنت؟

الأسامي كلام..

في رحلتي الصيفيّة الأولى منذ سنوات خمس إلى الساحل السوري الملوّث البراءة، كان عدنان برفقتي عند الأب إلياس، الصديق الطيّب، في أحد الأديرة المارونيّة القليلة في وطن مار مارون؛ وعدنان، العلوي، أراد الانسحاب حتى لا يحرج أحداً إذا ما أراد انتقاداً غير منضبط؛ قلت للأب والمجموعة التي معه: عدنان قديس.. علوي! وقبيل نهاية الرحلة الأحلى، قال الأب الطيب لقديسي العلوي: هذا مفتاح الدير! هنا بيتك الأوّل! نحن أهلك وأنت ابننا فعلاً! وللمرّة الأولى أيضاً أكتشف عمق القداسة في هذا الأب الذي أحس بأن قديسي العلوي جدير بأن يعطى "مفاتيح" الدير، وكأنه الحرديني أو رفقة!

في علاقتي بعدنان أتذكّر باستمرار رواية سيمون دو بوفوار الطويلة، *المثقفون*، حيث تروي الفيلسوفة الفرنسيّة الرائعة كيف أُخرجت يوماً، في الغرب، على يد أحد الأمريكان، من عالم الحرف إلى عالم الروح: جميل أن ينسى المرء الفلسفة لصالح نزهة بحريّة في آخر الليل على شاطيء سوكاس الصخري المهجور؛ جميل أن ينسى المرء نقاشات الآخرين وحواراتهم ومجادلتهم لصالح حديث صامت مع قديس علوي في مطعم بسيط يتكيء على أمواج لا تعرف التنفّس؛ جميل أن ينسى المرء اللاهوت والصخب اللاديني والتفاسير الباطنيّة والحرفيّة لصالح وجه يطفح بالألوهة!

.. وكان واحدنا يبحث عن شيء أقرب إليه من بصره!

كان واحدنا يهرب من كنيس جوبر إلى بازليك حريصا؛ كان واحدنا يحجّ إلى لالش ويتمرّغ مع الهندوس مستغفراً: هاري كريشنا.. .. .. هاري راما؛

كان واحدنا يتناول مع المورمون في كنيستهم الصغيرة الأنيقة في منطقة الروضة بدمشق، ليركع بعدها أمام إيقونة بوذيّة، حملها معه كاهن صديق من طوكيو إلى القصّاع؛ كان واحدنا يهاجر من الحسينيّة الوحيدة في حي الأمين إلى دير سيدة نسبيه في غسطا؛

كان واحدنا يرافق الحاخام الأقرب–الأبعد في رحلة إلى كنيس الإفرنج، ليذهب في صحبة أحد الآباء الكبوشيين إلى قدّاس أحد في كنيسة اللاتين قرب دار السلام؛

كان واحدنا يبحث عن وجه صابئي عبداني، يحكي له ببراءة متلهفة عن طهارة المندائيين ونقائهم العرقي؛ ويطوف بعدها الليالي لاقتناص من يملي عليه قصّة مير مح اليزيديّة؛

كان واحدنا يصارع الموت على باب أحد الآباء البيض في المتحف، استجداء لتفسير جديد لله، عبر لاهوت الصيرورة؛ ليذهب بعدها إلى النقيض مباشرة، في كنيسة أنطلياس، حيث يجتمع الكريزماتيك، في محاولة مغرقة في الشعوريّة، بحثاً عن الله أيضاً؛

كان واحدنا يرقد بأمان في مسجد إسماعيلي، ليل الثالث عشر من كانون الأوّل، عيد ميلاد الإمام، يتابع بعشق محموم تلك الأصوات الشجيّة المسبّحة لله، في وحشة السلميّة الخائفة؛ لتأخذه الدرب إلى كنيسة يسوع نور العالم في حمص، يتابع مع أصدقاء العمر الذي يتسرّب من أصابعنا كالرمل تراتيل أنيقة لإله يسكن تحت جلودهم؛

كان واحدنا يطارد صوت الألوهة حتى باب الخلوة الدرزيّة في قرية دير علي الساكنة تحت أعين دمشق؛ ليصرخ بعدها من المسجد الأحمدي في حوش عرب بأن دعاء الخليفة وصل من لندن تحت جنح الضباب إلى تلك القريّة الساكنة في أعالي العيد؛

كان واحدنا يجتاح الأسفار المقدّسة، والقرى المقدّسة، والعتبات المقدّسة، والتراتيل المقدّسة: بحثاً عن الله؛

.. وكان واحدنا يسكنه الوجع وهو يحاول سماع صوت الله في أصوات المرشديين الفرحة؛ وانكسارهم الأجمل في آخر لا يعرفون عنه سوى الحب؛

فجأة!.. دون سابق لهفة؛ يعيد الله كشف ذاته!

.. تحكي قصّة مسيحيّة أنّ يسوع قال يوماً لأحد المؤمنين: انظر إلى آثار قدميك على الرمل! ألا ترى أن هنالك آثاراً لأربعة أقدام مترافقة باستمرار! لقد كنت على الدوام بجانبك! ردّ المؤمن: لكنّك تخليّت عني وقت تعبي! أنظر! الرمل لا يحمل سوى آثار قدمين إثنين في تلك الفترة! ردّ يسوع: هذه آثار قدمي؛ لقد كنت أحملك وأسير بك أثناءها!

.. في أوقات التعب، حملني صوت الله، عبر هذا القديس العلوي، إلى عالم لا تسكنه غير الوحدة؛

.. وفي حين أخفق اللاهوت وسكتت الكتب المقدّسة بخجل ملفت؛ في حين تلاشت الأيقونات من ذاكرتي، وتسرّبت الصلوات من دفاتري العتيقة؛ امتدت يد هذا القديس العلوي اليسرى، لترفعني باتجاه الله!

كان الله بجانبي؛ وكنت أفتقده باستمرار !

كان الله ينام على مخدتي الزرقاء؛ يأكل معي على طاولتي الخشبية الجميلة؛ يضع يده اليسرى تحت رأسي المتعب، ويلف بيده اليمنى كوابيس العمر الماضية كي لا تعكّر صفو القادم؛ ولم أكن أراه!

فجأة!.. دون سابق ارتعاش!

امسك قديسي العلوي بجفني المتعبين منذ أربعين سنة: ورمى بعيني في الجنّة!

عدنان.. فيك أعيد اكتشاف الله الذي أضعته منذ زمن طويل؛

طاردته، بلا جدوى، زمناً طويلاً!

وكلّ صباح سكّري يزداد الله ألقاً تحت جلدي، وفيك.

****

صدام العولمتين: الأصوليّة القديمة والأمريكيّة الحديثة!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 8 أغسطس 2004

لا يختلف اثنان في أنّ المسلمين يمرّون هذه الأيام بأزمة لم يسبق لهم أن صادفوها من قبل. فللمرّة الأولى في التاريخ الإسلامي، الذي يستغرق أكثر من أربعة عشر قرناً، يجد المسلمون أنفسهم وقد خرجوا من "غيتوهم" المعرفي، بازلتي الجدران، إلى عالم لا تعرف فيه الفكرة ولا المعلومة أي شكل للحدود؛ للمرّة الأولى يجد المسلمون أنفسهم وسط خليط عجيب من الأفكار والآراء لا علاقة لها إطلاقا بما عرفوه في بداياتهم وقت إنشاء دولة طيبة الوليدة. لم يعد العالم "دار إسلام أو سلام ودار حرب"؛ فالمسلمون، في ظلّ هذا التداخل غير المسبوق للإثنيّات والأديان والأعراف واللغات، لم يعودوا القوّة الحاكمة في إمبراطوريّة مترامية الأطراف، يسيطرون على الآخرين من منظور "أهل الذمّة"، بل صاروا إحدى الجماعات الدينيّة، في عالم تسيطر عليه قوى أو قوّة عظمى وحيدة لا يجد المسلمون سبيلاً لصدّها وصدّ ما تحمله من آراء ومفاهيم قد يبدو بعضها النقيض المطلق لما يحمله الجنين الإسلامي من أمور مقابلة.

ما من شكّ على الإطلاق أنّ الولايات المتحدة، بجيوش سياسيّيها ومفكّريها وعلمائها وباحثيها، تضع نصب عينيها للعالم مشروع عولمة تعمل منذ زمن على فرضه حيثما استدعى الأمر ذلك. وكان المفكّر الإيطالي الأغوستيني الشهير، ميكلّي فدريكو شاكّا، قد قال في كتابه الضخم الهام، *الفلسفة اليوم*، [منشور بالانجليزية تحت عنوان: *الاتجاهات الفلسفيّة في العالم المعاصر*]، الذي نشرنا منه القسم الخاص بفلسفة أميركا اللاتينيّة، قبل أكثر من خمسين عاماً، إنّ أكثر ما يخيفه أمركة العالم أو مركسته، لأن أوروبا ستفقد عبر ذلك "روحها الثقافيّة"، لصالح تيّارات، بروتستانتيّة النَفَس والعقليّة، ماديّة الفهم للحياة؛ وهذا ما كان. بالمقابل، فللأصوليّة الإسلاميّة، التي تعتقد أنّ عوالمها الفكريّة تتجاوز حدود المكان والزمان، عولمتها أيضاً، التي تمثّلها بأفضل ما يمكن، إمارة طالبان الإسلاميّة، وأمير مؤمنيها، الملاّ عمر، ومنظّره الأيديولوجي، أسامة بن لادن.صحيح أنّ أمارة طالبان الأفغانيّة كانت محدّدة بالعاصمة كابول وبعض مناطق أفغانستان، التي تتسع وتضيق حسب الظرف، إلاّ أن القاعدة، قاعدة الإمارة الروحيّة، كانت تتناثر في كافّة أرجاء العالم، وفق مشروع معدّ سلفاً، يهدف أساساً إلى الرمي بالماضي عبر الحاضر إلى قلب المستقبل. إذن، العولمتان تطرحان مشروعين كونيين متكاملين: الأولى، الأمريكيّة، تسعى إلى أمركة العالم ونشر ما تقول إنّه مفاهيم ديمقراطيّة وحقوق إنسان وليبراليّة تحت أجنحة الأباتشي؛ والثانية، الأصوليّة، تسعى إلى أسلمة العالم ونشر ما ترى أنه مفاهيم إلهيّة في ظل القنابل الموقوتة والشباب الانتحاري وجرائم الجمرة الخبيثة: وبين العولمتين، تدفع غالبيّة شعوب العالم، من المتابعين الصامتين، الثمن غالياً.

قد تبدو العولمتان متناقضتين لمن يأخذ الأمور بظواهرها: لكن العين الخبيرة تستطيع، بقليل من التبصّر، ملاحظة أنّ الطرفين تعبير طاغ عن أزمة أنطولوجيّة يمكن تلخيصها بعبارة: الإنسان لصالح الفكرة. فعند الطرفين نجد أن الروح مضحّى به لصالح نمط من الحرف قاتل. في العولمة الأمريكيّة "فرض" تناقضي لمفهوم الحريّة، الذي هو النقيض المبدئي لكلّ ما يمكن تسميته "فرض". وإذا كنّا قديماً نعجب بمقولة سارتر في *الوجودية مذهب إنساني*: الوجوديّة هي الحريّة، "الإجبار" على الحريّة! فنحن اليوم نجد في هذا التعبير، كما يقول نيتشه

في *شفق الأوثان*، قبضة في العين: أي، جمعاً لكتلة تناقضات؛ فلا يوجد في عالم المنطق بأنواعه ما يبرّر هذا الوضع لذاك الكم من التناقضات القطبيّة في سلّة واحدة.

لا هدف للعولمتين غير الاستيلاء على العالم تحت الرايات البرّاقة: فالعولمة الأصوليّة تريد تركيع العالم في ظلّ عناوين "ما ورائيّة" قدسيّة تدّعي أنها جاءتها من فوق، ودورها قسريّ في فرض هذه العناوين على الآخر، ومن ثم تقسيم الآخر بحسب قبوله لها إلى آخر مسالم وآخر محارب ينبغي قتله والوصول إلى النيرفانا عبر وضعيّة القتل هذه، قَتَل القاتل أم قُتل؛ العولمة الأمريكيّة، بالمقابل، تسعى إلى تركيع آخر للعالم في ظل عناوين "دنيويّة" شبه قدسيّة، تدّعي أن من واجبها "إنسانيّاً" تحرير الناس قسراً، وتقسّم العالم وفقاً لهذه المفاهيم إلى إرهابيين وغير إرهابيين، إلى دول مارقة ودول حليفة، ويطالبون من ثم بقتل الإرهابيين أو اعتقالهم، باحتلال الدول المارقة أو قلب أنظمتها التي لا تروق للمشروع الأمريكي. بؤرة الخطر في العولمة الإسلاميّة تكمن في أنها ترفض مناقشة أفكارها ومفاهيمها لأن ذلك ليس من حقّ أحد؛ في حين أنّ مفصل الخوف في العولمة الأمريكيّة، التي يمكنك مناقشة أفكارها ومفاهيمها مع أصحابها " فهي لا تدعي الأصل الإلهي لها" وإن كان ذلك ظاهريّاً، يتركّز في ذلك القدر الهائل من القوّة الكامن خلف تلك الأفكار والمفاهيم، التي تجعل من رفضها أو التفكير بمقاومتها مسألة أقرب إلى العبث!

يبقى السؤال: من سينتصر أخيراً، وهل ثمّة طريق ثالثة؟

قبل سنوات قدّمت هوليوود مجموعة أفلام أشهرها، *آخر أيام الكوندور*، تبدو ظاهريّاً وكأنها تدين ممارسات وكالة الاستخبارات الأمريكيّة عبر التركيز على شخصيّة أحد العملاء الذي يصحو ضميره فجأة لينسحب من تلك المؤسّسة سيئة السمعة، في حين أنّ هدفها الفعلي إظهار الوكالة وكأنها القدر الذي لا يمكن لأحدّ ردّه، عبر التركيز على موت العميل التائب على يد أحد عناصر الأمن الأمريكان في نهاية الفيلم! وربما أنّ هذه الأفلام التلخيص الأوجز لمشروع العولمة الأمريكي!

حين كان الآخرون المسكونون بهواجس أوهام الحقائق يناقشوننا في استحالة دخول الأمريكان العراق، وفي أنّ الأمريكان، إذا سوّلت لهم أنفسهم الاقتراب من قلعة الأسود، سيكون مصيرهم كمصير نابليون على أبواب عكّا، كنّا نردّ عليهم بأنّ مشروع العولمة الأمريكي الثقافي–السياسي–العسكري–المفاهيمي يتطلّب أن تضع أميركا إحدى قدميها في قلب العالم الإسلامي – أفغانستان – تحت ذريعة قدّمها لها الأصوليّون الطالبانيّون، الذين كانوا صنيعتها وذراعها الأطول وقت الحرب بين العولمة الأمريكيّة–الرأسماليّة والعولمة السوفيتيّة–الشيوعيّة، فتتخلص بالتالي من مجموعة مشاغبة تحاول فرض أوهام حقائقها على الآخرين بقوّة الإرهاب؛ لكنها أيضاً، وهذا الأهم، تمسك المفاتيح إلى دول وسط آسيا الإسلاميّة وتسيطر على المنافذ إلى الباكستان والهند والصين وإيران! أمّا القدم الأخرى فكان لا بدّ من وضعها في قلب العالم العربي، في الدولة الأكثر مروقاً ولا مسئوليّة؛ في دولة هي الأهم عربيّاً، بشريّاً ونفطيّاً ومائيّاً؛ في دولة يمكن أن يُرفع منها بيرق المفاهيم الأمريكيّة اللامعة الجذّابة لشعوب لم تعش غير القهر؛ في دولة يمكن منها محاصرة إيران وسوريّا والإطلال على السعوديّة والخليج العربي! من هنا، بغض النظر عن الوجه الحاكم في البيت الأبيض، فمشروع العولمة الأمريكي قضيّة حياة أو موت، خاصّة بعد تدميره، بذكاء وخبرة، للمشروع العولمي الآخر المنافس، أي الشيوعيّة! وفي اعتقادنا أنه كلما ازدادت مقاومة العولمة الأصوليّة لمشروع العولمة الأمريكي، كلما ازداد عنف الأمريكان واستشراسهم في مواجهة الأخطار المقاومة لمشروعهم. وكلّ من يعرف إمكانيّات الأمريكان وقدراتهم المعرفيّة–الاستخباريّة الهائلة، مقابل بساطة المشروع المقابل وسذاجته، يدرك أن المقاومة التي تتضاءل وتتآكل تدريجيّاً للمشروع الأمريكي سوف تنتهي أخيراً، إلا من جزر غيتوهيّة معزولة ذاتيّاً، إمّا باندماج تام في المشروع الأمريكي، وهو ما بدأت تباشيره في تلك

النقلة النوعيّة نحو التأمرك تلوح في أفقنا الحياتي الإعلامي، خاصّة بين الشباب، أو برفض تام لهذا المشروع، يتمثّل في إغلاق واحدهم ذاته في تلك الجزر الغيتوهيّة المعزولة. – مع ذلك، ما يزال هنالك طريق ثالثة!

لا يتسرّب إلى دواخلنا أدنى شك في أن بعض ما تطرحه العولمة الأمريكيّة من قيم متسامية، مثل حقوق الإنسان والديمقراطيّة والليبراليّة، يلبّي كثيراً من طموحات الإنسان العادي في منطقتنا؛ وإنّ كثيرين ممن يقاومون مفاهيم هذه العولمة هم جماعة من المتضرّرين "سلطويّاً" ، يستخدمون العاطفة الدينيّة أو القوميّة غير المدجّنة عند العوام لرفض هذه المفاهيم بوصفها نتاج مؤسسة استعماريّة صليبيّة هدفها الأوّل والأخير تركيع العرب والمسلمين؛ والعوام، الذين لم يفكّروا يوماً خارج كتلتهم الشعوريّة، جاهزون على الدوام لتصديق أيّة مقولة لا ينقصها الشحن العاطفي؛ مع العلم أن هذه المفاهيم بالذات يمكن أن تكون الطريق إلى تحرير العوام من ربقة الاستبداد وذيوله! إن تبنّي هذه القيم الحضاريّة–الإنسانيّة طوعيّاً، مع الاحتفاظ ما أمكن بالروح الثقافيّة المحليّة، هو الحل الثالث الذي يقطع على الأمريكان الطريق إلى أي شكل للتدخّل في الأمور الداخليّة لهذا البلد أو ذاك؛ وفي الوقت ذاته يثُبت للعامة أن تبني مفهوم حديث لا يعني بأية حال التخلّي عن الأصيل والموروث الجيّد، المقبول إنسانيّاً.

الإصلاح السوري.. والزمن الذي لا يجامل

www.annaqed.com

نبيل فياض 7 يوليو 2004

ممّا لا شكّ فيه أنّ سوريّا 2004 تختلف جذّريّاً عن سوريّا 2000: خير دليل على ذلك هذا الكمّ من الكتابات النقديّة للنظام والرموز البعثيّة، التي سقطت أو الآيلة للسقوط، من كتّاب وباحثين ومواطنين عاديين من قلب الوطن، دون أن يستدعي ذلك تدخّل القوى الأمنيّة التي كانت سابقاً تضرب بيد من حديد كلّ من توسوس له نفسه انتقاد أحد من المحسوبين على الدولة، حتى وإن كان على هامش الهامش! ومّما لا شكّ فيه أيضاً أنّ سوريّا تعرف شكل إصلاح، رغم إصرار الدولة غير المبرّر على رفض مصطلحات بعينها، كالإصلاح، واستخدام ألفاظ أخرى، تعطي المضمون ذاته، مثل التطوير. لكن الحقيقة القائلة تبقى بأن الإصلاح هو الأمر الأكثر إلحاحاً في هذا الزمن، إذا ما أردنا لسوريّا الخروج من عنق الزجاجة الخانق، الذي يشعر به السوري العادي، حيثما كان.

على نحو دوري؛ يقال لنا: انتظروا 7\1، وسوف ترون كم من الرؤوس "العفنة" ستتساقط! ويأتي 7\1، ولا نرى رأساً يسقط أو حتى يقارب النضوج السابق للسقوط؛ وحين نسأل؛ لماذا؟ يقال: انتظروا 1\1، وسوف ترون الرؤوس المتدحرجة على مقصلة الفساد! ويأتي الموعد إياه، ولا نرى مقصلة ولا رؤوساً متدحرجة. الآن تسود في الشارع السوري اسطوانة جديدة؛ تقول: إنّ رؤوساً كثيرة ستختفي من على الساحة السوريّة، خاصّة الأمنيّة منها، في مطلع العام القادم، ويتحدّثون باستفاضة تفاؤليّة عن التشريع الرئاسي القاضي بعدم التجديد لمن تعدّى السن، ويوردون بالتاريخ الدقيق موعد الاستغناء عن هذا المسئول أو ذاك [نمتلك بدقّة المواعيد والأسماء، لكننا نحجم عن نشرها كي لا نفقد الصدقيّة إذا لم يحصل ما نتنبأ به]؛ وأخشى ما أخشاه أن نضطر العام القادم، في أيام كهذه، لكتابة مقالة أخرى حول الإصلاح المنتظر والرؤوس التي لن تينع!

إنّ كم الفساد المستشري في الوطن السوري، والذي كان الاستبداد البعثي أحد أهم عوامله، يحتاج إلى علاج سريع حاسم، يمكن أن يعيد إلى الناس ثقتهم المهزوزة بالدولة! فبسبب الاستبداد الذي يجعل اللصوص الكبار فوق الشبهات أو المحاسبة، وبسبب انتهاء دور القضاء فعليّاً، حيث أضحى المحامي عموماً مجرّد وسيط بين القاضي والأطراف المتقاضية، أضحى التفسّخ، بأشكاله التي لا حصر لها، القاعدة المتعارف عليها، في حين صارت الاستقامة وضعاً مرضيّاً لا يستحق صاحبه غير الشفقة لأنه "لا يعرف أين مصلحته"!

إنّ إزاحة هذا المسئول أو ذاك، مثل استبدال وزير الدفاع الذي "لم يترك دقّاً إلاّ ورقص عليه"، ليس هو المطلوب شعبيّاً، لأنه لا يحلّ أية مشكلة. والحديث اليوم عن إزاحة غيره من "عليّة" القوم، لا يعني غير إعطاء حبّة أسبرين أخرى لذاك المريض بالسرطان العصيّ على العلاج؛ وحتى لا يمرّ الزمن على الشعب السوري في انتظار "غودو" الذي لن يأتي أبداً، يمكننا هنا تقديم شكل مداخلة، جوهرها مقارنة بين سوريّا، وأقرب الأقطار إليها، من كل النواحي، لبنان، ومحاولة فهم سبب هذا التخلّف الحضاري لدمشق، مقارنة ببيروت، بما يتجاوز ألف عام:

1 . معروف للجميع أنّ ما يقارب مليون مواطن سوري يعملون في لبنان، ويعيلون من ثم نحو ثلث سكّان سوريّا، من بلد لا أنهار فيه ولا بترول ولا أراض زراعيّة ممتدّة ولا صناعات قويّة ولا مناجم فوسفات.. إلخ! كيف باستطاعة لبنان، هذا البلد الصغير محدود الموارد إعالة ثلث الشعب السوري، الذي تعاني غالبيته من حياة تهبط

بثقة واستمراريّة إلى ما دون خط الفقر؟ ما الذي يميّز لبنان عن سوريّا حتى يكون باستطاعته، وهو البلد "الأضعف"، مساعدة الشعب السوري بهذه الطريقة غير العاديّة؟

الليبراليّة! هذه الكلمة وحدها كافية لاختصار عمق الفوارق والمأساة! فلبنان، بليبراليّته التي لا تلين، والتي صارت جزءاً من العيش اليومي اللبناني، استطاع أن يخطو إلى الأمام خطوات ليست بالخافية على أحد، في حين تراجعت سوريّا كثيراً، أقلّه أنّ الوقوف في المكان بحدّ ذاته نوع من التراجع. وكأشخاص عايشنا بعمق التجربتين السوريّة واللبنانيّة، يمكننا التوقف عند بعض مفاصل هامّة جعلت من بيروت مثلاً مدينة فشلت كلّ الحروب في تلويث جمالها، في حين تبدو دمشق مثل عجوز متصابية فشلت كلّ الشعارات التي تعلو الجدران الملوّثة في إخفاء تجاعيد وجهها البشع:

إذا ما قارنا المسألة الإعلاميّة، فلبنان، بحريّته، متقدّم على سوريّا إعلامياً بما يستحيل تجسيره. ورغم التواجد السوري الضاغط على التراب الوطني اللبناني، فالصحافة اللبنانيّة العريقة ما تزال الأولى في المنطقة الناطقة بالعربيّة؛ وإذا ما قارنّا التجربة اللبنانيّة بما عرفه السوريون منذ أربعين عاماً ونيف من صحافة موجّهة بطريقة ستالينيّة، فالمقارنة قطعاً لن تكون في صالح السوريين؛ دون أن ننسى بالمناسبة تطفيش الطاقات السوريّة البنّاءة التي رفضت التدجين البعثي. وحتى عندما أراد السوريّون الانفتاح صحفيّاً بعد أن شعروا أن صفير القطار الذي فاتهم لم يعد يسمع، فقد جانبهم النجاح لأنهم أوّلاً وكالعادة أعطوا تصاريح الدوريّات للمسئولين وأبنائهم الذين كان هدفهم التمظهر الثقافي لا غير، وحين أراد هؤلاء الانطلاق نحو عالم صحافة فعلي، كان الفشل يقف لهم في آخر الطريق، ليس فقط لأن البلد، كما أشرنا، نزف طاقاته الخلاّقة على مدى ما يقارب النصف قرن، بل أيضاً لأن الباقين الخلاّقين القلّة يرفضون العمل في الصحافة المحليّة، خاصّة كانت أم عامّة، لأنهم ما يزالون يحاولون الاحتفاظ بما تبقي لهم من كرامة! بالمقابل، فإن تجربة الإعلام المرئي أو المسموع الخاصّة في لبنان أضحت راسخة إلى درجة البداهة، في حين ما تزال سوريّا تفتقد الحدّ الأدنى المطلوب من هذه التجربة الهامّة. في لبنان على سبيل المثال أكثر من ست محطّات تلفزيونيّة متنوعة، أقلّها أهميّة أهم بكثير من التلفزيون السوري الرسمي، الذي لا يراه أحد إلاّ في المواسم. وما تزال الدولة، كالعادة، تقف متفرّجة في ظلّ هذا الوضع المأساوي لتلفزيون مفلس تسوده الشلليّة والمحسوبيّة والفساد الممنهج! وبسبب هذه التجربة التلفزيونيّة-الإعلاميّة اللبنانيّة الفريدة، نجد اليوم الإعلاميين اللبنانيين يملأون بجدارة أروقة الأوساط الإعلاميّة في كثير من الدول الناطقة بالعربيّة، خاصّة الخليج العربي! وهذا كلّه يعني، ضمن أشياء أخرى كثيرة، التسويق السياحي-الثقافي-الإعلامي للبنان ضمن محيطه الطبيعي، دون أن ننسى خلق كثير من فرص العمل داخل لبنان وخارجه.

يعرف الجميع أنّ المنظومة الاقتصاديّة السوريّة هي واحدة من أغرب المنظومات الاقتصاديّة في العالم، والمرء لا يحتاج لأن يكون خبيراً اقتصاديّاً ليكتشف كم العيوب الهائل فيها. فهذه المنظومة ليست اشتراكيّة ولا رأسمالية؛ ليست موجّهة ولا مبادرة فرديّة: المنظومة الاقتصاديّة السوريّة هي هجين غريب بين عيوب النظام الرأسمالي وسيئات الاشتراكيّة؛ وغايتها الأولى والأخيرة خدمة مصالح القائمين عليها. بل إنّ التعريف "منظومة" هو آخر ما يمكن تطبيقه عليها؛ أقلّه أن هذا التعريف يحتوي ضمناً أحد أشكال الإيحاء بأن فيه بضع نظام؛ في حين أنّ المنظومة السوريّة ليست أكثر من أفعال اعتباطيّة آنيّة يتمّ لويها وفق مقتضيات المصلحة الفرديّة لأصحاب الفعل. وهكذا، يمكن القول، إنّ القطاع العام استُغلّ من قبل القائمين عليه، الذين صاروا بفضله من أصحاب الملايين، حتى لم يعد فيه ما يستغلّ؛ وبعد أن أنهى هؤلاء استغلالهم الأسوأ، راحوا هم أنفسهم يفتحون النار على القطاع العام باعتباره أحد مخلّفات الماضي، ويطالبون الدولة بالتعصرن عن طريق الانفتاح على الرأسماليّة ونظام المبادرة الفرديّة؛ ولمّا كانوا هم الدولة، بقضّها وقضيضها، كان لا بدّ من أن تشهد سوريّا طفرات رأسماليّة

غير مسبوقة تجلّت في هجمة رأسماليّة غير عاديّة لدعاة الإشتراكيّة السابقين، أو بشكل أدق: أولادهم، للإمساك برقبة الاقتصاد السوري مرّة وإلى الأبد. بالمقابل، فلبنان كان بلد المبادرة الفرديّة والاقتصاد الحرّ منذ البداية. وهكذا، كان القطاع المصرفي فيه راسخ المعالم، وظل الوضع الاقتصادي متماسكاً، رغم الحرب الضارية، والذي أوصل هذا البلد الصغير، كما قلنا، إلى أن يكون بإمكانه تشغيل مليون عامل سوري من العاطلين على العمل. من هنا، ليس غريباً أن نجد الأسرة اللبنانيّة، على سبيل المثال، تمتلك أكثر من سيّارة، في حين ينحشر كبار الضباط والمهندسين والأطباء السوريين في وسائط نقل بدائيّة، لا تذكّرنا إلاّ بكوريا الشماليّة أو كوبا.

2 . ممّا لا شكّ فيه أنّ التعدّدية–الليبراليّة–الديمقراطيّة تجعل الفارق جذريّاً بين النظامين السياسيين في لبنان وسوريّا. فالمنظومة السياسيّة اللبنانيّة، رغم تحفظاتنا غير البسيطة على ممارساتها وطبيعتها البنيويّة، تجعل من المعارضة شأناً طبيعيّاً؛ الأمر الذي يحدّ نوعاً ما من الممارسات الديكتاتوريّة ويجعل من الفساد، المعلول الطبيعي للديكتاتورية، مسألة أكثر صعوبة مما هي عليه الحال في النظم اللاديمقراطيّة؛ دون أن ننسى طبعاً الحيويّة الاجتماعيّة التي يبدو الديالكتيك السياسي أساسها الإبستمولوجي، والذي يصل إلى حدوده الدنيا في النظم الاستبداديّة. بالمقابل، فالمنظومة السياسيّة السوريّة، عبر الهيئة الأغرب المسمّاة "بالجبهة الوطنيّة التقدميّة"، والتي لا تشبه غير مكتب تسيير مصالح خاصّة، تفتقد أدنى درجات التفعيل السياسي أو الاجتماعي؛ "الجبهة الوطنيّة التقدميّة"، لصاحبها حزب البعث العربي الاشتراكي، كما تقول النكتة السوريّة الساخرة، هي أبعد ما تكون عن الديمقراطيّة، بمعناها الفعلي؛ من هنا، فإذا كانت الديناميكيّة السمة الأهم للمجتمع اللبناني، فالإستاتيكيّة هي الوجه الحقيقي للمجتمع السوري. مع كل ما تعنيه الاستاتيكيّة من تراجع وتفسّخ على كافّة الأصعدة!

3 . إنّ الغلاسنوست، أو الشفافيّة، هي أحد أبرز العناصر التي تفرّق بين المنظومتين السوريّة واللبنانيّة، وطبعاً لصالح الثانية دون ريب. وإذا أردنا التوقف عند السلطة التنفيذيّة عند الطرفين على سبيل المثال، يمكن القول، إنّ رفيق الحريري، بسلطته الماديّة–الإعلاميّة الهائلة، لا يمرّ يوم إلاّ ويتعرّض لسهام النقد العنيفة، وأحياناً التجريحيّة، لهذا السبب أو ذاك، الأمر الذي يجعله يعد إلى العشرة قبل الإقدام على أية فعلة يمكن أن تسلّط عليها سهام المعارضة؛ بالمقابل، فإنّ رئيس وزراء حكم سوريّا زمناً طويلاً وفي مرحلة مفصليّة، وانتحر بطريقة أقرب إلى أفلام إنغمار برغمان أو روايات كافكا، اسمه محمود الزعبي؛ وخلّف وراءه أساطير يتداولها السوريون همساً حول فساد أولاده وأسباب انتحاره ومعرفة ما إذا كان انتحاره مسألة قضاء وقدر أم لا، لا يوجد حتى الآن من تجرأ على طرح ملفاته علنيّاً! حادث انتحار الزعبي، كما يراه عموم الشعب السوري، كان يفضّل أن يحوّل إلى حلقة ثقة تعيد ربط الشعب السوري بدولته، عن طريق إعلام هذا الشعب، الذي سرق الزعبي ومن على شاكلته أمواله، بتفاصيل هذه الفعلة غير المسبوقة!

لكن الدولة اختارت الصمت المطبق، وكأن هؤلاء الناس، الذين كان الزعبي واحداً ممن أوصلوهم إلى هذه الحالة المغرقة في قتامتها، لا حقّ لهم في معرفة لصوصهم وقاتليهم!

أخيراً؛ فالإصلاح الاقتصادي لا يستطيع السير دون مثيله السياسي؛ ودون فصل لحزب البعث عن الدولة، دون تخليص المؤسّسات بالتالي من الانتهازيين والفاسدين، لا يمكن للوضع السوري عموماً أن يتحسّن؛ الديمقراطيّة–الليبراليّة أساس الدياليكتيك السياسي؛ المعارضة أساس كشف الفساد ومن ثم تقليصه، ودون ذلك لا أمل في أي حلول مطروحة!

ثمّة تطوّر، كما قلنا، في آليّة تعاطي الدولة مع الأفواه المعارضة، وحريّة التعبير أوسع بكثير مما كانت الحال عليه قبل سنوات، لكن هذا لا يكفي؛ فليس بالحرف وحده يحيا الإنسان.

****

من يشتري هويتي السوريّة؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 5-6 أغسطس 2004

لست وطنيّاً ولا قوميّاً، ولا علاقة لي بالعروبة المزعجة، كأنفلونزا الصيف، إلا عبر اللغة التي اضطررت آسفاً لتبنيّها، كلغة أولى غير أخيرة، بسبب ظرف جغرافي-اجتماعي؛ لست بعثيّاً ولا ناصريّاً، ولا أكره شيئاً في العالم أكثر من شعار " وحدة، حريّة، اشتراكيّة"، بكل ترتيباته الغبيّة، عفلقيّة كانت أم إتحاد-إشتراكيّة؛ والشعار الشقيق الآخر الأكثر استلاباً لكلّ ما اسمه عقل أو منطق: "أمّة عربيّة واحدة، ذات رسالة خالدة".

لا علاقة لي على الإطلاق بكلّ ما أسموه انتماء: حتى عندما قلت مرّة، انتمائي إلى اللاانتماء هو بحد ذاته انتماء، فأنا أنتمي إلى اللاانتماء، أجده اليوم ليس أكثر من تفلسف صبياني ساذج، على الطريقة البعثيّة، هدفه لفت النظر عبر غباء أرعن! لأن واحداً وأربعين عاماً من الحكم البعثي كافية لإشعار المرء بأنه لا ينتمي حتى إلى اللاانتماء.

لست معادياً لأحد، ولا صديقاً لأحد؛ لا أكره الإسرائيليين، ولا أحب السوريين؛ لا تضايقني نواه ولا يثير صباح فخري إعجابي؛ لا أقرأ عموس عوز، ولا أعرف يوسف ادريس؛ فقدت حبي لإيلان بابيه، الذي ضربه معتوهو اليمين الإسرائيلي، لأنه وصف طالباً تراجع عن رسالة ماجستير حول مجزرة "الطنطورة"، بالجبن؛ ولم أستطع يوماً أن أعجب بأي باحث في سوريّا التقدّم والاشتراكيّة، خاصّة نخبة الجهابذة في متحف علي عقلة عرسان الشمعي، المسمّى "اتحاد الكتّاب العرب".

لست من جماعة المجتمع المدني "المشبوهة"، ولا أعرف شيئاً عن الجبهة الوطنيّة التقدميّة للغاية غير أنّ زوجة أحد رؤساء أحزابها، الذي لا أعرف اسمه، والذي يمتدح حزب البعث أكثر من صلاح الدبين البيطار، تمّ توزيرها في موقع "أنثوي"، وأن رئيسة حزب آخر مغرق في تقدّميته - ينقسم كلّ موسم كالباراميسيوم، ليس على أساس أيديولوجي طبعاً - تصرّ، بديمقراطيّة أبهرت إنغمار برغمان، على أنه لا يوجد أفضل من ابنها ممثّلاً لحزبها الطليعي في البرلمان السوري، المنتخب بديمقراطيّة سويديّة!

في رحلاتي القصيرة النادرة في سوريّا، خاصّة الساحل الملوّث، وجدت مفهوماً للوطنيّة يختلف تماماً عمّا درّسونا إياه في كتاب التربيّة الوطنيّة في المرحلة الإعداديّة أو كتاب القوميّة في المرحلة الثانويّة: فمن القصور الأسطوريّة لمجمل أشخاص يحمل ثلاثة أرباعهم الاسم . الكارت بلانش، "علي" . أدركت أن الوطنيّة، وفق القاموس السوري غير المعلن، تعني أن يأكل الجوع الشعب، بكلّ طوائفه، في سبيل الوطن؛ وأن يأكل المسئولون مستقبلنا، بعد أن أنهوا ماضينا وحاضرنا، في سبيل الوطن أيضاً.

أعلن فشلي الأصرح بأني لم أفهم إصرار هؤلاء على الإمساك بمجد الوطنيّة من طرفيه: فهم، من ناحية، قمعوا الناس حتى ملّهم القمع، وسرقوا أموال الناس، من ناحية أخرى، حتى لم يبق ما يمكن سرقته. . مع ذلك، فتفسيرينا المغرق في سذاجته يقول، إن هؤلاء العليين، لم يكن باستطاعتهم، دون قمع، أن يسرقوا بتلك العلنيّة الصريحة. وكلّه تحت رايات الوطنيّة المضمّخة بدماء الشهداء. إذن، فاللصوصيّة والقمع وجهان لعملة واحدة.

وكيف أستطيع تعريف التبعّث؟ دون إطناب بعثي ممل، التبعّث صرعة لا تنقصها البذور الماورائيّة، تقدّم نفسها للغير وكأنها ديانة أرضيّة تقفل الزمان والمكان، لا يطالها الباطل لا من فوق ولا من تحت، لكن لا تقوم لها قائمة في ظلّ وجود مطلق آخر منافس. التبعّث هو العملة التي وجهاها اللصوصيّة والقمع: هل نحن بحاجة إلى

أدلّة أكثر من احتكار المتبعّثين لخيرات الوطن وشركاته ومطاعمه وفنادقه؟ هل نحن بحاجة لزيارة الصبّورة ويعفور وبصيرة وبانياس وكازينو دي ليبان؟ هل نحن مطالبون بتقديم أدلّة غير المرتديلا الفاسدة والوزارات الفاسدة والنفوس الفاسدة؟ هل نحن بحاجة لاستعراض التاريخ السرّي لمعارضي التبعّث؟ هل نحن بحاجة للمرور على القيادة القطريّة " الحكيمة "، بأعضائها الذين لا يوجد فيهم من يبدّي أقاربه على الغير، لأنه يؤمن بأنه دون الرجل المناسب في المكان المناسب، لا يمكن للوطن أن يقفز نحو الأمام؟ هل نحن بحاجة للتساؤل عن مغزى وجود قيادة قوميّة، غير البحث عن توظيف من الدرجة الأولى، والقوميّة صارت الاسم الآخر لاحتلال الآخر عند اللبنانيين والكويتيين وسكان الجنوب السوداني ودارفور وكردفان وساقية الذهب..؟ هل نحن بحاجة لأن نورد اسم ذاك البعثي، من قيادتنا القطريّة الحكيمة، الذي يضع بسطاره، منذ أيام مينا موحّد القطرين، على أعناق المثقفين، ليفرز من هو وطني عمن هو عميل – بمنظوره الذي لا يعرف معنى "باطل"؟

الانتماء، كما تعلّمناه من أرض الواقع، يعني أن تنتمي لعشيرة؛ أن تنتمي لطائفة؛ أن تنتمي لدين؛ أن تنتمي لمنطقة؛ والأفضل: أن تنتمي لأحدهم! أمّا أن تنتمي لوطن، لإنسانيّة، لعالم مفتوح على المستقبل: فتلك موضة استهلكها الرفاق ورموها في مرحاض الماضي. لا شيء يمكنه حمايتك غير الانتماء إلى كتلة لا علاقة لها بالحضارة: فهؤلاء الرفاق، الذين أضجروا مسامعنا بأحاديثهم القاتلة عن التقدّم وذيوله، لا يسكن تحت جلودهم غير أكثر أنواع غرائز القبيلة بدائيّة؛ هؤلاء الرفاق الذين امتصوا دماءنا على مدى عقود مؤلمة، لا يشبهون، وهم يهلّلون لحضارة الغد المأمول، غير قبيلة في مجاهل الغابات من أكلة لحوم البشر، ترقص حول غريب مقيّد إلى عمود خشبي نصف مهترىء!

ليست لنا طائفة تحمينا؛ والعشيرة مفهوم هو الأكثر اغتراباً على أنفاسنا: كيف يمكن أن نواصل العيش في بلد حيث اليد العليا للطائفة أو العشيرة؟ وأكرّر من جديد، أنّ المصيبة أنّه ضمن التقاسم الأبعد عن الإنسانيّة للمدجنة السوريّة، أدخل بعض الضباط من العلويين مفهوماً أكثر تخلّفاً من مفهوم الطائفة، بالمعنى الديني: وأعني بذلك العشيرة، ضمن الطائفة الواحدة. فصرت تسمع، للمرّة الأولى في التاريخ السوري الحديث، أنّ هذا المنصب مخصّص للنميلاتية، وهذا المنصب محسوب على الرشاونة، أما ذاك الموقع الأمني فمعروف أنه للمتاورة.. وهكذا. وكلّها، لمن لا يعلم، أسماء لعشائر علويّة: مع العلم أن العلويين العاديين، كانوا قد أوشكوا على نسيان التقسيمات العشائريّة، لكن بعضهم كان على استعداد لبعث الروح في أية مومياء منتنة ما دامت تساعد في تحقيق بعض مصالح آنيّة.

هل نحن بالفعل نعادي إسرائيل؟ شخصيّاً، لدي صورة لمسئول سوري سابق . بحمد الله . من جريدة فرنسيّة قديمة، أي في عزّ الصراع، والصورة معنونة كما يلي: فضيحة في دمشق. والمسئول السوري السابق، الذي كنّا نتوقّع منه أن يكون نبوخذ نصّر العرب، يقف في الصورة التاريخيّة إياها، في حمّام سباحة دمشقي عام، يعني على عينك يا تاجر، مع فتاة إيكوسيّة يزعم كاتب المقالة أنها يهوديّة وعميلة لإسرائيل. ومثل ذلك أكثر من أن يعد أو يحصى. والجميل أنّه إذا حاول واحدنا أن يحتج على تصرّفات من هذا القبيل، لا أسهل من شهر سيف العمالة لإسرائيل في وجهه.

مع ذلك، رغم أننا لا نطيق رائحة "تساحيا ها . نغبي"، الوزير الإسرائيلي السابق، والإرهابي الدائم، الذي تصدّى ذات يوم لعزمي بشارة في الجامعة العبريّة بالجنازير؛ ابن الإرهابيّة غئولا كوهين من أحد أزواجها، التي أسّست يوماً لحزب اسمه "ها . تحيا" [يمكن ترجمة التسمية إلى "البعث"]، لا يشبه شيئاً في العالم غير غئولا ذاتها؛ إلاّ أننا بالمقابل لا نستطيع سوى الإعجاب برجل من نمط إيلان ليفي، السكرتير السابق للمفكّر والإنسان، يسرائيل شاحاك، الذي عرّى الصهيونيّة أمام الرأي العام العالمي، وطبعاً الإسرائيلي!

رغم أنّنا لا نستطيع أن نسمع، دون قرف أو بداية تقيؤ، باسم أريئل شارون، الإرهابي المتأصّل، إلاّ أننا لا يمكن غير أن ننحني أمام يهودي آخر، اسمه ليني برينر، صاحب الكتاب العلامة الفارقة، *الصهيونيّة في عصر الديكتاتوريّات*، الذي يحتاج الباحثون العرب إلى ألف سنة ضوئيّة كي ينتجوا فصلاً من فصوله!

صحيح أن إرهاب ليمور ليفنات، وسمعتها التي سارت بها ركبان سارة نتنياهو، التي بدورها اضطر زوجها، بيبي، للضغط على أحد أصدقائها السابقين لمنعه بديمقراطيّة عن إصدار كتاب بحق السيّدة الأولى وقتها؛ لكن روعة ليئة تسيحل كافية لموازنة بركان الغلّ الذي يتصاعد، دون هدوء، من صدري الوزيرة الحاليّة وزوجة رئيس الوزراء السابق.

كما يمكن أن نجد بين الإسرائيليين أشخاصاً من نمط سلفان شالوم وشاؤول موفاز وبيني بيغن، كذلك يمكن أن نصادف نماذج من نمط يولي تامير وفيليتسيا لانغر وإيبي ناتان؛ لكن الأضواء، كما هي الحال حين لا تسلّط إلاّ على الأوساخ في الثوب، فهي لا تركّز إلاّ على النماذج السيئة. ولطالما حاولوا عندنا، خدمة لمصالحهم ومصالح الطرف المتطرّف المقابل، أن لا يتوقّفوا لثانية عند أي وجه غير ملوّث.

أرييل شارون ونقيضوه: كلّهم لا يريد سوى دق طبول الحرب لأنّ السلام عدو الطرفين.

ونحن دائماً نقول كلاماً قاسياً؛ والمشكلة أننا مثل فلسطينيي 1948، عرب داخل. ولأننا نحمل الهويّة السوريّة، يمكن لسيف الجلاّد أن يطالنا على الدوام: تحت عناوين كثيرة. من هنا أسأل الأخوة الأكراد، الذين تظاهر بعضهم مطالباً بالهويّة السوريّة: من يشتري مني هذه الهويّة . بلا مقابل!!!

****

عن عدّون والأصوليين وآخر أيام العمر: من يحمينا في بلادنا؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 1 أغسطس 2004

ظواهر كثيرة استدعت انتباهي في المدّة الأخيرة، كان أهمّها الأمور التالية:

دخول الأخوان المسلمين بقوّة، خاصّة بعدما أشير إلى أنّ النظام السوري في طريقه إلى صفقة تاريخيّة معهم، إلى دائرة الحوار التي نخوضها إن عبر الناقد أو الجزيرة أو السياسة؛ وقد أرسل لي باحث أخواني، هو الأستاذ علي الأحمد، الذي سبق وردّ على بعض أطروحاتي في الناقد عبر صحيفة السياسة الكويتيّة، رسالة تضمّنت ما قاله في السياسة، مع إضافات طائفيّة تعامل فيها معي وفق قاعدة "من سنّي إلى سنّي" المرفوضة عندي بالكامل، وكفّر فيها العلويين حصراً منذ أيام ابن تيميّة حتى ظهر المهدي؛ وكانت المحصّلة أن رددت عليه عبر السياسة ذاتها بمقالة كشفت عن نفاقيّة الخطاب الأخواني، وركّزت تماماً على مسألة التقيّة السياسيّة الأخوانيّة، داعياً الدولة إلى قطع الحوار مع هؤلاء الطائفيين! وقديماً قيل: من جرّب المجرّب، كان عقله مخرّباً.

نشرت الجريدة اليوميّة السوريّة "كلّنا شركاء" بعض مقالات عن موقع "الناقد" – دون إذن منّي ولا رغبة – أحدثت ضجّة هائلة بين التيار الأخواني الأصولي السوري، الأمر الذي أوصله إلى تهديد الأستاذ أيمن عبد النور، صاحب الجريدة، إلى الاعتذار من الإرهاب الإسلامي عمّا تمّ نشره، فأبدى الندم، وباس القدم، على غلطته، بحق الغنم، كما تقول كوكب الشرق؛ فرضي عنه الطالبانيّون الجدد في سوريّا، وما أكثرهم، وعادوا للتربع في قلب مذبحه اليعقوبي! وكان التعليق الأجمل الذي سمعته حول تلك الفضيحة الثقافيّة الإرهابيّة: حرام! أيمن عبد النور مسيحي؛ يريد سلّته بلا عنب!

نشر أيمن عبد النور، وبشكل متواصل، مقالات لشخص نكرة، لم يسمع به أحد – قيل لي إنه ربما يكون الأستاذ عبد النور ذاته – تناول فيها كاتبها بعض ما كتبت بطريقة أقرب إلى الاستنماء المعرفي؛ وزعم فيها هذا النكرة أنه مسيحي علماني، ودعا إلى التوقف عن قراءة ما أكتب بحق الإسلام، خاصّة وأن صديقاً له مسلم يحبّ فيروز(!!!) [كلّ أصدقائي المسلمين يحبّون روبي]، ونشر هذا الهراء، ببهرجة بابوية، في الجريدة الذميّة إياها؛ وهنا لا أستطيع سوى القول:

إنّ أغبى غبيّ في كوكب المريّخ يعرف أن المسيحيين في سوريّا مواطنون من الدرجة العاشرة: هل يمكننا الإشارة إلى أن المسيحي محرّم عليه التبشير بدينه للمسلم، في حين أن العكس مرحّب به؟ هل يعرف هذا النكرة أن المسيحي، إذا أراد الزواج من مسلمة، عليه إشهار إسلامه في بلده، حتى وإن كان من مواطني الفاتيكان؟ هل نحن بحاجة إلى الإشارة إلى الاستبعاد الهائل للمسيحيين من كلّ ما هو رسمي في سوريّا، مقارنة بالعلويين مثلاً، رغم القدرات الثقافيّة والعلميّة والمعرفيّة المسيحيّة التي تفوق كثيراً نسبتهم الديموغرافيّة؟ وقديماً قال عمر بن الخطّاب لكعب الأحبار: أتعلّمنا ديننا يا ابن اليهوديّة؟

مقابل بطريركيّة الروم الأرثوذكس توجد بقايا مئذنة قام الإثنا عشريّون الدمشقيون بوصل شريط كهربائي إليها، وجهاز تسجيل موجّه إلى غرفة البطريرك، يبثّ آيات ذكر الحكيم ليل نهار، لا لشيء، إلاّ لإشعار الآخر المخالف أننا فوق رأسه وإن كان في عقر داره؛ وأفتخر إلى أنني أوّل من أشار إلى هذا الإرهاب المعرفي في كتابي: مقالة في القمع!

وبسبب رغبتي العارمة في محاربة "الطورقة" بأصنافها في مجتمع يثور اليوم، بكلّ طوائفه، للوصول إلى برّ أمان حر، فقد أرسلت مقالة "لا نريد لأحد أن يطورق" إلى الأستاذ أيمن عبد النور، آملاً أن يخيّب أملي بنشرها، مثلما

نشر الاستنماء المعرفي لتلك النكرة، ويشعرني بالتالي غصباً عني بأن هنالك، خارج الموارنة، من يجرؤ من مسيحيي الشرق على المطالبة بحق المواطنيّة الكامل؛ لكن أملي لم يخب: وكلّه مطورق!

أكثر ما لفت نظري في الأيام الأخيرة، ذلك الإسهال الكتابي للتيار الإرهابي السوري، الذي لم يستطع يوماً الردّ على ما في كتبي الموثّقة بدقّة يعرفونها جيّداً، واختياره، عوض الردّ على "أم المؤمنين" أو "الجمل" بوثائقيّة علميّة، اللجوء إلى استعداء الأمن علي، وهم الذين يكفّرونه صباح مساء، عبر الإشارة إلى حوادث واجهتني في حياتي الثقافيّة، ولعب فيها هؤلاء الإرهابيّون الدور الأهم: وأبرزها معركتي مع أحمد ضرغام وصديقه [أسأل الدولة هنا: متى نخلص من القيادة القطريّة، قشّة لفّة؟]، التي يعتبرونها مختلقة للإساءة إلى دولتنا الحكيمة؛ وهذا ما يؤكّد صحّة ما أذكره باستمرار، حول التحالف القمعي بين البعثيين والأصوليين!

من هنا، كان علي أن أتوقع من هذا التيّار كلّ شيء؛ وهو الذي لم يرفّ له جفن – مع اعتذارنا من محامي الإرهاب إياه، حيث وصلت سمعة القضاء السوري "العطرة" إلى عالم الملائكة – في مباركته شقّ أم قرفة نصفين لأنها جرأت على انتقاد بطريقة بدويّة بسيطة لشيء لم تستطع الإيمان به! وفي اعتقادنا أنّ تخريب بريدي الإلكتروني، قبل أشهر، كان الإشارة الأولى إلى أنهم على استعداد لفعل أي شيء في سبيل إقفال أي فم لا يروق لهم كلامه! ثم جاء بعدها استنماء الذي يقول إنه مسيحي علماني، فاحتجاج المحامي "النظيف"، صاحب الخطوط الحمراء إياه، وأخيراً لا آخراً المقالات الأصوليّة التي تدعو الأمن – وهو لا يقصّر بهم أو دونهم – لأخذ حذره من هذا التخريب للوطن!

قبل أيام نشرت في صحيفة السياسة الكويتيّة مقالة بعنوان: البعثيّون والأصوليّون: مشلول يقوده أعمى؛ وفيها تعرّضت بالنقد الشديد لهذا التحالف الأصولي البعثي الذي لن يكون إلا على حساب المزيد من القمع والاستبداد من طرفين لا يفقهان معنى الحريّة! واليوم تفاجأت تماماً بمقالة في الناقد، بالمعنى ذاته، لكنها مكتوبة بلغة طائفيّة هي الأبعد عن ذاتي، نفسيّاً وفكريّاً، خاصّة هذا التجريح بالعلويين ككلّ؛ ولا أعتقد أن إرسال هذه المقالة إلى الناقد إلاّ جزء من الحملة إياها لإيذائي بكلّ السبل الممكنة، والإيقاع بيني وبين العلويين، الذين هم على الدوام خندقي الأخير في مواجهة القمع والإرهاب والاستبداد الفكري؛ وهنا يمكنني التذكير بما يلي:

رغم مواقفي المغرقة في النقديّة والسلبيّة من بعض المسئولين العلويين، خاصة بعض الضباط من الذين اغتنوا من نقود الشعب، فإن تعاطفي مع عموم العلويين، من المقموعين أكثر من أية طائفة أخرى، لا حصر له؛

ليست مهمتي إرشاد الدولة إلى من يجب أن يكون رئيس هذا الفرع الأمني أو ذاك، خاصّة وأن بعض الضباط العلويين من الأمن – كنت أتمنى أن يتاح لي ذكر أسماءهم – هم أكثر ديمقراطيّة وثقافة وتحرّراً من كل رجالات المعارضة السوريّة: رغم عددهم القليل!

لست بحاجة لذكر أسماء عبد الحليم خدّام أو علي زيّود أو عزّ الدين ناصر، لأنه لا يوجد سوري لا يعرف هذه الحقائق المستورة التي أشير إليها باستمرار؛ وذكر أسمائهم بهذه الصراحة غير المسبوقة ليس أقل من دعوة واضحة لفتح معركة لا أعتقد أني سأكسبها، خاصّة الآن؛

أخيراً، وأنا أحاول تلمّس باب للسفر خارج سوريّا، إلى أميركا أوّلاً وبعدها إلى مكان آخر أكثر أماناً من الوطن، خاصّة وأن ما بقي من العمر أقل كثيراً مما مضى، لا أستطيع سوى القول، إنّ وجود قديس علوي اسمه عدّون، قتل الإرهاب الأصولي أباه ذات ليل في إحدى حارات إدلب، كاف وحده لإعادتي إلى هذا الوطن الذي يرفض الموت! عدّون، بصباحه السكّري، يمسح إساءات كلّ ديكتاتوري العالم؛ أفلا يعقل أن يغسل الذاكرة من مشاهد الاستلاب في بانياس، خاصّة من أولئك الذين يحملون اسم علي؟

لا أستطيع سوى تقديم اعتذاري لكلّ العلويين "الشرفاء"، الذين يمكن أن يكونوا قرأوا المقالة؛ من عدّون الذي أفتقده أكثر في لحظات التعب؛ من لمى، ابنة عمتي العلويّة الأقرب إلى نفسي! تكسّر الاعتذار يشعرنا أننا نعود إلى دفء الآخر وحبّه، وقت يحاصرنا القيظ بالملل وأحاسيس التجافي.

****

البعثيّون أم الأصوليّون: من دمّر سوريّا؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 31 يوليو 2004

على شاطىء بحر بانياس، الذي يحتلّه تلوّث المصفاة القاتل، التي لا نعرف حتى الآن السر الكامن خلف بنائها في منطقة سكنيّة للغاية، وقصور عبد الحليم خدّام، نائب رئيس الجمهوريّة السوري، وعزّ الدين ناصر، رئيس ما يسمّى بالاتحاد العمّالي العام السوري، وعلي زيّود، أحد المحافظين السوريين السابقين، من الذين سارت بأخبارهم الركبان، كان ثمّة صياد سمك تجاوز الستين من العمر، يندب حظه التعيس، فباب الرزق مغلق بالكامل اليوم، وهو مضطر للذهاب إلى بلدة بانياس لشراء سمك لرئيس المخفر، الذي لن يصدّق، لو بلع له المصحف – كما قال – أنّه لم يصطد اليوم سمكة واحدة؛ ورئيس المخفر، المرتبط بسلسلة متصاعدة من الفاسدين، يفرض على الصيّاد الفقير إعطاءه نصف ما يصطاد، وإلاّ؟ فالرائد بحاجة إلى حصّة، والمقدّم بحاجة إلى حصّة، والعقيد بحاجة إلى حصّة..!

بانياس، البلدة السوريّة القابعة بين مدينتي طرطوس واللاذقيّة، اختصار مريع تبسيطي للانهيار الذي نعيشه في سوريّا، على كافّة الصعد: التلوّث الكارثي يقتل أهل المنطقة ببطء مدروس ويقضي على كافة إمكانيّات التنشيط السياحي، العمل الأفضل لمنطقة مذهّبة الجمال؛ الطائفيّة تقسم البلدة إلى جنوبي سنّي وشمالي علوي تلحق به بعض البيوت المسيحيّة، والتناقض بين الطرفين أقرب ما يكون إلى صدام الحضارات؛ في القسم السنّي تقبع قصور السيّد عبد الحليم خدّام الذي اشتهر بأنه من أكثر مهاجمي أمريكا السوريين عنفاً، حين كان أبناؤه – وسمعتهم في اللوج – يقومون بافتتاح أحد أشهر المطاعم الأمريكيّة في سوريا، والذي أغلق لاحقاً بفضيحة ولا حكايا مدام كلود؛ عبد الحليم خدّام، الذي زرت قبل سنوات بيت عائلته للتعزية في حادث وفاة وكان المنزل أكثر من بسيط، هو واحد من أغنى أغنياء الشرق الآن، وأولاده يبيضون مشاريعاً رابحة لا تبدأ بالمطاعم ولا تنتهي بالسلاح، دون حسيب ولا رقيب، لأنّ أيّ مواطن في سوريّا مطعون في شهادته وكفاءته العقليّة حين يمسّ بالنقد الحواريين، آل البيت، الذين لا يطالهم الباطل، بقوّة التبعّث، لا من فوق ولا من تحت؛ وفي القسم العلوي يصادفنا قصر علي زيّود، الذي كان واحداً من أشهر القياديين في سوريّا، والذي لم يبق أحد في منطقة ريف دمشق حصراً إلاّ ونالته أشياء من مآثره الكريمة؛ وقصر عزّ الدين ناصر ، الذي قيل لي من قبل البانياسيين، إنّه أُنجز في عام، في حين أنّ مشفى المدينة ما يزال يصرخ منذ عشرين عاماً طلباً للتحسين، والمسئولون لا همّ لهم غير ترويج الحكمة الصينيّة عن القرود الثلاثة: لا أسمع، لا أرى، لا أتكلّم!

فقر مدقع من جهة، وغنى هو الأفحش في المنطقة من جهة أخرى! طائفيّة تفتت سوريّا إلى شعوب وقبائل متناحرة! فساد هائل يبدأ من الشرطي فرئيس المخفر فمدير الناحية فمدير المنطقة..! تلوّث مخيف في البيئة والأنفس ومنظومات القوانين والشرائع! وإذا كانت القبضة الأمنيّة الحديديّة، التي تراخت الآن كثيراً بفعل عوامل الحت والتعرية من الداخل والخارج، الصمغ الموشك على التبخّر الذي يلضم حبات السبحة السوريّة في خيط أقرب إلى الاهتراء اليوم من أي وقت آخر، فإنّ الانهيار الذي نراه، كزرقاء اليمامة، قادماً بلا ريب، يشعر به ويخشاه كلّ مواطن سوري، لكن بعضهم ما يزال يؤمن بفضائل التأجيل: وتأجيل الموت لا يمنعه!

لم يعد في وسعنا، كنبوئيين يعجنهم صمت التشاؤم، غير أن نقرأ بسذاجة أطفال الفقراء أوراق النعوة السوداء، تحمل إلى أحزاننا أخبار موت وطن الحرف والأبجديّة، أخبار سقوط أعمدة تدمر واحتراق كنيسة حنانيا وسرقة ألواح إيبلا، أخبار تمزّق أجسادنا وتوزّع شظاياها بين شرق العالم وغربه!

ماذا فعلتم بنا؟ من رمانا بكلّ هذه السكاكين، المزيّنة بشعارات فارغة، وعلامات فارقة فارغة، ونقوش تتعب العين فارغة؟ من ذبحنا، في غفلة من الزمان والمكان، من الوريد إلى الوريد؟ من أقام هذا الجنّاز الصامت المتواصل للحظات فرحنا الهاربة؟ من اعتقل صيرورتنا وأوقف دهشة فرح أطفالنا في سجن صحراوي مجدب؟ من أصدر هذا القرار التاريخي بمنعنا عن الصراخ وأعيننا تقتلع وألسنتنا تقطع؟

البيضة أم الدجاجة؟ سؤال نعلكه على الدوام، منذ أكثر من ربع قرن! هل الأخوان المسلمون، الذين نشروا إرهابهم وأسسه المعرفيّة في كلّ بيت سنّي سوري منذ أن وجدوا، هم المسئولون عن قتل سوريّا، بكل طوائفها؟ هل البعثيّون، الذين أقفلوا كلّ الأبواق، باستثناء تلك التي تغنّي لهم، وقمعوا كلّ الأخيار أو هجّروهم أو قتلوهم، في ظلّ شعارات واهية كاذبة اخترعت أصلاً للحفاظ على المكاسب والدفاع عن الفساد، هم الذين جعلوا وطن آرام على شفا حفرة من النار لم ينقذه منها أحد؟ إذا سألت بعثيّاً عن سبب هذا الاستبداد، علّة كلّ العلل، الذي استشرى في سوريّا منذ عام 1963؛ فسوف يقول: الأصوليّون، والأخوان أولهم، هم السبب؛ فحين أراد هؤلاء التغيير بقوّة الإرهاب وفي ظل العلم الطائفي، لم يكن أمامنا، كبعثيين، سوى استخدام كلّ ما هو متاح للدفاع عن الوطن ووحدته وتماسكه، ومن ذلك الاستبداد! وإذا سألت أخوانياً عن مصدر هذه الرمال المتحرّكة، التي نسحب نحو أعماقها باستمرار، مغلقي الأعين، ضائعي الإرادة؛ فسوف يقول: الاستبداد البعثي! وإذا حاولت مناقشته بأنّ الأخوان هم الذين أعطوا البعثيين الذريعة كي يكونوا استبداديين من الطبقة الأولى؛ فسوف يجيبك بأن الظواهر الطائفيّة العلويّة السلبيّة، وأبرزها سرايا الدفاع لصاحبها رفعت الأسد، كانت السبب الذي ولد ردّات الفعل الطائفيّة السنيّة وغير السنيّة، وأوصل البلد بالتالي إلى هذه السويّة من الانهيار على كافة الأصعدة. لكن الواقع يقول، إنّ العقل التكفيري الأخواني، الذي لا يستوعب حتى الآن – كلّ ما يقوله الأخوان حاليّاً عن ثقافة قبول الآخر لا يعدو كونه أحد أشكال التقيّة السياسيّة ذات المرتكز الديني – وجود آخر مخالف في الرأي أو العقيدة، باستثناء على طريقة أهل الذمّة، هو الذي خلق في اللاوعي الجمعي العلوي هذا الشعور برغبة التوحّد طائفيّاً لمقاومة خطر الإزالة الدائم، خاصّة وأنّ ذواكر بعضهم غير المثقوبة ما تزال تحمل شيئاً من بعض ممارسات عثمانيّة بحقهم، تحت رايات التكفير الديني، لا تخلو من رائحة الإبادة الجماعيّة.

إنها الحلقة المفرغة التي أوصلت سوريّا إلى مستوى من الدوار لم تعرفه من قبل. جاء حزب البعث إلى السلطة، شاهراً سيف العداء للبورجوازيّة السوريّة الناشئة، التي حاولت مع تسلّمها حكم البلد من الفرنسيين، خلق جو ليبرالي ديمقراطي معقول، وفق فهم أولئك شبه البدئي لليبراليّة والديمقراطيّة؛ لكن الأهم هو أنّ حزب البعث، إضافة إلى تشخيصه للحقد البروليتاري عموماً على البورجوازيّة، فقد كان المنفس أيضاً لحقد الطوائف الصغيرة على السنّة، الذين أطبقوا على رقبة سوريّا منذ أيام معاوية وحتى عام 1963، باستثناءات تاريخيّة لا تكاد تذكر. وباستثناء مسيحيي المدن السوريّة، فقد كان أبناء الطوائف الصغيرة،الذين ركبوا موجة التبعّث لأهداف كثيرة، من سكّان الريف الذين يفتقدون عموماً للفهم البورجوازي لمعنى أن تكون حاكماً، فكانت النتيجة أن تمّ ترييف المدينة، بالمعنى السلبي للكلمة، عوضاً عن تحضير الريف. – وعلى رأس هؤلاء كان العلويّون.

العلويّون كما عرفتهم، وأدّعي أنّ ذلك لم يكن سطحيّاً، لهم من الميزات السلبيّة ما يجعل وصولهم إلى مطلق سلطة لا تنقصه المخاطر الكثيرة، رغم أن إيجابيّاتهم، التي توقفنا عند بعضها في مقالات لنا، ليست غير واضحة؛ ومن أبرز السلبيّات العلويّة ذات البعد الإرثي التقليدي، ما يلي:

1 . كباقي السوريين عموماً، ولأسباب لسنا بمعرض شرحها الآن، العلويّون طائفيّون، إلاّ من رحم ربّك، وطائفيّتهم التي ما تزال تؤذي مسامعنا تعرف أبرز تجلّياتها في إمساكهم القوي بمحاور الأجهزة الأمنيّة، التي هي الحاكم الفعلي للبلد؛ ومن بين خمسة شعب أمنيّة هي العسكري والدولة والسياسي والجوّي والجنائي، لا يمسك السنّة،

الغالبيّة، إلاّ برئاسة أمن الدولة، الذي يسيطر العلويّون على فرعه الهام، أي، الداخلي؛ أمّا بقيّة الطوائف، وأحدّد هنا المسيحيين، الذين يوازون العلويين كتعداد ديموغرافي ويتفوقون عليهم، بما لا يقارن، علميّاً وثقافيّاً، فمستبعدون بالكامل تقريباً عن المحاور الأمنيّة الهامّة. وطبعاً، لا يعقل أن تكون الصدفة المسئولة وحدها عن هذا الاحتلال العلوي لمراكز القرار الأمني!

2 . إضافة إلى الطائفيّة التي تكاد تكون هويّة سوريّة عامّة، جاء العلويّون معهم إلى الحكم بشيء كاد أن ينقرض من دنيا البورجوازيّة السوريّة اسمه العشائريّة المناطقيّة. ولمن لا يعلم، فالعلويّون مقسّمون عشائريّاً ليس دون حدّة، إضافة إلى انقسامهم المناطقي: علويّو جبلة ومحيطها مقدّمون على علويي طرطوس، الذين هم بدورهم مقدّمون على علويي حماة، المقدّمين على علويي حمص، أسفل السفح السلطوي العلوي!

3 . باستثناء الطبقة الاقطاعيّة العلويّة، كآل الكنج مثلاً، والتي كان اقترابها من السلطة شبه نادر، فالعلويّون يمتازون عموماً بنوع من القساوة الاستثنائيّة، التي فرضت عليهم نتيجة ظروف العزلة والقهر والبيئة، يصعب أن تجدها عند غيرهم من السوريين، باستثناء الأصوليين السنّة، الذين يؤدلجون قساوتهم بطريقة تبدو أية مقاربة عقلانيّة معها مسألة أقرب إلى العبث. وقد كان الشعب السوري الدافع الوحيد لضريبة التقاء حجري رحى القساوتين: العلويّة والأصوليّة السنيّة.

4 . وبسبب البنيان الأبوي–البطريركي العشائري للتركيبة العلويّة، فقد كان من الصعب أن تعرف المؤسّسات التي حاولوا توطيد أركانها أي شكل ديمقراطي، وكان الاستبداد بالتالي الفرز الطبيعي تماماً لبنيان كهذا. وإذا ما حاولنا الاستناد إلى بعض الوثائق النادرة التي صوّرت بخجل أسلوب التعامل المؤسّساتي السوري العلوي، مثل كتاب مصطفى طلاس الأخير، حول الأشهر الثلاثة التي هزّت سوريّا، فسوف نكتشف بقليل من الجهد أن الاستبداد هو المعيار في التعامل بين كل رئيس ومرؤوس، على كافة الصعد. وهذا الأمر يتعلّق، كما أشرنا باستمرار، بالطبيعة لا بعقيدة أو أيديولوجيا مكتسبة. الأسلوب الأبوي البطريركي هذا ذاته، هو الذي استبعد المرأة عن أي بنيان سياسي جدّي، فصارت دمشق بالتالي عاصمة التطرّف القبيسي الديني من جهة، ومدينة عشرات ألوف العاهرات، من جهة أخرى: والإثنان وجهان لعملة واحدة – تشييء الأنوثة.

5 . ولأن العلويين انتموا على الدوام عموماً إلى بيئة بسيطة معزولة عن الثقافة الحقّة، فقد افتقد النظام الذي وضعوا أسسه الفيلسوف المؤدلج، عالم النفس المؤثّر، وعالم الاجتماع المراقب للحركيّة البشريّة؛ واستبدل هؤلاء بشعراء فطريين، أو كتّاب أغنية بسيطة، أو قصصيّين بدائيين؛ بل إن فيروز، التي كانت يوماً الضمير السوري الذي لا يعرف التعب، استبدلت بنوع من الإصرار المملّ بظواهر ريفيّة من نمط فؤاد فقرو وعلي الديك.

6 . الأخطر من كل ما سبق هو أنّ العلويين، الذين عانوا على الدوام من سيف التكفير السنّي والطعن في الأسلمة، اختاروا المزاودة على الأصوليّة السنيّة في التأسلم، فدخل البلد كله في "رالي" أصولي جعل من حلب كابول بلاد الشام ومن دمشق أهم مسرح للتنافس العلني بين التيّارات الأصوليّة، في حين يسعى العالم كلّه إلى معالجة هذا النوع من الخلل الفكري، بما يمتلكه من أساليب.

هل ثمة أمل؟ سؤال يطرح نفسه بقوّة هائلة، في حين يحاول كلّ سوري البحث له عن فسحة حلم في الغد الذي قد لا يكون أفضل من اليوم. اعتقادنا المطلق أن الأبواب كلّها مسدودة، والأمل الوحيد الباقي لدينا كسوريين، لا في العير ولا في النفير، هو الهجرة إلى وطن يحترمنا كي نحترمه؛ إلى وطن نمتلك فيه ذواتنا كي نستطيع الدفاع عنها؛ إلى وطن لنا فيه بيت وأهل وصوت، لا بقعة من الأرض اختارتنا لتتاجر بنا وتشيئنا وترفع في وجهنا العصا الغليظة كلما أردنا التنفس بالطريقة غير التقليديّة.

الفساد الذي زحف إلى نفوس الجميع، بدءاً بشرطي المرور، يغلق الباب على أيّة لحظة أمل بنظافة يمكن أن تعيد إلى الوجه السوري شيئاً من براءته التي افتقدها بتصاعد تدريجي منذ إحدى وأربعين سنة. الاستبداد – وتوابعه – يجعل من المستحيل على السوري العادي أن يحلم بلقمة غير مغمّسة بدم الرذيلة، لأنه لا يستطيع "أن يعيش" إذا أصرّ على أن يكون شريفاً، فـ 97 بالمئة من دخل سوريّا يذهب إلى 3 بالمئة من شعبها، وإذا حاولت أن تسأل أو تطلب تفسيراً لذلك فهنالك ألوف التهم الجاهزة: بدءاً بقميص عثمان الإسرائيلي وانتهاء بثوب إيّاد علاّوي الأمريكي! الانتهازيّة– الوصوليّة التي تميّز جيل طلائع البعث وشبيبة الثورة والتي تجعل واحدهم على استعداد لفعل أي شيء في سبيل الانتماء إلى طبقة الثلاثة في المئة! الطائفيّة التي تأكل الأخضر واليابس، والتي تجعل من حياتنا، كمواطنين لا ننتمي لغير الوطن، ضرباً من الغباء الأعزل! الأصوليّة التي نمّاها العلويون كي يرفعوا عن أعناقهم نير التكفير، والتي تجبرنا، كليبراليين علمانيين، على مدّ أصابعنا إلى أعناقنا كلّ صباح كي نتلمس إذا ما كان قد بقي فيها شيء من نبض وحياة!

الأصوليّون والبعثيّون: وجهان لعملة واحدة اسمها الفساد والاستبداد. إنهم مثل الأعمى والمشلول: كلّ بحاجة للآخر إذا أراد أن يمشي. الأصوليّون والبعثيّون، كلّ يبرّر وجود الآخر ويقويّه: الأصوليّون بحاجة إلى الاستبداد البعثي، الذي يقمع الجميع عدا الأصوليين؛ والبعثيّون بحاجة إلى الأصوليين كي يبرّروا استبدادهم وبالتالي فسادهم ومنعهم كافة أشكال النقد أو الشفافية أو الديمقراطيّة. وما دام الطرفان يحتكران حق الحب والحياة والكلمة في الوطن الأقدم، لن يكون هنالك جواب على سؤال: أين نهاية النفق المظلم؟

****

كلّ هذا الحب!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 31 يوليو 2004

ذات مساء ربيعي، وكنت في بلدة جعيتا اللبنانيّة الحلوة أحضر قدّاس مشاركة للقديس الأحلى، الذي لن يرحل أبداً، أمبروسيوس حاج؛ وكان بين الحضور الصديقان الزوجان – وقتها – أندريه وغرازييلا. كان أندريه يفتعل حركات سخرية هدفها إفساد القدّاس الجميل، إلى درجة أنّ نوبات الضحك استطاعت التمكّن من أقدس واحد فينا، وأعني بذلك جوزف زيدان، شقيق صديقي اللدود، الشاعر والأديب الجميل، رينيه. أحسست بالإحراج، وكأني صاحب المكان أو الداعي إلى القدّاس. لذلك، هرعت بعد نهاية الصلاة أعتذر من الأباتي الصديق، عمّا فعله أندريه وغرازييلا؛ فأجابني الكائن القدسي: وماذا كانا يفعلان؟ استغربت أن لا يكون الأباتي قد أحس بكلّ تلك الحركات السخرويّة والضحكات العالية التي ملأت المكان، حتى وهو يتمتم بالكلام الجوهري! قال أمبروسيوس: أرجو أن لا تستغرب! فحين أكون مع الله، لا أشعر إلاّ بالأشياء الجميلة! وأمبروسيوس، الذي كان يفيض محبّة على لبنان كلّه، كان دائماً في قلب الله!

هذا الكلام أورده بمناسبة الكم غير المسبوق من الهجوم، على ما أكتب في "الناقد" وغيرها، من التيارات الأصوليّة، ومطالبة بعضهم لي بأن أردّ، خاصّة وأن قلمي لا تنقصه الحدّة ولا السخرويّة. لكن منذ أن كسّر القديس العلوي، عدّون، صدفات عزلتي التي تراكمت عبر قرون من الهروب والكارما، وأنا أعيش في قلب الله، كأمبروسيوس، أستاذي، تماماً: ولا أرى بالتالي من الآخرين غير الأشياء الجميلة.

لقد غرس القديس الماروني، أمبروسيوس، في عقلي أنّ الله هو أن تحبّ الآخر، مطلق آخر، بغض النظر عن موقفك منه أو موقفه منك؛ وجاء القديس العلوي، عدّون، ليسحب هذه القناعة نحو القلب والحواس والهواء المحيط. – ومن هذا الحب فاضت بعض كلمات، لا تخلو من الحق، بحق الأخوة المرشديين، فأغرقني المرشديون بالحب.

لم ألتق في حياتي بمرشديين، قبل كتابة مقالتي في الناقد، إلا مرّة واحدة في منطقة القرداحة السوريّة! وأوّل مرّة يثيرني الموضوع المرشدي، حين تفوّه الإرهابي أحمد منصور ببضع كلمات لا تليق بحق الطائفة. وأبلغت معارفي في الجزيرة بموقفي، وسعيت – وما زلت – للردّ "كما يجب" على هذه الافتراءات، ليس من منطلق طائفي أو قومي تعصّبي، بل من فهم عميق لحق الإنسان في الاعتقاد والتعبير عمّا يعتقد.

لقد كتبت كثيراً عن التيار الإسماعيلي حتى أشاع بعضهم أني ابن لإسماعيليّة؛ وفي كتبي وجدت أن المقاربة العلويّة للإسلام أقرب إلى المنطق من غيرها من المقاربات، حتى قال أحدهم: ماروني متشيّع؛ ودافعت عن الإثني عشريين وحقّهم في الاعتقاد والتبشير فيما يعتقدون، وكان الردّ بأني أوافق الإثني عشريين فيما كتبوا، لا فيما اعتقدوا. مع ذلك، وباستثناء الإثني عشريين الذين فتح بعضهم النار علي لأني رفضت منطق التمذهب، فأي من الأطراف التي دافعت عنها وعن حقّها في التعبير لم يكلّف نفسه عناء الشكر أو حتى النقد البنّاء: باستثناء المرشديين.

ما كتبته عن هؤلاء الناس الطيبين لم يتعد حدود الصلاة لأناس ظلموا كي يُرفع عنهم الظلم؛ لم أتبن موقفاً دينيّاً مرشديّاً، لأن معلوماتي عنهم، لاهوتيّاً، يلفّها الغموض الجارف؛ لم أدافع عن موقف سياسي لهم، لأني لا أعرف إن كانت لديهم مواقف سياسيّة أصلاً؛ لم أقارب طرائقهم في التعامل مع التاريخ أو الآخر، لأني ببساطة لا أعرفها. – مع ذلك، فالفيض الهائل من الحب الذي غمرني به المرشديون، بهواتفهم ورسائلهم وزياراتهم، لا يترك

في داخلي أدنى علامة استفهام بأن هؤلاء لا تنقصهم الحقيقة، وإن كنت، كما قلت دائماً، أفتقد ما يكفي من المعلومات حول اعتقاداتهم.

الله، في نهاية الأمر، هو الحب؛ الله، كما نفهمه، هو أن نحبّ الآخر، ونحارب من أجل حبّه؛ وحين ينسكب الحب بكل هذا الفيض من قلوب المرشديين، فهذا يعني أنهم يسكنون في قلب الله.

الله، في اعتقادنا، مثل جزيرة أحلام يسعى الجميع للوصول إليها؛ والأديان والعقائد والطوائف أقرب ما تكون إلى أنواع لا حصر لها من القوارب للوصول إلى الله. قد يختلف الأمر بين قارب وآخر: لكن الغاية تظلّ ذاتها. والوصول يتعلّق، أولاً وأخيراً، بإراداتنا الطيبة إليه. فحين لا نصل، فذلك يعني أننا لا نمتلك إرادة الوصول. والقارب المرشدي، الذي يسبح على بحر من الحب، قد يكون أولها وصولاً.

إنّ ما أكتبه عن المسلمين الأرثوذكس، سنّة وشيعة، من مقالات قد يبدو أنها لاذعة، وغير وديّة، لا يمثّل إلا العكس بالكامل! فأنا أعتقد أنه من الغبن أن تؤخذ طائفة أو دين بجريرة أشخاص ينقصهم الكمال في فهمهم لله. وأعود للتأكيد، أنّ رغبتنا في خروج السنّة والشيعة من دائرة الأصوليّة الخانقة، هي السبب الأوّل والأخير في تحمّلنا هذا الكم من المعاناة والتهديد والإرهاب بأنواعه؛ فرغبتنا جامحة في رؤيّة المسلمين الأرثوذكس وقد التحقوا عموماً بركب الحضارة العالمي، وانفتحوا على الآخر دون شروط، ورفعوا عالياً رايات حقوق الإنسان والحريّة والديمقراطيّة.

كالمرشديين تماماً، فإني ألمح بوادر حب بين بعض السنّة، مهما بدوا أقليّة، لا يمكنّها إلاّ أن تبشّر بالخير. وما هذا الجدل الذي يدور بين كثير من السنّة في سوريّا ولبنان، حول بعض ما يُكتب عنهم نقديّاً، إلاّ الدليل الأهم على الحركيّة التي بدأت تدبّ في الطائفة السنيّة التي راهنت حكوماتنا غير الرشيدة على موتها، وحاولت بكلّ السبل قتلها، أقله عبر فتح كلّ الأبواب أمام الأصوليين كي يتربعوا على قلوب الناس، وكأنه لم يبق في سوريّا غيرهم.

إنّ كلّ ما راهن عليه البعثيّون، بأجهزتهم القمعيّة وحزبهم الكاتم للصوت، قد أثبت فشله المثير للشفقة؛ وها هو الشعب السوري، كطائر الفينيق، كفينيقيا، يخرج من تحت الرماد، محلّقاً نحو فضاءات الحريّة والحياة. وكي يصل هذا الطائر العجائبي نحو اللانهاية، عليه التخلّص من ثقل الأصوليّة، بكافة أنواعها، والطائفيّة، بكافة أشكالها.

أخيراً، لا بدّ لي من شكر السيّد طارق الحجّار، الذي، للأسف، لا أعرف عنه شيئاً، والذي أرسل يسألني عن عدّون؛ وأشكر الأخ المرشدي الذي اتصل من اللاذقيّة، عارضاً خدماته الجميلة في سبيل وصولي إلى بحر أجمل! لا أملك ما أقوله سوى أن بلداً فيه كلّ هؤلاء الأحرار، لا يمكن تحويله إلى مدجنة!

****

لا نريد لأحد أن "يطورق"!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 26 يوليو 2004

في كتابه الهام، *Why I am not a muslim*، ثمّة فصل بارز للغاية يحمل عنوان، الهراطقة والهرطقة، يورد فيه الباحث ابن الورّاق، صاحب الكتاب، قائمة طويلة بأسماء من عُذّب أو قُتل في الإسلام لأسباب فكريّة؛ ومن هؤلاء نذكر: جعد بن درهم، ابن المقفّع، ابن أبي العوجاء، بشّار بن برد، صالح بن عبد القدّوس، حمّاد عجرد.. إلخ. وما من مثقّف ناطق بالعربيّة إلا ويتذكّر أسماء من قتلوا أو تعرّضوا للقتل أو عذّبوا أو اضطهدوا في عصرنا لأسباب دينيّة في المنطقة ذات الغالبيّة المسلمة؛ ومنهم، نذكر: حسين مروّة، مهدي عامل، فرج فودة، نزار الحلبي، نجيب محفوظ، مارسيل خليفة، تسليمة نسرين، سلمان رشدي، نوال السعداوي.. إلخ. وطبعاً، لن أقحم ذاتي في قائمة المضطهدين رغم اضطراري للإختفاء زمناً طويلاً بسبب كتابي *يوم انحدر الجمل من السقيفة*، حيث استدعيت باديء ذي بدء إلى الأمن الداخلي، فالعسكري، فالسياسي، بتحريض من أبرز المسيطرين على القرار الديني السنّي في دمشق، وأخصّ هنا بالذكر، محمّد سعيد رمضان البوطي ومحمود كفتارو. رغم أنّ أبسط ما كان باستطاعتهم القيام به، بدل إثارة القوى الأمنيّة القويّة المخيفة آنذاك، بتهم مختلقة. هذا يتنافى حتى مع أخلاقيّة عبدة الشيطان. مثل العمالة وإثارة الفتن، الردّ على ما ورد في كتبي من آراء، بالتوثيق ذاته الذي قدّمتها به. لكنّي كنت على ثقة مطلقة، أنه لن يكون باستطاعتهم ذلك لأن أعمالي تعتمد أمهات المصادر والمراجع التي يعتمدونها هم أنفسهم: وكان أمامهم بالتالي أحد حلّين. إمّا استخدام أسلحتهم الإرهابيّة التقليديّة أو إعادة النظر نقديّاً بتلك المصادر والمراجع التي اعتمدتها في أعمالي ومن ثم خلق حالة نقديّة كتابيّة وما بعد كتابيّة وصل إليها الغرب المتحضّر منذ أكثر من مئتي سنة. ولأنهم غير مؤهّلين فكريّاً ولا نفسيّاً للحل الثاني، اختاروا الحلّ الأوّل.

العام الماضي أعادوا النغمة ذاتها مع كتيبي الصغير، *مراثي اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى*، لكنّهم هذه المرّة دبّجوا منشوراً ضخماً كان زياد الأيوبي أبرز الموقعين عليه، وزّعوه في الشوارع وعلى الجهات الأمنيّة [!!]، احتوى من التهم بحقّي ما كان يمكن أن يوصلني، في دولة غير سوريّا، إلى السجن حتماً. ولن أذكر ما حدث لبعض أعمالي الأخرى من هجوم محاكم–تفتيشي، مثل *أم المؤمنين تأكل أولادها*، مع أنه كان أسهل عليهم الطعن في مراجعي ومصادري، التي لا أعتقد أنها كتب مقدّسة.

هل الإسلام ديانة قامت أساساً على الإرهاب بأصنافه؟ هل يكفي أن يكون المرء مسلماً حتى يكون إرهابيّاً، إن بالفعل أو بالكمون؟ هل السيف هو الذي يحمي الفكرة في الإسلام، فالفكرة فيه دون سيف غير قابلة للحياة وربما التواجد؟ لماذا لم تقم قيامة الكنيسة في الغرب على كتاب مايكل موركوك *Behold the man*، الذي صوّر فيه الكاتب، الذي أعرفه شخصيّاً، يسوع وأمّه وزوجها على أنهم ثلاثي عهر: معتوه يخدم زبائن المحل، قوّادة لا تمانع في بيع ذاتها إذا كان الزبون يطلب ذلك، وزوجها النجّار العجوز العصبي؛ في حين اشتعل العالم الإسلامي ضد سلمان رشدي وكتابه، الذي لم يخل من الوثائقيّة الدقيقة: وكانت النتيجة أن كتاب موركوك لم يسمع به أحد، بينما أضحى رشدي أحد أشهر شخصيّات العصر؟ مثل ذلك كان موقف العالم الأنغلوساكسوني من فيلم، حياة برايان، الذي لم يكن أكثر من محاكاة ساخرة بطريقة مريعة لحياة المسيح كما وردت في مرقس، حسبما أعتقد. – مع أننا لا ننكر الموقف الإرهابي في باريس حصراً، والذي لم يكن أكثر من حالة إفراديّة لم تتكرّر لا هيستريا جمعيّة كما حصل في العالم الإسلامي حيال سلمان رشدي، من فيلم الإغواء الأخير للمسيح.

هذا الكلام أورده هنا بعدما قرأت ما أرسله إلي الأستاذ أيمن عبد النور من مقالات هاجمت السيّد مأمون الطبّاع المحامي، بسبب مقالة له طالب فيها كلّنا شركاء بالتوقّف عن نشر مقالاتي؛ وإلاّ؟؟؟ السيّد مأمون الطبّاع المحامي هو النتاج الطبيعي لهذه البيئة الإرهابيّة، التي لا تفهم وجود الآخر إلا من نافذة "طورق"، ولا تستطيع "تصوّر" وجود رأي مخالف أو ناقد. مأمون الطبّاع المحامي السنّي الإرهابي، الذي لم نسمع منه غير صوت الصمت وقت جرّ أحد نظرائه طائفياً وقضائياً بمعرفة نظيره الآخر المسمّى وزير العدل درزيّاً من رقبته إلى سجن عدرة السوري لأنه أزعج الله بإفطاره في رمضان، هو النقيض المباشر لكلّ ما يحارب من أجله العالم "الحرّ" اليوم: أي حقوق الإنسان والديمقراطيّة والليبراليّة. . وهنا، لا بدّ من إيراد الملاحظات التالية:

1 . لم أعرف حتى وقت متأخر أن كلّنا شركاء تعيد نشر بعض مقالات كنت نشرتها في موقع "الناقد"، الصحيفة الالكترونيّة التي أكتب بها، والتي تصدر من الولايات المتحدة، حيث لا أحمد ضرغام ولا بوطي ولا طبّاع.

2 . لا أعرف شخصيّاً، ولا بالاسم، أياً من الذين هاجموا بعض ما ورد في تلك المقالات أو دافعوا عنه؛ وفي نهاية الأمر، أنا أكتب أوّلاً وأخيراً، عبر الناقد وصحيفة بيروت تايمز الأمريكيّتين، للسوريين واللبنانيين المقيمين في الغرب، أوّلاً لأنهم بسبب البيئة المحيطة صار من الصعب عليهم، وهم يواجهون الآخر الحضاري، إلاّ أن يخجلوا من تقبّل وجود محام من نمط الطبّاع أو رجل دين من نمط البوطي أو مسئول من نمط ضرغام؛ وثانياً، لأنّ سوريّا، كما أعرفها ليس دون عمق، صارت وطن الأمراض العضال، التي لا أمل منها؛ سوريّا الفاسدة من شرطي المرور حتى القضاء والمحامين، سوريّا الذمم المباعة على الأرصفة من الكتّاب والصحفيين إلى أولاد المسئولين، سوريّا الراكضة بأفضال طبقة الكهنوت الفاسدة نحو حائط الإرهاب والاستبداد المسدود: هي الوطن الأخير الذي يمكن أن نأمل بتغيّره، خاصة مع افتقادها لأبسط وأوّل مقومات التغيير: الرغبة به!

3 . إنّ كلّ ما تمّ في كلّنا شركاء، بما في ذلك التفوّهات التي لا تليق بأولاد الشوارع، الصادرة عن أحد الذين أدمنوا خنوع "طورق"، والذين نحارب وسنحارب من أجل إشفائهم من فيروس خنوعهم المتوارث منذ أيام أحكام أهل الذمّة، لم يحظ قط بموافقتي ولا حتى بأذني، وهو ما يفترض في منبر يريد أن يكون محترماً. وإذا كنت لم أقاض المنبر ولا القائمين عليه، خاصّة بعد اعتذاره "الخانع" من أحد الإرهابيين الإسلاميين الذين يحملون لقب محام عن نشر ما لم أطلب منه نشره، فذلك فقط لأني عشت طويلاً في بيئة "أهل الذمّة" السوريّة، وأعرف ماهيّة هواجسهم وخوفهم غير المبرّر من ابن تيميّة جديد واقف دائماً خلف الباب أو أحكام عمريّة جديدة تعيد الجميع إلى نقطة الصفر.

لقد قلت ذات مرّة في مقالة لي، تعقيباً على الحركة القبيسيّة التكفيريّة التي تنتشر كالنار في الهشيم بين نساء السنّة السوريّات، بمعرفة ومباركة بعض كبار المسئولين [أليست أخت المجاهد أحمد جبريل إحدى أبرز عناصر التنظيم؟]، معيدة إياهن إلى عصور الجاهليّة الأولى: ليس صعباً أن تقنع رجلاً يعتقد أنّ المرأة بقرة أن المرأة ليست كذلك؛ لكن من المستحيل إقناع إمرأة تعتقد أنها بقرة أنها ليست كذلك. وهنا لا أستطيع سوى القول: ليس صعباً إقناع أحد غير "المطورقين" أن ليس من حقّه "طورقة" الناس، لكن من المستحيل إقناع من استمرأ "الطورقة"، بكافّة أصنافها، حتى صارت جزءاً من تقليده، أن ليس لأحد الحق في طورقته.

مع ذلك، كشخص من بيئة مارست الإرهاب بكافة أصنافه على كلّ من عاداها الرأي، سنظلّ نحارب كي لا يبقى مطورقاً، ليس في سوريّا فحسب، بل في العالم كلّه.

طورق: لفظ كان يستخدمه السنّة السوريّون إذا وجدوا غير سنّي يمشي وسط الطريق، بعد صفعه على قفا رقبته.

نبيل فيّاض؛ الناصريّة؛ 7238726؛ 092845824

من يأكل العصي..!!!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 5 يوليو 2004

أحسد للغاية الكتّاب والباحثين السوريّين المقيمين خارج الوطن، لأنهم يستطيعون الكتابة والنشر والعيش والحب كما يشاؤون، لا كما تشاء المراجع العليا، التي نجد أنفسنا، كباحثين نعيش داخل الوطن، ولسنا أعضاء في أي من منظمات الدولة الرسميّة سيئة السمعة، مضطرين لمسايرتها في بعض أشياء، وإلاّ!!!

لا يعرف كثيرون كم يعاني السوري، باحثاً كان أم فرداً عاديّاً، في صراعه ضد الاستبداد البعثي والفساد المؤسّساتي المستشري بطريقة لم تعرفها سوريا من قبل. وفي موقع إلكتروني خاص بي في الولايات المتحدة – لا نستطيع الكتابة في سوريّا، حتى وإن كان ذلك في امتداح دولتنا الكريمة – نشرت مقالة بعنوان: "عفواً حزب البعث، سوريّا ليست عربيّة"؛ وكنت أقصد بذلك أنّ التعددية في الوطن السوري واسعة إلى درجة أنّ تقنينها القسري على الطريقة البعثيّة الشوفينيّة هو أكثر من اعتداء على الواقع والمنطق والإنسان. هل يعقل أن يجيب الأرمني السوري، أو الكردي السوري، أو التركماني السوري، أو السرياني السوري، أو الشركسي السوري، أو الداغستاني السوري، أو الآشوري السوري، حين يُسأل عن جنسيّته، بأنه "عربي" سوري! عربي سوري لا يعرف من لغة سيباويه – المضحك المبكي هنا هو أنّ سيباويه هذا ليس عربيّاً – حرفاً واحداً! وكان الحلّ برأينا الاكتفاء بالتعريف "سوري" دون الوقوف عند العروبة الشائكة، وإن تعارض ذلك بالكامل مع الأبجديّة الأساسيّة منتهية الصلاحيّة لحزب البعث العربي الاشتراكي! وتفاجأت بعد نشر المقالة المزعجة لبعضهم بتدافع مندوبي الأفرع الأمنيّة على مكان عملي، وكأنه سوبر ماركت مجّاني، وكأن كلّ رئيس فرع يريد أن يثبت للآخرين أنّه أحرز قصب السبق في إقفال فمّ أحد المتمرّدين المتأمركين القلّة في وطن التقدّم والاشتراكيّة. ولمّا ثارت زوبعة كانوا بغنى عنها، سكتوا على مضض: لكنّ هذا لا يعني أنّ سيف الأمن توقّف للحظة عن التهديد بالتسلّط على رقابنا والإطاحة بها إذا أحسّ أنّنا تجاوزنا المسموح كثيراً. بكلمات أخرى، إنّ لقمة الحريّة التي لا تشبع أحداً إنّما تؤخذ عنوة من أفواه الذئاب، لا تقدّم لنا على طبق من ألماس!

يعرف كثير من المتابعين للشأن الثقافي، خاصّة في بيروت، أني كنت من أوائل الذين كتبوا عن الشعب الكردي، معرفيّاً–ديموغرافيّاً– ثقافيّاً، باللغتين العربيّة والانكليزية؛ بل إن ما كتبته عن الطوائف الدينيّة الصغيرة ذات الغالبيّة الكرديّة، بموضوعيّة أزعجت كثيرين، عرف من الرواج والانتشار الشعبيين ما لم تعرفه كتابات كثيرة أخرى في الموضوع ذاته. وهنا أتحدّث تحديداً عمّا كتبته في جريدة "الديار" اللبنانيّة عن الطائفة اليزيديّة، التي حاولت توثيق تراثها الشفوي فلميّاً وكتابيّاً. وهو ما أدّى ببعض القائمين على مركز لالش لزيارتي في مسكني الدمشقي، كان من بينهم عضو البرلمان الكردستاني آنذاك، الصديق عيدو بابا شيخ؛ وبعد طرد النظام الصدّامي الفاشي من الكويت والتأسيس لمنطقة الحكم الذاتي في شمال العراق، كنت من أوائل الذين زاروا المناطق الكرديّة لكتابة سلسلة مقالات موجودة كلّها مطبوعة عن الجانب المعرفي عند الأكراد. ولا أعتقد أن الطوائف الصغيرة، القابعة على هامش الإسلام الأرثوذكسي، مثل العلي–إلهيّة والفيليّة والإبراهيميّة والكاكائيّة والعلويّة في تركيّا، كانت خارج الديموغرافيا الكرديّة. إذن، نحن في عملنا البحثي، كنّا وما نزال الأبعد عن كافة أشكال التعصّب القومي أو الديني–الطائفي. هذا يؤكّده نقدنا الأكثر تواصليّة للتعصّب الطائفي السنّي، ونحن ننتمي عائليّاً إلى الطائفة السنيّة–الشافعيّة؛ ونقدنا الأقسى للفكر القومي العربي، ممثّلاً بالناصريّة أو البعثيّة، ونحن ننتمي إرثيّاً إلى قبيلة شمّر العربيّة، التي لا توجد أدنى علامة استفهام حول عروبتها.

إذن، إنّ نقدي لبعض الأكراد، من المتعصّبين قوميّاً أو دينيّاً، لا يخرج عن إطار نقدي للتعصّب عموماً، الذي ما يزال القاسم المشترك بين كلّ شعوب الشرق الأوسط. لكن الحقيقة أن موقفي من طغمة الأصوليين الأكراد التي تقبع على قلوب السنّة السوريين، والذين عمل بعض ضباط المخابرات من العلويين على تعويمهم بذكاء لا يحسدون عليه [على أساس أقليّة علوية دينيّة مع أقليّة كرديّة إثنيّة]، حاد للغاية؛ ليس لأنهم أكراد، بل لأنهم مجموعة من الفاسدين والمتعصبيّن الرجعيين الصغار، الذين لم يصدّقوا أن تعطيهم دولتنا المغرقة في ذكائها الفرصة للظهور، كي يقودوا باسم الدين والطائفة كلّ سنة سوريّا إلى الهاوية. وأعود فأكرّر، رغم أنّي أرفض أخلاقيّاً أي شكل للتعصب القومي، فإني أرفض بالمقابل أن تستغل طغمة الأكراد تلك الطائفيّة للبحث لها عن مكان على القمّة.

أنا لا أحقد على البوطي ولا على غيره من رموز الأصولية السوريّة الكرديّة؛ لكنّي أقرف من الانتهازيّة والوصوليّة وهاجسيّة التسلّق التي قد تتناقض أحياناً مع كلّ ما يطرحه الشخص ذاته من آراء من قبل. وإنّ من يتابع ما يكتبه هذا الشخص على مدى تاريخه الكتابي، يلاحظ دون لبس أنّ الرغبة بالسلطوية هي هاجسه الأكبر. فعام 1963 كتب البوطي في مقالة لما يدعى لجنة مسجد دمشق كلاماً عمّا أسماه الأحزاب التي تدّعي القوميّة، والتي هي في رأيه صنيعة الاستعمار، هدفها الأوّل والأخير كان إسقاط الخلافة العثمانيّة: وكأن الماخور التركي السيء السمعة ذاك يمكن أن نطلق عليه الاسم "خلافة"؟! وفي كتابه الذي أشرنا إليه من قبل، العقيدة الإسلاميّة والفكر المعاصر، هجوم لا مثيل له على الشيعة، ضمن طوائف أخرى ينالها البوطي برماح تكفيره، والعلويّون، كما يدّعون هم أنفسهم، جزء من الشيعة! مع ذلك، نجده فجأة يستدير مئة وثمانين درجة، على يد أحد الضباط العلويين السابقين في الفرع الداخلي، ليصبح من أكثر المسبحين بحمد النظام، وقت لم يكن باستطاعة السوري فتح فمه عند غير طبيب الأسنان! لقد لعب البوطي بتحالفه غير المعلن مع الأجهزة والبعثيين دوراً هائلاً في إعاقة مسيرة الليبراليّة السوريّة، حين كان يسوّق القمع، من باب الطائفيّة، على كافة الأصعدة! وشخصيّاً أمتلك الدليل الأوضح حول موقف هذا الرجل من الحريّات من ناحية، وتحالفه مع المنظومة القمعيّة آنذاك من ناحية أخرى، حين راح يتنقّل من فرع إلى فرع، مروّجاً لمنع كتبي تحت رايات أسطورة العمالة لجهات غربيّة، الأمر الذي استدعى اختفائي عند بعض الأصدقاء خشية الاعتقال ردحاً طويلاً من الزمن، وبالمقابل كان يُستشار بشأن ما أنوي طباعته من أعمال من قبل القائمين على الرقابة في الإعلام، بطريقة لا تخلو من التزلّف؛ وأخصّ هنا بالذكر المدعو محمّد حذيفة، المسئول السابق في جهاز الرقابة [على الضمائر] في سوريّا. ورغم تصريح المدعو بشير نجّار – رئيس سابق للمخابرات العامّة – لي بأن المشايخ من أمثال البوطي في جيبه الصغير، فاعتقادي راسخ بأنّ البوطي يشغّل كثيرين على أعلى المستويات بريموت كونترول يمسكه بيده اليسرى، وفي اليد اليمنى أرسان الرعاع الذين يسوقهم إلى هاوية الاستبداد الأصولي.

أمّا مفتينا فقصته قصّة؛ وقد ذكر لي رئيس وزراء سوري أسبق صديق، من الذين أشرنا إليهم سابقاً في إحدى مقالاتنا، وفهم من الكلام أنه أحد أصحاب الملايين، وهذا الفهم مناقض تماماً للواقع، أنّ هذا المفتي كان ذات يوم يقوم بتهريب مدافيء من لبنان إلى سوريّا؛ وأنّ رئيس الوزراء استدعاه وقال له أنّه لولا اللفّة التي على رأسك لوضعتك في السجن. شخص من هذه النوعيّة على استعداد لعمل أي شيء في سبيل المال؛ وما انصياعه الفوري لرغبة بعض الضباط العلويين بالتحالف الذي أشرنا إليه من قبل، وقبضه مقابل ذلك مملكة أكل فسادها برائحته الأخضر واليابس، بدءاً بصراع الأخوة كرامازوف على الكعكة، وانتهاء بفضيحة صن ميونغ مون، التي لو كان مفتينا في أي بلد آخر لكانت كافية أن توصله إلى مكان لا يرغب به كثيراً، إلاّ الدليل الأوضح على ما أشير إليه على الدوام. على أية حال، المفتي الآن ربما يكون تجاوز المئة؛ وبعده، أفضّل للدولة السوريّة أن

تنتهي من هذه الوظيفة، أقلّه لأنها تشعر بقيّة السوريين بنوع من الغبن: يمكن الاحتفاظ بها، شريطة أن لا تكون منصباً رسميّاً. هذا هو المفتي الذي كان ابنه المارق، محمود [يحمل دكتوراه لكنه لا يحمل الشهادة الثانويّة]، يقفز كالكنغر من الأمن الداخلي إلى الأمن السياسي، شاكياً لهم هذا الماروني المتشيّع [يقصدني طبعاً]، الذي أُرسل لنسف الأمن القومي السوري. وتخيّلوا معنا هذا الأمن القومي الراسخ الذي يصدّق من مدّعي دين نصف مشبوه أنّ شخصاً بمفرده يمكن أن يزلزل قواعده.

زياد الأيوبي، وهو أيضاً دكتور في بلد حيث التنافس بين ضباط المخابرات والفنانين ورجال الدين والسياسيين على شهادات الدكتوراه أكثر من بسطات سوق الهال، أصولي كردي ممن يعزفون في أوركسترا الاستبداد الطائفي الرجعي، وإن كان صوته أضعف، لكن ليس أقل نشازاً، من أصوات أعضاء الطغمة المذكورة آنفاً. هذا الرجل، الذي تناولته في أحد أعمالي مرّة حين تحدّث عن شعبه العربي [!!!] وأمته الإسلاميّة، حاول مدّ جسور معي حين دعاني إلى بيته مع مجموعة من أصدقائي الأقرب: شيخ إثناعشري لبناني وباحث سنّي إشكالي سوري وأحد دعاة المذهب الأحمدي؛ واعتقدت وقتها للأسف أن الرجل ليبرالي فعلاً وأنه على استعداد لسماع النقد، كيفما كان. لكنه فاجأني العام الماضي بمنشور دبّجه مع مجموعة من أدعياء الدين، ضدّ كتابي المزعج، مراثي اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى؛ وأرسل منه، أي المنشور، نسخة إلى الأمن السياسي ونسخة إلى أمن الدولة، وفق حدود علمي. وكانت التهم فيه لا تبدأ بالحض على الوثنيّة ولا تنتهي بالدعوة إلى الإباحيّة الجنسيّة المطلقة: ولا بأس طبعاً برش بعض البهار من العمالة لإسرائيل – أحسد زياد الأيوبي على اكتشافه شيئاً فشل أمننا، الذي يتابع تنفسي ويمنع الأصدقاء عن زيارتي، كما حصل مع باحث تاريخي معروف مؤخراً، في الوصول إليه – والولايات المتحدة وربما قريباً الكويت!

إذن، كما هو ملاحظ، فجوقة الفرح كلها كرديّة أصوليّة! ولا يوجد أدنى سبب يحول بيني وبين قناعتي أنّ محاولتي في أن أخرّب على هؤلاء مشروعهم الأصولي الذي لا يخلو من نفس شوفيني سوف تواجه بعمل قد يبدو متشظّياً لكنه في واقع الأمر أكثر من منظّم. وتلطّي الجوقة خلف الدين في هذا الهجوم المنظّم لا يعني بالنسبة لي على الأقل غير أنّ هؤلاء يعملون دون راحة للوصول إلى عربة القطار الأولى لسوق الوطن حيث يشاؤون.

مع ذلك، فإن مواقف هذه الطغمة من القضيّة الكرديّة العادلة تعني أنهم لا يهتمون إلاّ بمشاريعهم الخاصّة، التي لا أحد يعرف أين بدأت ولا كيف ستنتهي. وإذا كنّا رفضنا على رؤوس الأشهاد التعاطف السوري الشعبي أو الرسمي مع نظام القاتل صدّام حسين، فنحن نرفض أيضاً التخريب غير العادي الذي قام به بعض الأكراد لبنى تحتيّة في مدن سوريّة. وإذا كنّا استنكرنا على البوطي وكفتارو وبقيّة الأوركسترا الطائفيّة سكوتهم على حوادث التخريب تلك، فإننا نستنكر بالمقابل سكوتهم المريب على انتهاك حقوق الأكراد، التي أبسطها منحهم جنسيّة الوطن الأبدي الذي لا بديل عندهم له، وقد كان باستطاعة جوقة الفرح تلك، بدل أن تمضي وقتها في تكفير محمّد حبش أو تخوين محمّد شحرور أو شتم أدونيس، أن تتبنّى قضية الشعب الكردي العادلة، ليس من باب الانتماء القومي الذي ربما يستحقرونه تكتيكيّاً على الأقل، بل من منطلق الدفاع عن كرامة الإنسان، التي طالما تشدّقوا بها.

رغم زياراتي للغرب، فأنا لم أفكّر يوماً بالإقامة فيه، لأني أشعر أنّ لدي ما أدافع عنه في وطني؛ ودعوتي الأخيرة إلى إحدى جامعات يوتا في الولايات المتحدة، والتي تحمل على التفكير باللاعودة، أقلّه لأن التيّار الأصولي الذي تغذّيه الدولة، بوعي أو دون وعي، لا يمكن أن يترك أمام واحدنا أية فسحة أمل، لا تعني بالضرورة حجز

تذكرة ذهاب فحسب؛ رغم أنّ العمر والصحّة لم يعودا يتحمّلان مزيداً من الاستدعاءات إلى الأفرع الأمنيّة، التي يعمل بعضها بالتنسيق مع هذا القاعدي أو ذاك الأصولي.

أخيراً، بالنسبة لكلامي عن الرئيس السوري بشّار الأسد، الذي ترفعه لي المعارضة السوريّة سيف ديموقليس وكأني أثمت بحق الروح القدس؛ أقول:

1. إنّ أي متابع حيادي للشأن السوري ليس بحاجة إلى بذل كثير من الجهد العقلي كي يكتشف حجم التغيير غير العادي في جو الحريّات السوري؛ وحتى نكون أكثر إنصافاً، فإنّ التغيير السياسي الأساسي الأهم في البلد هو ذلك الذي حصل في رأس الهرم، أي أنّ وجود هذا الرئيس الشاب هو السبب الأوّل والأخير في كلّ ما حصل في السنوات الأخيرة. من كان في سوريّا يجرؤ قبل الآن على الإشارة إلى رموز الفساد بالاسم، دون خوف من جهاز أمني موتور أو ضابط مخابرات ليس بعيداً كثيراً عن لعبة الفساد إياها؟ من كان يجرؤ قبل الآن على الحديث عن وزير أو وزيرة من الحكومة السوريّة، أو حتى رئيس الوزراء، الذي تناولته أكثر من مرّة دون خوف؟ من كان يجرؤ قبل الآن على الحديث عن عبد الحليم خدّام وأولاده ومصطفى طلاس وأولاده والجبهة الوطنيّة "التقدّميّة" التي هي ليست أكثر من مؤسّسة تبعث على الشفقة والقرف في آن، وتضم مجموعة كائنات لا تمثّل غير ذواتها، لا همّ لأحدهم أو إحداهن غير إيصال زوجته إلى إحدى الوزارات أو ابنها إلى مجلس "الشعب"؟ من كان قبل اليوم يجرؤ على الاقتراب من المنظمّة الهلاميّة الانتهازيّة فاقدة الصلاحيّة، المسمّاة حزب البعث العربي الاشتراكي، بل ويطالب بإنهاء دورها السياسي، كما نصيح ليل نهار؟
2. إنّ كلّ ما نقوله أو نكتبه لا يخرج برأينا عن خطاب القسم الشهير، الذي أدلى به الرئيس وقت إدلائه بالقسم؛ بل إنّ بعض أقوال الرئيس في اللقاءات الصحفيّة التي تمّت معه تتجاوز أحياناً في نقدها الكثير مما نطرح أو نقول. الفرق بين رؤيتنا السياسيّة الخاصة وبين رؤية الرئيس هو السرعة: فنحن، كباحثين "حلميين" نتشوّق إلى ليلة نصحو فيها لنجد سوريّا وقد نظفت من السياسيين اللصوص والحزبيين الانتهازيين ورجال الدين المنافقين وضباط الأمن الذين ما يزالون مسكونين بسراب القمع الذي ولّى؛ في حين أن الرئيس، باعتقادنا، يفضّل التغيير المدروس غير المتسرّع.
3. في سوريّا يوجد مثل شعبي؛ يقول: من يأكل العصي، ليس مثل الذي يعدّها. والمثقفون السوريّون في الخارج، الذين يريدون منّا، كمقاتلين في الداخل، لثأر شخصي ربما، أن نستعدي الجميع: من رأس الهرم إلى أبسط قواعده. – كي يقال إنّنا معارضة! لكنّنا، من ناحية، نرفض التعامل غير الموضوعي مع الأشياء، وما نراه في سوريّا هذه الأيام يبشّر ربما بالخير، ومن ناحية أخرى، رغم كلّ شيء، لا نحقد على أحد وليست لدينا ثارات شخصيّة مع أحد.

إن المطلوب الآن، خاصّة من المعارضة السوريّة على اختلاف أطيافها، التوحّد في المعركة ضدّ الفساد ورموزه، التي نعتقد أنّ الرئيس هو الذي يدير دفتها. وكوننا غير بعيدين عن كثير من أصحاب القرار في البلد، نعتقد أنّنا نفهم في الشأن السوري أفضل كثيراً من ذاك السوري القابع في باريس أو واشنطن أو بروكسل.

نحن نشعر براحة نسبيّة هذه الأيام؟ قطعاً! والأخبار المتواترة عن إبعاد الأوراق المحروقة شعبيّاً، التي زكمت رائحة فساد أولادهم، الذين أشبعوا الشعب السوري لحم بقر مجنون وزيوت فاسدة ونفايات نوويّة، كلّ الأنوف، تدفعنا أكثر باتجاه التفاؤل. ومن يعش ير.

نبيل فيّاض

البوذيّة: محاولة للفهم (الجزء الأوّل)

www.annaqed.com

ترجمة نبيل فياض 2004

مقدمة المترجم

مما لا شكّ فيه أن القطيعة المعرفيّة في الدول الناطقة بالعربيّة صارت جزءاً من الطقس اليومي الذي يعيشه مواطنوها. وإضافة الى الوضع المادّي المزري الذي يعيشه الناس هنا، والمعرفة أضحت اليوم عملاً ليس بعيداً عن الكماليّات، فتقاليدنا " الأغرب " تشكّل حاجزاً معرفيّاً، ليس بيننا وبين الآخر البعيد في اليابان أو تايلند مثلاً، بل بين أبناء الوطن الواحد، حين تختلف توجهاتهم واعتقاداتهم. ولو سألنا مسلماً دمشقيّاً مثلاً عن مدى تعمّقه معرفيّاً بتراث جاره المسيحي أو اليهودي، لما خرجت إجابته عن مقولات شعبيّة، مغلوطة الأسس، مستقاة من تراث شفوي متشظ، لا يفيد إلاّ في ترسيخ صورة القطيعة المعرفيّة التي أضحت، كما قلنا، إحدى علاماتنا الفارقة؛ ليس هذا فقط، ففي لقاء لي نادر مع محمد سعيد البوطي، أستاذ الفكر المعاصر – ضمن أشياء أخرى – في كليّة شريعة دمشق، اكتشفت ضحالته المعرفيّة في ثقافة الآخر عندما استغرب من كلامي عن وجود جماعتين إسماعيلتين في سوريّا: أي، القاسميّون والمؤمنيّون.

ليست البوذيّة بالديانة السهل البلع" على مواطن الأديان الثلاث "السماويّة"؛ ولولا تعلّقي – ربما اعتناقي غير المعلن – بها غير الحديث العهد، وتعودي على علم مصطلحاتها، لما كنت أفضل كثيراً من البوطي في تعاملي مع هذه الديانة الرائعة. وكما ذكرت أكثر من مرّة، فالبوذيّة التي عرفتها كانت أقرب إلى الزن منها إلى البوذيّة بشكلها التقليدي: وسبب ذلك أن اليابانيين كانوا أوّل من لقّنني الدروس في هذه البنى الفكريّة. ولا أنكر أن تعلّقي بها، في البداية، كان مردّه العمق الأخلاقي غير العادي عند من تعاطيت معهم، على مدى طويل، من اليابانيين؛ وأخصّ هنا بالذكر، صديقي المثقف، ماساكي واتانابي. على أيّة حال، ورغم تركي للبوذية، روحيّاً، إلاّ أن آثارها الأعمق في داخلي، خاصّة مفهوم المعاناة – أقول هذا تحديداً لصديقي الأقرب الذي يستغرب، كابن لحضارة إسلاميّة، كلّ هذا العنف في المعاناة – الذي لا أستطيع الوصول إلى حالة تطهّر داخليّة دونه، ما تزال واضحة للعيان؛ كذلك، من الأهميّة بمكان الإشارة إلى واحدة من أحلى مقولات البوذيين: السلام الداخلي، الذي نشعر عبره أننا في قلب الله.

النص التالي لا يعدو كونه ترجمة لكتيّب ألماني اسمه "تعاليم بوذا"؛ ارتأيت، لسهولته وعمقه في آن، ترجمته للعربيّة لإعطاء هذا الفكر الجميل شيئاً من حقّه الطبيعي. مع الأمل أن تكون هذه الدراسة المبسّطة فاتحة خير في نقل درر الشرق الأقصى إلى لغاتنا الخاصّة. وبما أن النص غير قصير، ارتأينا أن نجعله في جزئين.

ملاحظة: الكلمات بين قوسين غير مستديرين [ ] من عندي.

أخيراً، ففي اعتقادي أن الكاتب من أتباع بوذية الهينايانا، لموقفه غير الإيجابي من بوذيّة الماهايانا.

تعاليم بوذا

DIE LEHRE BUDDHAS

Günter Langer

<u>مقدّمة للطبعة الثانية:</u>

كان من الضروري بعد الاهتمام الواسع الذي عرفه هذا الكتيّب الصغير تقديم طبعة ثانية منه، تُعزّز بفصل يتضمّن مصطلحات بوذيّة مختارة، والتي تؤطّر صورة تعاليم بوذا. ونحن نأمل أن تساعد في تحفيز الفهم والإحساس بهذه الديانة العالميّة العظيمة، كما نصوّرها هنا بهذه الطريقة المضغوطة والمبسّطة الى الحدّ الأقصى.

غونتر لانغر.

مقدّمة للطبعة الأولى:

الكتب الموجودة في المكتبات، البرامج التي تقدّمها الكليّات المسائية للبالغين، التقارير المصوّرة في الأسبوعيّات والمجلاّت، كل ذلك يعكس اهتمام أولئك الذين يعيشون في العالم الغربي، بالبوذيّة. وقد كان للزيادة الثابتة في السياحة إلى الشرق الأقصى أثرها أيضاً.

يمكن للمرء الافتراض أن عدداً معقولاً من الناس في بلدنا [ألمانيا] يمتلكون فكرة لا بأس بها عن عادة التأمل المتبعة في الشرق أو أن لديهم فكرة ما عن الأخلاق العالية للديانة البوذيّة. إنهم يُفتتون بالنشوى التي يصادفونها وتحتكرهم جاذبيّة عالم غريب، مختلف. وحين يسافر المرء إلى دولة في الشرق الأدنى للمرّة الأولى، لا يستطيع أن ينسى أبداً الانطباعات الرائعة التي تخلقها الشيديز [أو الباغودات؛ وهي معابد متعددة الأدوار] الذهبيّة المتلألئة، الرائحة الطيّبة للسويتستيكز [قصبة مغطّاة بمعجون مصنوع من غبار خشب طيب الرائحة أو أسطوانة تصنع بكاملها من المعجون إياه؛ وهي تدفن من قبل الصينيين أمام أحد التماثيل التي تعبد] والصور المألوفة للرهبان بأثوابهم زعفرانيّة اللون يمشون مواكباً عبر الشوارع.

ما هي السمات البارزة – ببضع كلمات محكمة – لتعاليم بوذا؟ ما الذي تشبهه الديانة الفعليّة في أعرافها؟ وإذا ما تكلّمنا باختصار: ما هي المعرفة الأساسيّة التي يجب على المرء امتلاكها إذا ما أراد السفر عبر العالم البوذي؟ يستطيع المرء القول بحسم ودون مبالغة إن الدين هو الداعم الرئيس للمجتمع في أقطار عديدة حتى في أيامنا هذه.

الدكتور غونتر لانغر، القنصل العام الفخري لمملكة تايلند في فرانكفورت، كتب هذا المنشور، بعنوان "محاولة لصنع الخطوط الأساسيّة المفهومة للجميع بسهولة"، وملأ بطريقة مفيدة فجوة كانت قائمة. لقد تدبّر أمره في تقديم صورة "لديانة المستنير [بوذا]" بطريقة واضحة ووافية بالغرض. المحتويات توحي بأن المسافر يمكنه قراءة النص أثناء سفره إلى الشرق الأقصى. النص يبعث على السرور أيضاً في قراءته، ليس فقط لأن كاتبه شخص مثقف، بل لأنه يتحدّث أيضاً من القلب مباشرة ويدعوك لتماس مبهج مع شعب العالم البوذي.

فولف ميتس.

مدخل:

لقد أدّى النمو الثابت للسياحة وزيادة تماس العمل وفعاليّات الأعمال إلى تقليص المسافات، فازداد قرب أجزاء العالم المختلفة من بعضها بعضاً. الناس والثقافات يلتقون الواحد بالآخر ومن ثم فالفهم التبادلي صار ضرورة مطلقة. إذا كان المرء مقيماً كضيف أو إذا كانت لديه التزامات تتعلّق بالعمل، فإن معرفة طريقة الحياة والعقليّة، اللتين غالباً ما يشكلّهما الدين بطريقة راديكاليّة وجوهريّة، شرط أساسي لاختبار أسلوب حياة البلد.

لا يهدف هذا النص القصير أن يضيف شيئاً إلى الكم الكبير من النصوص الأدبيّة المتعلّقة بالبوذيّة – هذا سيكون نوعاً من الادعاء الوقح. لكنه سيحاول تفسير العلاقات للناس العاديين طامحاً إلى توضيح المفاهيم والسمات الأساسيّة لهذه الديانة بنوع من أمل نهائي في إثارة الفضول وخلق الرغبة من أجل معرفة المزيد عن

تعاليم بوذا من خلال ما يناسب ذلك من أدب. ومن الطبيعي إذن أن نفهم كون الوصف التالي لا يدعي الكمال. وأيّة محاولة لتقديم تمثيل موضوعي سوف تسمح لواحدنا أن ينساق داخل طرائق التأمل الذاتيّة.

لقد تمّ استخدام الدراسة الممتازة التي قدّمها الدكتور Wulf Metz ، التي حملت عنوان "ديانة المستنير – مقدّمة قصيرة للبوذيّة"، التي نشرتها جمعيّة التاي الألمانيّة في بون، مع المصادر المستشهد بها في البيبلوغرافيا، كأساس في المحاولة التالية لتقديم صورة مبسّطة للبوذيّة. ونحن ندين بشكل خاص للدكتور فولف ميتس، مؤلّف المقدّمة، والدكتور هانس كريستيان لانكس، السفير الألماني السابق، الذي كان يقدّم نصائح حاسمة وقيّمة في كلّ مرة كنا نطلب منه ذلك.

سيذارتا غاوتاما بوذا:

حين يشار إلى بوذا في هذه المقالة، فنحن إنما نشير بذلك حصريّاً إلى سيذارتا غاوتاما، الذي يعتبر مؤسّس البوذيّة. أما مصطلح "بوذا" فيعني في هذا السياق "المستنير". ومن أجل تجنب إساءات الفهم منذ البداية تماماً، لا بدّ من لفت الانتباه إلى حقيقة أن بوذا ليس الله ولا كائناً يشبه الله. وبحسب المفهوم البوذي، فهذا البوذا، غاوتاما بوذا، سبقه بوذايات آخرون وسيتبعه بوذايات آخرون. وهذا يُظهر بوضوح أن بوذا لا يمكن أن يقوم بوظيفة الفادي، لكنه يمهّد الطريق نحو الفداء والخلاص.

ولد سيذارتا غاوتاما من أحد الملوك عام 560 ق.م. تقريباً. في سنواته الأخيرة ترك زوجه وابنه كي يستعفي من السعادة الأرضيّة بالكامل وكي يحرز الحريّة الكاملة. وأخضع غاوتاما ذاته لنظام نسكي صارم في طلبه لهذه الحريّة دون أن يقرّبه ذلك من هدفه. بعد أن أشاح بوجهه عن النسكيّة، بتصميم لم يفشل قط، أحرز أخيراً الاستنارة التي طالما تاق إليها، والتي أعطته تبصّراته الأولى في "الحقائق الأربع النبيلة". إدراكه الثاني كان أنه وجد مرّات عديدة على الأرض. كما صار واعياً ثالثاً لدورة التناسخ وحقيقة أن طبيعة الحياة الجديدة هي نتيجة المآثر والأعمال في الحياة التي سبقتها، أي، مفهوم "الكارما". وطوّر بوذا تعاليمه من هذه الاستنارة لكنه تردّد في إعطائها للآخرين، فقد كان يؤمن أن البشريّة غير ناضجة بما يكفي لهذه الرسالة التي تتطلّب الكثير. وبعد تردّد كثير، أجبر ذاته على نشر تعاليمه ومعرفته، وما أن أخذ الرهبان ذلك، حتى انطلق "دولاب الحقيقة". وبهذه الطريقة، تمّ تأسيس أخوية الرهبان البوذيين، التي تسمّى بالسانغا. وكان لتأسيس السانغا أهميّة استثنائيّة، إذ أنها قطعت العلاقة بالكامل مع نظام الطبقات الهندوسي التقليدي. ففي السانغا لا توجد فروقات في المراتب الاجتماعيّة. وكلّ مؤمن يستطيع نشد الخلاص. رغم هذا، فالمستنير [بوذا] لم يكن راغباً بتأسيس ديانة للجميع. لكنه بالمقابل كان يبحث عن التزام من الفرد، وهو ما لا يستطيع القيام به غير القلّة القليلة.

لم تكن عند بوذا على الإطلاق أية أهداف اجتماعيّة أو سياسيّة وهو ينشر تعاليمه. فقد كانت أعماله وأفعاله موجهة بالكامل نحو المسائل الدينيّة، رغم أنه كان لتعاليمه لاحقاً آثار سياسيّة واجتماعيّة بالطبع. لقد كان الأقوياء في هذا العالم منتقدين بعنف، مع أنه لم تكن لذلك – وهذا هام – أية مرام اجتماعيّة، لكن لأن الملوك والأمراء كانوا نماذج جيّدة للجشع والتسلّط. من هنا، كان هدفه تقديم تعريف واضح لمفاهيم مثل الجشع، التسلّط، إلخ.، عن طريق استخدام أمثلة عينيّة.

بعد استنارته، نشر المستنير [بوذا] تعاليمه لأربع وأربعين سنة أخرى، قبل دخوله في حالة نيرفانا عام 480 ق.م. تقريباً. وكان أكثر ما شغل باله، قبل غيابه، أن يشعر المؤمنون "أن التعاليم سوف تكون معلّمهم".

لقد فهم غاوتاما بوذا أن هدف فيض قوته الخفيّة وغايته هما نشر هذه التعاليم، وهنا لابد على واحدنا أن يلاحظ أن بوذا ذاته لم يترك أية كتابات. ويمكن للمرء بالتالي الافتراض أن السانغا تناقلت تعاليم بوذا الأصليّة شفويّاً

بنوع من الحرص عظيم. وبعد موت المستنير بزمن طويل كتبت أخويّة الرهبان تعاليمه وسجّلتها في التريبتاكا (شريعة بالي)، أي كتاب تعاليم المستنير، الذي يُعرف أيضاً "بالسلاّت الثلاث".

حين نقرأ عن تعاليم المستنير، لا يهمنا كثيراً ما إذا كانت قد تم تناقلها موضوعيّاً وكلمة كلمة. بل ما فهمته أخويّة الرهبان البوذيين حتى يومنا الحالي على أنه الكلمة الموثوقة، عبر تاريخ يمتد على مدى ألفين وخمسمئة سنة.

تعاليم بوذا:

لقد أطلق غاوتاما بوذا "دولاب الحقيقة" كي يري الطريق إلى الخلاص. وكان مراراً يؤكّد في هذا السياق، أن الالتزام، تركيز الذهن والحكمة هي الطرق الثلاث المركزيّة في الدرب البوذيّة إلى السعادة الفائقة، أي الخلاص. فقد افترض أن الجنس البشري بحاجة إلى الخلاص.

القانون (الكتب البوذيّة المقدّسة)، كما تصفها "السلاّت الثلاث"، والتي هي أساساً تعاليم بوذا (ذارما)، تقسّم كما يلي:

"السلّة الأولى" هي "سلّة قوانين الأخويّة".

"السلّة الثانية" هي "سلّة التراتيل".

"السلّة الثالثة" هي "سلّة العقائد" (النقاشات الماورائيّة لتعاليم بوذا).

تكمن نواة هذه التعاليم في معرفة "الحقائق النبيلة الأربع" وفي قوانين "الطريق النبيلة الثُّمانيّة". تتناول "الحقائق النبيلة الأربع" علل المعاناة البشريّة ومعالجتها، في حين أنّ "الطريق النبيلة الثُّمانيّة" – يُرمز إليها بالدولاب ثماني الأشعة – تُهدي إلى سواء السبيل عمليّاً وتفسّر كيف يمكن الحصول على العلاج.

الحقيقة الأولى من الحقائق النبيلة الأربع هي حقيقة المعاناة. الولادة معاناة، التقدّم في السن معاناة، المرض معاناة، التوحّد مع الأمور غير المحبّبة معاناة، الانفصال عن الأمور المحبّبة معاناة، عدم حصولك على ما ترغب معاناة. بكلمات أخرى، عناصر الوجود في هذا العالم معاناة. عناصر الوجود هذه تدعى أيضاً "ذارما"، مع أننا نستخدم عموماً التعبير "تعاليم" عوضاً عن "ذارما". بكلمات أخرى، فإن المفهوم ذارما معقّد للغاية وله طبقات معان كثيرة. وبحسب تعاليم بوذا، لا ينظر للإنسان على أنه كينونة، بل كمخلوق مكوّن من عناصر إفراديّة لا حصر لها، هي الذارمات، والتي هي في حركة مستمرّة، فالإنسان بالتالي هو نتيجة فعليّة لمؤثّرات متحدة من هذه التأثيرات المختلفة. من هنا، وحدها فقط نتيجة هذا التدفق من العناصر المختلفة يمكنها أن تعطي انطباع الوحدة. إن مفهومي: "الأنا" و"الأنا ذاتي" هما خداع للنفس. ليس وحده الجسد البشري يتأثر، بل أيضاً النفس البشريّة، كون النفس أيضاً تمثّل مرحلة انتقاليّة للذارما.

الحقيقة النبيلة الثانية تتعلّق بالإجابة على السؤال عن أصل المعاناة. إن افتقاد المعرفة يؤدّي بالإنسان إلى أن يشغل ذاته بالأمور التافهة وأن يتوق ويعطش خلف المتع. وهذا يحدث سلسلة تفاعلات، والتي تقود إلى سلسلة تناسخات واستمرارية معاناة، النتيجة النهائية لها هي الموت ثانية.

يجب النظر إلى هذه الرغبات والمتع وغيرها من المشاعر البشريّة على أنها سبب المعاناة التي لا يمكن أن تنتهي إلاّ بكسر هذه السلسة من أجل الدخول في النيرفانا، الحقيقة الأخيرة، اللاشخصيّة.

الكارما مثبتة بإحكام في دائرة التناسخ. ويجب النظر إلى هذا المفهوم على أنه المحصّلة الكلّيّة لكلّ ما هو أخلاقي من صفات وأفعال وأفكار. الكارما تخزّن وتدوّن الأفعال البشريّة. لا شيء ضائع، وطبيعة التناسخ محدّدة بها. الإنسان محكوم بإرادة العيش مادام في هذا العالم، حيث أن شكل تناسخه حدّد عبر الكارمات مجتمعة. لكنه لا يعرف شيئاً عن وجوده السابق. على المرء أن يلاحظ أنه لا توجد فقط كارما خيّرة، بل أيضاً كارما شريرة، وأنه

يمكن الموازنة بين الاثنتين، كلّ مقابل الأخرى، في التطوّر اللاحق للشخص. وبحسب تعاليم بوذا، يُحدّد إطار الخير والشر من خلال ثلاثة قوى محرّضة هي الجشع والكراهية وخداع الذات من ناحية، وفقدان الجشع وفقدان الكراهية وفقدان خداع الذات من ناحية أخرى. من هنا، فالحياة هي رقعة محدّدة منطمرة في آلية كارما عنيدة لا ترحم، والتي – كما ذكرنا آنفاً – لا تنسى شيئاً وتخزّن كلّ شيء ولها تأثير على سلسلة التناسخات.

الحقيقة النبيلة الثالثة هي الحقيقة التي تهتم بإنهاء المعاناة. وهذه تعني نكران الذات والتحرر والتخلّي عن كل الرغبات والمشاعر وما يتوق إليه الإنسان.

الحقيقة النبيلة الرابعة تظهر الطريق إلى إنهاء المعاناة. وهذه هي "الطريق النبيلة الثُمانيّة"، المكوّنة من العناصر التالية:

الطريق القويمة في النظر إلى الأشياء.

التفكير القويم.

الكلام القويم.

الفعل القويم.

أسلوب العيش القويم.

الجهد القويم في كل شكل للكينونة.

الوعي القويم.

التأمّل القويم.

المرحلة الأولى من هذه الطريق، أي "الطريق القويمة في النظر إلى الأشياء"، تفترض أنّ الإنسان يثق بتعاليم بوذا. والبوذيّون، وهنا نتحدّث أساساً عن البوذيين من غير رجال الدين، وضعوا، بهذه الطريقة، حجر الأساس لحياتهم اللاحقة بالنظر إلى الطريق التي سيسيرون على هديها.

إن المراحل الأخرى من "الطريق النبيلة الثُمانيّة" يمكن تصنيفها ضمن إطار الأبعاد الأخلاقيّة، حيث المرحلة الثامنة، أي "التأمّل القويم"، حاسمة. والشخص الذي يرتحل على طول الدرب الأخلاقيّة كلّها يصل إلى الحق " بالتأمّل القويم ". يصل هذا التأمل إلى هدفه دون أن يتأثّر بالمسائل الزمنيّة، ويغوص عميقاً داخل الذات. وتصف التريبيتاكا مجموعتين للمراحل الأربع كل في هذه الصيرورة.

"الطريق النبيلة الثُمانيّة" ليست مستقلّة بذاتها، بل يمكن اعتبار أن لديها وظيفة أن تقود باتجاه الخلاص. إنها تؤثّر بأفعال المؤمن وتشجّعه كي يعيش بأخلاقيّة.

لقد تمرّكزت رسالة المستنير دائماً حول مشكلة الخلاص، حيث الإنسان ذاته هو الذي يستطيع أخذ الفعل، أي، أن يفدي ذاته. إن هدف الخلاص هو النيرفانا، التي هي بحدّ ذاتها غير جذّابة للغاية حتماً. وبالمقارنة مع الجنّة أو النعيم السماوي في الديانات الأخرى، تقدّم النيرفانا مفهوماً يصعب جدّاً على غير البوذي فهمه أو تعريفه. تبدأ النيرفانا حين تصل كل أنواع الكفاح إلى نهايتها، حين تحرز كل المشاعر والانفعالات حالة راحة. إنها تَحَرُّرُ تركَ آلة التناسخ التي لا ترحم، التحرّر من المرض والموت، ونهاية كل أنواع المعاناة في الحياة البشريّة. تتضمّن النيرفانا الانخماد أو التبعثر في الهواء، ويمكن فهمها بأفضل ما يمكن حين يقارن المرء فراغ النيرفانا بالدخان المندفع الذي يتبدّد ببطء من تلقاء ذاته.

في التريبيتاكا (قانون بالي) نجد أن النيرفانا هي الموازية للنعيم الأبدي، في حين قد يظل مستعصياً على المقارنة بالنسبة للشخص غير البوذي كيف يمكن الوصول إلى حالة النعيم الأبدي حين تتوقّف المشاعر عن إنتاج ردّات فعل. لهذا السبب، من المبسّط وصف النيرفانا على أنّها "السلام الأبدي" أو "الراحة الدائمة".

حين ينظر المرء إلى النيرفانا باعتبارها وسيلة خلاص، كتحرّر لابدّ من البحث عنه بالفعل، على المرء أن يلاحظ أيضاً أن هذا ليس غير تحرّر مطلق. من هنا، من الضروري الوصول إلى كارمات طيّبة كثيرة من أجل إحراز الخلاص البوذي. وبعد وصول المرء إلى حالة النيرفانا، لا يعود وجود للكارما. فالنيرفانا تقبع عند نهاية الكارمات كلّها.

حين يصل المرء إلى حالة في حياته حيث العواطف والمشاعر أحرزت وضعيّة راحة، حيث غادرت كل الرغبات، فمن الممكن بالتالي أن يدخل حالة النيرفانا حتى قبل الموت. لقد تم التغلّب على منبع الرغبة، الكارما أُبطلت، وانكسرت دورة الموت والولادة الثانية. الموت المحايث هو الحدث الأخير.

البوذيّة كممارسة:

كما ذكرنا آنفاً، فالأخويّة البوذيّة، أو السانغا، يمكن مقارنتها بأحد النظم الرهبانيّة. وفي ضوء المعنى المقصود في تعاليم المستنير مع التطبيق الأكثر صرامة لتعريف المصطلح " بوذيّة "، فسوف نجد أن المعنيين بالأمر هم الرهبان فحسب، حيث أنهم وحدهم في موقع يؤهلهم لأداء المهمّات الدينيّة التي يطلبها منهم المستنير. وهكذا فالرهبان وحدهم يصلون إلى حالة السعادة الفائقة ذات الطابع الديني بكماليتها الكاملة، مع أنه باستطاعة أي علماني الانضمام إلى الأخويّة كي يصبح راهباً.

كل كفاحات الراهب نحو الخلاص سوف تُعاق وسوف يُطرد الراهب من السانغا إذا لم يركّز الانتباه على الوصايا الأربع الرئيسة. فالعلاقات الجنسيّة، السرقة، القتل والتعجرف الديني محرّمة. وهنالك 13 وصيّة أخرى زيادة على الأربع السابقة. وحالات تجاهل هذه الوصايا منوطة بالهيئة الحاكمة للمنظومة الرهبانيّة.

لم تعرف السانغا البوذيّة يوماً أي نوع من العوائق الطبقيّة. من هنا، فالطريق إلى الخلاص متاحة للجميع، بغضّ النظر عن الأصول الاجتماعيّة. ولا بدّ هنا من التأكيد مجدّداً أن بوذا لم يكن حتماً مصلحاً اجتماعيّاً. لقد كانت أفكاره مركّزة على السعادة الفائقة وبالتالي فالفوارق في المكانة الاجتماعية لم تعن له شيئاً. لا بدّ أن نلاحظ أيضاً في هذا السياق أن تعاليم المستنير برسالة خلاصها الفرديّة والمتطلبة إلى الحد الأقصى يمكن اعتبارها في سياق محدّد للغاية ديانة جماهيريّة، بسبب الطريقة التي فُهمت بها في الماضي.

العلماني البوذي الممارس لدينه يؤمن "بالجواهر الثلاث":

بوذا

تعاليم بوذا

الأخويّة البوذيّة (سانغا).

يمكن للعلماني أن يخلق الظروف الضروريّة (كارما) من أجل تناسخ مرغوب. الخلاص مرجأ حتى تاريخ لاحق. يجب الالتزام بقواعد السلوك الخمس: لا تقتل،لا تسرق، لا تزن، لا تكذب ولا تشرب المسكرات.

إن العلاقة بين السانغا والمؤمن تبادليّة ومتعدّدة الأوجه. والعلماني يعطى فرصاً كثيرة لعيش التقوى. وهذه الفرص تتضمّن تقديم الصدقات للرهبان الذين يعتاشون عليها والمساهمة في بناء الأديرة وصيانتها. وفي الصورة الأماميّة للديانة البوذيّة نجد كمال السلام، التسامح، النضال من أجل عيش أخلاقي، التواضع والصبر. ثمّة إجلال عظيم يقرّ به البوذيّون جميعاً للمستنير، حيث لا يجب أن يُخلط هذا الاحترام التقوي مع الصلاة لإله أو لآلهة. بوذا هو حالة نيرفانا وهو بالتالي الشكل البشري الأوحد لفكرة مهيمنة أبديّة. لكن هذا لا يعني أن البوذيين لا يصلّون لبوذا

إذا كانوا بحاجة روحيّة لذلك أو يأملون بمساعدة منه. وإذا أراد المرء أن يكون دقيقاً في منطقيّته، لا يمكن لبوذا أن يكون أبداً هدفاً للإجلال من قبل طائفة دينيّة ما، كونه توقّف كليّاً عن الوجود. مع ذلك، يمكن للمرء إظهار الإجلال لذكراه باعتبارها تجسيداً لمبدأ الاستنارة. ولا يبدو هذا متناقضاً مع معنى التعاليم.

من الجدير بالملاحظة هنا أن القربان العبادي غير موجود على الإطلاق في البوذيّة. والاستعداد الموجود بالفعل لأن يضحّي المرء بذاته موجّه بالكامل نحو دعم الأخويّة ومساعدة أولئك الذين يعانون.

البوذيّة منفتحة تماماً على الآلهة، وهكذا فالصلاة لآلهة عديدة – طلباً للعون أو تقديماً للشكر – لها فيها مكان منفرد. ويتمّ هذا إلى درجة أنه يمكن معه تنمية خرافات كثيرة، مثلما يمكن للمرء أن يلاحظ من المعابد أو المنازل المشغولة بدقّة المكرّسة للعالم الروحاني في تايلند، والتي يمكن أن نحظى بها حيث يممنا وجهنا. والروح الخيّر المحليّ، تشاو تاي، يُبجّل بنوع من الحب عبر تقدمات من الفواكه والطعام والماء. بل إنه يكلّل بالزهور ويُرتجى استحسانه وحمايته من الأرواح الشريّرة.

هذا يُظهر أن بوذيّة عقيمة شيء لا وجود له. فتعاليم المستنير تُكيّف مع احتياجات الناس. وبهذه الطريقة صارت التعاليم البوذيّة ديانة جماهيريّة وحركة جماهيريّة بمرور القرون.

يصبح منطق تعاليم بوذا واضحاً على نحو خاص حين ينظر المرء إلى طريق الخلاص بشكل كلّي. فخلال حياته، يمتلك البوذي الممارس لدينه الفرصة لجمع الكارما والتطوّر أخلاقيّاً، معتقداً أن هذه الأمور سوف تعمل لصالحه خلال حياته على الأرض. فهو يؤمن برسوخ أنه سيولد من جديد وأن الكارما التي جمعها سيكون لها تأثير ما على حياته الجديدة. من هنا فكلّ بوذي لديه أسبابه لأن يناضل من أجل كمال أخلاقي كي يجمع أكثر ما يمكن من الكارما الإيجابيّة. أكثر من ذلك، فبقدر ما ينظر إلى الحياة من منحى إيجابي، فالخوف من الموت لا أهميّة له، كون البوذي سيولد من جديد دون شك.

وحين يرغب البوذي في كسر سلسلة الموت والولادة الجديدة كي يجد لذاته مكاناً أبديّاً، يمكنه النضال من أجل تحرّر النيرفانا.

الانشقاقات وتشكّل الطوائف:

ما أن دخل بوذا في وضعيّة النيرفانا (عام 480 ق.م. تقريباً) حتى راحت الاختلافات حول معاني تعاليم المستنير وتفاسيرها تظهر للعيان. وقد أدّى هذا بمرور السنين إلى انشقاق البوذيّة إلى بوذيّة الثرافادا وبوذيّة الماهايانا.

بوذيّة الثرافادا (هينايانا):

ما يزال أتباع بوذيّة الثرافادا يسيرون في هدي المطالب النخبويّة التي قدّمتها البوذيّة الأرثوذكسيّة–المحافظة، والتي هي الأقرب إلى تعاليم بوذا الأصليّة.

هذا الشكل من البوذيّة يدعى أيضاً بوذيّة الهينايانا أو "العربة الصغيرة". فالعالم يمكن مقارنته ببيت يحترق لا يمكن لغير المؤمنين النجاة بأنفسهم منه عن طريق استخدام عربة – "العربة الصغيرة". وغالبيّة البشر مستثناة من ذلك. هذه المقارنة تظهر أن تعاليم المؤسّس لم تكن تهدف لأن تكون ديانة للجميع.

في وقت لاحق انقسمت بوذيّة الثرافادا (هينايانا) إلى حوالي 30 طائفة. ومن المفيد أن نلاحظ أن أتباع وجهات النظر المختلفة كلّها يعيشون مع بعضهم غالباً جدّاً في دير واحد، حيث أنهم كلّهم يعتقدون بالمباديء الأساسيّة لتعاليم بوذا.

بوذيّة ماهايانا:

يكيّف أتباع بوذيّة الماهايانا أو "العربة الكبيرة" أنفسهم أيضاً مع تعاليم بوذا طبعاً لتشكيل جماعة، بالمعنى الواسع، مع أتباع بوذيّة الثرافادا (هينايانا) في ظل المفهوم العام "بوذيّون".

ثمّة أشياء كثيرة مشتركة بين هاتين الجماعتين الكبيرتين، على الرغم من اختلافهما في التوجهات الأساسي الملحوظ. فبوذيّة الثرافادا (هينايانا) تريد قهر العالم الماديّ، في حين تريد بوذيّة الماهايانا مساعدة العالم. وفي منشورات هانس فولفغانغ شاومان هنالك مجموعة من العبارات تصوّر بدقّة الفوارق بين الهينايانا والماهايانا. يقول هذا الباحث: "تشبه الهينايانا رجلاً نشيطاً، متعباً من رحلته الطويلة، لكنه يُستحث عبر إشارة ما كي يحثّ الخطى بسرعة أكبر تحت شمس مشرقة، للوصول إلى قدر ناء. الماهايانا تشبه رجلاً ناضجاً، يتنقّل بأمان دون إسراع في بيت فسيح يتمتّع جوّ دافئ عبر الصور ذات الألوان المرحة المعلّقة على الجدران. الشخص الذي يرغب حمل هويّة الإنسان المذكور أوّلاً سوف يكون أمامه تحدي أن يخطو بجرأة. أما الإنسان الأكثر تقدّماً في السن، من ناحية أخرى، فسوف يطلب منه أن يمكث معه في البيت كي يتحسّسا الهدف. وحول فنجان من الشاي سوف يدعوك لحوار حول مسئوليّات الجنس البشري".

إن وصفاً تفصيليّاً إضافيّاً للفروقات بين الثرافادا (الهينايانا) والماهايانا كان سيتجاوز حدود هذه الدراسة، مع أن الأمثلة التي أعطيت آنفاً يمكن اعتبارها محاولة لتفسير وجهات النظر المختلفة.

يجب أن لا ننسى أن "العربة الكبيرة" انقسمت لاحقاً إلى تيارين فكريين كبيرين، أي الماذياميكائيون واليوغاكاريون، واللذين تشكّل عنهما انقسامات إضافيّة، منها على سبيل بوذية التانترايانا، البوذية اللاميّة، بوذيّة الزن وغيرها.

البوذيّة محاولة للفهم (الجزء الثاني)

علم المصطلحات البوذي:

إنّ دراسة شاملة لكلّ ما أنتجته الديانة البوذيّة العالمية من أسفار مقدّسة سوف تتطلّب أجيالاً عديدة بسبب كمّها الهائل. وفي الفصل التالي، سوف نفسّر عدداً صغيراً من المصطلحات المأخوذة عن المدى العريض من التعاليم البوذيّة، وسيكون تفسيرنا موجزاً وشاملاً، من أجل الدفع باتجاه فهم أفضل لتعاليم المستنير.

لو أن تفاسير علم المصطلحات اعتمدت، إجمالاً، على الأدب البوذي ذي الصلة، فسوف يودي بنا الأمر إلى مشاكل لا حصر لها، لأن هذه المصطلحات مأخوذة عن ترجمات من خمس لغات آسيويّة مختلفة للغاية، على الأقل. فطرائق الوصف، بالضرورة، يمكن أن تختلف الواحدة عن الأخرى بحسب ظروف نشأتها، وواحدنا لا بدّ أن يكون متيقظاً بالتالي بأن أية محاولة عامّة لتفسير تعاليم الحكمة البوذيّة سوف تكون زاخرة بالمشاكل إلى أقصى حد. إن فهم الترابطات والمواضع الرقيقة في التعاليم البوذيّة مسألة ذاتيّة دائماً، من هنا، فمن الطبيعي، أنه يمكن فهم علم المصطلحات الفرداني بطرق متباينة. على الرغم من ذلك، ماتزال هنالك محاولة للوصول إلى فهم عام له، ودفع تعاليم بوذا من ثم لأن تأخذ أساساً عريضاً، بغض النظر عن الاعتراضات النقديّة المتوقعة.

لقد اختصر فرانتس إرهارد وإنغريد فيشر-شرايبر المشكلّة برمّتها، في مقدمتهما لعملهما المسمّى Lexikon des Buddhismus (معجم البوذيّة)، حين قالا بأسلوب جزل:

"الترجمة، في الوقت ذاته، تفسير، والذي يعكس فقط ما فهمه المترجم، لنغوستيّاً ومن تجاربه الخاصّة. لهذا السبب، هذه النصوص المختلفة جدّاً ذاتها تعطي إمكانيّات لترجمات عديدة ولا يمكن اعتبار ترجمة مفردة بعينها على أنها الوحيدة الصحيحة".

أبيبافاياتانا: ABHIBHAVAYATANA (سنسكريتيّة)

الطرق الثمان للتغلّب على عالم الحواس باعتبارها طرق التأمّل الثمان.

أبيجنا ABHIJNA (سنسكريتيّة)

القوى والقدرات الفائقة للطبيعة التي كانت لبوذا. في بوذية الهينايانا والماهايانا ثمّة خمس قوى دنيّويّة وقوّة واحدة غير دنيّويّة.

نقدم فيما يلي ما ينظر إليه على أنه قوى دنيويّة:

القدرة على إكثار الذات، تغيير الذات، جعل الذات غير مرئيّة، المرور عبر أشياء صلبة والقدرة على إكمال المعرفة واختراقها وجمعها.

القدرة على سماع ما في السماء، وإدراك الأصوات البشريّة والإلهيّة.

إدراك أفكار الآخرين.

القدرة على تذكّر الوجودات السابقة.

العين الإلهيّة، وتمييز دورة الحياة والموت.

أمّا القدرة غير الدنيويّة، فهي:

1- إدراك أن المرء أحرز الحريّة.

أبيموكتي ABHIMUKTI (سنسكريتيّة)

مغادرة دورة الولادة والولادة الجديدة، حيث تكون الرغبات والأماني منطفئة.

أهيمسا AHIMSA (سنسكريتيّة)

وفق الاعتقاد البوذي، مفهوم الأهيمسا، الذي يمكن ترجمته "بعدم إيذاء" الكائنات الحيّة، يحتل أهميّة قصوى. وهو يشكّل أساس النباتيّة الإجباريّة في بعض الثقافات البوذيّة.

أكوسالا AKUSHALA (سنسكريتيّة)

الجذور الثلاثة غير المقدّسة باعتبارها بذور المعاناة المستقبليّة، التي تربط الكائن الحي بدورة الوجودات.

ونقدّم فيما يلي ما ينظر إليه على أنه الجذور الثلاثة غير المقدّسة:

الجشع، الذي يرمز له بالديك الصغير.

الكراهية، التي يرمز لها بالأفعى.

العمى، الذي يرمز له بالخنزير.

أنيتيا NITYA (سنسكريتيّة)

إحدى سمات اللااستمراريّة عند كلّ الأشياء ذات الوجود والتي هي الولادة، الحياة والموت.

أنوسايا ANUSHAYA (سنسكريتيّة)

الميل أو الهوى الكامن ذو الميل لتحريض رغبة حسيّة.

وهذا يتضمّن:

الرغبة الحسيّة؛

الثورة؛

اليأس؛

الغرور؛

التمسّك بالحياة؛

اللامعرفة.

أرهات ARHAT (سنسكريتيّة)

إنسان قدسي على أعلى السويّات في بوذيّة الهينايانا، والذي سيحرز الاستنارة حتماً بعد هذه الحياة.

أريا-ساتيا ARYA-SATYA (سنسكريتيّة)

الحقائق النبيلة الأربع.

أستامانغالا ASHTAMANGALA (سنسكريتيّة)

الكنوز الرمزيّة الثمانية:

المظلّة كرمز للكرامة الملكيّة،

السمكتان كعلامة على ربّ العالم عند الهنود،

المحارة كرمز على الانتصار في المعركة،

زهرة اللوتس كعلامة على الطهارة،

وعاء الماء المقدّس، الذي يملأ برحيق الخلود،

الأعلام المجمّعة إلى بعضها كعلامة على انتصار الديانة،

أنشوطات الحياة التي لا تنتهي أبداً،

دولاب التعاليم.

أستا-فيموكسا ASHTA-VIMOKSHA (سنسكريتيّة)

تمارين التأمّل في مراحل التجميع الثمان (التحرّرات الثمانية).

أستانغيكا-مارغا ASTHANGIKA-MARGA (سنسكريتيّة)

الطريق النبيلة الثُّمانيّة، التي تصف مضمون آخر الحقائق النبيلة الأربع والتي تقود إلى التحرّر من المعاناة.

أسورا ASURA (سنسكريتيّة)

تنتمي الشياطين (الأرواح الشريّرة) إلى الآلهة الجبّارة Titanen، التي تنتمي، بدورها، إلى أشكال الوجود "الخيّرة" و "الشريّرة" أيضاً. لقد تمّ النظر إلى الآلهات التي من السويّة المتدنيّة على أنها تنتمي إلى شكل خيّر للوجود، أمّا أعداء الآلهة فينتمون إلى شكل شرير للوجود.

بيكسو BHIKSHU (سنسكريتيّة)

وهو الراهب الذي يكون عضواً كامل التكريس في السانغا البوذيّة. يتخلّى الرهبان عن متع الوجود الدنيوي ويعيشون بفقر وبتوليّة وسلام، وفق القواعد الموجودة في الفينايا-بيتاكا.

إضافة إلى ثيابهم، فالأشياء الوحيدة المسموح بامتلاكها هي أمور الاستخدام اليومي، مثل طاسة الشحاذة، موس الحلاقة، أبرة الخياطة، فلتر الماء، فرشاة الأسنان ومعجونها. وهم يشحذون طعامهم كلّ يوم.

بيكسوني BHIKSHNI (سنسكريتيّة)

وهي الراهبة التي تكون عضواً كامل التكريس في السانغا البوذيّة. أسّس نظام الراهبات ماهابراجباتي غاوتامه، زوجة أب بوذا التاريخي. لكن من المفترض أن بوذا كان ضدّ تأسيس منظومات للراهبات، لأنه كان يخشى على أخلاقيّات منظومات كهذه.

بوذي-باوم BODHI-BAUM (سنسكريتيّة)

شجرة التين التي يفترض أن بوذا وصل إلى الاستنارة تحتها.

بوذيساتيفا BODHISATIVA (سنسكريتيّة)

هو مخلوق، في بوذيّة الماهايانا، يكافح من أجل الوصول إلى حالة بوذا، وهو مهيّأ، حين يكون على هذه الدرب، مقدّماً المساعدة العمليّة، لأن يأخذ معاناة الآخرين وأن يمرّر الكارما التي يحرز، ومهيّأ أيضاً لأن يستبق مدخلاً إلى النيرفانا حتى تتحرّر كل المخلوقات من معاناتها.

براهما BRAHMA

في الديانة الهندوسيّة، هو الإله الذي يُعزا له خلق الكون.

براهمان BRAHMAN

في الهندوسيّة هو أحد أعضاء طبقة الكهنة.

براهما-فيهارا BRAHMA-VIHARA (سنسكريتيّة)

يتشكّل محتوى تمرين التأمّل من أربعة براهما-فيهارا. والمتأمّل يحاول قهر الكراهية، المتعة الشريرة، عدم الرضا والرغبة، كما يحاول إيقاظ المشاعر الإيجابيّة في داخله؛ وهي:

الخير اللامحدود لكلّ المخلوقات؛

الرحمة اللامحدودة لأجل المعانين؛

السعادة اللامحدودة عند إنقاذ الآخرين من المعاناة؛

الاتزان الكامل في مواجهة العدو والصديق.

في بوذيّة الماهايانا، البراهما-فيهارا تحسب ضمن الفضائل التي يحتاجها البوذيساتفا لإراحة المخلوقات الأخرى من المعاناة.

بوذا BUDHA (سنسكريتيّة)

الشخص الذي يحرز حريّة كاملة، أي، النيرفانا. وبعد موته الماديّ لا يولد من جديد وبالتالي فإن دورة الموت والولادة الجديدة تعرف انكساراً.

يفترض في بوذيّة الهينايانا أنّ ثمّة بوذا واحداً في أي عصر، في حين نجد في بوذيّة الماهايانا ألوفاً لا تحصى من البوذات المتسامين.

شاتور-يوني CHATUR-YONI (سنسكريتيّة)

أنماط الولادة الأربعة التي يمكن عبرها أن تولد من جديد أشكال الوجود الستة (قارن هنا: غاتي):

الذي يولد حيّاً (الكائنات البشريّة، الثدييات)،

الذي يولد في بيضة (الطيور، الزواحف)،

الذي يولد في الماء أو في الجو الرطب (السمك، الدود)،

الذي يولد عبر قوّة الكارما (الآلهة، التيتانات، سكّان الجحيم).

ديفا DEVA (سنسكريتيّة)

الكائنات السماويّة أو الآلهة، الذين يعيشون في السماء بسعادة، لكنهم، مثل كلّ المخلوقات الأخرى، خاضعون لدورة الموت والولادة الجديدة. كعطيّة من الكارما المكتسبة من الأعمال الخيّرة في الماضي، أعطيت هذه الكائنات السماويّة أو الآلهة حياة طويلة وسعيدة. مع ذلك، فهذه السعادة تعتبر عقبة في دربهم إلى الانعتاق، لأنهم غير قادرين على إدراك حقيقة المعاناة (قارن هنا: الحقائق النبيلة الأربع).

ديفاراجا DEVARAJA (سنسكريتيّة)

بحسب الميثولوجيا، فإن ملوك السماء هم حماة أرجاء العالم الأربعة والتعاليم البوذيّة. وأجسادهم محميّة بالدروع، وعلى رؤوسهم يرتدون خوذاً أو تيجاناً.

ذارما DHARMA (سنسكريتيّة)

الذارما مفهوم في غاية الأهميّة في البوذيّة ولها معان عديدة:

منظومة العالم وقانون الولادة الجديدة، التي تهديها الكارما سواء السبيل.

تعاليم بوذا.

القوانين والعادات الأخلاقيّة.

تأسيس ما هو حقيقي.

المضمون الروحاني، الذي يمرّ من المضمون المُدرك في الفكر البشري.

تسمية لما يدعى بعناصر الوجود.

ذارما-شاكرا DHARMA-CHAKRA (سنسكريتيّة)

دولاب الاستنارة، وهو أحد الرموز البوذيّة لتعاليم المستنير.

ذيانا DHYANA (سنسكريتيّة)

حالة انسحاب الروح – التأمّل.

مرحلة الانسحاب الأولى، أي تحرير الذات من الرغبة، تقود إلى التفكير الاستغراقي. في هذا المستوى ثمّة شعور سعادة وسرور.

تقود المرحلة الثانية إلى سلام داخلي وتحرير للذات من التفكير والأفكار. وهنا نجد أيضاً شعور السعادة والسرور.

المرحلة الثالثة تطرد السرور، لتحلّ محلّه رباطة الجأش مع إحساس السرور.

في المرحلة الرابعة يظلّ المتأمّل في حالة رباطة جأش، مع يقظة معيّنة.

غارودا GARUDA (سنسكريتيّة)

مخلوق ميثولوجي، نصف إنسان–نصف طائر.

غاتي GATI (سنسكريتيّة)

مصطلح تسمّى به أشكال الوجود المختلفة التي يمكن للولادة الجديدة أن تحدث فيها. هنالك تمييز قائم بين ثلاثة أشكال وجود "خيّرة" أو "عليا" وثلاثة أخرى "شريرة" أو "دنيا". إلى الأشكال الثلاثة "الخيّرة" ينتمي:

البشر، الآلهة (ديفا)، والشياطين (أسورا).

وإلى الأشكال الثلاثة "الشريرة" ينتمي:

الحيوانات، الأرواح الجائعة (بريتا) وسكان الجحيم (ناراكا).

هينايانا HINAYANA (سنسكريتيّة)

أتباع بوذيّة الهينايانا، التي تدعى أيضاً "بالعربة الصغيّرة"، ، الذين لهم هدف واحد، هو خلاصهم الخاص. وهم يصفون تعاليمهم أيضاً بأنها بوذيّة الثيرفادا. بوذيّة الهينايانا، أي البوذيّة الجنوبيّة، موجودة أساساً في سري لانكا، تايلند، بورما، كمبوديا، ولاوس.

كارما KARMA (سنسكريتيّة)

شريعة العلّة والتأثير.

بحسب الأفكار البوذيّة، يمكن للفعل (كارما)، في ظلّ ظروف معيّنة، أن يثمر؛ وحين ينضج هذا الثمر، يقع على الشخص صاحب المسئوليّة. من أجل أن يثمر الفعل لابدّ أن يكون أخلاقيّاً خيّراً أو شريّراً وأن يكون نتيجة إرادة الشخص صاحب العلاقة.

لاما LAMA

يستخدم هذا المصطلح في البوذيّة التيبتية كلقب لأحد المعلّمين الدينيين وهو معادل لمصطلح "غورو" بالمعنى الهندوسي التقليدي. يتمّ إحراز هذا اللقب من قبل المعلّم بعد سنوات عديدة من الدراسة لمختلف مذاهب الفلسفة البوذيّة، وممارسة التأمّل إضافة إلى حياة منسحبة أقلّها ثلاث سنوات.

يجمع " الدلاي لاما " اليوم بين السلطتين الروحانيّة والسياسيّة في التيبت. أمّا " البانشن لاما " فيبجّل باعتباره نائبه الروحاني.

اللاميّة LAMAISM

البوذيّة في شكلها التيبتي، الواسعة الانتشار في التيبت والصين ومنغوليا.

لوتس LOTUS (سنسكريتيّة بادما)

زنبقة الماء، التي ترمز في البوذيّة إلى طهارة الإنسان عبر الاستنارة. يمكن أن ترمز زهرة اللوتس أيضاً للعالم أو لعرش بوذا.

ماذياميكا MADHYAMIKA (سنسكريتيّة)

الدرب الوسطى، وهو المصطلح الذي يطلق على درب بوذا التاريخي، التي تعلّم تجنّب كلّ الأمور المتطرّفة؛ وبشكل خاص مدرسة بوذيّة ماهايانا التي تتمتّع بأهميّة كبيرة في الهند والتيبت والصين واليابان.

يشير مصطلح "الدرب الوسطى" إلى محاكمة وجود الأشياء أو لا وجودها. تعلّم هذه المدرسة أيضاً تجنّب كل الأمور المتطرّفة، على سبيل المثال، من ناحية، تخلّي الذات بالكامل عن البهجة الحسيّة، ومن ناحية أخرى، الزهد وتعذيب الذات.

ماهايانا MAHAYANA (سنسكريتيّة)

بوذيّة ماهايانا، أو "العربة الكبيرة"، هي إحدى مدرستين كبيرتين في البوذيّة. تتجذّر بوذيّة الماهايانا وبوذيّة الهينايانا على حدّ سواء في تعاليم بوذا الأساسيّة. وفي حين تكافح بوذيّة الهينايانا من أجل الخلاص والخير عند الفرد، فإن أتباع بوذيّة الماهايانا يكافحون من أجل خير كل المخلوقات.

انتشرت بوذيّة الماهايانا في مدارس عديدة، خاصّة في الهند، الصين، كوريا، واليابان. من أهم مدارس بوذيّة الماهايانا مدرسة الزن.

مايتري MAITRI (سنسكريتيّة)

إرادة الخير، الحضّ على فعل الخير: واحدة من الفضائل الرئيسة في البوذيّة، المعطاة، في النهاية، لكلّ المخلوقات، التي يفترض أنها تتغلّب على الكراهية.

مانترا MANTRA (سنسكريتيّة)

شكل للتأمّل يمارس في كثير من المدارس البوذيّة.

تأمّل MEDITATION(سنسكريتيّة)

مصطلح شامل يغطّي مجموعة متنوعة من التمارين الدينيّة، التي تختلف بشكل كبير في الطرق التي تنفّذ فيها، لكنها تمتلك كلّها الهدف ذاته، أي، وضع الشخص في حالة تحرّر، استنارة وتيقّظ. يفترض أن روح الشخص المتأمّل تجمع ذاتها وتهدئها، وهكذا يمكنها أن تفهم تدريجيّاً الفرق بين الذات والموضوع وتتحرّك مقتربة من ثم من المطلق.

تختلف وسائل إحراز الهدف بشكل كبير للغاية ويكون اختيارها بحسب ميل الفرد والظروف الخارجيّة وكذلك الوضع الجغرافي. تستخدم أمور تساعد في التأمّل، منها على سبيل المثال، أوضاع جسديّة معيّنة، تمارين التنفّس أو الصوت بنغمات مختلفة.

ناغا NAGA (سنسكريتيّة)

الناغا هو أفعى (تنين) نصف إله خيّر يسبّب هطول المطر ويحمي السماء.

نيرفانا NIRVANA (سنسكريتيّة)

النيرفانا، كهدف للمارسة الروحانيّة للبوذيّة، تعتبر كسراً لدورة الموت والولادة الجديدة وانتقالاً إلى شكل وجود مختلف تماماً. وحتى حين يتم استخدام استعارة احتضار اللهيب أو تبدّد الدخان، فالنار المحتضرة والدخان المتبدّد لا يختفيان فعليّاً، لكنهما ببساطة يصبحان غير مرئيين لأنهما انتقلا إلى فضاء جديد. إن السمة المميّزة للنيرفانا هي غياب الشكل، الوجود والتحوّل والتبدّد.

باغودا PAGODA (سنسكريتيّة)

الباغودا، في فن العمارة البوذي، هي برج، موجود بشكل أساسي في الصين واليابان وكوريا، وينظر إليه باعتباره تطويراً للستوبا الهندوسيّة. تمثّل قاعدته الثمانيّة الأطراف دولاب التعاليم، والطوابق الثمانية تمثّل الدرب العامّة نحو الاستنارة.

مثل الستوبا، تستخدم الباغودا كمكان لتخزين الآثار ويمكن استخدامها كمدفن أيضاً. [راجع هنا: فقرة مقدّمة لطبعة الأولى].

بريتا PRETA (سنسكريتيّة)

البريتات [بالجمع]، أو الأرواح الجائعة، هي أحد أشكال ثلاثة سلبيّة للوجود والتي كارماها جيّدة للغاية من أجل الولادة الجديدة في الجحيم، لكنها لا تكفي بما يكفي للولادة الجديدة في أحد أشكال الوجود الخيّرة، منها على سبيل المثال الشكل التيتاني.

تدعى البريتات "الأرواح الجائعة" لأنها مُتخيّلة على أن لديها بطوناً كبيرة، لكن أفواهها فقط بحجم خرم الأبرة، من هنا فهي تعاني من جوع مريع.

بونيا PUNYA (سنسكريتيّة)

يتم الوصول إلى الكارما، على سبيل المثال، عن طريق إعطاء الصدقات، التي يفترض أنها تؤمّن حياة مستقبليّة أفضل.

مدرسة رينزاي RINZAI SCHOOL

إن أهم مدرستين في بوذيّة الزن في اليابان هما مدرسة رينزاي ومدرسة سوتو Soto. والمدرستان متشابهتان للغاية في أهدافهما لكنهما تختلفان في أساليبهما التدريسيّة.

سانغا SANFA (سنسكريتيّة)

السانغا هي مجموعة بوذيّة مكوّنة من رهبان وراهبات ومبتدئين. وبمعنى أكثر اتساعاً، يجب أن يكون ضمن السانغا العلمانيّون أيضاً.

سانجيت SANGITE (سنسكريتيّة)

المجالس الأربعة التي يُعرف أنها مهتمة بتطوير البوذيّة. لقد كان هدف هذه المجالس، ضمن أشياء كثيرة، إنتاج كتابات قانونيّة والعمل على توطيد دعائمها إضافة إلى حلّ الخلافات في الرأي في الجماعات، إلخ.

ساتفاسماتا SATTVASMATA (سنسكريتيّة)

هوية الكينونات. لاتوجد فروق بين الأشكال الفرديّة للحياة.

الشنتويّة SHINTOISM (سنسكريتيّة)

ديانة اليابان الأصليّة، التي تأثّرت بقوّة بالكونفوشيوسيّة الصينيّة وكذلك أيضاً بالبوذيّة. عام 1868 تمّت ترقية الشنتويّة إلى مرتبة الديانة القوميّة لليابان، لكنها فقدت هذه المكانة عام 1945 بالتزامن مع إنكار الإمبراطور الزعم بأنه إله عام 1946.

سمريتي SMRITI (سنسكريتيّة)

إن ممارسة التيقّظ تعني أخذ موضع المراقب النقي وأن يكون المرء عارفاً بالوظائف التي تعمل آليّاً، مثل الرؤيا والشعور والتحرّك. وبهذه الطريقة، يمكن الوصول إلى أنقى درجات الصفاء في الفكر والفعل. فالروح يُسيطر عليها وتُدخل في حالة سلام. وهذا التيقّظ، في بوذيّة الثيرافادا، يُعلّم بطريقة منظّمة.

مدرسة سوتو SOTO SCHOOL(سنسكريتيّة)

إن أهم مدرستين في بوذيّة الزن في اليابان هما مدرسة رينزاي Rinzai ومدرسة سوتو. والمدرستان متشابهتان للغاية في أهدافهما لكنهما تختلفان في أساليبهما التدريسيّة.

ستوبا STUPA (سنسكريتيّة)

الستوبا، كأحد أشكال التعبير المميّزة لفن العمارة البوذي، تعتبر النقطة المركزيّة في المعابد والأديرة. كانت الستوبات في الأصل أضرحة مشادة على ما تبقى من جسد بوذا وغيره من المقدّسين. وداخل الستوبا تُحفظ الآثار، الأسفار المقدّسة، الصور وأشياء أخرى مشابهة.

سوترا SUTRA (سنسكريتيّة)

تراتيل بوذا، التي توجد مجموعتها في التريبيتاكا.

ثيرافادا بالي THERAVADA PALI (سنسكريتيّة)

أقدم منظومة تعاليم في مدرسة بوذيّة هينايانا وأكثرها حكمة وهي منتشرة للغاية في أقطار جنوب شرق آسيا.

تريبيتاكا TRIPITAKA (سنسكريتيّة)

مجموعة الكتابات البوذيّة القانونيّة، المكوّنة من ثلاثة أجزاء، وتسمّى بالسلّة الثلاثيّة.

تريشارانا TRISHARANA (سنسكريتيّة)

الهروب إلى الكنوز الثلاثة (أو الملجأ الثلاثي)

إلى بوذا كمعلّم،

إلى التعاليم (ذارما) كدواء

وإلى السانغا، مجموعة الرفاق.

هذا الهروب هو جزء نظامي من العرف اليومي في الحياة البوذيّة.

يوغا YOGA (سنسكريتيّة)

اليوغا ترد بمعنى التوق إلى الله، السعي للإتحاد به. فكلّ طريق لمعرفة الله يمكن وصفها بأنها يوغا. في الهندوسيّة نجد أسماء عديدة لطرق اليوغا المختلفة، وكلّ طريق تتلاءم مع شخصيّة أحد الباحثين عن المعرفة. خارج آسيا، تُفهم اليوغا عادة على أنها تمارين جسديّة ذات صلة بتمارين التنفّس. لكن في الهند، نجد أن هذه اليوغا الجسديّة تعتبر مجرّد تمرين تحضيري لأشكال اليوغا الروحانيّة.

زن ZEN

نادراً ما تؤكّد أي من مدارس البوذيين الأخرى، كمدارس التجميع والانسحاب، على أهميّة تجربة الاستنارة ولا منفعيّة التمارين الدينيّة الطقسيّة والمعارك الفكريّة كما تفعل الزن. من بين مدارس الزن السبع، وحدهما مدرستا الرينازي والسوتو تبدوان هامتين اليوم. وعلى ما يظهر فبوذيّة الزن تنتشر باستمرار من اليابان إلى كافة أرجاء الغرب، تحت إشراف وتوجيه من معلّمين ذوي سلطة، ويعتقد أنها ستتطوّر أكثر.

خاتمة:

حين يحاول المرء تفكيك أهداف إحدى الديانات إلى قواسم مشتركة، ستكون النتيجة بالتالي أن كلّ ديانة تتبع مبادئها الأساسيّة الثابتة، حيث تختلف نقاط البداية والأهداف والطرق إلى تلك الأهداف، بشكل كبير، بين ديانة وأخرى. مع ذلك فهذه الطرق المختلفة تلتقي عند نقطة بعينها، رغم أنّ هذه النقطة غير واضحة دائماً. ويمكن أن تصنّف هذه النقطة تحت مفهوم السعادة الفائقة. والأوامر والمحظورات المرتبطة مباشرة مع وعود الثواب أو تهديدات العقاب خلال حياة المرء أو بعد موته تحرّض على القيام بالفعل الأخلاقي.

إن الفرصة للصلاة من أجل أو للكائنات الفائقة، أو بكلمات أخرى الآلهة، وأن يكون المرء قادراً على التعبير عن الشكر من أجل الأمور الخيّرة، تقوّي وتقدّم أحياناً الدعم المطمئن والمُشعر بالسلام وهو ما قد يبدو أحياناً ضرورة مطلقة في الحالات الطارئة.

إن الأمل بحياة بعد الموت، سواء أتمّ تخيّل هذا على أنه تواجد في الجنّة أو أنه يتكوّن من الاعتقاد بالتناسخ، ينقص الخوف من الموت أو يبعده ويطرد اليأس.

حين يبحث المرء عن هذه السمات المميّزة، التي تدرج فقط كأمثلة، فسوف يصل مباشرة إلى النتيجة التي تقول إنها موجودة بشكل مباشر أو غير مباشر وأن لديها كلّها الهدف المشترك في موضعة سعادة الجنس البشري الأرضية أو ما فوق الأرضية في مركز الأشياء.

تبدو التعاليم البوذيّة، للوهلة الأولى، وكأنها تحتوي مجموعة أشياء سلبيّة حول الحياة، لكن هذا الانطباع لا يتساوق حتماً مع ما تقوله الوقائع. وهذه المحاولة لتفسير تعاليم المستنير في خطوطها الأساسيّة، بطريقة محكمة وقابلة للفهم بسهولة، مع أننا نضع في ذهننا كل الهنات المحتملة التي يمكن أن تظهر على نحو شبه محتوم في مبادرة كهذه، تساعد في إظهار أن لديها نقاطاً بعينها مشتركة مع غايات الديانات الأخرى، مع أن نضع في ذهننا بالطبع المنظورات المختلفة للبوذيّة.

تمكّن تعاليم المستنير المؤمن، ضمن أشياء أخرى:

- أن يكافح من أجل تحسين أخلاقي،
- أن يجد السلوان والأمل في الحالات الطارئة بمعرفته أن هنالك حياة جديدة أفضل،
- أن لا يخشى الموت عبر الإيمان بالتناسخ،
- وأن تكون لديه الفرصة أخيراً كي يكسر سلسلة التناسخات، الحيوات والمعاناة عبر الدخول في حالة نيرفانا تنتهي معها كل المطامح البشريّة.

لكن الدخول في حالة النيرفانا له متطلّبات عديدة بحيث أن القرار الداخلي، الاستنارة وإنكار الأشياء الدنيويّة لابدّ أن تقود إلى حالة كمال والتي هي محفوظة للقلّة القليلة فقط، لكن الجميع يمكنهم البحث عنها.

إذا كان هذا النصّ يقود إلى فهم التعاليم البوذيّة، مع أنه باعتراف الجميع لم يخربش غير السطح، فالمقاربة التبسيطيّة بالتالي التي تمّت لهذا المعقّد الهائل من المقولات كانت تستحق العناء. وسوف يكون من الآن فصاعداً سهلاً نسبيّاً تعميق المعرفة، إذا ظهر عند واحدنا شيء من الاهتمام بالمسألة، كما يبدو متاحاً على الصعيد البوذي إمكانيّة قراءة هذا النص بعين نقديّة من خلال الأدب الكثير ذي الصلة.

****

تعليق المترجم:

في حال وجود أية أسئلة تتعلّق بالنص، أرجو توجيهها إلى موقع "الناقد"؛ كما آمل أن أستطيع تقديم شيء عن مدارس بوذيّة الزن، التي درستها منهجيّاً، في القريب العاجل.

نبيل فيّاض.

الحزب الأبوسفياني النفاقيّة الإسلاموية مشرعنة!!!

www.annaqed.com

نبيل فياض 2 يوليو 2004

تذكر أمهات المصادر الإسلاميّة أنّ أبا سفيان بن حرب، الذي كان ألدّ أعداء الإسلام في بداية الدعوة، لم يسلم إلاّ بعد أن سقطت مكّة في أيدي المسلمين، ورأى بأم عينيه جحافل الجيش المسلم وهي تجتاحها؛ وساعد في ذلك كثيراً إلحاح العبّاس بن عبد المطّلب عليه أن يفعل، ومخاطبة النبي لكبريائه بأن "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن". لكن أمهات المصادر تلك ذاتها؛ تقول إنّ أبا سفيان ظلّ على موقفه الرافض للدين الجديد حتى خلافة عثمان. فأبو سفيان، كما تناقلت النصوص؛ قال لعثمان بن عفّان وقت آلت الخلافة للأخير: "تلقّفوها [الخلافة] تلقف الكرة؛ فوالله ما من جنّة ولا نار"!!!- مع ذلك، ومنذ انتصار الحزب الأبي سفياني حين نُصّب معاوية ابنه خليفة في القدس، والذي وصل إلى قمته مع يزيد بن معاوية، الذي أعاد التأكيد على موقف جدّه، حين قال:

لعبت هاشم بالملك فلا ملك جاء، ولا وحي نزل

صار أي اقتراب نقدي من إسلاميّة هذا الحزب موضع تكفير من شيوخ السلاطين ووعّاظهم!

تتفق الأديان كلّها في أنّ الخلاص شأن فردي؛ وبلغة إسلاموية يمكننا القول، إنّ الأب الصالح لا يستطيع أخذ أولاده الطالحين معه إلى الجنّة. – من هنا، لا مناص من الاستغراب من مواقف أولئك القسريّة أو النفاقيّة إسلامياً؛ مادام الله ذاته، وفق النصوص المقدّسة أو شبه المقدّسة، لم يفرض على الإنسان الإيمان دون قناعة.

وإذا كانت القسريّة الدينيّة السمة-المظلّة التي تجمع تحتها معظم أصناف التيار الأصولي المعارض الحالي، فإنّ النفاقيّة-الانتهازية-الأباسفيانيّة الدينيّة هي السمة المشتركة عند كلّ شيوخ الحكّام ووعّاظ السلاطين.

لو سألت أحد رجالات الطبقة الأخيرة عن موقفه من العلمانيّة، على افتراض، جدلاً، أن لديه الحدّ الأدنى من الثقافة بحيث يمكنه فهم مضمون "علمانيّة" تعريفيّاً، فسوف يقول دون تفكير قطعاً: "العلمانيّة كفر محض هدفها نسف الإسلام من جذوره؛ ولا يحقّ لمسلم يعتز بإسلامه الموافقة على أي وجود للعلمانيّة في مجتمع ذي غالبيّة إسلاميّة: لا بد من تطبيق شرع الله بدل القوانين الوضعيّة التي اختطّها البشر". هنا تجد نفسك مجبراً على سؤاله، بالانطلاق من قواعده ذاتها: وما هو موقف سماحتك إذا طالب الهندوس في الهند بما تطالب به أنت، وألغوا العلمانيّة لأنها بنظرهم كفر، وفرضوا شريعتهم المسمّاة شريعة مانو، من منطلق قسرية رأي الأكثريّة،على كلّ هندي، هندوسياً كان أم غير هندوسي؟ ما رأيك أن يفعل الهندوس مع النساء المسلمات في الهند، ويفرضوا عليهن الساري المكشوف في المنطقة الوسطى الشهير، كما تفعل ملالي إيران حين يفرضون منظورهم لما هو لباس إسلامي على النساء، بغضّ النظر عن أديانهن؟ ما رأيك أن يطبّق اليهود الهالاخا العبرانيّة الشهيرة، من منطلق قاعدة الغالبيّة التي تبشّرنا بها، على كلّ سكّان إسرائيل؟ ما رأيك أن يُفرض تنصير المجتمع الأمريكي بواقع أن المسيحيين المؤمنين هم الغالبيّة، غير الساحقة ربما، في الولايات المتحدة؟" سيُذعر الرجل دون ريب؛ قد يواجهك بقذائف تكفيريّة من العيار الثقيل؛ قد يفعّل لك أسطوانة المؤامرة الشهيرة؛ لكنه حتماً لن يستطيع أن يجيبك بالحد المنطقي الأدنى.

بعد الانتخابات الجزائريّة الأشهر، التي أوشكت فيها "الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ" على الفوز بالغالبيّة الساحقة من مقاعد البرلمان الجزائري، هجم شيوخ الجبهة إياها، الذين لم يصدّقوا وقتها أنفسهم، على وسائل الإعلام الغربيّة، التي بدورها كانت تبحث عن "طرائف" شرقيّة مسلّية، ضمن أخبار غربيّة تثير الضجر الباعث على النعاس،

ليقولوا بالفم الملآن: "إنّ الديمقراطيّة كفر صريح؛ وهم إن قبلوا بها فذلك فقط كي توصلهم إلى الحكم". إذن، وكما قلنا باستمرار، الديمقراطيّة بالنسبة لهؤلاء هي الخنزير الأجرب النجس الذي سيوصلهم إلى آخر الطريق، أي الحكم؛ وهم على استعداد تام لتحمّل نجاسته التكتيكيّة بل والترحيب بها إذا كانت تخدم هدفهم الاستراتيجي. الأمر ذاته يمكن أن ينطبق على أقطار عربيّة أخرى غير الجزائر، تطالب فيها الحركات الإسلامية بالديمقراطيّة، لا حبّاً بها، بل طمعاً بما يمكن أن تحققه لهم الديمقراطية المزعومة من مكاسب سلطويّة. في سوريّا، على سبيل المثال، تبدو المطالبة الإسلامويّة بالديمقراطيّة مزعجة للأعين، خاصّة بعد أن أوصلت الانتهازيّة البعثيّة الوسط السنّي السوري عموماً إلى الهروب باتجاه التطرّف، الذي لا بدّ أن أية انتخابات ديمقراطيّة فعليّة مستقبليّة في القطر سوف توصله إلى احتلال غالبيّة مقاعد البرلمان غير الساحقة ربما.

في كليّة الشريعة بجامعة دمشق، يوزّع التكفير دون بطاقات تموينيّة على كلّ من هو من غير أهل السنّة والجماعة: مع أنّ الدولة السورية الكريمة ترفع شعار "الدين لله والوطن للجميع"، في بلد لا يقلّ عدد طوائفه عن عشرين. لكنّ الملفت للنظر في المنهج التعليمي لهذه الكليّة–الأكاديميّة [!!!]، أن توزيع التكفير المجّاني لا يطال العلويين والدروز، مع أنّه يتصدّى لطوائف إسلاميّة أكثر أرثوذكسيّة من العلويين والدروز بما لا يقارن: مثّل الإثنيعشريين والخوارج؛ وهذا لا يمكن فهمه إلاّ ضمن إطار الحزب الأبي سفياني ذاته. فالإثناعشرييون غير موجودين بقوّة على الخارطة الديموغرافيّة السياسيّة السوريّة، في حين أنّ الغياب المطلق للخوارج من على الخارطة ذاتها غير قابل للنقاش؛ بالمقابل، فالوجود السلطوي العلوي في الساحة السوريّة أكبر كثيراً من نظيره الديموغرافي؛ ورغم أنّ الرأي السنّي الأرثوذكسي حاسم تكفيرياً بحقّ العلويين والدروز، منذ أيام ابن تيميّة، بعكس الإثنيعشريين والخوارج الذين لا يوجد اتفاق سنّي جامع مانع بحقهم تكفيريّاً، فالاقتراب من العلويين والدروز من منظار النقد الديني السنّي غير ممكن في سوريّا، جهاراً على الأقل؛ فاليد الطويلة على كافّة الأصعدة لرجالات من هاتين الطائفتين، تجعل أي شيخ سنّي سوري يعدّ للألف قبل أن يفكّر بطرح قناعاته التقليديّة الحقيقية بحقهما، بل إنّ أحد وعّاظ السلاطين، كالبوطي، تفوّه علناً وعلى رؤوس الأشهاد بألفاظ حول بعض رجالات العلويين هي النقيض المطلق لكل ما تناقله التراث السنّي من آراء بشأن تلك الطائفة؛ بل يعاكس تماماً ما قاله هو لي ذات مرّة، قبل أن يبدأ اتهاماته لي بأني من أسرة يهوديّة وأم اسماعيليّة، من أن الدولة السوريّة، حين أرادت نسف كليّة الشريعة من الداخل، دسّت فيها بعض العلويين البعثيين، والذين فصل معظمهم لأن الجو الغريب عليهم أدّى بهم إلى حالات رسوب مزمنة، في حين استمرت أقليّة منهم بعد أن أُصلحت: أي، تسنّنت.

وحده بن لادن أحرز قصب السبق بجمعه بين القسريّة الدينيّة والنفاقيّة الأبي سفيانيّة. فهذا الرجل، الذي أُسكن بهواجس الخلافة وعودتها وطهرانيّة الإسلام الأوّلي، لم يمانع للحظة، في سبيل تحقيق ما اعتقد كثيرون خطأ أنه مشروع ديني تقوي، وهو لا يخرج عن حلم السلطوية قط، في أن يتحالف مع الأمريكان [بلغته: الصليبيون] من أجل طرد السوفييت الاشتراكيين الكفّار من أفغانستان وتأسيس دولة خلافته المزعومة حتى على أطلال كابول – لا أعتقد أنّه كان بامكانه تحقيق مشروعه خارج أفغانستان، لأن الحد الأدنى للعقل في أية دولة أخرى كان سيعيق عليه ذلك – وقندهار، في حين قفز بعد سنوات قليلة مئة وثمانين درجة ليتحالف مع البعثيين الاشتراكيين الكفّار في العراق ضد الأمريكان الصليبيين، الذين اضطروا للخلاص منه غير آسفين بعدما احترقت ورقته مع سقوط المنظومة الاشتراكيّة وانتهاء الحرب الباردة.

من أكثر الأمور بداهة إبستمولوجيّاً هذه الأيام أن الدين مسألة شخصيّة أوّلاً وأخيراً؛ ولا يحق لمطلق بشر، تحت أيّة راية، مصادرة حق الآخر في الاعتقاد بما يشاء، ما دام هذا الاعتقاد لا يشكّل أي نوع من الاعتداء على حقوق الغير. وكما قال ألبرت لانغه في عمله الهام، تاريخ الماديّة، فإن إمكانيّة البشري للتواصل مع الماوراء

تظل محكومة بقدرات هذا البشري الحسيّة الإدراكيّة المحدّدة للغاية بالظروف الزمانيّة المكانيّة؛ وإطلاق أية تجربة من عقالها الزماني المكاني، كروح هائمة، قد يبدو مستغرباً من منطلق الصيرورة الهيراقليطيّة؛ مع ذلك، ليس من المرفوض على الإطلاق إيمان من يشاء بمطلقيّة تجربة شرط أن لا يفرض قناعته على غيره، أو يستنكر على غيره نمطيّة قناعاته وإن بدت له غير مألوفة.

لقد اختلط العالم بشعوبه وإثنيّاته وأديانه إلى درجة غير مسبوقة؛ من هنا، فالعزلة المعرفيّة لم تعد واردة عمليّاً. والتعدّدية هي الهويّة الثقافيّة للقرن الحادي والعشرين. وأولى أبجديّات الحضارة بمعناها العصري هي القبول بالآخر، شخصاً وتجربة وتراثاً، مهما بدا ذلك كلّه غريباً على مسامعنا. وكلّ من عايش تجارب دينيّة-ثقافيّة-تراثيّة متباينة، يكتشف بسهولة هائلة أن ما هو مقبول هنا يمكن أن يكون مرفوضاً بالمطلق هناك؛ ما هو حقيقة مسلّم بها دون أية علامة استفهام هناك يمكن أن تكون نكتة سمجة هنا.

إنّ أبسط قواعد التعامل الإنساني تتضمّن رفض ثقافة الغيتو، التي تعكس باديء ذي بديء الإحساس بالدونيّة الثقافيّة. ولمّا كنا نؤمن إبستمولوجيّاً أن لا ثقافة أفضل من غيرها معرفيّاً، فلكلّ ثقافة خصائصها المميّزة دون أن يعني ذلك تفوّقها على غيرها، فإن أية دعوة لنشر ثقافة الغيتو، كما يفعل المتأسلمون في الغرب مثلاً، لا تعني غير الدعوة إلى أحد أشكال الشوفينيّة الدينيّة المرفوضة منطقاً وأخلاقاً وحضارة.

إصلاح.. ما بعد الموت!!!

www.annaqed.com

نبيل فياض 2 يوليو 2004

للمرّة الأولى في التاريخ العربي الحديث، نجد أنّ الشعوب العربيّة ودولةً تُتّهم بالاستعماريّة في جانب، والحكومات والأصوليين العرب في جانب آخر. وللمرّة الأولى في التاريخ العربي الحديث أيضاً، يكون التشويش الحاكم بأمره فيما يتعلّق بمواقف الحكومات إياها ممّا يُطرح على الساحة العربيّة حاليّاً من آراء ودعوات تغيير، وهو ما تجلّى بأوضح ما يمكن في ملهاة مؤتمر القمّة العربي، الذي انعقد دون أن ينعقد. الأمريكان يقدّمون خدمة جلّى للحكومات التي ترفض الإصلاح حين يتبنون هم أنفسهم هذا الإصلاح ويروّجون له ويسوّقونه. مع أنّ الأصوات المطالبة بالإصلاح في طول العالم العربي وعرضه لم تعل فقط بعد سقوط نظام صدّام حتى تتهمها الحكومات الرافضة مبدأيّاً للإصلاح بالعمالة "للمستعمر الأمريكي".

إنّ ما كتبه الباحث الاستراتيجي الأمريكي، أنطوني كوردسمان من مركز csis، قبيل سقوط نظام صدّام، من أن إمكانية ربح الحرب أسهل كثيراً من إمكانيّة ربح سلام ما بعد الحرب، أثبت صوابيّة آراء بعض الباحثين الموضوعيين الأمريكان بما لا يقبل النقاش. وفي اعتقادنا أن البانوراما الوثائقيّة التي اعتمد عليها الأمريكان بقوّة في إسقاطهم لنظام صدّام لا تنقصها الخروقات. من هنا فإن كسب سلام ما بعد الحرب يبدو أصعب كثيراً مما تخيّله كوردسمان وكروكر وغيرهما.

مما لا شكّ فيه أنّ هنالك أطرافاً عراقيّة خاسرة بأية حال من الدخول الأمريكي للعراق. وهؤلاء عموماً هم تلك الدوائر الأقرب التي كانت تتحلّق حول صدّام للإفادة ما أمكن من خيرات بلاد الرافدين التي احتكرتها ردحاً من الزمن عصابة اللصوص والقتلة البعثيين. وحين قلب الأمريكان النظام الفاشي في العراق، اعتقدوا ربما أن ضرب المركز يمكن أن يطرد أو يفكّك أو ينهي مرّة وإلى الأبد تلك الدوائر أحاديّة المركز الملتفّة حول رأس الإرهاب. لكن الواقع أثبت العكس ذلك: انفصلت الدوائر عن مركزها الأساس لتكوّن لذواتها مراكز خاصّة ستظلّ تدور حولها مادامت تملك القدرة على ذلك. بوضوح أكثر، يعرف تماماً الذين كانوا يحيطون بصدّام أنهم انتهوا، بأية حال. لذلك لا مانع لديهم أن يكون لإنهائهم ثمنٌ ما يدفعه الأمريكان وحلفاؤهم من العراقيين. لكن قدرة هؤلاء على المناورة وبالتالي البقاء يقرّرها عنصر الزمان وحده، وجزء هام للغاية من ذلك يعتمد أساساً على وضعهم المادّي ومدى إمكانيته على دعمهم بما يكفل لهم الاستمرار في مناوئتهم للتحالف الأمريكي العراقي–الرسمي؛ وهذا أيضاً متعلّق بقدرة الحكومة العراقيّة على الصمود وضبط الموارد الماديّة للمناوئين. بالمقابل، فقد ساعد التحالف غير المعلن الصدّامي–الأصولي والفلتان الأمني بعد سقوط صدّام في انتشار الحركات الأصوليّة المعادية لقوى التحالف وحلفائها من العراقيين على حدّ سواء. وإذا كان إنهاء التمرّد الذي تقوده بقايا النظام المخلوع يتعلّق أولاً وأخيراً بتجفيف القدرات الماديّة لهؤلاء الذين يقاتلون بلا قضيّة غير دفع الموت عن ذواتهم كأشخاص ملوثين حتى القمّة بجرائم النظام الآفل، فإنّ التصدّي للأصوليين، المسكونين بهلوسات ما ورائيّة عفا عليه الزمان، يبدو الأصعب؛ وغسيل الدماغ المبكّر الذي يتعرّض له الأصوليون هو الأعصى على العلاج بين كلّ أنواع الخلل النفسي التي يمكن للمرء مصادفتها. من هنا، فاستئصال الحركة الأصوليّة، بشقيها السنّي والشيعي، بالوسائل المعرفيّة أوّلاً لكن ليس أخيراً، هو المفصل الأهمّ في نقل العراق من حالته الراهنة إلى وضع استقرار مقبول. ولا بدّ هنا من تعاون دول المحيط العراقي في ضبط تسلّل الإرهاب الأصولي إلى الداخل العراقي.

إن ما نراه من مستقبل العراق لا ينبئ إلاّ بالخير، على العراق أوّلاً وعلى محيط العراق من الأقطار الناطقة بالعربيّة في منطقة الشرق الأوسط ثانياً. فالعراق هو الدولة الشرق أوسطيّة الأغنى على الإطلاق؛ وإضافة إلى المخزون النفطي الهائل، فالعراقيّون، بتعدّديتهم الهامة وإرثهم الحضاري الأعرق وإمكانيّات الحريّة التي أتيحت لهم الآن بعد تحريرهم من النظام الفاشي البائد، هم الأمل شبه الأوحد في تغيير خارطة الشرق الأوسط جذريّاً. إنّ عراقاً حرّاً ديمقراطيّاً ليبراليّاً يمثّل كلّ سكّانه، رجالاً ونساء، مسلمين ومسيحيين وصابئة ويزيديين، عرباً وأكراداً وتركماناً، سنّة وشيعة، سيكون حتماً الأمثولة لكل الشعوب- لا الحكومات – التي تعاني، بطريقة أو بأخرى، من قمع ممنهج، وإن اختلفت الشعارات. إنّ عراقاً غنيّاً يعيش سكّانه أحد أشكال البحبوحة الاقتصاديّة سيكون حتماً الأمل بالنسبة لشعوب شرق أوسطيّة يسرق حكّامها أموال الوطن ويتركون بقيّة الناس على جمر الفقر المدقع. إنّ عراقاً شفّافاً بصحافة حرّة وإعلام حر وآراء حرّة سيكون معبراً لتلك الشعوب المقهورة في الشرق الأوسط للخروج من ظلمة التوتاليتاريّة المعادية لمنطق العصر والحياة إلى عالم مختلف بالكامل.

إنّ المطلوب من دول الغرب الليبراليّة، التي نرى فيها عمقنا الاستراتيجي في معركة الوصول إلى الحريّة، والتي أدركت تماماً، بعد مهزلة بن لادن، أنّ رعاية التطرّف الأصولي هي القطب النقيض لمصالحها، هو فقط دعم العراق في طريقه المليء بالصخور للوصول إلى برّ الأمان؛ بمعنى التوقّف بالكامل عن إظهار أنها تريد فرض مشروع إصلاحي على دول الشرق الأوسط بالقوّة. إنّ هذه الدول غير راغبة أصلاً بالإصلاح: وإلاّ فما الذي يمنعها عن القيام بأبسط الخطوات التي يمكن أن توحي للشعب المقهور أن هنالك بوادر رغبة بالتحسين؟ وحين تعلن دول المعسكر الليبرالي عن رغبتها بتغيير في الشرق الأوسط، فهي تساهم، بشكل أو بآخر، في إعاقة هذا التغيير. وهذه الشعوب التي غسلت حكوماتها أدمغتها بأن عدوّها الأوحد هو الغرب الرأسمالي الإمبريالي الكافر – لا اللصوص الذين يسرقون الناس سرّاً وعلناً – سوف تستغلّ اللاوعي الجمعي المعادي للغرب في نسف أي مشروع تغييري، تحت عناوين برّاقة كاذبة، مثل محاربة الغرب ومشاريعه. وكلّ من يعرف ببواطن الأمور يدرك دون تردّد أن المقصود بذلك ليس الغرب الذي يقف للمرّة الأولى مع الشعب لا مع الحكومات التي دعمها على الدوام، بل الحفاظ على المكاسب التي تُجنى بأفضل ما يمكن في الحالة الراهنة من تغييب للديمقراطيّة والشفافيّة وأدنى متطلّبات الحريّة.

ما هي العلاقة بين إسرائيل وإعاقة المشاريع الإصلاحيّة؟

سؤال غريب مزعج للسمع نجيب عليه بسؤال أكثر غرابة وإزعاجاً؛ يقول: كيف يمكننا أن نفسّر مجيء الفرنسي أو الأمريكي أو الروسي أو الأثيوبي من الأقليّات اليهوديّة في تلك الأقطار إلى بلد مليء بالمشاكل كإسرائيل، ليحمل فيها ساعة وصوله أحياناً البندقيّة لقتال أناس لا يعرف عنهم شيئاً؛ في حين نجد أن مواطن هذه الدولة العربيّة أو تلك، من المحيطة بإسرائيل، على استعداد لدفع رصيد العمر في سبيل الهجرة من وطنه أو أن يُعفى من خدمة العلم؟ التفسير الأوحد هو ذلك الذي يمكن تطبيقه على لغز تبخّر جيوش صدّام التي تجاوزت الملايين مع أوّل حذاء أمريكي دخل بغداد! الفلاشي الأثيوبي يشعر أنّ له في فلسطين التي لم يسمع باسمها من قبل أكثر ممّا أشعر شخصيّاً أنّ لي في سوريّا، التي أحارب فيها منذ زمن طويل في سبيل تحرير العقل من ثنائيّة الخرافة والاستبداد! بلد ما يزال يشعرك أنّك إذا أردت التنفّس أو الحب أو الكتابة يجب أن تذهب إلى لبنان أو قطر أو الكويت، هو بلد لا يربطك به غير جنسيّة تشتهي بيعها وجواز سفر تتمنّى مصادرته وبطاقة شخصيّة أضعتها منذ زمن طويل ولا تبحث لها عن بدل ضائع: ولن تبحث! بلد يشعرك ليل نهار أنّك ممتلك فيه لهذا أو ذاك،

وأنت فيه لا تمتلك شيئاً، لا يهمّك في النهاية إن تركته أو بقيت فيه، إن تبعّث أو تأمرك، إن تأسلم أو تهوّد! خاصّة وأننا في سوريّا نفتح أعيننا على مثّل صادق يقول: من تزوّج أمي، أناديه ياعمّي!!!
حين اخترع حبيب الملايين من أنصاف المعتوهين، المدعو جمال عبد الناصر، شعاره الأغبى: لا صوت يعلو على صوت المعركة؛ لم يكن المقصود بذلك المعركة مع إسرائيل، التي خسرها ووزير–زير دفاعه، المنتحر عبد الحكيم عامر، بامتياز لا يعادله غير امتياز هذا الوزير–الزير في علاقاته الجنسيّة مع أنصاف الفنانات، بل المعركة مع أعداء الفساد الذي استشرى من صلاح نصر إلى أصغر موظف في وزارة الأوقاف! وهذا الشعار الأكثر إفادة لكلّ الاستبداديين تمّ استيراده إلى معظم دول جامعة شعبان عبد الرحيم العربيّة من جزر القمر التي أرجّح أن سكانها يعتقدون أن إسرائيل إحدى جزر المحيط الهادي، إلى اليمن التي ذكر لي باحث ألماني صديق أنها أكثر مكان في العالم لن يشعر فيه آدم وحوّاء إذا عادا إلى الحياة بالاغتراب، حتى آخر القائمة المريعة.
لماذا يشعر الفلاشي الذي وصل قبل نصف ساعة إلى مطار بن غوريون أنّه مواطن، كامل المواطنيّة، في دولة لا يربطه بها شيء؛ في حين لم أستطع يوماً – وأتحدّث هنا عن ذاتي كي لا أزعج مطلق آخر – الشعور أنّي مواطن سوري، بالحدّ الأدنى؟ ثمّة معلومات موضوعيّة يمكن لي إيرادها هنا، قد تفيد في الإجابة على هذا السؤال غير المريح:
قبل سنوات أُخضع رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، بنيامين نتنياهو، وزوجته سارة ، لجلسات استجواب متعدّدة من قبل الشرطة في إطار قضيّة فساد تورّطت بها زوجته. المضحك–المبكي في الأمر أنّ قضيّة "الفساد" التي تورطّت بها السيّدة سارة، هي الاشتباه في استعدادها لخدمة أحد المقاولين مقابل تنفيذ ترميم لشقتها الخاصّة في القدس، ولكن كلفتها سدّدت من أموال الدولة. ثمّة قضيّة أخرى استجوبت على أثرها سارة وزوجها تتمثّل في حصولهما على هدايا ثمينة عندما كان بيبي رئيساً للوزراء، والتي تعتبر بموجب القانون ممتلكات عامّة.

عام 1977، استقال الوزير الأوّل الإسرائيلي الراحل، اسحق رابين من منصبه، بعدما كشفت صحيفة هآرتس النقاب عن أن زوجته الراحلة ليئة تمتلك حساباً مصرفيّاً في الولايات المتحدة؛ ومعروف أن رابين كان وقتها سفير إسرائيل في واشنطن، وحين تفتح زوجة السفير حساباً مصرفيّاً لها في الولايات المتحدة فذاك يعتبر خرقاً لقانون الرقابة على العملات، الذي كان معمولاً به في إسرائيل. وسبق أن حكم علي رابين عندما كان موظفاً في وزارة الدفاع بالسجن سنتين لقبوله رشاوي من تجار يتعاملون مع الوزارة.
وكانت فضيحة اختلاس هزت حكومة اسحق رابين عام 1977 عندما انتحر وزير الإسكان ابراهام أوفير. ومن قضايا الفساد التي اجتاحت إسرائيل آنذاك هي إبعاد حاكم بنك إسرائيل أشر يادلين 53 عاماً عن منصبه بعد سبعة أسابيع من تعيينه في المنصب من قبل حكومة رابين، وكان قبض عليه بتهمة قبول الرشوة والاحتيال.

وقبض كذلك على ديفيد بيليد مدير عام الجمارك وأوقف عن عمله بعد اتهامه بقبول عدة رشاوي بينها رشوة بمبلغ 35 ألف دولار. كما أنه متهم بالاحتفاظ بحساب في أحد البنوك السويسرية خلافاً للقوانين الإسرائيلية. وحكم علي مايكل تسور مدير عام وزارة التجارة سابقاً بالسجن 15 عاماً عام 1975 بعد اعترافه بارتكاب جرائم الاحتيال والرشوة وتحويل العملة الأجنبية واختلاس 3 ملايين من شركة سياحية يرأسها.

في الثالث من أيلول–سبتمبر، قامت القيامة في الصحافة الإسرائيليّة بسبب اعتقال وزير الداخليّة آنذاك ورئيس حزب شاس الديني المتطرّف، الحاخام أرييه درعي، لقبوله رشوى، في حين أنّ رئيس الدولة السابق العجوز، عزرا

وايزمن، يُرسل إلى فيلّته في قيصريّة وهو الذي تقاضى المبلغ ذاته من جهة أخرى. والسبب الأوحد المبرّر لهذا السلوك غير المبرّر أخلاقيّاً هو كون الرئيس الإسرائيلي تجاوز كثيراً السن التي يستطيع المرء فيها تحمّل السجن. مع ذلك، فالصحافيّون الإسرائيليّون، الذين لا توظّف دولتهم أشخاصاً من نمط أحمد ضرغام أو علي عقلة عرسان يعدّون على الكتّاب أنفاسهم، كان بينهم من هاجم بشدّة قرار الحكومة، واعتبره يحمل الطابع التمييزي المعادي لليهود الشرقيين، ومن هؤلاء نذكر الدكتور هنري روزنبرغ.

وبعكس الحكام العرب تماماً، فإن "شقيق" رئيس دولة إسرائيل موشيه كتساف، المدعو ليئور كتساف، عمدة قريات ملاخي، تعرّض لتحقيق جنائي في اليوم الذي أعقب وصول أخيه إلى سدّة الرئاسة، دون أن يحول ذلك بين القانون وتطبيقه، حتى وإن كان المجرم المفترض شقيق الرئيس.

إن هذه الأمثلة، وغيرها كثير، هي أحد الأسباب التي يمكنها تفسير قوّة إسرائيل وتمكّنها على الدوام من هزيمة من يعاديها. فالمواطن لا يدافع عمّا لا يشعر أنه ملكه. المواطن لا يدافع إلاّ حين يشعر أنه مساو للكبار في الحقوق والواجبات!

في دول شرق أوسطيّة ناطقة بالعربيّة لا يكفي المواطن فقره وجوعه واستقراره تحت أعلم النعوش مقلوبة الغطاء، راضياً مرضيّاً، بل مطلوب منه أيضاً تحت عنوان "المعركة الأكبر" أن لا يشكو الفقر ولا الجوع ولا ملء النعوش تلك. مع العلم أنّه لو عرف الإسرائيليّون أنّ القمع يمكن أن يوصلهم إلى انتصارات أهم لما تردّدوا لحظة في تطبيقه، على الجميع.

البارحة كانت راية المصادرة تحمل نجمة سداسيّة؛ واليوم تحمل أنجماً خماسيّة يزيد تعدادها على الخمسين! في حين أن العلم الفعلي للقمع مشكّل من ألواننا التقليدية، الحمراء الخضراء البيضاء السوداء، وحده الشعار المثبت فوق اللون الانتصافي الأبيض يختلف بين نسر هنا ونجمات هناك وكلمات مكتوبة بخط قلق عند الطرف الثالث. يعدوننا بالإصلاح؟ لا ننكر ذلك؛ منذ أربعين عاماً ونحن نوعد بالإصلاح! وسوف ننتظر أربعين سنة أخرى؟ الإصلاح آت: لكنه إصلاح ما بعد الموت!

عن الدروز والإسماعيليين والمرشديين مرّة أخرى

www.annaqed.com

نبيل فياض 29 يونيو 2004

سعدت للغاية حين حدّثني صديقي الجميل، الدكتور عاصم العظم، من أنّه يوم التقى شيخنا المتلّفز، صنيعة الأجهزة، الذي لا يعرف أحد قرعة الذي خلّفه من أين، محمّد سعيد رمضان البوطي، في مطار فيينا، قال له الأخير: إن نبيل فيّاض من أسرة يهوديّة!!! وكان قبلها الدكتور سهيل زكّار قد سألني ما إذا كانت أمّي إسماعيليّة؛ ولما استفسرت منه عن مصدر الاشاعة الجميلة؛ قال: البوطي!!! ياللهول!!! يا لخجل الأحرار – إن بقي أحد منهم على قيد الحياة – من قريش!!! يا ناعساً رقدت جفونه!!! واذلاّه يا تغلب!!!

رغم أن العشائريّة أحقر بما لا يقارن من الطائفيّة، فنحن ننتمي إلى أسرة تعود بأصولها إلى قبيلة شمّر، التي قدّمت لأمريكا – نكاية بالبوطي – أوّل رئيس لجمهوريّة العراق بعد تحريره من الكابوس الصدّامي! يعني أنّنا لسنا تركماناً ولا شيشاناً ولا أكراداً ولا داغستاناً ولا ما شابه، من تلك القوميّات الشرشوشحة [اللي مثلنا تعالوا لعندنا] التي يتمّ استيرادها لتسليمها أرفع المناصب من مجلس الشعب في هذه الدولة إلى المفتي العام في تلك الإمارة إلى نقيب الفنانين في ذاك القطر!

الحقيقة التي لا أخفيها، أني كنت أتمنى لو أن أمي اسماعيليّة؛ فهذا يعني أن خاليّ كانا سيكونان من دعاة العقل والوعي والثقافة، لا وهابيين – أحدهما وهابي فعلاً، والآخر ناصري – تكفيريين مريعين من أنصار بن لادن وبقيّة القرطة! بل كنت أتمنى لو أن والدي كان من أسرة يهوديّة، أقله كنت سأجد وطناً أهاجر إليه، يعترف بي، يسمح لي بالحب والكلام: لا دول بوليسيّة نصف طالبانيّة . نصف بعثيّة، يهتف بعض ضباطها لأصدقائي لمنعهم عن زيارة هذا الكسليكي المتأمرك المتصهين المتعلون [من إياد علاوي لا من العلوية].

هذا الكلام أقوله بمناسبة الكمّ المزعج من الرسائل التي تأتيني ناقلة التأفف العام من دفاعي عن بعض الأقليّات التي عاشت – ويجب أن تموت – مسحوقة، من الآن وإلى أبد الآبدين: آمين!!! ويخصّون بالذكر الدروز والإسماعيليين والمرشديين.

كنّا كلما خسرنا معركة أو حرباً أو غزوة؛ نقول: سلاح روسي فاسد وخيانة درزيّة!!! لكن وزير الدفاع الجميل كان يمضي وقته في النضال مع الأخت المقاتلة جورجينا رزق؟؟؟ الدروز خونة!!! لكن السلاح مهترىء والجيش مفيّش والضباط شي تكتك شي تيعا؟؟؟ الدروز خونة!!! لكن الفساد أكل الأخضر واليابس والرشاوى تفصّفص عظام الوطن وبعض الضباط يمتلك ما لا يمتلكه جيش الصين "الشعبيّة"؟؟؟ الدروز خونة!!! لكن سمير قنطار درزي، وسميح القاسم درزي؟؟؟ الدروز خونة!!! وبسّام العدل وعبد الحكيم عامر وجلالة الملكان الحسن والحسين حتى آخر الليسته المضروبة من غير الدروز؟؟؟ الدروز خونة!!!

لا بدّ لك أن تسدّ بوزك، وتقتنع أن الدروز، كلّهم، خونة؛ لأن بوطة المشايخ، التي تبلّط في التلفزيون هذه الأيام، خاصّة بعد وصول سفيرنا السابق إلى إيران التطرّف الخمينيّة إلى كرسي وزارة الإعلام، تقنع قطيعها الذي توقف أخيراً حتى عن الثغاء، بأن الدروز خونة. – مع ذلك، فأنت لا تستطيع إلاّ أن تهمس لنفسك بأنه من الصعب، سيكولوجيّاً، على إنسان سوي، درزيّاً كان أم غير درزي، أن يخون وطناً أحبّه وعاش منه وفيه ومع ناسه: مهما كان قمع الوطن عليه شديداً، ومصادرته لأحلامه غير مبرّرة!!!

الدروز غير أخلاقيين؟؟؟ يا لطيف!!! أنا موجود في منطقة ليس فيها أحد من أتباع تلك الطوائف الباطنيّة – هكذا يسمّونها – الحقيرة؛ مع ذلك، ففي جريمة اغتصاب طفل من قبل أحد البالغين، كادت البلدة التي تعدّ أكثر من ثلاثين ألفاً أن تفقد معظم رجالها وتصبح مدينة النساء، بلا منازع، لاتساع دوائر العلاقات الذكوريّة المثليّة مع اكتشاف الجريمة تلك؟؟؟ الدروز غير أخلاقيين؟؟؟ وما دليلك، عافاك هبل، أن الدروز غير أخلاقيين!!! لقد ذكر لي شيخ من الذين يتمّ استيرادهم من بلاد الأفغان والبان وحدائق الجان، أنّ الدروزعندهم ليلة؛ يقولون فيها: "صاح ديك شعيب، وما بقي عيب"!!! وامعتصماه!!! وما أدراه ذاك الكائن الأفغاني بالدروز، إذا كان لم يمض على وجوده في بلاد الشام أكثر من ثلاثة أيام، رغم الموقع الهام الذي تمّ ترشيحه له؟؟؟ لقد قرأ في أحد كتب الأئمة من الثقاة، أن شيشانياً – ليس من مجلس الشعب أبداً – كان يجاور مستشرقاً كانت أخته تصاحب بدوياً أمياً سمع من عمّه زوج أمّه التي ماتت ودفترها العائلي الأخير ممتلىء حتى الثمالة أنّ "هجوته" أنّ الدروز يتناقلون بين بعضهم "سرّاً" هذا المثل الصريح؟؟؟ لكن، يا حبيبي، الدروز، على حدّ علمي، كائنات تنتمي إلى البشر، وباستثناء النوعيّات البشريّة المريضة، فأي إنسان سوي بالحدّ الأدنى يرفض أن لا يبقى عيب، حتى لو صاح الديك الذي تحدّث عنه سيادة العماد أوّل في كتابه "مرآة حياتي" ياعين!!! إضافة إلى أنّ علاقتي ببعض الدروز، التي لم تكن عبر أخت المستشرق التي صاحبت بدويّاً، تسمح لي بالقول إن هؤلاء الناس من أكثر الناطقين بالعربيّة تمسّكاً بالفهم الشرقي للأخلاق؛ وبالتالي فأخت مستشرقك وبدويّها [أمّه ليست كاذبة طبعاً] كاذبان. لا أعني بذلك أن كلّ الدروز ملائكة تسير على الأرض، فكلّ جماعة فيها من الأسوياء وغير الأسوياء ما يكفي، إلاّ أنّ هذا الكلام التعميمي عن الدروز لا يعني سوى التعصّب المطلق والجهل الأكثر إطلاقاً.

ولماذا هاجمت بعنف ذاك القاضي ووزير عدله اللذين شحطا درزيّاً من رقبته إلى سجن عدرة لأنه كان يدخّن في رمضان؟؟؟ بما أنّ الشيء بالشيء يذكر، مّة نكتة تعبّر – نرفض إيرادها حتى لا نتهم بالتعميم الذي يمارسه غيرنا – للغاية عن موقف مشابه، تحكي عن إسباني جميل جداً تعطّلت سيارته في مدينة ادلب السوريّة في شهر رمضان؛ وكان تعليق شيخ الجامع بأن رمضان يأتي كلّ عام، والإسباني يأتي مرّة في العمر!!! رمضان يأتي بملله القاتل كلّ عام، لكن كرامة الدرزي التي سفحها القاضي – ومن يقف وراءه – إياه تأتي مرّة في العمر!! لن أنصت لهذه السخافات، فنحن غالبيّة والدروز أقليّة، وعلى الأقليّة أن تعيش وفق مشيئة الغالبيّة؟ ما شاء الله على التفكير المشائخي؟ أنظر يا أخا العرب: لم يعد في هذا العالم أغلبيّة وأقليّة: أنتم، في السويداء، أقليّة؛ فهل تقبلون أن تعيشوا وفق شرائع الغالبيّة؟ أنتم في جونيه أقليّة: فهل تقبلون أن نطبّق عليكم قوانين الغالبيّة؟ أنتم في الهند أقليّة، فهل تقبلون أن يمارس الهندوس القمع عليكم باسم الغالبيّة الساحقة؟ لكننا نتبع شرع الله؛ والآخرون ليسوا كذلك!!! شوف يا عبقري: كلّ الكائنات التي على شاكلتك تعتقد أن شرائعها من الله، لا من فيفي عبده؛ من عبدة القرد هنومان إلى عبدة البقر المقدّس إلى أنصار طاووس ملك، الذي تسمّونه إبليس!! شرائعنا وعقائدنا عقلانيّة، في حين أنّ غيرنا خرافي التفكير والهوى!!! والله!!! وماذا عن قصّة النبي الذي خطف رجله لزيارة الله في السماء السابعة، وتناول صحن هريسة مع الملك جبرائيل؟ ماذا عن قصّة الملائكة التي تدوّن كلّ أعمال بني البشر وتنتظرهم "على أحرّ من الجمر" في القبر – القبر كما هو مصوّر في الأدبيّات الإسلاميّة أصعب من زنزانات المخابرات – لتعرف شغلها معهم؟؟؟

دعنا من الدروز الذين لا يخفى على أحد ولعك بهم؛ لماذا لا تترك فرصة دون أن تعبّر عن إعجابك بالفكر الإسماعيلي؟ أنا، يا شيري، سوري رغم أنف كثيرين؛ والإسماعيليّون هم أفضل ما أنجب الزواج الإسلامي من التقاليد السوريّة المتيوننة؛ من هنا، لا شيء يمنع أن أعجب بتيار فكري أصيل، ساهم بعمق في إغناء الحضارة السوريّة العريقة! لكنّك مأخوذ بنشوة صلاتهم التي حضرتها يوماً، والتي لا نجدها متساوقة مع ما اعتدنا عليه من

صلاة؟ الصلاة، لفظاً، من الصلة؛ والصلة هنا مع الله؛ والتواصل مع الله لا يحتاج إلى صيغ جاهزة، فمن تجربتنا الشخصيّة وجدنا أن كثيرين للغاية، بل ربما الغالبيّة الساحقة، ممن يدّعون التواصل مع الله عبر الصيغ التقليديّة، كانوا يتواصلون مع الله لساناً فقط، لا قلباً ولا عقلاً؛ وأنا أعتقد أن الصلاة الإسماعيليّة، كما عشتها، توصل إلى الله أكثر بكثير من صيغ كثيرة متعارف عليها، إضافة إلى أنّها تدحض بالكامل خرافة التشويه العبادي الذي يُطارد به الإسماعيليّون. لكنّك طالبت بوجود إسماعيلي على الخارطة الدينيّة السوريّة، وهذا غير مقبول، لأن هذا الفكر تخريبي أقلّوي، تتفق الغالبيّة الساحقة من شعبنا المؤمن على رفضه! ومتى كان اتفاق الرعاع دليلاً على أحقيّة مسألة أو زيفها؟ ثم ألا يحقّ للإنسان، من منطلق حيادي موضوعي، أن يعلّم أولاده ما يرى أنّه "الدين الصحيح"؟

والمرشديّون؟ ما بهم؟ ألا تخجل من الدفاع عن ديانة جديدة؟ والماركسيّة ديانة أرضيّة جديدة، يؤمن بها، دون استغراب، ملايين البشر! الإسلام ذاته، في يوم من الأيّام كان ديانة جديدة استعدت بعنفها الناس كلّهم عليها: وما تزال! لكنّك لا تعرف شيئاً كثيراً عن هؤلاء! إن الهدف المفترض لأية ديانة في العالم، جديدة كانت أم قديمة، هو الدفع باتجاه الأخلاق؛ والمرشديّة كما عرفتها عن بعد، تشعرك بفيض متعب من الأخلاق – بمفهومنا نحن للأخلاق، لا بمعنى ذقون التيوس وشادورات الخيام المتنقّلة – يغمرك بسلام داخلي حتى الثمالة! اعذرني حين أقول: هل قرأت أو سمعت يوماً عن مرشدي أو اسماعيلي أو درزي قطع رأس إنسان أمام عدسات التلفزيون كما تفعل وحوش الأصوليّة في العراق؟ هل قرأت أو سمعت أو رأيت درزيّاً أو اسماعيليّاً أو مرشديّاً يفجّر سفارات "كافرة" بها ألوف الأبرياء؛ أو مطاعم كافرة يتناول فيها أطفال مدارس طعامهم؛ أو محطّات مترو تقلّ مراهقات يتدافعن للوصول إلى حبيب أو صديق أو أم تنتظر وستبقى تنتظر؟ إنّ مرشدياً من شين أو شطحا، يسحبك إلى الله بصدقه ووجهه السلامي يساوي عندي كل ما فرخّته السعوديّة وغيرها من أصوليين، من الآن إلى دهر الداهرين!!! وكيف توافق على اعتقاد أناس بألوهيّة شخص مهما كان عظيماً؟ أوّلاً: إنّ أبسط مقولات الحريّة تقتضي عدم مصادرة حقّ الآخر فيما يراه اعتقاداً مناسباً له؛ ثانياً، كلّ ما لدينا من معلومات، حتى الآن، حول تأليه المرشديين لشخص سليمان المرشد لا يخرج عن إطار التكهنات والأقاويل، المنسوبة ليس دون بهارات النقد غير الموضوعي إلى أعدائهم؛ ثالثاً: حتى لو ألّه المرشديون شخص سليمان المرشد، لا أعتقد أنّ المسألة تستدعي كلّ هذا الاستغراب خاصّة إذا ما علمنا أنّ تاريخ التجسّد الإسلامي ممتلىء حتى النخاع وأنّ ديانة عالميّة اسمها المسيحيّة تؤمن دون شهقة الدهشة بألوهية شخص اسمه يسوع الناصري!

وماذا عن أخلاق المرشديين؟ الحقيقة التي لا أحسدكم عليها فهمكم الجنسي الضيّق للأخلاق؛ وحتى هذا الفهم أنتم النقيض له! لا أعتقد أوّلاً أنّ أقليّة في هذا الكون إلاّ وتعرّضت لتشويه الأغلبيّة. هل تريد أن أذكر لك ما يقال عن "طائفة الشبك" العراقيّة من جيرانهم؟ عن الإسماعيليين وعباداتهم؟ عن القزل باش والبكطاش؟ عن اليزيديين والعلي إلهيّة؟ من منظوري الشخصي، كلّ ما هو معاد للطبيعة غير أخلاقي؛ والمجتمع المرشدي كما رأيته عن بعد الأكثر توافقاً مع الطبيعة والجمال! من هنا، فالفتاة المرشديّة التي تكمل بجمالها سحر طبيعة القرى المرشديّة الجميلة عموماً أكثر أخلاقاً من أية طالبانيّة أو قبيسيّة تعقّد الله وملائكته وكتبه ورسله بثيابها السوداء في عزّ الصيف، وحجابها الذي تفوح منه رائحة عرق مقزّزة وصوتها الذي لا يسمعه غير الدوش كي لا تنتهك حرمة السماء السابعة بعورتها.

باختصار شديد، سوريّا جميلة فقط بطوائفها الصغيرة من غير أهل السنّة والجماعة ونظائرهم من الإثنيعشريين! ولولا هذه الطوائف لكانت تلك الجمهوريّة التي أهرموها قبل سن الهرم أقرب إلى الربع الخالي!!

حين يقال إننا نتحدّث كثيراً عن الشأن الطائفي، فذلك لا يعني أننا طائفيّون: العكس المطلق هو الصحيح! الطائفيّة، كمرض، موجودة في كلّ مكان: والتحدّث عن المرض دون عقد المرحلة الأولى في علاجه.

نبيل فيّاض هاتف 7238726 (دمشق).

الاستعهار الديني: الفن التائب وتجارة التطرّف!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 25 يونيو 2004

لو سألت عن الحجاب الإسلامي قردة من مجاهل إفريقيا، مطلعة جيّداً على تاريخنا المضيء – 220 شمعة – خاصّة محيي السنّة ومميت البدع، المتوكّل على بعل زبّول العبّاسي، صاحب "أنظف" سمعة جنسيّة في التاريخ الكوني، وكذلك مطلعة على فقه أئمتنا الأربعة [معهم، على البيعة، أئمة الإثنيعشريين، أمثولة الطباطبائي والصدر الكاعب]، الذين لا يشبهون من الكائنات الحيّة هذه الأيام غير المطربة صباح: في أنّ الله خلقهم وأغلق باب الاجتهاد، يعني كسر القالب أوّلاً، وفي أنّ صلاحيتهم "الغذائية–الدوائية"، ثانياً، انتهت منذ زمن لا يعرفه إلاّ الله؛ فسوف تردّ القردة المغرقة في ثقافتها: كم أنت جاهل أيها الإنسان!!!!! ألا تعرف أن الحجاب فرض "فقط" للتمييز بين الأمة والحرّة في صدر – ليس كاعباً – الإسلام الأوّلي؟ أنتم، يا بشر الغباء والعقول المقفلة، لا تزالون تفكّرون عبر طاقة أدنى المشاعر وأكثرها حيوانيّة! فقط اقرأوا تاريخكم لتعرفوا أن كلّ ما يقوله المشايخ والشيخات – الشيخات أسوأ موضة عرفها "الشارع" السوري – لا يخرج عن إطار الدجل المقدّس!

تحتار أمام هذه القردة الجميلة الذكيّة؛ تحكّ رأسك وتحاول التذاكي عليها، لتسأل من جديد: أيتها القردة المفكّرة؛ لكن إمامنا المتلفز، أونكل عمرو خالد، يوقف ويستوقف ويبكي ويستبكي على الحجاب وأهميته وكيف أن الله يصاب بنوع مزعج من تشنج الكولون – أرجو أن لا يقرأ هذا الكلام وزير صحتنا المفدّى حتى لا يطلب منّا أن نعمل له حجامة – إذا لمح خصلة شعر إمرأة في الشارع العام؟

تتضايق القردة ذات الثقافة غير السطحيّة؛ فتقول: أنا أكره عمرو خالد لأنه يذكّرني بأسلافي في مرحلة ما قبل الداروِنيّة! شوف يا غبي! ألا ترى كم تفّه عمرو خالد الناس معرفيّاً حين صوّر لهم، على طريقة أفلام المرحوم فريد الأطرش، الصحابة الكرام – يخز العين عليهم – وكأنهم مجموعة من الملائكة لا عمل لها إلاّ التسبيح؟ التسبيح، يا ذكي، لا التشبيح! طيب؛ هل قرأ عمرو خالد "صحيح" – هكذا اسمه، والله – البخاري؟ البخاري يقول في صحيحه، نقلاً عن نبيّه، إن فاطمة – بنت النبي – بضع من أبيها، ومن أغضبها فقد أغضب النبي، ومن يغضب النبي، تحصيل حاصل، يغضب الله؛ ويقول في "صحيحه" إن فاطمة هذه ذاتها، ماتت غاضبة على أبي بكر وعمر؛ ويقول في "صحيحه" أيضاً، نقلاً عن نبيّه، من مات مخالفاً إمام زمانه – مثل فاطمة وأبي بكر يعني – مات ميتة جاهليّة؟ هل تستطيع حلّ هذا اللغز؟!

ألم تقرأ في كتب التاريخ، يا جاهل، أن عمر بن الخطّاب – الفاروق يعني – أمر بحرق بيت علي وفاطمة لأنهما رفضا مبايعة أونكل أبي بكر؟

ألم تقرأ أيضاً، يا شَبَه التلفزيون السوري، أنّ الصحابي الجليل، سيف الله المسلول، خالد بن الوليد، قتل الصحابي الجليل الآخر، في حوّارين – من محافظتي، حمص – سعد بن عبادة لأنه رفض مبايعة الصحابي الجليل [أيضاً؟؟!] أبي بكر الصدّيق؟

ألا تعرف، يا ضناي، أن أم المؤمنين، السيّدة عائشة، طالبت بقتل الصحابي الجليل [ما هذه القصّة!]، ذي النورين، عثمان بن عفّان، فدخل أخوها، شبه الصحابي – أجلّكم – [لكنه ابن أبي بكر، مع حفظ الألقاب، وربيب علي بن أبي طالب وابن زوجته] على هذا المنوّر ليقتله بطريقة أين منها صنائع هولاكو؟

ألا تعرف أيضاً، أنه في سبيل الملك، قتّل الصحابة بعضهم بعضاً في معركة الجمل، التي كان رأس أحد طرفيها أم المؤمنين إياها وابن عمّها – اتهمه النبي مرّة بعلاقة مريبة مع بنت العم؛ فردّ هذا الرضي المرضي: لئن مات محمّد لتزوجتها من بعده – طلحة وابن عمّة النبي الزبير، والرأس الآخر، علي بن أبي طالب، وهذه الدفعة من الصحابة مبشّرة كلها بالجنّة؛ فقتل الزبير وطلحة وكادت الست أن تسبى! مع ملاحظة أنهم جميعاً، قشّة لفّة، مبشّرون بالجنة: والله! والنبي، صلّى الله عليه وسلّم؛ بحسب البخاري، يقول: ما اقتتلت فئتان من أمتي إلاّ وكانت كلتاهما في النار! حلّها إذا كان باستطاعتك حلّها؛ تبشير بجهنم والجنّة في آن!

أمّا علي ومعاوية وعمرو بن العاص [يشترك الأخيران في السمعة غير العطرة من ناحية الماما؛ وبأن البابا، بعكس أحاديث البخاري، مختلف عليه] فقصتهم قصّة! هل يعرف المسلمون الأذكياء أن عامل معاوية، حين ألقى القبض على محمد بن أبي بكر – مع حفظ الألقاب – دحشه حيّاً في بطن حمار ميت، وأحرقه!!! والله! من لا يصدّق، ليسأل الملاك عمرو خالد!

هل تعرفون أنه كان مكتوباً على شاهدة قبر الصحابي الجليل، حجر بن عديّ، في قرية عدرة السوريّة: هذا قبر الصحابي الجليل حجر بن عدي، الذي قتله الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان، لأنه رفض أن يشتم الصحابي الجليل علي بن أبي طالب؟

هل أذكّركم، وأنا القردة، بما فعل يزيد (رض) ببني هاشم والحسين بخاصّة:

لعبتُ هاشم بالملك فلا ملك جاء، ولا وحي نزل

ما علينا! هذا كلام أمير المؤمنين، يزيد بن معاوية، رضي الله عنهما وأرضاهما!

أننتقل إلى فصل الحجّاج وعبد الله بن الزبير، ابن ذات النطاقين؟ أم نحكي عمّا فُعل بزيد بن علي؟ رأيي أن نتوقف قليلاً عند فضائل هشام! الوليد الثاني أفضل؟ ربما مروان الحمار، صاحب النهاية الشيكسبيرية، هو أفضل من يختصر تاريخنا العربي المضيء.

هل نحكي لكم كيف قتلت السيّدة الخيزران ابنها الهادي من أجل ابنها الآخر، هارون الرشيد؟ أم نحكي لكم كيف قتل المأمون – صاحب لا أدري، ما غيره – أخاه الأمين – صاحب كوثر، ما غيره – في سبيل الملك؟ ما رأيكم أن نتحدّث قليلاً عن متوكلنا – صاحب شاهك، ما غيره – الذي قتله ابنه البار، وكان البابا مخموراً بين غابة من سيقان النساوين الجواري، في سبيل الملك؟ طيّب: ما رأيكم بمرور سريع على تاريخ قاضي قضاة بغداد زمن كمشة من أمراء مؤمنينا الأفاضل، المدعو يحيى بن أكثم؟

بصراحة ربّنا: لأن هذه القرطة ستحتلّ بتفاصيلها المملّة صفحات كتاب *كمشة بدو*، ما من سبب يبرّر حرق التفاصيل الآن!

لكن: أيتها القردة الحكيمة، ألا تعرف التائبات على يد الرجل – بلا تشبيه – عمرو خالد هذه القضايا؟ أجابت القردة الوقحة: أيها العربي الأغبى؛ التائبات، خاصّة منهن الفنانات، لا يرغبن بتحاميل المعرفة إلاّ من صيدليّة دكتور الوعي، عمرو خالد. إنهنّ مقفلات – باستثناء الأخت البتول، سحر حمدي – إلاّ على ما تدسّه فيهن أصابع عمرو خالد من "أفكار"!

تواريخ عربيّة.. مضيئة:

بدأت رياح التوبة تهبّ مع ممثّل اشتهر بأنه من أوائل الذين قاموا – وأبدعوا – بأدوار اللواط في السينما العربيّة، محمّد ع. وهذا الكائن، مع حرمه المصون، هو أحد أعمدة التدين في مصر الآن. بدأ هذا النجم حياته بدور في أحد أفلام حسن الإمام، المأخوذ عن قصّة لنجيب محفوظ. وقام بدور شاب – إلى حدّ ما – يضاجعه، في الفيلم طبعاً، أحد عتاولة الفن السابع المصري آنذاك. لكنه لم يشتهر إلاّ بعد أن قام بدور فاضح في فيلم حمّام

الملاطيلي، وفيه يضاجع أيضاً الممثّل الشهير أيضاً؟؟؟] يوسف ش. وعلى ما أذكر، كان هذا الممثّل متزوّجاً من الفنانة الفضيحة – ظهرت عارية الصدر تماماً في فيلم غيتار الحب – السوريّة، نادية أ. وعلى ما أذكر أيضاً، فعند طلاق الممثّلة الفضيحة من الفنان الصاعد آنذاك، قالت لصحيفة لبنانيّة، مبرّرة الطلاق: كان يخونني؛ وياليته كان يخونني مع إمرأة!! يعني، التمثيل، على الأرجح، كان جزءاً من حقيقة يعيشها فناننا السابق، إمامنا الحالي.

الفنان الآخر محسن م.د.؛ وقد كان عشيقاً رسميّاً للمخرج المصري الأشهر، اللبناني الأصل، المعروف بميوله الجنسيّة عند أمّة "لا إله إلاّ الله". هذا الفنان الفاشل، اختار الولوج إلى عالم الشهرة من بوابّة مخرجنا الواسعة للغاية. فأعطاه بطولة فيلم مع مطربة فرنسيّة شهيرة للغاية. وبعدها بطولات كثيرة، منها واحدة مع الممثّل الفرنسي الشهير، ميشيل بيكولي، وكان الفيلم مليئاً بإيحاءات جنسيّة من النوعيّة إياها. تزوّج هذا الفنان من فنانة عرف عنا أنها خطفت مطرباً سوريّاً متقدّماً في السن – وقتها – من زوجته المطربة السوريّة، وظلّت وراءه حتى قضت عليه. ويبدو أن فنانتنا الخطّافة موهوبة فأبعدت الممثّل الشاب عن عشيقه العجوز. ويبدو أيضاً أن فناننا الشاب كان موهوباً إلى درجة إغضاب مخرجنا الأشهر، الذي عرف عنه تبديل عشاقه بأسهل مما يبدّل جواربه. ولمّا قدّم المخرج فيلماً " انتقاميّاً " أشار فيه " بالألم نشرح " إلى علاقته بفناننا الشاب، أراد الأخير أن يرفع دعوى عليه؛ ونصح بأن لا يفعل، حتى لا يضطر مخرجنا إلى تحلية فضيحته بالجلاجل. ولمّا كان الله هو الوحيد الذي على استعداد لفتح بوابات أمله لكلّ المحبطين، التجأ إليه فناننا الشاب، الذي عرف أنه بعد انتهاء عمله العضوي مع المخرج الأشهر، لن "تقوم" له قائمة فنيّة. وأخذ معه حرمه المصون، التي تجاوزت المراهقة إلى ما يشبه سن اليأس، وتنقّبت، وراحت تفتي!

عرف عن الفنانة شمس ب.، السوريّة الأصل، المصريّة الجنسيّة، بأنها صاحبة الجمال الأبرد في السينما العربيّة. من هنا، كانت طليعيّة للغاية في محاولتها إذابة جليدها الجنسي حين كشفت عن ثدييها تماماً في فيلم "هي والشياطين". وقد عرفت هذه الفنانة بمغامراتها الجنسيّة الغريبة، التي كان أغربها بيعها ذاتها لأمير سعودي اشتهر بأنه يتعاطى مع نسوانه بطريقة مميّزة للغاية، لكنها غير لطيفة كثيراً. وباستثناء فيلمها الشهير "حمام الملاطيلي"، الذي أمضت وقتها فيه تتمشّى شبه عارية، لم تترك هذه الفنانة أية بصمة في تاريخ الفن. وبعد زواجها من ممثّل اشتهر دائماً بدور الولد التافه في السينما المصريّة، يبدو أن استقرارها "العاطفي" هدّأ من روعها، فسكنت، فلجأت إلى الله، خاصّة بعد تجاوزها سن اليأس، وشعورها مع غياب الموهبة أن جليدها ذاب كلّه. وأخذت بدربها زوجها التافه، الذي أضحى أقرب إلى شافعي أو أبو حنيفة مصر!

الفنانة سهير ر.، المشهورة، حين كانت صبيّة، بتبديل عشّاقها بأسهل مما يبدّل مخرجنا غلمانه، دخلت الملكوت بعد تقدّمها في السن؛ وجمالها لم يكن صارخاً؛ وشعورها مع فقدان الماما، التي كانت "فنانة" من الطراز الأوّل، أنها ستواجه الحياة وحدها يوماً – فلماذا لا تصطحب معها أحد الملائكة؟ هذه الفنانة، إضافة إلى أنها هرت مخرجاً مغموراً وصفّاً هائلاً من الفنانين – بدءاً بابراهيم خ. السوداني ودون انتهاء بفاروق ف – عرفت أيضاً بزواجها من الأمير السعودي إياه، رغم تحذير الصحف المصريّة لها وقتها من المخاطر الجنسيّة لهكذا زواج. لكن يبدو أن قدرات فنانتا الشهيرة "تستوعب" كلّ المخاطر!

الفنانة سهير ب.، الإمامة المحدّثة، اشتهرت بأنها الفنانة الوحيدة المصريّة التي تزوّجت من ملحّن يهودي، اسمه منير م.، زمن الحملة الصليبيّة الثانية. هذه العجوز المتصابية، التي فشلت سينمائيّاً، لدمامة شكلها، ونجحت مسرحيّاً بعد أن تجاوزت الستين، هرّ عليها الأرواج وهي في قمّة نجاحها الفني الذي رافقه طبعاً نجاح ماديّ، وهو الأهم! ولسوء حظ الأديان وكلّ الآلهة، كان أحد الذين أذاقوها "طعم" الإيمان الحرّاق أخونجي أصغر منها

بأربعين عاماً، من غير الفراطة؛ فترك زوجته وعمله في بيع البطاطا، وصار زوج الست. وكما قلنا سابقاً، كان لصاروخه الدور الأوحد في إيصالها إلى السماء الأولى حيث الملائكة والقديسين!

لن نكمل تشريح القوائم سيئة السمعة نتنة الرائحة، التي تعمل الآن قادة – أو قوادين: لا فرق – لمجتمعنا الإسلامي أجلّكم الله، لآن المسألة، بالنسبة لنا على الأقل، أكثر من مملّة!

لا نعترض، طبعاً، على تتحجّب زوزو أو كيكي أو جيجي؛ ولا على نقاب فيفي أو شوشو أو ميمي؛ فالمسألة خيار – بفتح الياء – شخصي لا أكثر ولا أقل! ولا نعترض أن يربّي حسن ذقنه – أقلّه يصبح عنده شيء مربّى – ولا أن يبدع مجدي، الممثّل الأفشل الأقبح صاحب الدم الأثقل وهو يقوم بدور الكوميدي الأسمج، في تصوّفه ولجوئه إلى الله: المسألة، برأينا، لا تخرج أبداً عن إطاراتهم التمثيليّة المعهودة! لكننا نعترض حتماً في أن يصبح هؤلاء، الذين ينخدع بهم الصغار من كافة الأصناف، دعاة إلى الله؛ فالله أكبر وأجل وأعظم من أن تلفظه سحر حمدي أو زيزي مصطفى أو ما شابه!

الأسوأ من كل هؤلاء، قائدهم الممثّل ذي الصوت نصف المخنّث، الذي لا يذكّرني إلاّ بكوثر الأمين وشاهك المتوكّل ولا أدري المأمون، المدعو عمرو خالد، قائد – أو قوّاد – هذا الركام التوبوي، المروّج الأوّل للإستعهار الديني!

جامعة شعبان عبد الرحيم.. العربيّة!!!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 19 يونيو 2004

في أنواع الحيوانات الراقيّة من غير البشر، ثمّة ظاهرة هامّة جديرة بالملاحظة وبالتالي الإفادة منها في تطوير أنماط السلوك البشريّة: لا بدّ من وجود حيوان بارز على كافة الصعد يقود باقي الحيوانات في حلّها وترحالها. من بين الأغنام، على سبيل المثال، يتمّ انتقاء خروف بعينه، يستوفي شروطاً يعرفها أهل البادية، ليصبح في المستقبل ما يطلق عليه في بلاد الشام "المرياع"، وهو الحيوان الذي تناط به مهمّة قيادة القطيع، مهما كان كبيراً.

في دول العالم الأوّل المتحضّر، هنالك نخب حاكمة، تعتمد في صوغ قراراتها على انتلجنسيّا شاملة الاختصاصات، وهو ما يمكن تسميته بصيرورة صنع القرار decision making! في دول العالم الثالث، رغم افتقادها الآليّة المعقدة والمتطوّرة لصنع القرار وتطبيقه المتعارف عليها في دول العالم الأوّل، إلاّ أن وجود الأمثولة التي يسير في هديها الآخرون أمر لا غنى عنه.

منذ بدايات الوعي المجتمعي gesellschaftlich البشري والعوام تتأطّر وفق ما تضعه لها النخبة من حدود. الشرائع الناظمة لحركة مجتمع ما في إحدى مراحل تطوّره لم تأت إلاّ من أشخاص قياديين يتمتّعون بمستوى معيّن من الثقافة والوعي المرتكزين أساساً على الركام المعرفي البشري المخزّن في الذاكرة الجمعيّة الإنسانيّة بتصاعدية لا سقف لها.

في الحركات البشريّة الكبرى لابدّ أن نصادف إنساناً متسامياً على ذاته Ubermensch، هو مزيج من جنون طموح السياسي غير المحدود وعقلانيّة الفيلسوف الذي يدرك تماماً أنّ كلمة منه في غير محلّها يمكن أن تحدّد مستقبل حركة جماهيريّة، وبالتالي مستقبل أمّة. وعلى هذا الأساس كانت الحركات البشريّة الكبرى تختصر برمز إنساني هو الدينامو المحرّك الذي يقود شعبه باتجاه ما يراه الأمل الذي تنشده الجماهير. من هنا، وبغضّ النظر عن مواقفنا الذاتيّة من هذا القائد الرمز أو ذاك، يمكننا القول إنّ ثورة أكتوبر الإشتراكيّة في الاتحاد السوفييتي السابق كانت لينين؛ الثورة الماركسيّة في الصين الشعبيّة كانت –ماو تسي تونغ؛ الثورة – أو الثورات – الاشتراكيّة في أميركا الوسطى أو الجنوبيّة كانت تشي غيفارا؛ الدولة الفاشستيّة في إيطاليا كانت موسوليني؛ النظام النازي في ألمانيا كان هتلر؛ نظام الفلانخه في إسبانيا كان فرانكو؛ الأمر ذاته ينطبق على ظاهرة بسمارك وقبله نابليون وصولاً حتى عصور بدايات تدوين التاريخ الإنساني، مثّل رموز حضارة الرافدين أو وادي النيل أو الصين والهند واليابان.

الجماهير بحاجة دائماً إلى رمز–قائد له من الكاريزما ما يجعل الملايين تصدّقه حتى وهي تعرف أنه يكذب عليها أو أنه سيقودها في الطريق الأقصر إلى الجحيم. والمثال الأوضح على هذا في التاريخ العربي المعاصر جمال عبد الناصر، الذي كان أفضل من خاطب الغرائز الجماهيريّة الأدنى، وكانت الناس تهرول خلفه رغم ثقتها المطلقة أنه يسحبهم بسرعة الصوت إلى الهاوية. ورغم إقرارنا أنّ عبد الناصر كان أبرز ظاهرة صوتيّة–غرائزيّة عربيّة في القرن العشرين، والتي لا يمكن مقارنتها بأية حال مع أية ظاهرة صوتيّة منافسة كأم كلثوم، فالواقع الفعلي يقول إن الرجل كان أمثولة سارت في هديها – أو غيّها – الملايين، ومازال هنالك بعض من يصدّق، أو بالأحرى ينتشي، بما يسمعه من خطب رنّانة لحبيب الملايين. ورغم محاولة كثيرين في طول العالم العربي وعرضه تقليد عبد الناصر في محاولته الناجحة خلق أمثولة جماهيريّة، إلاّ أن النسخة الأصليّة ظلت أنجح بما لا

يقارن من الصور الباهتة، ربما لافتقاد غير عبد الناصر الإمكانيّات الصوتيّة المخاطبة للغرائز الدنيا التي كان عبد الناصر يمتلكها.

السمة الأساسيّة في المنظومات القياديّة العالميّة اليوم هي افتقادها المطلق للشخصيّات الكاريزميّة التي عرفها العالم على مدى الزمان والتي ربما كان آخرها تيتو اليوغسلافي ونهرو الهندي وديغول الفرنسي وجون كنيدي الأمريكي. ورغم الدور المحوري الهام للغاية الذي تلعبه شخصيّات بارزة على الصعيد العالمي من أمثال جاك شيراك الفرنسي وجورج بوش الأمريكي وطوني بلير البريطاني، إلاّ أن هؤلاء جميعاً غير قادرين على الصمود في أية مقارنة مع الشخوص الكاريزميّة التي عرفتها تلك الدول في خمسينيّات القرن الماضي وستينياته. بالمقابل، ومع انتشار المثل الديمقراطيّة في دول العالم الأوّل من رأس الهرم إلى قاعدته، صارت السمة الأميز لمنظومات القيادة "القرار غير الفردي" القائم على جهود مجموعات اختصاصيّة احترافيّة تتولّى من مراكزها البحثيّة توجيه صيرورة صنع القرار في عالم لم يعد باستطاعته تحمّل الأخطاء غير القابلة للإصلاح.

العالم العربي، أو بشكل أدق، ما اصطلح على تسميته بالعالم العربي، لا في العير ولا في النفير. فبعد رحيل من أسموهم " القادة التاريخيين "، الذين كان آخرهم الطاغيّة صدّام حسين، وافتقاد هذا الجزء من العالم بالكامل لمراكز البحث الرصينة – لا يمكن على الإطلاق تسمية تلك المؤسّسات النغل التي تنشئها أجهزة الأمن بالمراكز البحثيّة – التي يمكن أن تساهم في تقديم بانوراما أطياف سلبيّة أو إيجابيّة لما يمكن للسياسي اتخاذه من قرارات مصيريّة، صرنا، بحمد الله، بلا قادة ولا تاريخ.

عمرو عبد الرحيم.. أم شعبان موسى:

دون أن نذرف دمعة أسى واحدة بلا طائل، نعترف بكلّ نشوة أن العرب انتهوا! رصاصتان في رأس العروبة كانتا كافيتين لإخراج العرب من الجغرافيا، بعد أن سقطوا – هل دخلوا يوماً؟ – من التاريخ: واحدة أطلقت يوم الحادي عشر من أيلول في نيويورك، والأخرى يوم التاسع من نيسان في بغداد. لقد أقنعونا بقوّة غسيل الدماغ الإعلامي العربي الرسمي بوجود حضارة عربيّة، والتي لم تكن في الواقع أكثر من تهويمات مشائخيّة ترفضها سلال الزبالة المحترمة. لا شكّ أن التاريخ العربي عرف ظواهر فائقة في حضاريتها، بمقاييس زمانها ومكانها، كابن رشد على سبيل المثال، لكن هذه الظواهر فرضت نفسها بقوتها الذاتيّة لا بدفع العوامل الموضوعيّة المكوّنة للوجدان المعرفي العربي، التي هي، باعتراف الجميع، معادية بنقليّتها الكابحة لكافة أشكال التغيير والتطوير والإبداع. وإذا كنّا نكابر بالمحسوس، على الطريقة البعثيّة، ونلح بأننا من أصحاب الحضارات، فكلّ الظواهر اليوم تكشف بما لا يدع مجالاً للشكّ أننا شعب لا علاقة له بالحضارة، التي هي في جوهرها حريّة بشريّة في التحليق نحو العوالم الجديدة. وما شعبان عبد الرحيم، رسول الفن العربي، وعمرو موسى، سفير السياسة العربيّة، غير الدليل الأوضح على ما قلناه آنفاً.

في لبنان، وبسبب تركيبته الديمغرافيّة الخاصة للغاية، كان ثمّة محاولات في النصف الثاني من القرن العشرين للخروج من أفق اللاحضارة العربي المسدود، وخلق حالات حضاريّة على كافة الصعد؛ فعرفنا في هذا البلد ظواهر ثقافيّة وسياسيّة وفنيّة جديرة بالتأريخ، على رأسها أسطورة الثلاثي الفني، الأخوين رحباني وفيروز، الذين أضفوا على الوجدان العربي نكهة تسام لم تتذوقه بعدهم؛ لكن الاحتلال البعثي الشقيق للبنان أعاد إدخال الوطن الفيروزي في دنيا اللاحضارة العربيّة؛ الكويت، بالمقابل، بعد الطفرة النفطيّة وتدفّق الشعوب عليها من كافة أرجاء العالم الأمر الذي خلق فيها وضعاً ديمغرافيّاً تعدّديّاً غير مألوف في تاريخ تلك المنطقة فنشأ لدينا ما يمكن أن نسمّيه "طلائع الدخول من باب الحضارة الواسع" عبر ظاهرة المعرفيّة التخصّصيّة الجادة، التي انفردت بها الكويت تقريباً بين دول المنطقة، أعاد فيها شقيق بعثيّ شرقيّ هذه المرّة الوضع إلى نقطة الصفر، بحروبه العبثيّة

التي استهلكت خيرات الخليج وأعصابه أوّلاً، واحتلاله الكويت ومحاولته إنهاء أية مظاهر حضاريّة في هذا البلد ثانياً. وهكذا، وبفضل البعثيين أوّلاً وحلفائهم الأصوليين ثانياً صرنا كلّنا في اللاحضارة سوا. وظلّ الانحدار قاعداً على ركبة ونصف حتى وصلنا حضيض الثنائي المسمّى شعبان عبد الرحيم–عمرو موسى.

شعبان عبد الرحيم–عمرو موسى، كظاهرة مرضيّة شاذّة في تاريخ اللاحضارة، ليسا فقط التعبير الذي يجرح العين لأشكال الغرائز الدنيا، بل لقد تراجع هذان – وأمثالهما – بالعرب إلى ما دون سويّة الحيوانات الراقية من غير البشر. فكما قلنا في بداية المقالة، يسير القطيع في الحيوانات الراقية خلف حيوان منتخب لصفات تميّزه عن غيره، ويكون هذا الحيوان المنتخب مسئولاً عمّا قد يعترض القطيع من أخطار. وحتى في الأصناف البشريّة الرديئة، في الأنواع البشريّة ما قبل اكتشاف النار والحضارة، كان ثمّة رأس مفكّر، إذا صحّت التسمية، يحاول السير بالجماعة إلى حالة أقل سوءاً. – إلاّ في حالة الثنائي إياه: فالقطيع يسير، وما يفترض أنه قائد يسير في هداه. وهكذا، ولأن القطيع بلا قائد يكون دائماً في حالة انحدار معرفي صارخة، فالقائد الذي يسير خلف غرائز القطيع يضطر للهاث مهرولاً على سلم النزول إلى الهاوية. مسايرة غرائز القطيع معادية للحضارة على الدوام؛ فغرائز القطيع تتطلّب باستمرار تنازلاً على الصعيد الفكري لتلبيّة رغبات الغالبيّة العظمى، التي تتراجع عقلانيّاً، إذا لم تضبط، بشكل تصاعدي. من هنا يمكن أن نفهم الشعبيّة المخيفة التي حققها الثّائي إياه من مناصرتهما لقضايا جماهيريّة متفوّقة غرائزيّاً، فاشلة منطقياً. وإذا كان شعبان عبد الرحيم قد نجح تقريباً في خلق صور باهتة عنه في طول الوطن العربي وعرضه، فإن عمرو موسى نجح للغاية في استنساخ أنواع منه، من وزراء عنائرة ووزيرات من نمط الخنساء بعد صخر أبو غريب؛ وكالعادة، فالنسخ المقلّدة تظل أبهت وأقل إقناعاً من الأصل. مع ملاحظة أن المصريين لا يُشق لهم غبار.. ردحاً.

أمّا بالنسبة لجامعة [أفضّل أن تسمّى مفرّقة] عمرو موسى المسماة بجامعة الدول العربيّة، التي لا ينقصها الصومال وجيبوتي وجزر القمر وربما يدخل فيها القذّافي ميكرونيزيا قريباً، فهي لا تختلف بشيء عن تلك المحطّات الفضائية "الفنيّة" التي برعت في تقديم شعبولاً على طبق من ذهب: إسفاف وهبوط وسقوط.. وحريم لا تجيد غير مخاطبة مناطق بعينها من جسد الذكر.

==================

من هم أعداؤنا؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 19 يونيو 2004

في حديث لي عاصف مع مسئول سوري رفيع سابق، قال الرجل البعثي المثقّف: " لقد أوقفت بذاتي شحنات لحم فاسد كانت مرسلة إلى مصنع المرتديلا الذي يمتلكه الوزير السابق إيّاه!" أجبته بحدّة: "بالله عليك؛ من الأخطر على مستقبل شعبنا: وزيرك إيّاه أم شاؤول موفاز، وزير الدفاع الإسرائيلي؟ شاؤول موفاز يعمل على إضعاف سوريّا خدمة لمشروعه الوطني، في حين أنّ وزيرك، أطال الله في عمره، يعمل على تدمير الشعب السوري خدمة لمشروعه الخاص؛ شاؤول موفاز بعيد، غريب، لا يستطيع اختراق الوطن السوري إلاّ عبر أسلحة التجسّس التقليديّة أو الحديثة، التي يمكن أن نحتمي منها؛ في حين أنّ وزيرك الأديب الباحث مزروع بيننا، يتسلّل إلى جيوبنا وعقولنا كالأفعى، دون أن يجرؤ أحد على الطعن بوطنيّته، لأنه بعثي أوّلاً ووزير ثانياً وشخص محوري في الحياة السوريّة ثالثاً!".

حتى الآن لا أفهم كيف أن المسئول السوري الرفيع، الذي لا يزيد راتبه الشهري عن 300 دولار أميركي بأفضل حال، يمتلك على الأقل مليون دولار، بين ممتلكات شخصيّة وحسابات جارية. وبحسبة بسيطة نكتشف أنّ هذا المسئول، لو وفّر معاشه كلّه، سيظلّ بحاجة إلى 3333,33 شهراً، أي 277,77 سنة، كي يجمع المليون دولار. إذن، التفسير المنطقي الوحيد للمسألة هو أنّ الرجل إمّا لص أو متعامل مع دولة معادية، أو الأمران معاً. المضحك–المبكي في الموضوع هو أن المقاربة النقديّة لهذه الحالة المَرَضيّة الشائعة للغاية في سوريّا وغيرها من الأقطار "الشقيقة" ممنوعة لأننا بزعمهم نواجه عدوّاً خارجيّاً "استكباريّاً يستهدف مشروعنا الوطني"، وفي مواجهة الخطب الجلل، لا وقت للصغائر! لقد أبصرنا النور على هذه الأسطوانة المشروخة، وعشنا صبانا ونضجنا على أنغامها، وسوف نموت بمرافقة ألحانها الجنائزيّة. الجميل أنّ هؤلاء، الذين اعتادوا زمناً طويلاً على الستار الحديدي البعثي، حيث كانوا كمناطقهم العسكريّة، "ممنوع الاقتراب أو التصوير"، انكشفوا الآن بعد أن صرنا في زمن الفضاء الإعلامي المفتوح، ولم يعد ممكناً كمّ الأفواه أو تعصيب العيون، فأضحوا في حالة انعدام وزن سببها أنهم فجأة صاروا تحت أضواء النقد بأنواعه وتجلّت ردّة فعلهم في توزيع التهم يميناً وشمالاً، بالجملة والمفرّق.

قتلنا البعثيّون بقصّة الصراع العربي–الإسرائيلي: نحن لا ننكر وجود صراع كهذا، لكننا نستنكر على رموز البعث السوري تكديسها الثروات وقمعها الناس وكتمها الأنفاس من أجل ما تزعم أنه صراع مصيري وجودي، إلى آخر قائمة التعابير التي لم تعد تقنع أحداً؛ بالمقابل، فالعدو الصهيوني، الذي يفترض أنه يواجه عشرات من دوائر الدول المعادية [يمكن هنا الإشارة إلى ما كتبه إفراييم سنيه في المسألة]، لا يعرف شعبه، بشقيّه العربي واليهودي، هذا النوع من القمع المسوّق عربيّاً؛ ونحن نتمنّى فعلاً قيام سلام في المنطقة حتى نرى على أية حجّة سيرتكز البعثيّون في تسويقهم ثقافة مصادرة الآخر!

قبل سنوات، وكنت أعدّ مشروعي المسمّى "الدين المقارن"، دعيت لإلقاء بعض محاضرات حول التاريخ الإسلامي في جامعة BYU الأمريكيّة. فذهبت إلى منزل مدير مكتب الرئيس الراحل، حافظ الأسد، وأريته الورق الأمريكي، وقلت له إنّي أفضّل البقاء في سوريّا، رغم الوضع المادّي المزري لغير اللصوص في البلد، شريطة أن نتمتّع بأبسط حقوقنا فيه: التعبير عن الرأي! وقلت له إن المدعو أحمد ضرغام، رئيس ما يسمّى بمكتب الإعداد

القطري، المسئول عن النشر في سوريّا، هو المعرقل لكلّ ما أطمح إلى نشره من أعمال. وبعد فترة قصيرة ابلغني مدير مكتب الرئيس الراحل أن أحمد ضرغام بانتظاري في مكتبه؛ فذهبت إلى هناك، لأتفاجأ بعد وصولي مباشرة بالمدعو بشير نجّار، رئيس ما يسمّى بإدارة المخابرات العامّة، يدخل خلفي! استغربت أن يكون لنجّار، الذي لا علاقة له بالثقافة إلاّ ضمن حقول بعينها، الدور الأساسي في قيادة دفّة الحديث. ولمّا، باختصار، رفضت عرض النجّار للعمل كمخبر مثقّف ضمن قطاعه، منعت كتبي: مرّة وإلى الأبد! وراحت تهم العمالة الحاضرة سلفاً، خاصّة وأني قدّمت ثلاثة أعمال مع باحثين ألمان، تنهمر كالسيل الهادر! وكما يعرف الجميع، مات بشير نجّار، أستاذ التهم الجاهزة الأهم، في سجن عدرة السوري بتهم أقلّها سرقة المال العام وأشياء أخرى غيرها كثيرة لا يتسع المجال لذكرها الآن!

الموضة الأهم في سوريّا الآن هي المصاهرة اللصوصيّة؛ فالعواطف والتفاهم العقلي–النفسي لا مكان لها في أجندة هؤلاء: المسئول الحالي، الذي يجدّ ويكدّ في سبيل رفع رصيده المصرفي، يسعى إلى تزويج ابنه من ابنة أحد المسئولين السابقين، أو العكس، ممّن استغل منصبه جيّداً وكوّن لذاته ثروة يحسده الحاليّون عليها. وهكذا، تكبر المؤسّسات اللصوصيّة وتتكرّس بمرور الزمن لتصبح " تقليداً راسخاً".
من التقاليد الراسخة التي أرسى دعائمها البعثيّون في سوريّا أيضاً " تقليد وراثة الفساد "؛ كيف؟ المعروف أنّ الكارثة البعثيّة ضربت سوريّا عام 1963؛ أي قبل إحدى وأربعين سنة! فإذا كان عمر أصغر القائمين على هذه الكارثة آنذاك عشرين عاماً، فإنّ عمره الآن إحدى وستون سنة؛ هذا يعني أن صلاحيته الافتراضيّة انتهت، وبالتالي ففساده الممنهج أحيل إلى التقاعد؛ لكن الكارثة الأكبر "أولاده"؛ فكلّ قياديينا، ما شاء الله، فحول، أنجبوا من النجباء من يستطيع وراثة آل بوربون؛ فكيف بممالك فساد صغيرة؟ وإذا كان "البابا"، كابن لأسرة مسحوقة عموماً يقبل أن يضع الليرة فوق الليرة، فابنه الذي فتّح عينيه وفي فمه ملعقة الذهب، لا يرضى أبداً أن يضع الدولار فوق الدولار: إنّه لا يقبل بأقلّ من مصرف متنقّل غير قابل للخسارة يستخدم لإيصال الثروة "الحلال" إلى أرقام لم تكن جدّتهم في القرية تعرف أصلاً أنها موجودة.

ويطرحون الإصلاح؟؟؟ كيف سأصدّق هذا الذي يتنطّح لمهمّة إصلاح الوطن إذا كان أولاده – حتى لا أقوال هو – بحاجة إلى إصلاحيّة من نوعيّة معينة لأربعة قرون على الأقل حتى يعودوا شبه أسوياء؟ دعاة الإصلاح عندنا هم الأكثر حاجة للإصلاح؛ من هنا فاللا أمل هو شعارنا الأوحد في المرحلة الحاليّة؛ لأن الإفساد الممنهج الذي أرسى دعائمه البعثيّون يحتاج إلى عشرات الأعوام لإصلاحه، فكيف بإعادة الوطن إلى حالته الطبيعيّة. صارت الوصوليّة شريعة الجميع؛ والرغبة بالإثراء السريع غير المشروع الهاجس المشترك عند الطفل والعجوز؛ بكلمات مختصرة، باستثناءات نادرة، فأبواب المستقبل، كما يقول سارتر، مقفلة؛ خاصّة إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن الكلّ، من بائع البطاطا إلى المعارض الأيديولوجي، لا يطمح بأقل من الكرسي الذي ينقله إلى عالم الثروة والمجد والطموحات التي لا سقف لها.

في بلد فقير محدود المصادر كسوريّا، فإنّ كل سوري يمتلك قميصين يعني أنّ سوريّاً آخر يجلس عارياً: فما بالك بأولئك الذين يمتلكون ملايين القمصان؟ والأصوليّون الذين لا يهمّهم سوى مصالحهم الخاصّة، يعملون ليل نهار، ضمن ما أسميناه التحالف البعثي–الأصولي، على إضفاء هالة من القداسة على رموز اللصوصيّة، تجعلهم منيعين على سهام النقد.

المواطن السوري من غير الطبقة المتسلّطة، ليس من حقّه أن يفكّر بالتغيير؛ هم ينيمونه على ريش نعام وعود – أو أوهام – التغيير؛ والبعثيّون السوريّون سادة التأجيل في العالم: لكن تأجيل الموت لا يمنعه.

إذا كان السوريّون كمسئولين وشعب يريدون الخروج من عنق زجاجة الأمس المتعب؛ ليبدأوا أوّلاً بالغلاسنوست، دون أن يسمح لأحد أن يكون فوق النقد أو المحاسبة، لانتمائه الأسروي أو لمكانته الوظائفيّة؛ ليبدأوا بتطبيق القانون الأهم "من أين لك هذا؟"، الذي تمّ تسويقه زمناً قبل انتحار أسوأ رجالات سوريّا، الزعبي، ثم طويت المسألة وكأن موت هذا الكائن كاف لاجتثاث الفساد من جذوره؛ ليرفعوا أيدي البعثيين عن مؤسّسات الدولة، فطلاق الحزب من الدولة سينظّف الحزب حتماً من الانتهازيين، وإن كان سيجعل منه حزب أقليّة لا أثر لها، وسينظّف الدولة من هؤلاء الذين لا يوجد رجل منهم في مكانه المناسب؛ ليلغوا وزارة الإعلام وكلّ ما له علاقة بالرقابة على ضمير الوطن وصوت أبنائه المعادين للأصوليّة والطائفيّة والفساد، وليحيلوا المنافقين الوصوليين إلى أقرب سلّة زبالة؛ ليقننوا قانون الأحكام العرفيّة بحيث لا يمسّ غير الذين يمسّون أمن الدولة، فلا تعود الأحكام العرفيّة أقرب إلى بنطال السترتش، الذي يمكن إلباسه للجميع؛ وليجعلوا من الأجهزة الأمنيّة أجهزة أمنيّة فعليّة لا شرطة تتدخّل بالبسطات وباعة البطيخ وأغاني نانسي عجرم.

نحن نعرف أن هذا الكلام الاستعدائي للصوص سيفتح علينا بوابات جهنم، التي نصحنا بلطف أن لا نفتحها من "السياسة"، لأنها، برأيهم، تحمل الختم الأمريكي؛ خاصّة وأننا نكتب من قلب سوريّا، لا كما يفعل بعض معارضينا الأشاوس، الذين يزأرون بقوّة من خارج الوطن، في حين أن أصوات من يفترض أنهم نظراؤهم في الداخل تكاد لا تجرؤ على الهمس.

إن مهمّة الباحث أو المثقّف تختلف بالكامل عن مهمّة السياسي أو رجل الدين أو التاجر: وكلّهم ضدّه. وإن كان هذا الكلام يمكن أن يوصلنا إلى أمكنة دخلناها من قبل ولا نخشاها ولا تختلف كثيراً عن مكان عيشنا الذي لا نحبّذ مغادرته كي لا تصدمنا "قضاء وقدراً" سيارة يقودها أحد أعضاء القاعدة أو حزب البعث، فذلك أسهل من أن يقال إن الحضارة السوريّة عقمت لإرهاب البعثيين المزمن عن إنجاب من يجرؤ على قول الحقيقة والدفاع عن الغالبيّة المسحوقة من هذا الشعب الذي يحرق بنيران الشعارات منذ أكثر من أربعين عاماً: وبكلّ طوائفه!
وحده القمع لا يعرف حدود الطائفيّة: من لا يصدّق، ليزر يوماً قرى العلويين المنسيّة في فيافي حمص وحماة وجبال اللاذقيّة وطرطوس.

====================

بشّار الأسد.. الضمير الأخير لأمة تحاول استرداد عظمتها!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 17 يونيو 2004

ليس أصعب من أن نقف في الصفّ أمام السفارة الأمريكيّة، نحمل دعوة من مؤسّسة في بلاد الدولار والحريّة والحياة التي تضع الانسانيّات في برّاد العقل البحت، فقط لأنّنا نريد أن نعيش: العيش في بلد ملوّث أفضل كثيراً من الموت في وطن الطهر!

ليس أصعب من مغادرة وطن، نعيش فيه كإصبع مقطوع عن جسده حيث لا بيت سوى الغربة ولا أهل سوى الأوهام ولا صداقات سوى العزلة ولا أمان سوى الوحشة؛

مع ذلك، ليس أصعب من مغادرة وطن ظللنا فيه أربعين سنة نبحث عن وجه يحملنا نحو الله؛ عن قدّيس علوي يبعثر طهارته تحت أصابعنا وفي روحنا التي تتناثر حوله كرفّ من الملائكة؛ عن نسمة بحريّة خضراء تحمل إلى فمنا طعم الموج وصوت الحريّة غير المكبوت – ولمّا حلّ علينا كيوم عماد يسوع في الأردن، حزمنا حقائبنا العتيقة، وهربنا نحو دنيا لا تفقه معنى القداسة!

ليس أصعب من مغادرة سوريّا بعد اكتشافنا جزيرة الطهر المتمدّدة على شاطىء بانياس الملوّث، التي يسمّونها عدنان! عدن في صحرائي القاحلة وعدن في قلب اليم!

لماذا نكتب بقساوة تتنافى ربما مع طبيعتنا الخاصّة ومع ما اعتاد السوريّون على قراءته منذ نصف قرن؟ لأنّنا نحب هؤلاء الناس البسطاء الفقراء الذين اسمهم " الغالبيّة السوريّة الساحقة ". وكان كلّ ما فعله عدنان هو إعادة اكتشافي لذاتي الأخرى الحقيقيّة التي هي على استعداد للموت في سبيل إنعاش الحلم الأخضر في قلوب السوريين الكئيبة!

ما هي مصلحتنا الخاصّة في استثارة رموز الفساد الراسخ ضدّنا، ونحن، بوضعنا الصحّي الآيل للسقوط دائماً، لا نستطيع تحمّل هاتف مزعج، فكيف بإمكانيّة التوقيف أو مهاجمة مكان العمل، كما حدث أكثر من مرّة؟

لماذا نتطاول على هؤلاء المزعجين، الذين تعوّدوا على الدوام أن يكونوا هم المتطالون والمزعجون، والذين لا يستطيع أحد كبح جماحهم الذي لا يعرف الضبط؟

هل نبحث عن الشهرة؟ لا نعتقد أن الشهرة تنقصنا، بأيّة حال؛ خاصّة بعد أعمال بحثيّة لنا كانت الأكثر توزيعاً في سوريّا!

هل نبحث عن المال؟ سؤال تأخر كثيراً؛ فلو كنّا نبحث فعلاً عن المال لما فضّلنا العمل البحثي الأصعب على العمل الدوائي الذي يمكن أن يعيّش المرء فوق خطّ الفقر قليلاً.

لماذا نكتب الآن؟

إن كلّ من يقرأ لي منذ عشرين عاماً يعرف تماماً أني أفتقد خاصيّة النفاق القاتلة؛ لهذا أستطيع القول براحة ودون خوف من اتهامات معلّبة: السبب الوحيد هو الأمل الأخير الرئيس بشّار الأسد. فمنذ أن استمعت لخطابه الأوّل، ورغم خوفي وقتها من الإحباط، إلاّ أن الأمل كان عصاي باستمرار من أن سوريّا، في ظلّ هذا الإنسان، سوف تنتقل أخيراً إلى موقعها الحضاري اللائق بها.

لا يمكن لنا، كباحثين، أن نقف مكتوفي الأيدي ونترك لهذا الإنسان، وحده، مهمّة إخراج سوريّا من كهف ماضي الإرث الثقيل؛ لا يمكن لنا، إن كنّا نعتقد بأنه ما يزال في ذواتنا بقايا من ضمير، إلاّ أن نصرخ ملء الحناجر برغبتنا، ولسنا ضيوفاً في سوريّا، في أن يصبح بلدنا الأجمل والأنقى والأطهر في العالم؛

كم نحلم بسوريّا قطعة من عدن؟
كم نحلم بسوريّا أسطورة حلم تنام تحت مخدتنا القديمة، ونستظلّ بها في التعب ووقت الخوف والوحدة؛
كم نحلم بسوريّا أمّاً تحرقنا بطيبتها المتناثرة كالهواء، ترفع من صوتنا رنّات الحزن وبقايا التعب القديم؛
كم نحلم بسوريّا محراباً أصلي فيه لبوذا مع عدنان دون أن يلاحقنا أصولي بتهمة اللاطائفيّة؛
كم نحلم بسوريّا الشعب الذي أعشقناه عدنان أرواحاً حرّة نظيفة تتراكض بلا وجل نحو أيام لم تُعش، ولحظات لا تشعر بالطيرة حيال الغد؛
كم نحلم بسوريّا التعدّديّة وطناً لكلّ ابنائه، مهما تباينت أراؤهم؛ كم نحلم بسوريّا وطناً للمعذّبين ومأوى للمضطهدين، مثلما لملمت يوماً جراح الأرمن والداغستان والشركس وغيرهم؛
كم نحلم بسوريّا وطناً خالياً من النفايات واللحوم الفاسدة؛ من الرجال الفاسدين والنساء المقنّعات بوجوه حداثة النعمة؛ من أصوات القمع والمصادرة؛ من المشاعر المكبوتة والصرخات الواقفة بين الحنجرة والقلب؛
كم نحلم بسوريّا طاهرة من جراثيم الطائفيّة والأصوليّة والهرولة إلى جدار الماضي المسدود؛
كم نحلم بسوريّا قويّة، كالفرح؛ جميلة، كتربة تستقبل الخروج من البيات الشتوي؛ واقفة، كالبراءة؛
كم نحلم بسوريّا نضيع في بواباتها أعمارنا بسعادة لا تخجل من ذاتها؛ نسافر في أوردتها نحو الضوء الذي لا ينطفيء؛
أيها الرئيس الجميل!
أيها الرجل الخارج للتو من قلب الحقيقة!
أيها الأمل الذي نعلّق عليه آخر لحظات فرحنا!
نحن لا نحلم بالهجرة؛
نحن لا نبحث عن وطن بديل، يجرح فينا عمرنا وما يمكن لأيامنا أن تحمل إلينا معها من أصوات تنذر باللاحزن؛
أيها الرئيس الجميل!
وماذا نفعل، ونحن نشعر أن حياتنا مهدّدة مع كل شهقة بوجه لا ندري من أين جاءوا به، يحسدنا على تحليقنا الدائم، بأجنحتنا المتعبة أصلاً، نحو شمس جديدة؟
أيها الرئيس الجميل!
لا نخشى الموت، وقد متنا من قبل ألف مرّة ضد الطائفيين والأصوليين وأعداء الحياة؛ لكننا نكره انتظاره؛
وكي نعفي أنفسنا من شوك انتظار الموت الذي قد يُحمل إلينا في أية لحظة، اخترنا ترك وطن الذكريات والألم الجميل.. وعدنان.
سوريّا، التي لا تشبه غير ذاتها، التي تعشعش تحت جلدنا، كوشم غجري؛ التي تبعث في أوردتنا، حتى وإن كنّا في عالم جديد، هواء العمر الغارب؛
سوريّا، القديسة كمار مارون ومار شربل والحرديني؛
ها نحن نتركك في أيدٍ أمينة، كنّا نأمل أن تساعدنا الأيادي الأخرى في حمل شيء من همّك الثقيل الملقى على كتفيه.
أنتم الذين بسوريّا اعتمدتم؛
سوريّا قد لبستم!

سماحة المفتي.. اسكت!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 17 يونيو 2004

حتى الآن لا أفهم إطلاقاً السرّ الكامن خلف وظيفة رجل الدين، عند كافة الملل والنحل. حتى الآن لا أستطيع استيعاب أن يتمتّع شخص، كلّ سماته أنه يبيع الناس أسماكاً وهميّة في بحار الخيال أو صكوك غفران تضمن لهم مكانة في الجنّة غير عاديّة، بميزات تجعله فوق الناس العاديين على كافة الأصعدة. هل الله بحاجة إلى وسيط إذا ما أراد التواصل مع بني البشر؛ أو العكس؟ وإذا ما قبلنا بدور لرجال الدين في إيصال مفاهيم الإيمان، وهم غالباً ما يكونون الأبعد عنها، في مجتمع أمّي متخلّف يحتاج إلى من يجيد القراءة والكتابة كي يوصل إليه بضع معلومات مطمئنة، ما هو المبرّر الفعلي لوجودهم في عالمنا الذي يتبارى مع نفسه في سبيل التخلّص من الأميّة بنوعيها، الحرفي والمعرفي؟

للأسف الشديد، فإذا ما حاولنا تصنيف الذكاء وفق معايير علامات شهادة الثانويّة العامّة في بعض الدول العربيّة، فسوف نصل، ببساطة خارقة، إلى نتيجة مفادها إنّ أقل الطلبة ذكاء عموماً، هم أولئك الذين يدخلون كليّة الشريعة أو الكليّة الحربيّة؛ وهؤلاء، بكلّ أسف، هم الذين يمسكون بعنق الشارع اجتماعيّاً وسياسيّاً. وما دام هؤلاء سيظلّون بحكم الأمر الواقع المتوارث يحتلّون مقدّمة الصفوف، لا يجب أن نستغرب أبداً إذا ما حافظنا على موقعنا في مؤخرة الأمم.

في سوريّا الوضع الديني أقرب إلى مسرحيّات أرابال أو يونيسكو. ففي هذا الوطن التعدّدي، الذي يعتبر الأب الرسمي للمسيحيّة – بحسب نصّ سفر أعمال الرسل الشهير: "وفي أنطاكية دعي التلاميذ للمرّة الأولى مسيحيين" – حيث يدعى البطاركة الشرقيين للروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والسريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك والموارنة، بطاركة أنطاكية وسائر المشرق؛ الذي ظهرت فيه الدعوات النسطوريّة واليعقوبيّة والمارونيّة؛ الذي عرف أول انتشار للبروتستانتيّة في الشرق؛ الذي يحتضن، في بلدة جوبر قرب دمشق أقدم كنيس في العالم ويحمل اسم إلياهو النبي؛ الذي ظهرت فيه الدعوة الاسماعيليّة وتبلّور فيه المذهب الدرزي؛ لا أحد من طبقة إكليروس الطوائف السوريّة الكثيرة يحتل موقعاً رسميّاً غير مفتي السنّة. لماذا، كيف، متى: علامات استفهام لا يحقّ لها الاقتراب من هذا المنصب الرفيع.

أنا.. وسماحته:

باستثناء بعض رجال الدين من اليزيديين، لم أسع قط للقاء أي من هؤلاء المحسوبين على الطبقة الكهنوتيّة التي لم أرتح يوماً لأعضائها، إلاّ ما ندر. لكن عملي البحثي لحساب إحدى الصحف اللبنانيّة في مجال طوائف المنطقة، أجبرني على لقاء كثير من رجال الدين؛ الذين كان أشهرهم الدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي، الذي خلق من لقائي به زوبعة لم أسع إليها قط. ولأن لقائي بالبوطي، الذي كرّس له بعضاً من أشهر أعماله، أوصله، باعتقادي، إلى جماعات لم يكن قد مسّها قبل اللقاء، فقد حاول منافسه الخفي الأشهر، مفتي سوريّا، أحمد كفتارو، وهو مثله سنّي شافعي نقشبندي كردي، إلى استقطابي من أجل حوار يماثل حواري مع البوطي، يعيد للمفتي قليلاً من الأضواء التي خطفها من جاء بعده على مدى قرن من الزمان تقريباً. وعن طريق أحد معارفي السابقين من الإثنيعشريين، التقيت بابنه المدعو محمود، وكان برفقته واحد من أفضل من عرفت من شيوخ السنّة السوريين "غير الأكراد"، الأستاذ زاهر أبو داوود. زرت المفتي في "ضيعته" الساحرة، خيارة، وقدّمت له هديّة

عملي "رسالة عبدة الأوثان". واتفقت معه، بحضور مجموعة من المقرّبين منه على حوار مشابه لحواري مع البوطي الذي أحدث الضجّة الهائلة. التقيته في مبنى وزارة الأوقاف السوريّة بعد مدّة، وكان برفقته، كالعادة، الشيخ زاهر أبو داوود.

في البداية كان المفتي يتحدّث بنوع من الإنشائيّة القرن تاسع عشريّة عن الحب والتفاهم بين الأديان والشعوب؛ فاضطررت للتدخّل مقاطعاً بأن هذه الألفاظ المنمّقة لا تعنيني في شيء.

كان سؤالي الأوّل للمفتي: "لديكم بنات حتماً. ولن أتحدّث هنا عن التواصل مع الشنتو أو الهندوس أو جماعة المهاريشي؛ بل عن المسلمين من غير أهل السنّة والجماعة: فلو أنّ علويّاً أو جعفريّاً أو اسماعيليّاً طلب إحدى بناتكم للزواج: هل توافقون؟". فاعتذر المفتي، الذي كان قبلها يحدّثني عن وحدة الأديان وضرورة التواصل مع كلّ بني البشر، عن إكمال الحديث، الذي لم أطلبه أنا أصلاً. وبعدها، لم أعد أراه. لمن لا يعلم، فلو أن المفتي أجاب بنعم، فسوف يفقد أتباعه الذين يرضعهم حليب رفض الآخر؛ ولو قال لا، فسوف يفقد دعم الدولة التعدّديّة، التي يسوّق نفسه عندها على أنه أكثر شيوخ السنّة انفتاحاً.

حاول ابنه المدعو محمود الإساءة إلي بشتى السبل، خاصّة في الأجهزة الأمنيّة، التي لا يخفى على أحد في سوريّا تنسيقها مع هذه العائلة الأسطوريّة. وكما ذكر لي من رافقه إلى أحد الأفرع في دمشق – وما أكثرها – أنّ محمود هذا كان يقول، إنني ماروني متشيّع [!!!] أُرسلت إلى سوريّا، التي كانت تعدّ وقتها ليس أقل من سبعة عشر مليوناً من البشر، لإحداث فتن بين الطوائف. وحتى هنا، الوضع طبيعي. لكن غير الطبيعي أن يلقي هذا المفتي المتحفي خطبة عصماء في لقاء نفاقي شيعي – سنّي، يضعها على موقعه الالكتروني، وفيها ترد الكلمات التالية:

"ويجب أن نعترف كذلك أن هناك (تياراً موجوداً في الشيعة) يدعو إلى سوء الظن بأهل السنة، وتحميلهم عقابيل مقتل الحسين، وكأن سائر أهل السنة كانوا في كتيبة الشقي شمر بن ذي الجوشن، أو ربتوا على كتفيه وانتصروا لجريمته، ويغوصون في أيام الشؤم في التاريخ الإسلامي، ليجعلوا منها مناسبة تستثمر في شيء واحد، وهو خراب الجماعة الإسلامية وتشرذم كلمة المسلمين.

وفي هذا السياق يمكنك أن تتذكر عدداً من الأعمال الظالمة التي كتبها أشخاص مأجورون مثل: (ثم اهتديت) – (حين انحدر الجمل من السقيفة [كتابي الذي لا يعرف مفتينا حتى عنوانه الصحيح: يوم انحدر الجمل من السقيفة]) – (لأكون من الصادقين)، وغيرها من الإصدارات الآثمة.

ومع أني لا أزعم أني اطلعت في المقاصد والنوايا لهؤلاء الكتبة، ولكن إذا كانت الأمور بعواقبها ومقاصدها، فإنه لم تدفع إلى المطابع صفحاتٌ أشد لؤماً وشراً من مثل هذه الصحائف، التي تفرق الجماعة، وتبعث الشرور والبغضاء والأحقاد في الجماعة المسلمة.

وليس ما قدمته من أسماء غرضاً أسعى إليه، بل هو إشارة عابرة لقوى موجودة تعمل في الظلام، لا يمكن لحركة الإصلاح أن تتجاهلها أو تتغافل عنها".

وهنا، لا بدّ من إيراد الملاحظات التالية:

إذا كان التيجاني السماوي التونسي [صاحب ثم اهتديت ولأكون من الصادقين] لا يخجل من إعلان تشيعه في المحطّات الفضائيّة، فسماحته يعرف أن علاقتي المذهبيّة-التنظيميّة-الانتمائيّة بالشيعة على اختلاف مضاربهم ليست أعمق من علاقة سماحته بعبادة هنومان الهندوسيّة؛ ويعرف سماحته أيضاً أن موقفي النقدي من التطرّف الإثني عشري، الذي كان الأوضح في كتابي الأخير، "مراثي اللات والعزّى، ومناة الثالثة الأخرى"، الذي تبارى

أزلامه في توزيع المناشير ضدّه في شوارع دمشق، عاصمة التقدّم والاشتراكيّة، كما يقول البعثيّون؛ خاصّة على جماعات من الأمن ليست بعيدة عن تيار المفتي كثيراً.

بالنسبة لأسطوانة العمالة والكتبة المأجورين، التي يعرف سماحته أنها دجل بحت؛ يمكن أن أذكر الحكاية التالية: قبل سنوات زارني في منزلي الدمشقي الدكتور شوقي أبو خليل، أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق؛ وكنت أساعده وقتها في تحضير رسالة الدكتوراه الخاصّة به من جامعة باكو حول القدس في بدايات القرن الماضي، لأنه لم يكن يجيد غير العربيّة، والموضوع بحاجة إلى لغات كثيرة. كان بحوزة الأستاذ أبو خليل ورقة عليها صورة لشخص اسمه صن ميونغ مون، وهو كوري منشق عن الكنيسة المشيخيّة يزعم أنه المسيح المنتظر، وهو بالتالي الله. وكان هذا الرجل يضع في أربع زوايا الورقة صوراً لنوّابه الفخريين، وكان منهم المفتي، إضافة إلى حاخام يهودي وأحد الكهنة البوذيين وشخصيّة أخرى. الكنيسة الموحّدة، التي يرئسها مون المذكور، ليست أكثر من تنظيم أنشىء بطلب وتخطيط من وكالة المخابرات المركزيّة الكوريّة الجنوبيّة، الابنة الشرعيّة لوكالة المخابرات المركزيّة الأمريكيّة، لمحاربة الشيوعيّة في عزّ الحرب الباردة، وبعد نجاح هذا التنظيم في كوريا الجنوبيّة، استقدمته الولايات المتحدة إليها. [لمن لا يعرف هذا التنظيم لاهوتيّاً؛ يمكنه مراجعة كتابنا: الكنيسة الموحّدة؛ دار النمير، دمشق، 1998؛ من أجل العلاقة بين التنظيم وأجهزة المخابرات المذكورة آنفاً؛ يمكن مراجعة ما كتبه جفري م. بيل، في Lobster؛ العدد 21]! وبمعرفة الدولة، أرسل مفتينا مجموعة من أخلص تلاميذه في رحلة إلى الولايات المتحدة، على نفقة المبجّل، صن ميونغ مون.

بالنسبة للقوى التي تعمل في "الظلام"، فإن ابن المفتي، المدعو حسن، لمن لا يعلم، كان مسجوناً بمكيدة من قوى قريبة إليه أكثر مما نتصوّر، "تعمل في الظلام"؛ وقبيل سجنه، سجّل كلّ أملاكه، كما ذكر شيخ من أقرب المقرّبين إلى الامبراطوريّة المسمّاة "جامع أبو النور"، باسم شقيقته، المتزوجة من شيخ طبيب، وتقود نساء سنّة دمشق من أنوفهن حاليّاً إلى مستنقع الأصوليّة العفن تحت الرايات المقدّسة. ولمّا خرج الأخ من السجن، أنكرت شيختنا عالية الأخلاق عليه أملاكه؛ ولمّا سحبها مع زوجها إلى المحكمة للقسم، رفض الزوج أن يقسم كذباً، وأعيدت الأملاك – في النهاية، هي أملاك الفقراء، الذين يضحكون عليهم باسم الدين – إلى صاحبها.

سماحة المفتي!

هذا غيض من فيض مما نعرفه عن شخصكم الكريم وشخوص أولادكم وبناتكم وأصهرتكم وبقيّة العصابة المقدّسة. وما من شيء، إطلاقاً، يمكنه منعنا عن نشر كلّ ما نعرف على صفحات الجرائد التي ما تزال تؤمن بشرف الكلمة والإنسان.

فارماكولوجيا بول البعير

www.annaqed.com

نبيل فياض، 17 يونيو 2004

حسن فعلت وزارة الصحة السوريّة حين أقامت ندوة حول الحجامة، الصرعة الدينيّة الأكثر انتشاراً هذه الأيام، والتي سمعت أن وزيراً سابقاً متهماً بالعقلانيّة والتحضّر اسمه عصام الزعيم "مارس" تلك العادة العلنيّة التقليديّة العريقة. لكن ما هي الحجامة؟ لمن لا يعرف من القرّاء الجاهلين المقيمين في الغرب الكافر، الحجامة، كما قالوا لي، هي عملية بدائيّة تقتضي إخراج بعض الدم من جسد المريض الذي يعتقد أن هذا الدم فاسد، وإخراجه من الجسد، باعتقاده، سيخرج معه المرض مهما كان مزمناً أو عضالاً. لكن الواقع العلمي يقول، إنّ إخراج دم زائد عن الحاجة من الجسد لا يحتاج إلى كلّ هذه الطقوس الاحتفاليّة، ذات الطابع التقديسي. إخراج دم زائد عن الحاجة من الجسد لا يتطلّب استحضار الملائكة واستبعاد الشياطين، لأنه أمر مغرق في الطبيعيّة والبساطة، ولا يكلّف غير مشوار سريع إلى أقرب بنك دم للتبرّع عنده: وستجد هنالك من يشكرك بامتنان، دون أن يدخل الله أو إبليس في العمليّة.

يغطّون السموات بالقبوات:

ولأن الهبل الديني هو الصرعة الأوضح في سوريّا منذ أكثر من عشرين عاماً، ولأن الله صار القناع الأسهل لتغطية كافّة أنواع الفساد والاسترزاق، ولأن طبقة ذكور النحل المسمّاة بالمشايخ تبحث لها عن مكان تحت الشمس بأسهل السبل وأيسرها، فقد تمّ استغلال قضيّة الحجامة من قبلهم لسوق مزيد من القطعان البشريّة إلى زرائبهم المكتظّة أصلاً من ناحية، ونهب أموال الطيبين المؤمنين ومنافسة الأطباء الفعليين بنوع من التمريض المقدّس من ناحية أخرى.

ولأننا لا نفهم – للأسف – في تفاصيل الحجامة العظيمة: ولا نريد أن نفهم، فإننا، بكلّ ممنونيّة، نرغب بتقديم الملاحظات التالية لطبقة ذكور النحل، ممثلين بما يسمّى "هيئة أرباب الشعائر الدينيّة"، كوننا نمتلك بعض الخبرة – ليس بسويتهم حتماً – في الحديث النبوي، الذي كان الأساس الذي أقاموا عليه خزعبلاتهم القدسيّة:

في الحديث النبوي نفي كامل لقصّة العدوى؛ فلماذا لا تنظّم دار الإفتاء، مثلاً، مؤتمرات علميّة لدحض أسطورة العدوى، التي يتناقض فيها علم الغرب الكافر مع علم حديثنا النبوي الإلهي، فهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى؛ وفي هذا الصدد يمكننا القيام بالتالي:

استيراد بعض المومسات من أوغندا، من المصابات بالإيدز أو السفلس؛ والطلب من ثم من متطوعين شبّان سوريين مسلمين – شريطة أن لا يكونوا متزوجين حتى لا نضطر لرجمهم – ممارسة الجنس معهن لدحض أسطورة العدوى مرّة وإلى الأبد؛ مع ملاحظة ضرورة حضور شيخ مع سوط يجلد الشبّان ثمانين جلدة للواحد إلتزاماً بالشريعة السمحاء.

تفجير قنابل قذرة، من تلك المحمّلة بالجراثيم الفتّاكة، في مناطق مشهورة بالتزامها الديني، كالسيّدة زينب أو جامع دنكز، لإثبات صحّة الحديث النبوي للكفّار.

تنظيم مؤتمر ضخم برعاية المؤسّسة الإسلاميّة للعلوم والثقافة لدراسة موضوع العين – يخز العين – والحسد، الواردين أيضاً في الحديث النبوي الشريف. وفي هذا الإطار يمكن القيام بالخطوات التالية:

استيراد شبّان وفتيات من بلاد الغرب الشمالي الكافر، المميّزين بالعيون الزرق – شريطة أن تكون أسنانهم فرق – ويفضّل أن تشرف التكيّة الأخرى، المسمّاة بوزارة التعليم "العالي"، على اختيار الشبّان والفتيات، لأن برفسوراتها أكثر ووزيرها نصف أستاذ نصف صاحب مزار. والطلب من المذكورين آنفاً صيب مجموعة من المتطوعين المسلمين بالعين لإظهار صحة الحديث النبوي الشريف.

الدعوة إلى مباراة في السحر وصيب العين، يطلب فيها من المتبارين إظهار مهاراتهم، وتعطى فيها جائزة كبرى لمن يسحر شارون أو يصيبه بالعين، فيجعله يعتقد أنه يأتي النساء وهو لم يكن يأتيهن ويعتقد أنه فعل الشيء وهو لم يفعله، فنأخذ بثأر الرسول الكريم حين صابه أحد اليهود الأنذال بالعين.

استخدام الأمور المعروفة بمنعها للعين وشرّها؛ وهنا يمكن تقديم المقترحات التالية:

التعامل مع حديقة حيوان سان دييغو لتزويدنا بأسنان ذئاب حيث يُقال إن سن الذئب يمنع الحسد؛ والذئاب في سوريّا، مثل كل الحيوانات الأخرى، انقرضت بسبب الصيد الجائر للقائمين على الأمر وأصدقائهم من اللبنانيين والخليجيين وما شابه.

العمل على إنشاء مصنع في الصين أو تايوان لإنتاج الخرز الأزرق، الذي يمنع الحسد ويكسر العين الحاسدة.

استحداث وزارة جديدة للشب؛ تكون مهمتها الأساسيّة تصنيع الشبّ وتوزيعه بالقسائم التموينيّة على المواطنين، منعاً للحسد.

بناء مصنع هائل في منطقة جبلة أو الدريكيش لإنتاج الخيطان الخضر، على اعتبار أن العلويين يضعون حول معاصمهم عموماً خيطاناً خضراء، التي أعتقد أنها تساهم بفعالية في منع الحسد.

استحداث مركز بحوث، بالتعاون مع دول الخليج "العربي" وبتمويل منها، يكون اسمه "مركز بحوث فارماكولوجيا بول البعير". وكما هو معلوم للسادة العلماء الأفاضل، ففي الحديث النبوي الشريف إشارات كثيرة هامّة، لم يكتشفها الغرب الكافر الجاهل حتى الآن، حول "المداواة ببول البعير". بول البعير، وما أكثر البعران في بلادنا، هو الحل الأنجع لكلّ مصائبنا، من الإيدز إلى بريمر. وفي هذا الصدد يمكن القيام بالإجراءات التالية:

التعاون مع منظمة الصحة العالمية لإنشاء مخبر ضخم لدراسة مكوّنات بول البعير، والجواهر الدوائيّة المختصّة بهذا النوع من البول.

العمل مع المؤسّسات المختصّة على تأسيس ما يمكن أن نسميّه بعلم البول المقارن، يُدرس فيه الفرق بين بول البعير وأبوال الأصناف الأخرى من النملة إلى عصيّة كوخ والفيل، ويفضّل العمل مع علماء الاستنساخ على خلق نوع منقرض من الديناصورات لدراسة الفوارق البوليّة بين بوله وبول البعير.

استحداث اختصاص في كليّة الطب يسمّى بعيربولوجيا، يدرس فيه المختص، بعد أن ينهي دراسة الطب والتخصصات البولية، البعيربولوجيا، ويعطى بالتالي شهادة الـ Ph.D بهذا التخصص الهام. ويمنع هذا التخصّص على غير المسلمين حتى لا تسرق منّا علومنا.

أخيراً، يمكن العمل مع وزارة الصناعة على إنشاء معمل لملء بول البعير في زجاجات للإستخدام المحلّي. ويمكن أن نقترح اسماً لهذا المنتج، مثل بول أب.

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم!

رحمت الآلهة فرج فودة الذي وصفها يوماً بحضارة بول البعير.

المرشديّون؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 20 مايو 2004

في الأشهر القليلة الماضية جاءتني رسائل كثيرة تسألني عن المرشديين، الذين ذكرتهم مرّات عديدة في مقالات صحفيّة أو بحثيّة. والحقيقة أنني سبق وقمت بما يشبه التحقيق الصحفي، قبل سنوات، ضمن سلسلة مقالات عن طوائف المنطقة، عن الطائفة المرشديّة؛ ولأن المعلومات البحثيّة " الفعليّة " عن هذه الطائفة الكريمة نادرة، فقد اضطررت للاستعانة بكتاب قديم لباحث سوري – أعتقد أنه من اللاذقيّة – تناول فيه هذه الظاهرة الهامة في التاريخ السوري الحديث، بطريقة لا تفتقد إطلاقاً التشويه والتجريح؛ وكانت الصعوبة بالغة في استخراج أبر الحقائق من بيادر الوهم! من هنا، كان لا بدّ لي من زيارات ميدانيّة لبعض قرى الطائفة وأحياء تواجدها في المدن! ولمّا كانت سوريّا أثناءها أقرب إلى روسيا " الستار الحديدي " منها إلى أي شيء آخر؛ ولمّا كان المرشديّون على الدوام ضحيّة لهجوم الجميع دون استثناء، فقد كان من الصعب للغاية الرسو على مقاربة منطقيّة في الميناء المرشدي. لكني مازلت أذكر تلك القرى المرشديّة الجميلة التي زرتها بحذر ليس غير مبرّر، وأهلها الأقرب إلى القلب رغم تحفظّهم على كلّ ما هو غريب: وهم محقّون في ذلك! وهكذا، ما زالت تلك القرى المرشديّة، التي لا يخلو بعضها من جمال ساحر، عالقة في ذاكرتي: خاصّة شين في محافظة حمص وشطحا غرب حماة! مع أن المقال كلّه لم ينشر، لأني وجدته دون المستوى بحثيّاً، خاصّة إذا ما قارنّاه مع مقالاتي الأخرى عن الشبك والمندائيين واليزيديين والإسماعيليين، على سبيل المثال.

كلّ هذا الهجوم؟

ماذا لو قال أحدهم إنّ نبيّه أو ما شابه زار مكاناً ليس له وجود آنذاك، وصلّى بجماعة من الأنبياء والقديسين الذين يفترض – إن كان لهم وجود أصلاً – أنهم عاشوا في حقب زمنيّة متباعدة، المسافة بين أحدثهم وذاك النبي أو ما شابه ليست أقل من ستة قرون؟ وماذا لو أضاف أن نبيّه قام بعدها برحلة سياحيّة على حيوان مجنّح – لا أعرف حتى الآن ما الداعي له، إذا كان الله، باعتقادهم، استطاع أخذ يسوع إليه من أيدي صالبيه في ظرف لحظة – إلى السموات السبع، التي نعرف كلّنا أن لا وجود لها، وأن هذا الرقم ملطوش عبرانيّاً من الكلدان؟ ما لا أشكّ فيه إطلاقاً، أنّ صاحب طرح كهذا، في مجتمع عقلاني يرفض مقولات الماوراء، كان سيُسحب من ناصيته إلى أقرب طبيب نفساني لعلاجه من داء هلوسات عضال!

الفقرة السابقة موجهة حصراً لمذيع الجزيرة الأفضل تسويقاً للفكر الإرهابي التطرفي، أحمد منصور، الذي أساء إلى المرشديين بتراجيديّة ميلودراميّة ساذجة مشهورة عن المصريين عموماً، في حواره " الأتفه " مع الرئيس (؟؟؟) السوري الراحل، أمين الحافظ! ولا حاجة بنا طبعاً للتذكير بإساءات وزير الدفاع السوري السابق [بحمد الله] مصطفى طلاس إلى تلك الطائفة الكريمة.

إن ظواهر التجسّد أو الحلول ليست بالحالات الشاذّة في التاريخ الإسلامي؛ ومن دراستي لتاريخ الفرق في الإسلام، أستطيع القول إن التجسيد أو الحلول كان على الدوام يسير يداً بيد مع الفهم الإسلامي التقليدي للألوهة! وفي إيران، مثلاً، يمكن القول إن طائفة "العلي إلهي" ليست بعيدة كثيراً، في فهمها اللاهوتي لشخص علي بن أبي طالب، عن الفهم المسيحي التقليدي لشخص يسوع! من ناحية أخرى، فإن أشياء كثيرة موازية، عند البكطاش والقزل باش والشبك والدروز وربما بعض الإثنيعشريين، على سبيل المثال، يمكّن تلمّسها بسهولة عند أوّل مقاربة بحثيّة فعليّة للمخزون الثقافي عند تلك الجماعات. بالمقابل، فقد تناهى إلى مسامعي قبل سنوات – رغم أني لا

أمتلك أدنى دليل وثائقي على ذلك – أن ثمّة طائفة سنيّة بين لبنان وسوريّا، تدعى "بالعمريّة"، تؤلّه عمر بن الخطّاب؛ وبحوزتي بضع صفحات حول قداديس منسوبة لتلك الطائفة، كقداس عثمان وقداس الحميراء، لا أدري مدى دقّتها: من هنا، لم أعمل يوماً على نشرها!

الإله، في نهاية الأمر، مفهوم بشري. وما من أحد يستطيع الزعم، بأدلّة "علميّة" حياديّة، أن مفهومه عن الإله هو الأصح. بل يمكننا القول إن الذين ينكرون وجود الإله، هم أيضاً، في غيابيّة مفاهيمهم المجرّدة عن الإلهي، يشبهون المعتقدين بوجوده، على اختلاف أنواعهم، في أن لا أحد منهم يمتلك الدليل المقنع على صحة قناعاته. وفي نهاية الأمر، فالمفاهيم المجرّدة تلك، سلبيّة كانت أم إيجابيّة بالنسبة للموقف من الإله، ليست أكثر من تعبير واع عن جملة مؤثّرات لا واعية، سوسيولوجية–بيداغوجيّة–سيكولوجيّة!

إذن، لا يستطيع المرء إلاّ أن يستنكر مواقف أولئك الذين ينسبون ذواتهم زوراً إلى طبقة الإنتلجنسيا، من نمط الأخواني أحمد منصور، الذين ينظرون إلى مجرّدات الآخرين من زاوية النقد حيناً والاستهزاء أحياناً، في حين تبدو مجرّداتهم الأقرب إلى الهشاشة المنطقيّة والأبعد عن مقولات العقل.

إله أم إمام مصلح؟

لا مناص من الاعتراف أن عضو البرلمان السوري الأسبق، سليمان المرشد، الذي أخذت الطائفة اسمها عنه، كان شخصيّة غير عاديّة في التاريخ السوري الحديث. وبغض النظر عن مواقف الآخرين من هذه الشخصيّة–الحدث، فإن اقتناع هذا الكمّ الكبير من الناس بهذه الشخصيّة–الحدث ورسوخ هذا الاقتناع وتوارثه في زمن ليس عاديّاً بكلّ المقاييس، ليس بالمسألة التي لا تستحق الاهتمام البحثي من قبل المهتمين بالظواهر الدينيّة في المنطقة.

للأسف الشديد، فإن ما نعرفه عن المرشديين لا يخرج عن إطار الحدس السلبي الملامح: فالمرشديّون – نكرّر – على حدّ علمي، نادراً ما يكتبون عن ذواتهم، وحين يكتبون، فالأمر كلّه لا يخرج عن إطار الردّ الدفاعي، الذي غالباً ما يكون ضعيفاً، على الذين يهاجمونهم: وما أكثرهم!

بدأت الدعوة المرشديّة في النصف الأول من القرن العشرين عبر الظاهرة المسمّاة سليمان المرشد. وكانت الطائفة العلويّة، المهيأة آنذاك لتلك النوعيّة من الأفكار، البيئة الطبيعيّة التي نشأت على تربتها آخر الدعوات الدينيّة السوريّة. وكانت منطقة الحدود الجبليّة بين محافظتي اللاذقيّة وحماة الأرض التي أينعت عليها البذور المرشديّة الأولى. ومن تلك المنطقة امتدّت الدعوة إلى مناطق أخرى في محافظات حمص وإدلب ودمشق وطرطوس. والآن، كما أعتقد، فالوجود المرشدي في محافظتي حمص واللاذقيّة هو الأقوى.

لا نمتلك صورة دقيقة عن تفاصيل القناعات الدينيّة عند المرشديين، خاصّة وأنهم، كما أشرنا، لم يقدّموا ذواتهم دينيّاً بطريقة ممنهجة. والحقيقة أننا لا نعلم على وجه الدقّة حدود شخصيّة المؤسّس: فهل هو إله، كما يشاع؛ أم مجرّد إمام مصلح، كما قرأنا أكثر من مرّة؟ على أية حال، سواء اعتبر المؤسّس إلهاً أم إماماً مصلحاً، فالأمر لا يخرج عن إطار القناعات الشخصيّة التي لا يمتلك أحد الحقّ في مصادرتها. ومن عملي البحثي البسيط الذي تناول المرشديين يوماً، ففي اعتقادي أن هؤلاء كانوا الأكثر تعرّضاً للهجوم والافتراء والتشويه، من الجميع بمن فيهم العلويون – بكلّ أسف – الذين عانوا بدورهم من سيف الاضطهاد السني ما عانوا. بل أعرف من محام أرثوذكسي عتيق صديق، أن المرشديين كانوا يساقون إلى المحاكم في حماة بتهمة عبادة شخص من دون الله: والأمر، من المنظور الإسلامي، ينطبق أيضاً على المسيحيين، الذين يبدو أن الظرف الموضوعي يلعب الدور الأبرز في حمايتهم في منطقة مغرقة في تخلّفها!

ومن منظور تاريخي مادّي غير لاهوتي، فقد دفع المؤسّس حياته ثمناً لقناعاته الراسخة. بالمقابل، فقد أثبت المجتمع السوري في قضيّة المرشد وغيرها، أنه لم يصل حتى الآن إلى الدرجة الدنيا من سلم الحريّات وحقوق الإنسان. وما الحديث المملّ المتكرّر الطائفي عن المرشديين لوزير الدفاع السوري السابق، الذي يفترض أنه كان وزير دفاع الجمهوريّة العربيّة السوريّة لا الجمهوريّة العربيّة السنيّة، إلاّ الدليل الأبرز، كما نشير باستمرار، على هذا البعد السوري، على أعلى المستويات، عن أبسط مفاهيم احترام الآخر المخالف – فما بالك بأدناها!

مدخل تاريخي:

ينتمي المرشديّون، تاريّخيّاً ولاهوتيّاً وطائفيّاً، إلى إحدى الفرق العلويّة الكثيرة: وربما هم الآن ينحدرون من أكثر من فرقة. ومعروف أنّ العلويين جماعة إسلاميّة، بفهم خاص يختلف إلى حدّ ما عن الشكل التقليدي للإسلام، كما هو معروف عند السنّة الأشاعرة، الذين احتكروا لأنفسهم، لظروف سياسيّة تاريخيّة، حقّ تمثيل الإسلام. والفهم العلوي للإسلام متميّز عموماً بمنظوره غير الحرفي للنص، وتخلّصه من كثير من المعيقات الذهنيّة والسدود حول العقل المميّزة للسنّة الأشعريين. وفي اعتقادنا أن المرشديين، عبر الحركة التي قادها المؤسّس، ازدادوا خروجاً عن الحرفيّة النصيّة، ووسّعوا تخلّصهم من المعيقات والسدود المشار إليها آنفاً: يمكنني القول باختصار، إن المرشديين، مع الاسماعيليين، هم الأكثر ترشحاً لدخول نادي العلمانيّة–الليبراليّة السوريّة من أوسع أبوابه.

سوسيولوجيّاً، على عكس المرأة العلويّة المستثناة من الدين، أو الأشعريّة التي تعامل كحيوان من نوعيّة غير مطلوبة، فالمرأة المرشديّة، كما تلمّست من ملامح ظاهريّة تفتقد العمق، أكثر احتراماً من مجتمعها ومشاركة فيه من نظيراتها السوريّات الأخريات، باستثناء الإسماعيليّة القاسميّة والمسيحيّة وبعض اليسار. كذلك فالمجتمع المرشدي أقل عنفاً وخشونة وقساوة من نظيره العلوي: وربما أن هذا كان بسبب المؤثرات الخارجيّة، خاصّة تلك الفرنسيّة، التي كان لها دور ما في حياة المؤسّس؛ وليس في الأمر ما يعيب، لأن الحضارة، بالمعنى العصري للمصطلح، لم تدخل سوريّا ولبنان إلاّ حين انتدبتهما – لا احتلتهما – فرنسا؛ وأخشى أن تكون خرجت معها.

المرشديّون، بحسب تصوّري، هم واحدة من الطوائف الدينيّة السوريّة التي نأمل منها، لبعدها عن الانغلاق الديني والتحجّر الاجتماعي، أن تشارك كثيراً في نهضة حضاريّة سوريّة توصل البلد إلى مستوى غير مسبوق، كوطن ليبرالي علماني تعدّدي لكلّ أبنائه. مع ذلك، ورغم التشابه القوي بين المرشديين والإسماعيليين، خاصة القاسميين منهم، فالطرف الأخير يتميّز عن الأوّل بقدراته الفكريّة القويّة ومنظومته الاجتماعيّة الأكثر تماسكاً وتحرّره القائم على أسس أقوى وأصلب وعملية مثاقفته المتواصلة منذ القرن الرابع الهجري حتى اليوم، رغم المعيقات والاضطهاد. لكن لا يمكن أن نطلب من المرشديين، وهم الجماعة التي لم يمض على وجودها غير نصف قرن ونيف، ما نطلبه من جماعة راسخة في العقل والتاريخ كالإسماعيليين. مع ذلك، فأقل ما يؤمل من المرشديين، هو البدء بالتعبير عن ذواتهم، في وطن هم الأجدر به والأكثر أصالة فيه، لا أن يتركوا للغير مهمّة التعبير المبيّت الإساءة عنهم، من منطلق طائفي لا يقبله أحد.

ملاحظة:

لأن معلوماتي اللاهوتيّة عن الطائفة المرشديّة الكريمة هي الأقل، وتصوّراتي عنهم هي الأكثر تشويشاً، أرجو منهم، مفكّرين أو أناس عاديين، تزويدي بما يمكنني عبره إعادة شيء من الاعتبار إلى جماعة طيّبة طالما أشهرت في وجه أبنائها سيوف التشويه.. والتكفير.

الآخر الذي سرق مفاتيح الجنّة

الله هو الإنسان-الإله! (فويرباخ)

www.annaqed.com

نبيل فياض، 18 مايو 2004

"هل يمكنني اكتشاف إنسانيتي إلاّ عبر الإنسان الآخر؟"- سؤال يلاحقنا باستمرار، ونحن نحاول الاطلاع على آخر ما أنتجه العقل البشري في مجال الانتربولوجيا.

قبل سنوات، تمّ القبض على فتاتين هنديتين من إحدى الغابات، تعيشان بين الذئاب. ولأن الفتاتين كانتا منعزلتين عن أي آخر بشري، فقد كانتا مسكونتين بشعور الحيوانيّة الوحشيّة، الأبعد عن أبسط متطلّبات الأنسنة. وحسب ذاكرتي التعبة، فقد ماتت إحدى الفتاتين لأنها مزّقت جلدها الحيواني حين أرادوا إخراجها منه، والأخرى فشلتُ في متابعة أخبارها.

هذا المثال المحرج يحشر رأسه علينا، ونحن نتابع أخبار الموت تتناثر في أرجاء العالم، من فلسطين إلى العراق إلى أفغانستان، ليسأل بقوّة: لماذا؟ الكلّ يقاتل الكلّ من أجل مفاهيم تقدّست في الأذهان، دون إمرارها في مصفاة العقل؛ الأطفال الذين لم يولدوا بعد، الرجال المضمّخون بأحلام لم يعشوها بعد، النساء المرتجفات برغبات مكتومة لم يبحن بها بعد – كلّ هؤلاء يُحرقون اليوم، في غير مكان، على عتبة مفاهيم لا ندري من أين جاءوا بقداستها، كالأرض الموعودة، أو الجنّة الموعودة، أو الديمقراطيّة الموعودة. فهل الطفل العراقي الساكن أمام عينيّ أهم أم الديمقراطيّة الموعودة؛ هل المرأة الفلسطينيّة التي ترسل ابنها للانتحار أهم – وابنها – أم الأرض الموعودة والجنّة الموعودة؟ ما من شيء أغبى من تقديس المفهوم على حساب الإنسان الذي اخترع المفهوم. وهل باستطاعة أي مفهوم أن يوجد دون إنسان يقدّم هذا المفهوم؟ هذه المفاهيم بالذات، التي يذبح على عتبتها الملايين منذ زمن، كالدين أو القوميّة أو الديمقراطيّة أو حقوق الإنسان، هي أسوأ أنواع الوثنيّة التي عرفها العقل البشري.

من فينا استطاع يوماً فهم العمق الفعلي لفلسفة الغفران؟ ليس من السهل على من هو بشريّ، بشريّ جدّاً، استيعاب القدر الهائل من القوّة في فلسفة الغفران، التي اختلفت مع المعلّم نيتشه في مقاربتها، خاصّة وأنّه نظر إليها فقط من عين الضعف. إن فلسفة الغفران هي الوجه الآخر لعملة القوّة، فوحده القوي يستطيع أن يغفر فعلاً، حين يفهم أنّ الآخر المسيء ليس أقل من ضعيف!

قبل سنوات سُجنت في الأمن العسكري، فرع حمص، فقط لأني قلت عن ضابط اسمه أحمد اليوسف إنّه لا يستأهل أن يكون رئيساً لفرع تلك المدينة، من الأمن العسكري. وفي السجن الانفرادي، تحت الأرض، المكوّن من 23 زنزانة لا تكاد تتسع لإنسان ومرحاض – لا أعرف إذا كانت السيّدة بثينة شعبان التي أبكاها عذاب العراقيين على يد الأمريكان تعرف هذا – تمّ تنقيلي بين الزنزانة 17 والزنزانة 4. وأثناء التحقيق – لم يكن تحقيقاً بل مجرّد إفهام بأننا قادرون على فعل كلّ شيء – حكيت للضابط المحقّق، الذي لا أعرف اسمه، القصّة التالية:

في بيروت الشرقيّة، وطني الأوّل والأخير، كان ثمّة صديق أشهر من أن يعرّف، اسمه الأخ نور. ومرّة كان الأخ نور الذي يمتلك مواقف رافضة للميلشيات والحرب في سيّارة في مهمّة إنسانيّة في إحدى مناطق الجبل. خرج إليه بعض المسلّحين وأنزلوه من سيّارته؛ وراح أحدهم يوسعه ضرباً. وما كان من الأخ نور، النحيل البنية، الذي لم يتناول منذ عام 1976، على ما أذكر، سوى الخبز الذي يرميه الناس في الشوارع ولم يرتد حذاء ولا قصّ شعره،

إلاّ أن هجم على يدي الرجل الذي يضربه، يقبلّهما؛ ذهل العنصر الميليشي، ونظر إلى الأخ نور باحثاً عن تفسير لما رأى. قال الأخ نور: منذ أن وعيت دوري في هذه الحياة القصيرة وأنا أتخذ يسوع المصلوب المعذّب المتروك أمثولة؛ ولمّا كنت مشهوراً وغنيّاً فإن أحداً لم يعاملني قط بغير اللطف والحب! وهكذا كنت أشعر أن تجربتي اليسوعيّة ناقصة: أمثولتي الذي غفر لصالبيه ما يزال يبعد عني كثيراً أنا المنعم بالعيون الودودة حيثما وقفت. وحدك، بتعذيبك إياي، أعشتني شيئاً من حلمي بيسوع المعذّب الغافر لمعذّبيه. وكانت ردّة فعل العنصر أنه انحنى على يديّ الأخ نور، يقبلهما!

كان ثمّة كاهن بلجيكي صديق من الآباء البيض، اسمه الفرد هافنت، صاحب كتاب *الإنجيل بحسب مرقص*، وكان يحرص على متابعتي حيث أكون لتعليمي مبادىء ما يسمّى بلاهوت الصيرورة! ورغم أن لاهوت الصيرورة مفارق للاهوت الكنسي الأرثوذكسي في كثير من جوانبه، إلاّ أنّ ثمة فكرة راقت لي من هذه البنية الفكريّة المتماسكة، قد تبدو في نظر التعليم الكنسي التقليدي بعيدة للغاية عن أبسط ما جاء به الآباء منذ نيقية حتى اليوم. ملخّص الفكرة هو أن يسوع ليس أكثر من بشر تألّه. لو كان يسوع إلهاً وغفر لصالبيه، المسألة أقل من عاديّة. لكن يسوع الإله، غير قابل لأن يُقلّد في تجربته الخلاصيّة منا، نحن البشر! بالمقابل، فحين يكون يسوع بشراً سعى نحو التألّه عبر تلك التجربة الأهم في التاريخ البشري، فهو إنما يفتح بذلك الباب أمام الجميع، من بني البشر، كي يمشوا على أمثولته، ومن ثم يتألّهون!

دائماً، وليس في الأمر أي نوع من النفاق، كنت أشعر أنّ المسلمين هم الأقرب إليّ على كافة الصعد! المسلمون، الذين يفتقدون، للأسف، تجربة الغفران الخلاصيّة؛ المسلمون الذين يعتقدون أن بإمكانهم مصادرة مفاتيح الجنّة عبر الحفاظ على بعض جمل قيلت ذات يوم: هم الأكثر جدارة بالحب، لأنهم الأكثر ضعفاً. وحين نزعق أحياناً في وجوههم بألم وغيرة، فذلك لأننا نشعر، بيننا وبين أنفسنا، أن المسلم، الإنسان المسلم، جدير هو أيضاً بأن يحلّق عالياً في عالم الحريّة غير المؤطّرة!

ذات يوم، قبل أعوام، دخلت سجناً في حمص، كلّ سجانيه من العلويين، المميّزين بلهجتهم وقساوتهم وخوفهم من الآخر، حتى وإن امتلك مفاتيح الجنّة! وخرجت من تجربة السجن العبثيّة بجروح في الأمعاء وجروح أكثر في النفس، أحاول جاهداً مداراتها بعيداً عن عيون الشامتين وأدعياء التعاطف. لكن هذا لم يمنع أن يكون يوسف الرامي، الذي أخذ جسدي الذي صلبته أصابع العلويين، علويّاً من أبناء القديس سرابيون الأنطاكي:

"وجاءَ عُضوٌ في مجلسِ اليهود اسمه يوسف، وهو رجل تقي صالح، عارضَ رأيِ المجلسِ وتصرّفه، وكان من الرّامة وهي مدينة يهودية، وكان ينتظر ملكوت الله، فدخل على بيلاطس وطلب جسد يسوع. ثم أنزله عن الصليب ولفّهُ في كَفَنٍ من كتانٍ، ووضعه في قبرٍ محفورٍ في الصخرِ، ما دُفن فيه أحد من قبلُ. وكانَ اليومُ يومَ التهيئة للسبت، والسبتُ كاد يَبدأ".

لا أجمل من أن يشعر الإنسان أن باستطاعته، عبر الله، الوقوف على باب الجنّة؛ لكن الأكثر جمالاً هو أن يدخل الجنّة، جنّة الأرض أو السماء، التي لا يمتلك مفاتيحها غير الآخر، الآخر الذي نحب أو لا نحب، الآخر الذي يضطهدنا أو يدمينا أو يحملنا تحت إبطه إلى وطن الأزل: الآخر سرق من الله مفاتيح الجنّة!

=================

من سرق السوكاه من دمشق؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 16 مايو 2004

وكنت أفرح بقدوم البيساح إلى دمشق كلّما استقبلته في بيت موشيه شاروقة، أوّل أصدقائي اليهود، الذي لا أعرف أين يقيم الآن؛ أين حطّت به رياح الترحال ودروب الغربة. كان حي القشلة وشارع الأمين يغصّان في مثل هذه الأيام بصبايا اليهود اللواتي كنّا نفزع من جمالهن وأناقتهن العارية الرائعة وشبانهم المنغلقين على ذواتهم، الذين استبدلوا بقطعان الإيرانيين يتجرجرون زرفاناً في العاصمة القديمة، تسبقهم رائحة مريعة وسواد كاسح.– ما أصعب أن تفقد مدينة ألوانها لصالح لون واحد. ما أصعب أن تهرب الألوان من مدينة تقاليدها ملونة دنيويّة، لصالح الأسود، وإن كان مقدّساً! ما أشوه أن تتلاشى من واجهات القشلة الصلبان والميزوزاه أمام سيف ذي الفقار الذي يأبى إلا أن يقطّر الدماء.

أيام كانت؛ وكانت الحياة أكثر جمالاً وغنىً وتلوّناً! ذات شبعوت، وكانت اللاذقيّة الجميلة تسكن بهدوء ما قبل الصيف، رافقت أصدقائي اليهود، موشيه شاروقة وأخاه جوزف وحاييم جرادة وغيرهم؛ وفي ثنايا الشاطيء اللاذقي الجميل كان أسبوعاً ما يزال يطارد ذاكرتي كثيرة الثقوب حتى اليوم! هناك تعرّفت على فيكي متّاي، الذي كان يغسل الرطوبة المزعجة بقصص مغامراته في جزيرة العراة اليونانيّة التي لا تنتهي!

مرّة، في البيساح، وكان عيد الشعانين الكاثوليكي، اشتريت شمعتين لإيقادهما في كنيسة مار مطانيوس المارونيّة قرب باب توما؛ فجأة، لمحني خمسيني يهودي من جيران صديقي موشيه يدعى مئير؛ قال: تعال واشعل هذه الشموع الجميلة في الكنيس القريب من بيت موشيه المسمّى "رشي". وأخيراً، توصلّت معه إلى حلّ وسط: شمعة في الكنيس وشمعة في الكنيسة. وفي "رشي"، كنت أحمل الشمعة وحولي ثلّة من الأصدقاء – ذكور فقط – اليهود؛ ننادي: " על נשמת רב מאר בעל הניש"!

لم أكن وقتها قد التقيت حاخامي الساكن على حواف الجنون، ألبير الحمرا؛ مرّة ، وكنت برفقة صديق حاخام–صيدلاني اسمه إيلي سويد، لمحت قامة مترعة بالطول ووجه ينضح بالحب في مدرسة ابن ميمون؛ سألت إيلي: من هذا؟ قال: الحاخام الأعظم ألبير حمرا! وظل الاسم الجميل في قلب ذاكرتي كثيرة الثقوب حتى التقيته من جديد! وفي ابن ميمون أيضاً! لا أذكر كيف التقيته؛ لا أذكر لماذا؛ لكني أذكر لون بذلته الأسود؛ قميصه الأبيض الأنيق؛ ربطة عنقه الرفيعة المزركشة باحتشام؛ كان أغرب ما في لقاءاتي بهذا الوجه الطفل أن سلام أصابعي لأصابعه يبعث دائماً شحنة كهربائيّة فينا، نحن الإثنين، لم أستطع فهمها حتى الآن.

كان رباطي بألبير غير عادي؛ وبعد محاولة بسيطة لإقناعه من قبلي، ذهب معي إلى مكتبة الأسد التي تبعد كثيراً عن حي اليهود بدمشق!

ما زلت أذكر ذاك الصباح الربيعي الحلو حين ذهب كلّ منا في سيّارة أجرة مستقلّة، إلى ساحة الأمويين، كي يسجّل ألبير في مكتبة الأسد! كنّا نخاف أن يشاهدنا أحد معاً: أنا، لا أعرف لماذا؛ وهو، كي لا يقول المتأوّلون اليهود إنني لعبت بأعصاب حاخامهم الأعظم فأخرجته من "الحارة"، دون الهالة الحاخاميّة الشهيرة!
في مكتب التسجيل في مكتبة الأسد؛ سألته المسئولة: ماذا يعمل الأستاذ؟ ارتبكنا لثانية؛ واستدركت أنفاسي؛ قائلاً: أستاذ للغات الساميّة في مدرسة ابن ميمون! خاف وقتها ألبير أن أقول: "حاخام"؛ في ذلك المكتب الصغير المكتظ، فأخلق حالة بلبلة بين الحضور الذي ينفر من كلمة "يهودي" فكيف "بحاخام"؟

كنت أزور ألبير باستمرار في بيته القريب من نهاية شارع باب توما الضيّق المرصوف وبداية القشلة؛ كنت أكذب على نفسي – كالعادة في كلّ علاقة لا أجد لها مبرّراً كافياً – بأني أريد تعليمه الإنكليزيّة وأتعلّم على يديه "هالاخا". – لكن الحقيقة أن حبّي لألبير وتبلبل عقلي أمام هذه العلاقة غير العادية، في البداية على الأقل، جعلاني أختلق لنفسي الحجج كي أجاور هذا اليهودي نصف– الطفل نصف– العجوز!

رحت أحضر معه الصلاة بين كنيس جوبر وكنيس الإفرنج؛ بل كنت أنا الذي اقترح عليه تعرية أحجار كنيس جوبر الجميل من الاسمنت البشع الذي يختزل عمره العريق!

حين زرت كنيس جوبر مع أشخاص مسلمين، واطلعتهم على سجّادة الصلاة المعلّقة على أحد الجدران وعليها صورة المدينة المنوّرة، وفوقها لوحة مخاطة مكتوبة بالعبريّة تحمل مضامين لا تروق للمسلمين كثيراً، وفتحت لهم الخزانة التي تحتوي التوراة على شكل مدرجة، وأخذتهم إلى مغارة إيلياهو النبي تحت الأرض حيث الكرسي القديم وشمعدانات الزيت الأقدم، زعل ألبير؛ وبذلت جهداً هائلاً حتى أرضيته: لكنّي، بيني وبين نفسي، كنت أشعر أن ألبيري لا يمكن أن يغضب مني وأنه كان يصطنع الزعل كي أسترضيه، مرّة تلو المرّة؛ وكنت أفرح بهذا للغاية!

مرّة، ووقتها وجدت الأمر مفرطاً في طبيعيّته لأني لم أعد أسكن خارج الحاخام، جاءني ألبير طالباً مساعدتي في البحث عن فتوى لتطليق امرأة يهوديّة من زوجها الذي يرفض طلاقها، وهو العقيم؛ وظللنا نعمل سويّة بين نصوص التلمود والموسوعة اليهوديّة في مكتبة الأسد حتى وصلنا إلى حل! والأمر لم يكن حالة إفراديّة!
انمزجت بألبير إلى درجة اللاعودة؛ حتى جاءني مرّة يطلب مني أن أصبح " גֵּר"! هزّني الطلب في البداية؛ أفرحني؛ جعلني أشعر أن حبّ ألبير لي وصل إلى درجة رغبته أن أكون جزءاً من عالمه الخاص اليهودي؛ طلبت مهلة للتفكير؛ فمعلوماتي اليهوديّة غير البسيطة، علاقتي بألبير، وصداقاتي مع كثير من شباب اليهود الدمشقيين: هذا كلّه لا يشكّل سبباً لأن اعتنق اليهوديّة، بكل قيودها وطقوسها وهالاخها! ولمّا لم أعط ألبير ردّاً، عرف وهو المسكون بكل أحاسيس الجمال أن موضوع " ال גֵּר " لا يعني لي شيئاً!

فجأة، قال ألبير إنه سيغادر سوريّا؛ ولمّا سألته بخوف: إلى أين؟ قال: إلى الولايات المتحدة! كان جسدي أضعف من تحمّل لحظات الافتراق المتعبة. كلّ ما أذكره من تلك المرحلة كتاب هالاخا أهداني إياه ألبير، مكتوب باللغة العربيّة والحرف العبراني؛ ما يزال إلى اليوم يسكن مع قلّة نادرة من الكتب ما تبقّى في بيتي من أوراق!

حين التقيت صديقي الصيدلاني اليهودي إيلي البقاعي قرب الآثار في طالع الفضّة؛ همس بصوت نائم، وكأن أحداً يطارده: حاخام ألبير عند أخت زوجته، يريد أن يراك! أسرعت، وكان الوقت قلب الشتاء، لأصعد الدرج الخشبي المودي إلى الصالة العتيقة قرب كنيس الإفرنج، وكان أستاذ "فلسطيني" يدرّس طفلاً يهوديّاً هو ابن أخت زوج الحاخام، سألت المرأة الشقراء المتعبة الجمال: أين ألبير؟ أجابت بلا تحفّظ: في الغرفة الداخليّة؛ إنه متوعّك قليلاً؛ الكلى تزعجه باستمرار! أسرعت نحو الداخل؛ كان ألبير ممدّداً بجسده الضخم، وعلى رأسه طاقيته الكحليّة الصغيرة [ما زالت معي حتى اليوم]، يرتدي منامة بيضاء مقلّمة، من تلك التي نراها في المسلسلات الكوميديّة السوريّة؛ انحنيت عليه وقبّلته من بين عينيه، كعادتي؛ كان مسكوناً بألم فشلت شهوة اللقاء في توريته! "أرجو أن تطلب منهم تحضير كأس من الزوفى، إنها تريحني!"– همس ألبير بصوته المرتاح كالعادة!

فيأخذُ الكاهنُ عودَ أرزٍ وزوفى وصَبْغَ قِرمِزٍ ويُلقي ذلِكَ في وسَطِ حريقِ البقَرةِ. ثُمَ يَغسِلُ الكاهنُ ثيابَهُ" (عدد)!
ويَغمِسُ رَجلٌ طاهرٌ زوفى في الماءِ ويَرُشُّ على الخيمةِ وعلى جميعِ الأمتِعةِ والأحياءِ الذينَ كانوا فيها، وعلى مَنْ لمَسَ العَظْمَ، أو القتيلَ بالسَّيفِ أو المَيتَ ميتةً طبيعيَّةً، أو القبرَ. ويَرُشُّ الطَّاهرُ الماءَ على النَّجسِ في اليومِ الثَّالثِ والسَّابعِ ويُطَهِّرُهُ في اليومِ السَّابعِ، فيَغسِلُ ثيابَه ويَستَحِمُّ بالماءِ فيَطهُرُ عِندَ المغيب" (عدد).

حملت بيدي اليمنى فنجان الشاي الصيني الأقدم، كعادة اليهود، ورفعت رأس ألبير بيدي اليسرى العاطلة باستمرار عن العمل؛ نظرت في عينيه الصامتتين بوجع، ورحت أرشفه قطرات الزوفى التي تناثرت فوق لحيته القصيرة التي تعاند الشيب والزمان والقهر!

"ألن تأتي معي؟" – سألني ألبير بصوت يقطر دماً!

تردّدت الكلمات بين لساني وشفتيّ؛ وأجبت بصوت يغص بألم الأصبع الذي ينقطع عن جسده: "لا أستطيع! لا أستطيع! هنا وطني! لقد فشلت في مغادرة دمشق وبيروت رغم مغريات كثيرة!"

كانت قصّة جيمس جويس، كاتبي المفضّل، إيفلين، من مجموعته *"سكان دبلن"*، تقف بيني وبين ألبير، سديماً من خوف ورعشة الاقتراب من المجهول؛ إيفلين التي تعشق دبلن وصديقها المقيم في الأرجنتين؛ ولمّا جاء لأخذها إلى العالم الجديد، فشلت ذراعاها – ذراعاها، وليس هي – في فكّ ارتباطهما مع رصيف الميناء، وسفينة صديقها تصفر مبتعدة.

استرخى صوت الحاخام نصف–الطفل نصف–العجوز؛ وهو يتأوه متفلسفاً: "لكنّك، هنا، يهودي بغربتك عن هذا المجتمع الذي يمشي عكس سير الزمان. لقد جمعتنا الغربة في هذا الوسط المعادي: أنت يهودي بالغربة، وأنا يهودي بالدين".

"لكنه وطني؛ لقد فشلت في الانتماء إلى وطن آخر، مهما بدا متحضّراً؟!"

كان دفيء ألبير مضاعفاً بمرضه؛ وأنا أهرب من عينيه المنكسرتين بسؤال متلعثم الاسترخاء فوق الفم المريض الواجم: "لماذا لا تصبح גי"ד؟"

وهل إذا صرت גי"ד تغادرني عزلتي المتأصّلة التي أهرب منها وتطاردني كاسمي؟ وهل أن بطاقة גי"ד تستطيع أن تذيب حدودي السميكة في المجتمع اليهودي؟ لقد عملت زمناً طويلاً على باقة من أفضل المفكّرين اليهود، ليس أوّلهم كافكا ولا آخرهم هربرت ماركيوزه، وساكنتهم ليل نهار في عالم من العزلة التي تأكل أطرافها باستمرار، وخرجت منهم بمزيد من العزلة، عن اليهوديّة – وهم المنعزلون عن اليهوديّة أصلاً – وعن غير اليهوديّة.

وغادر ألبير سوريّا؛ وغادرها كلّ اليهود السوريّون بعده؛ وافتقدت سوريّا لوناً جميلاً آخر، في انتظار أن يسود السواد في زمن غير بعيد على كلّ الألوان!

الكنس المهجورة؛ المصاحف القديمة الممزّقة؛ الميزوزاه الضائعة من أبواب شارع الأمين؛ تلاشي المحلاّت التي كنّا دائماً نتباهى بوجودها في قلب دمشق، التي تعلّق على بابها: يغلق محلّنا يوم السبت! هروب كرنفالات الفرح في البيساح والروش ها شناه والسوكوت والحنّوكاه من شوارع دمشق القديمة!!!

مرّة وحيدة التقطت فيها عيناي وجه ألبير الضاحك أبداً: كان ثمّة بيساح؛ وكان يحكي من محطة تلفزيون إسرائيليّة عن احتفالات ذاك العيد في دمشق: كانت دمشق تزني بأعصابه، تنتهك ذاكرته كل ليلة! ولمحت في عينيه لا بريقاً لا متوهجاً، في وجهه انشطار فرح طالما كان يتفجّر من ابتسامته!

أتعبتك إسرائيل؛ وأتعبنا غيابك، ألبير! لطالما قلت لك: هنا وطنك! أنت سوري حتى النخاع!
هل تذكر حاييم حميش حين سألته عن ابنه وبنته المتزوّجين في بروكلين؟ قال: "ولداي متزوّجان من سوريين! لا نستطيع الزواج من الأمريكان حتى وإن كانوا يهوداً! نحن سوريّون"!

أتمنى أن تقرأ رسالتي وتعرف أني، رغم المسافات البعيدة جدّاً-القريبة جدّاً، أيها الساكن في حولون: ما زلت أحبك!

وزارة التكايا، أم تكيّة الوزارات

www.annaqed.com

نبيل فياض، 16 إبريل 2004

في كلّ دول العالم الإسلاميّة المتخلّفة توجد وزارة أوقاف واحدة، إلاّ في سوريّا: لدينا وزارتان – واحدة تحمل اسم وزارة الأوقاف، والأخرى اسمها نظريّاً وزارة الإعلام، لكنها لا تختلف عمليّاً عن وزارة الأوقاف في شيء، اللهم إلاّ أنّ نسبة المفتيين في الثانية أقل وغير المحجّبات أكثر!

في دول العالم المتحضّرة أو الساعية إلى التحضّر لا يوجد شيء اسمه "وزارة إعلام"! فمن غير المعقول، موضوعيّاً، أن يكون لأي جهة فئويّة أو حزب أو منظومة حكم أو تيار بوقاً إعلاميّاً يسوّق له بنقود كلّ الشعب، من المعارضة والحكم؛ ووزارات الإعلام في تلك الدول المغرقة في تخلّفها ليست غير طرف فئوي يعبّر عن مصالح طرف حاكم، في حين أنّ المعارضة مغيّبة عن هذا الجهاز الهام، هذا إذا لم تكن تتعرّض للتشويه من قبل الطرف الحاكم أو التقزيم الشعبي.

في سوريّا، كما يتراءى لنا، وصل الارتباط العضوي بين وزارة الإعلام والحزب الحاكم إلى درجة أنّ مكاتب الوزارة موجودة في مبنى صحيفة الحزب المسمّاة "بدار البعث": وربما يكون الأمر كلّه مصادفة لا علاقة لها بالسعادة! وحتى الآن لا نعرف ما إذا كان حزبنا العظيم مرتهناً للوزارة الأكثر حضارة أم العكس؟ على أيّة حال، يمكن الاستدلال من سرمديّة القائمين على الحزب وزمنيّة القاعدين على الوزارة أن الأخيرة، كالبشر والله سبحانه، تابعة للأوّل!

ما علينا! سواء أكانت الوزارة تابعة للحزب أم لمقهى الكمال الصيفي: الأمر لا يهم! ما يهم هو حرفيّة عمل هذه الوزارة ودورها التنويري المفترض – فأين وزارتنا العتيدة، بأجهزتها الضخمة وموظّفيها الكثر، من كلّ ما سبق؟

قبل التوقّف عند محطّات منتقاة، لابدّ من نوع من التذكير بالحالة المأساوية لكلّ البنية الإعلامية السورية، خاصّة جهاز الرقابة فيها. إنّ أي نصّ تريد نشره في سوريّا لا بدّ أن يمرّ بأحد أجهزة الرقابة التي تخضع أوّلاً وأخيراً لمزاج الرقيب. والرقباء يتناثرون بين ما يسمّى بالقيادة القطريّة ووزارة الإعلام إياها. مع ذلك، وبفضل الانترنت المنتشرة كالهواء في كلّ سوريّا، صارت مسألة الرقيب تحصيل حاصل. والسوريّون اليوم، بأسمائهم المستعارة الكثيرة، خرجوا من صدفة الرفاق المصادرين، وصاروا يسبحون في كلّ الاتجاهات. قبل أشهر، استدعيت إلى أحد الأمكنة الهامّة بسبب منشور كان يوزعه الأوقافيّون، أذكر أنه كان يحمل – ضمن أسماء كثيرة – بصمة الشيخ الكردي (أيضاً ؟؟؟) زياد الأيوبي؛ وكان هذا المنشور الأوّل من نوعه ربما في سوريّا، صرخة احتجاج مشائخيّة على كتابي المريع، *مراثي اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى* ، وبدت المطالب إلحاحيّة بوقف توزيع هذا الكتاب الفاجر، الذي كانت توزّعه مكتبتان في دمشق وطرطوس. كان ردّي البسيط أن الكتاب موجود على أكثر من خمسة وعشرين موقعاً على الانترنت؛ فإذا استطعنا منع الكتاب في هذه المكتبة السوريّة أو تلك؛ كيف يمكن منعه في الانترنت؟

هل تذكرون قصّة نائمي أفسس، التي لطشت من أصحابها وعادت لنا تحت عنوان أهل الكهف؟ يبدو أن أفسس صارت أكبر من مدينة وأوسع من منطقة!

نعود الآن إلى حرفيّة العمل في الوزارة العتيدة؛ فمنذ سنوات، لم تعرف سوريّا حدثاً أمنيّاً ذا شأن؛ والحدث التافه الذي اكتشفنا أخيراً أنه جنائي، صوّرته لنا الوزارة إياها وسوّقه مناطقتنا الجهابذة، بأسلوب يذكّرنا بالزمن البريجينيفي، على أنه أمني– فأساءوا إلينا مرّتين: مرّة حين سمح لهؤلاء النطق باسم الحضارة السوريّة العظيمة

التي لن ينجح أحد في مصادرتها لحسابه، ومرّة أخرى حين صوّروا الوطن الأكثر أمناً على أنه هش أمنيّاً إلى درجة غير عاديّة. وكما نقل لي – عذراً؛ فأنا أتابع أخبار سوريّا من الجرائد الأجنبيّة والمحطّات الفضائيّة غير السوريّة الناطقة بالعربيّة – فقد ذكر السيّد الوزير، الذي سبق والتقيته أكثر من مرّة قبل أن يصبح وزيراً وكنت أعجب بصمته الدائم، أن الإرهابيين – ليسوا إرهابيين ولا من يحزنون – ليسوا سوريي الملامح! لكن التحقيقات كشفت، كما ذكرت صحيفة كويتيّة، أن الجناة سوريّون؛ بالمناسبة، هل توجد ملامح تميّز السوري عن غير السوري من سكّان المنطقة؟ أنا أستطيع تمييز السوري بسهولة عن الياباني أو الصيني أو الصومالي – الذي دحشوه كما نشير باستمرار في جامعة عمرو موسى الهلاميّة – لكني أفشل حتى الآن في تمييز الفلسطيني عن السوري عن الأردني عن اللبناني حتى في اللهجة: لمن لا يعلم؛ في سوريّا مناطق تتحدّث بلهجة لبنانيّة، أخرى تتحدّث بلهجة أردنيّة، وثالثة أقرب إلى العراقيّة منها إلى الدمشقيّة. يمكني هنا توجيه ملاحظة بسيطة يمكن تلخيصها بأنه على بعضهم وشم السوري بين عينيه بدمغة معينة، كنساء الهندوس، تجعل تمييزه عن غيره أسهل على من أراد ذلك.

وماذا بشأن الثقافة التي يبدو أن وزارة الإعلام العتيدة – بالاشتراك مع اتحاد ع ع ع ، المسمّى "إتحاد الكتّاب العرب" – هي المسئولة عن دقّة قيادتها، لا وزارة الثقافة التي قد ندعوكم قريباً جدّاً إلى طقوس جنائزيّة تليق بها؟ إعلامنا المقروء – بالقاف – لا أحد يقرأه؛ والكتب التي توافق عليها الوزارة أو القيادة القطرية الحكيمة تنتهي عند باعة الفول النابت في القرى البعيدة! بالمناسبة، إنّ أبسط متطلّبات الدفاع عن لقمة المواطن تقتضي سحب القائمين على اتحاد ع ع ع من أنوفهم إلى أقرب محكمة لمقاضاتهم على هذا الكم من الهراء المطبوع الذي يصيب الماعز إذا أكلته بنوع من الإسهال لا تفيد معه كافة أصناف السلفا!

هل يوجد من يجرؤ على سؤال هؤلاء: كم هو حجم الورق الذي أضعتموه في كتب لا يقرأها أحد ولن يقرأها؟ هل يوجد من يجرؤ على سؤال هؤلاء: ما هي المعايير التي يتمّ تبنيها في قبول نشر مخطوط أدبي لإحدى المثقفات المبتدءات – وكأننا أمام روزا لكسمبرغ أو غرتروده شتاين بلا زغرة – غير الجمال الخارجي [أليس بالداعي عند العجائز أن يكون فاجراً] والانفتاح الداخلي؟ وما هي المعايير لقبول نشر مخطوط بحثي لأحد الإبداعيين – مثل كارل بوبر أو جورج لوكاش بلا تشبيه – غير القرابة من هذا أو ذاك أو تقاسم أجرة النشر مع هذا أو ذاك؟ على أية حال، فإن الإنجاز الأهم لإتحاد ع ع ع (ع) هو إدخاله الرفيق رفعت الأسد في صفوف باحثيه (رض)! وحتى الآن لا نعرف ما هو العمل الإبداعي لهذا الرفيق الأنضل حتى أدخله ع ع ع في جنته – قطاع خاص إلى حد ما – التي طرد منها أدونيس!

وماذا بشأن الإعلام المرئي الأكثر أهميّة هذه الأيام؟ قبل سنوات قام طالب في كليّة الإعلام من بلدة صيدنايا بعمل نوع من الاستبيان حول متابعة المواطن السوري لإعلامه القطري. ورغم أن الاستبيان كان قبل هذا الانتشار السرطاني للصحون اللاقطة الفضائيّة، فقد كانت النتائج مريعة بحق إعلامنا المرئي. فالمواطن السوري، الدمشقي حصراً، نادراً ما يعرف شيئاً عن سوريّا من إعلامه المرئي القطري؛ نادراً ما يشاهد مسلسلاً تلفزيونيّاً محليّاً – باستثناء رمضان – أو أغنية لمطرب محلّي، من إعلامه المرئي القطري. أمّا الإذاعة، فرغم إقامتي الحالية في قرية على تخوم الصحراء، قرب تجمعات بدويّة، فإني لم أسمع بدويّاً يذكر أمامي يوماً أنه سمع خبراً عن سوريّا من غير المحطّات الفضائيّة اللبنانيّة أو الخليجيّة وأحياناً المصريّة. وأنا شخصيّاً لا أعرف إن كان ما يزال ثمّة إذاعة في سوريّا أم لا. على أية حال، إن كانت الإذاعة ما تزال موجودة، وبما أننا نعيش في عالم الاقتصاد فيه هو العنصر الحاسم، فأنا أتمنى على المسئولين تحويلها إلى مشروع تجاري ناجح – فندق خمس نجوم مثلاً – لأنه لا تنقصنا كثيراً المشاريع التجاريّة الخاسرة: ألا يكفينا إتحاد ع ع ع (ع)؟

وماذا بشأن التلفزيون الرسمي السوري بعد هذا العرض المأساوي؟ صار تكيّة! وصارت وزارة التلفزيون تكية وزارات أو وزارة تكايا! في البدء كان البوطي! فجأة اكتشفوه! وكأن سوريّا لم تعرف يوماً الفكر الحضاري الواقعي، لا الذي يضع رأسه تحت إبط الله ورجليه على الأرض! وهكذا، لم تبق حكاية للحاخام هليل أو الحاخام بار يوحاي أو الحاخام حنانيا إلاّ وأتحفنا بها البوطي عبر التلفزيون الرسمي. ولأنه لا أحد أفضل من أحد، ولأننا نعيش في بلد تعدّدي، فقد اكتشفوا، ككولمبوس تماماً، قارىء عزاء عراقي إثنيعشري من بقايا الصدّام، فرقّوه بسرعة جنونيّة إلى مقام باحث، وراحوا يتحفوننا بوجهه الذي لا يشبه غير نكسة 1967، وبفمه الذي يذكّرك بأهل الكهف وكهفهم، وأخباره عن سادته موسى ويوسف وسليمان حتى آخر الليسته الحاخامية الهلوسيّة الأشهر! ثم راحت الاكتشافات تتوالى: فمرّة يمني أحول يحدّثنا عن فضائل التبول على القاعد؛ ومرّة دمشقي يقول لقاسيون: أخي العزيز؛ يحاضرنا في الإسلام الحضاري! وهكذا، "فلتت الطعنة"، وهرّ المشايخ علينا، من كافة الأنواع المنقرضة والآيلة للإنقراض، حتى أضحى الوطن كلّه وكأنه قاعة المومياءات في متحف الانتكخانة! بل ربما تكون التكيّة الإعلاميّة الشهيرة تلك، عبر تلفزيونها الفضائي التقدّمي، واحدة من الأبواق القليلة التي تفرح صباحاتنا بآيات من ذكر الحكيم تتحدّث عن حرق الجلود في جهنّم الحمراء وقتل الكفّار "أني ثقفتموهم" وضرب النساء أو هجرهن في المضاجع: عوضاً عن "يا حلو شو بخاف إني ضيّعك" التي تسكننا في قلب الله–المحبّة!

على أية حال: هل يمكن أن يخرج من الجليل شيء جيّد!؟

نبيل فيّاض

من يأخذ إلهنا إلى المدرسة؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 15 إبريل 2004

لا مناص من الاعتراف أن علاقتي القديمة بالآلهة لم تكن وديّة عموماً. ورغم تنقّلي الديني الكثير بين أشكال آلهة متنوعة، رغم اعتناقي المعرفي لأديان كثيرة، ليس آخرها المورمونيّة وقبلها الزن، فإنه نادراً ما استطاع شكل إله الدخول في عقلي؛ بغض النظر عن عواطفي التي كانت تبدو مصمتة بالكامل أمام كافة أصناف الآلهة. – مع ذلك، لا مناص من الاعتراف أيضاً أنّ إحساساً غامضاً بالألوهة بدأ يتسلّل إلى خلايا رقبتي من يدّ قديس علوي يمتهن الصمت والاغتراب والترحال إلى الأحلام المصادرة!

حتى الآن لم أمتلك القدرة العقليّة على استيعاب الشكل الإسلامي – أو اليهودي الأرثوذكسي – للإله؛ حتى الآن لا أزال أشعر أن الشكل الإسلامي – أو اليهودي الأرثوذكسي – للإله، بشريّ، بشريّ جدّاً: من هنا، لم أستطع أن أفهم لماذا يؤمن الناس بهذا البشري الذي أُعطي، دون أن يسألنا أحد رأينا في ذلك، شكلاً أزليّاً؛ وفرض علينا بقوّة العمامة والسيف!

من يستطيع أن يستبصر، من ثقب العقل المطلق، أيّة سمة غير بشريّة، بشريّة جدّاً، في هذا الإله الذي يطارد ظلالنا بقمعه منذ أكثر من ألف وأربعمئة سنة؟ من يستطيع أن يضع إصبعنا، كالقديس توما، على أية سمة متسامية، متسامية جداً، في هذا الإله الذي تنحرنا كل يوم مفاهيمه، كماعز المسالخ الملوّثة؟ – وكيف استطاعت تلك المفاهيم الأغرب أن تتسرمد كلّ هذا الزمن؟

سألت أستاذي ومعلمي البوذي الياباني الجميل، الكاهن كاتسو، عن موازي "عورة" بوذيّاً، على أساس أن "العورة" الباسبور الذي يمكنك فيه الولوج إلى عالم الإسلام الرحيب. ولمّا كان من الصعب الوصول، في أية لغة "حيّة"، إلى مرادف للعورة العربيّة الشهيرة، اضطررت لشرح هذا المصطلح القدسي بجمل لا متناهية. وما أن استوعب الياباني الشاب ما أقصد، حتى رفع حاجبيه بأقصى ما يمكن، وحدّق فيّ من تحت نظارته غير السميكة، وقال: وما هي العلاقة بين الماوراء، المغرق في التجريد، والثياب، المغرقة في الماديّة؟ الإله الذي خلقنا عراة، الإله الذي لم يخلق الثياب حتى عندما خرج الزوجان الأوّلان في الجنّة عن طاعته – كما تقول الميثولوجيا التوراتيّة–القرآنيّة –؛ ليس مستعدّاً لرفضنا إذا تخليّنا عن عريّنا الإلهي وجئناه بثياب بشريّة، بشريّة جدّاً؛ أو العكس. الثياب، البشريّة جدّاً، خلقها البشر لحمايتهم من البرد والحر والريح والمطر، لمساعدتهم في كسر عنفوان الطبيعة حين تقسو عليهم، لا كي تصبح أوراق اعتماد رسميّة يقدّمها كل طامح للاختباء تحت جنح الله.

حتى الآن لا أستطيع استيعاب المفهوم الإسلامي الأرثوذكسي للإله، بذاك الكم المخيف من التناقضات. وكيف يمكن لواحد مثلي، تربّى على فلسفة الـ naturalism، غير البعيدة عن المذهب الوجودي، كما أراده هايدغر؛ كيف يمكن لواحد مثلي عاش في كنف الـ nudism منذ أن كان في السادسة عشرة، أن يؤمن بركام المفاهيم التي تقدّس الثوب قبل الإنسان؟

هل يعقل أن لا يكون لدى الإله همّ سوى مراقبة شعر النساء وأكواعهن وركبهن؟ هل يعقل أن لا يهتم الإله لمسألة العبوديّة في حين ينهار حزناً إذا لمح رقبة جميلة تتهادى في طريق عام؟ هل يعقل أن يفرض هذا الإله، الذي يفترض أنه عادل، على المرأة الحرّة المسلمة – دون خلق الله الآخرين – أن تبلى بخيمة من السواد لا يُرى منها سوى عينيها، وإن كان ذلك في عزّ الصيف، في حين يتهاون مع الأمة المسلمة في عورتها حتى تقف أحياناً عند حدود فتحتي القبل والدبر؟

وسألت كاتسو أيضاً: ما المرأة؟ ابتسم الحكيم البوذي الوردي؛ وقال: وما الرجل؟ لا أعرف كنه هذا التقسيم الغريب! في الكارما لا يوجد رجل، لا توجد امرأة: فقط إنسان يبحث عن الاستنارة عبر التوحد مع بوذا! في الكارما لا توجد متع حسيّة تستثنى منها النساء؛ لا توجد أنهار خمر ولا عسل ولا لبن: في الكارما تسام متواصل حتى الاستنارة.

وحين سألت الأباتي المعلّم الراحل، أمبروسيوس حاج، سيّد المارونيّة الحضاريّة: لماذا تحضّ الشباب من المقاتلين على ترك السلاح؟ قال: لأن الله ليس بحاجة للإنسان يدافع عنه! في المارونيّة الكاثوليكيّة لا يوجد عدو؛ وإذا كان يسوع قد أمرنا: أحبّوا أعداءكم باركوا لاعنيكم؛ فما عسانا أن نفعل للأخوة والأصدقاء؟ هل يعقل أن نعادي من نحب ونباركه؟ يسوع المسيح، بموته الخلاصي، باختياره أن يطلب الغفران لصالبيه، أعطانا الأمثولة الأهم في تاريخ البشريّة: المغفرة حتى الموت. وهل توجد في الاسكاتولوجيا المارونيّة جهنم يكوي فيها الله الآثمين والخطأة والكفّار؟ أجاب الأباتي المعلّم: وهل يعقل أن يخلق الله الناس كي يلتذّ بعقابهم؟ هل يعقل أن يعامل الإله العادل الناس دون النظر في ظروفهم؟ هل يعقل أن يحكم بالرجم على فتاة تتعاطى الدعارة ولدت في بيئة منحرفة أو بقطع اليد على فتى سارق ولد في بيئة لصوص؟ وإذا كان إنسان مبدع مثل لوبيه ده فيغا قد قال: أنا أكون أنا وظروفي؛ لا يعقل أن الله، الذي يفترض أنه خالق ده فيغا وإبداعه، لم يصل إلى هذه النتيجة البالغة الأهميّة. في الاسكاتولوجيا المارونيّة، جهنم هي البعد عن الإله الخالق، أمّا الحديث عن الحطب والفحم والنار والحرق بالثلج، وهو المأخوذ عن الهاغاده، المستندة بدورها إلى مفهوم الجحيم الزرادشتي، فأمر غير قابل للإثبات بأي حال – مثل أي مفهوم ما ورائي آخر – إضافة إلى أنه يتنافى بالمطلق مع طبيعة الله التي يفترض أنها محبّة مطلقة وعدل مطلق.

وهل يوجد إله يُذعر من الموسيقا؟ شخصيّاً، لم أستطع "هضم" الكريشنيّة، في فترة تعلّقي بها القصيرة للغاية، إلاّ عبر الموسيقى:

هاري كريشنا   هاري راما

المارونية، كليتورجيا، تصبح فعلاً ملائكيّاً، حين ترتلها فيروز:

يا أم الله.. يا حنونة   يا كنز الرحمة والمعونة

والصلب يضحي هاجساً شخصيّاً، حين تلهث فيروز:

واحبيبي، واحبيبي   أي حال أنت فيه

الله يصبح أحلى وأطيب حين نغنيّه؛ وإله المسلمين الأرثوذكس، الذي يكره الغناء، الذي يهرب من صوت الموسيقى، ليس غير نوع بدائي للغاية من تلك الكائنات التي تكره توزيع المتعة بين العين والأذن والفم، وتحاول حصرها في منطقة محدّدة للغاية بين السرّة والركبة. – مع العلم أن ثمة حيوانات راقية يبدو أنها تتسامى عند سماع الموسيقى الجميلة.

هذا الإله الذي ربيّنا على مفاهيمه الخاطئة؛ هذا الإله الذي لا هم له سوى ما تحت سرّة الرجل وما فوق كاحل المرأة؛ هذا الإله الذي يطارد الذين يفترض أنه خالقهم بعدائيّة آخرين، يفترض أنه هو خالقهم أيضاً، كي يقتلوهم أنّى يثقفونهم؛ هذا الإله الذي صار اسمه بالذات رمزاً للعدائيّة والكره وكلّ أنواع الغلّ: ألم تكن الصيحة التي يفترض أنها الأكثر إشاعة للحب بين الناس، "الله أكبر"، المرادف الأكثر طبيعيّة لفعل القتل يقوم به المسلم ضد غير المسلم؟؛ هذا الإله الذي يخلق الناس فقط ليسرمدوا شريعة قيل لهم إنها منه، فانعكست الآية حين أضحى الإنسان في خدمة الحرف؛ هذا الإله هو أسوأ أنواع الآلهة التي اخترعها البشر لأنه المرادف الحقيقي لكلّ

السمات غير المتسامية التي لفقها بدائيون من الحاقدين على الحضارة في لحظة بائسة من التاريخ. – إله لم يدخل المدرسة يوماً، ولم تمح أميته!

حين أخذني قديسي العلوي من أنفي الذي لا عظم فيه، وسرت وراءه – على غير عادتي – مغمض العينين مستهتر اللحظة، وعمدّني في بحر سرابيون العذب، عرفت أن ثمّة طعماً إسلامياً للإله مختلفاً للغاية: طعم يمتزج فيه عشق الإله بالتماهي فيه بالانفلات عبره من كلّ الشرائع التي نسبوها إليه زوراً.

حين نحبّ الآخر، حين تصبح أصابع الآخر الصغيرة جزءاً من نبض رقبتنا المتهالكة، حين تصبح أنفاسه الصباحيّة تعويذة تفتح لنا أبواب الجنّة، يصبح الله في متناول اليد؛ ينام الله على مخدتنا الصغيرة القديمة، ونحن نتشاجر في من يحب الآخر أكثر!

"كيف يمكن أن تحب الله الذي لا تراه، ولا يمكن أن تحبّ عدوك الذي تراه؟".

=======================

بريجيت باردو: الأخيرة في جيل العظماء!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 14 إبريل 2004

وخلق الله، على الأرجح، بريجيت باردو!

في مكتبتي الصغيرة، حيث اعتمادي اليوم على الانترنت شبه مطلق، بعض كتب أهمها مجموعات نيتشه وشوبنهاور وكافكا.. ومذكرات بريجيت باردو!

كان ثمة مخرج اسمه: روجيه فاديم! وكان هذا المخرج المبدع يمتلك هواية رائعة تتجلّى في الزواج من أجمل نساء فرنسا، وإطلاقهن من ثم في سماء الفن. وكانت ب. ب. إحداهن. في لحظة أبدية، جاء فاديم بهذا الملاك الذي طالما جرّح قدسيتنا بوجهه الطفولي، عرّاه، وأطلقه في فيلم أسماه: وخلق الله المرأة!

في خمسينيات المحافظة والرغبات المدجنة والشبق المكتوم، ظهرت هذه البورجوازيّة المتعبة في روعتها، عارية! كان عرياً ملفوفاً بتوابل الألوهة وصدق الجسد غير المقنّع.

بريجيت باردو، بوجهها الملائكي الذي يشبه المجدليّة بعد يسوع، بجسدها المسحوب من غمده الممزّق لأغلفة الطهارة والدهشة، كانت التأوّج الطبيعي لجيل استقتل في سبيل إعادة الإنسان إلى بشريّته الهاربة. كانت ب.ب. حلقة هامّة للغاية في السلسلة التي بدأت مع أوّل محطّمي النواميس، اسبينوزا، ولم تنته بالتيارات الوجودية أو الدادائيّة أو السورياليّة حتى ما بعد الحداثة!

في عمله الهام، "*شفق الأوثان*"، كان ثمة مقطع جميل لنيتشه يحمل عنوان، الأخلاق كعدوّة للطبيعة. وهذا الجيل العظيم، هذه السلسلة المتناغمة من البشر الرافضين مصادرة الحواس، الهاربين من كهف الأخلاق المريع المظلم؛ هذا الجيل الذي زيّن حلمتيه العاريتين "ببيرسينغ" من *لا أخلاقي* أندريه جيد و*صورة دوريان غري* أوسكار وايلد و *بحث في زمن ضائع* مارسيل بروست و*الموت في بندقيّة* توماس مان و*ليدي تشاترلي* لاورنس و*فتاة* دو بوفوار *الرصينة* و*جنسها الآخر* و*يوليسيس* جويس و*كلودين* كوليت، كان من الطبيعي، لا الأخلاقي، أن يعتبر الثنائي البورجوازي الساخن، فاديم-باردو كسرة لا تنقسم من رغيفه الأشهى.

من الذي اخترع الأخلاق؟ في اعتقادي الراسخ، الذي رضعته ببراءة فاضحة من معلمي نيتشه، أن الأخلاق بدعة حاخاميّة. "وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار". كان ثمّة حاخام محدودب الظهر مقوّس الأنف كبيره، مدمن للعادة السريّة – كل أنواع العادات السريّة – تضايق للغاية وهو يقارن بين شكله في المرآة وأجساد الرومانيين التي تصرخ بالشبق: والطبيعة! ولمّا لم يكن قادراً، لأسباب فيزيولوجيّة على الأقل، أن يكون مثلهم، اخترع لذاته أخلاقاً يستطيع بها أن يمسك الرومان الذين أتعبوا الشبق من أنوفهم نحو مستنقع أخلاقه العفني ولونه العفني ونفسه العفني، وظل هذا الاختراع ناجعاً، يتوارثه الأبناء المحدودبون، من ذوي الأنوف الكبيرة المقوّسة والألوان العفنيّة، عن آبائهم، من حاخامي الرغبة المحتضرة، حتى وصل إلى ربائنا الأشهر، بن لادن! واستشهد الجمال رجماً على مذبح محتكري الألوهة: وكانت النتيجة كمّاً من أحجار الخاطئين تكفي لسدّ بيننا وبين الله!

كم تبدو باردو هامّة في تاريخ أوروبا الجميل المعاصر؟ بل كم تبدو نسختها الأمريكيّة مرلين مونرو أكثر أهميّة من البيت الأبيض والأسود والأخضر والنيو كونسرفاتيف والحزبين الجمهوري والديمقراطي: ألا تصدّقون؟ من منكم يتذكّر أسماء أي من المسئولين منذ أن كانت مونرو في هذا العالم حتى مجيء العم بوش؟ بل لولا ارتباط

جون كنيدي بالشيطانة الساحرة الشقراء لمات اسمه لحظة دفنه! هل يوجد أحد في أوروبا وغيرها من مناطق العالم المتحضّرة لا يعرف ب.ب.؟ لا أعتقد! لكن هل يوجد أحد في المعمورة يستطيع تذكّر أسماء اثنين من رؤساء فرنسا قبل شيراك؟ باردو تختصر بشفتيها نصف المغلقتين فرنسا، وبخصرها الذي كان العالم يهتز إذا زاد سنتيمتراً واحداً حضارة أوروبا من هيراقليطس إلى إيريس مردوك.

البارحة، الثامن من أيار، شظّاني مشهد إلهة الطبيعة المتأوّجة وهي تسحب إلى ما يشبه محكمة لمقاضاتها عن فعل حب اقترفته، بسذاجة بريئة، تحت شمس باريس الناعسة! إلهة تؤخذ إلى المحكمة؟! كم يبدو وضيعاً هذا الاعتداء الحاخامي على إلهات روما المخضبّات بطعم الجسد المعروق! كم كانت الطبيعة تنزف دموعاً مُقرَفَة وهي تراقب روحها، تُشدّ من جلدة رقبتها تحت قوس الأخلاق المريع، لتسأل في قضايا العفن الحاخامي الفطوري! باختصار شديد: لقد قرفت إلهة الجسد الفرنسيّة، صوت الحياة غير المبحوح، من هذه الظلامة الأصوليّة التي تجتاح اليوم عاصمة النور؛ وغيرها من عواصم العالم! ولما كانت باردو عاشقة لكلّ ما هو غير مصطنع، راحت تتحدّث بقلم ساذج – ككل طبيعي – عن هؤلاء الأصوليين الذين يشيعون التلوّث على ضفتيّ السين! لقد آلمها حتى الوحدة، تلك الثياب الكثيرة البشعة الغامقة، وهي سيدّة الألوان العارية، تبعث الموت في قلب وطنها، نبع العيش! لقد أحزنها، وهي الإلهة الأجمل، تلك الوجوه البائسة، المقتولة خلف جدران العادة السريّة والرغبات النازفة والذقون المتناثرة التي تدفع بالوجوه إلى حواف القباحة؛ فصرخت: أخرجوا، حاخامات الموت، من روما!

ولأن يهوه صار الحاكم بأمره في العالم، ولأن أفروديت وعشتار وفينوس صرن آلهات القلّة القليلة – كما يقول الإله سبينوزا: الجمال للقلّة القليلة – فقد اقتيدت باردو، لخجل الجمال وهمسات الجسد المحموم، في وطن الحريّة، لتحاكم على شتمها القبح!

ب.ب.!!

أيتها المستوطنة تحت حجابي الحاجز؛ في قلب الشمس التي تسطع فوق وطن عشتار الذي صادره الله ذات ليل!

ب.ب.!!!

أيتها المعجونة بحمّى الصراخ، وصهيل اللحظات الجميلة الآتية من زمن الحب!!

ب.ب.!!!

وأنت تنطقين بألسنتنا التي أخرسوها؛ أسكنت العويل في صمتنا؛ لنصرخ: نتشبّق منك وفيك إلى دهر الداهرين.. آمين!

==================

أزمة الانتماء عند السوريين

www.annaqed.com

نكتة قاتلة يتناقلها السوريّون المتلبننون وقت كان هجوم السوريين على الهويّة اللبنانيّة على أشده، تقول: سوري كان يقف على رأس صف من السوريين المتأهبين لأخذ الهويّة اللبنانيّة، يستدير بعد نيله تلك الهوية للسوريين الذين يقفون خلفه، صارخاً بأعلى صوته: ماذا تفعلون في بلادنا؟

باعتراف الجميع، لا شيء يميّز الهويّة اللبنانيّة عن أختها السوريّة: الإثنتان في التخلّف والرفض من قبل دول العالم المتحضّر وشكوك الإرهاب – بفضل البوطي ومفتي سوليدير وشيخ حزب الله العربي الإشتراكي – سواء.
– فلماذا كلّ هذا التدافع السوري على هويّة لا تغني ولا تشبع من جوع، وكأنها – بلا زغرة – الهويّة السويديّة؟
سؤال خبيث كان يطاردني وأنا أتفرّج على البوليس اللبناني الحضاري "للغاية" وهو يضرب الهمج السوريين المتدافعين لنيل شرف اللبننة: كم سيبقى سوريون إذا فتحت الدانمارك – حتى لا نقول: الولايات المتحدة؛ وتشهر في وجهنا سيوف التكفير المسلّطة دائماً – أبواب التجنيس أمام شعب الجمهوريّة العربيّة السوريّة؟ بل سمعت في دمشق أن بعضهم – ليسوا من بائعي البطاطا حتماً – يرسلون نساءهم إلى الولايات المتحدة كي يضعن مواليدهن هناك.

في لبنان يناقشون فضائح ملفّات التجنيس على أعلى المستويات؛ مع أن الأجدر أن تدرس في سوريّا هذه الظاهرة المخزية لنا كسوريين من كافّة جوانبها الاجتماعيّة والسياسيّة والطائفيّة وما شابه. حين أبحث عن جنسيّة جديدة فهذا يعني أني لا أشعر بالرضا عن هويتي الأصليّة: لا أشعر بالأمان في حملها، وربما لا أشعر بما يكفي من الفخر بالانتماء إلى هذا الوطن الذي أحمل جنسيّته.

مسألة ثانية هامّة للغاية أيضاً: كثير من المثقفيّن والفنانين، من أشهر النجوم في المنطقة الناطقة بالعربيّة، سوريّون يعرف معظم الناس أنهم إمّا لبنانيّون أو مصريّون. هل أذكر أسماء لامعة للغاية؟ نزار قبّاني [في مصر كانوا يندهشون حين أقول إنه سوري]؛ غادّة السمّان؛ يوسف الخال... بل أذكر أني شاهدت قبل مدّة لقاء في محطة تلفزيونة فضائيّة لبنانيّة مع أحد مطربي الموجة الجديدة الأتفه – لكنها، بالمقابل، تتماشى تماماً مع نوعيّة ثقافة هذه الأيام ورجالاتها [إن صحّت التسمية] من أمثال بوي جورج المشايخ عمرو خالد – اسمه سامو زين [ليست لي علاقة، هكذا اسمه والله]، وكان المذكور، أجلّكم الله، يتحدّث بلغة مصريّة قاتلة تشبه لغة حجّة الإسلام والمسلمين عن بكرة أبيهم، أونكل طبابائي، في فتاويه المتعلّقة بأحكام استخدام الكلينكس في التواليت: والشبهات حولها! وعلمت بعدها أن هذا الكائن من مواطني الجمهوريّة العربيّة السوريّة!

ظاهرة أخرى جديرة بالاهتمام والدراسة: على صعيد المنطقة تلمع أسماء سوريّة هي الأجمل صوتاً والأكثر أصالة فنّاً: فهل سمعتم أياً من هؤلاء يغنّي باللغة السوريّة؛ هل سمعتم يوماً أغنية لمطرب سوري هام بغير المصريّة أو اللبنانيّة؟ فهل أن السوريّة كريهة إلى درجة أن الغناء بها مقرف ومقزّز بالنسبة لفنانينا الأكارم؟ وماذا سيقول الخليجيّون الذين تتألف أبجديتهم كلّها من ثلاثة أحرف، هي الشين والقاف والجيم؟

رغم اعتمادي، قبيل سقوط الصدّام، على التحليلات السياسيّة الدقيقة التي كان يقدّمها الغرب المثقف [أخصّ هنا بالذكر: جون ألترمان وأنطوني كوردسمان وبتشباع كروكر] في الوصول إلى نتيجة كانت بالنسبة لي على الأقل حتميّة وهي أن العراق لن يصمد أكثر من أربعة أسابيع، فقد كنت أضيف إلى تلك التحليلات الهامّة عنصراً نحن

كسوريين الأفضل على فهمه، هو افتقاد العراقيين عموماً حسّ الانتماء، إن لم يكن للوطن، فعلى الأقل للنظام الذي كان يحكمهم.

من أفقدنا حس الانتماء:

قبل الدخول في بعض التفاصيل البسيطة، أرى لزاماً طرح بعض الأسئلة التي لا تخلو من المنطق: بغضّ النظر عن الوقائع السياسيّة التكتيكيّة الحاليّة، فتركيّا من ناحية تحتل جزءاً هامّاً جدّاً من الأرض السوريّة والذي هو امتداد تاريخي جغرافي ديموغرافي لها، اسمه لمن لا يعرف الاسكندرون، وأنطاكية ما تزال عاصمة سوريّا وسائر المشرق مسيحيّاً؛ الكلام ذاته ينطبق على إيران غرباً وإسرائيل جنوباً. بالمقابل، ففي سوريّا ولبنان أقليّة ضئيلة من علمانيين ليبراليين، تتزايد ببطء لكن برسوخ، وتتمسّك للغاية بانتمائها الوطني. من ناحية أخرى، فمشايخ السنّة في سوريّا، خاصّة الأكراد منهم، يعتبرون أن التركي المسلم المقيم على الحدود التركيّة–البلغاريّة أقرب إليهم من جارهم المسيحي أو المرشدي أو الدرزي؛ الأمر ذاته ينطبق على كثير من مشايخ الشيعة اللبنانيين، الذين وصل بهم إحساس الذيليّة تجاه إيران إلى درجة أن هظراتهم يلفظون الحرف العربي بالطريقة الفارسيّة: وكلّ ذلك مقبول من الحسّ الشعبي العام ومرحب به لغايات سياسيّة تكتيكيّة من قبل المنظومات الحاكمة. لكن ماذا لو قال أحد المنتمين إلى الأقليّة الضئيلة العلمانيّة–الليبراليّة في سوريّا ولبنان إنّ تومي ليبيد أو يوسي ساريد أو يوسي بيلين أو حجاي ميرون أو ياعيل دايان أو تامار غوزانسكي أو شولاميت آلوني أو عموس عوز أو إيلان بابيه، كعلمانيين ليبراليين إسرائيليين، أقرب إليه من جاره الأصولي الطائفي المقيت؟

على أية حال، فرغم تفضيلنا للهويّة السوريّة المحدّدة الملامح على الانتماء العربي الباهت، فنحن لا نمانع إطلاقاً أن يجاهر من يشاء بهويّة عربيّة تبدو غريبة لأنظارنا. لكن لمرض الانتماء العربي أعراض لا تبدو خافية على كلّ ذي عين بصيرة: فإذا أردت أن تقضي على مسألة، وسّعها حتى تميع. والانتماء العروبي الواسع–المائع – خاصّة بعد دحش جيبوتي وجزر القمر والصومال وربما قريباً تشاد وبوركينا فاسو وميكرونيزيا في جامعة دول عمرو موسى – هو الأفضل لإشعار السوري أو اللبناني، مثلاً، بالحيرة وهو يرى اغتصابه بانتماء إلى هويّة ينتمي إليها أناس لا يربطه بهم شيئاً، لا شكلاً ولا موضوعاً: لن نتحدّث هنا عن الفوارق الحضاريّة المخيفة بين سوريّا ولبنان من جهة، وتلك الدول القابعة جنوب سيناء وشرقها من ناحية أخرى. لكن البعثيين أضافوا إلى الفضائل الآنفة الذكر فضيلة ساهمت بحسم في خلق الحاجز الأكبر بين السوري وانتمائه الفعلي: فدائماً كانوا يقدّمون ما يسمونه الشأن القومي على الشأن القطري – نستعمل هنا تعابيرهم ذاتها – والأغرب أنهم كانوا يتباهون بذلك!!!

هل فهمنا الآن أسرار اغترابنا، كسوريين، عن هويتنا؟

من لم يفهم: ليسأل الأخوة المشايخ والرفاق البعثيين !

من يعيق التغيير في سوريّا؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 6 إبريل 2004

قبل أن تبدأ التأويلات الباطنيّة بالتدفّق، فإن دعوتنا للتغيير في سوريّا لا تعني بأية حال تغيير النظام كنظام، بل تغيير آلية عمل النظام بما يضمن خروج سوريّا من كهف القرون الوسطى الذي أدخلها البعثيّون وجبهتهم الوطنيّة " التقدميّة"(!!!) فيه، وأضاعونا الدرب إلى النور بعدها!

إنّ كلّ من رأى ما حصل في العراق من فوضى، ما تفعله التيارات الأصوليّة، سنيّة كانت أم شيعيّة، التي قمعها الصدّام ذات حكم، والتي تريد أقصى تعويض عن أيام الاضطهاد الطويلة، يعرف تماماً أن النظام الحالي في سوريّا، بالنسبة لنا كليبراليين، هو الأفضل؛ فإذا كنّا نصطدم على الدوام مع هذا المسئول أو ذاك بسبب نوعيّة كتاباتنا، فالواقع يقول إن النضج والتجارب المتراكمة والعقليّة غير التآمريّة أو الأصوليّة عند من نصطدم معهم تجعل من الصعب أن يصل الاصطدام بأية حال إلى تخوم الاعتقال أو التصفية الجسديّة. وبصراحة مرّة أقول، إنه رغم مآخذنا التي لا تنتهي على كثير من المسئولين في سوريّا، فإننا غير مستعدّين للبقاء لحظة واحدة في البلد إذا ما أحسسنا أن قوى خارجيّة تتآمر مع بعض الداخل على خلق حالة غير مستقرّة فيه: أي بديل بديل سيء على كافة الأصعدة، وهذا الكلام موجّه أصلاً وقبل كلّ شيء للقوى التي ترفع رايات الديمقراطيّة وحقوق الإنسان . بغضّ النظر عن غاياتها الفعليّة . لأن هذا البديل، كما قال إيال زيسر، لن يكون غير الأصوليّة، التي ستسلخ رؤوس الجميع.

في سوريّا منذ زمن نوع من التسويق للسيّد رياض الترك، الشيوعي الأشهر، باعتباره مانديلا العرب، الذي قبع في السجون زمناً قياسيّاً؛ ورغم أني لم أكن شيوعيّاً يوماً . موقفي من الشيوعيّة صاغه كلّ من جان . بول سارتر في عمله القديم *ماركسيّة أم وجوديّة* وجان إيف كالفيز في عمله الأهم *فكر كارل ماركس* . إلاّ أني لا زلت أذكر تعاطفنا في مرحلة نهاية الطفولة وبدايات المراهقة مع ابن بلدنا، حمص، رياض الترك وزوجته طبيبة الأسنان أسماء الفيصل، اللذين كانا يناضلان مع بقيّة جناح حزبهما – كما تراءى لنا – ضد القمع البعثي آنذاك؛ بل أعترف أنني كنت من أكثر من وزّع نشرتهم المسمّاة – على ما أذكر – *الفجر*" التي كنت آخذها من ابن أخ زوجته، واسمه على الأرجح عبد الهادي الفيصل. وكان منزلهم في منطقة الخالديّة قريباً للغاية من بيتنا في مساكن المعلّمين. لكن ما قيل عن وقوف جماعة الترك بجانب الأخوان المسلمين، عسكريّاً، في حلب، جعل كثيرين – وكنت منهم – يعيدون النظر في موقفهم من هذا التنظيم الماركسي. وبما أن الاسطوانة تعاد الآن بشكل أو بآخر خاصّة بين ما يسمّى بالناصريين الأتاسيين وجماعات الإرهاب الديني، فإنه لابدّ من الإصرار بأن معالجة الخطأ لا تكون بأخطاء قاتلة: ففي بلد كسوريّا، لا توجد فيه طائفة يمكن أن نسميّها بالغالبيّة الساحقة، بمن فيهم الطائفة السنيّة الناطقة بالعربيّة، لا يمكن القبول بالفكر الأخواني وما شابه تحت أية ظروف. وإذا كان البعثيّون يقمعون الفكر الآخر الذي لا يروق لهم – خفّت هذه الظاهرة كثيراً بعد سقوط العراق – فالأخوان المسلمون يرفضون من منطلقات غير وضعيّة وجود صاحب الفكر الآخر. حقد الأخوان المسلمين على النظام متعدّد الأوجه: طائفي . تكفيري ؛ سياسي؛ تاريخي.. من هنا، فإن الأخوان، في اعتقادنا، على استعداد للتحالف مع الشيطان إذا ضمنوا أن هذا الشيطان يمكن أن يساعدهم في تحقيق شيء من طموحاتهم التي أثبتوا أنهم الأفشل في الوصول إليها. واليسار السوري عموماً، ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، حين يقبل القيام بدور الحمار

الذي يركبه الأخوان في سبيل الوصول إلى السلطة، يتجاهل بواقع الحقد الأسود نتيجة معاناة متراكمة أن الأخوان سيقتلون الحمار لحظة وصولهم، ويقتلون كلّ سوريا معه. إنّ أي فكر أصولي من خلفيّة دينيّة هو في نهاية الأمر معاد للديمقراطيّة وحقوق الإنسان – راجع هنا ما كتبه ابن الورّاق في عمله الجميل *Why I am not a muslim?* – ؛ وكلّ التنظيمات التي تدعي حقوق الإنسان والديمقراطيّة في سوريّا وتأخذ على أساس من ذلك مواقف عدائيّة للغاية من النظام وفي الوقت ذاته تبدو وكأنها في بيتها مع الأخوان المسلمين إنما تعيش شكل شيزوفرينيا لا مثيل له: فعدائيتها للنظام تكتيكيّة–مرحليّة، تبهت كلمّا اقترب النظام من الديمقراطيّة وحقوق الإنسان، في حين أن عدائيّة الأخوان لها استراتيجيّة غيبيّة الطابع وبالتالي لا مجال لمناقشة الصح والخطأ هنا: هل بإمكان بشري مناقشة الإلهي؟ وهذا الكلام موجّه قبل كلّ شيء إلى جماعة حقوق الإنسان الذين ندبوا أمامي – بتحريف واضح لحقيقة الأمر – مشكلة داريّا، التي أراد بعض شبابها القيام بدور مقتدى شادور الابن بازي في بلد يفترض أن فيه حكومة قويّة؛ أو لجماعة المجتمع المدني الذين فشلتُ – قد أكون أنا المشكلة – في أن أشتم منهم غير الرائحة الأخوانيّة، حتى عندما يكونون علويين أو مسيحيين أو علمانيين.

باختصار شديد: لا يوجد في الواقع المنظور بديل للنظام الحالي في سوريّا – الأصوليّون مرفوضون لأسباب لا حصر لها، أقلّه أن الواقع الداخلي والنفس العالمي يقولان إن تسلّل هكذا أشخاص، في ظلّ أية مسميّات، إلى الواجهة لا يعني غير الانتحار دفعة واحدة؛ من ناحية أخرى فالمعارضة اليساريّة – لا أعرفهم بعمق كاف لأني أفتقد الوقت والرغبة بالكلام غير المجدي، لكن قريبة لي تعمل في مجال السيناريو أعدّت نصّاً عنهم أسمته "فيلم روسي طويل" – تبدو أكثر هزالاً وتخلّفاً وانتهازية من أن يؤمل منها شيء في سبيل شكل تغيير صار ملحّاً.

هل نستطيع تقديم منظورات إيجابيّة تساعد في الخروج من عنق الزجاجة، عوض النقد الجارح أحياناً ذي الطابع السلبي؟ سؤال يوجّه إلي باستمرار. العلمانيّون الليبراليون لا هم لهم غير "النق"؛ يريدون تحطيم كلّ شيء دون تقديم بديل منطقي أو واقعي لما يرون أنه حالة – أو حالات – غير مناسبة لصيرورة زمن متغيّر بقوّة.

ما هو المطلوب الآن؟

باستثناء اللاهوت والفارماكولوجيا، لسنا في موقع يؤهلنا لتقديم آراء تفصيليّة في الإصلاح السياسي أو الإعلامي أو الاقتصادي بأية حال. لكنا نستطيع نقل نبض الشارع: ما يهمس به الشارع خلف الأبواب المغلقة والجدران الحديدية. – وفي هذه العجالة المختصرة، يمكننا رسم بعض الخطوط العريضة التي قد تساعد في مزيد من الثقة المتبادلة بين الدولة وشعبها:

أوّلاً: حزب البعث!

السؤال الذي يطرحه المواطن العادي غير البعثي منذ أكثر من أربعين عاماً: ما هي الخصائص التي تميّز البعثي، إنسانيّاً أو علميّاً أو وطنيّاً أو أخلاقيّاً، حتى يكون متقدّماً على غيره في كلّ شيء؟ من تجربتنا المتواضعة، الانتهازيّة عند البعثيين عموماً أعلى كثيراً من غيرها عند أتباع الأحزاب "الفعليّة" الأخرى؛ من هنا، يبدو لزاماً فكّ الارتباط بين الدولة وحزب البعث، بمعنى أن لا يمتلك البعثي، لأنه بعثي، أية سمات تجعله أهم من غيره اللابعثي؛ وفي هذا رفع للسويّة الأخلاقيّة عند البعثيين عموماً وإشعار بقيّة فئات الشعب غير البعثيّة أنهم مواطنون من الدرجة الأولى، كالبعثيين الذين احتكروا هذه المرتبة زمناً طويلاً. في حال تمّ الفصل بين الحزب والدولة، يصبح البعث للبعثيين فقط، بمعنى أنه يتوقف عن كونه السلّم الأقصر للوصول إلى المال أو المنصب أو النفوذ، فيهرب منه بالتالي كل من هو وصولي أو انتهازي أو متسلّق، وينظف الحزب من ناحية، كما يتمكّن الوطن من الإفادة من طاقات كلّ ابنائه الذين تعطّل طاقات بعضهم ويرمون على الرفوف فقط لافتقادهم هذا الانتماء الذي قد لا يكون اقتناعهم به يكفي لولوجهم إليه من ناحية أخرى.

ثانياً: الغلاسنوست!

لمن لا يعرف، فسوريّا – ولبنان – في اعتقادي، أكبر بلد نميمة سياسيّة وغير سياسيّة في الشرق الأوسط. وما من خبر مهما بدا سريّاً أو خطيراً إلاّ وتتناقله الألسن. كلّ الأخطاء يتم تناقلها سرّاً أو علانيّة. وإذا كان هذا هو الحال، فلماذا لا يكون الحديث عن الممارسات المنافية للقانون ممأسساً بما لا يتنافى مع القوانين العامّة والحس العام العالمي: وبذلك نصيب عصافير عديدة بحجر واحد – نعيد إلى المواطن العادي شيئاً من إحساسه بالانتماء إلى الوطن حين يعرف أن القوانين فيه غير مفصّلة تفضيّليّاً؛ نفهم طبقة اللصوص وتجّار الشعب ومن على شاكلتهم أنهم ليسوا فوق القانون أو النقد مهما كانت مواصفاتهم؛ وندفع بالوطن قدماً عبر محاسبة أولئك الذين يتلاعبون بمستقبل الشعب، الذين يشعرون أنهم فوق النقد أو المحاسبة.

الكلام السابق يدفعنا حتماً للحديث عن وضع الإعلام السوري. فالإعلام السوري، رغم كلّ ما يقال، هو الأسوأ في المنطقة دون منازع. وقد أثبتت حادثة تافهة، كتلك التي حصلت على أوتوستراد المزّة قبل أيام، مدى تخبّط هذا الإعلام ولا حرفيّته. وإذا ما أردنا المقارنة بين وضع الصحافة في بلد عريق بتقاليده المعرفيّة كسوريّا ووضعها في بلد ما يزال الأبعد عن أولى درجات التحضّر كاليمن مثلاً، فالنتيجة لن تكون حتماً في صالح الإعلام المقروء السوري. أمّا الإعلام المرئي الأهم هذه الأيام، فحدّث ولا حرج: بل وصلت السخرية بأحد المسئولين في وزارة الإعلام السوريّة إلى المطالبة بتشفير الفضائيّة السورية التي لا يراها أحد إلاّ من عصم ربّك؟ الدولة تبدو أكثر من متردّدة في الشأن الإعلامي: فهل الدولة تخاف على ذاتها من أية ظواهر غلاسنوستيّة أم أن أصحاب المصالح يخشون على مصالحهم؟ وبالمقارنة بين لبنان وسوريّا، فالضعف اللبناني الكينوني أوضح من أن يُدخل في المقارنة؛ مع ذلك، فالحريّات الإعلاميّة مكرّسة في لبنان منذ زمن طويل، إن على الصعيد المرئي أو المقروء أو المسموع. بالمقابل، فقد أثبت السوريّون، مع انفتاح الفضاءات عبر الانترنت أو المحطّات التلفزيونيّة غير السوريّة، أنهم الأقدر والأكثر جديّة في تحديد مشاكل المنطقة ومحاولة خلق الحلول لها. من هنا تأتي المفارقة الغريبة: كيف تقبل الدولة السوريّة النقد الذي كثيراًَ ما يكون جارحاً، حين يأتي من الخارج، في حين تتحفّظ عليه حين يصدر عن قناة محليّة؟ أكثر من ذلك، فرغم كلّ ما قلته من على منبر الجزيرة، رغم كل ما كتبته في الصحافة غير السوريّة، فإن أحداً لم يزعجني بالمعنى "التقليدي العربي" للإزعاج، وبالتالي أجدني لا أكلّ عن قول: "لسنا بحاجة لحذاء المارينز إذا ما أردنا الكتابة بحريّة في وطننا".

إضافة إلى ما سبق، فالإعلام السوري الرسمي – أتحدّث هنا عن المرئي حصراً – فاشل حتى الآن في تسويق سوريّا حضاريّاً، لأن لا أحد يراه، كما قلنا آنفاً. ومعروف للجميع دور الإعلام الخاص اللبناني، على سبيل المثال، في تسويق لبنان سياحيّاً على الأقل. ولا حاجة بنا طبعاً للحديث عن الإعلام السوري المقروء، الرسمي أو العام، فالوضع – كما قال أنطوني كوردسمان عن الوضع الأمريكي في العراق – على شفا الانهيار.

ثالثاً: عقلنة الأعراف!

للأمانة العلميّة، فتعبير "عقلنة الأعراف" صكّه غيري. وفي اعتقادي، فإن عقلنة الأعراف هو أحد المداخل لحلّ كثير من مشاكلنا المزمنة الإجتماعيّة ذات الأبعاد الاقتصاديّة–السياسيّة–المعرفيّة. الأعراف غير المعقلنة، التي اجتاحت الشارع السوري منذ زمن لا بأس به، نتيجة لتغييب العقليّة العلميّة بتآمر غير معلن أصولي–بعثي، هي الأرضيّة التي تنطلق منها معظم مشاكلنا. وحين نتوارث أعرافنا دون إمرارها على مصفاة العقل، فنحن إنما نعمل، عبر هذا الشكل من التوارث، على سرمدة أشكال تفكير بدائيّة ومنظومة سببيّة غير منطقيّة تعمل، بفضل غياب النقديّة أو البديل العلمي الواقعي، على الحفاظ على عقولنا في أغبى درجات السكونيّة. عقلنة الأعراف

تعني، ضمن أشياء لا حصر لها، إعادة النظر نقديّاً بكل ما توارثناه من عقائد ومفاهيم، بدءاً بخرافة القدريّة وانتهاء بأسطورة الطفل الذي يأتي إلى العالم ورزقه في رقبته.

ثمّة عاملان يلعبان ضدّ عقلنة الأعراف: خوف الدولة غير المبرّر من أي نقد يمكن أن يفسّر، في ظل القبضة الأصوليّة التي تمسك بعنق الوطن، كموقف سلبي من الأصل العقائدي الذي تتكيء عليه تلك الأعراف؛ والعدوانيّة الأصوليّة حيال أي نقد لكل ما له علاقة بالتراث والذي يخشى أن يمتدّ ليطال البنى المعرفيّة التراثيّة والذين يستثمرونها.

(للحديث بقيّة.)

حكومة: لبيّك اللهمّ لبيّك!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 29 إبريل 2004

قبل أقلّ من أربعة أشهر تنبّأنا باصطدام الدولة السوريّة مع تيارات الإرهاب الديني، بما فيها القاعدة، التي لا يخفى على أحد انتشارها الأفقي غير العادي، في الآونة الأخيرة، في كلّ الأمكنة في سوريّا. وفي حين يطارد العلمانيّون السوريّون، كالكلاب الضالّة، وتمنع كتاباتهم ويمنعون عن أشكال التواصل الجماهيري الفعليّة؛ وفي حين توضع عراقيل لا حصر لها على النشاط الفعلي للأحزاب غير الطائفيّة – الحزب الأهم، أي السوري القومي، ما يزال محظوراً، نظريّاً على الأقل – نجد أنّ منابر ديوك الله الروميّة لا تكلّ ولا تملّ، من الساعة الرابعة فُجراً إلى ما بعد العاشرة ليلاً. ليست المسألة فقط مهادنة بين بعض النظام وجماعات الإرهاب الإسلامي درءاً لإرهاب محتمل، ومهادنة الإرهاب لا تقي شروره، بل ثمة مصالح "ماديّة" أيضاً بين هذا البعض – وعندي أدلّة قاطعة على ذلك – وبعض القوى الطائفيّة؛ دون أن ننسى أيضاً أن بعض الدولة لا يقلّ أصوليّة وإرهاباً عن أونكل بن لادن (رض): كلّ ما في الأمر، أن الظروف الموضوعيّة تختلف الآن قليلاً بين الطرفين!

كان على دولتنا الأينشتانيّة الافادة من الدرس الأمريكي–السعودي–الطالباني، الذي أشرنا إليه حتى ملّنا الناس: ودولتنا لم تمل ولم تتعلّم. الإرهاب القائم على أسس عقائديّة لا ينفع معه الصلح ولا المهادنة، مثلما أن الحلّ الأمني هو الأسوأ: الإرهاب الإسلامي يعتمد عقائديّاً على أسس معرفيّة لا يستطيع الأمن ولا السياسة تقديم مقاربات نقديّة مخلخلة لها: ديوك الله الروميّة يطرحون أنفسهم، خاصّة مع تغييب الدولة للمفكّرين بأساليب لا حصر لها، على أنهم مفكّرو "الأمّة" [أغبى لفظ حين يخرج من فم البوطي من التلفزيون الرسمي، وطبعاً فهو لا يقصد باللفظ لا الأمّة السوريّة ولا العربيّة]، والردّ عليهم لا يكون إلا بالسلاح الفكري ذاته، مع إعطاء الطرف الآخر، أي نقيض ديوك الله الروميّة، المساحة ذاتها المعطاة لعتاولة الإرهاب.

<u>ماذا يحدث في سوريّا؟</u>

لا يختلف إثنان أن العمل الإرهابي الذي شهدته دمشق قبل يومين ليس أكثر من تافه، وإذا ما أردنا المقارنة بين ما حصل في دمشق وما يحصل كلّ يوم في أصغر عاصمة ولاية أمريكيّة فالمحصّلة لن تكون في صالح الأمريكان قطعاً؛ لكن الآثار المعنويّة لهذا العمل كارثيّة على أكثر من صعيد، مع ملاحظة أن المنطقة التي حصل فيها الحادث، المسكونة بكثافة أمنيّة لا مثيل لها، والتي لا تبعد غير أمتار عن مراكز قيادات أمنيّة، توحي بأن المخطّطين كانوا يريدون الضجّة الإعلاميّة قبل كلّ شيء. فالموسم السياحي، مثلاً، الهام للغاية في الظروف الإقتصاديّة السوريّة السيئة، والذي كان يعتمد أوّلاً وأخيراً على تسويق سوريّا على أنها الدولة الأكثر أماناً في شرق أوسط تتنقّل فيه الانفجارات، طُعن في الصميم؛ الموزاييك الإثني–الديني–الفكري–الطائفي السوري الهش، والذي يزداد هشاشة بفعل جري الدولة نحو جدار الطائفيّة المسدود من جهة، والانتشار الصرعي لحركات الإرهاب الإسلاميّة السنيّة الشيعيّة في الداخل والخارج من جهة أخرى، تلقّى ضربة مخيفة بهذا الحدث الذي كان الجميع بانتظاره. ليس هذا فقط، بل كان مريعاً تزامن الحدث مع كشف المخابرات الأردنيّة لخليّة إرهابيّة إسلاميّة كانت تنوي قتل الألوف في عمّان، والتي كانت تتضمّن من السوريين ما يكفي لتوجيه أصابع الاتهام بنوع من التقصير في مراقبة العناصر الإرهابيّة! وقد سمعت أن إثنين من العناصر التي تمّ ضبطها في عمّان ينتميان إلى

منطقة عملي حيث تنتشر التيارات الوهابيّة كالنار في الهشيم، وما من داع لإيراد قائمة بأسماء الذين طلبنا منهم معالجة الخلل الوهابي في منطقتنا وحمايتنا منه على الأقل: لكن، لا حياة لمن تنادي!

فإلى أي مدى تبدو البيئة السوريّة مؤهبّة لنشوء حركات من هذا النمط؟

يظهر أن الوهابيّة [أقصد دائماً هنا النفس الوهابي، لا الوهابيّة بالمعنى الحرفي للمصطلح] أضحت موضة 2003-2004 عند بعض مسئولينا؛ هل تريدون أدلّة قاطعة؟ لا بأس!

حلب هي أم الأصوليّة في سوريّا؛ وكما قال شعبان عبّود [أعتقد أن الاسم مستعار]، الذي يكتب عند غسّان وجبرانه، فحلب نقيّة، أي ليس فيها علويون ولا مرشديّون ولا إسماعيليّون ولا دروز؛ والمسيحيّون فيها يعيشون كأقباط مصر – هل أذكّركم بالمسجد الذي بناه السنّة الحلبيّون وسط الحي المسيحي بين كنائس عديدة وأسموه جامع "الجكر"؟ – أي، مواطنون بلا درجة. وكما رأينا من حوادث عمّان، فحلب، كابول الطالبانيّة السوريّة، صارت تصدّر الإرهاب إلى كافّة أنحاء العالم؛ حلب نقيّة، بمعنى أن لا مكان فيها لغير الطالبانيين ومن على شاكلتهم. ونحن آخر من نعلم.

رئيس وزرائنا [لا أعرف اسمه] حلبي – أبوس روحه – كما يعلم الجميع، فما هو الانجاز الهام الأبرز الذي قام به بعد تبوئه كرسي الوزارة الأولى؟ أوقف النشاط الأصولي التخريبي الإرهابي في حلب وريفها؟ لا! أعطى المجال للتيارات العلمانيّة الوطنيّة الليبراليّة كي تنشط وتعيد إلى اللحمة الوطنيّة شيئاً من بريقها الذي أفقدها إياه البعثيّون، صلوات الله عليهم؟ لا!! نشّط البلد إقتصادياً بحيث يغلق على الإرهاب إحدى طاقاته التي يتسلّل منها إلى قلوب الناس؟ لا!!! إذن ماذا فعل؟ عجزتم؟ طيّب؛ سأقول: ذهب إلى الحج! لا! ألا تصدّقون! وحياة جدّتي شكريّة، رضي الله عنها، التي كانت أكثر تعصّباً لسنيّتها من زينب الغزالي، أنه ذهب إلى الحج! بل "وبالعلامة" أنه اتصل – كما ذكر لي مسئول غير صغير – برئيس الجامعة يطلب منه إدخال طالبة في التعليم المفتوح إلى الامتحان، إذا تأخرت، لأنها كانت ترافقه في رحلته إلى فيلة – الله الآن لا يسكن في بيت، بل في فيلا – الله الحرام! ورفض رئيس الجامعة الذي يريد أن يعيد لأعرق جامعات سوريّا شيئاً من الاحترام الذي أفقدها إياه وزير دفاعنا (قدّس الله سرّه) في كتابه التحفة الأخير، الذي تبرع ابن تويني، الذي كان أبوه يقبض من بنك روتشيلد [أخبرني بهذا صديقي الراحل العظيم المطران ألكسي عبد الكريم]، بنشره كلّه بعد أن منع على أعلى المستويات في سوريّا!

<u>ملاحظة:</u>

رغم أني لست موظفاً ولا مسئولاً ولا من يحزنون، فالوقت لا يسعدني بإمكانية زيارة وطني الأم الكسرواني لأخذ جرعة من هواء غسطا غير الملوّث!

<u>حزورة:</u>

[كيف يمكن حل لغز منع كتاب العماد أول وزير دفاعنا على أعلى المستويات، مع أن منعه عن نشره ونشرنا معه كان الأولى؟!]

أرجّح أن رئيس وزرائنا جاء معه من الحج بقناني من ماء زمزم وطواقي بيضاء صغيرة ومسابح كهرمان وتمر مقدّس لأعضاء القيادتين القطرتين والقوميّة أدام الله عزّهم! لكني هنا أوجّه نصيحة بسيطة للجميع بأنه لا يعقل أن تكون مياه زمزم مياه زمزم، لأنه إذا لم يتدخّل الله، بجلالة قدره، فمياه زمزم لا تكفي حياً في مكّة؛ مع ذلك، فإن من حجز لمحمّد مقعداً في كونكورد البراق العابر للسماوات قادر على ضخ مياه سلسبيل في زمزم المقدّسة.

وماذا فعل وزير تعليمنا العالي جدّاً؟ مع العلم أن وزير تعليمنا العالي جدّاً هو ابن لعائلة تستثمر مشروعاً تجاريّاً له طابع قدسي، اسمه السيّدة زينب! هذه المرأة، على حدّ علمي، كانت زوجة لعبد الله بن جعفر الذي اشتهر بأنه

أفضل القوّادين عند بني أميّة! وبما أن الله والبيزنس صارا عند القرضاوي – الذي يتحفنا بفتاويه السكسيّة الأب تو ديت من تحت شباك الملحقيّة التجارية الإسرائيليّة في قطر – وغيره وجهين لعملة واحدة، فوزير تعليمنا العالي جدّاً يحاول أسلمة وزارته العتيدة بكل الطرق الممكنة، ولم يبق على وزارة تعليمنا العالي جدّاً، بعد أن صارت تفتتح ندواتها بآيات من ذكر الحكيم [الندوة عن الطب البيطري يمكن افتتاحها بسورة البقرة أو العنكبوت؛ عن النفط والثروة المعدنيّة بسورة الحديد؛ عن التاريخ بسورة آل عمران؛ عن الجنس بسورة الفتح؛ عن محو الأميّة بسورة القلم أو اقرأ؛ عن علم النفس بسورة الوسواس الخنّاس.. وهكذا]، سوى أن تحوّل الكليّات إلى حوزات – باستثناء كليّة الشريعة التي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو تصويرها، والتي يشتم صاحبها البوطي من على منابرها الشيعة ليل نهار – تقدّم لنا فيها آخر فتاوى أونكل طبابائي في سحاق المرأة والمعزة، أو أمر مقتدى شادور بالمعروف ونهيه عن المنكر أو دور الانتخابات حين لا يكون الشيعة أقليّات بحسب شيخنا سيستاني! بالمناسبة، قيل لي إن موقع وزارتنا العالية جدّاً على الانترنت لا علاقة لوزيرنا الإثنيعشري به، بل هو من بقايا الريشة الأرثوذكسي! جمال الأرثوذكس السوريين، أن واحدهم حين يتسلّم منصباً ما، كي يثبت للسنّة أنه ليس طائفيّاً، يزاود على بن لادن في التأسلم!

وماذا عن وزارة عدلنا رضي الله عنها وأرضاها!؟ أرجو أن تقرأوا سورة "قل أعوذ بربّ الفلق" قبل الولوج إلى الكلمات التالية، كي لا تصاب وزارة عدلنا بالعين! فقد أنجزت الوزارة الحاليّة العظيمة شيئاً لم تنجزه وزارة عدل في سوريّا من قبل! سنعود للتحزير: ماذا أنجزوا؟ هل حدّثوا القوانين بحيث نتحوّل من دولة على تخوم القرن السابع إلى دولة عصريّة؟ لا! هل أنهوا الفساد المستشري في الوزارة الأهم بحيث لا يعود العنصر المادي هو القاضي والحكم في أهم القضايا؟ لا أيضاً! إذن، لقد أزالوا القوانين الغبيّة بحق النساء المستمدّة من الشريعة الإسلاميّة "السمحاء" والتي يمكن أن تساعد المرأة كي تصبح بشراً؟ لا! أوه؛ إذن فقد عدّلوا تلك الشرائع التمييزيّة بحق الدروز والمسيحيين، فسقطت بالتالي مبرّرات هاتين الطائفتين في الإحساس بالغربة؟ لا أيضاً؟ ماذا فعلوا إذن؟ شحطوا درزيّاً من رقبته في بلدة جرمانا الدرزيّة المسيحيّة إلى سجن عدرة لأنه أزعج الله بإفطاره في رمضان!

<u>نميمة صغيرة:</u>

ذكر لي محام علوي صديق أن أحد أهم القائمين على وزارة عدلنا المصون قال لمحاميّة حلبيّة سنيّة متزوجة من علوي: ألم يبق بين صفوف السنة رجال حتى تتزوجي هذا العلوي؟ وكلّ من يعرف اسم هذا المسئول الرفيع جدّاً والمحامية وزوجها العلوي له عندي جائزة!

عندنا وزارة دفاع؟ طبعاً يا وقح! وإلاّ لمن يتبع هؤلاء الضباط والعسكر الذين نصادفهم بألبستهم الأنيقة، المفرطة الانضباط – وكأنهم مارينز، يخز العين – في كلّ مكان من سوريّا؟ وعندنا وزير دفاع؟ يا إلهي كم يبدو وقحاً هذا السؤال؟ ألم تر ديوان تراتيل الموجّه إلى البتول، الأخت المجاهدة جورجينا رزق، أخت فليتشينا التي قتلت زوجها المسئول السوري، والذي كان من تأليف وزيرنا قدّس الله سرّه؟ ألم تقرأ الكتاب الذي نشره التويني الصغير، المنسوب إلى وزير دفاعنا، الذي شتم فيه المرشديين [صاروا ملطشة لكلّ أخواني أو متأخون: من لا يصدّق، ليراجع أحاديث أحمد منصور في الجزيرة] والمسيحيين. أهم ما في هذا الكتاب التحفة ذاك النفس الديني الذي يضمّخ الصفحات من الجلدة إلى الجلدة، وبذلك تكتمل أوركسترا وزارة الدراويش بلا منازع.

في ذلك الكتاب التحفة لم يستوقفني الحديث عن يهوديّة زوجة الصديق الدكتور عبد الرؤوف الكسم– وهي مسيحيّة من سابع جد – ومحمّد تزوّج من يهوديتين وشولاميت ألوني أفضل من تسعين بالمئة من الناطقين بالعربيّة؛ ولا الإساءة إلى آخر ما تبقى لدينا من مؤسّسات نحاول أن تكون محترمة – جامعة دمشق حصراً؛ ولا الحديث المسيء للغاية عن بعض من قادة البلد في أصعب أيامه؛ بل الكلام غير العقلاني عن الشيخ الذي

حمى دمشق، والذي جاء به أبو فراس من الحجاز؟ لكني هنا لا أستطيع إلاّ التساؤل: لماذا لا نحلّ الجيش العقائدي ونترك لهذا السوبر ملاك مهمّة الدفاع عن الوطن؟ لماذا لا نكلّفه باختطاف أدون شارون، روش ها ممشالاه بيسرائيل، من الكنيست الإسرائيليّة، ومعه بقيّة الكوالتسيا العبريت، ونطالب بأنه إذا لم يغادر هؤلاء فلسطين فسوف نجعل شيخنا يرسلهم إلى المريخ، خاصّة وأن الأكسجين قد يكون مفقوداً في الطريق إلى هناك؟ بل لماذا لا نرسله إلى رأس الكفر في الولايات المتحدة لخطف النيو كونسرفاتيف عن بكرة أبيهم، ونخلّص الوطن بالتالي – بل والعالم كلّه – من شرورهم وكيدهم؟ لكن ما رأيكم أن نبدأ بالمسيحيين في سوريّا ولبنان، العملاء لوكالة المخابرات المركزيّة – كما قال لنا الوزير – ، فنطلب من الشيخ أن يرسل ملائكة الجحيم لدكّهم عند عمّنا مالك؟ ومن ثم نلحق بهم المرشديين، عملاء فرنسا الحقيرة؟ بل لماذا لا نعمّم خدمات الشيخ الجليل على باقي الوزارات، فينظّفها من الفساد والروتين ويرفع مستوانا التعليمي الاقتصادي الثقافي الأخلاقي؟ هكذا شيخ سوبر ملاك مكتشف من السيّد وزير دفاعنا يجب أن نستغلّه حتى القمّة. أوريكا!

أمّا أحد الأجهزة الذي بيني وبين أحد القائمين – أو القاعدين – عليه ودّ يفلج الطفل، فحدّث ولا حرج! تسألون بلؤم عمّا أنجز؟ حاضر! أنا سأجيبكم! لا، لم يكتشف بؤر الأصوليّة في حلب ولا أولئك الذين يذهبون إلى أفغانستان للتدريب القتالي! لا! لا! ولم يراقبوا الذين يذهبون إلى عمّان من أجل تفجير كيماوي كان سيطيح بألوف البشر! لا! لا! لا! لا يهتمون بالذين يأتون من السعوديّة واليمن والجزائر وغيرها للجهاد ونشر الدعوة! لا! الوهابيّون مسألة فاضية! الوضع مسيطر عليه! كتب التكفير! غير هامّة! كلّنا نعرف أن غيرنا كفّار! أمهاتنا ترضعنا ذلك مع الحليب! نحن نحب الشوشرة! إطلاقاً! شيوخ الجوامع في جيوبنا! يخرجون أحياناً، لكن الوضع تحت السيطرة! خان الشيح! أنت مزعج! اسكت وإلا! كلّه مراقب وتحت السيطرة أو السيطرة فوقه: لا فرق! المهم أن نمنع الباحثين العلمانيين الكفّار، الذين يتعبون الله قليلاً والمشايخ كثيراً بتهديدهم بسحب بساط العامّة من تحت أرجلهم؛ والبيزنس بين المشايخ وبعضهم أهم من الوطن وأهل الوطن.

لا زلت أذكر كيف سحبوا صاحبة مكتبة ميسلون اليسارية إلى أحد الأجهزة لأنها جرأت على الاحتفاظ ببعض نسخ من كتابي "محمّد"! لا زلت أذكر كيف استدعوا صديقي صاحب دار نشر النمير لأنه يحتفظ بنسخ من كتابي غير الممنوع، الذي أزعج المشايخ أيضاً،"حكايا الصعود"! لا زلت أذكر كيف كانوا يدورون على المكتبات في دمشق، يوقعّون أصحابها على تعهّد بعدم بيع كتبي، التي يبدو أن المشايخ أقنعوهم أنه يمكن استخدامها في تفجير السفارة الإيرانيّة أو مبنى الأمم المتحدة المهجور على أوتوستراد المزّة!

أخيراً، ودون نفاق أو مجاملة، فالرئيس هو الوحيد، بسلوكه اللاطائفي الحضاري، الذي يريد نقل سوريّا من واقعها المأساوي نحو غدّ أفضل، الذي يبعث فينا الأمل بأننا سنبقى رغم كل الظلمة الشائكة، هو الذي يحفّز فينا روح النقد من أجل وطن أجمل وأطيب وأحلى. ولولا وجود هذا الرجل، لكنّا غادرنا منذ زمن طويل! إنّ حبّنا له يدفعنا – ونحن لا نستفيد من ذلك شيئاً – لأن نخاطر بأنفسنا بنقد الذين يعتبرون أنفسهم مسئولين والوهابيين على حدّ سواء! الحال لم يعد يطاق! وهكذا أجواء هي الأفضل لنمو الحركات الارهابيّة.

هذا الشعب الطيّب، هؤلاء الضباط الذين يتناوبون النوم في منزلي خوفاً علي من هجوم وهابي محتمل، والأمر سبق وحدث أكثر من مرّة، هذا الوطن الجميل الذي أعطى العالم الحرف والثقافة ذات يوم: لا يستأهل أن يذبح بسكين الإرهاب والطائفيّة من الوريد إلى الوريد.

نبيل فيّاض

المارونيّة الحضاريّة

www.annaqed.com

نبيل فياض، 24 إبريل 2004

من التعابير التي طالما سوّق لها أثناء الحرب الأهليّة اللبنانيّة وعرفت من سوء الفهم والتشويه المقصود ما عرفت: " المارونيّة السياسيّة". وهذا التعبير كان مظلّة غطّت أيديولوجيّاً تياراً من البشر، ليسوا جميعاً موارنة بالضرورة، عرفوا عموماً بموقفهم النقدي من الاحتلال السوري للبنان، وبموقف أكثر نقديّة من جماعات الأسلمة التي ما تزال تنتشر بقوّة في لبنان حتى اليوم: بدعم إيراني للشيعة، ودعم غير محدّد الهويّة للسنّة. بل يمكن القول إن المارونيّة السياسيّة كانت السدّ الأقوى الذي حال بين لبنان وتيارات الإرهاب الإسلامي الأصوليّة التي يبدو، مع تضعضع أسس هذا السد القوي، أنها تعيش اليوم أفضل أيامها اللبنانيّة. وفي لحظات تاريخيّة هامّة، عرف لبنان أيضاً ما اصطلح على تسميته " بالجبهة اللبنانيّة "، التي اتفق الجميع، من الفاتيكان إلى سوريّا، على تصفيتها، والتي كانت التجسيد السياسي العسكري الأهم لتعبير "مارونيّة سياسيّة"!

باستثناء الأباتي بولس نعمان، الرئيس العام للرهبنة اللبنانيّة البلديّة المارونيّة [الكسليك] وقتها، والأب جبرائيل مالك، الكاهن اليسوعي شقيق شارل مالك، لم تكن لي علاقة شخصيّة بأي من رموز الجبهة اللبنانيّة أو مناصريها: خاصّة وأن وقتي في لبنان كان مستهلكاً من قبل البحث الفلسفي الثقافي غير السياسي. إضافة إلى أني كنت أفتقد الوضوح أو التماسك العقائدي في المقدّمات الأيديولوجيّة لتلك التيارات التي نشأت بين الموارنة اللبنانيين حصراً؛ وإذا ما أردنا المقارنة بين الحركات الأيديولوجيّة التي عرفها الروم الأرثوذكس مع تلك التي اجتاحت الموارنة في لبنان، سوف نجد أن الغنى الفكري . الثقافي ووضوح الطرح وإقناعيته عند الطرف الأوّل أقوى كثيراً مما يقابله عند الطرف الثاني؛ وأخص هنا بالذكر ما أعطاه المفكّر والسياسي الهام، أنطون سعادة؛ لكن الحركات بين الموارنة امتازت عن مثيلاتها عند الروم الأرثوذكس بالانفتاحيّة الليبراليّة غربيّة الطابع التي لا حدود لها، والموارنة عرفوا باستمرار أنهم ذلك الجسر الذي يربط الغرب بالشرق. قد يرى بعضهم أيضاً أن ثمة نقطة لضعف أوضح عند التيارات السياسيّة بين الموارنة تتجسّد في كونها مقفلة على المسيحيين؛ وبالتالي فقد كانت الأطراف الأخرى المناوئة تكيل لها التهمة تلو الأخرى: وما من أحد عاصر حرب لبنان إلا وحفظ عن ظهر قلب أسطوانة القوى الإنعزاليّة الطائفيّة المتصهينة، التي برع الفلسطينيّون وأنصارهم في تسويقها لزمن ليس بالقصير. لكني أعتقد أن انعزالية هذه التيارات عن غيرها من اللبنانيين الذين يختلفون حضاريّاً وثقافيّاً عن الموارنة . بمن فيهم بعض المسيحيين الذين فشلوا في أن يتمورنوا حضاريّاً . كان نقطة القوّة في بنيانها التأسيسي؛ فإدخال أي عنصر من خلفيّة مختلفة على النَفَس الماروني كان يمكن أن يفجّر هذا النسيج المتماسك، أو يهلهله، كما كانت الحال مع معظم التنظيمات اللبنانيّة من غير الأصوليين.

لا أقصد بالاختلاف الثقافي . الحضاري أن الباقين من اللبنانيين، خاصّة المسلمين منهم، بلا حضارة أو ثقافة؛ بل أنهم ينتمون إلى حضارة وثقافة تختلف كثيراً عمّا لدى الموارنة الذين تميّزوا منذ زمن غير قصير بطغيان العنصر الغربي على بناهم الفكريّة. وكمراقب حيادي من أصول غير مارونيّة بل غير مسيحيّة، يمكن لي أن أقدّم رأياً أكثر موضوعيّة، عبر حدث عشته، في المسألة المارونيّة وعناصرها الحضاريّة. فأنا أذكر أنه حين توجهت مرّة مع الأباتي أمبروسيوس حاج من جونيه إلى دير راهبات جبّولي قرب بعلبك لرياضة روحيّة بمناسبة اقتراب عيد الميلاد، وكان قد مضى علي في المنطقة الشرقيّة من بيروت نحو سنتين ونصف لم أغادرها أثناءها؛

ولمّا اصطحبني الصديق الراحل في زيارات لبعض البيوت البعلبكيّة [من الشيعة عموماً]، سألته، ليس دون خبث: هل ما نزال في الدولة ذاتها؟ هل يعقل أن تنتمي جونيه وبعلبك إلى وطن واحد، اسمه لبنان؟ الفوارق غير المعقولة بين المدينتين اللبنانيتين ألمع من أن تستطيع العيون ملاحظته، وأفصح مما يستطيع اللسان التلفّظ به.

مع ذلك، فالمارونيّة السياسيّة عرفت نكسات مخيفة، كان من أسبابها صراع السلطة في الداخل، وعدائيّة الخارج الدمويّة. من هنا، يمكن القول إن مقتل بشير الجميّل وقبله حادثة الصفرا والصراع بين حبيقة وجعجع والصراع بين عون وجعجع وسجن جعجع حتى خروج بعض الكتائب من أيدي الموارنة وتشظّي بعضها الآخر؛ كلّ ذلك أدّى إلى نوع من الاضمحلال غير الصحّي للمارونيّة السياسيّة، والذي يتجلّى الآن بأوضح صوره في حالة اليأس القاتلة التي تلفّ المجتمع الماروني والتي تجد تعبيراً لها في هذا النزيف المتواصل من شباب الطائفة الذين يغادرون one way ticket إلى أيّ بلد يمكنهم الحصول فيه على فرصة عيش، حتى وإن كانت غير أفضل مما هو متاح في الوطن.

المارونيّة الدينيّة، مصطلح غير متداول، لكن يمكن تلمّسه بسهولة هائلة عند أوّل احتكاك بالمجتمع الماروني أو المتمورن في بيروت الشرقيّة بشكل خاص. لقد أنشأ الموارنة رهبنات قويّة، كالبلديّة والأنطونيّة والمريميّة والكريم، إضافة إلى هيكليّة بكركي ومجموعات الإكليروس من خارج الرهبنات، الأمر الذي أدّى، مع توزّع العمل، إلى التغطية الرهبانيّة المارونيّة للمجتمع الماروني أوّلاً ولجزء غير ضئيل من اللبناني ثانياً، بكلّ أوجه نشاطاته. ضمن الرهبانيّات المارونيّة، كأي منظومة ليبراليّة، مغرقة في ليبراليتها، يمكن أن نصادف من هو مسيّس، يساراً أو يميناً؛ من هو رافض للتسيّس من منظور نسكي؛ من هو منهمك في العمل الاجتماعي؛ من يقدّم التبشير الديني على النشاط الاجتماعي؛ من هو مرجعيّة فلسفيّة؛ من هو مؤرّخ أو أركيولوجي؛ بكلمة واحدة: الرهبانيّات المارونيّة جامعة ضخمة تغطّي كل الاختصاصات. ومن معرفتي الذاتيّة غير المتحيّزة، فالرهبانيّات المارونيّة تتميّز، في اعتقادنا،عن أية رهبنة أخرى في الشرق، وربما في الغرب. فهذه الرهبنة الكاثوليكيّة العقيدة، المنفتحة بما لا يقارن على روافد الفكر المعاصر . أتحدّث هنا عن البلديّة تحديداً . [في الكسليك، قبل أكثر من خمسة عشر عاماً، كانوا يدرّسون لطلاب اللاهوت الإلحاد المعاصر دون أدنى حرج أو عدائيّة]، كانت النافذة التي يطلّ منها باستمرار الغرب الأوروبي وبعض الأمريكي على الشرق؛ بالمقابل، ثمّة أرضيّة وطنيّة، بالمعنى الحضاري غير الشوفيني للكلمة، نجده في الليتورجيا السريانيّة السوريّة الجذور، التي تحافظ عليها المارونيّة بالتزام نادر. من هنا، فالكنيسة المارونيّة تتميّز للغاية عن غيرها من كنائس الشرق بأنها عقل غربي، مغرق في انفتاحه، وقلب شرقي، مغرق في عاطفيته. ربما أن الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة تشبه إلى حدّ ما شقيقتها المارونيّة من حيث كونها سريانيّة الليتورجيا كاثوليكيّة العقيدة؛ لكن السريان الكاثوليك، بسبب ضآلتهم العدديّة الواضحة وفقر كنيستهم بشريّاً وربما ماديّاً، ليس باستطاعتهم خلق البنى المعرفيّة المارونيّة الأقوى في الشرق المسيحي، بغضّ النظر عن افتقادهم لما عند الموارنة من ثقة ذاتيّة هائلة [لم يتوان الموارنة عن ترجمة القداس السرياني إلى العربيّة، بما في ذلك الكلام الجوهري، بل إن بعضهم يحاول الآن التقديس باللغة اللبنانيّة؛ وذلك حين اكتشفوا أن التواصل قد يكون أسهل مع الناس عبر هاتين اللغتين] وأشخاص تاريخيين، إن من العلمانيين أو من الإكليروس. لكن المشكلة الكبرى التي تغوص فيها المارونيّة الدينية اليوم، بالمقارنة مع أيام الحرب الجميلة، تبدو متعددة الأوجه:

أولاً: الشعور الماروني العام بالإحباط، مع وصول رئيس وزراء سنّي غير وطني طائفي، إنتاج سعودي بلا منازع، ومحاولته غير الخافية على كلّ ذي بصيرة إنهاء الوجود المسيحي من الشرق، لصالح أصوليّة سنيّة سيئة السمعة؛

ثانياً: شعور الموارنة بتراجع دورهم الأهم في هذه المرحلة من تاريخ لبنان، خاصّة مع الانتشار الأفقي الهائل للحركات الأصوليّة الإسلاميّة، التي يشتم منها بسهولة رائحة الإرهاب؛ وعلى رأس القائمة الحزب المسمّى بحزب الله؛ وفي حين يحظر على الموارنة أن يكون لهم تنظيم سياسي ذو وزن، وفي حين يتبعثر قادة الموارنة الفعليين بين السجون والنفي ويلاحق من منهم في لبنان بتهم التخوين والتصهين، في حين يضعضع أقدم أحزابهم ويشظّى، وينتهي النمور ومثله حرّاس الأرزة وإلى حد ما الكتلة الوطنيّة، نجد أن حزب الله يستثنى من كلّ القرارات التي شملت غيره تحت شعار المقاومة؛

ثالثاً: تراجع دور الكنيسة المارونيّة، التي كانت المهيمنة أثناء الحرب: وتقلّصه حتى في المنطقة الشرقيّة، مع تغلغل الجميع إلى مناطق الجميع، وسقوط الجميع في أتون القبول بأي أمر واقع، تحت مطرقة الحاجة الماديّة التي أوصل إليها رئيس الوزراء السعودي القلب والانتماء؛

رابعاً: افتقاد الكنيسة المارونيّة، إما بالهجرة أو بالموت، لكثير من أبرز وجوهها وبالتالي وجوه لبنان؛ وندرة المتألقين بين الجيل الجديد!

من هنا، فالتراجع الماروني السياسي الديني لا تخطئه العين؛ واعتقادنا أن هذا الوضع، إذا لم يتم تداركه بأسرع وقت، وهو ما يتطلّب من الموارنة خصوصاً والمسيحيين عموماً التكتّل ضد النفوذ الإيراني . السعودي في لبنان، حيث أن هذا النفوذ هو التهديد الأكبر للوجود المسيحي، بالتعاون أوّلاً مع الدروز وثانياً مع العلمانيين وثالثاً مع التيارات الوطنيّة في الشارع اللبناني المناوئة للحريري وللنفوذ الإيراني على حدّ سواء، فسوف تنتهي إلى الأبد أسطورة سويسرة الشرق التي ناضل اللبنانيّون من أجل تعميمها في لا وعينا ووجداننا.

كما يتضح لكلّ ذي عين خبيرة، فالوضع المسيحي في مصر مخز؛ حيث اضطهاد الأقباط من الدولة والحركات الإسلاميّة لا ضابط له، والوضع هذا في تدهور قاتل لأن مصر، بأفضال السادات المؤمن، لا تزال مصرة على الهرولة نحو الحائط المسدود؛ في سوريّا وضع المسيحيين أفضل من مصر بما لا يقارن؛ مع ذلك، فالقوانين السوريّة العثمانيّة الطابع والختم ما تزال تشكّل عائقاً دون أن يشعر المسيحي، كالدرزي أو المرشدي أو حتى العلوي، أنه مواطن من الدرجة الأولى؛ ومن تجربتي أرى أن القيادة السوريّة راغبة بالتغيير لكن الجو العام السنّي الشعبي يقف حائلاً ضد أيّ تغيير؛ مع ملاحظة أن النظام مسكون بهواجس "فتنة" أثبتت الأيام أن لا أساس لها من الصحة. مع ذلك، فالوضع المسيحي اللبناني حتى الآن هو الأفضل بين كلّ الدول الناطقة بالعربيّة. من هنا، لابدّ لنا، كليبراليين، من مساندة المسيحيين اللبنانيين، خاصة الموارنة، على الصمود في وجه العواصف العاتية، وتقديم مشاريع جديدة مكرّسة للوجود، لأنه إذا سقط الموارنة من دفتر الشرق، سقطت معهم الديمقراطيّة والحريّة وطموحات المستقبل المشرق. وهل يمكن أن نتأمّل الخير من "بوي فرند" مراهق المتعة العراقي، المدعو نصر الله العنتري؟ شريكا القتل والشادور ومصادرة الحب!

المارونيّة الحضاريّة:

للأسف الشديد، ثمّة أشياء هامّة جدّاً لا ينتبه إليها الموارنة أو ربما أنها لا تعنيهم كثيراً: أتحدّث هنا عن المصطلح الذي قد أكون أوّل من "صكّه"؛ أي، المارونيّة الحضاريّة. وقبل الدخول في تفاصيل المسألة، لا بدّ من التوقف عند بعض الأمور الصغيرة التي نعرفها جميعاً ونتجاهلها جميعاً. ثمّة وطن اسمه سوريّا ملاصق للبنان، لم يعرف حرباً داخليّة ولا خارجيّة، يصل تعداد سكّانه إلى عشرين مليون ربما، ومساحته أضعاف مساحة لبنان؛

مع ذلك، فإن لا أقلّ من مليون سوري [يعيلون 4 ملايين] يعملون في لبنان الصغير غير النفطي ولا الفوسفاتي والذي لا أنهار كبيرة فيه ولا سهول حورانيّة أو جزيرة فراتيّة.

هل يمكن أن نتحدّث عن الديمقراطيّة والحريّة؟ لبنان هو البلد الوحيد الناطق بالعربيّة الذي فيه ديمقراطيّة فعليّة وحريّة فعليّة، والباقون كلّهم منافقون، من مصر المبارك [حيث يعامل الأقباط كحيوانات نجسة] إلى أردن عبد الله [حيث تفرم الكتب التي تزعج جبهة العمل الإسلامي] إلى مغرب..! في لبنان، تجربة الإعلام المرئي الخاص التعدّدي المستقلّ عمرها أكثر من ربع قرن؛ في سوريّا المجاورة، بالمقابل، والتي تمتلك التعدّدية الديموغرافيّة اللبنانيّة ذاتها، وإن كانت نسبة المسيحيين أقل، لا تعرف حتى الآن أي شكل لإعلام مكتوب خاص مستقل؛ وكلنا يعرف لعبة التراخيص التي أعطيت مؤخّراً لأشخاص أرادوا التأسيس لشكل إعلام غير رسمي.

في لبنان لا توجد طائفة لها امتيازات على بقيّة الطوائف؛ وفي سوريّا، المسيحي بحاجة لأن يشهر إسلامه إذا ما أراد إزعاج الله بزواجه من مسلمة؛ المرشدي يتعلّم الدين على الطريقة السنيّة؛ الدرزي هو الآخر بحاجة لإشهار إسلامه إذا ما تجرّأ على الذات العليا وطلب سنيّة للزواج! بل لماذا نبتعد كثيراً، فلولا لبنان المسيحي الماروني حصراً، لما قرأ أحد لي مقالة واحدة، لما استطعت أن أنشر كتاباً واحداً؛ لأن ما يفترض أنه وطني [أتمنى أن أجد من يشتري مني الجنسيّة السوريّة، وإن كان كرديّاً] يغلق علي أبواب النشر بختم البوطي الكردي الشهير.

لكن ليس كل لبنان سواء: فما نستطيع قوله أو نشره أو "شربه" أو لبسه أو ممارسته في جونيه، محرّم علينا في بعلبك أو بير العبد أو النبطيّة: باستثناء البغاء المقدّس المسمّى بزواج المتعة. لبنان الكانتون الحزب . إلهي لا يفترق عن دمشق في شيء؛ بل قد تكون دمشق أفضل . ليس كثيراً طبعاً . في بعض النواحي من بعلبك وغيرها من بؤر هذا الكانتون. . هل خطر ببال أحد ما هو السبب؟

لبنان، أكبر من حجمه الجغرافي . السكّاني . التاريخي بما لا يوصف؛ ولو أردنا، مثلاً، المقارنة بين سوريّا ولبنان من ناحية الحجم السكاني . الجغرافي والدور الحضاري لكانت النتيجة مزعجة جدّاً للسوريين. بل إن حجم الوجود الإعلامي اللبناني، على سبيل المثال، يغطّي كل المنطقة الناطقة بالعربيّة، إلى درجة أن اللهجة اللبنانيّة صارت لغة الإعلام من البحرين إلى كازابلانكا. . فما هو السبب؟

التعدّدية؟ لا نعتقد. لأن في سوريّا والعراق من التعدّدية ما يوازي تعدّدية لبنان، وإن اختلفت النسب. الموقع الجغرافي؟ لا نعتقد. فالموقع الجغرافي السوري لا يختلف عن مثيله اللبناني في شيء. التاريخ؟ لا نعتقد. فتاريخ سوريّا لا يوجد ما يميّزه عموماً عن ذاك اللبناني. الوجود الإسلامي السنّي؟ لا نعتقد. فالسنّة في السعوديّة أكثر من البرغش، مع ذلك، فهذا البلد ذو القدرات الماديّة الهائلة يعاني بطالة عقليّة لا مثيل لها حتى بين هنود حمر أميركا قبل كولومبوس. الوجود الشيعي؟ لو كان للشيعة دور في لبنان الحضاري لكان لهم ما يوازيه في عراق مقتدى شادور وسيستاني الانتخابات. الروم الأرثوذكس؟ عددهم في سوريّا أكبر من لبنان، وما من سبب يبرّر لنا إعادة الحديث عن أسطوانة التخلّف الحضاري السوريّ المشروخة. الوجود الدرزي؟ راجع ما كتب عن الروم الأرثوذكس. العلويّون؟ لا تعليق، حتى لا نتعب رؤوسنا.

باختصار: لولا الموارنة لكان لبنان كاليمن أو، بأفضل الأحوال، كالجمهوريّة العربيّة السوريّة. لولا الموارنة، رجالات الموارنة، الكنيسة المارونيّة، لكان لبنان نجفاً أخرى بمقتدى شادور آخر، أو مكّة أخرى بابن باز (رحمته الآلهة) آخر.

إذا كانت المارونية السياسيّة قد أنهيت، والمارونيّة الدينيّة قد أضعفت، فالمارونيّة الحضاريّة يجب أن تتقوّى وتدعّم، عبر نشر القيم الحضاريّة المارونيّة، الليبراليّة المارونيّة والديمقراطيّة المارونيّة إلى سوريّا أوّلاً ومن ثم إلى كلّ الشرق.

إن المطلوب من الموارنة الآن كثير؛ لأن دورهم في الواجب الحضاري أكبر تماماً من عددهم. وفي اعتقادي أن تكريس المارونيّة الحضاريّة يكمن في نقاط كثيرة؛ أهمها:

أوّلاً:

إنّ الوضع الحالي، إقليمياً وعالمياً، لم يعد يحتمل الانغلاق، أو التعصب الديني أو القطري؛ ومن علاقتي بالمونسنيور الماروني الصديق الراحل، خليل رستم، أعرف تماماً أن السيّد البطريرك صفير لا يخلو إطلاقاً من التعصّب الضد . سوري؛ وهذا يتنافى بالكامل مع جوهر المسيحيّة الدينيّة، والمارونيّة الحضاريّة، كما عرفتها من بعض آباء الكسليك؛ والانفتاح على الآخر هو الوسيلة الوحيدة للأخذ بيده إذا ما أردنا نقل شيء إليه مما نعتبره حضارة ذاتيّة؛

ثانياً:

كما يعرف الجميع، فإن علاقتي بالمنظومة الحاكمة في دمشق لم تخل يوماً من التوتر، أقلّه لأني أرى أنهم لا يعملون بما يكفي للوصول بسوريّا إلى شط الأمان والحداثة؛ مع ذلك، ففي اعتقادنا أن النظام السوري الحالي هو الضمان الوحيد ضد قيام حكم أصولي في لبنان أو سوريا؛ هذا يعني أن البديل الوحيد للنظام الحالي في سوريّا هو الأصوليّة الطائفيّة التي ستطيح بكلّ الأقليّات، من العلمانيين إلى الموارنة، في بحر الظلمات؛ وعدائيّة القوى المارونيّة التي لها رصيد شعبي فعلي [لا أتحدّث هنا عن عملاء الحريري من الموارنة]، المبطّنة منها أو السافرة، للنظام السوري، لأسباب أو عقد مستأصلة لا تعني سوى المزيد من التقهقر الماروني، لأن المستفيد الوحيد من ذلك هو التيارات الأصوليّة الإسلامية، شيعيّة كانت أم سنيّة؛ وفي اعتقادنا أنه كلما انفتح الموارنة خصوصاً والمسيحيون عموماً على دمشق، كلما ابتعدت دمشق عن التيارات الأصوليّة الإرهابيّة؛ والعكس صحيح؛

ثالثاً:

من الضرورة بمكان تشكيل لوبي سوري . لبناني ليبرالي، من العلمانيين السنّة والشيعة . وليسوا قلائل، كما قد يتبادر إلى الذهن . ودعاة الديمقراطيّة من كافة الطوائف الصغيرة، للضغط أينما كان ضدّ تيارات الأصوليّة الإسلاميّة، التي دائماً تتكتّل مع بعضها ضدّ الجميع، ضاربة عرض الحائط بأي انتماء وطني أو قومي؛

رابعاً:

حتى لا يفتح الموارنة أو المتمورنون مزاداً علنياً حول عدائيتي للساميّة، كما حصل في ألمانيا حين نشرت في إحدى الصحف بعض مقالات حول تاريخيّة التوراة، أقول إن موقفي من اليهودي الفرد . سأقدّم مقالة تفصيليّة في "الناقد" حول علاقاتي اليهوديّة، خاصّة الحاخام الصديق ألبير حمرا . مختلفٌ بالكامل عن نظرتي إلى إسرائيل وسياستها؛ فرغم كلّ شيء، لا أحد يمكن أن يكون منافساً فعلياً للمشروع الإسرائيلي في الشرق الأوسط أكثر من الموارنة؛ واستخدام الموارنة كورقة إسرائيليّة ضد السوريين، ليس أكثر من موقف براغماتي هدفه أوّلاً وأخيراً المصلحة الإسرائيليّة القوميّة العليا: لكنه على المدى البعيد ضدّ المصلحة المارونيّة! دون أن ننسى الدرس اللحدي الشهير؛

خامساً:

الأخطر من كلّ ما سبق هو فتح الإعلام اللبناني الماروني أو المتمورن أبوابه لبعض المعارضة السوريّة التي هي في اعتقادنا على الأقل "خيول طروادة" الأخوان المسلمين ومن على شاكلتهم؛ فإذا كان النظام السوري يكتفي باستدعائنا . وأنا لا أحرج من إعلان انتمائي الثقافي . الحضاري إلى الكسليك . إذا ما كتبنا بنقديّة لم يعتد العقل السوري على تقبّلها؛ فإنه في حالة حصول أي فراغ في السلطة، كما يأمل كثيرون، سيكون مستقبلنا . أقصد هنا كلّ القوى غير الأصوليّة . ليس أقل سوءاً من مستقبل المسيحيين في البصرة على يد جماعات الإرهاب الشيعي.

هؤلاء الأصوليّون، إذا . لا قدّرت الآلهة . مدّوا أيديهم إلى الكراسي، سيسلخون رؤوس الجميع، وأولهم غسّان وجبرانه، اللذان يتنافسان عمّن يفتح ذراعيه أكثر لاحتواء الأصوليين، نكاية بالنظام السوري، وبضغط من عقد مترسّبة قديمة: هل هنالك من مبرّر للحديث عن مآثر المرحوم إيلي حبيقة؟

الموارنة الآن، بسبب غباء بعض قياداتهم وتواطؤ المحيط المتخلّف ضدّهم، يتحوّلون إلى أقليّة أخشى ما أخشاه أن تصبح بلا قيمة في مستقبل ليس ببعيد؛ مع ذلك، فالوقت لم يفت بعد؛ وإمكانيّات الموارنة الثقافيّة المعرفيّة على مورنة المنطقة حضارياً، ما تزال موجودة؛ فقط ما عليهم سوى كسر طوق العزلة والتعاطي غير الحذر مع الآخر المخالف.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حمل الموارنة رايات تحضير المنطقة عبر المشروع القومي العربي، لمواجهة الاحتلال التركي؛ الآن استهلك المشروع القومي واستنفذ غاياته، لكن مخاطر جرّ المنطقة إلى الهاوية ما تزال قائمة. ورغم الوجود الكاسح لقوى الأصوليّة، فالتيار الليبرالي في أفضل حالاته اليوم. من هنا، وبفضل وسائل الاتصال غير العاديّة، يبدو أن الموارنة مطالبون قبل الجميع بالعودة لحمل لواء مشروع تنويري، ليس عربيّاً عامّاً هذه المرّة، لأنه سيفشل حتماً، بل محدّد بلبنان وسوريّا أوّلاً: وبعدها؟ يمكن أن نناقش.

=========================

أزمتي مع العلويين!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 20 إبريل 2004

ليس من السهل أن نعمّم، كعادة سكّان المنطقة التعيسة المسمّاة بالمشرق الناطق بالعربيّة؛ فنقول: لا أحب العلويين! وبين العلويين من نشعر أنهم أقرب إلينا من لحظة موتنا خلف الباب؛ من يسكنون تحت جلودنا، وفي المساحة بين حلمنا وإحباطاتنا!

كم من الصعب على واحد مثلي، يهاجر علويون بين سريره الخشبي القديم وبوابات هروبه من صيرورة فرح متعب؛ تتهالك عيون علويّة شاردة في احتضان ما تبقّى في صوته من رعشة واقفة؛ تتساقط أمطار علويّة فوق خريف عبقه المتصحّر . العطش، لتنمو تحت لحظاته الاغترابيّة أصوات نيروز قديم . أن يصرخ بفحيح بلا صدى: لا أحبّ العلويين!

كان جدّي لأمّي حمصيّاً معتّقاً؛ وكان لا يتوقف يخبرنا بفخر عن ذاك الفلاح الذي نزل مرّة إلى باب السوق [مركز حمص]، يحمل قرطل شنكليش، يبحث عن دريهمات يعود بها في المساء إلى بيته في الضيعة؛ اعتقد شباب الحماصنة، وبينهم جدّي، أن الرجل علويّ، فوضعوا عقاله الفلاّحي في رقبته، وراحوا يجرّونه ويضربونه؛ صائحين: اشحطوه! فردّ الرجل البريء، بمنطقه الأبسط: لست علويّاً، أنا إسماعيلي! فصاح الحماصنة المهتاجون: [أعتذر عن ذكر النص بعد اعتراض ملاكي الحارس العلوي على فجاجته بحق الطائفتين]!

أشعر أحياناً، أنّ هذه الحادثة، ومثلها كثير، التي سمعتها في بيت جدّي في منطقة باب هود الحمصيّة، ترسّخت في عقلي الباطن الأعمق، ودفعتني لاحقاً لدراسة هؤلاء الإسماعيليين، والعبور إليهم في السلميّة والكتابة عنهم بحبّ لا يجارى. بل ربما أكون واحداً من قلّة نادرة من غير الإسماعيليين التي حضرت الصلاة الإسماعيليّة الأجمل في أحد أعياد ميلاد الإمام كريم خان! وأوصلني عشقي للفكر الإسماعيلي الرائع، خاصّة راحة عقل الكرماني، إلى اتهامي بالتسمعل . من قبل صنيعة الأجهزة، المسمّى البوطي: الأمر الذي كنت أنكره جهاراً دائماً، وأفرح له بيني وبين نفسي.

حادثة أخرى لا يمكن أن أنساها: حيث كنت في منزل شاعر علوي صديق، وكان يحضر أيضاً باحث سنّي يفترض أنه صديق الشاعر. بعدها بفترة، التقيت الباحث السنّي، وكنت وحدي؛ فانتحى بي جانباً يقدّم لي نصائحاً حول هؤلاء العلويين الباطنيين الذين لا يجب أن نثق بهم أو نتعامل معهم بوضوح؛ بل تطاول الرجل إلى درجة قوله إن العلويين يختلفون عنّا مورفولوجيّاً: فشواربهم تخرج متعامدة مع أفواههم، ورؤوسهم من الخلف تفتقد الاستدارة المميّزة للرأس السنّي!! وبعدها، لم أعد أسمح لنفسي بالوقوف مع هذا الرجل أو حتى تحيّته!

هذه الحوادث المتراكمة؛ ممارسات بعض الضباط العلويين؛ التباهي بالانتماء الطائفي عند كلّ الأطراف؛ ما حصل في لبنان أثناء الحرب من بعض المسؤولين العلويين: كلّ هذا وسّع الهوّة بيني وبين هذه الطائفة، بعكس كلّ الطوائف الأخرى التي كتبت عنها مجموعة مقالات كانت تدفق بالودّ! مع ذلك، فعلاقاتي غير العاديّة ببعض العلويين، من الذين لا يأخذون الطائفيّة على محمل الجدّ، هي الأقوى . وربما الوحيدة . خاصّة في الفترة الأخيرة.

لا أحبّ العلويين: عنوان عريض ربما يعرّض صورتي عند هؤلاء الناس، الذين دافعت عنهم في مجمل أعمالي حتى اللاعودة، لخطر الامتعاض أو النفور.

لا أحب العلويين: ليس من منظور طائفي ترفضه حتى الحيوانات غير البدائيّة، بل من فهمي لما كان على العلويين تقديمه لسوريّا على الصعيد الحضاري، لنقل وطن الحرف إلى مكانه الطبيعي: وأحبطوا آمالنا بطريقة لا يحسدون عليها.

لسنا هنا بصدد مراجعة نقديّة لأخطاء العلويين في السلطة وخارجها، فالأمر يحتاج إلى أحد أشكال البحثيّة التخصّصيّة التي لسنا بواردها الآن؛ لكن ما يهمّنا في هذا الصدد، وضع خطوط عريضة للأخطاء "الحضاريّة" للمسؤولين العلويين، التي ساهمت كثيراً في الدفع بمسيرة التقدّم السوري إلى الوراء!

مأساة التسنّن:

في حين يعمل الباحثون العلمانيّون السوريّون من أصول سنيّة على خلق جو نقدي يطيح تماماً بالتقليديّة الأشعريّة اللاسببيّة التي تروّج لها كليّة الشريعة في جامعة دمشق وما فرّخ عنها من كليّات أسوأ منها لا يعرف أحد آلية عملها أو كيفيّة حصولها على الأذن بالعمل، نرى بين العلويين، على أعلى المستويات، من يبحث عن تأكيد الأسلمة، خاصّة النسخة السنيّة الأشعرية منها، ربما ليدفع عن نفسه هاجس التكفير الذي يحقنه السنّة في اللاوعي العلوي منذ ما قبل الوعي. وباستثناء شاعر سوريّا الكبير أدونيس، الذي أقصاه ع ع ع من جنّة اتحاد كتابه "المشموس"، يندر أن تجد بين الباحثين السوريين الذين انتقدوا بجذريّة عميقة البنى الفكريّة للأشعريّة السنيّة المقيتة اسماً علويّاً، وربما غير سنّي: رغم قائمة الباحثين الطويلة، من محمّد شحرور إلى صادق العظم فطيّب التيزيني وعبد الرزّاق عيد حتى الصديق زكريّا أوزون. وهذا مردّه، باعتقادنا، خوف الباحثين العلويين من التهم الطائفيّة، من رجالات العلويين قبل غيرهم، إذا هم سمحوا لأنفسهم التوغّل النقدي في الدغل الأشعري. وشخصيّاً سمعت أكثر من مرّة أسطوانة مشروخة مريعة مفادها، أني لو لم أنتمِ إرثيّاً إلى طائفة الأشعريين لكان الموقف مني مختلفاً: وكانت هذه الآراء "القيّمة" صادرة في معظمها عن علويين. لكن أحداً لم يتفضّل بكشف الغمّة عن العلاقة بين البحث المجرّد وطائفة الأمّة. ما هي العلاقة بين ترجمتي لنصوص يهوديّة تكشف عن أهميّة عمر بن الخطّاب عند العبرانيين ودورهم البارز في قيام دولته. أتحدّث هنا عن كتابي نصّان يهوديّان حول بدايات الإسلام. وطائفتي، أشعريّة كانت أم مورمونيّة؟. ما هي علاقة التشيّع أو التأشعر في كتابي المعتمد أساساً أمهات المصادر السنيّة، أم المؤمنين تأكل أولادها؟. البحث النقدي حالة إنسانيّة عقليّة عالية المستوى، والطائفيّة وضع غرائزي بدائي شبه حيواني: فما هي أوجه الشبه بين المثالين؟ العلويون، باستمرار، يشعرون أنّ هويتهم الإسلاميّة مجروحة؛ ثم جاءت موجة الطائفيّة في سوريّا في السبعينيّات ومن ثم أحداث جماعة الأخوان المسلمين الإرهابيّة وما صاحبها من إرهاب دولة الأمر الذي جعل العلويين يدخلون في "رالي" أسلمة مع القوى المتطرّفة الإسلاميّة السنيّة خشية اتهامهم بعداء الإسلام، فكان ما بني من مساجد، مثلاً، في السنوات الثلاثين الأخيرة في سوريّا، يزيد عمّا بني منذ أيام المرحوم معاوية إلى اليوم.

كان باستطاعة القوى المتحكّمة من العلويين، لو تحالفت مع التيارات التقدّميّة من كلّ الطوائف، إعلان علمانيّة الدولة؛ إشعار كل مواطن، مهما كانت خلفيّته الدينيّة أو الفكريّة أو الطائفيّة، أنه مواطن من الدرجة الأولى؛ وخلق البيئة المدنيّة التي تمكّن سوريّا، كوطن يمتلك كلّ المؤهّلات لذلك، من دخول العصر الحديث من أوسع أبوابه.

كان باستطاعة القوى المتحكّمة من العلويين، وهم الطائفة التي نالت من الأذى والجور والاضطهاد وسوء الفهم المقصود ما نالت، أن تعلن سوريّا دولة ديمقراطيّة. فعليّة لا بعثيّة. فيصبح كلّ المواطنين متساوين في الحقوق والواجبات؛ يشعر كل مواطن أنّ الوطن وطنه، وليس مجرّد ضيف فيه؛ ويتوقّف بعض السوريين عن القول إن الطائفة الفلانيّة أو العلانيّة تتمتع بكامل حقوقها "عندنا"؛ لا أن يسهر المسيحيّون السوريّون الليل في منطقة "نيو

جديدة" البيروتيّة للحصول على الجنسيّة اللبنانيّة؛ لا أن يغادر اليهود السوريّون، عند أوّل فرصة، وطنهم العتيق دفعة واحدة؛ ولا أن يبحث العلمانيّون عن سفارة تحميهم من اضطهاد الأجهزة والقوى الإسلاميّة التي تنتشر اليوم في سوريّا كالنار في الهشيم.

كان باستطاعة القوى المتحكّمة من العلويين، وهم القادمون من خلفيّة متحرّرة ليس لها علاقة بخزعبلات البخاري وعتّه أبي هريرة وتفاهات كعب الأحبار، أن يخلقوا في سوريّا جو حريّة لا مثيل له في كلّ الشرق الأوسط؛ أن ينقلوا نساء سوريّا، حفيدات زنوبيا وجوليا دومنا، من أسواق التسرّي الأمويّة إلى عالم الإنسان الكامل؛ وأن يجعلوا من سوريّا منارة حقوق إنسان لا تبارى؛ لا أن يخنقوا كلّ الأصوات المتحرّرة ويقفلوا كلّ المنابر السياسيّة باستثناء منابر ديوك الله الروميّة؛ لا أن تصبح دمشق أسوأ من جدّة وحلب أسوأ من كابول الطالبانيّة أنثويّاً؛ ولا أن تصبح حقوق الإنسان في سوريّا محطّ شفقة دولة . إن صحّت التسمية . كقطر، كانت قبل عقود مضارب بدو يقرف من رائحتهم الجمال.

كان باستطاعة القوى المتحكّمة من العلويين سنّ قوانين تشجع على محاربة الطائفيّة؛ خلق جو عام يشعر السوري أن انتماءه للوطن هو الأوّل والأخير؛ وأن يدعموا التيارات التي تركّز على الإنسان أوّلاً؛ لا أن يستبقوا في هذا الزمان غير العادي كليّة لا همّ لها غير شتم الآخرين وشحن الناس بالطائفيّة الحيوانيّة؛ لا أن يفلتوا علينا الأجهزة لمجرّد أن طرحنا ضرورة الزواج المدني [كانت التهمة: الدعوة إلى زواج المسلمة من المسيحي الكافر]؛ لا أن يضعوا الجهاز الإعلامي الرسمي في خدمة تيارات "هات السيف والنطع!".

****

لكن: هل ثمّة أمل اليوم رغم كآبة الوضع وتعبه؟

لا أعتقد إطلاقاً؛ والنيّات الطيبة لا تخلق بلداً حضاريّاً على الإطلاق.

قوانين كثيرة نرى خطوطها العريضة فنشعر بقرصة تفاؤل؛ وتأتي التفاسير لتقضي على ما في صدورنا من آمال!

مشاريع كثيرة تطاردنا نظريّاً؛ ونطاردها تطبيقيّاً!

أصوليّة طائفيّة تأكل الأخضر واليابس!

تهميش للنساء والطوائف الصغيرة التي كانت على الدوام عنصر سوريّا الخلاق!

كتم لكلّ الأنفاس: عدا ديوك الله الروميّة!

كتابتي في "الناقد" كافية لتفسير عمق مأساويّة الوضع: فحين أريد أن أعبّر عن هم وطني أو روحي أو سياسي، لا بدّ أن ألجأ إلى أميركا!

ملاحظة:

وأنا أتابع المؤتمر الذي أسموه بالإسلامي الأوّل في دمشق؛ وأنا أرى قطعان رموز الأخوان القتلة تجتاح ساحات وطني، لا أملك سوى أن أقدّم اعتذاري لوجه أبي عدنان، الذي أرتبط به كما لا أرتبط بأحد، والذي قتله الأخوان ذات ليل في شوارع إدلب!

العمالة الجميلة: 17 نيسان

www.annaqed.com

نبيل فياض، 17 نيسان، 2004

ماذا لو سألت شيخاً دمشقيّاً [إيّاك أن تسأل حلبيّاً لأنه سيقتلك] من منطقة طالع الفضّة: من أقرب إليك: جارك الشيعي أو المسيحي أو اليهودي، أم شقيقك في الإيمان في جمهوريّة ترينيداد أي توباغو؟ الردّ الحتمي، سيكون: طبعاً، شقيقي في الإيمان من جمهوريّة ترينيداد أي توباغو الإسلاميّة! لماذا، وأنت من غير المحتمل في هذا العالم أن تلتقيه يوماً؟ سيجيبك الشيخ الفصيح: لكني حتماً سألتقيه في الجنّة مع الحوريّات والغلمان وأنهار السمن والخمر والعسل والفودكا غير الكحوليّة! ولأنه من الصعب إقناع هذه النوعيّة من الناس التي تشبه ديك أبي هريرة الذي يضع رأسه عند العرش ورجليه فوق الأرض، يفضّل لك أن ترضخ للأمر الواقع وتجمع حاجياتك وأسئلتك السخيفة وترحل.

من الأمور المشتركة الكثيرة للغاية بين المسلمين واليهود: الانتماء المزدوج! فاليهودي، عموماً، له وطنان . وطن أمّ هو إسرائيل، ووطن أب هو الوطن الذي يعيش فيه . إذا كان يعيش خارج إسرائيل. المسلم، بالمقابل، له وطنان: وطن أم هو دار الإسلام، ووطن أب هو دار الحرب . إذا كان يعيش في بلد غير إسلامي. وقد التقيت بكثير من الإسلاميين المقيمين في الغرب، الذين يعتبرون أن إقامتهم هناك مجرّد رحلة لجمع النقود . الجزية . من الكفّار والعودة إلى دار الإسلام، للاستعداد من ثم لغزو دار الكفر ومحق الإلحاد في وطنه.

في الإسلام . واليهوديّة . لا يوجد إنسان ولا إنسانيّة: فيهما مؤمن وكافر، بني إسرائيل وغوييم. الكافر، إسلاميّاً، أنواع: واحد يحقّ له العيش كأحد أنواع الحيوانات غير الكريمة، وهذا ممثّل في ما يسمّى "أهل الكتاب"، أي المسيحيين واليهود؛ والآخر لا يحقّ له العيش بأية حال، وهذا الصنف يتضمّن كلّ من هو من غير أتباع الديانات "الشرق . أوسطيّة" الثلاث.

في الإسلام . واليهوديّة . لا يوجد انتماء وطني ولا قومي، بعد أن أثبتنا أن الإنساني مفقود أصلاً. في الحرب التي دارت في يوغسلافيا السابقة، كنّا نسمع التسميات التالية: صرب وكروات ومسلمون! أي أن الإسلام هو الهويّة القوميّة . الوطنيّة . الإنسانيّة لمن هم غير صرب ولا كروات. في إسرائيل، بالمقابل، اليهوديّة هي الهويّة القوميّة . الوطنيّة . الإنسانيّة لأتباع هذا الدين. من هنا، فمن الطبيعي أن يرفض المسلم السوري أو المصري، مثلاً، أن يكون "وليّ" أمره غير مسلم، بل إنه يفضّل ولي الأمر المسلم غير السوري أو المصري على ولي الأمر السوري أو المصري غير المسلم.

إنّ ظاهرة هامّة جدّاً مثل الجماعات المعادية للحروب، التي يمكن أن تحشد مئات ألوف الناس في شوارع الغرب ضدّ قادة المجتمعات الغربيّة حين يفكّرون بشنّ حروب على مجتمعات أخرى – كما كانت الحال في الحرب الأخيرة على العراق . لا يمكن أن تصادفها في المجتمعات الإسلاميّة: فالمسلمون لا يمكن أن يقفوا ضدّ مسلم حتى وإن كان عدوانه واضح المعالم. وليس موقف الشعوب الإسلاميّة الإرهابي من قتل الأبرياء في 11 أيلول غير مثال صغير يمكن إضافته إلى أمثلة لا حصر لها.

بالمقابل، والحقّ يقال، فاليهود، بسبب انفتاحهم الكبير على الغرب، إلى درجة اعتبارهم أنفسهم كياناً غربيّاً في الشرق الأوسط، أفرزوا ظواهر هامّة خرجت من قوقعتها الذاتيّة إلى الأفق الإنساني الأرحب. من هنا، فليس من المستغرب أن نجد بين الإسرائيليين من يتظاهر مع الفلسطينيين، رافعاً العلم الفلسطيني ضد ممارسات إسرائيليّة

غير إنسانيّة؛ ليس من المستغرب أن نجد بين الإسرائيليين ظواهر رائعة مثل شولاميت آلوني وتامار غوزانسكي؛ مثل إيلان بابيه ويسرائيل شاحاك؛ مثل مردخاي فعنونو وآفي شلايم: لكننا، طبعاً، لا يمكن أن نجد بين المسلمين نوعام تشومسكي أو ليني بيرنر أو يسرائيل فنكلستاين أو العظيم زئيف هرتسوغ واحداً.

الشتم والطريق إلى الشهرة:

عندما قدمّت كتابي الأوّل . أجده الآن مفعماً بالبساطة . في النقديّة الاجتماعيّة التاريخيّة الإسلاميّة، حوارات في قضايا المرأة والتراث والحريّة، صارت الردود عليه الصرعة الأدبيّة في تلك الفترة لكلّ هاو للشهرة: وهكذا، صدر في دمشق، على حدّ علمي، أكثر من أربعة أعمال تناقش ما طرحته في العمل. ولولا تدخّل البوطي، صنيعة الأجهزة، عند الذين نعرفهم كلّنا، لاستمرّت صرعة الردّ على ما أطرحه من آراء نقديّة حتى ينفخ عمّنا ميخائيل في ساكسفونه!

الآن، يبدو أن صرعة الشتائميّة كطريق إلى الشهرة عادت من جديد، بأسلوب آخر؛ فقبل أشهر أصدر كاتب سوري من منطقة ريف دمشق، بلدة جيرود [أسوأ بلد دخلته في هذا العمر غير القصير] تحديداً، كتاباً حول تاريخ تلك البلدة الأسطوريّة. وكان العمل مليئاً بالهجوم علينا كأسرة تنتمي إلى تلك الطبقة المنقرضة المسمّاة بالأغوات: كان الهجوم أخطبوطي الروح والشكل . أخلاقي اجتماعي طبقي ديني. وقبله بسنوات كتب جيرودي آخر من الطبقة المسمّاة بالفلاحين [كالعادة، أوصله التسلّق البعثي إلى موقع هام في الإعلام] مسلسلاً أسماه هجرة القلوب إلى القلوب، تناول بالنقد غير المنطقي مجموعة من أهلي في المنطقة. ولمّا طرح أحد أقاربي مسألة مقاضاة الكاتب والمسلسل، كان رديّ بأن القضاء السوري الأشهر من أن يوصف لن يخرج لنا الزير من البير؛ إضافة إلى أن شتمنا من هؤلاء وسام أجمل في هذا الزمن الانتهازي الوقح.

قبل أيام، أصدر الكاتب الأوّل عملاً عن المجاهدين الذين حاربوا فرنسا: بلغتي الخاصّة، مجموعة قطّاع الطرق الطائفيين المسكونين بهاجس كره الحضارة. الجميل في هذا العمل أنه امتلأ هو الآخر باتهامات لا حصر لها لنا كعائلة، يمكن تلخيصها بجملة واحدة: العمالة لفرنسا!

واذلاّه يا تغلب!.. وامعتصماه!.. واخجل الأحرار من قريش إن وجدوا!

كليبرالي لا يشقّ له غبار، تشكّرت الكاتب على حضوره لإهدائه العمل إليّ! كان الرجل متلعثماً وهو يقدّم كتابه إليّ؛ وحين قرأت النص، فهمت السبب، رغم أن النتيجة عندي كانت معاكسة تماماً لما توقّع! كان فرحي بالتهم الرائعة الموجّهة إلينا لا يجارى: وهل هنالك تهمة أجمل من التعامل . لا العمالة . مع الفرنسيين؟

فرنسا جان بول سارتر وموريس ميرلو بونتي وألبير كامي وسيمون دو بوفوار؛ فرنسا أراغون وإيلوار ومارسيل بروست وكوليت؛ فرنسا فرانسواز ساغان وإينوك إيميه وجورج موستاكي؛ فرنسا إديت بياف وبريجيت باردو وإيزابيل أدجاني؛ فرنسا شانيل وإيف سان–لوران وتيد لا بيدوس: باختصار، فرنسا الجمال والعشق والحريّة؛

فرنسا الحضارة التي هطلت ثلجاً ربيعيّاً على البادية السوريّة بعد التجفاف التركي الطويل المقرف؛ فرنسا المدنيّة التي أنشأت للمرّة الأولى في التاريخ السوري جسوراً وسدوداً وشقّت طرقات وأشادت مدارس حديثة وخلقت جوّاً سياسيّاً نحن بأشد الحاجة إليه اليوم؛ فرنسا الحريّة التي كان التظاهر في زمنها فعلاً أقل من عادي؛ فرنسا الجمال التي علّمت طبقة سوريّا ولبنان البورجوازيّة كيف تأكل وتلبس وتحبّ! ويتهمون أصدقاء فرنسا ومحبيّها من السوريين واللبنانيين بالعمالة؟!

ماذا عن عملاء بن لادن والطالبان والوهابيين من السوريين واللبنانيين . وما أكثرهم هذا الزمان!؟ ماذا عن أنصار البشاعة والقتل واحتقار كل ما يذكّر بالحياة؟ ماذا عن تجّار الحقد والكراهية ورفض الآخر؟ ماذا عن مروّجي العدائيّة والكذب المقدّسة؟ ماذا عن شراذم عصابات الألوهة، كالأخوان المسلمين؟ ماذا عن دعاة خنق

النساء والحريّة وطلاء الأظافر؟ ماذا عن مسوّقي الانتحار المقدّس ونقل مركز هذا العالم الأجمل إلى دنيا عذاب القبر وجهنم الحمراء وغلمان الجنّة؟

فقط: أعيدوا النظر قليلاً بتعابيركم الغبيّة . فحين يخيّر الإنسان بين أندريه جيد وأيمن الظواهري؛ حين يخيّر بين صوفي مارسو وزينب الغزالي؛ حين يخيّر بين سيرج لاما وأبو مصعب الزرقاوي؛ حين سيخيّر بين جين مورو وصافيناز كاظم: سيكون من الغباء التّام أن يفعّل هنا عواطفه القوميّة أو الدينيّة!

حين أفكّر بيوم الجلاء السوري؛ أتساءل: هل أشكر السوريين أم أغفر لهم؟

================================

من يغتال إلهنا الأخير؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 10 إبريل 2004

أيهما يا ترى: هل الإله مجرّد خطيئة إنسان، أم الإنسان مجرّد خطيئة إله؟ (نيتشه)

أهورا مازدا؛ عشتار؛ بوذا؛ براهما؛ بعل؛ أماتيراسو أوميكامي؛ الله؛ أودن؛ يهوه؛ ثيو؛ يسوع المسيح؛ ميثرا؛ طاووس ملك؛ إيل.. إلخ! أسماء لا تنتهي لآلهة عبدها الناس في مختلف أصقاع الأرض؛ بعضها كان حظّه أقوى من حظّ غيره، فاستمرّ في التواجد؛ وبعضها الآخر لازمه سوء الطالع أو انتهت صلاحيته، مثل بعل أو ميثرا، فانتهت عبادته، وإن بقي شيء من طقوسه ولاهوته عند هذا الإله أو ذاك!

من أهم الفلاسفة وعلماء الاجتماع الذين تركوا في ذاتي أثراً لا يمحى، والذين عرفتهم من دراستي المتواصلة لنيتشه، فريدريش ألبرت لانغه (FRIEDRICH ALBERT LANGE, 1828-1875)، المفكّر الألماني البارز، المجهول للقرّاء باللغة العربيّة، صاحب الكتاب الهام للغاية Geschichte des Materialismus! هذا الكتاب الهام، الذي ترك عند نيتشه بصمة أبديّة، لعبت دوراً محورياً في صوغ الفلسفة النيتشويّة، التي كانت الإلهام لفلسفات أخرى عرف بعضها انتشاراً شعبيّاً في النصف الثاني من القرن الماضي! كان ملخّص كتاب لانغه الهام هو أن وجود الإله أو عدم وجوده مسألة لا يمكن للعقل البشري البت بها، لأن وسائله المعرفيّة وصول إلى الألوهة غير كافيّة! قد يكون ثمّة إله: وقد لا يكون! لكن أدواتي البشريّة للتواصل معه، إذا استثنينا الخيال، قاصرة. من هنا، فالحكم المطلق في قضايا الماوراء ليس أقل من خطأ مطلق. . وكنت عالجت مقولات لانغه بنوع من التفصيل في كتابي، نيتشه والدين! (مع ميشائيل موترايش وشتيفان دانه).

باعتراف الجميع، ما من مفهوم عن الإله يمكن أن يكون موفياً بالغرض تماماً: فالإله مختلف عن بندقيّة الصيد التي يمكن توصيفها بدقّة تفصيليّة! الإله مفهوم متصوّر، وبالتالي فالمخيّلة هي العنصر الحاسم في خلقه! وإذا كان الإله حقيقة مادّية أو طبيعيّة، لكان من الواجب أن تتحد الآراء كلّها في تصوّره أو وصفه، لا أن تصل مفاهيمها التصوّريّة له إلى حدود التناقض! ليس هذا فقط، بل إنّ مفهوم الإله التصوّري الذي يختلف من مكان إلى مكان، ومن بيئة إلى بيئة، يختلف أيضاً في المكان ذاته بين زمان وآخر، بين حضارة وأخرى.

إذا انتقلنا إلى الأمثلة التوضيحيّة، يمكن أن نقول إن المفهوم المسيحي للإله، الأقانيم الثلاثة، متناقض بالكامل مع عبادة يهوه التوحيدية المطلقة، التي نشأت المسيحيّة على تربتها! بالمقابل، فمفهوم الماوراء عند البوذيين متناقض للغاية مع مثيله عند الهندوس، الذين نشأت البوذيّة بينهم. من ناحية أخرى، فالمفهوم الإسلامي للإله، الذي يشبه إلى حدٍّ ما مثيله عند اليهود، يتناقض حتى التكفير مع الأقانيم المسيحيّة الثلاثة. مثل ذلك أيضاً التناقض في اليابان في مفهوم الماوراء عند الديانتين الأهم هناك: أي، الشنتو والزن! وإذا ما حاولنا الآن أخذ الجانب الزماني بعين الاعتبار، عبر أمثلة محليّة للغاية، لأمكننا القول، إنّ سوريّا الكبرى عرفت من الآلهة، على مر الزمان، أكثر مما عرفته أية منطقة أخرى: فمن التعدّديّة الإلهيّة الصريحة زمن السومريين والآشوريين والبابليين وغيرهم، مروراً بالثالوث المسيحي، وانتهاء بالتوحيد الإسلامي المطلق!

لم تكن الآلهة محليّة كلّها: ففي بعض الأحيان كان أحد الآلهة يهاجر من موطنه الأصلي إلى مواطن أخرى تقرب أو تبعد! على سبيل المثال، كان ميثرا، إله الشمس الفارسي الذي قد يكون من أصول هنديّة، أحد الآلهة الذين صدّرتهم إيران إلى بعض حوض المتوسّط، خاصّة سوريّا، وما تزال آثار ميثرا ماثلة للعيان في كثير من

طقوس المسيحيّة، خاصّة عيد الميلاد! من سوريّا الكبرى خرج أشهر الآلهة في تاريخ العالم حتى اليوم وأكثرها انتشاراً . الثالوث المسيحي. وقد امتدّ تواجد هذا الإله الهام من أدغال سيبريا إلى مجاهل الأمازون، مروراً بالقارّة السمراء وجزر العالم النائية. ومن شبه جزيرة العرب خرج إله آخر يمكن اعتباره اليوم الأكثر تنافسيّة لإله الأقانيم الثلاثة المسيحي الشهير. فإله المسلمين، الله، وصل حتى الصين وساحل أمريكا الغربي، بما يفوق في اعتقادنا أقصى ما كان يمكن لمحمّد تخيّله!

الإله، كمفهوم أنتجته المخيّلة البشريّة، يعبّر في نهاية الأمر عن الواقع الثقافي . الحضاري للشعب الذي أنتجه. فمن المستحيل، طبعاً، أن نجد في شبه جزيرة العرب إله ثلج كالذي نجده في بعض الميثولوجيّات؛ ومن المستحيل أيضاً أن نصادف إلهاً للبحر في منغوليا أو إلهة أنثى في مجتمع أبوي. الإله المسيحي، مثلاً، هو نتيجة زواج متقلقل بين الفلسفة اليونانيّة والتصوّف الأسيني؛ مع طغيان ترّجيحي لليوننة الأقوى حين انتشرت المسيحيّة في صفوف وطن الفلسفة. الإله اليهودي، من ناحية أخرى، تعبير صارم عن مشاعر شعب بدوي عاش مسكوناً بمقولات الحفظ الذاتي! الإله اليهودي الجاف القاتل المحارب المتعطّش دائماً للدماء، كما يبدو من بعض أعياد اليهود الدينيّة وكف اليدّ الحمراء فوق أبوابهم، ليس أكثر من شكل بدائي للألوهة دخل بطريقة ما زمناً مختلفاً للغاية عن زمن نشأته الأولى. وقد أدرك معظم اليهود هذه الحقيقة فاستنبطوا مفاهيم للإله أكثر حضارة من يهوه القديم وملاءمة للعصر! وكان القباليّون بشكل إلههم الشهير من أوائل الذين أدخلوا تعديلات جوهرية على يهوه المفهوم: دون أن ننسى من ثمّ الآثار الخارجيّة القويّة لمجمل مفاهيم غير ذات علاقة ببيئة يهوه الأصليّة في مفهوم الإله القبالي. في العصر الحديث اجتاز مفهوم يهوه تغييرات جذريّة مع تأسيس واحدة من أهم طوائف العالم عقلانيّاً: أي، اليهوديّة الإصلاحيّة. في اليهوديّة الإصلاحيّة لانت حدود الإله وتأنسنت تقاطيعه المخيفة واخضرّ قلبه المتصحّر. وكان ذلك نتيجة التفاعل الحتمي بين العقل الأشكنازي والبيئة الألمانيّة المتفقّة وقت أينعت تيارات الفكر في وطن الفلاسفة!

الإله المسيحي، حين دخل إفريقيا، أحملوه من روح القارة السمراء الكثير. صارت الليتورجيا أقرب إلى الألحان الزنجيّة الصاخبة؛ صار يسوع إفريقيّاً والعذراء سوداء؛ بل زاوج الزنوج بين المسيحيّة الوافدة وثقافتهم المتوارثة لتخرج إلى الوجود أجنة أديان جديدة، كما في كوستاريكا مثلاً، مختلفة كثيراً عن الأصل الفلسطيني القديم. وفي كوريا عرف الإله المسيحي تعديلاً حمل الروح المحليّة عبر ما يسمّى بالحركة المونيّة (راجع كتابنا عن صن ميونغ مون). المورمونيّة، كما عشناها بين لبنان وسوريّا لفترة غير قصيرة [لهم كنيسة في المكلّس في بيروت الشرقية، وكانت لهم كنيسة في منطقة الروضة في دمشق]، ليست في نظرنا أكثر من تطعيم للمسيحيّة البروتستانتيّة بالأعراف المستحدثة لمستوطني الولايات المتحدة من البيض!

من هنا فقد كنّا على الدوام ضد تبشير . بمعنى أوضح: فرض مفهوم آخر لإله غريب . من يسمّونهم بالشعوب المتخلّفة: خاصّة وأن هؤلاء يمتلكون مفهومهم الخاص للألوهة، النابع من بيئتهم الطبيعيّة-الثقافيّة! وحين نفرض على هؤلاء مفهوماً جديداً للألوهة غريباً عنهم، فنحن نحدث كسراً في ذواتهم المعرفيّة ليس من السهل إصلاحه. . خاصّة وأن غالبيّة المبشّرين كانوا يحملون في دواخلهم روحاً استعلائيّة باعتبارهم . اعتقادهم الخاص . يمتلكون المفهوم الأكمل للألوهة.

في الإسلام، عرفنا تحويرات فلسفيّة-حضاريّة لمفهوم الإله مع زواج هذا الدين الرعوي بالتيارات الفكريّة الزراعيّة يونانيّة الجذور . أحياناً فارسيّة . في بلاد الشام تحديداً؛ من هنا، يمكن أن نفهم نشوء ما سمّي بالحركات الباطنيّة، الإسماعيليّة والعلويّة والدرزيّة بشكل خاص، التي أرادت تعديل الشكل غير الحضاري لمفهوم الإله

البدوي. لكن هذه الحركات، كونها نشأت خارج منطقة "الأمان" الفلسفي، تراجعت حتى تخوم الاضمحلال: بعكس اليهوديّة الإصلاحيّة التي أينعت وأزهرت في ألمانيا.

حتى الآن لم يجرؤ أحد على طرح مقولة أن الإله بشكله الإسلامي التقليدي: الإله الجبار العنيد القاتل المنتقم المبيد . لم يعد يناسبنا كشعب يتلمّس طريقه نحو الحضارة. وتغيير مفاهيمنا للإله لا يعني تغييرنا للإله أو رفضنا لوجوده، فذلك خارج نطاق قدراتنا البشريّة المقيّدة. مفهومنا للإله مختلف إبستمولوجيّاً عن الإله ذاته، الذي لا يستطيع أحد البرهان بالدليل القاطع على أن مفاهيمه عنه هي الأصح. الإله الإسلامي الذي ورثناه من زمن البداوة والقتل والسبي والجواري والتسرّي؛ الإله الإسلامي الجامد المعادي للنقد وحرية الحركة والتعبير؛ الإله الإسلامي المقيّد لعابديه عقلاً وحياة وروحاً، صار لابدّ من تعديله جذريّاً.

العلاقة بين الإنسان ومفهومه للإله جدليّة واضحة؛ فالإنسان ينسج مفهومه للإله من واقعه الخاص الزماني المكاني، وحين ينقل هذا المفهوم للأجيال التي قد تأتي بعده فهو يسرمد عبر هذا المفهوم الجامد زمانه ومكانه الخاصيّن. لقد جاء محمّد بمفهوم لله لا يخرج عن واقعه البيئي، ونحن حين نتبنّى هذا المفهوم دون تساؤل فنحن إنما نسجن أنفسنا ضمن تفاصيل لا علاقة لنا بها حضاريّاً. الإله زمن محمّد عكس تصوّرات النبي العربي لما يحيط به؛ وحين نتبنّى إله محمّد دون تغيير فنحن إنما نرمي ذواتنا بنوع من الشيزوفرنيا الحادّة خارج زماننا ومكاننا، في بيئة مغايرة بالكامل عمّا نعيشه الآن.

مفهوم الإله يجب أن يعبّر عن واقع شعبه؛ وحين يتبنى شعب مفهوم إله غريب عن واقعه بالكامل، فهو يحكم على نفسه بعدائيّة الصيرورة: وبالتالي السكون الانتحاري.

نبيل فيّاض.

****

رحيل إله الفرح:إلى العيد!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 2 مايو 2004

حين اتصلت بالأباتي الصديق جوزيف قزّي أستاذ الحقائق الصعبة، صرخ صوته في وجهي بحزن واقف: "رحل أمبروسيوس حاج"!! وراحت الصور تتلاحق بين عينيّ وبصمات أعصابي ورائحة أيام جعيتا وصوت المحبّة: حتى التلاشي!

أمبرسيوس حاج: رحل!؟

هالله هالله يا تراب عنطورة   يا ملفى الغيم وسطوح العيد

ستّي من فوق، لو فيي زورا   راحت ع العيد، والعيد بعيد

وكأني أرى الآن سبابته الثخينة، ونحن في الطريق إلى بيت أخته الرائعة سعاد في عنطورة المتن، تشير إلى قلعة معلّقة قريباً من الله: "هذا هو بيت جدّة منصور، التي قال إنها راحت إلى العيد"! ولمّا غنّتها فيروز، رحنا كلّنا إلى العيد!

الأباتي أمبروسيوس حاج، أستاذي ومعلّمي وصديقي وأخي الأقرب: رحل إلى العيد! وبقيت وحدي أجاهد الحزن وغيلان الانتظار!

أمبروسيوس حاج: سيّد الفرح في الكسليك؛ هل باستطاعتي، أنا ورينيه وماي وإيفون وشارلوت، أن نسمح للحزن بامتلاكنا للحظة وقت رحيلك إلى العيد؟!

كم يبدو هذا اللبنان جاحداً ومزعجاً ومسكوناً بالأصوليّة والكفر حين يرحل إلهه الأخير إلى العيد بصمت: هل يعقل أن لانعرف برحيل الآلهة من خارج الصدفة؟

كم تبدو جرائد لبنان وصحفه ومجلاّته ومحطاته التلفزيونيّة الغبيّة أصلاً تافهة وهي تلاحق وجوه الفاسدين وتجّار البشر ومسوّقي الدعارة والسوليدريين بلهفة مصطنعة، وتسكت كالحيرة عن رحيل آخر الطاهرين في سوق النخاسة السعودي إلى العيد! وكأن الاشارة السريعة الخافتة إلى براءة أمبروسيوس، إلى نقائه الأبدي، إلى وجهه الذي لا يحتله غير الحب، يمكن أن تدين هذا الإدمان على السقوط في وطن الحضارة الهاربة من سنابك خيول البدو!

كم يبدو الزمان لصّاً وهو يسرق من الرهبنة اللبنانيّة البلديّة المارونيّة، أعرق مؤسّسة حضاريّة في شرق الأصوليّة والتخلّف، في هذه المرحلة الأصعب، أجمل ما أنجبت من أبناء: وإن باتجاه العيد! كم سيبدو الكسليك موحشاً حين يمكن أن نخطو إليه دون أمبروسيوس وضحكته أميرة الضحك!

من فيكم يعرف، في زمن الحريري وجواري الخليج وقيانه من اللبنانيّات، من هو أمبروسيوس حاج؟ لا أحد! ففي زمن السقوط الأسوأ، لا مكان في الواجهة إلاّ للقاذورات والتلوّث! في زمن الحريري الأسوأ، لا مكان في الواجهة للبراءة أو الطهارة أو القداسة: صفات أمبروسيوس الأبرز!

هل تذكرون ذلك الصوت الأنقى الذي كان يتسلّل من إذاعة الحبيب نور، المسمّاة صوت المحبّة، كلّ يوم مذكّراً الناس بأن الطائفيّة وكراهية الآخر والانعزاليّة أمراض لا سبيل لمن لامسته سوى البحث عن دواء ناجع للشفاء منها: ومن أفضل من أمبروسيوس حاج قديساً ينثر في خلايا النفس البشريّة رذاذ الحبّ الواقي من كافة أنواع الضعف المرضيّة؟

يذكر الناس إيلي حبيقة، وجهاً مارونياً كريهاً، قتل أهلنا الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا؛ لكن أحداً لا يذكر أمبروسيوس الذي ذهب إلى الفلسطينيين عقب المذبحة حاملاً إليهم الحبّ والمساعدات والوجه الحقيقي للمسيح والمارونيّة!

يذكر الناس المقاتلين الطائفيين من المسيحيين، لكن أحداً لا يعرف أن أمبروسيوس حاج كان يتنقّل من ثكنة إلى ثكنة داعياً الشبيبة إلى عدم السماع لأولئك الذين يخدعونهم بالقول إن هنالك مؤامرة لإنهاء المارونيّة من الشرق؛ فالربّ وقديسوه الذين حموا المارونيّة والمسيحيّة عموماً ليسوا بحاجة إلى البشر الفانين كي يحموهم؛ في جدليّة الإله–الإنسان: الإله هو الأقوى وبالتالي فهو الذي يحمي؛ لا العكس – كما حاول قادة الميليشيات تضليل العوام، ومايزالون.

إله الموارنة، كما عرفناه في عينيّ أمبروسيوس، ليس إلهاً طالبانياً بحاجة إلى بن لادن لحمايته: إله الموارنة، الثالوث المنسوج بالمحبّة، ينفر من طعم الدم ورائحة صليل السيوف وموسيقى الرماح المتعاركة!

إله الموارنة، كما بعثره أمبروسيوس في خلايانا، ليس إلهاً حريريّاً طالبانيّاً يتغذّى على الكراهية والحقد والطائفيّة؛ إله الموارنة، وجود حب يلفّ الكون بغلالات من غيريّة وانمحاق في الآخر؛ مطلق آخر!

الذي تجسّد مرّة في بشر ليؤلّه البشر. كما أعشقناه أمبروسيوس. إله الموارنة يفتح الأبواب والاحتمالات أمام الأنا لتحلّق في عوالم المطلق، وتخرج من قيود الجسد الراحل نحو عدن الألوهة التي لا تزول!

إن شربل والحرديني ورفقة يبسملون اليوم للقاك، ونحن المتشظيوّن في غيابك، يا ربّ الحضور الأجمل؛ نحن الذين طحننا وجعك قبل رحيلك الأخير؛ تسرطنت آلام معدتك في قلوبنا، ونحن نصلّي لكلّ الآلهة كي تسكن سرطانك عيوننا!

هل تذكر، يا سيّد القداسة، وقت عدت من إسرائيل، حيث كنت راعي الكنيسة المارونيّة هناك، وسألتك عن الطريقة المثلى للتعامل مع اليهود؛ فقلت: إذا أردت أن تقتل اليهودي؛ أحبّه! اليهودي يكون على كراهيّة الآخر له، أو ما يعتقد أنه كراهيّة الآخر له؛ وحين تحبّه تسحب منه مبرّر كينونته!؟

هل تذكر وقت أدمن جورج المخدّرات فاخترتُ مغادرته النهائيّة؛ فاحتججت بصمتك الرحيم، أن جورج هرب إلى الفراغ لأن ما من أحد يحبّه؛ وحين يمكن أن يملأ أحد عالمه بشيء من الحب، سيترك؛ وأردتني أن أكون الثقل الذي يطرد الخواء؛ وهكذا كان؟!

هل تذكر تلك الفتاة التي أدمنت الدعارة وطلبت منّا مساعدتها؛ ولمّا أشهرتُ مرّة في وجهها سيف غضبي؛ قلت لي: هذه أفضل منك، إنها تعطي الآخر ذاتها، فماذا تعطيه أنت: الثقافة والفلسفة والكلام المنمّق؟ هذه لو كانت في ظرفك لما سقطت، إن كانت ساقطة أصلاً!!!

هل تذكر تلك المرأة التي أوقفتك في الطريق إلى طاميش؛ تسألك نقوداً لعشاء أطفالها؛ ولمّا كنّا لا نتملك سوى ذاتينا، بعت بنزين سيارتك المرسيدس الخضراء، التي سرقها ضابط سوري في زحلة، وأعطيت المرأة النقود؟

هل تذكر قدّاس المشاركة في جعيتا، وكان أندريه وغرازي قد حضرا فقط للسخرية مما اعتبراه مسرحيّة غبيّة؛ ولمّا سألتك بعدها أن تعذرهما عن سوء التصرّف الطائش؛ قلت: لم أشعر بذلك قط، لأني حين أكون في قلب الله لا أشعر بالعالم حولي!؟

هل تذكر تلك الراهبة اليسوعيّة التي احتجّت بغباء على تناول أطفال مسلمين في أحد قداديس ساحل علما؛ فضحكت وقلت لها: ظهور المسيح ألغى الفوارق بين الناس؛ كلّ الناس مسيحيّون لكن مواقفهم من المسيح متباينة؛ ودم المسيح وجسده ليسا لأحد دون غيره!

ها أنت ترحل إلى العيد: ونحن ننتظر لقاك الأجمل، ياسيّد الأعياد! ها أنت، ترحل كما وعدتني مرة، لحزن أوجاعي، قبلي!
وتتركني آيلاً
للموت، في عالم لا يلفّ عينيه غير الوحشة!

ها أنت ترحل؛ تغادر بيت شباب؛ تحمل معك ناقوس فرح تسعد به الله الذي أكأبه أولئك الذين أتعب في خلقهم!
****

لماذا تصادر أحلامنا؟

www.annaqed.com

نبيل فياض، 7 إبريل 2004

قد لا يعرف الناس عموماً أن لا علاقة لي سياسيّة أو طائفيّة بأي منظمّة أو حزب سياسي أو طائفة أو جماعة دينيّة، لا في الداخل ولا في الخارج، لا ضمن الدولة ولا في صفوف المعارضة! وموقفي النقدي من البعثيين أو الناصريين أو الإسلاميين على اختلاف مشاربهم لا يخرج عن إطار الشعور بأن هذه التيّارات غير الليبراليّة أعادت سوريّا سنوات إلى الوراء لأنها أقصت كافة أشكال المعارضة التي لا يمكن خارجها دفع الوطن في صيرورة التحضّر الهامّة عبر دياليكتيك نقدي بناء!

ابتعادي عن العمل السياسي وإصراري على العيش في قرية شبه بدويّة تفتقد أدنى متطلّبات الحضارة . مع ذلك، فأنا أعيش فيها علاقات إنسانيّة بلغت من روعتها أنني أندم بالفعل على هذا الانغماس الذاتي في مسائل إشكاليّة كنت بغنى عنها، لأن هذا الشعب المتخلّف الأبعد عن الحضارة، مثقفون وغير مثقفين، لا يمكن إعادته إلى الزمان الذي خرج منه مرّة وإلى الأبد، فهو محمّي منه بصدفة الإسلام والعقليّة القوميّة المتأسلمة . سببه إمكانيّة ابتعادي فيها عن التماس المباشر مع مراكز القوى التي لا تساعدني أوضاعي الصحيّة غير الجيّدة على تحمّلها.

ذات يوم، قبل خمسة عشر عاماً، كان ثمّة حديث ثقافي جمعني بباحث زائيري، اسمه كافيتا كاميس؛ سألته: هل لديك أدنى أمل بتحضّر هذه الشعوب الناطقة بالعربيّة التي تتخذ من الإسلام ديانة لها وعقيدة، مقارنة بشعوب القارّة السوداء؟ قال الإفريقي المعتّق، الذي أمضى سنوات ست في سوريّا: من الصعب جدّاً تخيّل مشاركة المسلمين الناطقين بالعربيّة في أية مسيرة حضاريّة على المستوى العالمي؛ فهؤلاء محميين بعقيدتهم اليابسة ضد كافة أشكال الحداثة والتطوير! هؤلاء يعتقدون أنهم يمتلكون العقيدة الأهم في العالم: ليس هذا فقط، بل هم ينظرون إلى عقائد الآخرين وتصوراتهم للحياة والكون باعتبارها الخطأ النهائي! من هنا فإمكانيّة تأثر هؤلاء بغيرهم، أو قبولهم لأي تصوّرات لا تتناسب مع منظومتهم المعرفيّة التي تمّ نقل مركز جاذبيتها خارج هذا العالم نحو عالم الماوراء، تبدو شبه مستحيلة! الأفارقة عموماً، باستثناء الذين تأسلموا منهم، ليسوا نهايات مقفلة في مواجهة العصر! إنهم يعتقدون إجمالاً أن ثقافتهم بدائيّة، وحضارتهم بدائيّة، لذلك فهم بحاجة للآخر كي يدخلوا الزمان من الباب الواسع! من هنا لا نستغرب أن تتسلّل إليهم القيم الإنسانيّة المعولمة من حقوق الإنسان إلى الديمقراطيّة حتى التعدّديّة!

كان هذا، كما أشرت، قبل خمسة عشر عاماً! فهل صدقت نبوءة هذا الإفريقي المعتّق وتحليلاته؟ بنظرة سريعة إلى الخارطة الإفريقيّة نكتشف دون صعوبات أن الديكتاتوريّات الشهيرة بين السود تسقط واحدة بعد الأخرى، ليحلّ مكانها أحد أشكال الديمقراطيّة الفعليّة، بين شعوب كانت قبل أقل من قرن تشوي البريطاني الأشقر دون ميكرويف! بالمقابل، فلو راجعنا واقع المسلمين الناطقين بالعربيّة لوجدنا الحالة تجاوزت الفاجعة بمسافة طويلة. عراق الوحدة والحريّة والاشتراكيّة صار مندبة شيعيّة أصوليّة يحكمها مراهق متعة وعميل كردي ومتطرّف فارسي؛ في الكويت المفتونة بالتأمرك القشوري ما تزال النساء تعامل كنوعيّة غبيّة من ماعز الجبال؛ السعوديّة تحاول الخروج . عبثاً . من الإرث الوهابي القذر الذي فرّخ قتلة من وزيرستان إلى برجي التجارة والبنتاغون: وأزمة قيادة المرأة للسيّارة الأهم عندهم من كل مشاكل العالم ما تزال مستفحلة؛ مصر الناصريّة والاتحاد الاشتراكي العربي؛ مصر حفلات أم كلثوم الجميلة قبل نحو ربع قرن حيث لا نساء محجّبات ولا رجال كالتيوس بلحاهم ولا فنانات

تائبات يبحثن عن مجد في الآخرة بعد أن يئسن . كلهن في سن اليأس . من استعادة مجد الدنيا؛ مصر التنوير والفن والجمال أضحت، بعد الرئيس المؤمن الراحل، موطن القبح والنقاب والرجال التيوس والفن الساقط . التائب؛ لبنان، سويسرا الشرق، صار دكّاناً فارسيّاً أصوليّاً بإدارة حزب الله العربي الإشتراكي، مع احتكار اقتصادي للبناني المتسعدن، رفيق الحريري؛ وسوريّا التقدّم والاشتراكيّة أضحت قلعة الأصوليّة الجديدة مع انهيار البنى الثقافيّة التي اشتهرت بها سوريّا بعد الاستقلال، ليحلّ محلّها ركامات حاخاميّة يتمّ تسويقها على كافة المستويات، بما في ذلك الإعلام الرسمي؛ أمّا المغرب العربي، باستثناء تونس، فلا أعتقد أننا بحاجة لأن نشير إلى ما يحدث فيه لأنه أشهر من أن يعرف.

سوريّا: لماذا؟

نحن على الأرجح لا نعيش في اليمن؛ ولا تعنينا اليمن أو السعوديّة في شيء، ففيروس العروبة القاتل لم يتسلّل إلى أوردتنا حتى الآن! نحن نعيش بين أم الشرائع، بيروت، وأقدم عواصم الحضارة في العالم، دمشق! فما هي الحال في هذين الوطنين اللذين يفترض أن يكونا حاملي شعلة حضارة الشرق؟ المثقفون السوريّون إمّا ماتوا كمداً أو هاجروا إلى وطن يضمن لهم الحدّ الأدنى من الكرامة: هل نذكّركم بالصديق الراحل سعد الله ونوّس الذي عرفت شيئاً من معاناته وقهره في أعوامه الأخيرة؛ بهاني الراهب؛ بنزار قبّاني؛ بأدونيس؛ بعزيز العظمة؛ بصادق العظم؛ ببرهان غليون، بمطاع الصفدي؟ لقد انتهت الثقافة من وطن الحرف؛ واحترف الوطن الأصوليّة! إذا كان ثمة من لا يصدّق حتى الآن، فليلق نظرة سريعة سواء على ما يسمّى بأحياء دمشق الراقية [ليست راقية ولا من يحزنون؛ فخلف سيارات المرسيدس الفارهة، يجلس أحقد نوع بدوي على الحضارة] أو الشعبيّة، حيث يبدو من شبه المستحيل رؤية امرأة لم تحجبها الشيخة منيرة أو ينقبها البوطي: بإشراف رسمي؛ من النادر التقاء رجل لم يستلبه شيخ من مومياءات العصور الوسطى ما أبقت فيه الدولة من عقل؛ من الطبيعي أن تكون الأحاديث التي تدور في كلّ الأرصفة والمحلات والطرق حول عذاب القبر، نجاسة دم البرغشة، إمكانيّة الاستنجاء بالكلينكس، ودور شيطان الصلاة خنزب: إن كنت حنفيّاً! ومن احتل الساحة "الثقافيّة" الآن، بعد رحيل وهروب آخر مفكّري سوريّا؟ تلاميذ الأستاذ أبي هريرة وحاخامه كعب الأحبار! كلّ هذا بإشراف رسمي منقطع النظير! هل تعرفون بلداً اسمه تونس؟ هذا الوطن الجميل، الذي قاده العلمانيّون نحو برّ الأمان في مغرب عربي يغرق، يفتقد تماماً التعدّديّة السوريّة اللبنانيّة التي في اعتقادنا الورقة الأهم التي أغفلها الجميع من أجل الوصول إلى وطن علماني ديمقراطي حر! تونس، رغم الغالبية المطلقة السنيّة المالكيّة، استطاعت بحكمة نظامها أن تتجاوز الأزمة الأصوليّة في حين كانت الجزائر تدفع ثمناً غالياً!

من المسؤول عن هذا الانهيار السوري؟ من المسؤول عن تلميع شيوخ الاستجمار وإقحامهم على غرف نوم السوريين ليل نهار عبر الإعلام الرسمي؟ من المسؤول عن هذا الكم من السلطات . والحصانة . المعطاة لشيوخ التطرف وشيخات الإجرام؟ من المسؤول عن تهميش الطوائف الصغيرة التي تنتهي الآن إمّا كغيتوهات معزولة لمن لا يستطيع الهجرة، أو الهجرة لمن استطاع إلى ذلك سبيلا: وأخص بالذكر المسيحيين والدروز والمرشديين والإسماعيليين؟ كيف يمكن أن نفهم السكوت الرسمي عن هذا الكمّ من الشتائم التي تكال من على منبر الإرهاب المسمّى كليّة الشريعة لكلّ من هو غير سنّي أصولي، في حين تقوم القيامة على عرض مسلسل كوميدي تجرّأ على الإشارة إلى الإلهة الصغيرة الآنسة منيرة القبيسي جلّ جلالها!؟ كيف نفسّر تحوّل وزارة التعليم العالي . راجعوا موقعها على الانترنت . إلى تكيّة عثمانيّة؟ كيف نفسّر أن تتحوّل وزارة العدل السوريّة إلى محكمة تفتيش تسحب غير السنّي من أنفه إلى سجن عدرة إذا تجرّأ على شهر رمضان، الذي ورثه المسلمون عن صوم

الحاخاميم الشهير؟ أمنيتنا أن يترجم اليهود تراثهم وطقوسهم إلى العربيّة حتى ينكشف مستور أبي هريرة وحاخامه مرّة وإلى الأبد!

لماذا نكتب؟

لسنا الآن بحاجة لموافقة أحد كي نكتب! العالم صار أوسع من أن يعتقله بعثي أو أصولي. . مع ذلك، وتجربتنا في الكتابة في لبنان وسوريّا لا تبشّر إلا بالشر، فاعتقادنا أن تضييع عشرين عاماً في الكتابة في هذين البلدين، بهدف إخراج الناس من مواخير الطائفيّة والأصوليّة، ليس أقل عبثيّة من نهايات قصص كافكا! الكتابة في زمن البوطي وآنسته القبيسيّة نوع من المتاجرة بالهواء! إن من يرى كمّ الأغنام البيض على أبواب المساجد في دمشق يوم الجمعة؛ من يرى قطعان الماعز تتراكض نحو شيخاتها في المهاجرين والمالكي والميدان، يدرك أن هذا الشعب لا يستأهل أن تبكي على أطلاله! إن من يرى المتعلميّن يتمسّحون بثياب البوطي الداخليّة يستوعب تماماً أن مجرّد الاعتقاد بخلق عقليّة نقديّة عند هذه الكائنات المستلبة لا يمكن تصنيفه أبداً ضمن نطاق العقل! الكتابة في زمن البوطي وآنسته القبيسيّة، اللذين يتسابقان على دفع الكم الأكبر من رجال سوريّا ونسائها إلى جحيم النقل، نوع من الانتحار البطيء الغبي!

الكتابة في وطن كسوريّا اليوم، رقص باليه في حقل ألغام. الكتابة في سوريّا، بغير النفَس البعثي أو الأصولي، ليس أقل غباء من وشم اسم الوطن على الرقبة بساطور! الكتابة النقديّة في سوريّا اليوم أحد أشكال المتاجرة بممنوعات ترفضها . وتعاقب عليها . الدولة والشعب!

لقد أرادوا إقصاء المفكّرين والمثقفين خوفاً على السلطة: وكالسادات تماماً، جيء بالقوى الأصوليّة لملء الفراغ الاجتماعي الثقافي . فماذا كانت النتيجة؟ أغبى كائنات الوطن تريد الآن مدّ أيديها إلى السلطة تحت رايات الأغلبيّة الساحقة! أغبى كائنات الوطن التي تمتلك المال والعلاقات تريد إقفال كلّ الأفواه الناقدة أو المعارضة تحت اسم وأد الفتن أو مقاومة مؤامرات الخارج! أغبى كائنات الوطن تدفع بالوطن كلّه إلى الهاوية عبر النفخ اليومي الدائم في كير الطائفيّة والإرهاب الكامن!

المفكّر الفعلي، المثقف الفعلي، مشروعه تنويري لا سلطوي؛ وبالتالي لا مجال للتنافس بين السلطويين ورجال الفكر . في حين أن التنافس قائم، بأحدّ صوره، بين السلطويين والطبقة الغبيّة المسمّاة بالمشايخ التي تعتقد أن إلهها أوكل لها سلطاناً دنيوياً لا يقلّ شأناً عن مثيله الديني! والاعتماد على المشايخ كبديل يملأ الساحة بعد تهجير المثقفين أو إماتتهم كيداً أو قهراً أو منعاً عن الكتابة هو مشروع انتحار للسلطة قبل المثقفين.

بعد هذا العرض المأساوي للواقع الثقافي . المعرفي السوري؛ لا بدّ أن كثيرين يتساءلون: لماذا نكتب؟ خاصّة وأن الشعب السوري محصّن بحقن البوطي وقبيسيته ضد العقل والنقد: إلا من رحم ربّك! ببساطة شديدة؛ نقول: لأننا اعتدنا العزلة منذ أيام معيشتنا في الأديرة المارونيّة التي أعطتنا الثقافة وحب الآخر دون تمييز، فحياتنا مقفلة على أقانيم ثلاثة لا رابع لها: عدوّن والبحر والثقافة؛ ولأن البحر غير موجود حيث نعيش الآن، ولأنهم لوّثوا الساحل السوري بما يستحيل ترميمه؛ ولأن عدوّن يغادرنا ثلاثة أيام في الأسبوع، فنحن بحاجة للكتابة التي تقتل الوقت في انتظار الأيام الأربعة الأجمل الباقية! وسواء أتحضّر السوريّون أم عادوا للسكن في الخيام؛ سواء صاروا من أتباع بن لادن أم من أتباع ابن زيدون: الأمر لا يعنينا، ما دام لا يقارب عزلتنا الجميلة وثالوثها الأقدس!

أزماتنا المتلاحقة مع الأمن السوري:

قناعتنا مطلقة الآن أنّ الدولة تريدنا أن نغادر حتى إلى جهنم: وإلاّ ما معنى أن نستدعى بشكل دوري منذ عامين إلى الأفرع الأمنيّة كلّها تقريباً، مع العلم . كما أشرت . أن لا علاقة لي بأية منظومة سلطويّة أو حزبيّة، لا في الحكم ولا في المعارضة؟

الدولة تعرف تماماً، عبر مخبريها الذين يملأون كلّ الطرقات، أننا نعيش عزلة غير عاديّة . ونحن سعداء للغاية بها، شريطة أن لا يعكّر مزاجها أحد . نحاول عبرها الوصول إلى أقصى درجات السلام الذاتي واكتشاف الأنا في الآخر الذي نحب!

حتى الآن لا نعرف لماذا نستدعى: وهم لا يعرفون . إلاّ إذا كان الهدف غير المعلن الإبعاد أو التوقيف عن الكتابة في الناقد!! لماذا نحن، وعشرات ألوف السوريين، يكتبون بأسماء مستعارة، يشتمون من خلالها الجميع [لمن لا يصدّق، ليقرأ ما كتبه السوريون في موقع نادي الفكر العربي عن وزير دفاعهم]، بألفاظ غير موجودة غالباً في أي من القواميس المعروفة؟ . لماذا، نحن تحديداً، تقضّ كتاباتنا مضاجع أصحاب المعالي؟ هل كلّ السوريين ينسّقون مع القوى الأمنيّة حين يكتبون؟ وهل تعرف القوى الأمنيّة ذاك الذي يكتب باسم الشوك الدمشقي أو أولئك الذين يقفون خلف موقع الاتحاد الإسلامي لطلبة سوريّا؟

ملاحظة:

في ظل العته الديني السائد، الذي وضع أسسه البوطي ليس دون موافقة مبطّنة، أتوقع أن نشهد بعد الاتحاد الإسلامي لطلبة سوريّا اتحادات أخرى مسيحية وعلويّة ودرزية ويزيديّة ومرشديّة وإسماعيليّة، وبعدها اتحادات بعثيّة وسورية قوميّة وشيوعيّة وناصريّة ومجتمع-مدنيّة، وبعدها اتحادات شمّرية ورولّية وفواعريّة وعقيداتيّة.. إلخ! ومن يعش ير!

في السنتين الأخيرتين فقط زرت الأجهزة الأمنيّة التالية: الأمن السياسي؛ الأمن الجوّي؛ والأمن العسكري بأفرعهم الكثيرة! ولا أعرف حتى الآن الجهة الخارجيّة التي يمكن أن أتهم بالتخاطب معها أو العمل لأجلها! قبل أكثر من شهرين، زرت الأمن السياسي بسبب مقالات الناقد: وكانوا أكثر من لطفاء، خاصّة أحد الضباط الذي أكنّ له حبّاً واحتراماً كبيرين . ولا أنافق هنا لأني لست بحاجتهم، لا هم ولا غيرهم! بعدها بفترة قصيرة، زارني مندوبان لفرع فلسطين في الأمن العسكري وطلبا بأدب أن أحدّد موعداً لزيارة الفرع؛ فرفضت لأسباب صحيّة، ولأني لا أقوم بأي شيء مما يمكن تسميته العمل ضد مصلحة الوطن: إلا إذا كان الدفاع عن المضطهدين ومحاربة الطائفيّة و شيوخ الإرهاب والتطرف اعتداء على المصلحة الوطنيّة العليا! ولأني أعرف وضعي الصحي أكثر منهم، اتصلت بالصديق بسّام درويش وببعض الأصدقاء من الإعلاميين خارج سوريّا كي يعلموا إذا ما تمّت إضافتي إلى قائمة سعد الله ونوّس وهاني الراهب ونزار قبّاني: فقط للعلم بالشيء! ولمّا تناول كثيرون الأمر إعلاميّاً، وبعضهم من منطلق تهويلي، استدعيت من جديد؛ وكان العتب بأني أعطيت المغرضين وأعداء الأمّة مضغة يلوكونها ضد الوطن! لكن الحق يقال، كان الجميع في غاية الودّ والتعامل الحضاري. مع ذلك، فالضجّة التي قيل إني كنت وراءها لم تكن لتحدث لو لم يأتني طلب حضور إلى هذا الطرف أو ذاك؛ وأنا، بحياتي المغلقة على ثالوثي الأقدس، لا أرى ثمة مبرراً لأن أحضر حتى جنازة جدتي!

على أيّة حال، بعد أن تلاحقت عليّ الطلبات، اتصلت ببعض من يهمهم أمري الصحّي والثقافي، وأخبرتهم أن وضعي الصحي الحالي لا يتحمّل أن ألتقي الأم تريزا: فكيف بغيرها؟ وكان الردّ الأخوي بأني أنا الذي أرفض مغادرة الجنّة السوريّة المحرقة؛ وطُرحت أستراليا كحلّ سلمي غير مقلق! أعرف أن ثالوثي هناك سينقص أقنوماً؛ الأمر الذي قد يقضي على الألوهة الرائعة في داخلي: لكني إذا خيّرت، في نهاية الأمر، بين الله وذاتي . لن أختار.. ذاتي!

دروس من تجربة السقوط العراقيّة

www.annaqed.com

نبيل فياض، 1 إبريل 2004

وسقط صدّام حسين: وكان سقوطه مدويّاً!

كان وزير إعلامه قد أسعدنا قبل ساعات من سقوط العاصمة العراقيّة بأن هنالك مفاجأة هائلة في انتظار الأمريكان إذا هم اقتربوا من قاعدة البعث الشرقيّة: وكانت المفاجأة الهائلة هي في هذا السقوط الأسرع لقلعة الأسود، وكأن جنود العم سام كانوا في رالي، لا حرب!

لم نحزن إطلاقاً لسقوط الطاغية، الذي عرفنا عنه الكثير عبر أصدقائنا من المعارضة العراقيّة. لكن دوي السقوط أثار في رؤوسنا أسئلة كثيرة، لا مناص من محاولة الإجابة عليها، ومن ثم أخذ ما يمكن من أمثولات في وطن هو الأقرب إلى العراق على كافّة الأصعدة.

أين اختفى البعثيّون النشامى، الذين أضجرنا الصدّام، في تلفزيونه الفضائي المريع، قبيل سقوطه، وهو يستعرض قدراتهم القتاليّة وصمودهم الاستبسالي في وجه العدو؟ أين ذهبت المقاتلات الماجدات، اللواتي احتللن واجهات المحطّات الفضائيّة التي كانت تسوّق الصدّام وكأنه محارم نسائية بالأجنحة من نوعية فاخرة؟ أين ذهب جيش القدس الذي كنا نعتقد أنه يستطيع إسقاط شارون وزمرته فقط إذا وقف على ضفّة الأردن الشرقيّة ورمى بالحجارة على الطرف الغربي: خاصّة وأن تعداده كان في حدود الملايين الستة؟ أين هي جبهته الوطنيّة التقدّميّة، التي تبدو الآن وكأنها شلعة معزة فاجأها يوماً ذئب رمادي فأضحت كل واحدة في ديرة؟ أين الاتحادات البعثيّة من شبيبة ونساء وفلاّحين ومن على شاكلتهم؟ لقد تبخّر كلّ شيء ولم يبق في الميدان غير الطائفيين والأصوليين وكل من يمشي ووجهه إلى الوراء.

هل يعقل أنه بعد حكم دام عشرات السنين لحزب قال إنه قومي وحمل رايات الوحدة والحريّة والاشتراكيّة وقمع الناس كلّهم تحت عنوان الأمّة العربيّة الواحدة ذات الرسالة الخالدة أن لا يبقى في العراق غير وجه الفارسي السيستاني الكريم . ومن حذا حذوه؟ هل يعقل أنه بعد أن سرطن الصدّام عقولنا بحديثه القاتل عن الوحدة الوطنيّة وعن الانتماء إلى الوطن لا الطائفة أو الإثنيّة أن نجد الشيخيين في جنوب العراق يطالبون بكيان مستقل؛ والفيليّة في شماله يؤسّسون لمجلس أعلى؛ والتركمان يبحثون عن شبه استقلال ذاتي في منطقة كركوك المتنازع عليها بين هؤلاء وأخوتهم الكرد؟ على أية حال، كوننا من أكثر الذين كتبوا عن العراق وطوائفه من منطلق علماني بحثي ليس إلاّ، فإننا نتوقع أن تشهد الأيام التالية جهوداً من الشبك في سبيل استقلال ذاتي في قرى الموصل، وأخرى من الكاكائيين والابراهيميين لإعلان دولة تقدّم أوراقها إلى الأمم المتحدة؛ ولأنه لا أحد أفضل من غيره، ولأن العراق آشوري الأصل، لا بأس أن يطالب الآشوريون هم أيضاً بكيان منفصل كون لا علاقة لهم أصلاً لا بالأمة الواحدة ولا برسالتها الخالدة؛ ولماذا لا يدلي المندائيّون بدلوهم في هذه البئر الآسنة؟ الكلدانيّون يستطيعون تقديم مطالب مشابهة؛ أمّا اليزيديون، وهم أكثر بكثير من الشيخيين وأمثالهم، فبإمكانهم سلخ جبل سنجار ومحيطه وإعلان دولة يزيدستان الكرديّة الموحدة. بالمناسبة، فأنا أقترح على السريان، الذين أراد الصدّام من بطريركهم أن ينقل كرسيّه إلى بغداد فرفض البطريرك العاقل طلب الطاغية، أن ينضمّوا إلى سوريّا، التي تحمل اسمهم: وهكذا يلتئم الشمل السرياني الذي مزّقته القوميات الشوفينيّة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد أثبت العراق، من خلال الانتماء العشائري، أنه يعيش مرحلة الهنود الحمر في الولايات المتحدة ما قبل الاستيطان الغربي. ولأن اهتمامنا انصبّ أوّلاً وأخيراً، في تعاطينا البحثي للشأن

العراقي على الطوائف الدينيّة، ولأننا لسذاجتنا اعتقدنا أن الرفاق البعثيين في العراق لابدّ أن يكونوا تركوا أثراً ولو ضئيلاً على البيئة الثقافيّة العراقيّة، يوازي على الأقل واحد بالمئة مليون ممّا أنفقوه على توافه مكتوبة أسموها منشورات حزبيّة تروّج لغباءات عن التقدّم والاشتراكيّة والوحدة الوطنيّة لم يقنع بها كاتبوها قط، وبالتالي فأي مجال للتفكير بإمكانيّة عودة العشائريّة بهذه القوّة كان الأبعد عن خيالنا، فلم نقارب بجدّيّة المسألة العشائريّة في بلاد الرافدين!

هذا هو عراق ما بعد صدّام . والبعث! هذا ما جناه عليّ أبي، ولم أجن على أحد! هذا ما جنته براقش! هذا هو الحصرم الذي أكله البعثيّون!

صدّام الذي كان يريد توحيد العرب، بمن فيهم الجيبوتيّون وكائنات جزر القمر، الذين دحشهم السعوديّون في جامعة شعبان عبد الرحيم السياسة، لم يخلع إلاّ بعد أن وضع العراق كلّه في ميكرويف التقسيم السريع!

مقاربة تحليليّة:

كيف يمكن لنا أن نفهم، كمراقبين حياديين، الوضعيّة العراقيّة التي لم تخطر ببال قبل أقل من سنة؟ كيف يمكن تفسير هذه الحالة الأغرب في تناقضها على مدى تاريخ المنطقة الحديث؟ إن أبسط ما يمكن الوقوف عنده هو تلك الأسباب التي أوصلت إلى هذه النتائج.

البنية الأيديولوجيّة لحزب البعث!

ثمّة أحزاب في المنطقة ادعت القوميّة أشهرها حزب البعث وما يسمّى بالناصريين لم أجد فيها يوماً إلاّ أحد أشكال الأصوليّة الجديدة! حزب البعث تحديداً، بدءاً من اسمه الذي تشتم منه رائحة غيبيّة وانتهاء بمقولاته الفكريّة–الأيديولوجيّة، لا يختلف جوهريّاً عن أيّة حركة ذات طابع ديني، وإن حمل ظاهريّاً رايات القوميّة. إنّ أهم نقطة تجمع بين البعثيين والدينيين هي غموض الطرح: وهنالك شؤون أساسيّة للغاية حزب البعث فيها، بعكس الشيوعيين والقوميين السوريين على سبيل المثال، غامض بالكامل. مثلاً: قضيّة العلمانيّة؛ أي فصل الدين عن الدولة. فكلّ الأحزاب القوميّة في العالم، من موليدت إلى النازيين الجدد، علمانيّة! والبعث لم يكن قوميّاً علمانيّاً صريحاً، ولم يكن دينيّاً صريحاً!

نتوقف هنا الآن عند مسألة الرسالة الخالدة: فإذا كان البعث تنظيماً دنيويّاً علمانيّاً، كيف يمكن فهم حديثه هذا عن الخلود؟ ما هي الرسالة الخالدة أصلاً إذا لم تكن رسالة ذات طابع غيبي ديني ميثولوجي؟

ثمّة هاجس يشترك فيه الأصوليون والبعثيون هو هذا الولع بالتوحد: فمعروف أن الحركات الدينيّة الغيبيّة، وهنا أتحدّث عن الإسلام حصراً، مسكونة بهوس توحيد الناس تحت راياتها وإن كرهوا؛ محمّد كان همّه الأول والأخير نقل ما اعتقد أنه رسالة من إلهه إلى الناس جميعاً وقسرهم على الرضوخ لما رأى أنها شرائع من إله. البعثيّون فقط ضيّقوا دائرة الآمال المحمّدية فقصروها على المناطق ذات الغالبيّة العربيّة، حتى وإن احتوت تلك المناطق على أقليّات مهمّة لا علاقة لها بكلّ هذه المفاهيم.

تبقى أهم مسألة مشتركة بين الأصوليّة والبعثيّة: القمع. وإذا أخذنا الأصوليّة الدينيّة الإسلاميّة كونها الأسوأ سمعة هذه الأيام، فالقمع هو النتيجة الطبيعيّة لأي فكر [وإن اعترض بعضهم على وسم تلك البنى "بالفكر"] يعتبر ذاته الحق المطلق، ويعتبر غيره الباطل المطلق. وأية مراجعة سريعة لما جاء في كتاب البوطي مثلاً، العقيدة الإسلاميّة والفكر المعاصر، الذي أشرنا إليه مراراً، تظهر بما لا يدع مجالاً للشك حقيقة ما نقول. وتاريخ تعامل الأصوليّة الإسلاميّة والبعثيين مع الآخر المخالف في الرأي تبدي بوضوح مطلق أن الطرفين لم ينظرا يوماً إلى الآخر إلا من منظور الذيليّة أو الإلغاء.

رغم ما سبق، فالأصوليّة الدينيّة الإسلاميّة، مقارنة بأختها البعثيّة، تمتلك من الميزات ما يجعلها أقرب إلى قلب المسلم في المنطقة وربما عقله. فالأولى أكثر أصالة من الأخرى المتهمة بأنها نتاج عقل غربي في زمن القوميّات في مجتمع يتحّفظ تقليدياً من كلّ ما هو وافد؛ كذلك فبنيانها الفكري أكثر رسوخاً وأغزر إنتاجاً – بما لا يقارن – وأقل تهلهلاً. بل إن بعض ما تقدّمه الأصوليّة الدينيّة الإسلاميّة أوضح بكثير من المقولات البعثيّة الأساسيّة. من هنا، يمكن لنا أن نفهم سبب هذه الردّة البعثيّة الجمعيّة إلى الأصوليّة، خاصة عند الذين انتهت مصالحهم في المؤسّسة البعثيّة – وحزب البعث مكوّن من غالبيّة ساحقة جداً من الحزبين غير البعثيين الانتهازيين!

نقطة الضعف الأقوى:

في الساحة العراقيّة كان ثمة حزبان يدعيان العلمانيّة إلى حدّ ما، أحدهما حزب البعث والثاني الحزب الشيوعي العراقي. ورغم السلطات الهائلة التي كانت تحت قبضة البعثيين، رغم الإمكانيّات المادية التي لا حدود لها في أغنى بلدان الشرق الأوسط التي كانت رهن أمر البعثيين؛ بالمقابل، فرغم القمع الوحشي الذي لاحق الشيوعيين العراقيين من الجميع، إسلاميين كانوا أم بعثيين، رغم فقر الحزب الشيوعي ومطاردته ومعاناته، إلاّ أنه لا مجال للمقارنة بين قوّة الوجود الشيوعي الآن، خاصة مع بوادر الديمقراطيّة الوليدة في حوض الرافدين، وهزال الوجود البعثي. – ما هو السبب الأبرز لهذه الظاهرة الغريبة؟

باختصار شديد؛ نقول: الانتهازيّة! البعثيّون في حزب البعث، كما أشرنا باستمرار، كانوا الأقليّة المسحوقة؛ وكان الانتهازيّون الغالبيّة الساحقة. كان خطأ البعثيين القاتل الأهم أنهم رهنوا الدولة بالحزب، فصار البعث السلّم الذي يستخدّمه المتسلّقون، من كل الانتماءات من اللابعثيين، من أجل تحقيق مطامح لهم شخصيّة إن في القطاع الوظيفي أو المالي أو السلطوي. وهؤلاء الأشخاص، من هلاميي الانتهازيّة، هم الأسرع في ترك الحزب وقت الأزمات!

بالمقابل، لأن الشيوعيين العراقيين كانوا على الدوام الفئة التي يجب أن تدفع ثمناً لقناعاتها الأيديولوجيّة، فالحزب عموماً لم يكن يضمّ انتهازيين الذين ما من مبرر لوجودهم في صفوفه. وإن من حافظ على شيوعيّته في أيام الصدّام الأسوأ، سيفرح بها زمن الديمقراطيّة الوليدة: ويكرّسها.

عقدة الإلغاء:

كما سبق وأشرنا، فأسوأ ميزة حافظ عليها البعثيون من جذورهم الأصولية هي الإلغاء. فالبعثيون، كنتاج طبيعي لبيئة أصوليّة إسلاميّة، لابدّ من أنهم كانوا سيتأثرون بعمق بأهم وأخص ميزات هذه الأصوليّة: النظر إلى الذات كحق مطلق، وإلى الآخر المخالف كباطل مطلق. هذا يستتبع إغلاق كلّ الأفواه الأخرى التي لا تطرب آذان البعثيين. لكن البعثيين لأسباب ثلاثة فشلوا تماماً في إقفال أفواه لا ينطربون لها كثيراً، أعني بذلك الأصوليين الإسلاميين:

أولاً: البعثيون، لأسباب ذاتيّة، غير قادرين على نكران ذواتهم الأصوليّة عموماً كي يقفلوا البورظانات الأصوليّة مهما بدت مزعجة الصوت واللحن؛

ثانياً: الأصوليون، ولأسباب تاريخيّة اجتماعيّة موروثة، أقوى من أن يستطيع البعثيون إقفال بورظاناتهم النشاز؛

ثالثاً: اعتقاد البعثيين الخاطيء من أن الخطر عليهم إنما يتأتى من التيارات والأحزاب غير الأصوليّة التي تمتلك برامج واضحة وخطط حكم منافسة، لا مجرّد وعودات غامضة بحياة أخرى أفضل و"إسلام هو الحل" لا دليل عليها غير تعاطي أصحابها لأنواع مغشوشة من المخدّرات.

هذا الوضع المرضي المزمن أدّى بالبلد كلّه إلى حالة شاذّة يصعب تحمّلها: انقسم وطن الرافدين إلى مجموعتين لا ثالث لهما – نستثني هنا الأكراد دائماً الذين كانوا على الدوام عصافير تغرّد خارج السرب – هما: أقليّة انتهازيّة مكروهة مسيطر عليها بعثيّاً؛ وغالبيّة ذات حضور شعبي كاسح، تسيّرها الرموز الأصوليّة بالريموت كونترول.

الغريب، أن الطرف الأصولي كان أكثر تنظيماً من البعثي؛ هذا ما أظهرته على الأقل الحوادث التي أعقبت دخول الأمريكيين العراق. والحقيقة أن النظام الفاشي العراقي، الذي كان مزهوّاً حتى التضليل الذاتي بقواه القمعيّة، استُغلّ حتى الثمالة من قبل الأصوليين الذين شكّلوا على مدى عقود شبكات صلبة من الهرميّة التراتبيّة الدقيقة للحلول محلّ هذا النظام في أية لحظة تاريخيّة مرتقبة. بل إن بعض رموز التيار الأصولي لم يكن يتوانى عن إظهار ذاته وكأنه "في جيب النظام" لتحقيق مشروعه. بعبارة أخرى، كان ما فوق الأرض محكوماً من البعثيين، وما تحت الأرض محكوماً من الأصوليين: وما تحت الأرض، في بلد بظروف العراق، أهم بما لا يقارن ممّا هو فوق الأرض.

الأنا التي تمتلك صاحبها:

كما أشرنا على الدوام، فالأنا البعثية كانت تمتلك صاحبها باستمرار: فلا يعود يرى أبعد من ظلّه. وكالأصوليين الإسلاميين تماماً، اعتقد البعثيون للأسف أن حقائقهم مطلقة، لذلك كانوا يستغربون دون أن تنقصهم السذاجة في ذلك أن يكون هنالك آخر لا علاقة له بما يطرحون؛ وفي إحدى مراحل تطرّفهم وصل استغرابهم الساذج ذاك إلى تخوم الاستنكار المرفوضة أخلاقيّاً. وتماماً كما رفض محمّد مشاركة أي آخر له في منظوره للكون والحياة ومن ثم السلطة؛ وانتهز الفرصة تلو الفرصة للتخلّص من منافسيه الأيديولوجيين [لم يتخلّص محمد من المكيّين غير المؤمنين به، لكنّه تخلّص بالكامل من القبائل اليهوديّة، لأنها باعتقادنا شكّلت خطراً أيديولوجيّاً تنافسيّاً خطيراً على أسس دعوته]، فقد رفض البعثيون أي شكل مشاركة سلطوية من قبل البنى الفكريّة غير البعثية، لا في الحكم ولا في المعارضة، باستثناء تلك المنظمة المثيرة للشفقة التي أسموها "الجبهة الوطنيّة التقدميّة".

من هنا، وكما تهلهل الإسلام بفترة قياسيّة وانهار كمنظومة قيم بعد وفاة محمد مباشرة عبر الصراع الدموي بين المبشّرين بالجنّة على السلطة لعدم وجود منظومة نقديّة تساهم في دفعه قدماً عبر نقد ذاتي وموضوعي، فقد تهلهل حزب البعث بسرعة قياسيّة أيضاً عبر التصفية الذاتيّة بين رفاق الأمس الذين في اعتقادنا كانت الحزبيّة قناعهم الأكثر انكشافاً لهوس البقاء في الواجهة: وهل يمكن نسيان ما فعله الصدّام، على سبيل المثال لا الحصر، بقريبه ورفيقه أحمد حسن البكر؟

من ناحية أخرى، فقد أدّى القمع الصدّامي للمنظومات الفكريّة العقائدية غير البعثية إلى ابتعاد الناس عن السياسة بمعناها الحضاري والتحاقهم بصفوف قطعان الأصوليّة، الذين ظلّت مراكزهم الأيديولوجيّة، للأسباب المشار إليها آنفاً، تعمل وحدها – مع المراكز البعثية بالطبع – مشكّلة بالتالي بؤرة الجذب الفكري الوحيدة، خارج النطاق الرسمي سيئ السمعة. والنتائج يمكن أن نتلمّسها بوضوح تام في هذه الحقبة ما بعد الصدّاميّة.

أخيراً:

لسنا بعثيين حتماً: ولن نكون يوماً؛ لأن منطلقاتنا متباينة؛ لكننا كليبراليين نؤمن بحق البعثي وغير البعثي بالوجود، في العراق وخارج العراق؛ واعتقادنا أن القمع الذي تتعرّض له القلّة القليلة الباقية من البعثيين العراقيين ليس أقل سوء سمعة من القمع الصدّامي لغير البعثيين أثناء حكم صدّام للعراق.

الآن لم يعد في العراق بعث ولا من يبعّثون: لكن حضور البعث ما يزال قويّاً في واحدة من أهم دول الشرق الأوسط حضارة – أي: سوريّا. ولأن الأوان لم يفت بعد، ولأن الصورة الحاليّة في العراق، حيث التفتت وسيطرة

الأصوليين من كل الأصناف لا تخطئها العين، نتمنى من السوريين، خاصة منهم البعثيين، الإفادة من الدرس العراقي المطلق الأهميّة، من أجل الحفاظ على وطن، أو ما تبقى من وطن!

حين تغرق السفينة، لا يفرّق الموج بين وزير وبائع أحذية متنقّل.

نبيل فيّاض

أقفلوا كليّة الشريعة في جامعة دمشق

www.annaqed.com

نبيل فياض، 24 مارس 2004

معروف للقاصي والداني أن سوريّا، بعكس ما ادّعى البعثيّون، بلد تعدّدي دينيّاً وقوميّاً وفكريّاً: فسوريّا التي كانت على الدوام سرّة العالم القديم هي الوطن الأكثر غنى بالتعدّدية غير الطارئة في الشرق الأوسط كلّه؛ وهذه التعدّدية، التي تحاول دول الغرب المتحضّر استحضارها وإن بشكل غير تأصيلي، أكثر ما يميّز سوريا . ولبنان . عن غيرها من المحيط حضارياً. من هنا، فإن حماية هذه التعدّدية والدفاع عنها في وجه الأخطار الداخليّة والخارجيّة مسألة أساسيّة إذا ما أردنا لهذا الوطن الحضاري الإقلاع نحو عوالم الغد.

ومعروف للقاصي والداني أيضاً أن كليّة الشريعة في جامعة دمشق، التي هي كمؤسّسة رسميّة، تدار بنقود دافعي الضرائب من الشعب، كل الشعب، مقصورة على مساحة محدّدة من الطيف الديني الفكري العقائدي السوري: أهل السنّة والجماعة من المسلمين. إذن، إن المسيحي والعلماني واللاديني والملحد واليزيدي والمسلم من غير أهل السنة والجماعة يدفعون من قوت أولادهم، في ظرف اقتصادي مريع، ضرائب يذهب قسم منها إلى كليّة مقفلة في وجههم. وليت الأمر وقف عند حدود الإقفال: فهذه الكليّة، التي احتجّ كثيرون حين أسميناها وكر الإرهاب الأصولي، تشتم بأسلوب طائفي وقح كلّ أبناء الشعب عدا الطائفيين من أهل السنّة والجماعة؛ بمعنى أننا ندفع نقوداً لهؤلاء المهووسين الصغار كي يشتمونا، خاصّة الكردي المدعو سعيد البوطي، الذي أكل القط لسانه في الأزمة الكرديّة التي استعرت نارها قبل أيام.

لن نفسّر المسألة على أنها مؤامرة، كما جرت العادة عند العرب: لكن أرجو من المسؤولين الأمنيين الذين خلقوا أسطورة البوطي قبل سنوات تفسير هذا التزامن بين العمالة الكرديّة للخارج المعادي، ورغبة البوطي الكردي الجامحة في خلق توتّرات داخلية طائفيّة نحن بغنى عنها: حتى وإن ورثها هو شخصيّاً من شيوخ الإجرام من أمثال ابن تيميّة وابن قيم الجوزيّة. وحين تدمّر عناصر كرديّة البنى التحتيّة الماديّة في دمشق وحلب والقامشلي والحسكة ويدمّر البوطي . ومن على شاكلته . البنى التحتيّة الروحيّة للشعب السوري، فالأمر ليس أقل من مؤامرة.

نحن لا نمتلك قرار إعادة البوطي إلى متحف العناكب الذي أخرجه أحدهم منه ذات يوم، فنحن لسنا من أصحاب الحلّ والربط في بلد ضاع فيه الحلّ والربط؛ نحن نمتلك بالمقابل إمكانية مخاطبة الناس من خلال هذا الموقع البسيط كي يعرفوا قيمة هذا الكائن الفعليّة ويتساءلوا بالتالي عن عبقريّة القوى الأمنيّة التي وقفت معه وساندته وصدّقته وسوّقته من التلفزيون الرسمي [لا أحد يراه الآن] كما تسّوق الأغاني الهابطة والأفكار الهابطة وأدوية الغسيل الهابطة.

نحن نعرف تماماً أن المسؤولين الذين يتناولون "لكسوتان" من نوعيّة فاخرة لن يستجيبوا لنا: خاصّة الجهابذة أولياء أمور وزارة التعليم العالي. فقد سبق وأن تمزّقت أفواهنا من على منبر تلفزيون الجزيرة في لقاء صاخب ونحن نقرأ مقاطع من كتب تدرّس في وكر الإرهاب هذا ولم يستجب لنا أحد: ربما لأن الوزير وقتها كان مسيحيّاً [اسمه حسّان "ريشة" وأحمد كلّ الآلهة أنه "طار"]، وأي نقد لكليّة الشريعة من مسيحي يمكن أن يخلق متاعب لسنا بصددها الآن؛ وليذهب البلد إلى الجحيم مقابل كرسي الوزارة الحريري الجميل. بل لقد قيل مؤخراً إن المسؤول عن الإيفيهات الدينيّة الإسلاميّة على موقع وزارة التعليم "العالي" على الانترنت هو نفسه الوزير الذي طار، والذي يبدو أنه يعطي دروساً للسادة الطبرسي والكليني والمجالسي في التقيّة. وزير تعليمنا العالي اليوم إثنا عشري، يدير أيضاً مقاماً يقال إنه للسيدة زينب [ذكر لي الصديق المؤرّخ حسن الأمين إن علاقة المقام بالسيّدة

زينب مثل علاقتي بالأخت جين مانسفيلد]، ولا أعتقد أنه مستعد لأي تغيير في الوزارة لا تحسب عقباه، خاصّة إذا ما عرفنا أن الشعار الرسمي السوري هو: أجّل المشكلة.. تحلّها.

حتى لا يكون كلامنا اعتباطيّاً، سنقدّم هنا نماذج مختارة من كتاب العقيدة الإسلاميّة والفكر المعاصر، للدكتور محمّد سعيد رمضان البوطي، طبعة عام 1988 . 1989، الذي يدرّس في كليّة الشريعة، جامعة دمشق الحضاريّة:

أولاً: الحديث عن الزرادشتيّة:

رغم أن القرآن لا يذكر زرادشت بحرف واحد، ورغم أن الحديث النبوي لا يورد هذه الشخصيّة في أي من سياقاته، ورغم إعجابنا الثقافي الذي لا حدود له بالديانة الزرادشتيّة، فنحن نعتبر أن إطناب البوطي في مدح زرادشت لا يعدو كونه تعصّباً لنبي يحسب قوميّاً على الأكراد: وفي الصفحة 7 من الكتاب، ترد الفقرة التالية:

"وأهم الموروثات الفكريّة لدى الفرس، بل وأقدمها أيضاً، الزرادشتيّة، نسبة إلى زرادشت، وأصح ما قيل في عصره إنه كان في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد؛ ولا نستبعد أن يكون الحقّ في سيرته ما قاله كثير من الباحثين إنه كان من الرسل الذين أوحي إليهم، وإن دعوته كانت إلى التوحيد وعبادة الله وحده ونبذ العادات والأديان الباطلة..".

ثانياً: الإسفاف بحق المسيحيين السوريين والكنيسة:

بالمقابل، فهجوم علاّمتنا الكردي المستورد على الكنيسة المسيحيّة، أصل سوريّا وفصلها ["وفي أنطاكية . لا بوطان . دعي التلاميذ للمرّة الأولي مسيحيين"] لا توفيه حقه ألفاظ ولا توصيفات: خاصّة وأن أكثر من مناسبة أظهرت للعميان أن شيخنا الجليل أردح من عوالم شارع الهرم وأكذب من أبي هريرة: ألم يدع أكثر من مرّة أن أمي اسماعيليّة . وكأن الأمر معيب . وأن أهلي من أصول يهوديّة؟؟

في الصفحة ذاتها من الكتاب التحفة ذاته، يبهج البوطي أنظارنا وعقولنا باكتشافاته اللاهوتيّة الهامّة حول التاريخ الكنسي، حيث يقول:

"أمّا في بلاد الشام وما وراءها، حيث امتدّت إليها سلطة الامبراطوريّة الرومانيّة، فقد تمثّلت أهم النزعات الفكريّة والمذهبيّة فيها، بذلك المزيج الذي ابتدعه أباطرة الرومان بدءاً من عهد بولس، والذين كان مركّباً من الوثنيّة القديمة التي عرف بها الرومان والنصرانيّة التي كان أصلها الإسلام الحقّ الذي بعث به سيّدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم تشعّبت من جراء الابتداعات التي أقحمت فيها إلى فروع ومذاهب شتّى، كالغنوصيّة والصابئة والركوسيّة..".

نلاحظ هنا أن المقصود بالهراء السابق مسيحيي بلاد الشام حصراً، الذين عمل البوطي ومايزال يعمل على استبدالهم بأكراد من نوعيّة سيئة: ومن لا يصدّق فليسأل عن الفرق بين أحوال الجزيرة السوريّة قبل خمسين عاماً وأحوالها اليوم؟؟

من ناحية أخرى، فقبيل نهاية هذا الكتاب (ص 248) الذي يدرّس لطلبة يفترض أنهم الطليعة التي تقود إيمانيّاً على الأقل [هل يمكن أن نفهم بالتالي سبب التفشّي المخيف لفيروس الطائفيّة في وطن الصمود والتصدّي؟]، يعود البوطاني لإتحافنا بآراء عن الكنيسة تخجل بن لادن في وقاحتها:

"العقائد الكنسيّة لا تكاد تتفق في أي من جزئياتها وبنودها مع أصول المنطق وموازين العلم، بينما العقائد الإسلاميّة تأبى على المسلم أن يقيم وجودها في فكره إلا على بصيرة العلم والمنطق".

والحقيقة أننا نحسد هذا البوطاني المسوّق أمنيّاً على موازين العلم والمنطق في عقائد يؤمن قداسته بها مثل الإسراء والمعراج حيث يذهب النبي إلى مكان بني بعده بعشرات السنين ثم يغادرنا إلى السماء للقاء عمّنا موسى

وبقيّة أنبياء بني إسرائيل الذين لا دليل على وجودهم غير العته الحاخامي؛ وعلى أحاديث من نمط الديك الذي رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، أو جهنم التي يضع الله رجله فيها بعد أن تمتلىء بالكفّار؛ فتقول له: قط؟ قط؟ أو الشيطان الذي يضرط [آسف على اللفظ التراثي الهام] عند سماعه الأذان.. إلخ.

في الصفحة التي تليها نطالع آراء في الكنيسة لا تختلف كثيراً عن مجمل الهراء الوارد في هذه التحفة:

"نظام الكنيسة أعلن حرباً لا هوادة فيها على العلم واتباع سبيله، قضى في سبيلها على آلاف العلماء والباحثين، وجعل من البحث العلمي جريمة أخطر من جريمة الإلحاد بالله عزّ وجلّ؛ بينما يقضي نظام الإسلام بإعطاء الريادة في المجتمع للعلم وأهله، ويجعل من البحث العلمي أقدس عبادة يتقرّب بها المتعلّم إلى الله إن حسنت في ذلك نيّته وحسن قصده".

الإسلام لم يقض على العلماء والباحثين لسبب بسيط: حتى الآن لا يوجد في الإسلام لا علماء ولا باحثون؛ اللهم إلا إذا اعتبرنا العوالم الذين يسمّونهم علماء، أي المشايخ، منظّري الاستجمار والاستنجاء وختان البنات، من مصاف لافوازيه وديدرو وبافلوف. من ناحية أخرى، فالتاريخ يشهد أن ما من فرد أو جماعة حاولوا التفكير بما يخالف ضوابط التكفير إلا وتصدّت لهم طغمة الاستجمار والاستنجاء والخرطات التسع. ولأن ذاكرة العرب مثقوبة للغاية، يكفي أن نذكّر بأسماء من نمط فرج فودة ومهدي عامل وحسين مروّة ونجيب محفوظ ونصر حامد أبو زيد.. لماذا نذهب بعيداً، فلولا عناية أحد الآلهة لكنّا الآن في مكان غير مرغوب فيه كثيراً بعد أن حفي البوطاني على أبواب الفروع الأمنيّة محذّراً القائمين على الأمور من الفتنة الطائفيّة التي يمكن أن يحدثها كتابي: يوم انحدر الجمل من السقيفة؟

ثالثاً: الإساءة للطوائف الإسلاميّة من غير أهل السنّة والجماعة

ضمن الهراء المشار إليه آنفاً، لا يخجل البوطاني عن مدّ يده الموميائيّة إلى طوائف الشيعة بابتذال لا يحسد عليه؛ ويدرّس ذلك طبعاً. وفي الصفحة الرابعة بعد الأربعين من هذا العمل الأكاديمي غير الفتني؛ يقال عن الشيعة [لا يجرؤ البوطاني على الإشارة إلى العلويين بالاسم لا من قريب ولا من بعيد، لأنه يعرف أن بعضهم لا يكتفي بالختان؛ لكنه يستطيع إدخالهم براحة ضمن الشيعة والخوارج]:

"على أن هذا الذي بدأ بدافع ديني كما أقول، لم يلبث أن غدا فيما بعد، ذريعة لكلّ ذي مطمح سياسي، أو نزعة إلحاديّة، أو هوى جانح عن سبيل الحق. فغدت هذه الفرق بذلك مطايا لأصحاب الأغراض وأولي الانحرافات على اختلافها. وأنت تعلم أنّ دعاة السوء والزيغ، لا يستطيعون أن يتسلّلوا إلى المجتمع الإسلامي المتماسك، إلاّ من نوافذ هذه الفرق وأمثالها إذ يتمادى بها الجدل والصراع، فتنحرف عن الجادّة ربما دون أن تنتبه إلى أنها انحرفت عنها. فتتفتح من ذلك ثغرة. وما هو إلاّ أن ينحطّ فيها ويتسلّل إليها المتربّصون، من أولي الزيغ، تجّار الزندقة والضلال".

وفي الصفحة ذاتها، يأخذنا البوطاني إلى نتيجة علميّة لا غبار عليها، بشأن هؤلاء الكفّار الوقحين الذين يصرّون على المواطنة في بلد البوطاني، أي الشيعة . يقحم معهم الخوارج كالعادة . تقول:

"ومن الجلّي أنه لا دخل للعلم في نشأة الخوارج والشيعة، بل ولّدتهما العاطفة السياسيّة، ثم اندسّ فيهما خصوم الدين من الزنادقة، فتطوّرتا أطواراً شائنة".

رابعاً: البهائيّة والأحمديّة

رغم كتابتي قبل زمن ليس بالقصير مقالات بحثيّة عن الحركتين البهائيّة والأحمديّة [يسميها البوطاني القاديانيّة ليس دون تحقير] إلاّ أني لم أخرج قط عن الأعراف النقديّة المحترمة في مقاربتي للحركتين، بل إن كتاب شكر جاءني من لندن، من أمير الجماعة الأحمديّة، على ما نشرته عن الحركة، رغم ما فيه من استعراض نقدي؛ ولو

أن هذا البوطاني كان يفقه حرفاً واحداً في لاهوت هاتين الجماعتين، أو لو أنه استعرض نقديّاً ما صدر عن الأحمديين والبهائيين من آراء، لكنا وقفنا له احتراماً؛ لكنه لجهله وتعصّبه، اكتفى بأن يطرح على المعتوهين الصغار ممن يصدّقونه معلومات حول الطائفتين لا ترقى أبداً لسويّة الشتائم المهذّبة؛ يقول أستاذ الشريعة حول البهائيين:

"وإنما تقوم ديانتهم وأفكارهم الخرافيّة الكافرة على التفسيرات والاستنباطات الباطنيّة والإشارية التي لا تعتمد على منطق ولا لغة ولا مقياس من مقاييس النظر والعلم " (ص 88).

لا يفلقنا بالمناسبة سوى تشديد تلميذ أبي هريرة والبخاري وكعب الأحبار على النظر والعلم.

بالمقابل، فهو يقارب الأحمديين، كباحث هام، على الطريقة التالية:

"ولم يزل على حاله [غلام أحمد القادياني، مؤسّس الحركة] تلك ويكذب على الله وأنبيائه، ويضع نفسه للناس موضع عيسى بن مريم عليه السلام، إلى أن رماه قضاء الله تعالى بالهيضة (داء الكوليرا) ومات في بيت الخلاء ساقطاً على وجهه، فكان موته عبرة لأولي الأبصار". (ص 89).

لمن لا يعرف، فإن أمير المؤمنين المتكّل على إلهه العباسي، محيي السنة ومميت البدع، الذي فرض بالحذاء التيار الفكري (؟؟؟) الذي ينتمي إليه البوطاني إياه، قتل مخموراً في أحد مواخيره على يد ابنه.

خامساً: الفلسفات الحديثة.

كم يبدو مثيراً للقرف أن يمدّ أصولي بوطاني مفعم بعقد كراهية الآخر يده إلى التراث الوجودي العظيم، فيطال سادة الوعي في غرب الحضارة بألفاظ لا تصدر عن أجهل الكائنات. كم تبدو الحضارة مغتصبة حين يفكّر بدوي جاهل بمدّ يده الحاقدة إلى هايدغر العظيم، رمز الثقافة، في أمة المثقفين: ألمانيا. زمان، ترجمتُ كتاباً لهايدغر العظيم، صاحب الكينونة والزمان، اسمه ماهية الميتافيزيك، لكني لم أنشره، لأني استأسفت أن أنشر جواهر فيلسوف الكينونة لشعب مفكّروه البوطي وقرضاوي ومتولّي شعراوي.. وزيزي مصطفى: وخيراً فعلت.

عن الوجوديّة؛ يقول هذا العلاّمة: "فأي طالب من الطلاّب الخائبين في قسم الفلسفة من جامعة ما، يخلط هذا الخلط العجيب بين الماهيّة والصفات، ويبادل التعبير بهما عن الخبرات والإمكانات التي يكتسبها الإنسان؟" (ص 188).

"ولكن من البلاء الأطم أنهم يصنّفون أنفسهم مع فلاسفة، ويخاطبوننا على هذا الأساس، ويريدوننا أن نفهمهم على هذا الاعتبار. وها نحن قد حاولنا فهمهم على هذا الاعتبار، فما رأينا إلاّ كلاماً متهافتاً وأحلاماً تستعصي على الواقع وألفاظاً تطلق على مدلولات لم يقل بها فلاسفة ولا علماء ولا مناطقة من قبل". (ص 194).

عن المفكّر المصري الوجودي؛ يقول البوطاني إنه "الذيل التابع لهم". (195).

أمّا سارتر، الذي ساند الثورة الكوبيّة، وحارب ضد بلده لأجل استقلال الجزائر، وقاد مظاهرات الطلاّب في فرنسا ضد قمع العسكر، ورفض جائزة نوبل للآداب باعتبارها صادرة عن هيئات بنظره غير محترمة، فيقول عنه صنيعة الأجهزة في أصعب زمن مرّ على سوريّا: "إن نظرة سطحيّة واحدة إلى مظهره.. تدلّ على أنّ الرجل منغمس في نقيض هذا المبدأ الذي يعلن عنه ويدعو إليه". (196).

وهكذا، ينتهي هذا العلاّمة إلى أن الوجوديّة ليست غير "فلسفة عجيبة مضحكة". (ص 221). وكفى المؤمنين شرّ القتال.

نلاحظ هنا أن البوطاني لا يقترب من هايدغر أبداً، ربما لأن الألماني العظيم بحاجة كي يُفهم إلى سويّة عقليّة، خاصة في الكينونة والزمان، غير متوفّرة عند شيخ كليّة الشريعة الأشهر.

عن الماركسيّة، التي لم يتنطح أي من الرفاق أنصارها الذين يملأون أجهزة الإعلام هذه الأيام ضجيجاً بالردّ، يقول جهبذنا ما يلي:

"لن نهدف من هذا النقد، إلى الحديث عن القيمة العلميّة لفلسفة "الجدليّة = الدياليكتيك" خلال أطوارها المختلفة. ذلك لأنها بدءاً من عهد هيراقليط إلى أن استقرّت بطورها المثالي عند هيجل، قد تحوّلت إلى مجرّد متكأ أقيمت عليه الفلسفة الماديّة الماركسيّة، التي أخذت تشغل بال كثير من السطحيين أو من دعاة المصالح والأغراض" (ص 108).

نترك التعليق للرفاق من الحزب الشيوعي السوري، دكّان المرحوم بكداش، فهم الأقدر على الرد على ابن جلدتهم.

سادساً: العلمانيّة

مما لا شكّ فيه أن الأخوات منيرة القبيسي وسحر حمدي وزيزي مصطفى وسهير البابلي حتى آخر قائمة أمهات . نعتذر من القبيسيّة لأنه يفترض أنها آنسة جدّاً . مؤمني القرن الحادي والعشرين، يعرفن تماماً أن العلمانيّة مشتقة من العالم؛ بل إن بقرة جميلة استنكرت قبل أيام على أحد تلاميذ كليّة الشريعة ضحالته العلميّة حين قال غير ذلك؛ وإذا عرف السبب بطل العجب؛ فهذا التلميذ الأنجب الذي أزعج البقرة الجميلة بجهله قرأ التعريف التالي في كتاب البوطاني التحفة:

"أصل هذه الكلمة نسبة على غير بابها إلى العلم". (ص 247).

ولأننا علمانيون، ولأننا لسنا بعثيين . الذين يفترض أنهم علمانيون . فالجروح تؤلمنا، نقول إن النص التالي من كتاب البوطاني، لو كنّا في بلد يحترم حقوق الآخر، لكان يمكن أن يوصل صاحبه إلى أقرب سجن غير محترم:

"ونظراً إلى أن مجتمعاتنا الإسلاميّة لا تخلو في كلّ وقت من مجاذيب أوروبا وعشّاقها، أولئك الأغبياء الذين ينقادون بزمام من البلاهة والذل إلى اتباع أوروبا في كلّ شؤونها وتصرفاتها، فقد ظهر في هذه المجتمعات من يدعو إلى إقامة أنظمة الحكم في مجتمعاتنا الإسلاميّة على أساس تلك العلمانيّة التي التجأت إليها أوروبا تخلّصاً من مصائبها وآلامها". (ص 248).

وأخيراً.. الأشعري:

بعد أن أقفل علينا البوطاني الألمعي أبواب التيارات والمذاهب والعقائد الأخرى باعتبارها كلّها تافهة إلحاديّة وذاهبة إلى جهنم بلا إحم ولا دستور، يقدّم إلينا الآن مسيحاً منتظراً اسمه الأشعري يتمّ تلقيمه للأولاد في كليّة الشريعة العظيمة بأسلوب بوطاني يكفل غسيل دماغ طلاّبي مرّة وإلى الأبد:

"هذا الإمام [الأشعري] لم يخترع لنفسه مذهباً ينادي به، كما فعل أصحاب الفرق الأخرى، وإنما اعتنق ما كان يدين به جمهور المسلمين من علماء الحديث والفقه وسائر الصحابة والتابعين، وموره ما دلّ عليه كتاب الله وسنّة نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم. الأشعري كان لا يقيم لسلطان العقل الاجتهادي وزناً أمام النصوص، حتى وإن كانت واردة عن طريق الآحاد، ولم ترق إلى درجة التواتر. أمّا الماتريدي فقد كان يقيم لأحكام العقل وزناً أكثر من ذلك، بمعنى أنه يسعى إلى التوفيق بينه وبين المنقول إذا أمكنه ذلك دون تكلّف أو تمحّل". (ص 81).

نبيل فياض

ثقب الاجتهاد الشيعي

www.annaqed.com

نبيل فياض، 16 مارس 2004

فلقنا الشيعة الإثنا عشريون وهم يندبون – أليس الندب أبرز أسس التلاحم الشعبوي الشيعي؟ – إقفال باب الاجتهاد عند أهل السنّة والجماعة! يا حرام!!! كم يشعر المرء، وهو يقرأ ندبيات الإثني عشريين، بالشفقة حيال هؤلاء السنّة الذين أقفل لهم المتوكّل على يهوه العباسي باب الاجتهاد ووضع لهم المفتاح في مكان لا يعرفه إلاّ الله!

بالمقابل، كم يشعر المرء بالفخر حين يقال له إنّ الإثني عشريين جزء هام ومؤثّر من أمته، التي ظنّ للحظة أنها عقمت عن إنجاب العقلاء، من فاتحي باب الاجتهاد، الذين يعتبرون العقل أحد مصادر التشريع!!! الله أكبر! الله أكبر! كم هو رائع أن نشعر، ونحن في زمن الطالبانيّة، التي كانت تقصّ ظفر المرأة إذا طلي " بالمناكير " ، بأن هنالك تيارات إسلاميّة انفتحت على العالم قلباً وعقلاً، وأن هنالك مفكّرين إسلاميين ينافسون العظيم الراحل بولتمان أو شلايرماخر أو هانس كونغ أو توماس تومبسن أو حتى النقدي ما بعد اليهودي الأبرز، يسرائيل فنكلستاين!!!

الله أكبر! إنها الأمّة الولاّدة، التي لم تفتأ تقدّم للبشريّة – جمعاء – علماء أين منهم أينشتاين أو باستور أو كوخ!!!

حتى لا نطيل الشرح، سنقدّم أمثلة من أحد المراجع الإثني عشريّة الهامّة للغاية، الصادرة في دمشق، عاصمة التقدّم والاشتراكيّة – وهل يمكن لغير دمشق أن تحتضن درراً حضاريّة تقدميّة من هذه النوعيّة ؟ – تظهر بما لا يترك مجالاً لأي شك، أن العقل هو الحاكم بأمره عند الشيعة، وأن باب الاجتهاد قد تمّت إزالته حتى لا يقف خشبه عائقاً أمام التفكير!!

حجّة الإسلام والمسلمين، الحاج السيّد محمد علي الطبابائي الحسني، واحد من أهم أعلام الإثني عشريّة في منطقة السيدة زينب، قرب دمشق؛ وفي أعماله البحثيّة المتواترة، التي نرشحها بفخر لأن تترجم إلى لغات العالم الحيّة وغير الحيّة، أظهر مدى تألق العقل العراقي، باعتبار أن السيّد الطبابائي من أخوتنا العراقيين، وكيف أنه إذا أعطيت له الفرصة كان قادراً على إنهاء أسطورة تفوق الغرب فكرياً. ومن كتابه المرجعي البحثي الهام، الذي نقدّمه بكل فخر للجنة جائزة نوبل للآداب والسلام معاً، علوم وأحكام مستجدّة، الطبعة الأولى 1993، نقدّم المقتطفات التالية: ما بين قوسين من عندنا:

حكم 4 (ص 7): إذا تبدّلت أعضاء الزوجة بأعضاء امرأة أخرى:

...

ي – (ص 8): وأما تبديل رأسها بأخرى من غبر محارمه، أو رأسه بآخر من غير محارمها، فبطلان العقد [عقد الزواج] قطعي، وبحاجة إلى إعادته!

حكم 6 (ص 8): يجوز نقل الجنين إلى رحم امرأة أخرى يتربّى في رحمها...

ي– (ص 9): ولكن يشترط على الأحوط أن لا تكون صاحبة الرحم ذات زوج يجامعها فيتربى [الجنين] على منيه لأنه ابن الغير!

حكم 20 (ص 12): لو ولد من الحيوان إنسان حكم بأحكامه...

حكم 31 (ص 13): يحرم للإنسان التزوّج بغير الإنسان من الجن والحيوان...

حكم 32 (ص 32): يحرم على الرجل أن يعمل العادة السريّة بأن يحرّك ذكره بيده أو بآلة حتى يقذف، إلاّ بيد زوجته أو بجزء من بدنها، والأحوط وجوباً للمرأة أيضاً أن لا تمارس إلى حدّ القذف إلاّ بجسم زوجها.

حكم 53 (ص 17): لا يجوز النظر بشهوة جنسيّة للحيوان أو للجماد، ولا للممارسة الجنسيّة كذلك!

حكم 54 (ص 17): يجب على المرأة أن تستر بدنها عن القرد إذا علمت بأنه ينظرها بشهوة ويرغب بالنزوة عليها!

حكم 58 (ص 18): يحرم على المسلمة التزوّج بالكفار من: أهل الكتاب، أو الملحدين، أو الدروز، أو الصابئة، أو السنّة الناصبين العداوة لأهل البيت (ع) وشيعتهم؛ ويجوز التزوّج من الشيعيّة بالسنّي المحب لأهل البيت، والمعترف بصحّة عمل وعبادة الشيعة.

حكم 67 (ص 19): لو كان [المرأة] له بدنان ملتصقان برأس واحد، يشكل [يعني: الحكم في المسألة إشكالي وغير واضح] له تزوّج رجلين؛ كما يشكل له تزوّج أم وبنت أو أختين في آن واحد لاحتمال الحكم بوحدته؛ ويجوز له تزوّج امرأتين قطعاً.

حكم 68 (ص 19): لو كان للأنثى ذكر يشكل لزوجها أن يدخل ذكرها في دبره.

حكم 110 (ص 26): إذا اضطر [الرجل] لرفع البرود الجنسي بلمس المرأة الأجنبيّة لذكره فمشكل. وفي احتياج المرأة لرفع برودها لرجل أجنبي أشدّ إشكالاً.

حكم 112 (ص 26): استمناء الرجل بواسطة مجسّم مطاطي أو آلة حرام وبواسطة الزوجة حلال، واستمناء المرأة بواسطة آلة مطاطيّة قالوا إنه حرام، وأما إدخال زوجها قطعة المطاط فيها حتى تستمن فهو حلال.

حكم 115 (ص 26): لو تحوّل الرجل إلى امرأة فما ولده بواسطة جماعه لزوجته يعتبر هو أباً لهم، ولا يكون لشخص أمّان بلا أب.

وأما ولده من بطنه بعد كونه امرأة فيعتبر أمّاً له، ولا يكون لشخص أبّان بلا أم.

حكم 22 (ص 38): إذا كان [رجل] يتخلّى [يتبرّز] في طائرة أو سائرة أو باخرة أو قاطرة، وكان حوض المرحاض إلى جهة واحدة، والمركبة تدور في بعض جهاتها بحيث يستقبل المتخلّي القبلة أو يستدير، فلينحرف إن علم مهما أمكن ومع الجهل أو عدم القدرة يعذر.

حكم 24 (ص 38): الكلينكس الذي يتمسّح به يجزي عن الأحجار في تطهير الدبر دون القبل، وكذا كلّ قالع لعين النجاسة.

حكم 40 (ص 41): إذا ساحقت امرأة قد وطئها زوجها لأخرى، فحملت الأخرى، ضربت الحدّ: والولد ابن لصاحب المني.

حكم 41 (ص 41): إذا ساحقت المرأة أنثى الحيوان [معزة مثلاً] فحملت [من مني الرجل طبعاً] فلا يجوز أكل هذا الجنين؛ إن كان الحيوان مما يؤكل حتى لو ولد بصورة حيوان؛ ولو ولد إنساناً فهو ابن صاحب الماء.

حكم 42 (ص 41): إذ1 وطأ حيوان امرأة فحملت وولدت، فلا يؤكل هذا المولود.

حكم 43 (ص 41): إذا وطأ حيوان [ثور مثلاً] امرأة، فساحقت [المرأة] أنثى الحيوان [بقرة مثلاً] فحملت [البقرة] جاز أكل هذا المولود إن كان بشروط الأكل.

حكم 47 (ص 42): إذا جامع الحيوان أو الميت أو الخنثى لامرأة حيّة فلا تكون مجنبة، ولكن الاحتياط عليها الغسل والوضوء.

حكم 647 (ص 213):

د: اللواط مطلقاً: بالقاء من شاهق أو بالقطع بالسيف أو الحرق بالنار أو بالقاء حائط عليه أو الرجم بالحجارة أو باثنين من هذه الحدود.

وفي الليلة الظلماء يفتقد.. كفتارو!!!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 16 مارس 2004

أعطوني في هذا الوطن المسمّى سوريّا طائفة من الأقليّات لها فيه ما للأكراد!

هل سمعتم يوماً عن رئيس وزارة مسيحي أو درزي أو مرشدي أو اسماعيلي – باستثناء بيضة الديك المسمّاة "فارس الخوري"؟ على الأقل، كان من الأكراد يوماً رئيس وزراء اسمه محمود الأيوبي!!!

هل توجد طائفة من الأقليّات الدينيّة أو العرقيّة حصدت ما حصده الأكراد من مناصب ومواقع، إن في السلطة أو المعارضة في سوريّا؟ هل نذكّركم بقائمة المسؤولين الأكراد من حزبيين ووزراء ومشايخ ومفتيين؟؟ سوف نعطي جائزة ثمينة للغاية لمن يستطيع إحصاء من وصل إلى قمّة الهرم في سوريّا من الأكراد!!!

باستطاعة زعيم غوغاء السنّة من كافة الانتماءات العرقيّة، الكردي البوطي، سوق واحدنا من عنقه حيث يشاء، وشتم بقيّة الطوائف من السوريين الأصلاء، من على منبر وكر الإرهاب المسمّى كليّة الشريعة في جامعة دمشق، دون مساءلة: وكأنه حقه المشروع؛

باستطاعة الكرديّ الآخر، زياد الأيوبي، توزيع منشورات تحت مرأى ومسمع الجميع ضدّنا، ونحن الذين لا انتماء عندنا إلاّ لسوريّا، ويجد هذا الكردي المشبوه من يسمع له بل ويسانده: فقط لأن الطرفين لهما الانتماء المذهبي ذاته!

باستطاعة ابن المفتي، المدعو محمود كفتارو، وهو الآخر – لمن لا يعلم – كردي بامتياز، أن يذهب إلى فروع الأمن ليتهمنا بأننا موفدي الكسليك – قلعة الوطنيّة الصامدة – لضرب الوحدة الوطنيّة في سوريّا ونضطر بعدها للإختفاء من مكان إلى مكان كي لا نعتقل!

من الذي جعل من هؤلاء الأكراد أوصياء على القرار السنّي السوري؟ من المسؤول عن هذا التغيّر المخيف في البنى الفكريّة للسنّة السوريين، ونحن منهم إرثيّاً على الأقل، الذين كانوا في فترة من الفترات الطليعة التقدّميّة الأهم في المنطقة الناطقة بالعربيّة؟

عام 1995، تحدّثنا في أحد أعمالنا عن القنبلة الكرديّة الموقوتة، التي تهدّد مستقبل الوطن؛ وعن أن الأكراد، الذين لا يستطيعون الوصول إلى الواجهة عبر تيار قومي أو وطني، ففاقد الشيء لا يعطيه، اختاروا الطائفيّة الغبيّة الكريهة بغالبيتهم – بعضهم القليل اختار الماركسيّة، المتمثّلة بالحزب شبه الكردي المسمّى الحزب الشيوعي السوري، جناح خالد بكداش، الذي ورثته زوجته وصال فرحة وابنها عمّار [كلّهم أكراد بامتياز] – لإشباع عقد السلطوية داخلهم: وبعدها، ليكن الطوفان!! فقامت قيامة هؤلاء علينا، وأشهروا رايات الفتنة الباهتة، حتى منع الكتاب! وما قلته قبل عشر سنوات، ها هو اليوم يتجسّد بأوضح صوره!!

يأتي الكردي من تركيّا أو العراق أو من بوطان، ولأنه سنّي بامتياز، يصبح آليّاً، كما هي الحال مع اليهودي القادم من بولونيا إلى فلسطين، مواطناً من الدرجة الأولى: مقارنة بالمسيحي أو الدرزي أو الاسماعيلي، أبناء الوطن الحقيقيين! بل إن هذا البوطاني، مستقوياً بانتمائه الطائفي، يستوقح إلى درجة شتم الفلسطينيين وتكفيرهم حين احتجّوا على استهانته بكل ما هو إنساني وقومي، حين كان اسحق رابين يكسّر أيدي أولادهم في الضفة والقطاع، والبوطاني يتحفنا من على التلفزيون الرسمي بهراء الحاخامين المسمّى قصص أنبياء بني إسرائيل، نقلاً عن إمامه أبي هريرة الذي نقل بدوره عن إمامه الحاخام كعب الأحبار!

بالمقابل، فمفتينا الكردي بلا منازع، يفتح النار على التيارات الأصيلة في الوطن من شيعة وعلويين وإسماعيليين، حين يقول علناً إن أم المؤمنين عائشة حاربت جيشاً من الكفّار! ومعروف للقاصي والداني أن عائشة لم تحارب سوى علي بن أبي طالب!!! ومعروف أكثر الذيول الإجراميّة للتكفير عند هؤلاء ورعاعهم!!!

هذه ليست فتنة؛ هؤلاء، بانتماءاتهم المذهبيّة الطائفيّة، فوق النقد والشبهات – وكل من عداهم..

في الجزيرة السوريّة حيث دارت رحى الفتن، كان ثمّة مؤامرة مخيفة، حيكت خيوطها بين الحسكة والسبتيّة في بيروت الشرقيّة وتل أبيب، لاستبدال عنصر حضاري وطني أصيل، بعنصر غريب متخلّف: وهكذا، تمّ إفراغ تلك المنطقة على نحو منتظم من السريان والكلدان والآشوريين واستبدالهم بأكراد استوردوا من تركيّا!!! وسكت الجميع، لأن الأكراد سنّة، في حين أن النازحين مسيحيّون!!!

هل ثمّة من يذكر منطقة الجزيرة السوريّة زمن نجار واصفر؟

هل ثمّة من يعرف كم يضيف السريان والآشوريون والكلدان إلى الدول التي هاجروا إليها؟

لنكن واضحين تماماً الآن، فالوضع السوري الحالي لم يعد يحتمل النفاق: ما الذي فعله شيوخ الأكراد الدمشقيّون بالوطن؟

معهد أبو النور التابع لآل كفتارو، الذي لا نمتلك فكرة عمّن يموّله – نعرف بالتفاصيل المملّة ما فعله الأخوة كفتارو ببعضهم في مرحلة ما وسنقدّمه مكتوباً يوماً لنسأل عن أدنى علاقة لهؤلاء بالدين – ولا عمن يسمح باستمراريته، لكننا نعرف تماماً أنه أوصل سمعتنا إلى الحضيض حين اعترف كثير من الإجراميين خارج سوريّا أنهم تلقّوا علومهم فيه!

ابنة المفتي المدعوة وفاء، التي تساهم بنشاط لا يجارى – تنافسها فقط الإبنة الروحيّة لكردي آخر هو البوطي، المسمّاة منيرة القبيسي في وضع نصف المجتمع السنّي السوري في برميل التخلّفالتطرّف الأصوليّة. الإرهاب عبر ما تدعيه من دعوة للعودة إلى الدين! وأثر ذلك القاتل على الجيل كلّه!!

الشيخ البوطي وأولاده (أيضاً) الذي انكشف مستوره في محطّة المستقلّة التي زكمت رائحة عمالتها كل الأنوف [هل تذكرون أن مدير تلك المحطّة الأخوانيّة، حين هدّدت بالإقفال، قال إسترضاء للمخابرات البريطانيّة إن شارون أفضل من كلّ زعماء العرب] حين استضافته في مسألة شيخ الإجرام ابن تيميّة، الذي كفّر العلويين والإسماعيليين وكلّ الطوائف الباطنيّة، وأعطى رأياً لا يقلّ أصوليّة عن آراء الطالبانيين في سيء الذكر إياه!!!

البوطي الذي دائماً لا يخشى إلا الفتن، وهو الفتنة بشحمها ولحمها، يسوق كمّاً كبيراً من رجال سوريّا، إلى مستنقع التطرّف والإرهاب والأصوليّة، في وطن متعدّد الطوائف والإثنيّات؛ وتحت إشرافه تعمل نصّابة أخرى اسمها منيرة القبيسي لجرّ النصف الآخر الذي يمكن أن لا يجرّه البوطي إلى المستنقع ذاته.

كانت ليلة مظلمة: يوم الثاني عشر من آذار الحالي!!

كانت ليلة مظلمة، طالما حذّرنا منها: لكن الطائفيين والإرهابيين كانوا يصوروننا على أننا أعداء للإسلام والعروبة؛ وأننا موفدو المارونيّة العميلة لحرق سوريّا!!! وكانوا يصدقونهم، لأن الطائفيّة كانت تعمي العيون: وربما النقود!!

كانت ليلة مظلمة: لم نسمع فيها صوتاً ولا تصريحاً لمفتينا الكردي – الذي تنطّح قبل زمن لإدانة شيراك بسبب الخرق المقدّسة المسماة بالحجاب – ولا للأخت وفاء ولا لعمّنا البوطي [هذا الكائن، حين قام البابا بزيارته التاريخيّة إلى سوريّا، دبّر سفراً سريعاً له إلى الخارج كي ينجو من لقاء البابا، وبالتالي إحراج نفسه أمام أتباعه من أنصاف المجانين] ولا لأستاذنا زياد الأيوبي ولا لأخينا المبجّل عدنان شيخو، الذي لم يبق شيخاً معتوهاً إلا وأقحمه على غرف نومنا تحت اسم الدين!!!

كانت ليلة مظلمة، افتقدنا فيها تلك البدور الباهرة!!!

هل تعرفون لماذا سكت هؤلاء، وهم أفضل من يمكنهم دحض مزاعم اضطهاد الأكراد في سوريّا؟ لأنهم إذا تكلّموا في صالح الوطن، أغضبوا جماهيرهم الكرديّة: والعكس صحيح!!!

إن كلّ من يقترب من أهل الوطن الأصلاء من هؤلاء الشوفنيين، إنما يكون مشاركاً لهم في تلك المؤامرة التي وضح من تزامنها تفجيرياً في كافة أرجاء سوريّا، والتغطية الإعلاميّة الغربيّة غير المسبوقة لها، وصمت الرموز الكرديّة الشهيرة عنها وكأن حرق الوطن لا يعنيهم في شيء، أن ما حدث حيك بعناية فائقة!!!

================

النـهار.. وظلام الأخوان

www.annaqed.com

نبيل فياض، 14 مارس 2004

زمان، قبل أكثر من خمسة عشر عاماً، كنت أكتب في صحيفة لبنانيّة شهيرة للغاية الآن! وكان ما أكتب لا يخرج عن إطار لاهوت الطوائف السوريّة الصغيرة، إسلاميّة كانت أم غير إسلاميّة، وفلسفة الكينونة.

مرّة، وكان قد التحق بتلك الجريدة، التي لم يبق حزب أو تيار أو جماعة إلا وساهم يوماً في دعمها، شخص لعب دوراً إعلاميّاً بارزاً أثناء الاحتلال الإسرائيلي لبيروت، فكّرت بكتابة مقالة موثّقة للغاية عن موقف اليهود الأرثوذكس من المسيح وأمه! لا أنكر بالمناسبة أن فكرة المقالة كانت بالاشتراك مع بعض آباء الكسليك الذين لم يستطيعوا هضم أن تترجم كراهيّة السوريين في المنطقة الشرقيّة من بيروت إلى ولع بالإسرائيليين! كان من المهم جدّاً أن يحيط عوام المسيحيين بالحدّ الأدنى ممّا يقوله عتاولة الحاخامات عن يسوع [يشو: كما يسمّونه] وأمه!!! ورغم الجهد الهائل الذي بذلته للحصول على مادتي المعرفيّة، ضاع الملف بين رئيس التحرير وصحفيّة في الجريدة وأحد المصحّحين. ولأن ثقتي بأولئك الذين ادعوا يوماً أنهم حصن الوطنيّة الأصمد كانت غير محدودة، لم أحاول يوماً الاحتفاظ بنسخة عن البحث غير تلك التي بحوزة الجريدة. وزاد الطين بلّة سقوط الشرقيّة بأيدي السوريين، ورحيل العماد ميشيل عون إلى باريس، وفتح رئيس تلك اليوميّة خطّاً قويّاً مع القادمين الجدد، والذي كان من متطلباته الأساسيّة أن يقدّمنا إلى رجل أمن سوري، احتفظ باسمه لنفسي منعاً للإزعاج! وهكذا.. تركت الجريدة إلى غير رجعة.

في ذلك اليوم تحديداً، ذهبت برفقة الصديق الصحفي الأسطوري أنطوان شعبان، إلى بيت المعلّم سعيد عقل في منطقة فرن الشبّاك. رآني المعلّم الكبير متعباً فسألني طبعاً عن السبب. فأجبته بالتفاصيل المملّة! عندها أخبرني المعلّم قصة، وهدّدني بالويل والثبور وعواقب الأمور إن أنا نشرتها! ولأن العمر لا ينتظر، والحياة لا تستأهل الخوف، سأنشرها:

قال لي المعلّم الأستاذ سعيد عقل: هنالك أربعة أسواق ماريكّا في بيروت، أشرفها ماريكّا البرج: الأوّل سوق رجال الدين، والثاني سوق رجال السياسة، والثالث . وهو الأسوأ . سوق رجال الصحافة!!! وصديقك السابق، أي رئيس تحرير تلك الجريدة، "قهرمانة" السوق!

حاولت أن أفهم منه أكثر منظوره الماريكّاني هذا للصحافة اللبنانيّة . يمكن تطبيقه على كل الميديا الحديثة، موجهة كانت أم غير موجهة . التي يقال إنها الأفضل والأنزه والأكثر موضوعيّة في سويسرا الشرق؛ فقال: قبل زمن زارني صحفي من جريدة أجنبيّة، وأجرى معي لقاء صحفيّاً حول شخصيّة فلسطينيّة هامّة للغاية؛ فأظهرت له بالوثائق الدامغة ارتباط هذه الشخصيّة بأجهزة استخباريّة تعتبر من منظور تلك الشخصيّة على الأقل عدوّة! ووعدني الصفي أن ينشر اللقاء في يوم معيّن في جريدته الشهيرة للغاية. . لكن هذا لم يتم! ولمّا استدعيت الصحفي لسؤاله عن هذا الخلل؛ قال بوضوح تام: اتصلت الجريدة المحترمة بالشخصيّة الفلسطينيّة الهامة جدّاً وأطلعتها على مضمون اللقاء؛ وقالت: لقد كلّفنا اللقاء كذا!!! فدفعت الشخصيّة أضعاف الكلفة كي لا ينشر اللقاء!!! وأضاف المعلّم الأستاذ سعيد عقل: أعتقد أن صاحبك رئيس تحرير الجريدة اللبنانيّة الشهيرة تلك أوصل مقالتك إلى الإسرائيليين عن طريق فلان، والبقيّة عندك!!

بعدها أخرج المعلّم الأستاذ نسخة من جريدته الصغيرة "لبنان"، التي كان يكتبها باللغة اللبنانيّة والحرف اللاتيني؛ وقال: هل تعرف كم أخسر في سبيل إخراج هذه الدوريّة الصغيرة إلى النور؟ اسمع: إن جريدة صاحبك اليوميّة،

بصفحاتها التي كانت تناهز الأربعين وقتها، بحاجة إلى ميزانيّة دولة كي تقف على رجليها بهذه القوّة؛ وأي حديث عن إمكانيّة الإعلانات في تغطية جزء لا بأس به من مصروف أية جريدة "كلام خرافة يا أم عمرو"..

ولأن النهار، جريدة غسّان تويني التي ورثها بديمقراطيّة باهرة ابنه جبران الذي ما انفك يهاجم أنظمة الحكم الوراثيّة في المنطقة، لا تختلف نوعياً عن أية جريدة في المنطقة غيرها، فقد تراكمت في درج ذكرياتي صفحات الألم وأنا أتابعها كلّ يوم عبر الانترنت، كونها ممنوعة (!!!) في سوريّا: يبدو أن فيروس الماريكّانيّة الذي اكتشفه سعيد عقل لم يترك عقلاً ولا جيباً إلا وأصابه ببعض التلّوث.

جبران تويني يكره سوريّا، دولة وتراثاً وحضارة وشعباً؛ ولأنه لا يستطيع كما فعل غيره وربما والده الارتماء في أحضان إسرائيل نكاية بسوريّا، فقد اختار المعارضة السوريّة . إن صحّت التسمية . حصان طروادة، لصب نار حقده على سوريّا.

قبل أن يتفلسف أحد، فأنا أشد معارضة للدولة السوريّة، بشكلها الحالي، من أية منظومة معارضة أخرى: لكني مع الوطن حتى النهاية. لست ضد أحد في الدولة السوريّة، لكني ضدّ منظومة فساد استشرى وأصوليّة إسلاميّة تأكل الأخضر واليابس وتشيع روح الطائفيّة البغيضة في أرجاء وطن الحضارة الأقدم؛ ضدّ حزب فيه من الحزبيين الانتهازيين أضعاف لا حصر لها مما فيه مما يمكن أن نسميه بعثيين؛ ضد احتكار العروبيين لهوية الوطن، ضد إمساك الشعوبيين المستوردين من بلاد الكرد والأفغان وإيران والشيشان [هذه الأخيرة هامّة جدّاً لوجود شيشاني متطرّف الآن في منصب هام للغاية] برقبة الوطن لغايات لا علاقة لها بمستقبل بلد الكلمة! مع ذلك، فالدولة، بشكلها الحالي القابل للتطوّر على الأقل، أفضل بما لا يقارن من معارضتنا الحكيمة. الدولة لا تستطيع لظروف موضوعيّة أن تسير في درب الأصوليّة الغبي إلى نقطة اللاعودة، في حين أن المعارضة السوريّة الحكيمة بدأت مسيرتها أصلاً من نقطة اللاعودة تلك بقبولها أن تكون لعبة تحرّك بالريموت كونترول من جماعات الإرهاب الديني، خاصّة الأخوان المسلمين. هذا يعني أنه . لا سمحت الآلهة . إذا أمسك هؤلاء المعارضون بزمام الأمور في سوريّا، فبدل الاعتقال الذي ننتظره كلّ يوم مع كلّ مقالة ندبّجها، سنساق كالأنعام إلى المسلخ الإسلامي الشهير.

إن أشهر منتدى معارض في سوريّا هو ذلك الذي يحمل اسم جمال الأتاسي!! وقد روى لي الصديق الدكتور محمّد شحرور، وكان يحاضر قبل زمن في هذا المنتدى "الديمقراطي"، أنه تفاجأ باعتراضات المعارضين من الحضور المتحمّس للحريّة في دولة القمع عندما تجرّأ . أي الدكتور شحرور . على طرح مقولة بسيطة، وثقتها شخصيّاً بالتفصيل الممل، عن العلاقة بين صحيح البخاري والتلمود البابلي. كانت صدمة الدكتور شحرور كبيرة لأنه يفترض أن هؤلاء المعانين من قمع الرأي الآخر ينبغي أن يكونوا قدوة لغيرهم في التعامل الديمقراطي مع المخالفين. لكن ما فات الدكتور شحرور هو أن الدولة، كونها مضطرة لادعاء العلمانيّة، قوانينها وضعيّة يمكن مناقشتها؛ أما معارضتنا الإسلاميّة [لا تدعي ذلك علناً] ذات القوانين والتواريخ والعقائد والفقه والحكايا التي هبطت من فوق بلا كمّ ولا كيف، فمناقشة أي من ركامها الفكري يمكن أن يطيح برأس المناقش الذي هو "زنديق يطعن في شرع الله"!!

في الأيام الماضية أتحفنا جبران تويني في صحيفته "النهار" بمقالات لكاتب معارض لم أسمع به من قبل . ربما لأني أتحاشى القراءة بالعربيّة منذ زمن طويل كي لا أصاب برهاب الآخر . كان جوهر كتاباته كلّها يصبّ في مستنقع الدفاع عن حركة الأخوان المسلمين والدعوة إلى مصالحة تاريخيّة بينها وبين السلطة!!! وهكذا، تنتهي مشاكل المنطقة؛ فيطعم الجياع وتحلّ الديمقراطيّة . الإسلاميّة طبعاً . ويسود السلام . مقابل دار الحرب حتماً . وتعلو رايات الحريّة التي لا حدّ عليها غير حدود الله والمشايخ !!! [سمعت أن إحدى قرى طالبان كانت تعتبر أن

تبوّل الرجل واقفاً اعتداء على حدّ من حدود الله]! كان أوقح ما كتب في تلك المقالات المشبوهة؛ قول هذا المفكّر، في معرض دفاعه عن حلب، إن المدينة جذريّة، بعكس دمشق البراغماتيّة، لأنها ظلّت نقيّة من الأغراب: ويقصد بذلك العلويين بلا شك!!!

العلويون في حلب أغراب: فماذا سنسمّي الموارنة في الرقّة؟ ماذا سنقول عن السريان، أصل سوريّا وفصلها، في طرطوس أو صيدا؟ ما هي التسمية التي تليق بالمرشديين في الميادين؟

هذا أنموذج من أولئك الذين يقدّمون أنفسهم، عبر التويني، للعالم بوصفهم معارضة سوريّة!!!

هذا أنموذج من أولئك الديمقراطيين الذين يطرحون أنفسهم باعتبارهم البديل الحضاري لنظام القمع المبرمج في سوريّا!!!

إذا كان مفكّريهم . أجلّكم . يحكون بلغة العلوي والسنّي والمسيحي؛ فماذا يمكن أن نتأمل من عوامهم؟

ليست مشكلتنا في هذا السنّي المتعصّب، المرتدي لقناع حضارة زائف يفشل في تغطيته لندب الطائفيّة المترامية تحت الأعين وفوق الأنف، فلا أحد يرتجي العنب من الشوك؛ لكن المصيبة كلّها في هذا التويني، الذي هو على استعداد للتحالف مع الشيطان لتنفيس عقده السوريّة المزمنة: أو عقد الذين يعمل لأجلهم!!

جبران التويني، وليسأل لاهوتي كنيسته . وهو الأرثوذكسي . صديقي الحميم الراهب اسبيرو جبّور عمّا يمكن أن يحيق به كمسيحي إذا لا سمح أي إله ومدّ هؤلاء الطائفيّون الصغار أيديهم إلى السلطة!!!

هل قرأ التويني يوماً كتاب أحكام أهل الذمّة المنشور في جامعة دمشق الحكيمة؟

هل سمع التويني عن وضع الأقباط في مصر، التي يتحكّم أمثال من يفتح لهم صفحات جريدته العظيمة بشارعها؟

نحن معارضة: معارضة ليبراليّة علمانيّة تدعو إلى وطن سوري متعدّد القوميّات والأديان والعقائد تحت راية الانتماء إلى سوريّا علمانيّة ليبراليّة حضاريّة؛

نحن معارضة: معارضة وطنيّة تأخذ أمثولة لها زنوبيا الآراميّة التي جمعت في بلاطها، ضمن كثر غيرهم، لونجبينوس الحمصي الوثني وبولس السميساطي المسيحي؛ في سبيل سوريّا؛

نحن معارضة تهدف إلى وضع سوريّا في قلب المستقبل، بعد أن كانت روح ماضيه؛

أخيراً؛ وباختصار شديد:

إن ما يحصل في النهار منذ مدّة يرشح زعيمها لأن يأخذ قصب السبق في سوق ماريكّا الصحافة: بلا منازع!!!

=========================

السباق السنّي الشيعي إلى.. الهاوية

نبيل فياض
www.annaqed.com

لا مجال للإنكار أن أشهر "رالي" بشري في منطقة الشرق الأوسط، منذ أن جاء الخميني إلى السلطة، هو ذاك الذي بين السنّة والشيعة . لسحب الناس إلى الهاوية. ورغم كل الظروف الموضوعيّة المعيقة لرالي الحائط المسدود هذا، فمن الواضح أنه كالسيل الهادر الذي لا سبيل إلى وقفه أو السيطرة عليه. ورغم الاختلافات والفروقات الواضحة بين السنّة والشيعة، فالسمة المشتركة بين التيارين، هو أن كليهما، على حدّ سواء، يقدّم لأتباعه المنّ والسلوى وأنهار اللبن والخمر والبراندي في العالم الآخر، ويجرّهم في هذا العالم إلى الجحيم: كما أن كليهما يواجه مشكلة التناقض القاتل بين المأمول والواقع؛ بين النظريّة والتطبيق؛ وبين المتخيّل والحقيقي!

في إيران الشيعيّة أراد المشايخ احتكار الجنّة وعدم مقاسمة الناس على خيرات الأرض! وهكذا، صار السفير شيخاً والوزير ملاّ والاقتصادي ميرزا وراقص الباليه.. آية الله. وهرب الإيرانيون المثقفون من وطن الملالي الكريه هذا، وانتشروا في كافّة أصقاع الأرض. صار الإيرانيّون، كدقيق الشحاذين، مشرورين من طوكيو إلى لوس أنجلوس ومن ركيافيك إلى فوكلاند. . راح وطن زرادشت العظيم ينضح تدريجيّاً علماءه ومفكّريه لصالح دعاة الغيبة الكبرى.. عن الحضارة.

كان الاقتصاد الإيراني الأكثر تضرّراً بأصابع زينب الملالي: فرغم أسلمة الاقتصاد . ربما بسببها . ما تزال أعلام الفقر ترتفع على نحو متزايد في شوارع فارس وبلوشستان وأذربيجان وعربستان. لأنه بعكس ما يزعم العلاّمة الشهيد الصدر . قرأت له كتاباً مقيتاً يصلح لطلبة الصف الثاني الإعدادي في المدارس الشرعيّة في الريف، اسمه *اقتصادنا* : أي، الاقتصاد الإسلامي؛ وكأن الإسلام جاء بشيء له علاقة بأبسط مفاهيم الاقتصاد وأكثرها بدائيّة!! . فقد أثبت الملالي الأجلاء أروع فشل اقتصادي إداري سياسي في واحد من أكثر بلدان الشرق غنى وحضارة.

الوضع في إيران: مداخلة توثيقيّة.

مما لا شكّ فيه أن مشايخ السنّة يتميّزون على أخوانهم الشيعة بصفة هامّة للغاية: افتقادهم، عموماً، النفاق! لقد كان السنّة الحكّام في طول التاريخ الإسلامي وعرضه: وإرهابهم، الواضح حتى للعميان، كان يطال الجميع . وعلى رأسهم الطوائف الإسلاميّة غير السنيّة. من هنا، اتقاء للإرهاب السنّي، اختار المسلمون غير السنّة، التقيّة [أو النفاق] حجاباً للحماية من سيف البطش السنّي. كان النفاق في البداية سياسيّاً . اجتماعيّاً . طقسيّاً؛ ثم حظي بنوع من التكريس الديني عبر مذهب التقيّة. من هنا، يبدو مستحيلاً أخذ كلمة مما يقوله تجّار المتعة في إيران على محمل الجد. لكن الواقع يقول، إن الغالبيّة العظمى من الشعب الإيراني تنتمي إلى المذهب الشيعي، لهذا فهم الأكثر فهماً لأبجدية نفاق السيّاد والأقدر على معرفة "أين دفنوه"! لذلك، فشل تيّار عمنا الخميني وولاية فقيهه في الانتخابات البرلمانيّة الماضية بروعة لا يحسد عليها؛ واختار بالتالي هذا العام أن ينقّي مرشحيه على الطبليّة حتى لا يكنّس الشعب الإيراني، ذو الحضارة الأعمق، هذا الركام المقرف من دعارة المتعة ونفاق التقيّة. فما هي الأحوال في إيران، إحدى أغنى دول العالم بالنفط وسواه، بعد أن اجتاحتها الكارثة الخمينيّة؟

لا ننكر أن سويّة الوعي الديموغرافي عند الشعب الإيراني، مقارنة بالشعوب الناطقة بالعربيّة، جيّدة؛ حيث أن التزايد السكاني في إيران لا تتجاوز 8،%، ومعدّل الإنجاب للمرأة الإيرانيّة هو 2،2 مع ذلك، فلأن المشايخ أضحوا يضعون أصابعهم في كلّ شاردة وواردة، فقد عادوا بالبلد سنوات إلى الوراء؛ ونعتقد أن محاولتهم الأخيرة للمسك بعنق إيران وإخراج الإصلاحيين من المولد بلا حمّص ستكون المسمار الأخير في نعش الجسد الإيراني

المتعب. من ناحية أخرى، فقد كشف تدخّل خامنئي الدكتاتوري السافر في الترشيحات للإنتخابات الإيرانيّة أن لا جمهورية في إيران ولا من يحزنون: وأن الديمقراطيّة الإسلاميّة بدعة، "وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار". دون نفاق أو تقيّة؛ يقول أحد التقارير المحترمة: "مع أن البلد يمتلك احتياطات كبيرة من النفط والغاز الطبيعي، يخمّن بعض الاقتصاديين الإيرانيين أن ما يقرب من 40 بالمئة من السكّان يعيشون تحت خط الفقر..

بحسب تقديرات الحكومة، فإن ما يقارب من 900000 وظيفة جديدة لا بدّ من تأمينها سنوياً لتلبية قوة العمل الشابّة ومنع الزيادة في البطالة . [التي تقدّر] حوالي 16 بالمئة رسميّاً، وفوق 20 بالمئة غير رسميّاً. مع ذلك، يقرّ المسؤولون الحكوميّون أنه من الصعب خلق أكثر من 500000 فرصة عمل جديدة كلّ عام..

التطوّر الاقتصادي في إيران ما قبل الثورة [الخمينيّة] كان سريعاً. فقد بدأت إيران [الملكيّة]، التي هي مجتمع زراعي تقليدياً، سلسلة من الإصلاحات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والإداريّة والتي أضحت تعرف بثورة الشاه البيضاء. جوهر هذا البرنامج كان إصلاح الأراضي. في السبعينيّات أحرزت إيران تصنيعاً هامّاً وتحديثاً اقتصاديّاً رغم أن حجم النمو بدأ بالتباطؤ في أواخر السبعينيّات. ومنذ الثورة [الخمينيّة] عام 1979 ازدادت السيطرة المركزيّة، وكان للفوضى التي سببتها الحرب العراقيّة الإيرانيّة وانهيار أسعار النفط في نهاية عام 1985 أثراً كارثيّاً على الاقتصاد..

في أيلول 2002 قالت الصحافة الإيرانيّة أيضاً إن نحواً من 12 مليون من السكان البالغين 66 مليوناً يعيشون تحت خط الفقر.

البطالة تقدّر بين 25 و 30%، والتضخم هو حوالي 20 إلى 25%. البطالة بين الفئة العمريّة 25 . 30 تصل إلى 25%، ومعدّل الدخل السنوي يقلّ عن 4000 دولار أميركي، الذي يعتبر متدنيّاً تماماً بسبب السويّات التعليميّة المتعاليّة بين الشباب.

وحول الوضع الأخلاقي في دولة القديسين السود، نقتطف العبارات التالية من أحد التقارير الشهيرة: "أكد وكيل مدير قسم الشؤون الاجتماعية في جهاز الشرطة الإيرانية (ناجا) انخفاض مستوى الأعمار في حقل الجريمة بسائر أشكالها.

وقال الشيخ حسيني في حديثه لوكالة الأخبار الجامعية / إيسنا/: إن ما يبعث على القلق أيضاً ارتفاع نصيب النساء في كثير من الجرائم، حتى تلك الجرائم التي تتطلب خشونة وعنفاً، وكانت محصورة في العنصر الرجالي، من قبيل السطو المسلح، قطع الطريق على الناس، المتاجرة بالمخدرات.. وما شابه ذلك..

وأضاف: أن ظاهرة الأطفال المشردين والمتسكعين في الشوارع وكثير من الظواهر الاجتماعية الخطرة، لا تزال موضوع جدل بين المعنيين، ولم يتوصل بعد إلى تعريف موحد وشامل بشأنها، كما لم يتوصل بعد إلى تحديد ما إذا كان الأطفال الذين يشتغلون في أعمال من نحو صباغة الأحذية وبيع الورد.. إلخ هم من صنف أطفال الشوارع أم لا.

ومضى حسيني للقول: من الطبيعي أن أحد أسباب تزايد المشاكل الاجتماعية، هو ازدياد تعداد السكان الذي يشكل الشباب معدل النصف منه. وهذه السن تشكل في الغالب سن الاستعداد للجريمة، هذا في حين لم نشهد مثل هذا التصاعد في معدل الجرائم المختلفة في أي وقت مضى.

وفي معرض إشارة هذا الخبير في الشؤون الاجتماعية إلى زيادة وسائل الاتصال الخارجي وإشاعة الفاحشة والأمور المخلة بالآداب عن طريق هذه الوسائل، قال: تعاني بلادنا أيضاً من أزمات في الاقتصاد والثقافة بالإضافة إلى الصراعات السياسية، التمييز والتفرقة، والتعامل غير العادل في المسائل السياسية، والنواقص الكثيرة على صعيد الإصلاح الاجتماعي، كل ذلك جعل مجتمعنا تربة خصبة لنشوء الجريمة.

وقال أيضاً: إن بروز ظواهر مثل الخروج على القواعد العامة، الآثار السلبية للتعاملات الاجتماعية السائدة، ضعف مؤسسات التربية والتعليم، والمراكز المعنية بشؤون الأسرة، ارتفاع مستوى المنكرات وأنواع وأقسام الجرائم، وسوء الاستفادة من الكمبيوتر و.. إلخ، جميع ذلك سبب أضراراً جسيمة للبنية العامة لمجتمعنا.

كما اعتبر وكيل مدير القسم الاجتماعي في جهاز الشرطة الإيرانية / ناجا/ أن تصاعد نسبة العاطلين عن العمل؛ والتوزيع غير العادل للأموال العامة، أزمة الأخلاق، اتساع نطاق تعاطي المخدرات.. من أهم الأضرار التي لحقت بالمجتمع الإيراني مضيفاً بهذا الصدد: إن تصاعد وتيرة الإدمان على المخدرات في أوساط المجتمع، أمر يبعث على القلق، وهو ناشئ في جانب منه عن موقع إيران على الطريق الرئيسي لترانزيت المخدرات، فضلاً عن الوضع الاقتصادي الخانق الذي جعل سكان المناطق الحدودية لإيران يعتمدون على تهريب المخدرات، كموئل رئيسي لحياتهم المعيشية.

وأعرب حسيني عن اعتقاده بأنه "إذا لم تبذل محاولات مناسبة باتجاه معالجة ظاهرة تجاسر جيل الشباب على القيم الأخلاقية والمعنوية، التي تزيد من الهوة بين هذا الجيل والجيل القديم، فإن ذلك سيؤدي إلى تفكك المجتمع واضطراب جميع مفاصله".

وإذا كان المواطن العادي في الشرق الأوسط والعالم لا يعرف عن إيران سوى التسويق الإعلامي لوجهي خامنئي وخاتمي الكريمين وقبلهما عمّنا الخميني (قده)، فالواقع الفعلي مختلف بالكامل عن ذلك الإعلامي؛ يقول التقرير التالي: "يجمع النظام السياسي الإيراني سمات وخصائص خاصة به إذ يتأرجح بين النظام المفتوح، متمثلاً ذلك في الانتخابات والآخذ بمبدأ الفصل بين السلطات ومبدأ الرقابة والتوازن بين السلطات الثلاث، والنظام المغلق، المتمثل في سيطرة تيار سياسي واحد ووضع قيود على المرشحين إذ يقوم مجلس الخبراء وزعيم الدولة (ولاية الفقيه) باستبعاد العناصر التي تتعارض آرائها وأفكارها مع فلسفة الدولة ولا يسمح بالتعددية الحزبية. ونتيجة لذلك لا توجد معارضة سياسية منظمة بعد نجاح الحكومة في القضاء على الأحزاب السياسية المعارضة كحزب توده الشيوعي ومنظمة فدائي خلق.. وتجدر الإشارة هنا إلي أن المعارضة في الخارج، عموما، منقسمة وضعيفة. في حين أن المعارضة الداخلية محدودة وتتمثل في الكتلة الوطنية (حركة حرية إيران) بقيادة الدكتور إبراهيم يزدي الذي شغل منصب وزير الخارجية في حكومة مهدي بازركان وتظم عناصر تكنوقراط هدفهم إصلاح الوضع السياسي القائم وليس تغييره ومعارضة والتي تم استبعاد مرشحيها للرئاسة إضافة إلى مجموعة من العلماء يقودها آية الله منتظري، الذي لا يزال تحت الإقامة الجبرية بعد أن كان المرشح الرئيسي لخلافة الخميني، وتهدف كذلك إلى إصلاح النظام وليس استبداله.

ويعاني المجتمع الإيراني إضافة إلى الانقسامات السياسية من المعضلة الأثنية والانقسامات المذهبية. فالمجتمع الإيراني يشتمل على أعراق متعددة إضافة إلى الفرس 51 % على العرب 1% والأزاريين 20% والأكراد 9% والتركمان 8% والبلوش 1% وهو ما يساوي تقريبا نصف المجتمع. ونتيجة لذلك يتحدث فقط 58% اللغة الفارسية في حين يتحدث الآخرون التركية 25% والكردية 9% إضافة إلى 5 لغات أخرى بواقع 7%. ويوجد عدد من الديانات تتمثل في المسيحية واليهودية والزرادشت والبهائية. وتتضاعف معضلة الاندماج الاجتماعي في حقيقة الانقسامات المذهبية إذ تشكل نسبة السنة حوالي 10% من السكان تحتوي على أكراد وعرب وبلوش وتركمان. وعلى الرغم من ذلك فإن إيران كدولة لا تواجه خطر التفكك أو الانهيار الداخلي".

تناكحوا:

بالانتقال إلى سوريّا التي تعاني أزمة اقتصاديّة طاحنة حيث لا يتجاوز دخل الفرد بأحسن حال 3000 دولار أميركي [نلاحظ هنا أن الأرقام التي توردها الإحصائيّات لا تعبّر عن الواقع الفعلي؛ فالدخل العام للدولة يقسّم

على عدد الأفراد لينتج ما يسمّى بالدخل الفردي: وهكذا، فإن دخل حوت رأسمالي سوري، مثل صائب نحّاس، يجمع مع دخل صديقي راعي الغنم عويّد الراضي، ويقسم الناتج على إثنين]، نجد أنه من الضروري حصراً . فالموضوع في غاية التشعّب . مناقشة مسألة التزايد السكّاني الأرانبي المستند إلى ركام من أحاديث انتهت صلاحيتها، كالحكومات العربيّة، قبل ولادة التاريخ. فهذا الانفجار البني . آدمي [إن صحّت التسمية]، الذي يشعل فتيله المشايخ . في سوريّا بشكل خاص: الشيخات المهتاجات . هو الأعمى الذي يقود عميان المسلمين في الطريق القصيرة للغاية إلى الجحيم.

لقد تغيّرت الأوضاع تماماً عمّا كانت عليه في النصف الأخير من القرن الماضي، حين كان ثمّة مصارف يمكن أن تستوعب الفائض السكّاني لمجتمع حيث الجنس وسيلة التعبير الوحيدة عن التعلّق بالحياة: فطاقة الهجرة إلى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا، التي كانت أصلاً أضيق من أن يمر فيها الإبهام، سدّت مرّة وإلى الأبد بقفل الحادي عشر من أيلول؛ أوروبا الغربيّة، التي تدفع غالياً اليوم ثمن غباء ديمقراطيتها وسخافة حقوق إنسانها . هل تكفي الإشارة إلى جو التلوّث الخانق الذي تشيعه حجابات ونقابات زنجيّات شمال إفريقيا، اللواتي جئن أصلاً لنهب الغرب الأوروبي، في جماليات وطن كوليت وسيمون دو بوفوار وإينوك إيميه وفرانسواز ساغان و*بونجور ترستس* ؟ . أضحت كاملة العدد، بل إن الشعوب الأوروبيّة، التي ساندت يوماً قضايانا العادلة"، أدمنت كل أنواع الكورتيزون الذي يقيها التحسّس من رؤية المسلمين؛ والخليج؟ العوض بسلامتكم! هل تتذكّرون الرفيق البعثي صدّام حسين، الذي وضع الخليج على الحديدة وهو يضحك على أهل العقالات بأنه حامي السنّة ضد ملالي المتعة؟ هل تتذكّرون دولة . إن صحّت التسمية . الكويت التي أوصل غزوه إياها الخليجيين إلى رهن حتى الحديدة عند العم سام؟ في الخليج مسموح الآن فقط باستيراد فنانات [!!!؟؟؟] من لبنان ومصر وسوريّا لتهييج المشايخ ضدّهن . يمارسون العادة السريّة في الخفاء على أصواتهن . وتهييج الأمراء عليهن: باقي الوظائف، مقفلة على أهل البلد المحليين الذين يتزايدون، هم أيضاً، بسرعة الضوء.

ماذا يمكن "لعلمائنا" الأفاضل أن يفعلوا بأحاديث من نمط: تناكحوا! تكاثروا! فإني مفاخر بكم الأمم؟ أو أن الطفل يلد ورزقه في عنقه؟ ما الذي سيقوله لنا رفيقنا البعثي أحمد ضرغام، الذي يمنع أعمالنا النقديّة ويسمح بكتاب الشيخ التحفة، نور الدين العتر: *ماذا عن المرأة*؟ والذي يطلب فيه هذا الكائن العقلاني من شعبه العظيم أن لا يستمع لدعاوى مروّجي مؤامرات تحديد النسل، الذين يريدون القضاء على المسلمين كي يسيطر الكفار على المال والبلاد!!!!

سوريّا.. السنيّة بامتياز:

لمن لا يعرف، فسوريّا أبعد عن أن تكون دولة علويّة، كما يريد إعلام الأخوان تصويرها! أغبى شيخ سنّي سوري له من الوطن أضعاف ما له أهم مثقف علماني! بل لقد أثبتت حوادث رمضان الماضي، حيث تمّ سوق أحد الدروز كالنعجة بأوامر من وزير العدل السوري، الذي يعرف القاصي والداني الوضع الفعلي لوزارته، إلى سجن عدره لأنه مفطر في رمضان، أن السنّة مازالوا يقبضون على الوطن من عنقه! والحال نحو الأسوأ باستمرار! المثل الألماني يقول: "لا تعط الشيطان إصبعك لأنه سيلتهم يدك". والدولة، والحق يقال، علمانيّة عموماً؛ بمعنى أنها حياديّة تجاه الدين: وهذا خطأ. ففي وضع حرج كالذي نعيش في سوريّا، حيث المشايخ يتسلّطون على الناس بإرهابهم الماورائي البشع، لا بدّ للدولة من التدخل: فالسكين تطال الجميع. وهذا الانحدار الذي يدفع إليه المشايخ، ليس مقصوراً على طبقتهم فحسب. فالدولة التي حاولت استرضاء التيارات الإرهابيّة وإزالة الصبغة الطائفيّة عن النظام عبر إعطاء الشيطان يدها، التهمها الشيطان كلّها. وما النشاط منقطع النظير لتيارات التكفير التي يرعاها مشايخ تعتقد السلطة خطأ أنهم في جيبها إلا الدليل الأبرز على هذا الانتشار السرطاني للأصوليّة

السنيّة في سوريّا. سوريّا التي كانت قبل أربعين عاماً شعلة حضارة، تمشي الآن مغمضة العينين، وهي تضع إحدى يديها بيد البوطي والأخرى بيد منيرة القبيسي، بخطى سريعة للغاية نحو الهاوية. والهاوية التي لا قعر لها هنا، والتي هي أساس كلّ مآسي البلد، هي التزايد السكاني. وحتى إذا كانت الدولة تأخذ اللاموقف من هذه المسألة الخطيرة حتى لا يقال إنها تتدخل في أمور الناس؛ فاللاموقف هنا هو موقف داعم للتيارات الماورائيّة، التي لا يهمها حرق العالم في سبيل ما تعتقد أنه حقيقة. و 11 أيلول الشاهد الأفضل.

سوريّا نور الدين العتر الذي يريد القضاء على الصهيونيّة بالتناسل [نكاح يعني]، قفزت من ما يقرب ثلاثة ملايين عام 1952 إلى ما يقارب العشرين مليوناً عام 2004. ومقابل إنجاب أرانبي يأكل الأخضر واليابس، تميل الموارد الطبيعيّة، خاصّة الماء، إلى التآكل؛ وبردى، على سبيل المثال، الذي كان يروي دون انزعاج دمشق الخمسينيّات التي كان عدد سكانها أقل من نصف مليون، أضحى الآن مكبّ نفايات مع عدد سكان تجاوز الملايين الخمسة. وتزداد الصورة ظلاميّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار افتقار الدولة إلى مشروع لمعالجة هذه المشكلة المزمنة.

إن عقلنة الأعراف . والأمر ليس بالسهل في بلد يعيش على الخرافة منذ ألف وخمسمئة عام . هو المدخل الأساسي لمقاربة الكارثة السكانيّة السوريّة؛ ويمكن أن نلاحظ، وهنا أتحدّث طائفيّاً، أنه كلما ارتفعت سويّة الوعي والعقلانيّة بين فئة سكانيّة، كلما قلّ إنجابها للأطفال؛ والعكس صحيح: من هنا، فإن أقل الطوائف السوريّة إنجاباً هي المسيحييّن والدروز؛ وأكثرهم السنّة. ولا مجال على الإطلاق لأي إصلاح في الاقتصاد السوري شبه المنهار، ما لم تتم معالجة حاسمة لمسألة التكاثر السكّاني: فالأفواج المتزاحمة من المواليد الجدد كافية لإجهاض أي مشروع إنمائي وإن كان بحجم "مارشال".

<u>مقارنة مفزعة:</u>

مما لاشكّ فيه أن السويد واحدة من أغنى وأرقى دول العالم؛ ومما لاشكّ فيه أيضاً أنه لو فتحت سفارة السويد في دمشق أبوابها للسوريين كي يهاجروا إلى هذه الدولة الأقلّ التزاماً دينيّاً لما بقي في سوريّا أكثر من مليون نسمة. الوضع الاقتصادي في السويد معروف، والوضع الاقتصادي في سوريّا معروف أيضاً. ولا أعتقد أن المسألة السكّانية منفصلة في البلدين عن الوضع الاقتصادي. ولا بأس هنا من تقديم مقاربة غير اختصاصيّة للمسألة السكّانية في السويد، نعقبها بأخرى حول المسألة ذاتها في سوريّا.

بين العامين 1940 و 1985، وبسبب فتح باب الهجرة، ازداد عدد سكّان السويد من 6،4 مليون إلى 8،3. لكن الخصوبة استمرّت في الانهيار، حيث انخفض معدّل إنجاب المرأة الواحدة من 2،22 عام 1955، إلى 1،55 عام 1985. ومن المسح القومي الذي جرى عام 1982، تشير النتائج إلى أن النساء يمتلكن عوائل صغيرة للأسباب التالية:

تزايد عدد النساء اللواتي يمضين وقتاً أطول في الدراسة وبالتالي يؤخّرن الحمل.

النساء عاليات مستوى التعليم يمتلكن أطفالاً أقل.

تزايد نسبة النساء في قوّة العمل وتزايد مستوى تعليمهن واحتلالهن للوظائق الحكوميّة العالية.

تزايد عدد من يعيشون معاً خارج إطار الزواج وهم أقل رغبة بامتلاك الأطفال من المتزوّجين.

النساء العاملات يجدن من الصعب عليهن إيجاد مراكز رعاية تفي بالغرض.

وسائل منع الحمل تستعمل على نطاق واسع.

أعباء البيت، رعاية الأطفال، والطبخ والتسوّق تقع أوّلاً على عاتق النساء سواء أكن يعملن أم لا.

نشير أخيراً إلى أن معدّل الأعمار في السويد هو الأعلى في العالم (75،8)، ومعدّل الوفيّات هو الأخفض.

بالمقابل، فإن الإحصاءات الرسميّة، كما سبق وأشرنا، تتحدّث دون غموض عن الوضع المأساوي للحالة الديموغرافيّة السوريّة. ففي حين كان عدد سكّان سوريّة عام 1940 ما يوازي 25970000 نسمة تقريباً، من المتوقع أن يصل إلى 199480000 في نهاية عام 2004. مع ملاحظة أن نسبة النمو السكانيّة هي 2،58% (إحصاء عام 2000). دون أن ننسى هنا كمّ السوريين الذين غادروا الوطن في هجرة مؤقتة أو دائمة، مقابل ما استقبلته السويد من مهاجرين من سوريّا وغيرها.

نقدّم هنا قائمة بالدخول الفرديّة لبعض الأقطار الناطقة بالعربيّة، إضافة إلى تركيا وإسرائيل، مقدّرة بالدولار:

الإمارات: 2085045؛ قطر 2054602؛ الكويت 1463373؛ البحرين 1279713؛ السعوديّة 1024952؛ عمان 792346؛ لبنان 511178؛ الأردن 429583؛ سوريّا 315928؛ العراق 245815؛ الضفّة الغربيّة 97057؛ اليمن 79139؛ قطاع غزّة 61179.

من ناحية أخرى فالمعدّل في إسرائيل هو 2023375؛ وفي تركيّا 695302

في السويد، معدّل الدخل هو 25400000 (إحصاء 2002).

ملاحظة بسيطة:

لابدّ أن نذكر هنا أنّ معدّل الدخل العالي في الأقطار الخليجيّة مسألة لا علاقة لشعوب تلك البلدان به؛ بمعنى أنه في حال انتهى النفط فسوف يعود أصحاب الدشداشات إلى بيع الملح في بلدات البادية السوريّة. ولا بأس أيضاً من أن نذكّر أن الدخل العالي هو فقط في تلك الدول التي لا يزيد تعداد سكّانها عن سكان إحدى بنايات القاهرة العالية.

نبيل فياض، 2\21

رسالتي إلى السوريين واللبنانيين

www.annaqed.com

نبيل فياض

في أيلول عام 1993، اكتشفت في معرض كتاب مكتبة الأسد، التي كان يديرها الوزير السوري الحالي غسّان اللحام، كتاباً اسمه *ضوابط التكفير* في دار نشر ممتلكة لسوري أخواني لاجيء في عمّان . عاصمة الإرهاب الديني الحالي . من آل دعبول. الكتاب لمؤلف من حثالة الوهابيّة الإجراميّة اسمه محمود القرني ومنشور في عمّان. ورغم أن هذه الوثيقة الإجراميّة سعوديّة الأصل أردنيّة . باستثناء ظاهرة ديانا كرزون، فالأردن، الذي هو أقل بلد في المنطقة طعماً ولوناً، أحب أن يتميّز بشيء فاختار الإرهاب وربما العمالة . التسويق فإنها موجهة أصلاً لسوريّا ولبنان. في تلك الوثيقة الإجراميّة ورد ما مفاده أن العلويين والإسماعيليين والدروز "أشدّ كفراً ونفاقاً من النصارى واليهود"، مسطرة التكفير الأشهر عند أهل السنّة والجماعة. من هنا، فإن واجب المسلمين – يعني السنّة . برأي الكتاب التحفة، قتل رجال تلك الطوائف واستعباد أطفالهم وسبي نسائهم واستحلال أموالهم. ورغم أن ما من كتاب يمرّ، كما يفترض، دون علم الجهة الأمنيّة المسيطرة على المعرض، فقد كان هذا الكتاب معروضاً في دار النشر الأخوانيّة تلك دون أية كشوفات رسميّة بطريقة استفزازيّة للغاية. أثرت زوبعة هائلة ضد الكتاب والذين سمحوا به، انتهت بطرد القائم على المعرض، حسن أبو رشيد ومصادرة الكتاب. لكن الجهات الأصوليّة وعملاءها في الأجهزة لم تغفر لي مافعلت: وما زلت أدفع حتى الآن ثمن دفاعي عن مواطني البلد من مسيحيين واسماعيليين وعلويين ودروز ومرشديين ويهود: وسأظل أدفع ما دامت اليد العليا الخفيّة في سوريّا هي للأصوليين . وهاكم الأدلّة:

(1) . في رمضان الماضي عرض التلفزيون السوري مسلسلاً كوميدياً اسمه بقعة ضوء: وفي ثلاث من حلقاته تناول ظواهر التعهير المشايخي للشعب السوري، خاصة الظاهرة الاستعهاريّة لبنات سوريّا المسمّاة منيرة القبيسي: وهي كما قيل لي لصّة من النوعيّة غير العاديّة تجر نساء سنة المدن السوريّة إلى مستنقع التخلّف والإرهاب والأصوليّة من أنوفهن بمعرفة . وربما بمباركة . جهات رسميّة عليا. ولأن منيرة القبيسي أهم من الله بما لا يقارن عند السحاقيّات الشاميّات ومرشدهن الروحي البوطي، فقد قامت القيامة ضدّ المسلسل، وأجبر وزير الإعلام على منع إذاعة أية حلقة أخرى منه يمكن أن تمس رجل دين سني حتى وإن كان الشيخ سلتة.

(2) . في رمضان الماضي أيضاً تمّ سوق أحد الدروز السوريين من رقبته إلى سجن عدرة القريب من دمشق لأنه كان يدخن في مكتبته في بلدة جرمانا ذات الغالبية المطلقة المسيحيّة الدرزيّة؛ وقد اعتبر ذلك خرقاً لقانون عثماني من أيام السفر برلك: رغم أن كلّ السوريين . وربما غير السوريين . يعرفون حال القضاء السوري وكيفيّة تنفيذ الأحكام فيه، وذلك كلّه بموافقة وزير العدل السوري نزار العسسي، الذي لجأت إليه مرّة حين هاجم الأصوليّون مكان عملي فرفض أن يقبل مني حتى الشكوى.

(3) . قبل مدّة أصدر وزير الدفاع السوري مصطفى طلاس كتاباً تناول فيه بالنقد الجارح المسيحيين والمراشدة السوريين: فاعتبر الأولين عملاء لوكالة المخابرات المركزيّة والمراشدة حركة أنشئت بدعم من الاحتلال الفرنسي، وتناول، كأحمد منصور ممثل الإرهاب الأخواني في الجزيرة، بالاستهزاء غير العادي ولا المقبول جوانب لاهوتيّة عند المراشدة.

(4) . وقبل مدّة أيضاً أصدر مفتي السنّة السوري أحمد كفتارو بياناً أدان فيه موقف فرنسا شيراك من مسألة الحجاب؛ مع ملاحظة أن المحجّبات في فرنسا هن من تيارات أصوليّة إرهابيّة شمال إفريقيّة عموماً لا علاقة لهن، لا من قريب ولا من بعيد، بفرنسا العلمانيّة الحضارية، وقد قدمن أصلاً إلى الغرب الكافر للإفادة من غناه لإشباع جوعهن الذي كان ضارياً في بلدانهن الأصليّة؛ من ناحية أخرى فالقاصي والداني يعرف أن الحجاب مسألة غير متفق عليها من قبل المسلمين جميعاً: فهل يعتبر هذا المفتي أن الطوائف التي تدعي الإسلام . التي كفّرها أئمته . والتي هجرت بناتها الحجاب كاذبة في ادعائها؟ خاصّة وأن المفتي، حين سعى إلى حوار معي، أقفل الباب على الحوار نهائيّاً، حين سألته، بحضور شيخ من جماعته اسمه زاهر أبو داود: "بما أنك من كبار دعاة التسامح والمحبّة بين الناس، فهل توافق على زواج أي من بناتك من شيعي أو علوي أو درزي أو اسماعيلي، خاصة وأن هؤلاء لا يدّعون غير الإسلام؟" بالمناسبة، فقد سبق لسرايا الدفاع أن قامت، في حادث شهير للغاية، بإجبار بعض النساء الدمشقيّات المحجّبات على خلع حجاباتهن ولم نسمع صوتاً للمفتي؛ كما أن تطبيق منع الحجاب في المدارس سبق وعمل به في سوريّا قبل فرنسا ولم نسمع صوتاً للمفتي؛ فلماذا سكت عمّا اعتبره انتهاكاً للشرائع الدينيّة على يد رفعت الأسد، ونطق ببلاغة لا يحسد عليها حين أراد شيراك تطبيق منظوره لعلمانيّة الدولة؟ أم أن السوريّات أدنى من أن يهتم بهن سماحته؟

إن هذه التصرفات الغريبة الصادرة عن أشخاص من الطائفة السنيّة في قمة هرم السلطة تعني، كما نفهمها في هذه المرحلة تحديداً، أن التيار الأصولي ما يزال متحكّماً بالقرار الرسمي السوري رغم ما يقال في دوائر الأخوان ومن على شاكلتهم في الغرب من أن العلويين والإسماعيليين والدروز والمسيحيين وأشباههم من العلمانيين يتحكّمون بعنق البلد. وهذه رسالة خارجيّة مكمّلة للصورة الداخليّة حيث نشاط الجماعات الإرهابيّة، خاصة بين النساء، على قدم وساق، تحت نظر الجميع: وربما برعاية عالية المستوى. وإلا ما معنى حماس هذا المسؤول أو ذاك لشيخة السحاق السوري منيرة القبيسي؟

إمّا.. أو:

في الثالث عشر من آب الماضي هوجم مكان عملي من قبل جماعة ادعت أنها أمنيّة؛ وانتهى بي الأمر في غرفة العناية المشدّدة في بلدة دير عطيّة المجاورة لمكان إقامتي. وحتى الآن لم أعلم ما إذا كان سبب الهجوم سياسي أم دوائي أم أمني: يبدو أن هذا أيضاً من الأسرار الأمنيّة.

ولأن جسدي متعب لا يحتمل مزيداً من الصدمات أو التوقيفات أو الاعتقالات؛

ولأن سنّي والاسم الذي حفرته بالإزميل في صخر التطرّف لا يسمحان لي بأن أكتب بأسماء مستعارة كما يفعل آلاف السوريين في مواقع الانترنت؛

ولأن الروم الأرثوذكس في سوريّا . للأسف . أجبن من أن يقفوا معي في دفاعي المستميت عنهم ضد قوى التكفير مهما كانت كبيرة؛

ولأن العلويين أكثر تردّداً من أن يوافقوا على ما أكتب دفاعاً عن حقهم في أن يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى كي لا يتهمهم التيار الأصولي بالطائفيّة ومساندة العلمانيّة الإستئصاليّة؛

ولأن الموارنة، أسود هذا الشرق، يتعرضّون، مثلي تماماً، لكل أنواع المضايقات كي يتحوّلوا إلى أغنام أو أن يتركوا البلد لعصابات الحريري المتسعدن؛

ولأن الدروز ملاحقين منذ الأزل بسيوف التكفير والتخوين ولا استطاعة لديهم لمساندة أنفسهم فكيف يساندون الغير حتى وإن كان يرفع رايات الدفاع عن حقوقهم الأقل من طبيعيّة؛

ولأن السريان والكلدان والآشور، أصحاب الوطن الأصليين، صار همهم الأوحد الحصول على فيزا إلى السويد أو الولايات المتحدة في وطن احتكرته منيرة القبيسي ورفيق الحريري؛

ولأن الإسماعيليين منشغلون بالكامل في الدفاع عن آخر معاقلهم في السلمية ومصياف اللتين تتعرضان لهجوم بذيء، تحت مرأى ومسمع الجميع، من الوهابيين والخمينيين على الترتيب؛

ولأن العلمانيين والليبراليين وقوى اليسار والديمقراطيّة في البلدين لم يعد همها في الزمن القبيسي الأسوأ سوى أن لا تسقط مرّة وإلى الأبد؛

ولأني أعرف أن مقالاتي، حيث أكتبها، تشكّل هاجساً مزعجاً لقوى الظلام الأصولية ذات الأصابع الأخطبوطيّة؛

ولأني أعرف أيضاً أن كثيرين من المحسوبين على حزب البعث، سواء أكانوا في الواجهة أم لم يكونوا، هم من الوهابيين قلباً وقالباً الذين لا همّ لهم سوى إسكاتي بأية طريقة: وإلا ما معنى أن لا تزعج سوى مقالاتي من بين ملايين المقالات المنشورة بالعربيّة في كافّة أرجاء العالم؛

أعلن عبر صفحات الناقد، هذه المجلة الالكترونيّة الفقيرة البسيطة، أني سأتوقف عن الكتابة حتى إشعار آخر؛

وأعلن عبر صفحات الناقد أيضاً أنني للمرّة الأولى آمل بوطن، كالسريان المقتلعين من ترابهم تحت وطأة الاضطهاد، أستطيع الكتابة والعمل فيه دون تهديد من منيرة القبيسي والبوطي ورجالاتهم من المسؤولين.

نبيل فياض 2|24

الأزمة المركبّة: العقليّة اليهوديّة والتعامل معها!

نبيل فياض
www.annaqed.com

قبل سنوات كتبت بضع مقالات، عبر صديقي اللدود شتيفان دانه الذي شاركني تأليف كتاب *نيتشه والدين*، في الصحيفة الألمانيّة القوميّة *jünge Freiheit* ! وظلّ الوضع جيّداً حتى نشرت مقالة عن تفاهة إنشاء دولة على أسس ميثولوجيّة. انفتحت بوابات جهنم العداء للساميّة. راحت الاتهامات تطاردني، كظلّي، من كلّ حدب وصوب: رغم أن دافعي الأوّل والأخير للكتابة في الصحيفة الألمانيّة كان اعتقادي بأنها نيتشويّة الأيديولوجيا والتفكير.

لا أنكر أنني لم أستطع قط كراهيّة اليهود: بل كان تعاطفي معهم، بمعنى ما، غير عادي. يشهد على ذلك ولعي المبكر جدّاً بالمفكّرين والروائيين والفلاسفة اليهود: كان أوّل كتاب نشرته هو *التحوّل*، الذي يحكي عن مسألة اغتراب الذات عند كافكا، الروائي الفيلسوف التشيكي اليهودي الذي كان واحداً من أهم الذين تناولوا اغتراب النفس البشرية في مواجهة الآخر؛ وكانت أول مقالة نشرتها في حياتي في صحيفة الشعب اللبنانيّة عن دور للممثلة فانيسا ردغريف، تناولت فيه مسألة الهولوكست. من ناحية أخرى، فإن سبينوزا هو الفيلسوف الأول الذي توقفت عنده بنوع من التروي في مرحلة النضج. بغض النظر عن ولعي المبكر أيضاً بهاينه ومارسيل بروست [يهودي الأم] وتوماس مان حتى عموس عوز. لكن هذا لا يلغي اعتباري أن المفكّرين اليهود شيء واليهوديّة شيء آخر؛ بل إن هؤلاء المفكّرين أنفسهم هم أكثر من توقف عند هذا التناقض الملفت بين اليهوديّة كبنية ماورائية ميثولوجيّة شرائعيّة تكاملت بذاتها عبر مئات السنين من ناحية، وبين المفكّرين الليبراليين العلمانيين اليهود من ناحية أخرى: وليس آخرهم اللامع إيلان بابيه.

رغم تقديرنا للأركيولوجيين الإسرائيليين الذين يبذلون كلّ ما في وسعهم لمحاولة خلق توثيق أركيولوجي خارجي حيادي لنصوص الكتاب المقدّس العبراني خاصّة أسفار التكوين والخروج والملوك، فإن تلك المحاولات رغم الإمكانيّات العلميّة الماديّة الهائلة المكرّسة لها لا تزال سرابيّة اللون والطعم. فعلى سبيل المثال، فشلت جهود الباحثين الإسرائيليين في الحصول على أية وثائقيّة خارجيّة لمسألة التيه السينائي المفترض أثناء الاحتلال العبراني لشبه الجزيرة المصريّة. من ناحية أخرى، فرغم تعليل ييغال يادين القلب بإمكانية فرصة سعيدة تكشف عن أرشيف سليمان المفترض أنه مختف في مكان ما، كما كانت الحال في قمران، فإن ييغال يادين مات دون أن يعرف تلك الفرصة السعيدة، رغم المحاولات غير العاديّة.

مشكلة الإسرائيليين اليوم، تشبه في اعتقادي أزمة البعثيين، رغم عدائية الطرفين: ثمة مؤسسة موجودة معقّدة الهيكليّة لكنها تفتقد الأيديولوجيا المنطقية غير المستهلكة. كل ما في هذا العالم من بنى ذات طابع فكري تفترض مقدّماً وجود أيديولوجيا معيّنة تنسج حولها البنى: عند الإسرائيليين، كالبعثيين، الوضع مقلوب بالكامل. البنى موجودة والأيديولوجيا مفقودة. وإذا ما توخيّنا الدقة، كان ثمة أيديولوجيا موجودة ثبت بالمطلق أنها غير صحيحة؛ والآن بعد أن تكوّنت البنى التنظيميّة ثمة حاجة قاتلة لأيديولوجيا تحلّ محلّ تلك التي انتهى مفعولها. لقد قامت إسرائيل أصلاً على فرضيّات توراتيّة تزعم وجود شخوص وحوادث يمكن وصل الحاضر الإسرائيلي بها كماض قومي. الآن ثبت بالورقة والقلم أن ما اعتقد الإسرائيليّون أنه ماض قومي لم يكن أكثر من فانتازيا تاريخيّة: مع ملاحظة أن أكثر من انتقد الكتاب المقدّس العبراني كان اليهود أنفسهم. فعلى سبيل المثال، أثبتت علوم "الميثولوجيا . الدين" المقارنة أن قصص خلق العالم والعائلة الأولى والطوفان مأخوذة بتصرّف عن الأساطير

السوريّة القديمة؛ مثلما أثبتت علوم الأنثروبولوجيا والجيولوجيا والفلك وغيرها استحالة أن تكون تلك الأساطير حقيقية. إذن، الفرق شاسع بين ما هو حقيقي وما يعتقد أنه حقيقي: وهنا جوهر كلّ الأديان.

الوثيقة "الدينيّة . الميثولوجيّة" والوثيقة التاريخيّة:

يفترض أن ثمة فرقاً بين هبوط آدم [مجهول اسم العائلة] من الجنّة المفترضة ونزول توني آرمسترونغ الموثّق على سطح القمر. مع ذلك، فاليهوديّة الأرثوذكسيّة وما فقسّته من عقائد وأديان تتعامل مع آدم هبوطه مجهول الزمن من الجنّة مجهولة الجغرافيا بطريقة مجهولة التفاصيل والكيفيّة بالطريقة الموثوقة ذاتها التي تتعامل بها مع نزول آرمسترونغ الموثّق صوتاً وصورة: بل ثمة من يشكّك في الثاني ويؤكد الأوّل وكأنه كان في "هاند . باغ" حواء حين طردها الله وزوجها من جنته. إن أبسط ما يمكن أن نطلبه كعلمانيين من الجماعات الأصوليّة بكافة أصنافها، هو أن لا يتعاملوا مع حدث أسطوري كشق موسى للبحر بالثقة ذاتها التي يتعاملون بها مع تفاصيل زواجات سارة نتنياهو؛ أن لا يتعاملوا مع حدث ماورائي كتجسّد الله في مريم العذراء بالروح ذاتها التي يقاربون بها دقائق مقتل جون كنيدي؛ وأن لا يبحثوا في قصة لا عقلانيّة اسمها الإسراء والمعراج بالروح العلميّة ذاتها التي يطبقونها على محاولتهم فهم الأسباب الموضوعيّة التي حولت لبنان إلى سوق نخاسة سعودي من نوعيّة مبتذلة. التفريق بين الوثيقة "الدينيّة . الميثولوجيّة" التي لا دليل على صحتها غير إيمان صاحبها بها والوثيقة التاريخيّة المدعمّة داخليّاً وخارجيّاً بما يكفي للتيقن المطلق من صحتها، هو المرحلة الأبسط في أية مقاربة عقليّة نقدية لمطلق دين: واليهود الأرثوذكس والمسلمون لم يصلوا إلى هذه المرحلة حتى الآن. لكن، كما تقول التقارير غير المبسّطة، فاليهود الأرثوذكس أضحوا قلّة قليلة في عالم اليهوديّة المشتت: خاصّة مع تسلّل القوميين والعلمانيين واللادينيين والإصلاحيين والمحافظين اليهود إلى لبّ ذلك العالم وسحبهم البساط كلّه تقريباً من تحت أقدام الذين احتكروه منذ البداية الأولى.

إذن، باستثناء قلّة أرثوذكسيّة لا تذكر، ففي اعتقادنا أن غالبيّة اليهود تعاني من أزمة "عقائديّة . أخلاقيّة" حيال التبرير المنطقي لإخراج جماعة من أرضها لأن جماعة أخرى تعتقد أن هذه الأرض لها بموجب وثائق ثبت بالدليل المطلق أنها غير واقعيّة. وفي اعتقادنا أيضاً أن ظاهرة ما بعد الصهيونيّة المفرطة في أهميتها كتجسيد معرفي لعرف جلد الذات يهوديّاً، إضافة إلى ظاهرة المؤرخيّن الجدد وإلى حد ما جماعة ما بعد اليهوديّة، هي الدليل الأوضح على عمق المأساة الأخلاقيّة التي تعيشها الانتلجنسيا الإسرائيليّة. [راجع هنا مقالات مجلة *أزور* الإسرائيليّة أو مقاربة الباحثة الهامّة فرمسر لموضوع ما بعد الصهيونيّة]! وفي اعتقادنا أن الجنوح العنيف الشاروني نحو اليمين ليس أكثر من محاولة مؤقتة لجذب الانتباه عن تلك الظواهر المعبّرة عن التأزم الأخلاقي الإسرائيلي. ولا نعتقد أن باستطاعة شارون ومعاونيه من الجماعات الإسلاميّة المتطرّفة، الذين لا همّ لهم سوى الحفاظ على المشاعر في أقصى حالات توتّرها لمنع العقل عن التسلّل إلى الفعل الأبسط، خلق أيديولوجيا بديلة لتلك التي أثبت الأركيولوجيون الإسرائيليون، قبل غيرهم، عقمها: خاصّة وأن نسف أسفار التوراة الأولى لا يطال اليهود وحدهم.

المفضّلون على العالمين:

إذا كان اليهود الأرثوذكس يعتقدون أنهم شعب الله المختار، فالمسلمون الملتزمون يعتقدون أن بني إسرائيل مفضّلون على العالمين. وإذا كانت الغالبيّة العقلانيّة اليهوديّة قد أخرجت قصص التوراة من حجرة الوثائق التاريخيّة ورمتها على رفّ الأساطير، فإن الغالبيّة الإسلاميّة المعادية للعقل أنزلت تلك الخرافات من على الرفّ ونفضت عنها التراب والعناكب لتنقلها إلى خزانة الحقائق المطلقة التي لا بدّ من "قتل" كلّ من يقترب منها أو يصوّرها نقديّاً أو منطقيّاً. وفي سوريّا نتذكّر جيداً كيف استغلّ البوطي تلفزيون دولتنا التقدميّة الوطنيّة الواعيّة

ليتحفنا بخرافات سرقها أئمته عن كعب الأحبار ووهب بن منبّه حول سليمان وهدهده وابراهيم وكبشه وموسى وعجله.. حتى آخر قائمة الأنبياء والحيوانات الشهيرة؛ وكيف حين احتج الفلسطينيون على هذا التسويق الغبي لأكاذيب التلمود من على الشاشة الرسميّة بادر بوطينا العظيم إلى تكفيرهم " قشّة لفّة ".

حتى الآن لا أفهم هذه العدائيّة بين اليهود المتطرّفين والمسلمين اللاعقلانيين؟؟

حتى الآن لا أفهم كيف يستطيع من يؤمن بأن بني إسرائيل . علميّاً: لا وجود لهذا المصطلح . مفضّلون على العالمين أن يحاربهم دون تناقض مع الذات؟؟

وفي نهاية الأمر، الزمن وحده هو المسؤول عن شعور الشيخ المسلم أنه نقيض الحاخام اليهودي مع أنه النتيجة الطبيعيّة له؟؟!!

هنالك أزمة مركبّة يعيشها التطرّف اليهودي واللاعقلانيّة الإسلاميّة على حدّ سواء: وما هذا الكم المريع من العنف والقتل والدماء إلا محاولة لصرف الذات عن التفكير بشروخها الأخلاقيّة.

24 فبراير 2004

تراتيل لمار مارون

www.annaqed.com

بقلم نبيل فياض، 10 فبراير 2004

قاديشات آلوهو

قاديشات حيلتونو

قاديشات لو مويوتو

التاسع من شباط . عيد أحد أهم شفعاء الأمّة السوريّة!

شفيع السوريين العظيم، إن بالانتماء الثقافي، مثلنا، أو بالانتماء المذهبي، كباقي المنتسبين إلى وطن الصقور الذي يحمل الاسم: بكركي!

في بدايات القرن الخامس للميلاد، تلألأت نجمة في سماء القداسة السوريّة: كان اسمها مار مارون! لم تكن المارونيّة هرطقة مسيحيّة، كما يحاول بعضهم أن يقاربها؛ بل كانت تعبيراً لاهوتياً عن إحساس مفرط بالتمايز القومي في عالميّة بيزنطيّة طاغية. وهكذا كان أيضاً يعقوب البرادعي وقبله بولس السميساطي؛ وغيرهم!

في البدء كانت حلب! ومن الشمال تكسّر الضوء اللؤلؤي باتجاه الجنوب؛ فكانت حمص، وتحديداً منطقة الرستن! ومن الرستن هاجر الملائكة باتجاه وادي قنوبين، حتى استقرّوا في بلاد جبيل وكسروان والبترون!

ليست المارونيّة اليوم ديناً أو مذهباً أو سياسة: المارونيّة، كما عرفتها وعشقتها واحترفتها . طريقة حياة؛ مارونيّة حضاريّة.

يسألني الجميع: لماذا يختلف لبنان عن سائر الأقطار المحيطة به؛ لماذا لبنان أكبر من مساحته، أعمق من تاريخه، أهم من موقعه، أغنى من ثرواته؟ اسألوا الموارنة!! لبنان، لولا الموارنة، لكان ربعاً خالياً أو يمناً تعيساً!!

الموارنة حالة فريدة في تاريخ الشرق: فلأنهم تكثلكوا منذ زمن لا بأس به من ناحية، ولأنهم كنيسة مشرقيّة ليتورجيّاً وموسيقيّاً وروحياً من ناحية أخرى، فقد استطاعوا أن يجمعوا سحر الشرق وحضارة الغرب؛ غموض السوريين وبساطة الإيطاليين؛ مهارة اللبنانيين وحرفيّة الفرنسيين!

كان الأجدر أن تحتفل سوريّا، منبع المارونيّة وأمها الحنون، بعيد شفيع حلب وسوريّا، القديس مارون: لا لبنان. . لكن سوريّا الآن، بعد أن أفسدها الأخوان والوهابيون ومنيرة القبيسي.. أضحت تتنكّر لأبنائها، لعظماء أبنائها، وتستورد كائنات مشوّهة، تحفر لها زيفاً في الوجدان السوري أسماء كابوسيّة.

في الأحياء الشيعيّة من دمشق، بدل يوحنا الدمشقي وحنانيا والذهبي الفم، صار خامنئي ومراهق المتعة العراقي مقتدى الصدر وغيرهما من الرموز الطائفيّة النتنة، أبطالاً قوميين؛ وفي أحياء السنة المتعصّبة أكثر ما يسوّق له بن لادن وعصابته الطالبانيّة!

باستثناء قلّة نادرة من الأكاديميين اللاهوتيين المتخصصين، من في سوريا الحالية يعرف اليوم يعقوب البرادعي أو لوقيانوس الأنطاكي أو .. مار مارون؟

المستهجن أن كمشة بدو غرباء لا تحتمل رائحتهم الحضارة، على شاكلة صلاح الدين الأيوبي، نقيم لهم المزارات والتماثيل ونسمي بأسمائهم الساحات؛ في حين نرمي بقديسينا ومفكّرينا ورجالاتنا إلى مزبلة الزمن!

الغريب أن يقف نشيدنا الوطني عند معاوية وسلالته، ويمدّ لسانه القذر إلى تاريخنا المشرق قبل الغزو العربي للبلاد!

الأغرب أن يسوّق رسميونا وكتّاب دولتنا ورموزنا المتلفزة آراء تعصبيّة تخوينيّة مريعة بحق الموارنة خصوصاً والمسيحيين عموماً: دون أن يفتح أحد فمه؟!

يا مار مارون!

لأن المنتسبين إليك أضحوا مسكونين بالخوف من عصابات الله التي لا تفهم وجودها إلا من خلال إزالة الآخر؛ لأن الذين يحملون اسمك في لبنان أو سوريّا لا يحلمون إلا بهجرة إلى مكان لا يشتمون أويخوّنون فيه؛ لأن مطارنتك وبطاركتك صاروا سياسيين في زمن حيث السياسة ضرب من البغاء؛ نحن الذين نتنفّسك روحيّاً وثقافيّاً، نبتهل إليك في تراتيلنا أن لا تغضب من شعبك الذي نساك، لأن تراب حلب وحمص والبترون لا ينساك!

لا تغضب إذا هجتك الرستن وشتمتك وتنكّرت لك . وأنت القدّيس . فوجودك الرائع في غسطا، وروحك الحضارية التي ترفرف فوق الكسليك، كافيان لإعلام الزمان بأنك، لا غيرك، هويتنا وحقيقتنا وأفقنا الذي لا ينتهي!

لا تحزن، مار مارون، إذا خوّنك رستناوي؛ فوحدها المقارنة بين جونيه والرستن تكفي لإشهار واقع من يمثّلنا تراثاً ومستقبلاً!

مار مارون!

ونحن في أحلك أيامنا لم تنسنا أو ترم بيدنا من أصابعك المعروقة: فهل يعقل أن تهجرنا الآن لأن غيرنا، من الذين نساهم الزمان والمكان، أشار إليك بإصبع شك..

مار مارون!!

نحن نحبّك؛ نحبّك؛ فلا ترمنا فريسة لليأس وصمت القبور.

" ارحم،

مار مارون،

ارحم شعبك؛

ولا تسخط عليهم إلى الأبد".

أكبر تناقض كوني: "جمهورية إسلاميّة"

بقلم نبيل فياض

www.annaqed.com

لا مجتمع ولا مدنيّة: صرعة المجتمع المدني في سوريّا!!!

حين قلّلت عقلي ووافقت على الذهاب من دمشق إلى حمص لحضور لقاء تقيمه جماعة المجتمع المدني الحمصيّة مع الدكتور برهان غليون، الحمصي المقيم في فرنسا، بدعوة من نادي المدى اليساري المقرّب من تلك الجماعة، تفاجأت بذاك الكم المكثّف من الناصريين . دكّان جمال الأتاسي . والأصوليين [الطرفان وجهان لعملة واحدة اسمها الإرهاب] الذين شكّلوا الغالبيّة الساحقة من الحضور. كان المختصر غير المفيد لكلام عالم الاجتماع والسياسة انّه، بعدما فشلت التجارب الليبراليّة والقوميّة والاشتراكيّة: ما هو المانع أن نجرّب الإسلاميين؟؟!! وكاد الحضور الكريم، المؤهّل سلفاً لسماع أسطوانة مريعة من النوع الأبوغليوني المشار إليه آنفاً، أن يصيح: الله أكبر!!! لكنهم كأدعياء لمجتمع مدني [أتحدّى إذا كان واحد من الحضور باستطاعته تعريف المصطلح] التزموا الصمت حرصاً على الطابع الديمقراطي العقلاني الثقافي للقاء.

لكن السيّد أبو الغليون يعرف قبل غيره أن ما أطلق عليه أسماء متلألئة من طراز "تجارب ليبراليّة وقوميّة وإشتراكيّة" لا علاقة له، لا من قريب ولا من بعيد، بالليبراليّة أو القوميّة أو الإشتراكيّة! فهل يعتبر أبو الغليون المجلس النيابي السوري ما قبل عبد الناصر تجربة ليبراليّة! شخصيّاً على الأقل، كان أكثر من سبعة من أقاربي أعضاء في هذا المجلس الكريم، ولا أعتقد أن أيّاً منهم كان يعرف ما الذي يعنيه مصطلح "ليبراليّة" . هذا إذا كان قد سمع به أصلاً!! بالمقابل، فإذا كان أبو الغليون يعتبر النيو. أصولي المرتدي لقناع القوميّة الكاذب المدعو جمال عبد الناصر قوميّاً فهو مخطيء حتماً، لأن القوميّة تتجاوز الانتماء الديني أو المذهبي، وعبد الناصر كان أسوأ بحق أقباط مصر، من أحكام أهل الذمّة، سيئة السمعة والصيت. الأغرب أن يعتبر مثقفنا الألمع نظام أمين الحافظ وزمرته إشتراكيّاً!! ولا أعتقد أن أبا الغليون وهو على مشارف الستين لم يع هذا النظام الذي كما نعرف لم يكن وقته يسمح له . هذا ما يعرفه جيّداً أيضاً الأستاذ أحمد أبو صالح، الذي أخرجه الطالباني أحمد منصور من تحت الرمل فقط كي يشتم العلويين وحافظ الأسد، لأن بيته، أقصد أبا صالح، لانفتاحه، كان مسرح العمليّات التقدميّة كون صاحبته غير عربيّة . بشغل ذاته بقضايا تافهة كالاشتراكيّة تأخذه من أحضان الأخوات التقدميّات اللواتي بذلن الغالي والرخيص في سبيل الثورة: وعلى رأس هؤلاء كانت المطربة الثوريّة الرفيقة لودي شاميّة [نعرف أسماءهن جميعاً؛ لكننا نرفض تشويه سمعة من كن ربما أجبرن على ممارسة هذا العهر التقدّمي]!!! بل حتى الآن لا أفهم كيف سمح أبو الغليون لذاته أن يصف منظومة يرئسها شخص أسماه السوريون "أبو عبدو الجحش" وكان نشيده الوطني؛ يقول:

يا أبو عبدو الفتّاح.. طاح العنب طاح، .. بالقوميّة والاشتراكيّة؟؟؟

من ناحية أخرى، فقد أثبت الإسلاميون، حيثما حلّوا، إن في السودان أو أفغانستان أو إيران، الفشل الأبهر بين كلّ أنواع الفشل التي عصفت بالمنطقة. ولا أعتقد أن أجساد أوطاننا المتعبة أصلاً تستطيع تحمّل فشل جديد. . إضافة إلى أننا نختلف قليلاً ربما عن فئران التجارب التي يرغب الأستاذ أبو الغليون، من برجه العاجي الباريسي، اختبارها بتجربة إسلاميّة جديدة!!!

أزمة أبو الغليون يمكن تعميمها على باقي مثقفي سوريّا . طبعاً لا أقصد هنا دكّان علي عقلة عرسان الذي يشتغل سبوبة ثقافية لبعض العاطلين عن العمل من أقارب هذا أو ذاك . الذين يضعون رؤوسهم في مالمه وأرجلهم في الشاغور. يجلس المثقف السوري في الرواق، الذي يطالب الطالبانيون الجدد في سوريّا بمنع الكحول فيه بعد أن صارت حتى المواخير تتباهى بلائحة: نعتذر عن تقديم المشروبات الروحيّة [يقدّمون فقط مشروبات جسديّة]، يمسك بغليونه وأمامه كأس من البيرة السوريّة الرخيصة؛ ويبدأ بإعمال عقله كامل الشلل [العقل السوري يشلّ نصفه الإسلام ونصفه الآخر التبعّث]؛ يمسك بيد العانس المجالسة له فجأة، ويصرخ: "وجدتها"!!!

تفرح العانس المزعجة بصديقها الذي استطاع أخيراً اكتشاف شيء يمكن لها أن تقنع به عماتها اللواتي يلمنها على صرفها معاشها المهترىء أصلاً على هذا العاطل المحترف لغباء اسمه الثقافة!

"ما الذي وجدته؟" سألت العجوز المبهرجة مثقفها العاطل عن العمل!

أجابها الخليط الذكوري العجيب: "المجتمع المدني!!! لقد أخبرت جارتنا زوجة ابن خالتي أن صديقة بنت عم زوجها المقيمة في أميركا تنشط ضمن مجال لجان المجتمع المدني"!

بدأ اليسار السوري المحتضر بمدّ رأسه رافعاً رايات المجتمع المدني، كنوع من الاحتجاج الصامت على ما أسموه ممارسات السلطة القمعيّة؛ وبسرعة هائلة، التقط الأصوليون والناصريون الإشارة، وراحوا يعملون من وراء الكواليس على النفخ في قربة المجتمع المدني المثقّبة لزعزعة النظام دون ظهور واضح يمكن أن يؤدّي لمواجهة لا طاقة لهم الآن بها.

إذن: مثقفو سوريّا، وكأنهم في السويد، يريدون استيراد مفهوم مغرق في التحضّر لتطبيقه على شعب مغرق في تخلّفه! لكن سؤالاً خبيثاً يطرح نفسه بقوّة هنا: هل يستطيع دعاة المجتمع المدني إعطاء تعريف علمي لهذا المصطلح؟ وحتى يجدوا مخرجاً من هذا السؤال المحرج، لا بدّ من تقديم بضع معلومات حول الأمة المسمّاة بالعربيّة التي فلقنا القرضاوي وهو يقول إنها خير أمّة أخرجت للناس. ا كان المقصود بذلك المسلمون فالواقع أشدّ إيلاماً:

خير أمّة أم ...؟؟؟

مقارنة بالكفّار، الذين يبدو أن الله يحبّهم أكثر من المسلمين والعرب خصوصاً، فواقع الدول الناطقة بالعربيّة أسوأ من سيء؛ وها هنا بعض الدلائل:

1 . إن معظم مؤشّرات التقدّم العلمي والتقاني العملية في الوطن العربي راوحت مكانها تقريباً، وتكفي الإشارة إلى أنه لم يتم سوى تسجيل عدد نادر جداً من براءات الاختراع من مبدعين عرب، وعدد نادر جداً من سلع جديدة أو طرائق إنتاج جديدة في الأقطار العربية، كما لم يسجّل الإنفاق على البحث والتطوير سوى زيادة طفيفة.

2 . في دراسة نُشرت في العام 1998، قُدّر عدد الباحثين في مؤسسات البحث العلمي العربية عام 1984 بـ 31118 باحثاً. وإذا أضفنا إليهم عدد الباحثين من الجامعيين، الذي يقدّر عددهم بـ 10 بالمئة من عدد العاملين في سلك التعليم العالي، حصلنا على 81113، وهو ما يعطي نسبة 2,7 باحثاً لكل عشرة آلاف من اليد العاملة. وهي نسبة ضئيلة إذا ما قوبلت بمثيلتها في الولايات المتحدة؛ وهي 66 بالمئة، واليابان 58 بالمئة، وبريطانيا 36 بالمئة. وهي تمثّل 44،6 باحثاً لكل مليون نسمة من السكان.

3 . في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي بلغ عدد النشرات العلمية العالمية، بحسب معطيات "معهد المعلومات العلميّة" الأمريكي، كالتالي (لكل مليون مواطن): 1020 (الولايات المتحدة)، 450 (فرنسا)، و 15 (الوطن العربي).

4 . من زاوية كميّة، يوجد في الوطن العربي إلى الآن ما يقارب من مئتي جامعة، إضافة إلى عدد غير قليل من مراكز البحوث، وما يقرب من خمسين ألف عربي يعملون كأساتذة أو كأعضاء في معاهد أبحاث عربيّة أو أجنبية. أمّا من الزاوية النوعية وحتى الكميّة فإنّ إنتاج العلماء والمفكرين العرب مجتمعين يقل عن إنتاج الفئة نفسها في إسرائيل قبل "البريسترويكا" (التي حققت هجرة واسعة للعلماء السوفييت إلى إسرائيل)، على رغم تساوي أعداد فئة الباحثين في إسرائيل ودولة عربية واحدة مثل مصر (في عام 1985). ولدى مقارنة عدد البحوث والدراسات المنشورة في العلوم الطبيعية في ثلاثة عشر قطراً عربياً (الأردن، تونس، الجزائر، ليبيا، السعودية، السودان، سوريّة، العراق، الكويت، لبنان، مصر، المغرب، اليمن)، وإسرائيل من عام 1967 إلى عام 1983، يتبيّن أنّ مجموع ما أنتجه الباحثون العرب في مجال العلوم الطبيعية 2616 بحثاً في تلك الفترة، في حين أن إجمالي ما أنتجه الإسرائيليون في المجال نفسه 4661 بحثا.

وقد ورد في منشورات "معهد المعلومات العلمية" (ISI) أنّ إنتاجية الباحث العربي تعادل 10 بالمئة من المعدّل العادي لغيره من العلماء لغاية عام 1973.

5 . وفي مقابلة صحفية أُجريت مع الدكتور طه النعيمي الأمين العام لاتحاد مجالس البحث العلمي العربية في شهر شباط 1999 ذكر أن ميزانية البحث العلمي في أمريكا حوالي 3,2 % من الناتج القومي الإجمالي، وفي أوروبا هناك معدل عام لميزانية البحث العلمي يقدّر بـ 2,5 من الناتج القومي الإجمالي، وفي اليابان 3% وفي كوريا الجنوبية 1,91 ومن المتوقع أن تصل إلى 5 % خلال السنوات القادمة.

أمّا في الدول العربية فميزانية البحث العلمي تتراوح بين الصفر وبين 0,5% من الناتج القومي الإجمالي، وبعض الخبراء يصل بهذه النسبة إلى 0.7% وهي كلّها أرقام ضئيلة جداً إذا ما قورنت بميزانيات البحث العلمي في الدول المتقدمة. وفي المقابل يرتفع المؤشر في إسرائيل عن المتوسط العالمي، فيتجاوز 2% أي أكثر من عشرة أمثال العرب، وإذا أدخلنا في الحسبان التفاوت في عدد السكان وفي حجم الناتج سنوياً (لاحظوا أنّنا نتحدث عن المجالات المدنية فقط)، لارتفعت الفجوة بين العرب و إسرائيل في الإنفاق على البحث والتطوير إلى أكثر من ثلاثين مثلا.

6 . من ناحية أخرى، نشير في هذا المجال إلى مشكلة خطيرة تتمثّل في تصاعد معدّلات هجرة الأدمغة العربية إلى الغرب الصناعي، برغم الحاجة العربية الماسّة لهذه الكفاءات والطاقات العربية المتقدمة، التي يُفترض أنها هي التي تقود التنمية الشاملة، وتقلّص الفجوة العلمية . التقانية مع إسرائيل.

فقد أشارت آخر الدراسات المنشورة في هذه المسألة إلى أنّ عدد الأدمغة العربيّة المهاجرة إلى المجتمعات الغربية، وخاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بلغ نحو 450 ألف نسمة. وهي خسارة فادحة لموارد بشرية عالية المستوى (حملة ماجستير ودكتوراه وهندسة واختصاصات نادرة أو المدرّبة تدريباً تقنياً رفيع المستوى)، والضرورية جدّاً لتحقيق النمو الاقتصادي ودفع عجلته إلى الأمام.

وهجرة الأدمغة مظهر من مظاهر الخلل الاجتماعي والثقافي الاقتصادي والسياسي والحضاري بشكل عام. وأسباب هجرة الكفاءات (الأدمغة) من أقطار الوطن العربي إلى خارج حدوده كثيرة ومتشعّبة، ولا مجال هنا للتفصيل فيها. ولكن يمكن الإشارة بصورة موجزة إلى مجموعتين من العوامل المؤثّرة، هما مجموعة العوامل أو القوى "الدافعة" أو "الطاردة"، ومجموعة العوامل أو القوى "الجاذبة" الموجودة أو المعروضة في البلدان المُضيفة، التي تسهم في خسائر بشريّة وخبرات يزيد حجمها عن مائتي مليار دولار.

بالمقابل، فإنّ إسرائيل استقطبت آلاف العلماء من الاتحاد السوفييتي السابق، والذي قدّرت دراسة عددهم بأكثر من 70 ألفاً من المهندسين، وقرابة 20 ألفاً من الأطباء والممرّضين والفنانين، وحوالي 40 ألفاً من المدرسين، وقسمٌ كبير من هؤلاء حملوا معهم كثيراً من أسرار التطوّر العلمي، والأسرار الأخرى.

وطبقاً لمعلومات "عوزي غدور"، مدير قسم خدمات الاستيعاب في "وزارة الاستيعاب"، فإنّه منذ بداية الهجرة الواسعة (سنة 1989) إلى نهاية عام 1991، كان في إسرائيل بين المهاجرين الجدد: 10 آلاف عالم، 87 ألف مهندس، 45 ألف هندسي وتقاني، 38 ألف معلم، 21 ألف طبيب، 18 ألف من رجال الفن، 20 ألف أكاديمي في العلوم الاجتماعية. وبحسب البروفسور "يرمياهو برنوبر"، من جامعة تل أبيب ورئيس قسم الأبحاث الإسرائيلية، في مجال الطاقة، فإنّ 20 % من المهاجرين الجدد هم من حملة الشهادات العلمية في مجالات الهندسة والفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا. وفي إمكان طاقة كهذه أن تحول إسرائيل إلى ما يشبه اليابان من الناحية التكنولوجية.

7 . من الأرقام الدالة على إمكانات المعرفة والبحث، أنّ عدد وصلات شبكة الإنترنت في منطقة الشرق الأوسط في مطلع عام 1998 تجاوز نصف مليون وصلة، نصفها في إسرائيل، وبذلك تصبح حصّة إسرائيل نسبةً إلى عدد السكان خمسين مِثل حصة الوطن العربي.

8 . في مجال براءات الاختراع والعلاقات التجارية، فإنّ بيانات "مكتب العلامات التجارية الأمريكية" (هي الأدق في هذا المجال) تشير إلى أن المقيمين في البلدان العربية سجّلوا في العام الماضي 24 علامة تجارية، بمعدّل عُشْر علامة تقريباً لكل مليون نسمة من السكان، أي أنّ معدّل التسجيل في إسرائيل نسبة للسكان، يتعدّى ألف مثل لمجمل الأقطار العربية.

9 . إذا أردنا أن نجمل مؤشرات تفوق إسرائيل على العرب، نسبة إلى عدد السكان، فسنجد أنّها تتفوّق بمعدّل عشر مرات في الأفراد العلميّين، وأكثر من ثلاثين مرّة في الإنفاق والبحث والتطوير، وأكثر من خمسين مرّة في وصلات الإنترنت، وأكثر من سبعين مرّة في النشر العلمي، وقرابة ألف مرّة في براءات الاختراع. . مع ملاحظة أن المعلومات السابقة مأخوذة عن مركز علمي "عربي" يهتم بهذه القضايا، خاصة من منظور قومي.

صرعة المجتمع المدني: عود على بدء!

بعد هذه المعلومات المريعة لا أستطيع سوى القول، إني أشعر بالأسى والتضامن مع أولئك المسجونين من جماعة المجتمع المدني السوريين . باستثناء مأمون الحمصي طبعاً . الذين كانوا في اعتقادي ضحايا عصابة الثيران المقدّسة المسمّاة بالأخوان المسلمين، ومن على شاكلتها من تيارات.

إن الرأي الذي لا يوافقني أحد ربما عليه، هو أن سوريّا كانت أمام فرصة تاريخيّة بعد تشرين الثاني 1970 لأن تمشي في خط الحداثة والتطوير بعد أن رمت في سلّة الزبالة الرفيق أمين الحافظ ولودي شاميّة وبقيّة الشلة إياها: لكن ظهور عصابة الثيران المقدّسة، وطرحها للعنف والطائفيّة والإرهاب وسيلة لتداول السلطة، أعاد سوريّا إلى ما قبل سفر التكوين. . إنّ تعامي صرعة المجتمع المدني عن السبب الحقيقي الذي جعل سوريّا تعيش كابوساً على مدى ثلاثين عاماً على الأقل، وتعليقهم كلّ الأخطاء على مشجب الرئيس الراحل، كانا البطاقة التي حاول بها الأخوان المسلمون ومن على شاكلتهم العودة إلى الساحة من ناحية، والانتقام من النظام الذي قمعهم من ناحية أخرى.

يعرف الجميع أني من أكثر الناس تضرّراً من النظام الحالي في سوريّا: تكفي الإشارة هنا إلى أني لا أستطيع نشر كلمة واحدة في ما يفترض أنه بلدي؛ إضافة إلى الإزعاجات التي لا تحصى التي تعرّضت . وما زلت أتعرّض إليها . من الأجهزة الأمنيّة، التي أوصلني نقدها مرّة في حمص إلى السجن على يد شخص اسمه أحمد

اليوسف. مع ذلك، فلأننا ليبراليون تربيّنا على قيم لا عربيّة ولا إسلاميّة، نجد أن الحقيقة تجبرنا على إنصافها ووضع النقاط على الحروف، حتى وإن أغضب ذلك معارضتنا التقدميّة أو الإسلاميّة.

الرئيس حافظ الأسد، برأينا، كان يريد خلق جو ديمقراطي نوعاً ما بعد أن كنّس أمين الحافظ وعصابته. وليس أدلّ على الجو الديمقراطي الذي عرفته سوريّا ما بعد حرب تشرين من انتشار جماعة الأخوان المسلمين في كل شبر من سوريّا فيه رائحة سنيّة. وكان نشاطهم في المساجد والمنازل وبعض المراكز علنيّاً؛ وفي اعتقادي أنهم لو استمرّوا في انتشارهم هذا سلمياً لاستطاعوا تحقيق بعض الوجود السياسي الرسمي الهام؛ لكن عصابة الثيران المقدّسة، بسبب بنيانها المعرفي الثقافي المتوارث، لا تستطيع أن تكون حركة حضارية غير إرهابيّة؛ وهكذا، أشعل أولئك الثيران المقدّسون حرباً طائفيّة شعواء في البلد أدّت، ضمن أشياء أخرى كثيرة، إلى ما يلي:

1 . شحن البلد بنفس طائفي تفتيتي لا يبدو ممكناً على المدى المنظور التخلّص منه؛

2 . إدخال غالبيّة السنّة السوريين، الذين كانوا في فترة من أهم تيارات البورجوازية غير الرجعيّة في المنطقة، في نفق الأصوليّة الذي لا مخرج منه؛

3 . خلق المبرّرات لوضع البلد بأكمله تحت قبضة الأمن التي لا ترحم؛ مع كل ما يعنيه ذلك من انتهاك لحقوق الإنسان ومنع الناس عن التطوّر، والأخطر، القضاء على الحياة السياسيّة الأمر الذي يجعل من الجماعات الطائفيّة الحزب السياسي الوحيد المسموح له بأن يوجد؛

إذن: إنّ ما نعيشه الآن في سوريّا من ظروف تتنافى بالكامل مع إمكانيّات الوطن الفعليّة . بغضّ النظر عن تفشّي الفساد والمحسوبيّة والتسلّط! . في اعتقادنا على الأقل، هو النتيجة المنطقيّة لعقليّة الأخوان المسلمين، الذين يحاولون اليوم إلقاء تبعيّة ما عشناه من مآس على عاتق النظام وأجهزته الأمنيّة.

لكن أسوأ ما نعيشه حاليّاً هو افتقاد الدولة لمشروع واضح تعالج فيه الخلل "المعرفي . الطائفي . السياسي" الذي يتخلّل سوريّا منذ مدّة، عبر الابتزاز غير المعلن الذي يمارسه المشايخ بحق السلطة لوقوفهم معها . هم منافقون في ذلك؛ فهم لم يعادوا الأخوان ولم يقفوا مع الدولة: فقط ناصروا الطرف المنتصر حفاظاً على مصالحهم . في محنة السبعينيات والثمانينيات! وسقوط النظام في العراق، وما أعقب ذلك من امتداد سرطاني للقوى الطائفيّة التي كانت جاهزة لاحتكار البقرة التي وقعت لصالحهم، يجب أن يكون ناقوس الخطر الذي يحض الدولة السوريّة على معالجة الخلل الطائفي وانتشار قوى الرجعيّة الدينيّة بسرطانيّة أين منها سرطان الأخوان في عزّ انتشاره: الأخطر من هذا كلّه هو أن رموز الردّة الطائفيّة هذه المرّة هم من بين أولئك الذين تحسبهم الدولة عليها . الأمر ليس كذلك إطلاقاً . وهم من جانبهم يستغلون نقطة الضعف هذه للوصول إلى أهدافهم خلسة وتحت جنح الظلام. . مع ملاحظة أن العراق يختلف عن سوريّا بنوعيّة الفرز الطائفي الإثني بين طوائفه؛ في حين أن الاختلاط السوري بين الطوائف، في المدن بخاصّة، يجعل الفرز أقرب إلى الاستحالة.

صرعة المجتمع المدني حيث لا مجتمع ولا مدنيّة، تحرّكها الأسباب لشتم النتائج: قبل أن تحاسبوا الذين تفرعنوا وتسلّطوا وقمعوا، حاسبوا من أوصلنا إلى هذه النقطة.

نبيل فيّاض؛ الناصريّة، 4 فبراير 2004

روتانا أم كرخانه: محاربة الأصوليّة على الطريقة السعوديّة!!

بقلم: نبيل فياض
www.annaqed.com

ممّا لا شك فيه أن السعوديين يواجهون أزمة حقيقية مع الأمريكان والأصوليين على حدّ سواء: فالأمريكان، من جهة، يريدون من السعوديين استئصال التيارات الأصوليّة فكراً وجماهيراً وتمويلاً ودعاية؛ والأصوليون، من جهة أخرى، يحاربون من أجل فكّ الارتباط العضوي بين النظام السعودي وأمه الحنون جدّاً، الولايات المتحدة الأمريكيّة. الولايات المتحدة، بصقورها من جماعة المحافظين الجدد، هي النقيض المباشر للأصوليّة الإسلاميّة، نظرية وتطبيقاً. النظام السعودي في وضع لا يحسده عدوه عليه. فهو لا يستطيع أن يقول للتيارات الأصوليّة، التي قام على أكتافها حكم آل سعود: وداعاً . كان الأصوليّون العباءة العقائدية التي غطّى بها آل سعود كلّ جرائمهم بحق الإنسان، والإنسان السعودي في المقدّمة؛ ولا يستطيع بالمقابل أن يقول للأمريكان take care ، لأنه سيفقد بالتالي الراعي والمربّي والناصح الصديق.

تقوّت الأصوليّة للغاية، لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن، على رأسها رغبة آل سعود بأن يقودوا من جهة، عبر تيارات الإرهاب الإسلامي، العالم الإسلامي بعد انهيار الحلم القومي العربي مع أفول نجم الناصريّة وتحوّل حزب البعث إلى متحف كائنات هلاميّة؛ وأن يخدموا، من جهة أخرى، سادة البيت الأبيض عبر تحريض العقول الإسلامية المستلبة على الدخول في معركة الخاسر الأكبر فيها كان العرب قطباها الولايات المتحدة والكتلة الماركسيّة السابقة؛ هذه الأصوليّة ذاتها، بعد أن أنهت دورها بغباء لا تحسد عليه، صارت الآن العنقاء الأكثر إزعاجاً للعم سام، حتى أضحت كابوسه الأكثر تردّداً بعد أن زال الحلم الماركسي غير الجميل: الفرق بين الكابوس الأصولي والحلم الماركسي هو وضوح معالم الثاني وتحديد أوقات زيارته للفراش الأمريكي.

إذن، فالزواج غير الكاثوليكي الذي عقد قرانه رونالد ريغان في الباكستان، بحضور شاهدين هما رئيس المخابرات العامة السعودي ونظيره الباكستاني آنذاك، بين القاعدة وال CIA، تمّ فسخه بزوال مسبباته: تفكك الإتحاد السوفيتي. والغريب أن الهيام الأفغاني بين الزوجين المصلحيين أضحى نوعاً من العدائيّة الداميّة التي كثيراً ما نقابلها في حالات زواج من هذا النوع.

السعوديون حائرون: فماذا سيقولون لأبنائهم الذين ربّوهم، بالطريقة القاعدية، على كراهية الآخر بل ورفض وجوده؛ على احتقار المرأة واعتبارها متاعاً ليس إلاّ؛ على اعتبار كل من هو غير وهابي قاعدي كافراً مأواه جهنم وبئس المصير، حتى وإن كان هذا الآخر مسلماً سنيّاً حنبليّاً: بعد أن استداروا مئة وثمانين درجة واكتشفوا أن العالم يتسع لنا ولغيرنا وأن المرأة ليست حيواناً غبيّاً وأن الكفر أو عدمه مسألة شخصيّة ونسبيّة؟؟؟

بالمقابل، ماذا سيقول السعوديون للأمريكان، حماتهم ورعاتهم، وهم يرون أجيال السعوديين المتتالية من الأصوليين تترصّد بالقتل العمد كل من تطاله أيديهم من أبناء العم سام؟ البنية المعرفيّة السعوديّة مصمّمة أصلاً لإنتاج إرهابيين؛ وتغيير هذه البنية المتأصّلة منذ زمن طويل يعني خلق نوع من البلبلة في الشعب السعودي لا يبدو أن النظام هناك قادراً على تحمّل نتائجها. . ما هو الحلّ، خاصّة بعد سقوط الفاشستي المتبعّث صدّام حسين، وتمركز العسكر الأمريكي بقوّة على حدود مملكة راعي الحرمين؛ وحديث صقور الرفيق بوش عن تقسيم السعوديّة؟

كان ثمّة خيار أمام السعوديين لهلهلة البنى المعرفيّة لوهابييهم عن طريق الإعلام: كيف؟ لاشك أن المواطن العربي، في عصر العولمة، صار مثل أي مواطن عالمي آخر، يشكّل الإعلام جزءاً هامّاً للغاية من صياغة تفكيره ونمط حياته؛ والتلفزيون الذي أراد أخوتنا الوهابيون منعه ذات يوم، صار حاليّاً كالماء والهواء بالنسبة للناس، كلّ الناس، بمن فيهم أبناء الأصوليين أنفسهم. وكان باستطاعة السعوديين استغلال هذا الجهاز الهام لإعادة قولبة التفكير الوهابي الأعوج: لكن ذلك، في ضوء المعطيات الحاليّة، يبدو صعب المنال للغاية:

أوّلاً: افتقاد السعوديين أصلاً لمفكّرين كفؤ يمكنهم مواجهة الحجّة بالحجّة والرأي بالرأي؛

ثانياً: التصحّر الثقافي في مصر، التي غزاها الإرهاب الديني على يد الزعيم المؤمن أنور السادات، الذي استورد كلّ من هو معاد للتقدّم في مصر ما بعد عبد الناصر، لمحاربة اليسار المصري الذي كان أكثر العناصر إخافة لذلك النظام؛ ومثقفو مصر، الذين اشتهروا عموماً بأنهم يكتبون بالقطعة لمن يدفع جيّداً، ليسوا على استعداد لأن يكذبوا على "جماهيرهم"، التي قبضوا من السعوديين لإقناعها بالأصوليّة، بأن تلك الأصوليّة ليست أكثر من وحش مريع يمكن أن يأكل أخضر الوطن ويابسه؛ على الأقل أن يعطوا فرصة كي يستديروا تدريجيّاً . هذا إن كانت لديهم أصلاً الوسائل المعرفيّة لإقناع الناس بذلك؛

ثالثاً: التوجّس المتأصّل عند السعوديين من كل ما هو شامي أو عراقي (القطران الأقدر معرفيّاً بطاقات أبنائهم على مواجهة فكر التطرّف، لولا زبانية البعث المتأخونين) للمساهمة في معركة ثقافيّة من هذا النوع: خاصّة وأن سوريّا والعراق تمتازان عن مصر والسعوديّة بالتعدّدية التي طالما أشرنا إليها، والتي توقع الهلع في قلوب السعوديين حتى الآن.

الدعارة هي الحل:

ماذا يفعل أخوتنا السعوديون إذن؟ الحلّ المعرفي الآن غير ممكن، أقلّه لأن أدواته مفقودة، وربما أن ما من أحد من مصلحته تفشي الوعي في الشرق الأوسط الناطق بالعربيّة. . حكّ الأمير الوليد بن طلال "رأسه"؛ وفكّر: وجدتها! الدعارة هي الحل. . كيف؟ الوليد بن طلال، الذي هو أصلاً "مشموس" [شاهدته مرّة في مؤتمر صحفي مع طيب الذكر مايكل جاكسون . سمعت أنه أسلم . وكان الأخير يضع رأسه على كتف أميرنا السعودي بطريقة "أنتيم" أكثر مما يتطلّبه الانتعاظ] ورائحته زكمت كلّ الأنوف، لا يمتلك، كسعودي عريق، وسيلة أخرى غير الدعارة يعتقد أن باستطاعتها جذب الشباب من براثن الأصوليّة.

بعد انهيار العراق، وسقوط كل الأنظمة العربية في بركة من الحيرة المفزعة، ازدادت بشكل سرطاني محطّات . كرخانات النفط المتلفزة؛ وعلى هامشها ترعرعت طفيليّاً بخجل مرتبك قنوات أصولية قليلة! مع ذلك، فما من محطّة واحدة تنطق بالعربية يمكن القول إنها تخاطب عقل العربي أو وجدانه.

صار مواطننا مثل عنوان أحد كتب أستاذي ومعلمي، كيركغارد، إم.. أو: إمّا عقل في صيرورة تتفيه دائمة التصاعد، على يد الأمير الوليد [اسمه يذكّرني بأمير المؤمنين الوليد الثاني] ومن على شاكلته، أو لا عقل مستلب بإرهاب من شيوخ إجرام فقستهم مصر بنقود سعوديّة. الشيء الوحيد المفتقد في هذه الزحمة : "الكرخانو . وهابية" هو العقل. فكرخانة الوليد بن طلال ومحطّات الوهابيين الإرهابيّة المتلفزة وجهان لعملة واحدة: اغتيال العقل.

كم تراجعت ذهنيّاً ومنطقيّاً تلك الكائنات المعادية لداروين، الذي آمن . للأسف . بالنشوء والارتقاء، المسمّاة بالعرب: في قرن واحد، وبإشراف ناصري بعثي أخواني، أخرج العرب رؤوسهم من التاريخ فسقطوا بأجسادهم كلّها من فتحات الزمن في دوار العدميّة. في بداية القرن العشرين كان قاسم أمين يحمل راية تحرّر النساء؛ في بداية القرن الحادي والعشرين حملت الأخت هيفاء وهبي، التي يقودها الأخ الأمير الوليد إياه، رايات التحرّر تلك

بمؤخرتها الأشهر؛ في بداية القرن العشرين كان مهدي الجواهري ومعروف الرصافي وغيرهما يقودون العراق نحو فجر جديد مفعم بالأمل؛ في بداية القرن الحادي والعشرين أضحى مراهق المتعة، مقتدى الصدر، الذي لا يمتلك غير إرثه العائلي، يستعمله كما تستعمل الأخت هيفاء إرثها غير العائلي، في سوق قطعان العراق إلى الهاوية؛ في بداية القرن العشرين كانت إلفت الأدلبي ووداد سكاكيني ومريانا مرّاش يعملن بدأب على تحرير عقل السوريّات من الجهل والماضوية، في بداية القرن الحادي والعشرين تسحب الأخت غير السحاقية منيرة القبيسي نساء سوريا من أنوفهن إلى مستنقع العبودية من جديد؛ في بدايات القرن العشرين كان جورج حبش ونايف حواتمة وبديع حدّاد يرفعون سويّة التفكير الفلسطيني باتجاه عقلنة رفض الواقع المتعب، وفي بداية القرن الحادي والعشرين يقود الشيخ الإرهابي المحنط، أحمد ياسين، فلسطينييه ومن ثم المنطقة كلّها إلى هاوية لا أحد يعرف قرارها.

إن ما يحصل في هذه المواخير التي يقولون إنها محطّات تلفزيونيّة يسيء إلينا للغاية حين يتمّ تفسير هذه الممارسات العاهرة على أنها أحد أشكال التحرّر؛ وهكذا، يسقط المواطن العادي في شرك الخلط بين التحرّر والتحلّل؛ بين الفجور والسفور؛ بين هيفاء وهبي وهدى شعراوي؛ وبين الوليد بن طلال وقاسم أمين.

إن أبسط قواعد التحرّر، وفق أبسط المعايير، تعني احترام الإنسان، جسداً وروحاً، رجلاً وامرأة، طفلاً وكبيراً. وما يقترفه الوليد بن طلال وجوقة العهر المتلفز المحيطة به هو أكبر جريمة بحق الحريّة والإنسان.

نبيل فياض 24 يناير 2004

عفواً حزب البعث: سوريّا ليست عربيّة!

بقلم: نبيل فياض

www.annaqed.com

يبدو صعباً إفهام الناس كم من شعارات وممارسات اعتقد أصحابها . أو: المستفيدون منها . أنها صحيحة وقابلة للتطبيق، ثم اكتشفوا بعد فوات الأوان أن مثلها مثل الدواء الذي انتهت صلاحيته منذ زمن طويل . هذا إن كانت له صلاحية أصلاً . غير قابلة للاستخدام! لكن السؤال الذي يلاحقنا بعيونه الوقحة: كم من الناس قضوا من جراء هذا الدواء الفاسد منذ عام 1963 . وربما 1958 . حتى الآن؟ كم من الناس قضوا على مذبح المفاهيم العائمة واستشهدوا في ساحة "الفكرة أهم من الإنسان"؟ لقد طرح البعثيون شعار: الوحدة والحريّة والاشتراكيّة . كالناصريين تماماً، مع فارق الترتيب . فماذا كانت النتيجة؟

بدل أن تتوحد الدول التي أسموها عربيّة . بما في ذلك جزر القمر والصومال وجيبوتي وشنقيط . نحن الآن على أبواب تقسيم العراق، وربما قريباً السعوديّة؛ السودان مقسّم عمليّاً، وفي لبنان القطيعة واضحة لمن لا يكابر بين المناطق المقطّعة أصلاً مذهبيّاً.. إلخ!

كلمة الحريّة، التي أجبرنا البعثيون على ترديدها، كالببغاء البلهاء المصابة بالربو، وذلك باعتبارها . الحريّة . الإثفية الوسطى من ثالوثهم العظيم، لا تحتاج إلى جهد هائل كي تكشف لنا عن مآسيها الصارخة إن في العراق حيث القبور الجماعية والتطهير العرقي والتخلّص من المعارضة على طريقة الحجّاج، أو في سوريّا حيث لا معارضة ولا نقد ولا كشف فساد ولا حتى سماح بمقاربة التطرّف الديني، الذي أثبت الوضع الحالي في العراق أنه كان العنصر الأوحد الفاعل في كواليس النظام الصدّامي: سبب رئيس هو أن دكتاتور الثقافة الحمصي في دمشق، لأنه علوي، يخشى من أي سماح بفكرة تجعل قوى الإرهاب الإسلامي المتنفذّة للغاية في سوريّا اليوم تكفّره وتشاغب عليه وتفقده بالتالي منصبه . وهذا هو المهم . وتضيّع عليه وعلى أقاربه الذين زرتهم مرّة في بلدته القبو الاستفادة من خيرات هذا الوطن، خاصّة من اللاعمل الديبلوماسي في البرازيل!!!

أمّا الاشتراكيّة فحدّث ولا حرج!!! وإذا كان النظام الذي سقط في العراق قد كشف، مع تسلّل عدسات التلفزيون إلى الوطن الذي كان معزولاً، فقر الشعب المدقع وغنى صدّام الفاحش، فإن أي ملاحظ خارجي لن يفشل في المقارنة بين بيوت المسؤولين والتجّار ورجال الدين في الصبّورة ويعفور والمالكي وباقي فئات الشعب في دفّ الشوك والدويلعة والتضامن والطبّالة.. في دمشق. . مع ملاحظة أن العلويين هم الطائفة الأكثر حرماناً في سوريّا، بعكس ما قد يتصوّر بعضهم. سوريّا الآن ممتلكة لبعض أفراد من طوائف مختلفة لا يسمحون لطائر أن يمرّ من سمائها دون الإفادة منه. . وممارسات هؤلاء، التي ظهرت واضحة الفجر في انتخابات (!!!) مجلس الشعب الأخير، وأخص هنا بالذكر المدعو محمّد حمشو الذي كان يوزّع الملايين في لحظات في بلد حيث راتب المهندس لا يتعدّى مئة وخمسين دولاراً، كانت أكثر من وقحة. لقد كنّا على الدوام ضدّ الاشتراكيّة ومع نظام المبادرة الفرديّة الرأسمالي، الذي يحمي حقوق الإنسان ويمنع القهر والتسلّط تحت أي شعار ويضمن الحدّ الأدنى من العدالة الاجتماعيّة: في سوريّا الآن منظومة اقتصادية تتمسّك في آن باحتكاريّة الرأسماليّة وقمع الشيوعية . دون أي من حسنات المنظومتين!

تحديد الهويّة القوميّة علميّاً:

رغم أن الانتماء القومي أو الديني لا يعنينا في شيء، فنحن نرغب حقّاً في تفنيد الانتماء القومي العربي الذي أقام عليه البعثيون والناصريون دعاويهم غير العقلانيّة من أجل المزيد من التسلّط وامتصاص خيرات الأوطان.

أولاً:

اللغة، في اعتقادنا، غير كافية وحدها لإثبات انتماء شعب ما إلى قوميّة بعينها: الأرجنتينيون، مثلاً، يتحدّثون الإسبانيّة، ومعظمهم من أصول إسبانيّة، لكنهم الآن ليسوا إسباناً: لأن التقاليد والبنى المعرفيّة الأرجنتينيّة ميّزت بمرور الزمن بين الشعبين؛ القول ذاته ينطبق على البرازيل والبرتغال؛ استراليا وبريطانيا؛ النمسا وألمانيا.. إلخ.

ثانياً:

الدين، غير كاف وحده كحامل للقوميّة: الفلبين وإيطاليا وإسبانيا والمكسيك والنمسا بلدان مسيحيّة كاثوليكيّة متمايزة قوميّاً؛ بريطانيا والسويد والنرويج وجنوب إفريقيا بلدان مسيحيّة بروتستانتية متمايزة قوميّاً؛ روسيا وبلغاريا ورومانيا واليونان بلدان مسيحية أرثوذكسيّة متمايزة قوميّاً؛ اليابان والتيبت وكوريا وبورما وفيتنام وكمبوديا بلدان بوذيّة متمايزة قوميّاً.. إلخ.

ثالثاً:

بعض من تاريخ مشترك غير كاف وحده لخلق شكل من الانتماء القومي: وإلاّ لكان العراق فارسيّاً ومصر إيطاليّة أو بريطانيّة وسوريّا تركيّة والجزائر فرنسيّة.. إلخ.

بالمقابل، فإن أيّاً من العناصر المشار إليها آنفاً لا تنطبق على سوريّا كي نقول إنها بلد عربي صرف: فمن جهة، العربيّة ليست اللغة الوحيدة القويّة في سوريّا: الكرديّة مثلاً لغة مئات الألوف من الشعب السوري؛ الآرامية . السريانيّة هي اللغة والأصل للشعب السوري قبل الغزو الإسلامي للبلد؛ إضافة إلى جزر هامّة من لغات أرمنيّة وشركسيّة وداغستانيّة وتركمانيّة.. إلخ. بالمقابل، فإن كثيراً من الدول التي أقحمتها السعودية في المؤسّسة الآيلة للسقوط، التي يرئسها شعبان عبد الرحيم السياسة العربية، المسمّاة جامعة الدول العربيّة، غير ناطقة بالعربيّة، إنْ كليّاً: كما في جزر القمر وجيبوتي والصومال، أو جزئياً، كما في موريتانيا! بل إن بعضاً من الدول المعتبرة أساسيّة في جامعة عمرو موسى هي غير ناطقة جزئيّاً بالعربيّة مثل السودان أو الجزائر أو العراق أو المغرب أو حتى مصر..

نصل الآن إلى الدين: فسوريا بلد هو أبعد من أن يكون بلداً إسلاميّاً، وفق التعريف السعودي للمصطلح. المسيحيون، بكافة طوائفهم، في سوريّا والمهجر، هم الثقل الأكبر معرفيّاً وحضاريّاً [لولا الوجود المسيحي في سوريّا ولبنان لكانت بلاد الشام مثل اليمن أو موريتانيا]؛ ولولا القمع البعثي المتأسلم لنافست سوريّا، بطوائفها المسيحيّة التي يمكن اعتبارها الرابط الحضاري الغربي الشرقي، أقوى دول المنطقة الشرق أوسطية، على كافة الصعد. لكن القمع إياه أدى إلى نزيف مسيحي قاتل من بلد المسيحيّة الأصيل: هل يمكن أن ننسى خطّة إخلاء الجزيرة السوريّة من السريان والآشوريين؟ هل يمكن أن ننسى هجمة المسيحيين السوريين لنيل الجنسية اللبنانيّة، ليصبحوا بالتالي مواطنين من الدرجة الأولى، بدل كونهم أهل ذمّة في وطنهم الأصلي؟ هل باستطاعة المسؤولين العباقرة تصوّر كم من سيبقى في الوطن من مسيحيين، في ظل هذه الهجمة الإرهابيّة الأصوليّة البوطوية على سوريّا، إذا ما فتحت أي سفارة أبوابها لاستقبال مهاجرين من المنطقة؟ من ناحية أخرى، فالطوائف غير السنيّة في سوريّا، تشكّل مع المسيحيين ما يقرب من نصف عدد السكان السوريين: وهذه الطوائف، باستثناء قلّة لا وزن لها من الإثني عشريين من أذناب ملالي فارس، تبدو أقرب إلى العلمانيّة والتحضّر الغربيين منها إلى الإسلام بقالبه السعودي المثير للتقزّز.

إذا ما أردنا التوقّف عند مسألة التاريخ المشترك سنستنتج بسهولة ملفتة أن سوريّا، على الدوام، كانت معبراً لهذا الجار القوي أو ذاك، بسبب موقعها الجغرافي الأبعد عن العزلة. فمنذ القدم كان الفارسي يجتاحها وهو يحارب الروماني، حاملاً معه أعرافه واعتقاداته، خاصّة ميثرا الذي ترسّخ في الساحل السوري حتى بعد ظهور المسيحيّة،

مثله مثل الروماني الذي كان يجتاحها مهاجماً فارس أو ردّاً لهجوم فارسي على روما؛ وكان هو الآخر يحمل معه كثيراً من بناه المعرفيّة التي ما تزال أوابدها ماثلة للعيان في مناطق سوريّة لا حصر لها. كذلك كان الحال قبل الفرس والرومان بين المصريين القدماء والآشوريين وغيرهم ممن حكموا بلاد الرافدين. من ناحية أخرى، فقد أشارت المفكّرة الشهيرة، باتريشيا كرونه، إلى أن سوريّا افتقدت على الدوام الحكم المركزي، بعكس بلاد الرافدين أو حوض النيل، حيث كانت دول المدن الصفة الأميز للوضع السياسي السوري القديم. بل يمكن القول بثقة إن تفكّك سوريّا ما قبل الغزو الإسلامي هو الذي سهل على المسلمين احتلالها السريع. هذه اللامركزية، برأينا، عرفت تعبيراً واضحاً عنها في كثرة الانقلابات في سوريّا قبل استيلاء البعثيين على السلطة.

إنّ الحديث عن هويّة واحدة لسوريّا فيه كثير من التعسّف وسوء القراءة للتاريخ السوري، قديمه وحديثه، وتعامٍ مطلق عن الواقع الديموغرافي السوري المبني أصلاً على أسس التعدّديّة. هذه التعدّديّة التي نشير إليها باستمرار، والتي تتباهى بعض دول العالم المتحضّر الآن بأنها جزء من هويتها الثقافيّة، تثبت من ناحية غنى المجتمع السوري، وقبوله تقليديّاً الآخر [شكل جنيني للديمقراطيّة] من ناحية أخرى. فإذا كانت سوريّا عربيّة إسلاميّة فحسب، وكلّنا نعرف أن سوريّا كانت تعبق بالفكر والمعرفة والثقافة قبل الغزو العربي الإسلامي، فماذا كانت الهويّة السوريّة قبل هذا الغزو؟ سوريّا لم تكن الربع الخالي وفجأة جاءتها جحافل الغزو الإسلامي لتقيم فيها حضارة!!! وتعطيها هويّة! الشعب السوري ما قبل الغزو كان يشعر بانتماء ما إلى هذه الأرض، وما الانشقاقات المسيحيّة ذات الطابع المذهبي القومي الجذور، مثل النسطورية واليعقوبيّة والمونوتيليّة، التي نشأت بنوع من الردّة على تسلط الحكم الخلقيدوني، إلا أحد الأدلّة الكثيرة على عمق الإحساس السوري بالتميّز. بل إن زنوبيا، التي جاءت بلونجينوس الحمصي [لاحظوا: لونجينوس حمصي وليس كرديّاً] كي يدبّج لها فلسفة وثنيّة سوريّة، وببولس السميساطي كي يضع لها خطوط فلسفة مسيحيّة سوريّة، إلا دليل يضاف أيضاً إلى سلسلة الأدلّة التي لا تنتهي على الإحساس السوري العميق بالهويّة قبل الغزو سيئ السمعة المشار إليه آنفاً.

البعثيون، وقبلهم المحتل المصري الناصري، أرادوا شطب سوريّا ما قبل معاوية من التاريخ: وجاءوا بمجموعة من الكتبة والفريسيين من المصابين ببرانويا الإرهاب المعرفي الإسلامي والشوفينيّة العربيّة، من أمثال الرفيق الأخواني علي عقلة عرسان، كي يخلقوا جوّاً ثقافيّاً خانقاً لكلّ من يرفض مقولة "الهويّة العربيّة الإسلاميّة" لسوريّا. وأبسط متطلبات العقل والحريّة؛ تقول: إن النشيد الوطني السوري، الذي يتباهى بكائنات مقرفة من أمثال الوليد والرشيد، صار عبئاً إضافيّاً على سلة أكاذيبهم الممتلئة أصلاً: ولا بدّ من تغييره بما يضمن أن يشعر كلّ سوري، في الوطن أو المهجر، بأن النشيد يمثّله.

سوريّا، على الدوام، كانت جزءاً من الحضارة المتوسطيّة التي وضع أسسها فلاسفة اليونان، الذين تأثروا، بشكل أو بآخر، بالمخزون المعرفي السوري المغرق في قدمه، ومحاولة البعثيين، وقبلهم الناصريون، أن يجعلوا من السوري قرداً يمنيّاً أو جيزانيّاً، هو أجبن اعتداء . فهو يتم خلسة وبالقلم لا السيف . على الوجود السوري الذي كان قبل أن يخترع المسلمون آلهتهم وقبل أن يسرق العرب خيرات الوطن ومعارفه. من هنا، فإن أبسط ما يمكن القيام به، ونحن نرى الانحدار المعرفي الاقتصادي العلمي الأخلاقي عند العرب المسلمين، هو تقديم طلب انسحاب مما يسمّى منظمة المؤتمر الإسلامي وبرفقته طلب انسحاب آخر من منظمة شعبان عبد الرحيم السياسة المسمّاة بجامعة الدول العربيّة، وبالمقابل، تقديم طلب انضمام إلى المجموعة الأوربية، يعيد سوريّا، كشعب حضاري، إلى مكانه الطبيعي. فالإنسان، كي يرتقي، يرافق أناساً من نوعيّة راقية، تضيف إلى رقيّه رقيّاً: لا مجموعة من القرود الوهابيين تعيد الإنسان إلى عصور ما قبل اكتشاف النار.

القوميّة، برأينا الذي لا نجبر عليه أحداً، لا تقوم على توافه لغويّة أو خرافات دينيّة، بل إن مقوّمها الأساسي معرفي ثقافي؛ وما يربطنا حضاريّاً، كسوريين، على مدى الزمان الموغل في قدمه، بالشعوب المتوسطيّة المتحضّرة، كاليونانيين والإيطاليين والفرنسيين، أقوى بما لا يقارن مما يربطنا بقرود الوهابيين المتصحّرة في الربع الخالي واليمن السعيد ونجد.

نبيل فياض 30 يناير 2004

تعلّم الإسلام في خمسة أيام . اليوم الخامس

الدرس الخامس: اعتقال الصيرورة!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 13 فبراير 2004

لا مجال للجدل بأن أفعالاً محدّدة ليس لها مكان في المنظومة المعرفيّة الإسلاميّة الأرثوذكسيّة: أبرزها . صار، أصبح، أضحى، تغيّر، تحوّل.. إلخ. بالمقابل، ثمّة أفعال أخرى لها في المنظومة ذاتها مكانة لا تحتلها في أية منظومة غيرها، باستثناء اليهودية الأرثوذكسيّة ربما: أبرزها . سرمد، أبّد، دام، استمرّ.. إلخ. فالإسلام، لأنه يتناول الحياة بأدق تفاصيلها "من منظور الأبديّة"، لا يستطيع فهم التحوّل بفعل الظروف الزمانيّة المكانيّة. ولأن لا شيء في الحياة البشريّة يمكن أن يدوم أو يتكرّر بالدقّة ذاتها في كلّ زمان ومكان، ولأن الإنسان كما يقول الشاعر الكبير، لوبيه دي فيغا، "أنا أكون أنا وظروفي"، فالاختلاف جوهر الطبيعة البشريّة: لأن ما من بيئة زمانيّة أو مكانيّة تشابه الأخرى، مهما تقارب التاريخ والجغرافيا. من هنا يمكن القول، إن أسوأ ما جاء به الإسلام من مفاهيم هو التعميم: اعتبار الناس سواسية كأسنان المشط.

الفكرة في الإسلام . التي تخدم أصحابها طبعاً . هي الأساس: والإنسان تحصيل حاصل. في كلّ الأيديولوجيّات التي تضع الإنسان على رأس أولوياتها نجد أن "باترون" الفكرة يقصّ بحسب البشري: في الإسلام الإنسان يقصّ وفق "باترون" الفكرة. المنطق الأخلاقي يقول، إنه من المعيب قصّ يديّ الكائن البشري أو ساقيه أو حتى رقبته إذا كانت غير متناسبة مع باترون الفكرة؛ لكن الإسلام استأصل شعوباً وثقافات وحضارات لأنها، في نظره، كانت مناقضة لمنظوره للكون والبشريّة. ألم يقض الإسلام جذرياً على الحضارة الزرادشتيّة العظيمة في إيران؟ ألم يستأصل الإسلام القوميّة الآراميّة . السريانيّة الراسخة من وطنها الأصلي: سوريّا؟

ألم ينه ماضي مصر القبطي الهلنستي الأعرق، باستثناء جزر صغيرة لا وزن لها، بضربة واحدة من قبضته القاتلة؟ لم يفعل الإسلام ما فعله بقدراته الفكريّة أو الثقافية (هل ننسى حرق المكتبات الذي بدأ مع عمرو بن العاص في الاسكندريّة ولم ينته مع صلاح الدين الأيوبي في مكتبة الفاطميين القاهرية؟)، لأنه باستثناء حفنة متشظيّة من الميثولوجيات الهاغاديّة الأصل وبعض هالاخوت مملّة، لا ثقافة في الإسلام ولا من يحزنون؟ إنّ ما حدث في مكّة حين اقتحمها جيش المسلمين، وقتل بعض المكيّين حتى وإن تعلّقوا بأستار الكعبة [أغلب من قتل كان سببه إيذاء غرور محمد عبر شكل انتقاد له لم يعجبه]، هو الدليل الأبرز على عنف المسلمين في ذبح البشر على عتبة الفكرة. لماذا يبدو المسلمون هم الأعنف،على الدوام، في ترويج ما يعتقدون أنه أفكار هامّة؟ أبسط تعليل هو الضعف! فهشاشة الفكرة الإسلاميّة عموماً، تجبر معتنقها على فرضها بالسيف، لأنها لا تمتلك قوة الفرض الذاتي. أي عاقل في هذا العالم يمكنه تصديق قصص الطوفان والخليقة وآدم وحواء وقابيل وهابيل والإسراء والمعراج، خاصّة بعد شيوع علم الدين المقارن ومعرفة الأصول اليهودية لما اعتقد أنه تراث إلهي أصيل؟! من يستطيع الآن قبض مسألة الخلافة الإسلاميّة بعد انتشار التعليم واستذكار الناس كتب

التراث الإسلامي التي لا تحتوي غير الإرهاب والمؤامرات والعهر المقدّس وانتهاك أبسط حقوق الإنسان؟ من باستطاعته تصديق الأصل الإلهي للشرع الإسلامي بعد ما كتبه شاخت وكرونه وغيرهما؟ إنّ الضعف الذي يعيشه المسلمون حالياً هو الحظ الأفضل للبشريّة منذ خمسة عشر قرناً. فلو كان المسلمون أقوياء، كما كانوا زمن عمر بن الخطّاب مثلاً، لفرضوا أفكارهم "ذات المنظور الأبدي" على سائر البشر، بغضّ النظر عن الفوارق الثقافيّة وغير الثقافيّة بين الشعوب! تخيّلوا مثلاً نساء الدانمارك بالبرقع ورجال موسكو بالجلباب الوهابي القصير؟

تخيلّوا مثلاً تطبيق حدّ الزنا في مانيلا أو بانكوك أو كمبالا؟ سنضطر حتماً لاقتلاع جبال الهيمالايا من مكانها! تخيلوا مثلاً تطبيق الشريعة الإسلامية السمحاء في كوريا أو اليابان وسوق النساء كالخنازير الصغيرة خارج سوق العمل إلى مواقعهن الطبيعيّة كحريم! تخيّلوا مثلاً تطبيق الشريعة الإسلاميّة في الهند! وفي الإسلام لا وجود لأي دين خارج إطار الثلاثي المرح المعروف! يعني سيساق ملايين الهندوس والسيخ والبوذيين من الوثنيين إلى المسلخ إلا إذا اعترفوا بالإسلام ديانة لهم ولأبنائهم من بعدهم!! تخيّلوا مثلاً أن يغزوا المسلمون الصين ويفرضوا الشريعة الإسلامية في وطن المليار نسمة: باستثناء أقليّة مسلمة صغيرة، سوف يفرم المليار صيني إذا لم يتخلّوا عن الشيوعيّة الملحدة . والعياذ بالله . أو الكونفوشيوسيّة الوثنيّة أو البوذية الشركيّة أو الطاويّة الكافرة! فكلّ هذا الهراء لم يخلقه الله، لأنه لم يعلم نبيّه محمداً به! بل تخيّلوا أن يغزو المسلمون فرنسا! أوّل ما سيقومون به رجم بريجيت باردو وصوفي مارسو وإيزابيل أدجاني وغيرهن من فنانين ومثقفيّن وأدباء علمانيين! وبعدها يخيّرون الشعب الفرنسي بين الإسلام أو الموت: فالله سبحانه لم يورد في كتابه العزيز أي شيء عن العلمانيّة!

تخيّلوا مثلاً إذا احتل المسلمون إيطاليا وقاموا بفرض الهالاخوت المحمدي على وطن الفن والجمال! كم من التماثيل الرائعة، التحف الفنيّة النادرة، اللوحات الكنسيّة التي لا تقدّر بثمن . ستعرف طريقها إلى الدمار ! كما فعل بنو طالبان بتماثيل بوذا!

تخيّلوا أن تكون أفغانستان الطالبانيّة بقوة الولايات المتحدة! ماذا يمكن أن يحل بالعالم! بل تخيّلوا أن تكون السعودية الوهابيّة بقوة أمريكا! لقد دخل الأمريكان العراق، ولم نسمع للحظة عن أي نوع من التبشير المسيحي في البلد الذي يقولون إنه محتل؟ فماذا لو كانت السعودية الوهابيّة هي التي غزت الولايات المتحدة؟ وحده الضعف الإسلامي، العسكري . الاقتصادي . المعرفي . السياسي، هو الذي يجبر المسلمين على ليّ أفكارهم أمام الآخر المخالف! سؤال يطرح نفسه هنا: هل يبيح الإسلام للمسلم العيش مسالماً في دولة كافرة؟ الجواب البسيط للغاية: لا! واجب المسلم تجاه الكافر إمّا أن يؤسلمه أو يقتله! [هل يمكن أن نستذكر حكاية إسلام أبي سفيان؟] إذن ما هو مبرّر المسلمين العيش في فرنسا العلمانيّة خاصة إذا عرفنا أنها تجبرهم بحذاء القانون على التخلّي عن سلاحهم الاحتجاجي الأخير؟ ما هو مبرّر المسلمين على العيش في بلد وثني . هندوسي، خاصّة أن الهندوس يعملون ما بوسعهم لتبشير المسلمين بديانتهم الوثنيّة بحجّة أنها ديانة الهند القوميّة ويحققون في ذلك نجاحات ليست بسيطة؟ بل لماذا يستنكر "علماء" المسلمين أي تطبيق للعلمانيّة في بلاد ذات غالبيّة إسلاميّة ويرحبّون بذلك في بلد هم فيه أقليّة مثل بريطانيا أو الهند؟ وإذا عرفنا أن "المانو سمرتي" يحدّد بدقّة للهندوسي شرائعه الحياتيّة، فماذا لو فاز في الهند حزباً أكثر تطرفاً من بهاراتا جاناتا، الذي توقعنا في كتابنا حوارات عام 1992 أن يفوز بسبب التطرّف الإسلامي الذي لابدّ أن يخلق تطرّفاً موازياً، وأجبر الهنود، تحت رايات الغالبيّة، التي فلقنا بها شيوخ المتعة في إيران والعراق، على الالتزام بالشرع الهندوسي، بغضّ النظر عن الانتماء الديني أو الفكري؟ أليست إيران الخمينيّة، وعراق آل الحكيم، يطبقّان ما يعتقدان أنه شرع إلهي على من آمن بهذا الشرع ومن لم يؤمن به؟

بالمناسبة، نحن نعتقد أن بداية الصدام بين الحضارات، التي يروّج لها الإسلاميّون وغيرهم من متطرّفي الغرب، لابدّ ستكون في الهند: حيث الفقر والتخلّف بين الهندوس، والانغلاق المعرفي الذي هو هويّة إسلاميّة حيث يكون المسلمون. إنّ أبسط ما يمكن قوله حول الحركات المتشدّدة الإرهابيّة الإسلاميّة، كأسباب ثقافيّة، هو أنها ردّة فعل على انهزام الفكرة أمام الإنسان. لقد أجبر الإسلام، بقوة العقل والمنطق، على اتباع طريق التفافي نفاقي لضمانية استمراره، فضعفه لا يساعده على المواجهة، الآن على الأقل. وكلّ النصوص التي يوردها مشايخه الرسميّون ووعاظ السلاطين لا تستطيع منع الحقيقة الأساسيّة من أن الفكرة تداس لغايات الاستمرارية: فالنص الأصلي

المقدّس، غير القابل للتغيير، في المضمون أو الفهم، يرفض أي نوع من هذه المقاربات المشايخيّة الرسميّة السلميّة مع ما هو بنظر الإسلام كفر صريح، حتى وإن كانت في سبيل اللافناء. وهذا الصدام بين الفهمين: فهم وعاظ السلاطين ومشايخ السلطة النفعي الالتفافي النفاقي المقحم على جوهر الإسلام، وفهم الحركات الأصوليّة الإرهابية الحرفي الدقيق الملتزم بأصول الدين الفعليّة، في النهاية، هو صدام بين الفكرة والإنسان: بين الفهم التغييري وإن كان بقوة المنطق والظروف، والفهم السكوني الذي لا يستوعب ما يمليه الزمان والمكان من تبديلات لا مجال لردّها. ما نعتقده هنا هو أنه كلّما ازداد المسلمون انفتاحاً في مسألة لا مطلقيّة مطلق فكرة، كلّما ازدادت وقويت التيارات الأصوليّة المتعصّبة الإرهابيّة في الدول ذات الغالبيّة الإسلاميّة، وانعكس ذلك سلباً على الجو العالمي عموماً. كلّ الكون في أزمة اليوم. ليس

السبب الإرهاب الأصولي أو العقليّة التكفيرية أو قوة الوهابيين النفطيّة: السبب معرفي تربوي؛ وإذا كان المرء في كليّة الشريعة . جامعة دمشق عاصمة سوريّا، التي يفترض أنها وطن التعدّدية الأقدم، وأول موطيء قدم في الشرق للفكر الحداثوي، ما يزال يتعلّم رفض الآخر تحت رايات المفاهيم المقدّسة؛ فكيف بالأحرى يمكننا مطالبة السعوديين البدو بأن يغيّروا نمط تفكيرهم الوحداني الذي أعطاهم هوية وحقيقة بين شعوب الأرض؟ وحتى تتغير طرائق التربية والتعليم في الدول ذات الغالبيّة الإسلاميّة، حتى ينتج الإسلام منظومات فكرية تقبل بالآخر حقيقة لا نفاقاً، حتى يصبح الله على قدم المساواة مع بوذا وبراهما وأهورا مازدا: سيظل الإرهاب قائماً والعنف مستشرياً أخيراً، لا أستطيع سوى أن أشكر أستاذي ومعلّمي الأب من رهبنة الآباء البيض، البلجيكي ألفرد هافنت، الذي علّمني بصبر ودقّة أفضل ما حصلت عليه في عمري حتى الآن: أقصد، لاهوت الصيرورة. ومجتمع خرج منه وايتهد، سيّد الصيرورة المعاصر، لا يمكن أن نخشى عليه من الانحدار الحضاري.

نبيل فيّاض؛ الناصرية

تعلّم الإسلام في خمسة أيام . اليوم الرابع

الدرس الرابع: احتقار النساء!

من المعروف للباحثين أصحاب العلاقة أن الإسلام، كديانة رعوية تفرّعت عن ديانة رعويّة أخرى هي اليهوديّة، لا يمكن النظر إليه إلاّ كمنظومة بطريركية صرفة. ومن المعروف أيضاً، سوسيولوجيّاً، أن التيارات الرعويّة المنشأ، بسبب الدور الأبرز للرجل فيها من ناحية، والعبء الذي تشكّله المرأة على مجتمعها القبلي من ناحية أخرى، يحمل في دواخله كراهية لا واعية للعنصر الأنثوي. في الجماعات الرعوية، حيث التنقّل هو السمة الغالبة، تشكّل المرأة الضعيفة عموماً، الأم غالباً، الحامل في أوقات كثيرة، دوراً إعاقيّاً لتحرّك جماعتها؛ بالمقابل، ففي هذه البيئة حيث السبي والغزو وأنواع اللصوصيّة الأخرى من أركان الحياة، يكون عبء وجود النساء كبيراً للغاية، فهن لا يستطعن الغزو والإتيان بالمغانم للقبيلة عموماً، لكنهن بالمقابل عرضة للسبي وتلطيخ جبين قبيلتهن بالعار.

لقد اجتازت اليهوديّة، بعد انتقالها المفترض من بيئتها الرعوية البدئيّة إلى بيئة زراعيّة متحضّرة، نوعاً من التحوّل في غير صالح المؤسسة البطريركيّة. ويمكن الاستدلال على آثار المجتمع الزراعي في اليهوديّة من بعض أعياد العبرانيين ذات الطابع غير الرعوي: مقابل تلك الرعويّة القديمة. فعلى سبيل المثال، أعتقد أن الشبعوت والصوكوت عيدان زراعيّان بامتياز؛ في حين أن الروش ها شناه ويوم كيبور عيدان رعويان. مع ملاحظة أن التقويم اليهودي "القمري . الرعوي"، يمكن أن يوصلنا إلى تحديد تقريبي لزمن التحوّل اليهودي نحو الزراعيّة، إذا ما حدّدنا تاريخ دمجه مع التقويم "الشمسي . الزراعي". مع ذلك، ولأن التراث اليهودي، في جزء كبير منه، حمل البصمة الرعويّة، خاصّة في الأقسام الهالاخية من الرسائل ذات العلاقة بالنساء من التلمود البابلي: *سوتاه*؛ *ندّاه*؛ و *ناشيم*. ولأن هذه النصوص الهالاخيّة ذات صبغة مقدّسة تتجاوز الزمان والمكان، فقد كان على المرأة اليهوديّة الانتظار إلى القرن التاسع عشر، حيث تبلورت حركات القوميّة اليهوديّة العلمانيّة وظهر تيار اليهوديّة الإصلاحيّة الهام، كي تكسر نير الهالاخا وتعود كائناً كامل الحقوق والبشريّة.

للأسف الشديد، فإن تيارات القوميّة العربيّة لم تكن أكثر من أصوليّة محدثة ترتدي قناعاً قوميّاً؛ كذلك فإن ما يمكن تسميته "إصلاح إسلامي" بالمعنى الفعلي مسألة لم تر النور، برأينا، في التاريخ الإسلامي الحديث قط. الإصلاح، بالمعنى الجذري للكلمة، أمر لا وجود له بين المسلمين منذ زمن طويل. وحتى عندما أراد المسلمون شكل إصلاح زمن المأمون مع المعتزلة أو عبر التيار الإسماعيلي، فقد تآمر الحاكم . أبرزهم المتوكل على الله العباسي . مع الرعاع الذين فشلوا في استيعاب ما يطرحه المعتزلة أو الاسماعيليون وعادت المسألة برمّتها إلى نقطة الصفر.

إن الوضع السيء للغاية الذي تعيشه المرأة المسلمة الآن مردّه البنى المعرفيّة التي أشيد على أساسها الإسلام، والتي أرادت طبقة الإكليروس الإسلامي إعطائها الصبغة الأبديّة لاستخدامها في صالح تلك الطبقة أبديّاً، مع أن الواقع التاريخي المدوّن، وإن كنّا لا نثق به لا من قريب ولا من بعيد، يقول إن كبار رجال الدعوة، مثل عمر بن الخطّاب المؤسس الفعلي للدولة الإسلاميّة، لم يتعاملوا مع بعض النصوص قطعيّة الدلالة على أنها أبدية الصلاحية؛ ويمكن لمن شاء مراجعة الأدلة الحاسمة على ذلك في كتاب *النص والاجتهاد*. لقد حاول بعض المتفلسفين من الإسلاميين إيجاد مبررات لعمر وعائشة وخالد بن الوليد وعثمان بن عفّان وغيرهم بأنهم إمّا تأوّلوا فأخطأوا أو أنهم شعروا بأن الزمن تجاوز تلك النصوص. فإذا كان عمر قد أحس بعد أقل من عشر سنوات على وفاة محمد أن الزمن تجاوز بعضاً من نصوصه المقدّسة . مثلاً: سهم المؤلّفة قلوبهم وزواج المتعة وطلاق الثلاث

بفم واحد وعدم قطع اليد في حالة السرقة إطلاقاً وعدم السماح ببيع أمهات الأولاد . أو أن خالد بن الوليد تأوّل فأخطأ في قتله مالك بن نويرة أو أن عائشة تأوّلت فأخطأت في خروجها من بيتها وقيادتها جيش لمحاربة مبشّر بالجنّة آخر هو علي بن أبي طالب، فلماذا لا يفهم هؤلاء المتفلسفون، وأخصّ هنا بالذكر معروف الدواليبي، بأن محمّداً مات على الأرجح قبل أكثر من ألف وأربعمئة سنة، وأن مجتمعاتنا الزراعيّة الجذور تختلف جذريّاً عن مجتمعه الذي يبدو أنه ما يزال رعويّاً إلى الآن؛ بمعنى أن التغيّرات "الزمانيّة . المكانيّة" بيننا وبين محمد شبه مطلقة، ومع ذلك لا يزالون يدافعون عن مطلقيّة أحكامه؟

نماذج عن أحاديث تحقير النساء:

1 . المرأة تأتي على صورة شيطان.. فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها. (حديث)

2 . للمرأة عشر عورات: فإذا تزوّجت ستر الزواج عورة وإذا ماتت ستر القبر التسع الباقيات. (حديث)

3 . المرأة عورة فإن خرجت استشرفها الشيطان. (حديث)

4 . النساء حبائل الشيطان. (حديث)

5 . النساء سفهاء[!!!] إلا التي أطاعت زوجها. (حديث)

6 . لا يسأل الرجل فيما ضرب أهله! . (حديث)

7 . علّقوا السوط حتى يراه أهل البيت فإنه أدب لهم. (حديث)

8 . استعينوا على النساء بالعري، فإن المرأة إذا كثرت ثيابها وأحسنت زينتها أحبت الخروج. (حديث)

9 . لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد،[لماذا] ثم لعلّه يعانقها ويجامعها [!!!] في آخر اليوم. (حديث)

10 . ثلاثة لا تتجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط.. (حديث)

11 . لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها [!!!] وهي على قتب لم تمنعه! . (حديث)

12 . والذي نفسي بيده: لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنجس بالقيح والصديد . ثم استقبلته تلحسه ما أدت حقه. (حديث)

13 . أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة! . (حديث)

14 . لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها , وهي لا تستغني عنه! .– حديث.

15 . إذا دعا الرجل امرأته لفراشه , فأبت أن تجيء فبات غضبانا عليها , لعنتها الملائكة [!!!] حتى تصبح (حديث)

16 . أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة! (حديث)

17 . مثل المرأة الصالحة بين النساء مثل الغراب الأعصم بين مئة غراب. (حديث)

18 . يا معشر النساء، تصدّقن فإني أُريتكم أكثر أهل النار، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى. قال. فذلك من نقصان دينها. (حديث) نلاحظ هنا أن الذي قرّر أن شهادة المرأة، مطلق مرأة، تعادل نصف شهادة رجل، مطلق رجل، هو محمّد؛ والذي يستغل هذه الشهادة لتقرير أن المرأة بنصف عقل هو محمد أيضاً: أي، هو الخصم والحكم!

19 . النساء ناقصات عقل ودين. (حديث)

20 . ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء. (حديث)

21 . إذا كان الشؤم في شيء؛ ففي الفرس والمرأة والمسكن. (حديث)

22 . يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب. (حديث)

23 . إذا تزوّج أحدكم أو اشترى خادماً.. (حديث)

24 . النكاح رق. (حديث)

25 . استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق. (حديث)

26 . لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة . (حديث)

27 . سوداء ولود خير من حسناء لا تلد . (حديث)

28 . خير نسائكم الولود الودود . (حديث)

29 . إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها وتيسير رحمها . (حديث)

30 . لحصير في البيت خير من امرأة لا تلد . (حديث)

31 . المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها .– حديث.

32 . أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل! فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها [!!!] فإن اشتجروا فالسلطان وليّ من لا وليّ له! (حديث)

33 . يحتمل أن نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ضربهن قبل نزول الآية، ثم لما ذئر النساء أذن في ضربهن ونزل القرآن موافقا له، [!!!] ثم لما بالغوا في الضرب أخبر صلى الله عليه وسلم أن الضرب وإن كان مباحا على شكاسة أخلاقهن، فالتحمل والصبر على سوء أخلاقهن وترك الضرب أفضل وأجمل (حديث) لكنه لم يمنعه.

34 . إيّاك ومشاورة النساء، فإنّ رأيهنّ إلى أفن وعزمهن إلى وَهن واكفف عليهن بأبصارهن بحجابك إيّاهنّ، فإن شدة الحجاب أبقى عليهن.... علي بن أبي طالب.

35 . لا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببنَ أمراءكم، فإنهنّ ضعاف القوى والأنفس والعقول.. (علي بن أبي طالب)

36 . معاشر الناس! إن النساء نواقص الإيمان ونواقص الحظوظ ونواقص العقول، فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصلاة والصيام في أيام حيضهنّ وأمّا نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة رجل الواحد، وأما نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال. (علي بن أبي طالب.)

37 . اتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذر ولا تطيعوهنّ في المعروف [!!!] حتى لا يطمعن في المنكر. (علي بن أبي طالب)

38 يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال. علي بن أبي طالب.

39 . المرأة عقرب حلوى اللَّسْبة. (علي بن أبي طالب)

40 . المرأة ريحانة وليست بقهرمانة. (علي بن أبي طالب)

41 . زجر عمر بن الخطّاب امرأته لمّا راجعته؛ فقال: ما أنت إلّا لعبة في جانب البيت، وإن كانت لنا إليك حاجة؛ وإلاّ فلا.

42 . خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة. (عمر بن الخطّاب)

43 . ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك: المرأة والخادم والنبطي. (الشافعي)

44 . ليس للمرأة خروج إلا مضطرة، وليس لها نصيب إلاّ الحواشي. (أئمة)

45 . واجباتها أن تكون قاعدة في بيتها لازمة مغزلها لا يكثر صعودها واطلاعها. قليلة الكلام لجيرانها. لا تدخل عليهم إلاّ في حال يوجب الدخول؛ تحفظ بعلها في غيبته وتطلب مسرّته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها ومالها، فإن خرجت فمحتجبة بهيئة رثّة، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة أن يسمع صوتها أو يعرفها بشخصها؛ لا تتعرّف على صديق بعلها في حاجاتها، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه... إن استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضراً، لم تستفهم، ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها؛ وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدّم حقّه على حقّ نفسها وحقّ سائر أقاربها؛ متنظفة في نفسها، مستعدّة في كلّ الأحوال للتمتع بها إن شاء. (الغزالي)

46 . واجبات الزوج بحسب الغزالي: الصبر عليهن واحتمال الأذى منهن.. فقد كان رسول الله (ص) يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق. (الغزالي)

المرأة الحرّة والمرأة المملوكة:

يخطيء كثيراً من يصدّق بروتوكولات حكماء الإسلام بأن الأحكام المتعلّقة بالنساء مطلقة، بمعنى أنها قابلة للتطبيق على كافة النساء المسلمات، بغضّ النظر عن وضعهن الاجتماعي أو الطبقي. والحقيقة أن كثيراً من تلك الأحكام التي يقيم الدنيا لأجلها "علماء" الإسلام هذه الأيام، لا تمتلك مطلقيّة هائمة، بحيث تجعلها قابلة للاستخدام في أي زمان ومكان: وعلى رأس ذلك تأتي مسألة الحجاب، التي لو كان عند بعض العلمانيين والليبراليين عقل، لكشفوا عن حقائقه المخزية واعتباره دليلاً لا يدحض على موقف الإسلام اللاأخلاقي من مسألة الرق. ومن نصّ إسلامي نقتبس الكلمات التالية: "وفرّق الشافعي وأبو حنيفة والجمهور بين عورة الحرة والأمة، فجعلوا عورة الأمة ما بين السرة والركبة كالرجل؛ وقال مالك: الأمة عورتها كالحرة حاشا شعرها فليس بعورة، وكأنه رأى العمل في الحجاز على كشف الإماء لرءوسهن".

إذن، بغضّ النظر عما إذا كانت المرأة مسلمة أم لا، فإن الحجاب مرتبط بواقعها الطبقي: فهي إن كانت حرّة حجّبت بالكامل، وإن كانت أمة عرّيت بالكامل تقريباً. والظاهرتان، كما أشرنا باستمرار، ليستا أكثر من تشييء ذكوري للأنثى تحت رايات قداسة كاذبة.

من ناحية أخرى، لأن العبد لا يعتبر إنساناً كامل الأهليّة، فإن زنا العبدة لا ينظر إليه كزنا الحرّة؛ فمقابل الحديث المحمدّي الذي يطالب برجم الحرّة المتزوّجة الزانية، ثمّة حديث غريب يتعامل مع الزنا بأريحيّة ملفتة حين تكون الزانية عبدة. يقول هذا النص القدسي: إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها ولا يثرب ثم إن زنت فليجلدها ولا يثرب ثم إن زنت الثالثة فليبيعها ولو بحبل من شعر!

الوضع الفعلي للمرأة في الإسلام:

إذا وضعنا جانباً الأحاديث النفاقيّة التي يريد المثقفون الإسلاميّون ترويجها حول موقف الإسلام من المرأة والتي لا تخرج عن كونها محاولة فاشلة لتسويق الإسلام في بيئات تختلف تماماً عن غيتو طيبة البدوي القديم؛ فالإسلام واحد من أكثر الديانات احتقاراً وتشييئاً للنساء في العالم الآن. ومن الأحاديث السابقة، ومثلها أكثر من أن يحصى، نتلمّس السمات الأساسية لموقف الإسلام من مسألة الأنوثة عموماً:

المرأة كائن لمتعة الرجل: فهو من جهة يستمتع جنسيّاً بالإماء اللاتي لا تحديد للعدد المسموح للرجل امتلاكه منهن؛ ومن جهة أخرى يستمتع بامتلاكه المطلق للحرّات اللواتي يفتقدن أدنى متطلّبات الكيان البشري المستقل.

ربط محمد طاعة المرأة زوجها بطاعتها لإله المسلمين، الذي يبدو في بعض المأثور الإسلامي وكأنه صورة أمثوليّة للذكر الأبدي.

تغطيّة التعامل اللاأخلاقي مع النساء بشكل لشرعيّة دينيّة تبيح للذكر المسلم مقاربة الأنوثة بأسوأ من مقاربته الحيوان، الذي نتفاجأ قي المأثور الإسلامي بنوع من التحريض على عدم ضربه مثلاً.

المرأة، في نهاية الأمر، كيان مرتبط وجودياً بأدائه لوظيفته "العضويّة . البيولوجيّة" فقط؛ فالحصيرة أفضل من المرأة التي لا تلد.

اعتبار الزواج [النكاح] أحد أشكال الملكيّة أو الرق، الذي لا مجال فيه للمملوك الاعتراض على المالك في شيء. بل يمكن القول إن الزواج في الإسلام شكل دعارة شرعيّة؛ خاصّة إذا ما لاحظنا أن المهر، مثلاً، يعطى باستمرار من الرجل إلى المرأة بما استحل من فرجها.

وككل أيديولوجيا موضوعيّة [ليس بمعنى الواقعيّة أو الموثوقيّة، بل بمعنى تقديم الموضوع على الذات]؛ فالإسلام أحد أكثر التيارات تعميمية على الإطلاق. . خاصّة في المسألة الأنثويّة: بمعنى أن كلّ امرأة، حتى وإن كانت إليزابيث ثاتشر أو مادلين أولبرايت أو كوندوليسا رايس، هي بنصف عقل الذكر، وإن كان ربع عاقل من نمط مقتدى الصدر وبقيّة جوقة آل البيت العراقيّة.

إذن: إن وضع النساء في الإسلام، كما العبيد، واحد من أسوأ الأوضاع بالمقاييس الحضاريّة العالميّة هذه الأيام . . فما هر سرّ تمسّك طبقة الإكليروس الإسلامي، بالأيدي والأسنان، بهذه الحالة المشينة؟ إذا طرحنا جانباً النفاق المشايخي الأشهر من أن يعرّف، فالإسلام منظومة ثيوقراطيّة قبليّة مركزيّة للغاية. بل إن هذه المركزية تصل إلى حدّ الإطاحة بالفرد على مذبح الجماعة – كالماركسيّة بمعنى ما. وجميعنا يعرف، أن ما سمّي بالخلافة الإسلاميّة لم يخرج عن قريش حتى للأنصار الذين لولاهم لدفن الإسلام في مهده. [راجع هنا كتابي: *يوم انحدر الجمل من السقيفة*]! إذن: الإسلام، كمنظومة استاتيكيّة يتحسّس للغاية من أية حركيّة اجتماعيّة يمكن أن تؤدّي إلى أي شكل معارضة، مهما بدا بسيطاً. ولأن الإسلام، كما أشرنا باستمرار، لا يفهم معنى المعارضة، فهو لم ينظر إليها قط إلاّ من ثقب الفتن والشقاق؛ لهذا كثرت في الإسلام الحروب والصراعات الدمويّة [راجع أيضاً كتابنا: *أم المؤمنين تأكل أولادها*]!

إن السيطرة على الأنوثة باستخدام سلاح ماورائي صارم، يعني السيطرة على المجتمع كلّه: فمن ناحية، الأم المستلبة دينيّاً يمكن أن تكفل للجماعة أولاداً مستلبين دينيّاً أيضاً؛ وتؤمّن من ناحية أخرى أدنى ديناميكيّة اجتماعيّة عبر كبح عواطف النساء بسلاسل الألوهة. من هنا يمكن أن نفهم سرّ تكالب المراجع الدينيّة، سنّة وشيعة، على مسألة الحجاب، التي يعرفون كلّهم حقيقتها الدينيّة الفقهيّة: فأي تنازل للنساء يمكن أن يقود إلى تنازلات أخرى، وبالتالي خلق حركيّة في مجتمع لم يعتد عليها، الأمر الذي قد يوصل إمّا إلى نسف الأسس التي أقامت عليها تلك القوى دعاويها الباطلة، أو إعادة مقاربتها من منطلق عصري يطيح كليّاً بالفهم التقليدي للدين.

شخصيّاً، لا أجد فرقاً كبيراً بين مسوّقي أفلام البورنو ومصنعيها، وطبقة المشايخ والشيخات، في قضيّة الأنوثة: الطرفان ينظران إلى المرأة باعتبارها جسداً بلا عقل. الفرق هو أن طرفاً يريد كشف هذا الجسد والآخر تغطيته. لكن أياً من الطرفين لم يفكّر قط بكشف درر العقل الأنثوي. . مع ذلك، فجماعة البورنو تتميّز على المشايخ بأن ما تقوم به لا يحظى بتغطية ماورائية تسلب المرأة إمكانيّة التفكير بصحة ما تقوم به؛ في حين أن الاستلاب الماورائي لعقل الأنثى المسلمة الذي يمارسه الشيوخ والشيخات يقطع الطريق على المرأة كي تراجع صحة ما يقال مهما بدا أكذوبيّاً أو بعيداً عن الواقع.

<u>منظّرات التحقير الذاتي:</u>

إنّ أغرب ما في الإسلام، كمنظومة معقّدة للغاية، هو هذه القوة الاستلابيّة التي تجعل المرأة تصل فيها إلى درجة الدفاع عن تحقيرها الذاتي. وأعتقد أن دور علماء النفس الموضوعيين هنا يجب أن يكون حاسماً في إيصالنا إلى

مقاربة غير نفاقيّة لفهم الآليّة النفسيّة لهذا الخلل البنيوي غير العادي. اليهود الأرثوذكس، طبعاً، يعانون من أوضاع مرضيّة من هذا النمط: لكن هؤلاء، كمجموعات البورنو، لا يشكّلون جائحة عالميّة الامتداد.

نبيل فيّاض؛ الناصريّة، 7 فبراير 2004

تعلّم الإسلام في خمسة أيام ـ اليوم الثالث

الدرس الثالث : اللا عقل

بقلم نبيل فياض

www.annaqed.com

ما من شكّ أن الإسلام هو أشهر الديانات عدائية للعقل في العالم هذه الأيام. والحقيقة أن مقتل الإسلام هو العقل: فأي تسلّل للعقل إلى داخل الإسلام كاف لتفجيره والإطاحة به، مرّة وإلى الأبد. مع ذلك، والحق يقال، فقد عرف التاريخ الإسلامي تجربتين عقلانيتين يتحتم علينا، كعقلانيين، الانحناء أمامهما باحترام لا يضاهى: أي، التجربة الاعتزاليّة والتجربة الإسماعيليّة. وفشل هاتين التجربتين هو الدليل الأبرز ليس على الأسس الواهية للمعتزلة أو الإسماعيليين، بل على أن العرب لم ينموا عقليّاً بحيث يستوعبون ما تطرحه هاتان التجربتان النخبويتان . والوقائع الموضوعيّة تثبت لكلّ ذي عين بصيرة أن العرب تراجعوا في العقود الأخيرة عقليّاً إلى درجة أنه لم يعد يناسب سقوطهم الفكري سوى الوهابيّة، للسنّة، والخمينيّة، للإثني عشريين.

لقد ساعدني حسن طالعي وظروفي الجغرافية على الاحتكاك بتلك الفئة الإسلاميّة الرائعة المعزولة الآن المسمّاة بالإسماعيليين. ووقتها أدركت أنّ كلامي الذي نشرته قبلها عن الإسلام لم يكن دقيقاً تماماً: حيث اتهمته بأنه الديانة التي لم يرتح فيها العقل يوماً. . لكن الإسماعيليين خيّبوا فألي. وكدارس ومتابع ومن ثم باحث في اللاهوتين اليهودي والمسيحي، توصّلت إلى ما مفاده أن الإسماعيليين، عبر الكرماني في "راحة العقل" مثلاً، استطاعوا القيام بفتوحات لاهوتيّة يمكن مقارنتها، دون مبالغة، مع ما كتبته شخصيّة مثقفة عظيمة من القرن العشرين كبولتمان أو أقرانه! دون أن ننسى فارق الزمن والتراكميّة المعرفيّة الألمانية التي لا يمكن مقارنتها بالتوافه التي قدّمتها ما تسمّى خطأ بالحضارة الإسلاميّة، التي إذا ما عرّيناها من الإسماعيليين والمعتزلة لأضحت ربعاً خالياً ثقافيّاً.

كان طبيعيّاً للغاية أن تغلّ بلاد الهلال الخصيب المدرستين الإسماعيليّة والإعتزاليّة. ففي هذه الأرض ذات الحضارات الزراعيّة الموغلة في القدم، كان من المستحيل تحمّل الإسلام بشكله الرعوي البدائي اللا حضاري: وكان لابدّ من الوصول إلى صيغ توفيقيّة تضمن لشعب الهلال الخصيب استمراريّة أعرافه الثقافيّة حتى ضمن هذه البنى الرعوية الغريبة المستوردة. وهكذا، اجتاح العقل اليونانيّ الراسخ الوافد الصحراوي الجديد ليظهر كيان معرفي رائع قائمتاه هاتان المدرستان.

من الأمور المألوفة عند هؤلاء البدائيين الذين غزوا سوريّا من صحرائهم القاحلة: التعميم. فهم لا يفهمون وجود بيئات أخرى لا تحمل لون الرمل الأغبر؛ لا يتخيّلون وجود حضارات بأوابد شاهقة لا خيمة فيها ولا وتد؛ لا يعتقدون بوجود حيوان غير الجمل؛ لا مكان في قواميسهم لامرأة خارج نطاق الحريم والسبايا؛ لا يستوعبون علاقات سلام وحبّ بين الشعوب لأن أسلوب التعاطي بين الناس عندهم لا يخرج عن نطاق الغزو والسبي!! من هنا، فكلّ التيارات السياسيّة التي اجتاحت المنطقة تحت اسم القوميّة العربية، كالناصريين والبعثيين وما شابه، والتي هي ليست أكثر من أصوليّات إسلاميّة ترتدي أقنعة قوميّة كاذبة، لم تستطع يوماً أن تفهم أبجدية التعدّد. ومن مصائب هذه النوعيّة القاصرة من التفكير، تعميم stereotype عربي لا يميّز إطلاقاً بين اليمني واللبناني؛ بين الصومالي والتونسي؛ وبين الكركوكي والنواكشوطي: ورغم أن سوريّا أقرب إلى أوروبا ثقافيّاً من تركيّا، فقد حاول البعثيون بأقصى ما لديهم من إمكانيات مسخ الكائن السوري حتى يفقد تعدّديته ويصبح بالتالي أقرب ما يكون إلى اليمني أو السعودي أو ما شابه: فلا يتسلّل الشك إلى نظريتهم القوميّة النيو. أصوليّة العقيمة. إنّ

الحقيقة التي سيستنكرها هذه المرّة الجميع هي أن سوريّا كانت على الدوام جزءاً من بيزنطة المتهلينة، في حين كانت الصحراء والبادية السورية تشكّلان حاجزاً جغرافيّاً طبيعيّاً بين سوريّا وجزيرة العرب؛ وحين غزا المسلمون سوريّا لسرق خيراتها فحسب، لم يستطيعوا، وهم الذين لم يكونوا أكثر من سيوف دامية تريد تعميم القيم اليهوديّة في وجه الهلينيّة، أن يقضوا على الإرث البيزنطي الهليني الراسخ في بلد التعدّدية، والذي أعاد ظهوره عبر حركات فكريّة هامّة للغاية كالإسماعيليّة والإعتزاليّة. بل يمكن القول إن الإسماعيليّة ذات المضمون الفلسفي اليوناني الواضح انتشرت في إحدى الأحقاب بحيث طالت سوريّا كلّها؛ لكن مجيء قوميّة أخرى أكثر بدائيّة وتخلّفاً من العرب إلى سوريا هي الأكراد، أعاد المسألة إلى نقطة الصفر: لقد أعاد صلاح الدين الأيوبي، الذي كان مؤازراً، كما المسلمين الذين غزوا هذا الإقليم، بعبقرية يهودية هو ابن ميمون، سوريّا إلى نقطة الصفر. وفي اعتقادنا الذي لا يوافقنا أحد عليه أن بقاء الصليبيين في بلاد الشام كان أفضل حضارياً لنا، بما لا يقارن، من دخول هذا الكردي المتخلّف وابن ميمونه.

والحقيقة التي لا مجال لدحضها أن كمشة من الأكراد، برعاية من الدولة العبقرية، ما تزال إلى الآن هي المسؤولة عن الجزء الأكبر من جريمة نشر الطائفيّة والإرهاب والتخلّف بكافة أشكاله في ربوع سوريّا: من أمثال آل كفتارو والبوطي وأولاده وزياد الأيوبي والراحل مروان شيخو . هؤلاء الباحثون عن مجد سياسي عبر الطائفيّة لأنهم ببساطة يفتقدون حسّ الانتماء الذي لا يمتلكونه أصلاً، ومن أجل ذلك نجدهم مستعدّين لإيصال المجتمع السوري إلى الهاوية. في حين أن الطوائف الصغيرة المتهلينة كلّها، باستثناء عبدة الشيطان الأكراد، هي سوريّة قلباً وقالباً: بغض النظر عن اللاطائفيين من السنّة والذين هم في غالبيتهم الساحقة من السوريين الأصلاء لا الدخلاء: ونحن منهم.

حدود العقل في الإسلام: مثال دامغ

لا شكّ أنّ مطلق مسلم تقليدي، مثقفاً كان أم جاهلاً، يؤمن دون أدنى تفعيل للعقل بآدم ونوح وابراهيم وغيرهم من الشخوص التي تفتّق عنها العقل اليهودي في عزلته القاتلة: دون أن ننسى بالطبع ما تمّ لطشه من الميثولوجيا السورية القديمة. والطامة الكبرى حين تقابل أستاذاً جامعيّاً أو متعلّماً بدرجة معقولة يحدّثك عن هذا الوجود غير المشكوك به لآدم أو نوح أو ابراهيم وكأنهم أولاد خالته! أو يروي لك قصّة هبوط آدم من الجنّة وكأن أمّه كانت برفقته في البارشوت الإلهي غير الملموس! أو يصف لك تفاصيل سفينة نوح والحيوانات التي كانت برفقته وكأنه هو ذاته كان يمسك بصاريتها! لماذا؟ لأن هذه الحكايا وردت في القرآن! والقرآن كتاب الله! لكن: ما أدراك أن القرآن كتاب الله؟ قال لنا النبي محمّد ذلك! وما أدراك أن النبي محمّداً كان محقّاً في ما يقول؟ ألا ترى كمّ المؤمنين به؟ ألا ترى أنت بالمقابل كمّ المؤمنين بقداسة البقرة؛ ألا ترى كمّ المؤمنين بنبوّة جوزيف سميث؟ ألا ترى كمّ المؤمنين المتزايد بين المسلمين السنّة بخاصّة بنبوّة الميرزا غلام أحمد القادياني، مؤسّس الديانة الأحمديّة؟ في النهاية، فإن أوسع العقائد انتشاراً يمكن أن تكشف لنا بعد خراب البصرة أنها كانت قائمة على كذبة صغيرة.

كي نحدّد مدى التضيّق المتصاعد في العقل الإسلامي؛ نتساءل: إذا كان عمر البشرية على الأرض . إذا أهملنا عمداً نشوء دارون وارتقائه . لا يقلّ عن ستين مليون عام، كيف استطاعت الذاكرة البشرية أن توثّق لحدث حصل قبل أن أكثر من ستين مليون عام وصمتت طويلاً لتؤرّخ من جديد لحوادث لا يتعدّى عمر أقدمها عشرة آلاف عام؟ أين كان آدم وزوجه قبل ولوجهما في هذا العالم، وكيف استطاعا الهبوط من الجنّة المزعومة: بغض النظر عن مسألة الجاذبيّة، التنفّس.. إلخ؟ آدم، حوّاء، قابيل [قايين]، هابيل: أسماء عبرانيّة [الأمر طبيعي فالقصّة ملطوشة عن الهاغاداه]: فإذا عرفنا أن عمر اللغة العبريّة، بأفضل حال، لا يتجاوز خمسة آلاف سنة: كيف استطاع الله أن يختار لعائلته الأولى أسماء من لغة ظهرت إلى الوجود بعد لا أقل من ستين مليون عام من خلق

الإنسان؟ في التراث الميثولوجي السوري أساطير تتطابق نوعاً ما مع حكاية الخلق اليهوديّة تلك: هذا يعني، في ظل اللاواقعية المفرطة لهذه الأسطورة، أن الأحدث أخذ عن الأقدم؛ ويعني أيضاً أن القصة القرآنية ملطوشة هي أيضاً، عبر العبرانيين، عن التراث الوثني السوري القديم؛ فكيف يمكن للمسلم الذي يريد تفعيل عقله الخروج من هذه التناقضات؟ [يمكن لمن يرغب بتفاصيل دقيقة في المسألة مراجعة كتابنا: القصص الديني].

من ناحية أخرى، فأسطورة الطوفان القرآنيّة، كما بينّا في كتابنا "حكايا الطوفان"، ليست أكثر من ترجمة عربيّة لنتف مختارة بنوع من النزق لنصوص هاغاديّة عبرانيّة. والهاغاده العبرانيّة، كما بيّنا في الكتاب إياه، مأخوذة حرفيّاً عن نصوص مشابهة من التراث السوري الميثولوجي القديم. بالمقابل، ففي الكتاب أسئلة منطقيّة كثيرة لا مجال للعقل الإسلامي الموغل في تحدّده للإجابة عليها؛ مثلاً: من أين جاءت تلك المياه التي غمرت الأرض كلها إذا كان كمّ الماء في العالم محدوداً تماماً (منطق لافوازيه)؟ كيف يمكن تفسير وجود حيوانات بعينها في جزر معزولة نائية . الكنغارو والكوالا في أستراليا والكيوي في نيوزلندة مثلاً . والتي يفترض أنها رافقت نوح في فلكه الذي رسا في مكان ما غير بعيد عن الشرق الأوسط؟ أين ذهب ذاك الكم المخيف من المياه إذا كان العلم الحديث يحدّد بدقة الموضوع ويظهر أن الأرض لا تحتوي داخلها ذاك الكم الذي تحدّث عنه اليهود والمسلمون ومن قبلهم السوريون القدماء؟

بالنسبة إلى إبراهيم، فسوف نبيّن في عملنا الذي انتهينا منه للتو [سيمنعه البعثي الرفيق أحمد ضرغام، دكتاتور الثقافة النيو. أصولي في سوريّا]، "حكاية ابراهيم في القرآن"، أن قصّة هذا النبي هي أدق وأكمل لطش إسلامي عن الهاغاده غير التوراتيّة، خاصة السفر الهاغادي غير المعروف . ربما أنهم لا يريدونه أن يعرف . معاسه أبراهام. وحتى أوضح المسألة؛ يمكن أن أقدّم هنا بعض النماذج من هذا العمل الذي لم يطبع بعد:

في السورة 37: 97 . 99 (2مك): "قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقال: إني ذاهب إلى ربّي سيهدين".

إذن، بحسب القرآن، فالله بذاته هو الذي ينقذ إبراهيم من النار. وهكذا تروي أيضاً بساحيم 118 آ: "عندما رمى نمرود أبانا إبراهيم في النار، قال الملك جبرائيل لله: يارب العالمين، أريد أن أنزل، فأبرّد النار وأخلّص الصالح من النار. فقال له الله: أنا في عالمي فريد، وهو في عالمه فريد؛ ويبدو أنّ الذي لديه الفرادة، هو الذي سيخلّص الآخر الذي لديه الفرادة".

وبحسب مجموعة المدراشيم الصغيرة لهوروفيتس، ص 43 وما بعد، تتشاجر الملائكة حول من سيسمح له بإنقاذ إبراهيم؛ أما في معاسه ابرهام، يلنيك، بيت ها مدراش 32 : ا، يأمر الله النار بكلمات القرآن، قائلاً: "يا نار كوني برداً وسلاماً على عبدي ابراهام".

السورة 58:21 (2مك): "فجعلهم (الأصنام) جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون". في أبوكاليبس أبراهام، (تحرير Bonwetsch ، ص 10)، نجد حكاية مشابهة: "في يوم ما، وكان والد إبراهيم يقوم بحفر أصناماً، فأمره أن يحضر له طعاماً. فتناول إبراهيم أحد الأصنام، وضعه في النار ما وراء القدر، وقال له: إذا كنت إلهاً، خذ حذرك من القدر! ورأى ما رأى فضحك لذلك كثيراً، وقال لأبيه: أبي، هذه الأصنام غير جيدة، فهي لا تستطيع أن تحمي ذاتها، فكيف ستحمينا؟.. كان والده غاضباً، فقال: لقد وقعنا نحن الاثنان مرضى، يا بنيّ، فأنا أسير باتجاه العدم. بعدئذ، وقف إبراهيم وأخذ الأصنام ووضعها على حمار وجاء بها إلى المدينة لبيعها. فرأى مستنقعاً من الوحل ضخماً للغاية، فقال للأصنام: إذا كنت آلهة، فحذري الحمار، كي لا يغوص في الوحل. ومضى الحمار وغاص في الطين. فقال لها إبراهيم: لو كنت آلهة خيّرة، إذاً.. لاعتنيتم بذواتكم؛ لكنكم آلهة شريرة، وأنتم بالتالي تدعمون الأشرار أيضاً. فتناولها وحطّمها.. "النص ذاته، ص 12، يخبرنا كيف يجد ابراهام الصنم

مارومات Marumath راكعاً أمام أقدام الرب الحديدي ناحوراس Nahoras: "وحدث، عندما رأيت ذلك، أن قلبي اضطرب، وفكّرت بعقلي، أنّي غير قادر، أن أعيده إلى مكانه، أنا، إبراهيم، وحدي، لأنّه كان صلباً مصنوعاً من حجر كبير، فذهبت وأعلمت والدي بالأمر. فرحت معه، وبالكاد استطعنا نحن الاثنان تحريكه، لإعادته إلى مكانه. وبينما كنت أمسكه من رأسه، سقط رأسه عنه. وحدث أن قال لي والدي، حين رأى أن رأس المارومات قد وقع عنه: إبراهيم! فقلت: انظر، أنا! فقال لي: هات فأساً قصيراً من البيت! فجئته به. وكان يضرب (يبني) مارومات آخر من حجر آخر لا رأس له، والرأس الذي كان قد سقط عن المارومات، وضعه فوقه، وحطّم ما بقي من المارومات.." وفي أبوكاليبس أبراهام، (تحرير Bonwetsch ، ص 13 وما بعد)، نجد إبراهيم وقد باع أصناماً في سوريّا. ثم يقال بعد ذلك: "ونفر أحد جمالهم (التجّار في سوريّا)، ففزع الحمار وركض ورمى الأصنام عن ظهره؛ فتهشّم ثلاثة منها وبقي اثنان سالمين. وحدث وأن رأى السوريّون أنه كان بحوزتي أصنام، فقالوا لي: لماذا لم تطلعنا، أن لديك أصناماً، بحيث كنّا نشتريها، قبل أن يسمع الحمار صوت الجمال، ولم تكن بالتالي لتضيع.." ثم باع إبراهيم الصنمين الباقيين ورمى تلك المهشّمة في مياه نهر غور، " ومنذ ذلك الوقت لم يكن لها وجود".

هذه الحكاية في الأبوكاليبس تُظهر، كما سنرى، الملامح الأساسيّة للرواية الهاغاديّة، التي تحاكي الوصف القرآني المختصر لها.

يقول سفر التكوين راباه 19:38 : " قال.. ح. حيا: كان تيراح يعبد الأوثان ويبيعها أيضاً. وذات مرّة ذهب والده وسمح ل إبراهيم بأن يأخذ مكانه كبائع. فجاء إليه رجل وكان يرغب بشراء أحد الأصنام. فقال له إبراهيم: كم عمرك؟ فأجاب هذا: خمسون سنة أو ستون. فقال الرجل: الويل لرجل عمره ستون عاماً، والذي سينحني لصنم، عمره يوم واحد ليس إلاّ. فخجل المشتري من نفسه ومضى. وذات مرّة جاءت امرأة تحمل في يدها طاسة فيها دقيق ناعم. فقالت لإبراهيم: إذن أنت الذي تقدّم القرابين للأصنام فنهض إبراهيم، تناول بيده عصا، حطّم الأصنام كلّها، ووضع العصا بيد كبيرهم. وحالما جاء والده، سأله: من فعل بهم (الأصنام) ذلك؟ فقال إبراهيم: لماذا علي أن أخفي الأمر عنك؟ لقد جاءت إلي امرأة تحمل في يدها طاسة فيها دقيق ناعم وقالت لي: أأنت الذي تقدّمها! أأنت الذي تقدّمها قرباناً! فقال أحدهم: أريد أن آكل أنا أولاً؛ وقال الآخر: أنا آكل أوّلاً. فنهض أكبرهم، تناول عصا وراح يهشمهم. فقال تيراح لابنه: لماذا تهزأ مني؟ وهل يمكنه فعل ذلك؟ فقال له إبراهيم : أسمعت أذاك إذن، ما يقوله فمك؟".

يمكن أن نجد هذه الحكاية بتفاصيل أكثر عند تانا د.ب. إلياهو زوطا25 .C ، وهي الرواية التي جاءت من زمن أحدث من سابقاتها: "عندما أعطى أبو إبراهيم [ابنه] سلّة مليئة بالأصنام لبيعها في السوق، جاء رجل إلى إبراهيم في السوق، وقال له: هل لديك صنم للبيع؟ فقال له إبراهيم: أي نوع من الأصنام تريد؟ عندها قال الرجل لإبراهيم: أنا قوي! أعطني صنماً قويّاً جدّاً مثلي! فتناول إبراهيم صنماً، والذي كان أعلى من كل ما عداه، وقال لذاك الرجل: خذ هذا! فقال ذاك الرجل لإبراهيم: وهل هذا الإله قوي مثلي أيضاً؟ فقال إبراهيم له: غبي!.. لو لم يكن هذا الإله قويّاً جداً، لما انتصبت قامته فوق قامات الآخرين. لكني لن أتحدث معك أكثر، حتى تعطيني النقود. وللحال عدّ النقود لإبراهيم، وأخذ الصنم. لكن ما أن سار في طريق العودة، حتى قال له إبراهيم: كم تبلغ من العمر؟ فأجاب الرجل: سبعون عاماً! فقال له إبراهيم : أأنت الذي تنحني للصنم الذي اشتريت، أم هو الذي ينحني لك؟ فقال الرجل: أنا الذي أنحني له. فقال له إبراهيم: على ما يبدو، إذن، أنك أنت إلهه أكثر ما هو الهك؛ كيف باستطاعتك، وأنت مولود قبل سبعين سنة، أن تنحني أمام هذا الصنم، الذي بني الآن بالمطرقة؟ فرمى الرجل بالصنم في سلّة إبراهيم، واستردّ نقوده ومضى. بعدها جاءت أرملة فقيرة، وقالت لابراهيم: أنا أرملة

فقيرة، فأعطني إلهاً فقيراً جداً مثلي! وللحال أمسك إبراهيم بصنم، والذي كان أقصر من كل ما عداه، وقال للمرأة: خذي هذا الإله. فقالت المرأة لإبراهيم: هذا الإله ثقيل علي للغاية. ولم تستطع حمله. فقال لها إبراهيم: ياغبيّة، لو لم يكن هذا الوثن أصغر من كل ما عداه، لما وقف أدنى من الجميع. لكنّه لن يتحرك من مكانه، حتى تعطيني النقود. وللحال أعطته المرأة النقود، وأخذت الوثن. وحالما آبت في طريق العودة، قال لها إبراهيم: كم هو عمرك؟ فقالت المرأة: عمري سنوات عديدة. فقال لها إبراهيم: أتمنى لو تزهق روح المرأة! كيف باستطاعتك أن تركعي أمام هذا الصنم، وأنت خلقت قبل سنوات عديدة، ووالدي صنعه البارحة بالمطرقة؟ وللحال أعادت الصنم إلى السلّة، وأخذت من إبراهيم نقودها ومضت في حال سبيلها. فأخذ إبراهيم كل الأصنام، وجاء بها إلى والده، تيراح. فقال أولاد تيراح الآخرون: إبراهيم هذا، لا يلائم بيع الأوثان، ونحن نريد أن نصنع منه كاهناً. فسأل إبراهيم: وماذا سيفعل كاهن كهذا؟ فقال له أحدهم: إنّ عليه تنظيف غرفة الأصنام، سكب الماء أمامها، إطعامها وسقيها.. وللحال وضع إبراهيم الطعام والشراب أمامها، وقال لها: كلوا واشربوا حتى يعرف واحدنا أنكم من صنع البشريّة، وها أنا أقدّم لكم الطعام والشراب. لكن ما من أحد تناول حتى الكميّة الأدنى من الطعام والشراب. ثم استشهد إبراهيم بالمزمور 5:115 وما بعد: لها أفواه ولا تتكلّم، لها عيون ولا تبصر. لها آذان ولا تسمع، لها أنوف ولا تشم. لها أيد ولا تلمس، لها أرجل ولا تمشي. وماذا فعل إبراهيم ؟ تناول عصا، فحطّم كل الأصنام ورماها في فرن وجلس. وبحسب معاسه أبراهام (نشر يلنيك، بيت ها مدراش، ا: 25 وما بعد) الذي هو من زمن أحدث من النصوص السابقة، نرى نمرود وهو يترك إبراهيم قرب الأصنام. وبعد ذلك يقال: فرأى إبراهيم أن الملك ذهب إلى قاعة الاجتماعات، فمد يده وتناول فأساً، وحالما رأى صنم الملك أمامه، قال: الإله أزلي، الإله أزلي (1 مل 39:18). وراح يرميها عن قواعدها ويهشمها، وكان بدأ بالأكبر وانتهى بالأصغر، ومن أحدها كان يأخذ الرجلين، ومن الآخر الرأس، الذي كان يسحق منه العينين ومن الآخر القدمين. وهكذا تركها هناك محطّمة كلّها". جاء بمرود ليجد أصنامه كلّها محطّمة، والفأس بيد الأكبر فيها.

إذن، من النماذج السابقة، ومثلها كثير للغاية لكن القطيعة المعرفيّة التي يفرضها المشايخ تمنع المسلمين عن أي تواصل ذي جدوى مع الثقافة الفعليّة، يتبيّن لنا، بما لا يدع مجالاً للشك، أن نصوصاً كثيرة من القرآن هي الترجمة الحرفيّة . وأحياناً نقل دقيق لتشابه العبريّة والعربيّة . لنصوص مقابلة من الهاغاده، لا التوراة، حتى لا يتنطّح المشايخ للقول: بما أن النصيّن من الله، لا عجل أن يتطابقا. والهاغاداه، باعتراف علماء اليهود أنفسهم، ليست من الله: إلا إذا كان كهنة حزب الله العربي الإشتراكي، بنفاقهم المألوف، سيزاودون على اليهود بالقول: كل ما جاء به الحاخامون، من سفر التكوين إلى آخر ما ابتدعته مخيّلة رام بام، من الله . كي يغطّوا الفضائح الدينيّة أمام أتباعهم.

بعد المواقف المكابرة مما يسمّى مفكّري المسلمين من آرائنا السابقة: ومثلها كثير . هل يمكن الحديث عن عقل في الإسلام؟

ملاحظة: أعرف أن ثلاثة أرباع المشايخ لا يمتلكون الأهلية الفكريّة لفهم ما أقول . وما قلته؛ وأعرف أن الغالبيّة الساحقة من المسلمين لا يريدون فهم ما أقول: لكن هذا لا يعفي من قول الحقيقة، في زمن الدجل والخوف والمسايرة.

نبيل فياض، 30 يناير 2004

تعلّم الإسلام في خمسة أيام . اليوم الثاني

بقلم: نبيل فياض

www.annaqed.com

الدرس الثاني: النفاق!!

في أية ديانة عرفها عالمنا، قديماً أو حديثاً، يبدو أن الخلاص أو الحساب والعقاب أو الكارما أو أي مفهوم اسكاتولوجي مشابه آخر، مسألة فرديّة صرفة. فلا الله ولا يهوه ولا أهورا مازدا أخبرونا، عبر من يُفترَض أنهم أنبياؤهم، أنهم سيحاسبون البشرية جماعيّاً: الإنسان، إن في الإسلام أو اليهوديّة أو الزرادشتيّة، وفق المنظور الديني الذي لا أدلّة غير ظنيّة عليه، هو الذي يحدّد بنفسه مصيره الاسكاتولوجي: فأعماله في العالم الدنيوي هي وحدها التي يمكن أن توصله إلى جنّة الخلد أو إلى أعماق الجحيم. حتى الإسلام، الديانة العجائبيّة، كما تقدّمها لنا كتب الفقه والتاريخ والعقيدة وما شابه، يقرّ بأن الأب الصالح لا يستطيع اصطحاب أولاده الطالحين معه إلى الجنّة: بل إنّ السنّة يعتقدون أن النبي ذاته لن يستطيع منع نار جهنم أن تكوي بلهيبها عمّه أبا طالب الذي مات كافراً: بعكس الشيعة، سادة النفاق الإسلامي، الذين يخترعون لأبي طالب، والد علي، قصصاً وخرافات تجعله قاب قوسين أو أدنى من الله. مع أن أبا طالب هذا، كافراً كان أم مؤمناً، له من الأفضال على الإسلام ما يجعلنا نقول بثقة أن لولاه لما كان ثمّة دين اسمه إسلام! وهذا ما يضمن له، بلا ريب، جحيماً أخلاقياً أين منه جهنم الزرادشتيين؟

من هنا، ولأن الخلاص مسألة فردية لا جمعيّة، اتجهت كل الديانات المحترمة، باستثناء الإسلام والكنيسة العربية طبعاً، إلى اعتبار الدين. يفضّل تسميته بالإيمان. شأناً فرديّاً خاصّاً. في الغرب، حيث الإنسان محترم والقيم الفعلية موجودة والحريّات مصانة، ثمّة ميل لأن لا يحسب على الدين من ليس منه: وهكذا، فنحن نصادف المؤمن وغير المؤمن واللا أدري والملحد، كلّ ذلك في إطار من التعايش الإنساني والاحترام المتبادل. وأذكر تماماً أنّ أحد الأصدقاء من الألمان غير المؤمنين من أصول مورمونيّة، حين توفّى، كان نص النعي المرسل إلي من زوجته يتضمّن اعتذار العائلة عن أية طقوس ذات طابع ديني، دون حرج أو خوف. باختصار، في العالم الآن، باستثناء العالم الإسلامي، توجّه عام لنبذ النفاق وكافّة أشكال الباطنيّة، التي أضحت عند الشيعة مرتكزاً أساسيّاً في العقيدة.

بعكس ما تتحفنا به من محطّات النفط المتلفزة البقرات السود الأمريكيات المحجّبات، اللواتي لا يفرّقن بين عمر بن الخطّاب وعمر الشريف، ويخلطن. كما فعل النبي محمد وهو يتحدّث عن مريم. بين خديجة بنت خويلد وخديجة بن قنة، ويعتقدن أن الإمام النووي هو مخترع القنبلة الذريّة، فالإسلام هو الديانة الوحيدة في العالم، على الأرجح، التي تعتمدّ الكمّ لا النوع في دعوتها. وربما أن مردّ هذا، شعور محمّد بالضعف وهو يواجه أعداء لا حصر لهم بأعداد من المسلمين ضئيلة قليلة. ولأن المسلمين أرواح هائمة لا علاقة لها بالزمان والمكان، ولأن ما جاء به محمد "يُفهم دائماً من منظور الأبديّة"، فأعمال محمّد وأقواله صالحة لكل زمان ومكان، حتى وإن كان ذلك معادٍ تماماً لأبسط معطيات العصر. والإنسانيّة الحقّة: كالرقّ وذيوله من تسرّ وملك يمين وما شابه.

إلى هنا والأمر العادي: فتفضيل المسلمين للكمّ على الكيف مسألة لا تعني غير أصحابها؛ وكثير من الناس، ممن لم يتخلّصوا قط من شعور البداوة والقبليّة، يحتاجون على الدوام لروح "العزوة" كي تغادرهم حشرجات البدو

حين تكون قبيلتهم صغيرة. أما أن يشرّع الإسلام النفاق في سبيل أن يزيد من عدد أبنائه، فذلك هو غير العادي، بل والمستهجن، ليس فقط من منظور ديني إيماني، بل وفق أبسط أسس الالتزام الأخلاقي والعقائدي.

بدأ تشريع النفاق مبكّراً جدّاً في الإسلام حين شجّع محمد أحد أتباعه، الذي هو على الأرجح عمّار بن ياسر (لا أجد من الضروري أن أوثّق لكلّ كلمة أوردها من التاريخ الإسلامي؛ فزيادة بدوي أو نقص بدوي أمر لا يهم الحضارة كثيراً)، والذي تعرّض لعذاب قوي من المكيين المعارضين كي يشتم نبيّه، أن لا يعرّض حياته للخطر ما دام قلبه عامراً بالإيمان: بمعنى أن يشتمه بلسانه ويقدّسه في قلبه: الأمر الذي يناقض تماماً، باعتقادنا، ما رواه الإنجيل حول موقف بطرس من يسوع حين أنكره ثلاث مرات قبل صياح الديك.

ليس النبي هو الذي شرّع النفاق فحسب، بل إن الله، عزّ وجلّ، بالمنطوق الإسلامي الأغرب، أقر من عليائه بهذا النمط من الممارسة. وللمرّة الأولى في التاريخ الديني المدوّن، وفق ما وصل إلينا من وثائق، يطلب إله من أحد ممثّليه على الأرض أن يشتري إيمان الناس بالنقود الكثيرة التي جاءته من تجارة الألوهة. وهكذا، ينفرد الإسلام، بين كلّ ديانات العالم، بمسألة المؤلّفة قلوبهم: فما الذي تعنيه هذه العبارة؟

حتى يكون كلامنا واضحاً قاطعاً، نقدّم هنا شواهد من كتب التفسير والحديث تناولت هذه المسألة الغريبة:

"وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، فَإِنَّهُمْ قَوْم كَانُوا يُتَأَلَّفُونَ عَلَى الإسلام مِمَّنْ لَمْ تَصِحّ نُصْرَته اِسْتِصْلاحًا بِهِ نَفْسه وَعَشِيرَته، كَأَبِي سُفْيَان بْن حَرْب وَعُيَيْنَة بْن بَدْر وَالأَقْرَع بْن حَابِس، وَنُظَرَائِهِمْ مِنْ رُؤَسَاء الْقَبَائِل.. عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَوْله: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ} وَهُمْ قَوْم كَانُوا يَأْتُونَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَسْلَمُوا، وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْضَخ لَهُمْ مِنْ الصَّدَقَات، فَإِذَا أَعْطَاهُمْ مِنْ الصَّدَقَات فَأَصَابُوا مِنْهَا خَيْرًا قَالُوا: هَذَا دِين صَالِح! وَإِنْ كَانَ غَيْر ذَلِكَ، عَابُوهُ وَتَرَكُوهُ.. عَنْ الزُّهْرِيّ، قَالَ: قَالَ صَفْوَان بْن أُمَيَّة: لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّهُ لأَبْغَض النَّاس إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبّ النَّاس إِلَيَّ.. عَنْ مُجَاهِد، قَالَ: نَاس كَانَ يَتَأَلَّفهُمْ [محمد] بِالْعَطِيَّةِ، عُيَيْنَة بْن بَدْر وَمَنْ كَانَ مَعَهُ.. عَنْ الْحَسَن: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ}: الَّذِينَ يُؤَلَّفُونَ عَلَى الإسلام.. عَنْ قَتَادَة: وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، فَأُنَاس مِنْ الأَعْرَاب وَمِنْ غَيْرهمْ، كَانَ نَبِيّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَأَلَّفهُمْ بِالْعَطِيَّةِ كَيْمَا يُؤْمِنُوا.. مَعْقِل بْن عُبَيْد الله، قَالَ: سَأَلْت الزُّهْرِيّ عَنْ قَوْله: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ} فَقَالَ: مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيّ أَوْ نَصْرَانِيّ. قُلْت: وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا.. ثُمَّ اِخْتَلَفَ أَهْل الْعِلْم فِي وُجُود الْمُؤَلَّفَة الْيَوْم وَعَدَمهَا، وَهَلْ يُعْطَى الْيَوْم أَحَد عَلَى التَّأَلُّف عَلَى الإسلام مِنْ الصَّدَقَة؟ فَقَالَ بَعْضهمْ: قَدْ بَطَلَتْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ الْيَوْم، ولا سَهْم لأَحَدٍ فِي الصَّدَقَة الْمَفْرُوضَة إلا لِذِي حَاجَة إِلَيْهَا وَفِي سَبِيل الله أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا.. عَنْ الْحَسَن: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ} قَالَ: أَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ فَلَيْسَ الْيَوْم.. عَنْ عَامِر، قَالَ: لَمْ يَبْقَ فِي النَّاس الْيَوْم مِنْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، إِنَّمَا كَانُوا عَلَى عَهْد رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. حِبَّان بْن أَبِي جَبَلَة، قَالَ: قَالَ عُمَر بْن الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُ، وَأَتَاهُ عُيَيْنَة بْن حِصْن: {الْحَقّ مِنْ رَبّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}؛ أَيْ لَيْسَ الْيَوْم مُؤَلَّفَة.. عَنْ الْحَسَن، قَالَ: لَيْسَ الْيَوْم مُؤَلَّفَة.. عَنْ عَامِر، قَالَ: إِنَّمَا كَانَتْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ عَلَى عَهْد النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا وَلِيَ أَبُو بَكْر رَحْمَة الله تَعَالَى عَلَيْهِ اِنْقَطَعَتْ الرِّشَا. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ فِي كُلّ زَمَان، وَحَقّهمْ فِي الصَّدَقَات.. عَنْ أَبِي جَعْفَر، قَالَ: فِي النَّاس الْيَوْم الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ.. أَبُو جَعْفَر: وَالصَّوَاب مِنْ الْقَوْل فِي ذَلِكَ عِنْدِي: أَنَّ الله جَعَلَ الصَّدَقَة فِي مَعْنَيَيْنِ: أَحَدهمَا سَدّ خُلَّة الْمُسْلِمِينَ. وَالآخَر مَعُونَة الإسلام وَتَقْوِيَته؛ فَمَا كَانَ فِي مَعُونَة الإسلام وَتَقْوِيَة أَسْبَابه فَإِنَّهُ يُعْطَاهُ الْغَنِيّ وَالْفَقِير، لأَنَّهُ لا يُعْطَاهُ مَنْ يُعْطَاهُ بِالْحَاجَةِ مِنْهُ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يُعْطَاهُ مَعُونَة لِلدِّينِ، وَذَلِكَ كَمَا يُعْطَى الَّذِي يُعْطَاهُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيل الله، فَإِنَّهُ يُعْطَى ذَلِكَ غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا لِلْغَزْوِ لا لِسَدِّ خَلَّته. وَكَذَلِكَ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ يُعْطَوْنَ ذَلِكَ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاء، اِسْتِصلاحًا بِإِعْطَائِهِمُ أَمْر الإسلام وَطَلَب تَقْوِيَته وَتَأْيِيده. وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَعْطَى مِنْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، بَعْد أَنْ فَتَحَ

الله عَلَيْهِ الْفُتُوح وَفَشَا الإسلام وَعَزَّ أَهْله، فلا حُجَّة لِمُحْتَجٍّ بِأَنْ يَقُول: لا يُتَأَلَّف الْيَوْم عَلَى الإسلام أَحَد لامْتِنَاع أَهْله بِكَثْرَةِ الْعَدَد مِمَّنْ أَرَادَهُمْ وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَعْطَى مِنْهُمْ فِي الْحَال الَّتِي وَصَفْت".

وفي نصّ آخر مشابه، نجد القول التالي:

"لا ذِكْر لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبهمْ فِي التَّنْزِيل فِي غَيْر قَسْم الصَّدَقَات، وَهُمْ قَوْم كَانُوا فِي صَدْر الإسلام مِمَّنْ يُظْهِر الإسلام، يَتَأَلَّفُونَ بِدَفْعِ سَهْم مِنْ الصَّدَقَة إِلَيْهِمْ لِضَعْفِ يَقِينهمْ.. وَقَالَ بَعْض الْمُتَأَخِّرِينَ: أُخْتُلِفَ فِي صِفَتهمْ، فَقِيلَ: هُمْ صِنْف مِنْ الْكُفَّار يُعْطَوْنَ لِيَتَأَلَّفُوا عَلَى الإسلام، وَكَانُوا لا يُسْلِمُونَ بِالْقَهْرِ وَالسَّيْف، وَلَكِنْ يُسْلِمُونَ بِالْعَطَاءِ وَالإِحْسَان. وَقِيلَ: هُمْ قَوْم أَسْلَمُوا فِي الظَّاهِر وَلَمْ تَسْتَيْقِن قُلُوبهمْ، فَيُعْطَوْنَ لِيَتَمَكَّن الإسلام فِي صُدُورهمْ. وَقِيلَ: هُمْ قَوْم مِنْ عُظَمَاء الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ أَتْبَاع يُعْطَوْنَ لِيَتَأَلَّفُوا أَتْبَاعهمْ عَلَى الإسلام. قَالَ: وَهَذِهِ الأَقْوَال مُتَقَارِبَة وَالْقَصْد بِجَمِيعِهَا الإِعْطَاء لِمَنْ لا يَتَمَكَّن إسلامه حَقِيقَة إلا بِالْعَطَاءِ، فَكَأَنَّهُ ضَرْب مِنْ الْجِهَاد.

وَالْمُشْرِكُونَ ثَلاثَة أَصْنَاف: صِنْف يَرْجِع بِإِقَامَةِ الْبُرْهَان. وَصِنْف بِالْقَهْرِ. وَصِنْف بِالإِحْسَانِ. وَالإِمَام النَّاظِر لِلْمُسْلِمِينَ يَسْتَعْمِل مَعَ كُلّ صِنْف مَا يَرَاهُ سَبَبًا لِنَجَاتِهِ وَتَخْلِيصه مِنْ الْكُفْر. وَفِي صَحِيح مُسْلِم مِنْ حَدِيث أَنَس، فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْنِي للأنْصَارِ . : (فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْد بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفهُمْ..) الْحَدِيث. قَالَ اِبْن إِسْحَاق: أَعْطَاهُمْ يَتَأَلَّفهُمْ وَيَتَأَلَّف بِهِمْ قَوْمهمْ. وَكَانُوا أَشْرَافًا.. وَقَدْ عُدَّ فِي الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ مُعَاوِيَة وَأَبُوهُ أَبُو سُفْيَان بْن حَرْب. أَمَّا مُعَاوِيَة فَبَعِيد أَنْ يَكُون مِنْهُمْ، فَكَيْفَ يَكُون مِنْهُمْ وَقَدْ اِئْتَمَنَهُ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَحْي الله وَقِرَاءَته وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا حَاله فِي أَيَّام أَبِي بَكْر فَأَشْهَر مِنْ هَذَا وَأَظْهَر.".

وفي نصّ ثالث؛ يقال أموراً مشابهة:

"وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ فَأَقْسَام: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيُسْلِم.. وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَحْسُن إسلامه وَيَثْبُت قَلْبه كَمَا أَعْطَى يَوْم حُنَيْن أَيْضًا جَمَاعَة مِنْ صَنَادِيد الطُّلَقَاء وَأَشْرَافهمْ مِائَة مِنْ الإِبِل وَقَالَ "إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُل وَغَيْرُهُ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَة أَنْ يَكُبّهُ الله عَلَى وَجْهه فِي نَار جَهَنَّم" . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيد أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّمَ بِذُهَيْبَة فِي تُرْبَتهَا مِنْ الْيَمَن فَقَسَمَهَا بَيْن أَرْبَعَة نَفَر: الأَقْرَع بْن حَابِس وَعُيَيْنَة بْن بَدْر وَعَلْقَمَة بْن عُلاثَة وَزَيْد الْخَيْر؛ وَقَالَ: "أَتَأَلَّفهُمْ"! وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِمَا يُرْجَى مِنْ إسلام نُظَرَائِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَجْبِيَ الصَّدَقَات مِمَّنْ يَلِيه أَوْ لِيَدْفَع عَنْ حَوْزَة الْمُسْلِمِينَ الضَّرَر مِنْ أَطْرَاف الْبِلاد وَمَحَلّ تَفْصِيل هَذَا فِي كُتُب الْفُرُوع وَالله أَعْلَم. وَهَلْ تُعْطَى الْمُؤَلَّفَة عَلَى الإسلام بَعْد النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟"

وفي نصّ آخر؛ نقرأ التالي:

"لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا [غضبوا منه] إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن! قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض!!".

من الملفت للنظر أن الشيعة ـ أتحدّث هنا تحديداً عن كتاب "النص والاجتهاد" لعبد الحسين شرف الدين ـ ضمن هجومهم الضاري على بعض الصحابة، يعيبون على عمر بن الخطّاب، ضمن أشياء كثيرة، إلغاءه لحكم إلهي حين منع سهم المؤلفة قلوبهم.

عن أبي سفيان، الذي تخبرنا المراجع الإسلاميّة أنّه بعد مقتل عمر بن الخطّاب، ورسو الأمر على عثمان بن عفّان؛ أنّه قال لبني أميّة: تلقفوها [الخلافة] تلقف الكرة؛ فما من جنّة ولا نار!!! هذا الرجل، الذي أعطاه محمد بعد فتح مكّة ليفهرسه ضمن قطيعه، والذي بعد أكثر من عشر سنوات على وفاة محمد لم يكن يؤمن لا بالجنّة ولا بالنار، أسلم بضغط من عمّ محمّد، العبّاس؛ وكي يستميله محمد أكثر، قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!!! عن إسلام أبي سفيان المزعوم، تقول بعض المراجع الإسلاميّة:

أرسلت قريش "أبا سفيان وحكيم بن حزام وبُديْل بن ورقاء ليتحسسوا أخبار المسلمين، فلقيهم العباس راكباً بغلة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولاً يطلب منهم الخروج لمصالحة النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء العباس بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا، وأسلم أبو سفيان بعد تردد منه، وملاطفة من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي حتى يستعرض قوات المسلمين، وتمر به جنود الله فيراها، فلا تبقى في نفسه أثارة لمقاومة، وهو سيد مكة المتبوع، فجعل أبو سفيان يسأل العباس كلما مرت كتيبة: من هؤلاء؟ ويعرفُه العباس بهم".

ويحدّثنا مرجع آخر؛ فيقول:

"وقال ابن إسحاق: ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يدرون ما رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعل، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به.. عن عروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بين يديه عيونا خيلا يقتصون العيون.. ، فلما جاء أبو سفيان وأصحابه أخذتهم خيل المسلمين، وقام إليه عمر يجأ في عنقه، حتى أجاره العباس بن عبد المطلب، وكان صاحبا لأبي سفيان. .. قال العباس: ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. قال: قلت: يا رسول إني قد أجرته. ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل. فلما أكثر عمر في شأنه. قال: قلت: مهلا يا عمر فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به". قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟" فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد. قال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟" قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا. فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم. قال العباس: فقلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا. قال: "نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن . زاد عروة: "ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن".

مشكلة الإسلام الأبديّة، أن الأباسفيانات فيه هم الغالبيّة الساحقة . وما تبقى قلّة لا تذكر من السذّج والمغفّلين والشيعة.

تعلّم الإسلام في خمسة أيام

بقلم نبيل فياض

www.annaqed.com

نبيل فياض، 14 يناير 2004

حين كنّا صغاراً، وكانت الثقافة، لا الدين وشراشيبه كما هي الحال اليوم، من أساسيّات التربيّة التي كنّا نتلقّاها في المنزل والمدرسة التبشيرية الدانماركيّة، كان البحث عن أسرع طريق لتعلّم اللغات أحد أهدافنا البريئة الطائشة. لهذا كنّا نركض في الصيف إلى مركز حمص، مدينتي الملوّثة غير الجميلة، كي نشتري من أمام السرايا كتباً مثل: تعلم التركية في خمسة أيام؛ أو، تعلّم البرتغاليّة في سبعة أيام؛ أو، تعلّم الألمانيّة في تسعة أيام؛ وذلك بحسب أهمية اللغة وقوّتها. وهكذا، كنّا نرطن بألفاظ قليلة مثل، "شوك غوزال أو بوّا جيا أو في هايسن زي"؛ وكنا، لطيشنا البريء، نعتقد أنّنا بذلك ختمنا علوم اللغات وصار يمكن أن نعمل مترجمين محلفين أو باحثين لغويين أو ما شابه..

كانت أيام!

وكبرنا؛ وعرفنا أن أبسط لغات العالم لا يمكن تعلّمها بهذه الطريقة. فاللغة، حامل ثقافة الشعب وروحه، أعقد من أن يتعلّمها المرء في عشرة أيام، أو عشرة شهور، وربما عشر سنوات.

بالمقابل، رغم أن بيتنا لم يكن الأزهر الشريف، إلاّ أن خالتي المغرقة في تدينها، كانت تلحّ بإزعاج أن المسلم بحاجة إلى ثلاثة أعمار فوق عمره كي يتعلّم أصول دينه الحنيف. بل إنها أرسخت في لا وعينا أن معرفة الفروق بين المذاهب يمكن أن تحتاج إلى عشر سنوات من الدراسة المتواصلة: المذاهب في نظرها كانت تلك الأربعة التي تتبع لأهل السنّة والجماعة . الباقون كانوا عندها مجرّد كفّار ذاهبين إلى الجحيم بلا إذن ولا دستور. ولأن خالتي كانت متعلّمة وأكبر منّا بكثير، كنّا نصدّقها.

كانت أيام!

وكبرنا؛ وعرفنا أن هذه البنى المتوارثة المسمّاة بالإسلام لا تحتاج لأكثر من عشر ساعات من نصف جهد عقلي كي يعرف الإنسان عنها كلّ شيء. كان طيش أطفال حين صدّقنا خالتي؛ وكان غباء محزناً حين أخذنا كلامها على محمل الجدّ زمناً لا بأس به! الإسلام يمكن اختصاره في مقولات خمس لا حاجة بالمرء كي يعرف غيرها.

إنّ أكثر ما يدفعنا إلى تقديم هذا المقالات التي تحمل عنوان "تعلّم الإسلام في خمسة أيام" هو رؤيتنا لبعض الغربيين تتدافع إليهم محطّات التلفزيون النفطيّة؛ يعلنون بسذاجة أغبياء الغرب المزعجة: "نهن [نحن] وجدنا المهبة [المحبة] وهكوك [وحقوق] الإنسان في الإسلام". وتكبر الكارثة التي تجتاح الأخضر واليابس من تلك الشاشات حين تخرج علينا امرأة محجّبة بيضاء زرقاء العينين لتخبرنا أن الإسلام هو الديانة الوحيدة في هذا العالم التي تصون كرامة النساء: [المرأة شر كلّها؛ المرأة خلقت من ضلع أعوج.. فاستمتع بها على اعوجاجها؛ لا يقطع الصلاة إلا الكلب والحمار والمرأة؛ الشؤم في الدار والمرأة والدابّة؛ لا تسأل المرأة طلاق أختها؛ لو كنت آمر أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها]؛ لكن الكارثة تهول لتصبح بحجم انقراض الديناصورات حين تتحفنا زنجية محجّبة بحجم الفيل الأفريقي حول آرائها عن الإسلام الذي لا يوجد فيه أي نوع من التمييز العنصري؛ بعكس الديانات الأخرى: وكأن هذه الخرتيتة السوداء بولتمان أو هانس كونغ أو شلايرماخر؛ [يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون

(106:3)؛ إذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم (58:16)؛ يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة (60:39)].

الإسلام ليس الديانة البوذية العظيمة كي نتعامل معه بجدّية: إنه إعادة سكب، باللغة العربية، لمقاطع مسروقة بطيش نزق من هالاخوت اليهود وهاغادوتهم، ولا أعتقد أن كلّ ما خلّف اليهود من هالاخا وهاغادا يستحق من الإنسان أن يصرف فيه أي نوع من الطاقات الذهنيّة! من هنا، فهذه الدروس الخمسة كافية تماماً لمن يريد أن يفهم الإسلام على حقيقته، لا كما يقدّمه حاخام النفاق المثقف، محمد عمارة، عبر محطّات بدائيي النفط.

اليوم الأوّل:

الدرس الأوّل: الإرهاب!!!

الإله في كل الأديان التي تؤمن بوجوده أقوى من البشر: هو الذي يتحكّم بهم، يخلقهم، يميتهم؛ لكن تصوّر هذا الإله يختلف بحسب الظروف الموضوعيّة التي جاء من خلالها هذا الإله إلى الوجود.

الشيء الأساس الذي شغل بال محمد، وهو يؤسّس لديانته الجديدة، الآخر المخالف. ومع أن ما من أحد يمتلك أدنى دليل على صحّة مفاهيمه الما ورائية غير الظنون، فقد كان هاجسه، منذ البداية الأولى، إزالة كل مفاهيم الألوهة الأخرى، باستثناء المفهوم الذي تملّكه: الله! ولمّا حاول مرّة استرضاء المكيّين الأرستقراطيين عبر مناشدة آلهتهم الخاصّة غير الله، يبدو أنه أحسّ وقتها بأن ذلك قد يقوده إلى تنازلات أخرى فاعتبر أن الآيات التي نطق بها في مدح اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى كانت بوحي الشيطان: من هنا جاء مفهوم الآيات الشيطانيّة. .

مع ذلك، فالسؤال الذي يطرح نفسه استدراكاً بقوّة هنا: ما حدود قدرات هذا الشيطان الخارقة حتى يكون باستطاعته أن يمرّر على لسان أوّل خلق الله وخاتم رسل الله ألفاظاً شركيّة، ضمن ما يفترض أنه كلام إلهي؟

كان محمد يريد، باستخدام مدروس لمفهوم الله، أن يوحّد العرب تحت راياته، وأن يكرّس من ذاته زعيماً أوحداً لهؤلاء العرب، فهو رسول الله وممثله على الأرض. كان محمد يرغب بسلطوية مطلقة، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مكاسب ماديّة ومعنوية، تحت رايات التوحيد التي رفعها عالياً؛ لذلك كان لا بدّ من إنهاء أدنى وجود لأي إله آخر: لا لشيء، إلاّ لأن أي إله آخر قد يشكّل ممثله على الأرض، إن وجد، تهديداً قويّاً لسلطة محمد الدنيويّة. وهكذا، فقد قبل بإسلاميّة كاذبة لمجموعة من المكيّين غير المؤمنين به، كأبي سفيان مثلاً، فقط كي يتأكّد أنه لن يسمع علناً باسم إله آخر في مكّة غير الذي اختاره هو.

لم يكن محمد يرغب بأي منافس له لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر على السلطة. السلطة التي نقلته من عالم الفقر والعوز والاضطرار للزواج من امرأة تكبره بخمسة عشر عاماً لأنها غنيّة إلى حاكم دنيوي مفرط في غناه يتزوج صباح مساء من أجمل جميلات العرب وأصغرهم! فهل يعقل أن يسمح لأحد أن يمدّ يده إلى هذا الإله الذي أنعم عليه وما يزال ينعم على خلفائه بميّزات لم يكونوا يحلمون بها لولاه. بل إن هاجس التسلّط والأنا وصل بمحمّد إلى درجة أن يأمر بقتل من يهجوه أو يغنّي أشعاراً تنتقده هو وليس الإله الذي تبنّاه.

ووصل الأمر بالمسلمين تخوم اللامعقول حين رأوا أنه لا يجب فقط إزالة أي مفهوم آخر للألوهة غير الله من جزيرة العرب، بل يجب إزالة كل من يؤمن بهذا الشكل الآخر للألوهة من المكان، وتجلّى ذلك واضحاً في الحديث المنسوب لمحمّد الذي يطلب أن لا يبقى دينان في جزيرة العرب.

بالمقابل، وكما أشرنا باستمرار ودلّلنا على ذلك بالبراهين القطعية، فإن محمداً الذي لم يكن أكثر من ناقل باللغة العربية لنتف من التراث العبراني اليهودي، في القرآن تحديداً، أراد القضاء على أي شهود على مصادر مقولاته؛ لذلك كان يفتعل المواجهات مع القبائل اليهودية في المدينة حتى يطردهم من عاصمته السياسيّة؛ بل إنه قضى على كل ذكر بالغ من بني قريظة، القبيلة اليهوديّة الهامّة جداً في تلك الآونة، وأجبر أطفالهم على أن يتربوا

كمسلمين، وسبى نساءهم، ومنهن اختار ريحانة. واعتقادنا أنه لم يكن يخطر بباله قط أن يأتي زمان يظهر فيه يهود مثقّفون للغاية في التراث الإسلامي، ومحافظون في الوقت ذاته على تراثهم، من خارج كل المنطقة العربيّة، كي يكشفوا أصول التراث الإسلامي. وهنا لا بدّ أن نشكر الباحثين اليهود المعاصرين، من أمثال أبراهام غايغر ويوسيف هوروفيتس وهاينريش شباير، الذين كشفوا بجهودهم الطليعيّة وبدقّة وموضوعيّة . أستثني هنا غايغر إلى حدّ ما . المصادر الفعليّة لهذا التراث. مع ذلك؛ ورغم تحفظاتنا على أسلوب غايغر الذي أعتقد أنه كان متعصّباً لليهودية، فالواقع يقول إنّ غايغر على وجه التحديد، قام بفتح تاريخي في كتابه "ماذا أخذ محمد عن اليهودية؟"، الذي شكّل أساس البحوث التفصيلية الهامة لهاينريش شباير في عمله الضخم "الحكايا الكتابيّة في القرآن"، الذي ترجمنا فصوله الثلاثة الأولى إلى العربيّة: تلك المتعلّقة بخلق العالم والعائلة البشريّة الأولى، نوح وإبراهيم. إن مراجعة غير متسرّعة لما كتبه هؤلاء تظهر بدقّة شديدة نوعيّة إطّلاع محمّد على الهاغاداه [أشير هنا إلى أن علاقتي بالهالاخا غير وديّة: ربما لنفوري الفطري من الشرائع المكبّلة للعقل واعتباري دائماً أن الشريعة لخدمة الإنسان لا العكس] اليهوديّة: إنها معرفة سطحيّة متشظيّة أدّت به أحياناً إلى متاهات فشل حتى الآن كلّ المفسّرين والمتأوّلين في تقديم طوق نجاة للخروج منها: إلاّ إذا اعتبرنا ذلك النوع من الحلول المطمئن ذاتيّاً للباحثين عن أسرع وسيلة للهروب من الشكوك وإن بالكذب على الذات طوق نجاة لا سبيل إلى إغراقه؛ من ذلك مثلاً المتاهة الشهيرة في الخلط بين شخصيّة مريم أم المسيح ومريم أخت هارون وموسى وابنة عمران ويوكابد؛ والمتاهة الأقلّ شهرة في الخلط بين عجل سفر الخروج وعجل سفر هوشع فأضحى من ثم موسى معاصراً للسامري: مع أن المساحة الزمنيّة المفترضة بين تأسيس اليهودية وبروز السامرية تمتد مئات السنين . ومثل ذلك كثير.

الحديث السابق يجرّنا إلى التوقّف بنوع من التأمل التشكيكي عند ادعاء عوام المسلمين، بمن فيهم تلك الطبقة المسمّاة بالعلماء، أنّ الإسلام هو الديانة الأصح بين كل عقائد العالم لأنه يزداد قوّة، يوماً بعد يوم، في قلوب أبنائه؛ في حين تشهد الديانات الأخرى تراجعات كثيرة. لكن الوجه الآخر للعملة الذي يتجاهله المسلمون عموماً، وعلى رأسهم الطبقة المسمّاة بالعلماء، هو أن ما أدى إلى تلك التراجعات في الديانات الأخرى، كالمسيحيّة واليهوديّة، هو إعمال العقل في النقل؛ بمعنى تسلّل الفكر النقدي إلى التراث، وتفشّي الحريّة والعلمانيّة في أوساط اللاهوتيين، الأمر الذي يعمل ما يسمّى بعلماء المسلمين وحماتهم من أولياء الأمر الخائفين من أي حركيّة اجتماعيّة على منعه بشتى السبل: ومن لا يصدّق ذلك فليسألني ويسأل فرج فودة ونصر حامد أبو زيد ونجيب محفوظ..

إن حقبة من حياة محمّد . كيسوع المسيح تماماً . ، والتي يمكن أن نصفها بأنها مرحلة التكوّن الفكري عنده، بين الخامسة والعشرين والأربعين، غامضة بالكامل؛ بالمقابل، فأمهات كتب التراث الإسلامي حبلى بالأحاديث عن تردّد محمّد على بيت المدراس [بيت ها مدراش] اليهودي، ونقاشه هناك لأحبار اليهود؛ من ناحية أخرى، ثمة دليل قرآني داخلي يخبرنا أن اليهود كانوا يبيعون المسلمين، دون تحديد لشخص الشاري، آيات يزعمون أنها من كتبهم المقدّسة، وقد عنفّهم القرآن ليس لبيعهم تلك الآيات إلى العرب، بل لأنهم كانوا يغشّون في آيات زعموا أنها من كتبهم ولم تكن كذلك: "لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْد اللَّه لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً"؛ فمن كان يشتري تلك الآيات؟ وهل باع اليهود آيات أخرى غير تلك التي اكتشف أنها مغشوشة؟ وما هو المعيار الذي استند عليه محمد حتى اكتشف غش تلك الآيات؟ وما الهدف الفعلي وراء شراء الآيات إذا كان محمد يأتيه وحي من ربّه يعرّفه على كل شيء؟ وبأي لغة كانت تباع الآيات تلك؟ . مع ملاحظة أن النبي كان يمنع أتباعه عن أي احتكاك مع أسفار أهل الكتاب المقدّسة وربما غير المقدّسة.

هذا الأمر يطرح علينا أسئلة كثيرة قد يبدو بعضها مستحيل الإجابة حاليّاً: ما هو شكل اليهوديّة التي كانت سائدة في غرب جزيرة العرب زمن محمّد؟ من أين أتى محمّد بتلك القصص الكثيرة المشابهة في شخوصها ذات الطابع الميثولوجي لشخصيات من الهاغاداه اليهودية، وإن كان تلفّظ الأسماء بالعربيّة مختلف نوعاً ما عن مثيله العبراني، وبالتالي يفقدها معناها الرمزي الميثولوجي: غفرائيل وجبريل؛ ميخائيل وميكايل؛ أبراهام وإبراهيم؛ موشيه وموسى؛ دافيد وداود؛ شلومو وسليمان..؟ إن قصصاً كالخليقة والطوفان، بمعرفة القاصي والداني ممن يمتلك الحدّ الأدنى من الإطلاع العلمي، أضحت تدرّس في المراكز اللاهوتيّة المحترمة على أنها نتاج مخيّلة ليس إلاّ، وهي متطابقة بالكامل بين الهاغاداه والقرآن، أسماء وحوادث وشخصيات، فهل يوجد تفسير لهذا غير أن الأحدث أخذ عن الأقدم منه؟ لماذا طرد محمد اليهود وأبقى على أقليّات أخرى، كالمسيحيين، مثلاً؟ [بعكس ما يعتقده كثيرون، فإن العلاقة بين الإسلام، الديانة الرعوية، والمسيحية، الديانة الزراعيّة، غير أساسيّة: رغم إشارة القرآن إلى أن عيسى هو المسيح، كلمة . لوغوس . الله ودفاعه القوي عن مريم؛ بالمقابل، فالعلاقة، باعتقادنا، عضويّة للغاية بين الإسلام واليهوديّة، رغم أن الأخيّرة تطوّرت نوعاً ما باتجاه أن تكون ديانة زراعية بعد أن نشأت رعوية بحتة]! ما سرّ استعمال المسلمين، حتى الآن، للقب أطلق على طائفة صغيرة من المسيحيين، هي النصارى، كتسمية عامّة تعني المسيحيين جميعاً؟ ونحن نعلم أن اليهود، حتى الآن، يستخدمون اللقب "نصارى" كتسمية للمسيحيين، ولهم في ذلك مبرراتهم: فهم إن أسموهم مسيحيين فهذا يعني اعترافهم العلني بيسوع على أنه المسيح المنتظر، مع العلم أنّ المسلمين، كما قلنا، يعتبرون أن عيسى [يسوع] هو المسيح؟

الباحثون الإسلاميون فاشلون بالكامل في الرد على كثير من التناقضات في بناهم المعرفيّة ونصوصهم المتوارثة؛ اليهود، منذ أيام سبينوزا وربما قبله ابن ميمون، وخاصّة بعد فلهاوزن، استطاعوا حل بعض مشاكل العهد القديم عبر التعامل معه كنص تاريخي، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة إسقاط القداسة عنه؛ المسيحيون أيضاً حقّقوا فتوحات هامّة في التعامل العقلاني مع تراثهم المقدّس أو شبه المقدّس عبر ما يسمّى بالنقديّة الكتابيّة: وهكذا فنظرية التقاليد الهامة للغاية في مقاربة الكتاب المقدّس، أضحت مسألة أقل من عادية لأبسط طالب لاهوت في أي مكان من العالم.

مشكلة المسلمين الأولى والأخيرة هي اللون الأسود. فالمسلمون لا يرون في العالم غير لون واحد، أدعوه بالأسود. وهم غير مؤهلين ذهنياً لاستيعاب أن العالم مليء بالألوان. كانت المعضلة الكبرى التي واجهت المسلمين، بعد أن غادروا بيئتهم ذات اللون الأوحد، اكتشافهم أن الألوان أكثر من أن تحصى: وكان أمامهم في مواجهة هذه الحالة المستجدّة حلاّن: إما أن يضعوا عصابة . هل اتهامهم بالتعصّب مردّه هذه العصابة؟ . على أعينهم وينكروا بالتالي أمام أنفسهم أولاً ومن ثم أمام الآخرين وجود لون آخر غير الذي يرونه من تحت العصابة، أو أن يعمدوا إلى تمزيق الألوان الأخرى التي تأبى إلاّ أن تتباهى بصراخها الفرح مقابل دَكانة الأسود!

أي لون آخر غير اللون الأسود الذي يلف عيون المسلمين، برأي نبي المسلمين، هو منكر؛ أي عرف متداول في بلاد المسلمين أو خارجها غير العرف المكرّس دينياً من قبلهم منكر. . وليس في الأمر مشكلة؛ فكثير من العقائد والأديان تستنكر ما هو متخارج عن أعرافها! لكن الكارثة الإنسانية في الإسلام هي القول المنسوب إلى محمد؛ الذي فحواه: من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه: وذلك أضعف الإيمان. ومن هذا الحديث جاءت كلّ الإرهابيات الحاليّة.

المنكر أو الغريب أو المستهجن يتغيّر بتغيّر الزمان والمكان: فنحن، على سبيل المثال، نرى في الشادور للنساء، والجلابيب القصيرة واللحى غير المهذّبة كلحية التيس الأحول للرجال، أكبر منكر جمالي يمكن للعين أن تقع عليه؛ مع ذلك، فهذا المنكر لا يتعدّى بالنسبة لنا حدود الخيار الجمالي الشخصي: للأنثى كامل الحق في التشبّه

بأكياس الزبالة غير الثابتة وللذكر مطلق الحريّة في اتخاذ التيس الأحول رمزاً وأمثولة. ولا ندعو إلى تغيير هذا المنكر لا باليد ولا بالقلب ولا باللسان. بالمقابل، فالجمال . عارياً كان أم غير عار . الذي يبعث في القلب الفرح وفي الروح الشبق وفي العين الأمان هو أبعد الأمور عن المنكرات كما يصنفها الإسلام. ما من اثنين في هذا العالم يمتلكان الموازين ذاتها لما هو مستنكر وما هو غير مستنكر: فلماذا يريد أحدهم أن يفرض موازينه على غيره، ما دام هذا الغير لا يزعج غيره بخياراته؟ وكيف يمكن تبرير أن يستخدم أحدهم يده، أي الإرهاب وفق مصطلحاتنا الدراجة هذه الأيام، لتغيير ما يعتبره بالنسبة له منكراً خاصة إذا كان المنكر لا يزعج أحداً؟

حق المواطنية في اللاوعي الإسلامي يعني أن يكون المرء مسلماً. وحين ترك المسلمون جزيرتهم المعزولة المغرقة في بداوتها وفقرها وتصحّرها وإرثها اليهودي الرعوي، وجاءوا طلباً للمغانم إلى البلدان المحيطة الغنيّة ذات الحضارات الزراعيّة الموغلة في عمقها التاريخي، لم يستطيعوا إلغاء الآخرين وجودياً بسبب كثرتهم، فألغوهم مواطنيّاً، رغم أن الملغيين هم أبناء الوطن الأصليون واللاغين هم الغزاة، عبر ما سمّي بأحكام أهل الذمّة المنسوبة إلى عمر بن الخطّاب. مع ملاحظة أن هذه الأحكام، التي تحيل المواطن غير المسلم إلى كائن بلا تصنيف، لا تشمل غير اليهود والمسيحيين، بمعنى أن القتل هو المصير الوحيد الذي يجب أن يواجه من هو غير مسلم أو يهودي أو مسيحي: بما في ذلك البوذيون والهندوس واللادينيين والملحدون.. إلخ.

إذن، إن القتل لأسباب عقائدية يدخل في صلب العقيدة الإسلاميّة. وكما هو معروف، فالإسلام تشعّب، لظروف لا مجال لبحثها الآن، إلى طوائف ومذاهب يكفّر أحدها الآخر، وكلّ جماعة تجد ضمن المخزون التراثي الإسلامي، المتناقض في محتواه إلى درجة الدهشة، ما يدعم آراءها مهما تضاربت! بل إن الشواهد أكثر من أن تحصى حول التكفير الداخلي بين مذاهب أهل السنّة والجماعة الأربعة. وكما نقول دائماً، فالتكفير غير ذي شأن إذا لم تكن له ذيول إجراميّة: بمعنى إلغاء المكفِّر للمكفَّر وجودياً عبر القتل. اليهودي الأرثوذكسي ينظر إلى اليهودي من طائفة الريفورم أو الري . كونستركشن على أنه كافر، بمعنى ما؛ بل إن حاخاماً أرثوذكسيّاً سوريّاً صديقاً أخبرني أن حاخاماً آخر من الطائفة ذاتها منعه عن الوقوف أمام كنيس في نيويورك، فقط لأنه لطائفة الريفورم اليهوديّة. لكننا لم نسمع بالمقابل عن صراع دموي يهودي داخلي، كما يحدث في باكستان بين السنّة والشيعة؛ أو عن قمع تمارسه هذه الطائفة اليهودية ضد تلك، كما يحدث في السعوديّة أو إيران. مع ذلك، فإن احتكار الأرثوذكس اليهود للقرار الديني في إسرائيل لا يخلو من القمع، حتى وإن تركت للتيارات الأخرى حريّة الحركة: بعكس الحالة في الولايات المتحدة حيث لا أحد يمتلك الحق في التميّز الديني على غيره.

هذه العقليّة الخاطئة، المنافية لأبسط حقوق الإنسان، هي التي جعلت المسلمين يعادون كلّ آخر لا يشاركهم منظومتهم العقائدية. وهكذا، ففي إحصاء بسيط نكتشف أن المسلمين غالباً ما يكونون الطرف الآخر، المثير للمشاكل عموماً، في أي صراع ديني على صعيد العالم. والأمثلة أكثر من أن تحصى: في الجزائر، الصراع الدموي على أشدّه بين التيارات الإسلاميّة والحكومة المتهمة بالعلمانيّة؛ في مصر، خفت الصراع الدموي بين التيارات الإسلاميّة والحكومة الأقل تعصّباً منهم، لكن النار ضد الأقباط لا تزال تحت الرماد؛ في يوغسلافيا السابقة، كانت الصراعات الدمويّة أيضاً بين المسلمين وكلّ من الكاثوليك والأرثوذكس؛ في الهند، المناوشات دائمة مع الهندوس؛ في إندونيسيا الحرب مستعرة بين المسلمين والمسيحيين؛ في الفلبين، الدولة الكاثوليكيّة الهامّة، لا توجد حرب إلاّ حيث يتواجد المسلمون؛ في نيجيريا، الحرب مؤجلة بين المسيحيين البروتستانت غالباً والمسلمين؛ في فرنسا العلمانيّة، لا يوجد ما يمنع الانفجار المقبل؛ في روسيّا الأرثوذكسية العلمانية، الحرب تحصد العشرات في الصراع مع المسلمين؛ في أفغانستان، المعارك لا تتوقّف بين الأمريكان وحلفائهم الأفغان من جهة، وحركة طالبان من جهة أخرى؛ في السعودية، التصادم لا يتوقّف بين الدولة المتشدّدة والمعارضة الإسلاميّة

الأكثر تشدّداً؛ في غرب بورما معارك تشتعل أحياناً وتنطفئ أحياناً بين البوذيين والمسلمين؛ في الصومال، الإسلاميون يحاربون الجميع؛ في المغرب، صراعات لا تهدأ بين الدولة المسلمة ذات التوجه الغربي والجماعات المتطرّفة؛ في العالم كلّه صراع دموي لا مثيل له بين اليهود وحلفائهم من البروتستانت المحافظين من جهة والمسلمين من جهة أخرى؛ باختصار: ليس ثمة بلد في هذا العالم، للأسف، خال من المسلمين . باستثناء تلك الدول التي لم يسمع بها أحد، مثل غرينلاند وميكرونيزيا . وما دام هنالك مسلمون، ستكون هنالك صراعات حتى يتغيّر نمط التفكير الإسلامي ويفهم أن من حق الآخر المخالف أن يكون موجوداً: وهذا صعب لأنه يتطلّب إفراغ الأسس المعرفيّة للعقيدة الإسلاميّة من محتواها، أو إعادة تفسير شاملة للدين على طريقة اليهود الريفورم.

أخيراً، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أن هذه الحكومات، في البلدان الإسلامية، التي تعادي من يسمّون اليوم بالمتشدّدين أو المتطرفين، والتي تحرّض شيوخها، وعّاظ السلاطين، على محاولة التصدّي لهم دينيّاً، بعيدة بالمعنى الحرفي الفعلي عن جوهر الإسلام كما ورد في كتب العقيدة والفقه وما شابه؛ في حين أن من يوصمون بالتشدّد والتطرّف هم المطبقون الدقيقون لروح الشرع ودقائق الفقه وتفاصيل العقيدة. وإلاّ لماذا فشل الشيخ القرضاوي، وهو واحد من أشهر وعاظي السلطان الحاليين، في إقناع حركة طالبان، دينيّاً، في إلغاء تحطيمهم لتماثيل بوذا، تلك الأوابد التاريخيّة المغرقة في أهميتها؟

القرضاوي والبوطي وشيخ الأزهر وأمثالهم لا يمثّلون الإسلام، كما عرفناه من التاريخ وأسفار العقيدة والفقه؛ بالمقابل فإن أسامة بن لادن والطالبانيون هم أفضل الممثلين للالتزام الإسلامي الأدق. ومن قال غير هذا فهو إما سياسي أو منافق.

أسامة بن لادن يغيّر المنكر بيده؛ القرضاوي والبوطي وشيخ الأزهر يغيّرون المنكر بقلوبهم: وذلك أضعف الإيمان!!!

انتهى الدرس الأول.

حقوق الإنسان في سوريّا: المرأة (3)

بقلم نبيل فياض

www.annaqed.com

مناقشة موضوعة المرأة وحقوق النساء في سوريّا ليس بالأمر السهل؛ فقد كانت سوريّا من أوائل الدول الناطقة بالعربية التي حاربت فيها بعض النساء لنيل شيء من حقوقهن؛ والتاريخ المعاصر يتذكّر أن بعضاً من أهم العاملات في الشأن الثقافي المعرفي النسوي في الشرق الأوسط كن سوريّات: هل يمكن أن نذكر أسماء هامّة في هذا المجال مثل غادة السمّان، كوليت الخوري، ألفت الأدلبي، وداد سكاكيني (صيداوية متزوجة من سوري)، مريانا مرّاش.. إلخ؟ لكن التاريخ يتذكّر أيضاً أنه لولا لبنان، الملاصق لسوريّا، لما استطاعت الغالبية الساحقة ممن أثبت وجوده على ساحات العمل الثقافي أو البحث . اجتماعي أو الحقوقي، من الرجال أو النساء، أن تفعل ذلك: فسوريّا، خاصة بعد الاستعمار الطائفي الناصري لها عام 1958، ثم استيلاء البعثيين على السلطة عام 1963، وغمر الشارع حتى الاختناق بالشعارات الفارغة التافهة التي لا يؤمن بها حتى أولئك الذين كانوا يسوّقونها، أضحتِ الوطنَ الأكثرَ جدباً في بلاد الشام بعد أن كانت معقل الطليعة! صار على واحدنا، إن كان يبحث عن لحظة حياة، أن يهجر وطن الموت المؤجّل هذا إلى لبنان حيث الهواء النقي والحريّة والحب.

لقد دفعت سوريا غالياً ثمن غباء البعثيين وانغلاقهم على ذواتهم واعتقادهم، كالأصوليين تماماً، أن الباطل لا يطالهم لا من فوق ولا من تحت؛ وناموا على ريش نعام هذا الحلم محميين بصدفة إرهابهم واعتقالهم الصيرورة حتى صحوا على أشواك العلم الأميركي يرفرف في سماء بغداد، التي كان:

تَموزُ يدرجُ في مرابِعها   والبعثُ ينثرُ فوقَها الشُّهُبا!

****

المرأة والانتماء الطائفي:

لا مناص من الاعتراف أن واقع المرأة في سوريّا، خاصة في الربع قرن الأخير، عرف تحوّلات هامّة للغاية، منها الإيجابي ومنها السلبي، كان واضحاً فيها أثر الموروث الثقافي المتّكيء على التراث المذهبي . الديني! فقد شهد وضع المرأة تغييرات إيجابية بارزة بين الطوائف الصغيرة من غير السنّة؛ خاصّة العلويين والمسيحيين والمرشديين، وأوّلاً الإسماعيليين. بالمقابل، فإن أناث كبرى الأقليات، السنّة، باستثناء هامشها من جماعات علمانيّة أو ليبرالية أو يساريّة، تهرول نحو الحائط المسدود: لقد تراجع حال الأنثى السنيّة السورية، تحت ظلال شيوخ التطرّف والإرهاب وحماتهم من الوهابيين المتبعّثين، إلى درجة لم يعد ممكناً القبول بها: تكفي جولة بسيطة في أحياء دمشق السنيّة الراقية (الفقراء دائماً لا يجدون أمامهم سوى الله) كي نكتشف أن سوريّا السنيّة تعود تدريجيّاً إلى زمن الخلافة الإسلامي أنثويّاً. . كيف؟

في ذاك الزمن، الذي لا توجد في القواميس ألفاظ توفيهِ حقَّهُ من مظالمه بحق كل من هو غير ذكر مسلم سنّي من جماعة الحاكم، كان النساء صنفين لا ثالث لهما: الأنثى الأمة الجارية القينة العبدة، والأنثى الزوجة الحرّة الحريم!

الصنف الأوّل، كما سبق وأشرنا في أكثر من عمل، لا قيود على الذكر في العدد المباح له امتلاكه (مقابل أربع من الحرّات)، عورته بين السرّة والركبة (أحد الأئمّة ضيّقها لتشمل فقط فتحتي القبل والدبر)، وظيفته أساساً خدمة الذكر وإمتاعه بكل ما في الكلمة من معنى: إنه دعارة مفتى بها، العامل الحاسم فيها، كالدعارة المحظورة، هو النقود؛ فما دام إله قد أنعم عليك، فقد فتح لك الشرع الإسلامي الأبواب كي تشتري من ملك اليمين ما تشاء . هل

نتذكّر أن أمير المؤمنين، المتوكّل على إلهه العباسي، محيي السنّة ومميت البدع، قد أمتلك ألوفاً من الجواري تراوح عددهن، باختلاف المرجع، بين 4000 و12000؟ مع ذلك، ثمّة ميزة في الدعارة المحرّمة تجعلها أفضل بما لا يقارن من التسرّي الذي أباحه إله المسلمين (رغم أنف حاخامي حزب الله، تجّار المتعة، الذين كان يخرج الشبق من أنوفهم وأعينهم وهم يشتمون مواقف شيراك اللاأخلاقية من الحجاب): في الدعارة يمكن للعاهرة أن تتوب وترجع إلى إلهها، كما يحصل في مصر منذ مدّة في أوساط ما يسمّى بالفنانات والصحفيّات، بل وأن تعمل مفتية (الأخت سهير البابلي التي كانت يوماً متزوجة من يهودي اسمه منير مراد؛ لكن ذكراً أخوانياً أصغر منها بأربعين عاماً أوصلها بصاروخه إلى إلهها بسرعة الضوء: الجنس شيخ العجائب على مرّ العصور)؛ فهي وإن كانت عاهرة، تظل نسبياً ملك ذاتها! في التسرّي، أردأ أصناف الدعارة، الجارية ملك غيرها الذي يستطيع استعمالها أو لا استعمالها أو إعارتها أو إقراضها أو استخدامها فقط في التحميض (المضاجعة في الدبر) كما كان يفعل الصحابي الجليل عبد الله بن عمر! لكن لا مجال أمامها للتوبة، كما هي الحال مع الأخت المؤمنة شمس البارودي بطلة هي والشياطين وحمّام الملاطيلي، لأن قرارها ليس بيدها! التسرّي تسويق دعارة لغير صاحبة الجسد العاهر . وكلّه، كما قلنا، تحت رايات الشرع المقدّسة (قاضي قضاة بغداد زمن مجموعة لا بأس بها من أمراء مؤمنينا من بني العبّاس، المدعو يحيى بن أكثم، أباح لهؤلاء الخلفاء مضاجعة ما يشاؤون من ملك اليمين من الذكور، باعتبار أن إلهه لم يحدّد الجنس في النص الهام للغاية: "أو ملكت أيمانكم "). وكما نستشف من أمهات المصادر الإسلاميّة، كانت السراري الغالبيّة الساحقة جدّاً في مجتمع الخلافة الإسلامي.

الصنف الثاني من الإناث في عالم اللامعقول هذا، كان الحرّات: الزوجات أو الحريم، اللواتي لا تراهن الشمس، واللواتي يبدو القبر المكان الأفضل لهن: ألم يقل الرسول الكريم إن الأنثى (يقصد هنا الحرّة، فالجارية لا تعتبر بمصاف البشر) لها عشر عورات: فإن تزوجت ستر الزواج عورة وإن ماتت ستر القبر العورات الباقيات التسع؟ هذه الكائنة، التي قد تبدو أنها حرّة لمن لا ترى عيناه الخداع البصري الإسلامي، ممتلكة لزوجها بالكامل، فهو صاحب الحق في إبقائها عنده أو تطليقها أو ضربها أو هجرها أو الزواج عليها بمن تكره، لا يحقّ لها مغادرة منزله إلاّ بإذنه حتى إلى بيت أهلها، وهي إن غادرت عليها أن تسرع في مشيتها وتبتعد عن وسط الطريق حتى لا يلحظها أحد: باختصار شديد؛ إنها متاع سبعة أثمانه في القبر والثمن الباقي محمول على نعش رخيص؛ من هنا نفهم سرّ إصرار أم المؤمنين السيّدة ريحانة بنت شمعون القرظية، عليها السلام، على بقائها جارية . ملك يمين لمحمّد (ص): الجارية الحيّة أفضل من الزوجة الميتة. العنصر الإيجابي الوحيد في هذا الحفل الجنائزي هو أن طبقة الزوجات . الحريم، كما نعتقد، كانت أقليّة قياساً إلى طبقة العاهرات . الجواري.

امرأة محترمة في الإسلام!!!

في التصنيف السابق الذكر، الذي لا مكان فيه، كما نشير دائماً، إلاّ للأنثى التي تلبّي غريزتَيْ الجنس والتملّك عند الذكر إلى الحد الأقصى، لا نصادف على الإطلاق المرأة العاملة؛ المرأة المثقفة؛ المرأة السياسيّة؛ باختصار: المرأة الكيان البشري المستقل. في الإسلام أنثيان لا ثالث لهما: عريب، وأم المؤمنين. . وهذه الصورة ما تزال المسيطرة في المجتمعات ذات الغالبية الإسلامية حتى الآن. . مع انعكاس كامل لنسبة "عريب . أم المؤمنين" في المجتمعات الإسلاميّة الحالية. فلسوء الحظ، ضغطت الدول المتحضّرة الكافرة على دول الإسلام لإلغاء الرق وتبعاته، ومنها التسرّي، فكانت النتيجة أن أمهات المؤمنين، بأخمرتهن المقرفة وسوادهن الباعث على الاكتئاب وتسللهن الذي يشبه تحرّك اللصوص، صرن الغالبيّة الساحقة، في حين تقلص عدد العريبيّات، اللواتي كن يملأن عالم الإسلام الأوّلي بهجة وشبقاً وجمالاً، إلى الدرجة الدنيا: من هنا يمكن أن نفهم كون المجتمعات

الإسلاميّة الحاليّة، وفق التقنين الجنسي الإسلامي لمفهوم الأخلاق، أكثر أخلاقيّة بما لا يقارن من مجتمعات الخلافة . وأقل بهجة وشبقاً وجمالاً.

البعثيون وقضية الأنوثة:

كان يمكن للبعثيين في سوريّا تخليصنا من هذا الوضع التحقيري للنساء، لو أنهم هم أيضاً (خاصة عصابة العجوز المتلفز أمين الحافظ) جاءوا من خلفيّة لا تحتقر النساء ولا تنظر إليهن إلا وفق التقسيم الآنف الذكر. لذلك كان الانهيار الأخلاقي، بمعنى التحلّل الجنسي، الصفة التي لازمت حكم أمين الحافظ وعصابته. بل إن الزمن سيكشف أن الضرر الذي ألحقه هذا الكائن المتعَب المتعب بحق الوضع الأنثوي السوري برمته لا يمكن إصلاحه: خاصّة حين حوّل بعض المنظمّات ذات الطابع الاجتماعي العقائدي، التي يفترض أن تكون لخدمة قضيّة الإنسان وفي الطليعة النساء، إلى مراكز لخدمة غرائز الطبقة العليا من المسؤولين، فنفّر الناس بالتالي من فكرة التقدّم والتحرّر التي كانت تسوّق لها العصابة تلك، وجعل الغالبية البسيطة من السوريين تربط في لا وعيها بين التقدّم والانهيار الأخلاقي وتفشل في التمييز بين التحرّر والتحلّل.

مع سقوط العجوز وعصابته، وقيام الحركة التصحيحية التي كان بعض رموزها من خلفيّة لا تمتّ بصلة إلى خلفيّة أمين الحافظ، كان الأمل كبيراً بتغييرات حاسمة في أمور كثيرة، منها الوضع الأنثوي المتردّي: لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن السوريّة. فمن جهة، خاض النظام الوليد معركة شرسة ضد أشهر إرهابيي القرن العشرين من الأخوان المسلمين (الدكّان السوري) أعاقته عن الوصول إلى كثير مما كان يطمح إليه، ومن جهة أخرى لعب فساد بعض المسؤولين الذين كانت الحاجة إليهم ماسّة في معركة سوريّا المصيرية ضد إرهاب الأخوان دوراً معيقاً إضافيّاً تحوّل بفعل الزمن إلى إزمان أرهق سوريّا وأتعبها. مع ذلك، عرفت سوريّا محاولات مستميتة للنهوض بالوضع الأنثوي: فللمرّة الأولى، منذ أيام زنوبيا وجوليا دومنا، نجد نساء سوريّات مثقفات، ليسوا حريماً ولا جوار، يتصدين لواجبات ضخمة كانت مقصورة على الرجال من قبل، كالوزارات والقضاء ومجلس الشعب (رغم عدم اقتناعنا المطلق بهذا المجلس)؛ وللمرّة الأولى أيضاً، تعرف سوريّا ظواهر نسائية إيجابيّة، منها مثلاً ظهور طبقة من الفنانين والأدباء المثقفين الذين استطاعوا فك الارتباط الصعب بين "الفن . الأدب" والعهر، المتوارث إلينا منذ أيام أمراء مؤمنينا الأفاضل. بالمقابل، وكما أشرنا مراراً، فقد لعب التعصّب الطائفي السنّي دوراً مريعاً بالنسبة للوضع الأنثوي بين السنّة بشكل عام؛ ساهم فيه بلا شك ممالأة السلطة (بعض رموز السلطة وهابي متبعث بلا ريب) وخوفها من المواجهة وافتقادها على الدوام للمشاريع البديلة وتردّدها في تغيير جذري لقانون الأحوال الشخصية الذي ما يزال ينظر إلى المرأة، حتى وإن كانت وزيرة أو قاضية، باعتبارها كياناً تابعاً لا بدّ له من ولي أمر في أساسيّات كثيرة.

إن العائق الأوّل في وجه المرأة والذي يحول بينها وبين تحقيق ذاتها كإنسان هو المرأة ذاتها؛ فالانتشار السرطاني للتنظيمات النسائيّة الأصولية ذات النفس التكفيري الإرهابي، كالقبيسيّات أوّلاً وعلى سبيل المثال، بين السنّة السوريين، ليس خطراً فقط على المستقبل السياسي الاجتماعي لسوريّا المكونة من فسيفساء طائفي ديني عقائدي، بل هو كارثي النتائج أيضاً على التحرّر الأنثوي في كافة أقطار بلاد الشام: الدليل الأوضح على ذلك انتشار السرطان القبيسي إلى لبنان والأردن من دمشق، عاصمة التقدّم والاشتراكيّة. قد يبدو صعباً إقناع ذكر مستفيد من الوضع المَرَضي للأنثى المسلمة بأن هذه الأنثى كيان بشري وليست بقرة، لكن من المستحيل إقناع أنثى لا يساورها أي شك بأنها بقرة أنها ليست بقرة. وهذا حال ما أطلقنا عليهن لقب "تيارات التحقير الذاتي" الأنثويّة السورية، التي تعيث تخلفاً في البلد معيدة المرأة، ومن ثم المجتمع، إلى عصر الظلمات: وعلى رأس هؤلاء، نكرّر للمرّة الألف، تأتي الحركة القبيسية التي لا يكمن خطرها فقط في فهرستها للنساء كحيوانات مستهلكة غير مؤهلة

للتفكير خارج نطاق سخافات الشافعي (الذي أباح زواج الرجل من ابنته غير الشرعيّة) ومن على شاكلته، بل في عجز الدولة . وربما عدم رغبتها . في الوصول إلى حل لهذه الأزمة الحضارية المستفحلة.

إن وضع المرأة في سوريّا، قياساً لما كانت عليه الحال قبل أربعين عاماً، أفضل بلا ريب: لكنه بعيد حضاريّاً للغاية عمّا هو موجود في البلدان الراقية أو عمّا نأمل به كعلمانيين ليبراليين. ومن أجل النهوض بواقع المرأة المتخلّف نوعاً ما في سوريّا، لابدّ من الإجراءات التالية:

أولاً: التطبيق الفعلي الكامل لشرعة حقوق الإنسان العالميّة التي تعتبر خطوة أساسيّة من أجل الحفاظ على كرامة المواطن وصون حقوقه وتساوي الجميع في الواجبات والحقوق بغضّ النظر عن الفروق الجنسيّة أو الإثنيّة أو الدينيّة أو العرقيّة؛

ثانياً: فك الارتباط نهائيّاً مع الشريعة الإسلاميّة وإعلان علمانيّة الدولة؛ فالدولة ليست كلّها سنّة، الذين يفرضون شرائعهم على الآخرين بقوّة الأمر الواقع وسيوف أوهامهم، وإن كانوا يشكّلون الأقليّة الكبرى . مع ملاحظة أن غالبيّة الحركات السياسيّة العلمانيّة، والباحثين العلمانيين، ونحن من بينهم، من أصول سنيّة؛ وهنا نشير إلى أن الشريعة الإسلاميّة كانت نتاجاً لمجتمع رعوي (معظمها ملطوش عن الهالاخوت اليهوديّة) بدائي لا علاقة له على الإطلاق بالبنى الثقافيّة المعقّدة الموجودة في مجتمعاتنا الحاليّة، بل أن مقولات أساسيّة في هذه الشريعة، كأحكام الرق وملحقاتها، التي ما تزال تستهلك صفحات كثيرة من النتاج الثقافي العربي ومن نقود القرّاء الواعين، أصبحت من ملاك المتاحف؛

ثالثاً: في ظل هذه الجائحة من التخلّف التي تفترس المجتمع السنّي السوري حالياً، لابدّ للدولة، التي يفترض أنها الرأس المفكّر للمجتمع، أن تفتّش عن حلول لهذا التفشي المخيف للفكر الإرهابي بين النساء: لقد فهم الإرهابيون اللعبة؛ فعبر السيطرة على النساء، يمكنهم وضع المجتمع في جيبتهم الصغيرة؛ خاصّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الفسيفساء الطائفي الديني السوري، الذي لا يبدو أن ثمة ما يهدّده، حاضراً ومستقبلاً، أكثر من هؤلاء الإرهابيّات الصغيرات، اللواتي يستغللن التحفّظ العام تجاه الإناث كي يتنقّلن، بسمومهن التكفيرية، من بيت إلى بيت ومن حارة إلى حارة؛

رابعاً: السماح . إن لم يكن التشجيع . بقيام اتحادات نسائية وشبيبية حضارية تأخذ مكان ما هو مترهل وآيل للسقوط من الموجود على أرض الواقع، الذي أثبت الفشل الذريع في مواجهة الفكر الإرهابي الأنثوي الذي يطرح نفسه بديلاً قوياً لما تدعمه الدولة من تنظيمات؛ وبلغة الواقع؛ نقول: إن الاتحاد النسائي الرسمي الذي تدعمه الدولة أضعف، بما يدعو للرثاء، من فرع حمص لاتحاد الإناث القبيسي الإرهابي الذي يغض الطرف عن ممارساته الخطرة على المستقبل السوري؛

خامساً: الدعم الرسمي للنساء، معنوياً ومادياً، لإخراجهن من حالة التبعية الذهنية الموروثة منذ مئات السنين؛ من ذلك مثلاً: زيادة عدد النساء في الصف القيادي الأوّل، كالوزيرات؛ إذ لا يعقل أن تكون نسبة الوزيرات في مجتمع ثلاثة أخماس بدوي، كالأردن، أقل منها في بلد التقاليد الحضارية الأعمق، سوريّا؛

سادساً: السماح لنا، كعلمانيين ليبراليين من أصول سنيّة، بتفنيد دعاوى ذلك الصنف القبيسي الرديء من الأبقار الشاميّة، للحيلولة بينهن وبين احتكار عقول نساء السنة، كما هو حاصل الآن!

ملاحظة:

من سخرية القدر أن تصبح وسائل الاتصال الحاليّة متاحة لكمشة بدو، من النمط الوهابي أو القبيسي، يستخدمونها في تعميم الإجرام والقتل باسم الآلهة وتصوّراتهم لما هو مرسل من تلك الآلهة؛ من ذلك الهراء

المقدّس نقتطف بعض الآراء الوهابيّة بحق البقرات الشاميّات المعروفات بالقبيسيّات؛ للعلم، البقر الشامي من أفضل أنواع البقر!

السؤال المطروح على العصابة الإجراميّة المسمّاة بالوهابيين؛ يقول: "ما حكم الزواج بإحدى النساء المنتسبات للفرقة (القبيسيّة): هل هو محرّم على اعتبار أنّهن مشركات؟ وجزاكم الله خيرا". والجواب الوهابي الحضاري؛ يقول: "الزواج منهن لا يجوز لأنهن مشركات، والله عزّ وجل يقول في كتابه الكريم :"ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤمنَّ ولأمة مؤمنة خير من مشركةٍ ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون". ويلزم على والي المسلمين هنالك (يعني في سوريّا) أن يقيم فيهن شرع الله باستتابتهن وإلا قتلهن حدّاً عملاً بقول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام: "من بدّل دينه فاقتلوه". وللأسف أن لهن نشاطاً كبيراً في كثير من بلاد المسلمين فيلزم الولاة أن يسعوا جادين لاستئصال هذه الفرقة المارقة الكافرة وإقامة حد الله الذي شرعه في كتابه وسنة نبيه! وفق الله حكامنا إلى ما يحبه ويرضاه، وبالله التوفيق. هنا انتهت الفتوى الوهابيّة المغرقة في إنسانيتها!!!

لا يسعنا إلا أن نقول باختصار: هذا هو الإسلام!!!

نبيل فياض، يناير 2004

عريب: جارية مغنيّة شهيرة، ابنة جعفر البرمكي الذي نكّل به أمير المؤمنين هارون الرشيد لأنه ضاجع أخت هارون العبّاسة. كانت عريب أنموذجاً للتحلّل الجنسي؛ فهي تعترف، وفق مرجع إسلامي تقليدي، بأن ثمانية من الخلفاء، أمراء المؤمنين، قد ضاجعوها.

حقوق الإنسان في سوريا (2)

بقلم: نبيل فياض
www.annaqed.com

الجانب المعرفي

في الجزء الأول، تحدّثنا بالأمثلة الدامغة حول الوضع المزري لحقوق الإنسان الدينية في سوريّا. ولا شكّ أننا نأمّل مع بداية هذا العام أن يشهد هذا الوضع تغييراً نحو الأفضل، فسمعة سوريّا ودورها ومكانتها في الميزان. والواقع يقول إن أهمية سوريّا الحاليّة أقل بكثير من إمكانيات أبنائها الذين يبدو إبداعهم باهراً حين تتوفّر لهم الشروط الموضوعيّة للإبداع: وهذا، للأسف، نادراً ما يحدث داخل الوطن.

في هذه المقاربة سنتناول، عبر الأدلة الواقعيّة الذاتية . لا كلام الإعلام السوري الذي يضع قدميه على الأرض ورأسه في عالم الماوراء . مسألة الخلل في تطبيق حقوق الإنسان المعرفية في سوريّا، التي لم تعرف أدنى أشكال التطوير في ظل الحكم التوتاليتاري الذي يسود منذ أكثر من أربعين عاماً!

إن الترابط المعقّد بين المسائل السياسية . المعرفية . الدينيّة . الاجتماعية في سوريّا يلعب الدور الأوّل والأخير في هذا التردّي. فالواقع يقول، إن الحزب الذي يحكم سوريّا منذ أربعين عاماً ونيف هو حزب البعث العربي الاشتراكي؛ والواقع يقول أيضاً إن العلويين، الذين ظلّوا تابعين ومضطهدين ومقموعين مئات السنين، عرفوا في ظلّ البعث نوعاً من السلطوية، فاحتل بعضهم الواجهات الهامة في البلد لفترات لا بأس بها؛ ورغم أن غالبية العلويين كما عرفتُهم في قراهم البسيطة بعيدون نوعاً ما عن أشكال التطرّف ورفض الآخر المؤدلجة السائدة في صفوف السنّة، إلاّ أن بعض المسؤولين من العلويين ركبوا موجة الطائفية كي يخلقوا لأنفسهم شارعاً عامّاً داعماً؛ لكن الأزمة التي افتعلها الأصوليون من السنّة جاءت لتزيد من النفس الطائفي في البلد حيث اضطر العلوي غير المتعصّب إلى الالتفاف حول الطائفة خشية أن تقطع رأسه مقصلة الإرهاب السنّي. ولأن حزب البعث متهم بالعلمانيّة والإلحاد كحزب يساري اشتراكي (الأمر ليس كذلك على الإطلاق، فحزب البعث بتركيبته الحالية هو أقرب ما يكون عموماً إلى حركة الأخوان المسلمين التي وقعت المذابح بينه وبينها)، ولأن العلويين منذ ما قبل أيام سيئ الذكر ابن تيمية مكفّرون ومخرجون من الملّة، فقد حاول الطرفان، البعثي والعلوي (كثيراً ما يكون البعثي علوياً أيضاً)، بعد انتهاء أزمة الأخوان استرضاء غالبيّة سنيّة تشعر . شعور غير صحيح . أنها ظلمت، من جهة؛ وردّ تهم الإلحاد والكفر عن الطرفين، من جهة أخرى: وذلك عن طريق تبنّي آراء مغرقة في الأصولية أو غض الطرف عن نشاط الأصوليين، خاصة الذين لا يشكّلون خطراً سياسيّاً على النظام. وهكذا، عرف المجتمع السوري ظواهر أصولية، مهادنة للدولة سياسيّاً . لأسباب تكتيكيّة في اعتقادنا . لكنها خطرة للغاية على المستقبل السوري معرفيّاً وحضاريّاً: مثل البوطي، أستاذ العقيدة في كليّة الشريعة بجامعة دمشق، الذي قد يعتقد من يتابع أحاديثه في التلفزيون السوري أنه منفتح وأقل إرهاباً من غيره، لكن قراءة مبسّطة لما يقوله أو يعلّمه في كلية الشريعة تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن ما يفرّقه عن بن لادن هو الظرف الموضوعي: فالبوطي إرهابي كامن نائم وبن لادن إرهابي ناشط فاعل. وسوف أقدّم هنا أمثلة، كلّها ذاتيّة، تكشف من جهة حقيقة هذا البوطي الذي ينظر إليه أتباعه على أنه ثلاثة أرباع إله؛ وتكشف من جهة أخرى نفاقية الرقابة الإعلاميّة الرسميّة السورية التي لا يحسدها أحد على خروجها النهائي من الزمن:

أثناء عملي الصحفي، خاصة مقالاتي التي تناولت طوائف الشرق الأوسط بالبحث النقدي التاريخي، ارتأيت أن أحاور هذا الرجل في معرض الحديث عن السنّة السوريين. أعطيته أسئلة وردّ عليها بعد تردّد؛ بعدها نشر كتاباً

بعنوان "هذه مشكلاتهم" توسّع فيه في الردّ على أسئلتي في عمل تجاوز المئتي صفحة: كان الكتاب، بسبب فشل البوطي في ردّ علمي دقيق مقنع على ما طرحته من تناقضات قاتلة في العقل السنّي، ينضح بالافتراءات والألفاظ السوقية التي تخجل حتى اعتماد خورشيد من تسويقها. مع ذلك، رغم أنه لو كنت في دولة تحترم الإنسان لكان باستطاعتي سوق البوطي من أنفه إلى القضاء، لمّا أردت التعقيب على "هذه مشكلاتهم" والدفاع عن نفسي، رفضت الرقابة السورية، التي كان على رأسها درزي، الموافقة على نشر كتابي "حوارات" إلا بعد حذف فصل كامل هو "الجمل يحملهم إلى الجنة"، إضافة إلى جمل كثيرة وجدتها الرقابة غير مناسبة في حين لم تستطع رؤية ألفاظ البوطي الخادشة لحياء أقل الناس حياء. إذن، ونحن نسمع شكاوى بعض الرسميين وتأففهم من هذا الانتشار الرهيب للأصوليّة مؤخراً في سوريّا، فإن اللوم يجب أن لا يوجّه إلاّ إلى أطراف رسميّة أخرى: بعض القوى الأمنيّة التي عملت بذكاء غير خارق على ترويج الأسطورة البوطية (وغيرها) بين السنّة السوريين معتقدين خطأً أنه أقل سوءاً من الأخوان المسلمين؛ وبعض القوى المسيطرة بدكتاتورية مثّقفة على الإعلام السوري، خاصّة ما يسمّى بمكتب الإعلام القطري، لصاحبه الرفيق أحمد ضرغام، الذي يسمح للبوطي بشتمنا وإهانتنا في بلدنا وهو الغريب المستورد، في حين لا يسمح لنا بردّ الاتهامات ودفع الشتائم.

دون تواضع أقول، إن أعمالي هي الأكثر توزيعاً في سوريا ولبنان، بل إن كتابي "أم المؤمنين تأكل أولادها" وزّع أكثر مما وزّعته كلّ منشورات ما يسمّى باتحاد الكتّاب العرب، لصاحبه المدعو علي عقلة عرسان الوهابي المتبعّث، رغم منع كتابي وسهولة وصول كتب هذا الاتحاد المريع إلى "قرّائه". إذن، لولا هذا الاضطهاد المعرفي الذي نتعرّض له كباحثين علمانيين ليبراليين، لأمكن لأعمالي وأعمال غيري ربما، أن تشكّل كفّة الميزان الأخرى المعادلة لكفّة الإرهاب الأصولي المستخدمة وحدها في شرائع الوزن المعرفي السوري.

سوف أضرب هنا أيضاً مثالاً آخر يوضح فداحة المأساة معرفيّاً: ففي حين تعاني سوريّا ديموغرافياً من قضيّة الانفجار السكّاني بحيث يمكن القول، دون مبالغة، إن الشعب السوري الذي يتكاثر كالأرانب لأسباب يلعب فيها الخلل المعرفي الاجتماعي ذو المتكأ الديني الدور الأول والأخير، يسمح لشيخ من القرون الوسطى المنتشرين كالهواء في سوريا هذه الأيام، المدعو نور الدين العتر، بإعادة نشر كتاب له مفرط في رجعيته (الأخوان المسلمون، مقارنة بالعتر ومن على شاكلته من حاخامي وكر الإرهاب المسمّى بكليّة الشريعة في جامعة دمشق، حضاريون متحرّرون وربما ليبراليون) اسمه: "ماذا عن المرأة"!! في هذا العمل التحفة، الذي يحظى بموافقة . وربما تشجيع . الرفيق أحمد ضرغام، نجد آراء قاتلة من نمط أن الدعوة إلى تحديد النسل في البلدان الإسلامية ليست غير مؤامرة صليبية ماسونية صهيونية (المعزوفات التقدّمية الوطنيّة المثيرة للإقياء) هدفها إنقاص أعداد المسلمين كي يستعمرهم اليهود (للتذكير فقط: عدد اليهود في العالم لا يتجاوز 20 مليوناً، مقابل أكثر من مليار مسلم)، إضافة إلى تعارض تحديد النسل مع الحديث النبوي الشريف الذي يقول: تناكحوا تكاثروا فإني مفاخر بكم الأمم!!! (مصيبة إذا كان محمد سيفتخر على السويديين واليابانيين والبلجيك والألمان بأمم من نمط الأفغان والبنغلادشيين والباكستانيين.. والعراقيين الذين سرقوا تراث الإنسانيّة والمشافي ومقرّات الصليب الأحمر.. حالما رفعت عن أعناقهم الأغلال الصدّاميّة!!!) ليس هذا فقط، فالعلاّمة العتر يعتبر أيضاً أنه من المؤامرات الدنيئة على الإسلام دخول المرأة المسلمة سوق العمل: لأنّ مكانها البيت، كالأرنب المصابة بالإلتهاب الرئوي، حيث التفرّغ للجنس والإنجاب والتنظيف لا غير. ورغم أننا كديمقراطيين ليبراليين لا نمانع أن ينشر العتر خرافاته القاتلة بالطريقة التي تعجبه، لكننا نمانع حتماً أن تكون الساحة المعرفيّة ملكاً حصريّاً له ولأمثاله، لأن البلد ملك الجميع، والسفينة الآيلة للغرق بوجود ربانيين (على نسق الراب عوفاديا يوسيف) من نمط الرفاق المعتّقين وطبقة الأصوليين الجدد لن ينجو منها أحد مع اقتراب الكارثة الوشيكة.

هل يمكن أن نضرب مثلاً ذاتيّاً آخر حول حقوق الإنسان المعرفيّة في سوريّا؟ ثمّة مؤسّسة تمتلكها الدولة، مثل صالات الخضار وأكشاك بيع الدخان الرسميّة، اسمها اتحاد الكتاب العرب. وهذا الكشك الثقافي يعمل لحساب رجل اسمه علي عقلة عرسان (بعض المثقفين السوريين يخشى ذكر اسم هذا الولي، فيكتبونه تورية ع ع ع ، مثل ب ب في فرنسا والمرحومة م م في أميركاً)! هذا الشخص، الموجود منذ الأزل في تلك المؤسّسة المتحفيّة، يحمل شهادة دكتوراة من معهد غير معترف به من أحد (قيل إنه أقفل لسمعته الأصوليّة غير العطرة)، والباقي في اتحاده حتى يتذكّره أحد الآلهة . إن تذكّره . هو أحد أبرز الأصوليين الإرهابيين الذين يجيّرون المعرفة، باعتقادنا، ويستغلّون نقود الشعب (ألم نقل إن مؤسّسته رسميّة؟) بكلّ طوائفه لخدمة عقليّة طائفيّة أو لمنافع آنية لا علاقة لها بالثقافة. لقد أراد بعض الأصدقاء من الصحفيين الليبراليين السوريين، حين كنت أدافع عن هذا الكائن الطالباني من منطلق ليبرالي لا يرفض الأخر المخالف، تكذيب آمالي به بالاقتراح عليّ أن أقدّم للعضويّة في كشكه: والشرط الوحيد لقبول عضوية أي كاتب أن يكون لصاحب الطلب كتابان منشوران! ولي تحديداً 22 عملاً منشوراً!!! الطريف أن المسؤول عن الطلبات في هذا الكشك أشار علي بأن لا أقدّم أعمالاً نقدية حتى لا يتضايق الدكتور!!! وكما قلت سابقاً، فإن كتاباً لي، كالجمل، عرف من الرواج الشعبي أكثر مما عرفته أعمال هذا الكشك مجتمعة. مع ذلك، فقد رفض بن لادن عرسان الطلب: ولمّا سألت المدعو ميخائيل عيد عن السبب، قال إن الأمن السياسي (أذكّر أن اسم الكشك: اتحاد الكتّاب) هو وراء رفض الطلب!!!!!

إن تفكيك هذا الكشك وطرد القائمين عليه هو أحد الشروط الهامة للنهوض بالوضع المعرفي السوري من كبوته القاتلة. وحين نسمع صرخات التأفف المكبوتة من انتشار الإرهاب الديني في سوريّا، فإن اتّحاد الكتّاب العرب هو أحد أهم الأمكنة التي يمكن أن نشير إليها باللوم الإتهامي على تبذيرهم لنقود الشعب على تفاهات شاعرات فارغات وأدباء لا علاقة لهم بالأدب وباحثين لا يبحثون إلاّ عمّن ينشر لهم غباءاتهم مقابل بضع ليرات يسترون بها بطالتهم المقنّعة. كان يمكن لاتحاد كهذا أن يكون الطليعة المعرفيّة المكوّنة لضمير الأمة ضد الطائفيّة والتخلّف والديكتاتورية: لكن مطالب كهذه يفترض أن تقدّم إلى أشخاص لهم علاقة بالبحث أصلاً ومعادين للديكتاتورية والطائفية والتخلف . لا إلى علي عقلة عرسان.

إنّ فتح ملفات اعتقال الثقافة في سوريّا على يد هؤلاء الطائفيين الدكتاتوريين الصغار، ومحاسبة أولياء أمور الثقافة على سرقتهم أموالنا . هم يتثاقفون بنقود الناس . وموقفهم المتفرّج على الانهيار نحو الأصولية، وإلغاء الرقابة إلا حين يمسّ الأمر أمن الوطن أو التعدّي على حقوق الإنسان: كلّ ذلك صار من أولويّات أي تحرّك جدّي لتغيير الوضع المعرفي السوري!

كانت فلسفة البعثيين دائماً: تأجيل الأزمات؛ لكن، كما يقول غراهام غرين، تأجيل الموت لا يمنعه.

نبيل فياض، 5 يناير 2004 . للحديث بقية

****

حقوق الإنسان في سوريّا: (1)

بقلم: نبيل فياض
www.annaqed.com

تدور في كواليس السياسيين في المنطقة الشرق . أوسطيّة هذه الأيام، أحاديث متواصلة حول رغبة الدولة السوريّة بالتوقيع على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أقرته الأمم المتحدة في 10 أيلول 1948. وإذا حدث وصدقت التوقعات، وهذا ما نأمله ونسعى إليه، فسوف تكون سوريّا العهد الجديد قد وضعت قطار الأمل، وللمرّة الأولى منذ استيلاء البعثيين على السلطة عام 1963، على سكّتِهِ الطبيعيّة. وكما قلنا سابقاً، ونحن لسنا من أنصار مطلق تيار في الإقليم السوري . اللبناني، فقد أجهض الأخوان المسلمون محاولات الرئيس الراحل حافظ الأسد خلق دولة عصريّة بالمعنى الفعلي للكلمة؛ والأخوان المسلمون هم المسؤولون، وحدهم، عن تسليم البلد للأجهزة الأمنيّة، وما أعقب ذلك من تجاوزات وصلت أحياناً كثيرة حدّ اللامعقول: وكان المواطن السوري الدافع الوحيد للضرائب الباهظة التي سبّبها هذا الوضع المرضي. وإذا كنا نأمل حقّاً بتغييرات سورية جذرية تنقل البلد إلى المكانة التي يفترض أن يصل إليها منذ زمن طويل، والتي أعاق فيها البعثيون بدكتاتوريتهم، والأخوان المسلمون بإرهابهم، سوريّا ومن ثم بلاد الشام كلّها عن الوصول إليها، لا بدّ من إعادة نظر شاملة بوضع هذا البلد الذي ما يزال يقف عند حالة الجمود الاستاتيكية المرفوضة، في عالم متحرّك للغاية، منذ حوالي نصف قرن.
على رأس متطلبّات التغيير تأتي مسألة حقوق الإنسان. وتكفي هنا الإشارة إلى أن بعض أقطار إفريقيا، التي كان بعض شعوبها، إلى فترة قصيرة، من أكلة لحوم البشر، تتبنى قوانين في غاية الحداثة فيما يتعلّق بحقوق الإنسان: بغض النظر عن دول في أقصى مراحل التقدّم الاقتصادي . الحضاري كانت قبل نصف قرن عشش صيادين، مثل سنغافورة.

حقوق الإنسان في سوريّا: الجانب الديني!

لمن لا يعرف، ففي سوريّا، رسميّاً، أكثر من خمس عشرة طائفة دينيّة؛ نذكر منها من الجانب الإسلامي: السنّة، الشيعة، العلويون، الاسماعيليون، الدروز، المرشديون، اليزيديون؛ من الجانب المسيحي: الموارنة، الروم الكاثوليك، الروم الأرثوذكس، السريان الكاثوليك، السريان الأرثوذكس، الكلدان، الآشوريون، الأرمن الكاثوليك، الأرمن الأرثوذكس، اللاتين؛ البروتستانت بطوائفهم: الاتحاد، الإنجيليّة الوطنيّة، المعمدانيّة..؛ إضافة إلى اليهود، الذين يسمّونهم بالموسويين، والذين هاجرت غالبيتهم الساحقة من البلد.

قبل أن نناقش الوضع المخزي لحقوق الإنسان الدينية في سوريا، سوف نطرح بعض الوقائع على النقاش، لأن ما يهمنا هو الحقائق المعاشة لا أساطير ألف ليلة وليلة:

الطفل الشيعي السوري يتعلّم في بيته عموماً أن عمر بن الخطاب وأبا بكر وعائشة وخالد بن الوليد وعثمان بن عفّان وحفصة بنت عمر.. ضالّون مضلّون، وأن مأواهم جهنم وساءت مصيرا؛ وإذا كان من أسرة إثني عشريةً متعصبة فهم يعلّمونه دعاء صنمي قريش؛ الذي يقول: " اللهم إلعن صنمي قريش وابنتيهما وجبتيهما وإفكيهما..."؛ والمقصود بصنمي قريش، طبعاً، الخليفتان الأول والثاني. هذا الطفل ذاته، حين يذهب إلى المدرسة، حتى وإن كانت اليوسفية أو المحسنيّة، مدرستي الشيعة الأشهر وسط دمشق، يتفاجأ بتعاليم مخالفة بالكامل: فالسابقون الذين تكفّرهم أسرته يصبحون مجموعة من القديسين الذاهبين إلى جنة الخلد دون إذن ولا دستور، والذين لا يصحّ الإيمان إلا بالإيمان بقداستهم؛ بل إن التعليم الديني السنّي، الذي يُجبر الطفل على تلقيه

في مدرسته، يجعل الله، كالببغاء العجوز، يردّد خلف عمر بعض أقاويله المأثورة، والتي تسميّها الميثولوجيا السنيّة: موافقات عمر.

الطفل اليزيدي السوري، الذي يقدّس إبليس. أعجبنا الأمر أم لم يعجبنا، فالانطلاق من مرّ الحقائق، نكرّر، أحلى من العيش على عسل الأوهام. يُجبر في كل درس ديانة، وهو الآخر مجبر على تعلّم الدين وفق المنظور السنّي، على شتم إلهه؛ حين يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! وحين ناقشت المسألة قبل أكثر من عشرة أعوام مع القائمين على الأمر من أغبياء الدين في سوريا. وما أكثرهم. قيل لي: هؤلاء مصنفون مسلمين، وهم يعيشون في دولة غالبية شعبها مسلم. لكن ما رأي هؤلاء الأغبياء إذا انقلبت الآية وعاش مسلمون في منطقة ذات غالبية غير مسلمة وفرض على الفرد المسلم منهم شتم إلهه أو نبيه؟

الطفل الدرزي السوري، وفي سوريا من الدروز السوريين الأصلاء أكثر مما هو موجود في أية بقعة أخرى من العالم، يتعلّم من أهله، المستندة تعاليمهم على ما في كتابهم المقدّس الحكمة أو شروحات الأمير التنوخي أو النقط والدوائر من آراء فلسفية فقهية دينية، أموراً تتناقض تماماً مع ما يفرض عليه في المدرسة من مفاهيم وأقاويل وميثولوجيا. مع العلم أني أحرص تماماً هنا على أن لا أذكر ما يقوله الدروز بحق الكعبة ومحمد وعلي.. إلخ.

المرشدي السوري، الذي كان قبل نحو من خمسين عاماً جزءاً من الكيان العلوي السوري، والذي انشق عن هذا الكيان نتيجة ظروف دينية اجتماعية سياسية لسنا بصدد مناقشتها الآن وكوّن لذاته شخصية تزداد استقلالية مع الوقت، تُفرض عليه في المدرسة، كالباقين المشار إليهم آنفاً، أمور يرفضها تماماً، وأعني هنا الجانب الديني تحديداً.

إذا انتقلنا الآن إلى الجانب الفكري العقائدي الوضعي، فسوريا، رغم أنف البعثيين، الذين عملوا كل ما في وسعهم، واستغلّوا خيرات البلد للإنفاق على دعايتهم الفجة المزعجة، لم تتحوّل إلى قطيع أغنام بلون واحد وثغاء واحد وحليب واحد: ما تزال الألوان الكثيرة الصفة الغالبة على هذا الشعب. وسوريا الآن من أكثر الشعوب العربية غنى فكري وتعددية عقائدية.

من هنا تخيلوا حجم الملهاة. المأساة حين يتعلّم الطفل السوري، ابن العائلة الشيوعية أو القومية السورية أو البعثية الفعلية، أن قصص القرآن المتعلّقة بآدم وحواء ونوح والطوفان.. ليست أكثر من خرافات سرقها المسلمون من اليهود الذين لطشوها بدورهم من أساطير الشرق الأدنى القديمة. وبعد ذلك يذهب هذا الطفل ذاته إلى أستاذ التربية الدينية في المدرسة ليعلّمه أن هذه الأساطير حقائق لا مناص منها، وأنه إن لم يؤمن بها فسوف يعذّبه الله (لا يشبه في الأساطير الإسلامية غير صدّام حسين) في جهنم فيحرق جلده ثم يصنع له جلداً جديداً، وهكذا!!! فيلم رعب سادي متعب يفضّل أن لا يشاهده غير البالغين.

إذن، بغضّ النظر عن الانتهاك الفاضح لحقوق الإنسان في ممارسات متخلفة من النمط المشار إليه آنفاً، فإن التشويه النفسي الذي يتعرّض له هذا الطفل، حين يفقد ثقته بمحيطه التربوي والأسري (من سيصدّق: الأساتذة المربيّن الأفاضل، مُدَرّسي مادة الديانة، أم أهله وأقاربه؟)، يصعب للغاية التخلّص من آثاره في مرحلة النضج.

من الجانب المسيحي، فالفضيحة تتجسّد في الدولة والكنيسة البروتستانتية على حدّ سواء؛ وكي يتوضح الأمر، يمكن أن نقدّم المثال التالي:

قبل سنوات، وكان يسكن في دمشق مجموعة من الأصدقاء من كنيسة العنصرة البروتستانتية، توجهت مع اثنين من قسس هذه الكنيسة، أميركي وهولندي، إلى أحد قسس الكنيسة الإنجيلية التي أناطت بها الدولة، للأسف، مهمة الموافقة أو عدم الموافقة على إنشاء كنائس جديدة. كان الرجل، واسمه أديب عوض، أبعد ما يكون عن

روح الكهنوت المسيحي، كما عرفته واختبرته، وأقرب ما يكون إلى نَفَس حزب الله أو الطالبانيين الجدد في سوريّا. رفض الرجل، لأسبابه اللاهوتية، طلب جماعة العنصرة بإنشاء كنيسة لهم. وماتت الفكرة على أبواب جماعة "أحبّوا أعداءكم".

إذن، إن القرار بالسماح لجماعات مسيحية جديدة بالتواجد في سوريّا مناط بطرف متعصّب، طائفي، أصولي من نوعية خاصّة، وضيق الأفق. فمن قال إن ميتافيزيك أديب عوض حقيقي فعلي، وميتافيزيك جماعة العنصرة ليس أكثر من أوهام؟ إن بذور المقولات الميتافيزيكية . الميثولوجية ظنيّة بالكامل؛ ولا يحقّ لأحد، مهما كانت مكانته، الحكم على ميتافيزيك . ميثولوجيا غيره بالسلب أو الإيجاب.

مثلاً: هل باستطاعة المسلمين، على اختلاف توجهاتهم، البرهان على أن محمداً كان نبيّاً؟ وعلى وجود الوحي: خاصة في ظل علم الملائكة المقارن، الذي لا يفقه منه المسلمون، كالعادة، شيئاً، والذي يقول إن جبرائيل ملطوش عن غفرائيل العبراني الملطوش بدوره عن فوهو ماناه الزرادشتي المطوّر بدوره عن أحد آلهة الهندوس..؟ هل باستطاعة المسيحيين البرهان بالأدلّة الماديّة التي لا لبس فيها على أن المسيح هو إله تجسّد من مريم العذراء وصلب ومات وقام وجلس على يمين الله الآب ليدين الأحياء والأموات؟

هل باستطاعة اليهود البرهان على حكاياهم المتعلّقة بإلياهو النبي وداوود، بأساطيرهم حول نشوء الخليقة والطوفان وشق البحر.. باختصار: بكل الركام الهاغادي الأسطوري، بطريقة عقلية مادية لا لبس فيها؟

ثمة فرق بين: "الأمر حقيقة"، و"أنا أعتقد أن الأمر حقيقة"؛ وضمن إطار "أنا أعتقد" هذه تقبع كل علل الأديان. ولا فرق هنا بين الطاوية والمسيحية؛ بين الزرادشتية واليهودية؛ بين اليزيدية والإسلام؛ بين السيخ والأحمدية؛ بين البوذية وأبناء الله..! من هنا، لا أحد يمتلك الحق الأدنى في فرض أساطيره . رملية الأسس . على غيره، حتى وإن كان ذلك تحت رايات الغالبية العظمى المزعجة.

تزداد الصورة قتامة بالنسبة لوضع حقوق الإنسان الدينية في سوريا، إذا ما عرفنا أن العقلية العنصرية الفجّة، التي تقسّم الأديان إلى سماوية وغير سماوية (تخيلوا مأساوية الوضع حين يُصَنَّف الإسلام السنّي أو الشيعي أو اليهوديّة الأرثوذكسيّة أدياناً سماوية، في حين تعتبر البوذية، أرقى ديانات العالم، ديانة أرضية)، ما تزال هي المسيطرة. ومن ثم، فالفرصة معدومة أمام أفكار سامية وهامة كي تتغلغل إلى العمق السوري؛ بالمقابل، ثمة توافه غبيّة ذات مضامين معادية للإنسان وحقوقه ما تزال تفرض وجودها على عقول السوريين تحت رايات القداسة الكاذبة.

ليس هذا فقط، فكلّ السوريين، باستثناء الطائفة السنيّة . دخل الشيعة المجال مؤخراً . محرّم عليهم التبشير الديني لغيرهم؛ دون أن ننسى تحريم زواج المسلمة من المسيحي أو الدرزي إلا إذا أعلنا إسلامهما؛ كذلك فالعرف الحضاري الأبسط، الزواج المدني، يلفّه صمت القبور حتى بين المثقفين، الذين لا همّ لبعضهم سوى استرضاء المراجع الدينية وغير الدينية لمكاسب آنيّة.

من ناحية أخرى، فما يسمّى بكلية الشريعة بجامعة دمشق، وهي ليست أكثر من وكر للإرهاب الكامن الذي تقترف فيه، بنقود الشعب، كل الشعب، أشنع المخازي بحق كلّ من لا يشارك القائمين على هذا الوكر آراءهم التي لا دليل عندهم عليها، كما ذكرنا، غير الظنون، هي نوع من التصديق الرسمي على مأسسة الإرهاب والانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان. في كليّة الشريعة لا تدرّس سوى آراء السنّة واعتقاداتهم، باعتبارها الحقائق التي لا يطالها الباطل لا من قريب ولا من بعيد. ليس هذا فقط، بل إن هذا المكان الإرهابي المشبوه يقوم بتدريس تسفيهي تكفيري مشين لآراء الغير . بمن فيهم بعض التيارات الإسلامية (باستثناء العلويين، الذين لا يجرؤ البوطي وأمثاله على الإشارة إليهم، لا من قريب ولا من بعيد؛ هل تعرفون لماذا؟) . الذين بعضهم من أفضل أبناء

الوطن؛ الأمر الذي يعني أن هذه الكلية التكفيرية تخرّج سنوياً، بنقودنا، وبالإشراف الواعي للدولة، مئات الشبان الذين يحمل كل منهم داخله مشروعاً إرهابياً كامناً. وكما قلنا باستمرار: ينفق على هذه الكليّة من الضرائب التي يدفعها كل أبناء الشعب، من السنّة وغير السنّة؛ وبالتالي فإقفالها هو الخطوة الأولى من أجل تحقيق المساواة بين أبناء الوطن الواحد.

من هنا يمكن تقسيم سوريّا، بحسب الانتماء المذهبي الديني إلى الطبقات التالية . حديث الدولة عن تساوي المواطنين في الواجبات والحقوق "حديث خرافة يا أم عمرو":

الطبقة الأولى: أهل السنّة والجماعة. وهؤلاء الذين يسيطرون على التعليم الديني الإسلامي في المدارس العامة والخاصّة وفي الجامعة الرسميّة؛ الذين يحق لهم وحدهم استقبال الوافدين من الأديان والمذاهب الأخرى، في حين لا يحق لأبنائهم ترك الملّة مهما كانت قناعة الواحد منهم!

الطبقة الثانية: الطوائف الإسلامية من غير أهل السنة والجماعة. وهؤلاء هم: العلويون؛ الاسماعيليون بفرعيهم القاسمي في السلمية والمؤمني في مصياف؛ والشيعة الإثناعشريون الموجودون في دمشق وحلب وحمص. هذه الطوائف التي تشكّل أكثر من ربع الشعب السوري لا يحقّ لها تعليم أولادها، حتى في مدارس الطائفة الخاصة، غير التعليم السنّي، حتى وإن تعارض ذلك جذريّاً مع التعاليم الأساسية للطائفة ذاتها. كذلك فإن كتب هذه الطوائف شبه محظورة من قبل الجسد الإعلامي المكوّن أساساً من سنّة متعصبين ومن غير سنّة منافقين طمعاً بمكاسب آنية. مع ذلك، فهذه الطبقة تحظى بميزة إمكانية النشر الإفرادي للأفكار في ظل تغاضٍ مدروس من قبل الدولة.

الطبقة الثالثة: وتضم المسيحيين الذين لعب التطرّف الديني السنّي دوراً تاريخياً في إقحامهم في غيتوهات في أحيائهم التقليدية في المدن والبلدات السوريّة. المسيحيون، وإن كان يحق لهم تعليم أولادهم الديانة الخاصة بهم، فهم محرومون من حق التبشير أو نشر الآراء، خاصة بين المسلمين، كما أنهم ممنوعون من الزواج، كذكور، من النساء المسلمات إلا في حالة إشهار الإسلام: وفي هذا انتقاص من شأن المسيحية والنساء على حد سواء. وما ينطبق على المسيحيين ينطبق أيضاً على اليهود الذين أضحى تواجدهم نادراً جداً في سوريا.

الطبقة الرابعة: وتضم ثلاث طوائف ينظر إليها على أنها مسلمة . بالمعنى الحرفي للمصطلح . لكنها ليست كذلك إطلاقاً؛ وهؤلاء هم: الدروز، المرشديون واليزيديون. وهذه الطوائف القابعة على تخوم الافتراء والتشويه والتقوقع تُعَلِّم رغماً عنها أولادها المذهب السنّي، والدروز بشكل خاص، كما أشرنا، لا يحق لواحدهم الزواج من مسلمة دون أن يشهر إسلامه: نلاحظ هنا تناقض الدولة العبثي حين تعتبر الدرزي مسلماً ثم تطلب منه اعتناق الإسلام إذا ما أراد الزواج من مسلمة غير درزية. والطبقات الثانية والثالثة والرابعة محرومة من أي تواجد معرفي في التعليم الرسمي الجامعي. مع الإشارة هنا بشكل خاص إلى أن الاضطهاد الذي يتعرّض له اليزيديون أدى بمعظمهم إلى الهجرة صوب ألمانيا، كذلك فإن محاولات التشويه تطال باستمرار المرشديين، الذين كان آخر من تناولهم بوقاحته وإسفافه، الإرهابي الأصولي أحمد منصور حين استضاف غبي سوريا، العجوز المخرّف أمين الحافظ.

الطبقة الخامسة: وتضم طوائف موجودة بحكم الواقع لكنها لا تحظى باعتراف رسمي وأفرادها يعيشون هاجس الاعتقال أو التوقيف لأي سبب أو وشاية؛ ومن هؤلاء: الجماعة الأحمدية (طائفة منشقة عن السنة) المنتشرة في دمشق وقرية حوش عرب شمال غرب العاصمة السورية؛ شهود يهوه (طائفة نشأت عن أصول بروتستانتية)، وهؤلاء، بكل أسف، لعبت الكنائس الرسميّة، التي تتذمر بطريقة تبعث على التذمّر من الاضطهاد ليل نهار، الدور الأبرز في تأليب المسؤولين عليهم، على أساس أنهم حركة صهيونية عميلة، مع أن من يقرأ التراث

المسيحي يعرف تماماً أن هذا الفكر قديم قدم بولس السميساطي والآريوسية؛ الكنائس البروتستانتية التي لا تحظى برضى أديب عوض وزمرته، مثل جماعة العنصرة؛ إضافة إلى أقليات نادرة من البهائيين والمورمون!

الطبقة السادسة: وتضم بقية الشعب من علمانيين ولا دينيين وملحدين، وهؤلاء لا حقوق لهم ولا من يحزنون؛ قوتهم تتجلّى في أنهم مجموعة من المثقفين الليبراليين الذين يناضلون بقوة لإحقاق حقوق الإنسان في سوريا ولنقل البلد بأي الثمن من حالته المعرفية المزرية.

هذا الوضع لم يعد مقبولاً بأية حال؛ ونحن على ثقة بأن مخلصين كثر من أبناء هذا الوطن يريدون التغيير. ونعرف أيضاً أن رجال الدين السنّة حصراً . حاربوا وحدهم الزواج المدني في لبنان . يرفضون أي تغيير على الوضع القائم: ليس خوفاً على الله، الذي يؤمن الجميع أنه أقوى من البشر، بل خوفاً على مصالحهم الفرديّة التي توارثوها، جيلاً بعد جيل، منذ أيام سيّدنا معاوية. والطريق أمام سوريّا واضح: إمّا هاوية جنّة المشايخ الوهميّة، أو واقعيّة عالم العصر بحلوها ومرّها.

نبيل فياض 2 يناير 2004 (للحديث صلة..)

****

حجاب شيراك ومتعة خامنئي: لو ذات سوار لطمتني!!

بقلم: نبيل فياض

www.annaqed.com

بقلم: نبيل فياض، 26 ديسمبر 2003

قبل سنوات، وكنت أعيش في بيئة دمشق الشيعيّة، كانت لي علاقة بأحد أحفاد المرجع الاثني عشري الشهير، محسن الأمين، الذي كان . الحفيد طبعاً . يدرس في موسكو السوفيتيّة الحقوق. تطرّقنا مرّة في حديثنا لزواج المتعة، الذي أثبتُّ بالقطع، في كتابي حوارات في قضايا المرأة والتراث والحريّة، أنّه محلّل إسلاميّاً عموماً وأن الذي حرّمه هو عمر بن الخطّاب. كنت أعتقد، لضعف ثقافتي المتعوية، أن هذا النوع من الزواج (إن صحّت التسمية) لا يختلف كثيراً عمّا هو متعارف عليه من زواجات: يتميّز فقط بمسألة تحديد زمن النكاح! لكن هذا الإثني عشري، ابن البيت الفقهي الشهير، أفهمني أن للمتعة أوجهاً كثيرة لا سبيل إلى حصرها؛ وقال لي مرّة، إنهم كانوا يأتون بالعاهرات الموسكوفيات، يكتبون لهن صيغة نكاح ذات طابع ديني (نسيتها لأني لا أتحمل التوافه المقدّسة)، عربية اللغة روسيّة الأحرف حتى يمكن للعاهرات لفظها، وكانت العاهرات يردّدنها كالببغاوات المصابات بعمى الألوان، لتصبح المضاجعة من ثم زواج متعة، وهكذا لا يشعر الممارس الإثنا عشري المؤمن أنه يقترف جريمة الزنا مع ساقطته. أمّا ما تأخذه منه من أجر فهو، بحسب نصّه التافه المقدّس، مهر تلك الكائنة عن نصف ساعة المتعة التي تمضيها معه. نعم! هذا أغرب أنواع البغاء المقدّس التي صادفتني في دراستي لعلم السلوك الجنسي للمجتمعات المتباينة. صحيح أن التسرّي المصدّق عليه شرعيّاً كملك يمين أسوأ بما لا يقارن من الدعارة، لكن هذا العرف . التسرّي . مشترك مع أعراف مشابهة من ثقافات أخرى.

هذا الكلام نورده بمناسبة المزاد العدائي العلني المفتوح، عند السنّة والشيعة، ضد الرئيس الفرنسي جاك شيراك، الذي أصدر قراراً بمنع الرموز الطائفية في المدارس العامّة والدوائر الرسميّة (مثل تونس)؛ وكان خامنئي، المرشد العام الأعلى لما يسمّى بالجمهورية الإسلامية في إيران، أحد أبرز القائمين على هذا المزاد. وكالعادة، راح هؤلاء، وهم الأكثر خبرة في التطبير(*)، يندبون الأخلاق التي أطاح بها القرار العلماني الفرنسي، ويتباكون على حقوق الإنسان التي تهدر على مذبح الكفّار الفرنسيين.

حقيقة الأخلاق في الجمهورية الإسلاميّة:

في حديث لهيئة الإذاعة البريطاني، يوم الأحد 2001\12\9، قال الدكتور علي سيّاري، إن عدد المصابين بفيروس الإيدز في إيران تجاوز 15 ألف شخص، وهو يمثّل ستة أضعاف عدد المصابين به قبل خمس سنوات. (نحن الآن على أبواب عام 2004). وأكمل هذا الرجل؛ يقول: إن زواج المتعة جعل مكافحة هذا المرض صعبة حيث يجيز القانون للرجال الزواج من أكثر من امرأة ولأوقات مختلفة؛ وهو ما يساعد على انتشار الأمراض التناسلية، ومنها الإيدز. من ناحية أخرى، ففي مجلّة الشراع (عدد 684) التي يملكها شيعي لبناني، نسب إلى رفسنجاني، رئيس إيران السابق قوله، إن في إيران أكثر من ربع مليون لقيط بسبب زواج المتعة، وإن مدينة مشهد، التي يقدّسها الاثناعشريون، أضحت مدينة المتعة الأهم في الشرق الأوسط الإسلامي.

من ناحية أخرى، قال رئيس منظمة السلامة الاجتماعية الإيرانيّة، محمد رضا راه جمني، إن ثلاثة بالمئة من سكان إيران (خمسة بالمئة من البالغين) مدمنون على المخدّرات حاليّاً، وإن أربعة أطنان من الأفيون تستهلك يومياً في البلاد. دون أن ننسى الإشارة إلى دور حقن تعاطي المخدّرات في نشر الإيدز عموماً.

إذن، ليس ثمة مبرّر للخامنئي، قدّس سرّه (لا أعرف ما تعنيه هذه العبارة: لكنهم يرفقونها باسمه دائماً في أحياء السيدة زينب والأمين والجورة وجعفر الصادق في دمشق) كي يقوم بدور العدادة . النواحة . الردّاحة . الردّادة ضد هذا الفرنسي المزعج، فالوضع الأخلاقي في فرنسا بريجيت باردو وصوفي مارسو وإيزابيل أدجاني، حيث يمارس الجنس ببراءة ودون تفلسف أو أكاذيب مقدّسة، في اعتقادي على الأقل، أفضل بما لا يقارن من مثيله في إيران الملالي، مسوقي فلسفة المتعة وغيرها من أنواع الدعارة المؤدلجة.

حقيقة الحجاب:

لقد أضحى الإسلام، هذه الأيام بشكل خاص . وكأنه تنقصه الفضائح . سلعة استهلاكيّة فاسدة يعمل على ترويجها عاهرات سابقات، من بقايا عجائز الفن والصحافة اللواتي أكل الدهر عليهن وشرب بحيث لم يبق في القصر العامر سوى بوم ينعى الخراب، من أمثال سحر حمدي وصافيناز كاظم؛ وهؤلاء اعتدن على الأضواء، فماذا يفعلن بعد أن انتهى الطلب (باللهجة اللبنانية؛ نقول: الركّ) عليهن وصرن من ملاك المتاحف؟ الافتاء!!! نعم!!!! مثّل عمرو خالد (بوي جورج المشايخ) تماماً!!! فجأة اكتشفن أن الله، ببابه المفتوح دائماً، للعجوز الشمطاء كما للصبيّة الفاتنة، للطاهرة كما للعاهرة، هو الحل: فهجمن عليه. كيف؟ يعملن مفتيات، ينافسن سيّد طنطاوي (بالمناسبة، كما ذكر لي صديق إعلامي أجرى لقاء معه، فهو ليس أفضل من سحر حمدي) فتلاحقهن كاميرات محطّات النفط الفضائية ويحافظن بالتالي على شعورهن بأن الزمن لم يرفسهن بحافره الأيمن. لكن الإفتاء ليس كالتمثيل أو الرقص أو صحافة الست صافيناز! إنه بحاجة إلى بعض التفقه في بعض الأمور. وما همّ هؤلاء من التفاصيل: تكفيهن موضوعتا الحجاب والإرهاب أساساً لكلّ العلوم الشرعية. وإذا كنّا عالجنا موضوعة الإرهاب غير مرّة في أكثر من كتاب ولقاء تلفزيوني، لا بأس أن نتوقف الآن لبعض الوقت لمعالجة موضوعة الحجاب، مع العلم أني لا أستطيع التطرّق إلى أي شأن إسلامي بجدّية أبداً. فما هي حقيقة هذا الحجاب الذي يرفعونه قميص عثمان كلما لاحت لهم الفرصة؟

خامنئي ، كتقوي من الدرجة الأولى، يعرف تماماً أن الحجاب المنتهكة حرمته مسألة طبقية لا دينيّة؛ ولأن خامنئي يعرف ما نقوله جيداً، فكلامنا . نعيد من جديد . موجّه أولاً لمنظّرات التحقير الذاتي اللواتي يملأن بنقيقهن هذه الأيام محطات النفط الفضائية، وثانياً للغوغاء الإسلامي، الغالبية الساحقة التي تتهيج بحدّة نادرة وهي تتأمّل هؤلاء المنظّرات وهن يدافعن بذكريات شبق واضح عن إلههن المكتئب من منظر مسلماته حين يخلعن حجابهن. بالمناسبة، فإن الفقه الإسلامي يلتقي بقوة مع أفلام البورنو في أن الطرفين يتعاملان مع المرأة على أنها جسد (متاع) ليس إلا!!

****

كما تخبرنا كتب التاريخ، فإن أهل المدينة "المنورة" كانوا، وهذا في أيام النبي والصحابة، عديمي الأخلاق عموماً! وكانوا ينزون على النساء، بمناسبة ودون مناسبة! لذلك شرّع الإسلام الحجاب للتمييز بين الحرّة والأمة، حتى لا ينزو أولئك على الحرّات. ولمّا حاولت الإماء الهرب إلى الحجاب للتخلص من مضايقات رجال الإسلام الأوّلي، كان عمر بن الخطّاب لهن بالمرصاد، فكان إذا رأى أمة محجّبة يضربها بدرّته الديمقراطية الشهيرة على رأسها؛ قائلاً: فيم الإماء يتشبهن بالحرائر؟ حتى يسقط حجابها! ووصل الأمر إلى درجة أن الإمام مالك (هذا الرجل لم يكن يرغب قط بامتهان الفقه، بل الغناء، خاصّة بعد ما حوّل الأمويون المدينة المنورة، بعد وقعة الحرّة الشهيرة، من مركز علوم دينية ومعارضة سياسية إلى كازينو لتصدير المطربات والمطربين إلى دمشق، على يد عبد الله بن جعفر "الطيّار" غالباً، لكن أمه . أم الإمام لا ابن الطيّار . الفاضلة، التي أنجبته بدورها بعد سنوات من وفاة

الوالد، ارتأت عليه العمل في مجال الدين، لأن دمامة شكله لا تساعده على أن يكون مطرباً هامّاً) اعترض على عرض الجواري شبه عاريات قرب الحرم أو المسجد النبوي!!!

جاءت مرحلة المذاهب، وتم التشريع بنص رسمي لا تأويل فيه لمسألة الحجاب: عند المذاهب الخمسة، عورة الحرّة كامل الجسد عدا الوجه والكفين (ابن حنبل تشدّد أكثر)، وعورة الأمة ما بين السرّة والركبة. وإذا ما عرفنا أن أمير المؤمنين المتوكّل على إلهه العباسي، كان يمتلك ألوف الجواري وأربع نساء، مثله مثل كثيرين غيره، يمكننا أن ندرك عمق تحجّب مجتمع الخلافة الإسلامية والتزامه الأخلاقي: إن من يقرأ ما كتب عن بغداد هارون الرشيد والأمين والمعتصم، على سبيل المثال، يشعر وكأنه في البيغال أو سوهو!!! إذن، الحجاب في الإسلام طبقي، للتمييز بين الحرّة والأمة، لا ديني! ومعظم إماء ذلك الزمان، لمن لا يريد أن يعلم، كن من المسلمات. الحجاب، برأينا، في هذا الدين المحتقر للمرأة، الذكوري بلا منازع، جاء لتلبية أعمق غريزتين عند الإنسان الذكر: أي، التملّك والجنس. فالزوجة الحرّة المحجبة التي لا تراها الشمس، أفضل طريقة لإشباع غريزة التملك الذكوريّة، والأمة العارية شبه العاهرة، المتفننة في كافة جوانب الإثارة، الوجه الأكمل لإشباع غريزة الجنس الذكورية. وفي الحالتين المرأة أداة. متاع.. والبقية تأتي!!!

وإذا كانت الدول المتقدّمة أجبرت المسلمين، نظريّاً على الأقل، على إلغاء الرقّ بأنواعه، فإن الحجاب لا بدّ أن يزول آليّاً بزوال مسبباته.

حقوق الإنسان في إيران:

حين أشير إلى إيران حصراً في هذا النقاش الذي لا يخلو من حدّة، وأتغاضى بالمقابل عن تفوهات شيوخ النفط الخليجيين في المسألة ذاتها، فهذا لأني أحترم فارس العظيمة، بتراثها الثقافي الفلسفي المعرفي الهائل، بعمقها الحضاري الضارب في أعماق التاريخ، بزرادشتها الذي أعطى البشرية كثيراً من قيمها: إيران بالنسبة لي شعب ورث بنى ثقافية لا حصر لها، وإن كان يعيش اليوم سحابة صيف الملالي السوداء المزعجة، ولا سبيل لمقارنته بكمشة البدو المجدّرين، القابعين فوق نفط لم يكتشفوه أو يستخرجوه، والذي يبيعونه للغرب ليشتروا بثمنه أسلحة وورق يطبعون عليه فتاوى القتل والإرهاب ويدفعون لراقصات وصحفيات بدايات القرن الماضي أثمان فتاويهن القيمّة!

ملاحظة:

(رغم كلّ شيء، فالمقارنة بين الذين يسوّقون الإسلام عند الطرفين الشيعي والسنّي، خاصّة بعد دخول الست صافيناز كاظم والأخت شمس البارودي والإمام حسن يوسف والفقيهة سحر حمدي وأم المؤمنين زيزي مصطفى والعلاّمة سهير البابلي وبوي جورج العرب ساحة الدعوة عند السنّة، تجعل الشيعة أقل جدارة بالتسفيه!!)

خامنئي يتباكى على الديمقراطيّة في فرنسا!!! لو ذات سوار لطمتني!!! خامنئي يتهم العلمانية الفرنسية بالإساءة إلى حقوق الإنسان والتعدي على الخصوصيّات!!! فما هي حال الإنسان وحقوقه في إيران؟؟؟

إذا كنتَ بهائيّاً، أو من جذور بهائية، فمن الأفضل لك أن لا تزور إيران، لأنك ستقتل مباشرة: لماذا والدلائل الماورائية على "حقائق" مطلق دين لا تتعدّى حدود الظنون؟ لأن إيران دولة ديمقراطية تؤمن بحقوق الإنسان. الأمر ذاته ينسحب على أعضاء حزب توده الشيوعي الإيراني الذي دعم بقوّة انتفاضة الخمينيين ضد حكم الشاه؛ وإذا كنت غير شيعي إثني عشري فلا تراود لك نفسك الترويج لفكرك في إيران؛ لأنك إن لم تقتل، فسوف تطرد من البلد بعد أن تعذّب وترى ما هو أصعب من القتل؛ وإذا كانت فرنسا العلمانيّة قد حظرت الحجاب في مدارسها العامّة، فهي لم تحظره في البيوت أو الشوارع أو المدارس الخاصة بالمسلمين؛ لكن ما هو وضع المرأة غير المسلمة أو العلمانية من جذور إسلاميّة، من جهة حرية اختيار اللباس، في إيران العم خامنئي؟ حتى إذا جاءتهم،

في إيران، ملكة بريطانيا . لا سمح أهورا مازدا طبعاً . فلا بدّ أن ترتدي الحجاب الإسلامي! في الشارع: الحجاب الإسلامي؛ في الأفلام السينمائية حيث النساء تستحم وتنام وتبول: الحجاب الاسلامي؛ في النايت . كلوب: الحجاب الاسلامي؛ لا أستبعد أن نشاهد يوماً أفلام بورنو بالحجاب الإسلامي. وماذا عن حقوق النساء غير المسلمات في إيران، خاصة إذا ما عرفنا أن بعضهن، وأتحدّث هنا عن الزرادشتيات حصراً، هن أصل إيران وفصلها؟ ليذهبن إلى الجحيم: ففهم الملالي لما يعتقدون أنه شرع إله أهم بكثير من حقوق الإنسان وما إلى ذلك من الترّهات!!!

لكن القرضاوي، الشيخ النفطي غير المشتعل، ساهم بقوّة في الحملة الصليبية على شيراك! نحن لا نقف عند هذا الرجل لأننا لا نقبل بنقاش من هم دون السويّة أخلاقيّاً ومعرفيّاً!!

بقي أن نقول، إن الأوانس المتضرّرات من القانون الفرنسي كلّهن من أصول غير فرنسيّة، وكلهن يكرهن الغرب الكافر والعلمانيّة والاستعمار؛ فلماذا لا يعدن إلى بلداهن الأصليّة المتضوّرة جوعاً كي يعشن النعيم على الأرض؟ ثمّة حل آخر أكثر عملانيّة: لما لا تستبدلنا سوريّا، التي تنتشر فيها القبيسيّات وكافة أصناف منظرّات التحقير الذاتي كالنار في القش، بسكوت وربما بتحريض من بعض القائمين على الأمر، كأقليّة علمانيّة أو غير إسلاميّة، بتلك النسوة المعانيّات في فرنسا، خاصّة وأن ما يجمعنا مع شيراك أكثر بما لا يقارن مما يجمعنا مع خامنئي ومن على شاكلته.

(*) "التطبير" لفظة اختص بها الشيعة، وهي تعني عمليات جلد الذات التي تمارس في الطقوس العاشورائية؛ وللإمام محسن الأمين رسالة في تحريم هذه الممارسة.

nfayyad@mail.sy

****

من يحمينا في بلادنا: الطالبانيون الجدد في سوريّا؟

www.annaqed.com

بقلم نبيل فياض، 23 ديسمبر 2003

لا ينكر أحد أنّ النظام في ما يسمّى بالمملكة العربيّة السعوديّة، التي تنبّأ زلماي خليل زادة بتقسيمها إلى دولتين شيعيّة غنيّة وسنية فقيرة عام 2005، يتخبط الآن ضمن دائرة صغيرة من الإحباطات الخانقة التي لا يبدو أن ثمّة مخرجاً على المدى المنظور منها: الجحيم الذي أدخل السعوديون والوهابيون أنفسهم . والمنطقة . فيه.

تشخيص الأزمة السعودية القاتلة سهل للغاية؛ ولا حاجة بنا إلى الذكاء الخارق كي نضع أصابعنا فوق الجروح النازفة: لا يمكن اجتثاث الإرهاب دون اجتثاث للبنى المعرفيّة المنتجة للإرهاب. لكن الواقع يقول، إن الإسلام عموماً ديانة قامت على الإرهاب ورفض كافة أشكال وجود الآخر المخالف: هل يمكن أن ننسى ما فعله الصحابة بامرأة عجوز اسمها أم قرفة، التي ربطت بدابتين وشقت إلى نصفين، مهما كانت الأسباب؛ وهل نتذكّر حادثة العرنيين الذين قطع النبي محمد أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ورماهم في الحرّ حتى ماتوا، مهما كانت الأسباب؛ وهل ننسى الاغتيال الإرهابي لشاعر يهودي تجرّأ على هجاء النبي ذات مرّة؛ وهل تناسى التاريخ، إذا تناسى الناس، قصّة الجاريتين اللتين كانتا تغنيّان، بأمر من مالكهما، أشعاراً بهجاء النبي، الذي أمر بدوره حين غزا مكّة، أن تقتلا وإن تعلّقتا بأستار الكعبة؛ وهل ينسى أيضاً ما فعله النبي ببني قريظة حين أمر بالكشف عن عانة كل ذكر منهم . النساء، كالعادة، يسبين . فإذا اكتشف أنه أنبت، قتل؛ وهل يمكننا أن ننسى ما فعله المسلمون، بقيادة خالد بن الوليد، فيما سمّي بحروب الردّة، خاصة جريمة قتل مالك بن نويرة، الذي قتله خالد لأنه أعجب بزوجته فاغتصب المرأة ليلة ذبح زوجها وصنع من رأس القتيل إثفية قدر؛ وهل يمكن أن ننسى ما كتبه البطريرك صفرونيوس عن العرب البرابرة الذين غزوا القدس في زمنه؛ وهل سكت الزمان مرّة عن تذكيرنا بأحكام أهل الذمّة ومواقف أسوأ منظريّ الإرهاب في تاريخ الكون، الحاخام ابن تيميّة، من المخالفين له في الرأي بمن فيهم بعض المسلمين؟؟؟

النظام السعودي، منذ نشأته الأولى، بنى كل ادعاءاته بالأولوية على هذا التراث الإجرامي غير الإنساني؛ وغسل دماغ أجيال كاملة من أن دينهم هو دين الله الوحيد وأنهم هم ورثة الله على الأرض ولا يجب في هذه الحالة السماح لغير أتباع إلههم أن يرثوا شيئاً: هل تكفي الإشارة إلى فكرة دار الإسلام ودار الحرب التي سوّق لها النظام السعودي . الوهابي على نحو مملّ؟ بالمقابل، فالمجتمع الدولي لا يمكن أن يقبل الآن بهذه التوافه الإجراميّة خاصة إذا عرفنا أن تأثيراتها القاتلة تكاد أن تطيح بالعالم كلّه. لا مانع لدينا، في أي مكان في العالم، من أن يقفل أحدهم عقله وعينيه ويدعي أن الشمس لا تشرق؛ لكننا سنمانع حتماً أن نجبر على أن نقفل عقلنا وأعيننا كي لا نرى الشمس المشرقة.

مع كل الأزمات التي تكاد تطيح الآن بالنظام السعودي لتحالفه العضوي مع الحركة الوهابية، فهنالك في سوريا من يعيش خارج الزمان والمكان محاولاً بكلّ طاقاته استيراد أسوأ ما أنتجته الوهابيّة على مرّ الزمان، تحت رايات نضاليّة هذه المرة: ونقصد بذلك الطالبانيّة. في سوريّا الآن نوع من التغاضي . إذا لم يكن التحالف . مع تيارات الإرهاب الإسلاميّة على اعتبار أن تلك التيارات قابلة جدّاً للاستخدام ضد كلّ ما هو غربي أو إسرائيلي: فهل يعرف أولئك الذين يستوردون هذه الوحوش، في بلد تعددي للغاية كسوريا، ماذا سيفعلون بوحوشهم في حال تم التوصّل إلى حل سلمي سوري أميركي إسرائيلي؟ هل تساءل أولئك عن مصير سوريّا في حال توقف النضال

الخارجي واضطرار الإرهابيين الإسلاميين البحث عن منافذ جديدة لطاقاتهم المتأججة؟ إن حديث جماعة القاعدة عن توقف استخدام سوريّا كمعبر يعني ببساطة أن سوريا كانت تستخدم معبراً للقاعدة حتى تم إلقاء القبض على بعض القاعديين ومعهم أكثر من عشرين مليون دولار! وهل هنالك قاعديون نائمون آخرون غير أولئك الذين تمّ القبض عليهم، خاصة وأن من يمشي في شوارع حلب أو دمشق لا يفشل في ملاحظة وجود كثير من العناصر ذات المظهر القاعدي من سوريين وغير سوريين؟

هنا لابدّ أن أكرّر أن ما حصل معي في سوريا، ككاتب علماني، من التيارات الإرهابية الإسلاميّة المتحالفة . المتواطئة مع بعض الدولة، يكشف بسهولة هائلة أن الانفجار الذي يحرص بعضهم على تأجيله، قادم لا ريب. ففي مسيرتي الأدبية الفكرية كانت قناعتي أن مواجهة البنى المعرفية الإرهابية لا تكون بالسيف والبندقية: بل بكشف الأصول المتداعيّة لهذا التراث الذي يدعونه بالمقدّس. من هنا كانت نقاشاتي مع بعض رجال الدين السوريين وردودي التي أعتقد أنها موضوعية على ما طرحوه من آراء. حتى جاء النجاح المدوّي لأحد أعمالي، "يوم انحدر الجمل من السقيفة"، الذي طبع في دمشق ست مرات في خمسة أشهر! ولأن المشايخ أفشل من أن يردّوا موضوعيّاً على ما قدمته من آراء استندت كلها إلى تراثهم المقدّس أو نصف المقدّس، فقد لجأوا إلى خيولهم الطرواديّة ضمن النظام لمنع العمل: وهذا ما كان.

عام 1996، اتفقت مع بعض الباحثين الألمان (حتى لا يتعب أحدهم ذاته، فنحن نشترك جدّاً مع الغرب الكافر في معظم منظومةِ قِيَمِهِ) على القيام بمشروع ثقافي مضمونه ترجمة أعمال سورية لبنانية هامة إلى اللغة الألمانية، وترجمة أهم الأعمال الاستشراقيّة الألمانية إلى اللغة العربية. بل قمت مع اثنين من الباحثين الشبان الألمان، ميشائيل موترايش وشتيفان دانه، بترجمة أحد أعمال الباحث الشهير يوسف هوروفيتس، رحلة محمد السماوية (نشرناه تحت عنوان: حكايا الصعود)، ومن بعده الفصل الأول من كتاب هاينريش شباير، الحكايا الكتابية في القرآن (نشرناه تحت عنوان: القصص الديني) إضافة إلى عمل بحثي بعنوان نيتشه والدين. ولمّا كانت أعمالي تنفّذ كلها في جونيه، واحة التنفّس الوحيدة في شرق أوسط التلوث، فقد ارتأى بعض الأصدقاء أن ألتقي الحاكم الفعلي لكل ما هو فكري . ثقافي . معرفي في سوريّا: الرفيق أحمد ضرغام، رئيس ما يسمّى بمكتب الإعداد القطري. وكنت موقناً، لسذاجتي، أن اللقاء سيكون فرصة هامّة لتبادل الرأي حول مشروعي الثقافي الذي كنت أعتقد أنه هام. لكن الحقيقة أن الرفيق البعثي أحضر لي بعد قدومي إليه مباشرة الرفيق البعثي الآخر، بشير نجّار، الذي كان وقتها رئيس المخابرات العامة في سوريا! (لمن لا يعرف، مات هذا الرفيق في السجن بتهم فساد أقرب ما تكون إلى روايات كافكا!) ولمّا أفهمت الرفيقين أني لا أستطيع العمل في المجال الاستخباراتي (لا أمتلك هذه الموهبة العظيمة)، تمّ الاتفاق على منع أعمالي كلّها، حتى وإن كانت، كما قلت ذات مرّة، في امتداح العظمة البعثيّة. ولمن لا يعرف أيضاً، فإن الموافقات على الكتب التي حزت عليها في سوريّا، لم تُعطَ لي إلاّ حين وضعت أسماء مؤلفين غيري على أغلفتها، وأخص منها بالذكر: النصارى، حكايا الصعود وحكايا الطوفان, بل أن كتابي المترجم عن بولتمان، المسيح والميثولوجيا، منع من قبل الرفيق أحمد ضرغام حين وضعت اسمي عليه، وحين أعدت الكتاب ذاته (النسخة ذاتها، فقط بدّلتُ اسم المترجم من نبيل فياض إلى أمية نصوّر) نال الكتاب موافقة مباشرة من هذا المكتب الإعداد القطري. هنا عرفت أن اسمي عند بعض الرفاق صار أكثر إزعاجاً من اسم شارون؛ هذا إذا كان شارون مزعجاً لهم أصلاً. وعرفت أكثر أن حقوقي، كمواطن سوري، هي أقل بكثير من حقوق أي حاخام من الذين كانوا يصلّون يوماً في كنيس الافرنج قرب شارع مدحت باشا الدمشقي.

ولأني، بكلّ أسف، أحمل بكالوريوس صيدلة، ارتأيت في هذا الجو الضرغامي الخانق أن أعمل في مجال الدواء! وهنا كانت الفاجعة. قبل أن آخذ الرخصة بافتتاح المحل في إحدى بلدات ريف دمشق المسمّاة بالناصريّة، والتي

كانت ضمن أملاكنا كإقطاعيين سابقين . وأنا أفخر بهذا رغم أنف الإعلام السوري الذي عمل كلّ ما في وسعه لتشويه صورتنا . تفاجأت بشيخ يدعى راتب خضرة (فشل جامعيّاً وحامت حوله التهم حين اشتغل عاملاً في محطة بنزين فالتجأ إلى الله لغسل شبهاته) يرسل بعض البسطاء إلى مكان عملي مهددين بالويل والثبور إذا لم أغادر قريتهم المؤمنة فوراً!!! فهم لا يقبلون بوجود الكفّار في تلك الناحية المسرفة في انغماسها الأخلاقي!!! وبعدها بستة أيام، وكنت أعمل ليلاً، جاءني مجموعة من الملثّمين وهدّدوني بالقتل إن لم أغادر المكان فوراً. اتصلت بالأمن السياسي فرع ريف دمشق، وكانت النتيجة أن الشيخ الذي تهجّم على مكان عمل رسمي لم يوقف للحظة واحدة، مع العلم أن من يطلق النار في فرح في سوريا يوقف أمنيّاً لفترة لا تقلّ عن أربعة شهور. وقيل بعدها إن التيار الوهابي، بإمكانياته الماديّة الهائلة وعلاقاته الأخطبوطيّة، استطاع إخراج الشيخ الوهابي كالشعرة من العجين إلى درجة أن مدير الناحية التي نتبع لها، واسمه أحمد الزعبي (طرد من عمله لاحقاً بتهمة تهريب دخان!!!)، أتلف حتى ضبط الشرطة الذي فتح بحق شيخنا الجليل.

بعدها بفترة قصيرة، قامت مجموعة من العاطلين عن العمل، بالتعاون مع ضابط في الأمن الجوّي (علوي، لكنه، ككثيرين في هذا الوطن، ضعيف تجاه النقود) بتلفيق تقارير (مسألة أقل من عادية في الوطن) تفيد أني معاد للنظام، وكانت حبكة توقيفي متقنة إلى درجة لا توصف: لكن خطأ ارتكبوه أدى بأصحابه إلى السجن!!!

نحن نعيش في سوريّا على حد الخنجر: فمن جهة بعض المسؤولين الذين لا همّ لهم سوى تجميع أوراق النقد، ومن جهة، الوهابيون الذين لا همّ لهم أيضاً إلا تصفيتنا بكل ما أوتوا من قوّة ومن نقود.

لا أنكر أني صرت أتمنى مغادرة هذا البلد إلى أي مكان في العالم: دون استثناء. العمر يضيع يوماً فيوم بين التوتر والإرهاب والخوف من الموت أو الاعتقال في أية لحظة. ولا أملك هنا سوى التمني على هذه الدولة التي تكاد أن تنفجر من ولعها بالحركة الوهابيّة، أن تحاول استبدالنا، كأقليات علمانيّة أو مسيحية أو ما شابه، بأولئك الإسلاميين الذين يملأون ساحات أوروبا وأميركا، خاصّة وأننا متهمون . والتهمة ليست غير صحيحة . بالانتماء الفكري إلى الغرب: والإسلاميّون يريدون العيش في ظل عمائم طالبانيّة، وليس أفضل من حلب أولاً ودمشق ثانياً، وطنين طالبانيين من الدرجة الأولى.

نبيل فيّاض، الناصرية.

دمشق.. عاصمة الوهابيين: إلى أين؟

بقلم: نبيل فياض
www.annaqed.com

في حين تحاول المملكة السعودية اليوم التخلّي بكلّ قوتها عن الوهابيّة، الشيطان الذي ربّوه لاستخدامه في تدجين الشعوب ومحاربة الشيوعيّة المنهارة فاستدار بعد انتصاره في كابول إلى أولياء أمره لالتهامهم، تحاول الآن دمشق، بكلّ قوتها، انتحال دور الأمّ الشرعيّة لهذه الحركة الأصوليّة سيئة السمعة التي بات الآن يكرهها الجميع.

في الستينيات قبيل وصول البعثيين للسلطة، خاصة بعد انتهاء الكابوس الناصري الإرهابي من ليالي دمشق وأحلام فتياتها، كان الهم الوطني هاجس الجميع، وكانت الديمقراطيّة في بلد الأعراف التعدّدية الراسخة، مع ظهور ما سمّي بحقبة الانفصال (ليس دون لمز وغمز) التي كانت بحق الزمن السوري الأجمل، تتلمّس طريقها برسوخ إلى قلوب الناس وعقولهم.

كانت أيام!!!

كانت سوريّا وقتها، وهي . مع لبنان طبعاً . الوحيدة من بين البلدان الناطقة بالعربيّة المليئة حتى التخمة بأعراف الاعتراف بالآخر المخالف، مؤهلة ربما كي تكون ماليزيا أو كوريا الجنوبيّة غرب آسيا؟ فما هو الخطأ الذي أحال الغوطة إلى قطعة من الربع الخالي؟

مسيحي سوري؛ مسلم سوري؛ يهودي سوري؛ زرادشتي سوري؟

في بلاد شمال إفريقيا الناطقة بالعربية عدا مصر، كان الناس يستغربون حين كنّا نحدثهم عن وجود سوريين . من أهل الوطن وليسوا مبشرين غربيين . غير مسلمين أو سوريين من غير أهل السنّة والجماعة! فالعروبة في أذهان الغالبية الساحقة من الناطقين بلغة الضاد لا تعني غير الإسلام بشكله المتعارف عليه! لكن سوريّا، بلغة الواقع والطبيعة، كانت مختلفة.

للذين لا يعرفون ذلك، فالسوريون كانوا، قبيل الغزو العربي البربري لبلاد الشام، سادة الأعراف الثقافية في العالم القديم. . كان عدد الكتّاب السوريين باللغة اليونانية يكاد يوازي في القرون المسيحيّة الأولى عدد من يكتبون بها من المثقفين في الوطن الأم، اليونان. وكان الفكر اللاهوتي المسيحي، خاصة في القرون الثالث والرابع والخامس، متألقاً على يد السوريين: كانت سوريّا، بحق، ألمانيا العالم القديم. فالفكر اليعقوبي المونوفيزي، أخذ اسمه عن راهب سوري عظيم اسمه يعقوب البرادعي؛ مار مارون، مؤسس الرهبنة المارونية، التي بدأت مونوتيلية وانتهت بالكثلكة، كان سورياً من حلب؛ بولس السميساطي، مستشار زنوبيا وأبو المادية المسيحية، سوري؛ رغم أن الخلقيدونية لم تكن سورية، فالسوريون ساهموا بقوّة في اللاهوت الخلقيدوني مثل ثيئوذيتيوس؛ بل إن آريوس، المفكّر البارز في تاريخ الهرطقات المسيحيّة، كان تلميذاً للوقيانوس الأنطاكي. و باعتراف الإنجيل ذاته، فالتلاميذ دعوا للمرّة الأولى مسيحيين في أنطاكية، عاصمة سوريا المسيحيّة وسائر المشرق. من ناحية أخرى، فالهرطقة المسماة بالنصرانية، كما أشرنا في كتابنا النصارى، ترسخت في عاصمتها المسماة بويريا، الواقعة جنوب أنطاكية وشرق اللاذقية.

في ضاحية دمشق المسمّاة جوبر، أقدم كنيس قائم في العالم: كنيس إلياهو النبي! الآن انتهى الوجود اليهودي من حارتهم قرب باب توما؛ مثلهم أيضاً مثل الأزيديين الزرادشتيين، سدنة العبادات السورية القديمة، الذين يتركون

قراهم وبلداتهم، بشكل مضطرد إلي ألمانيا الباحثة عن تعددية وإن كانت مصطنعة. وفي حارة الزيتون الدمشقية القديمة انتهى وجود اليهود القرّائين، وفي برج الروس القريبة لم يعد للسامريين أثر.

كان غزو العرب المسلمين للبلد عنيفاً ودموياً ومفعماً بالإرهاب: صارت دمشق، التي كانت عاصمة الثقافة واللاهوت المسيحيين قبل الغزو، موئلاً لغباء ثلة من البدو لم يتركوا للتاريخ الحضاري الإنساني غير كمشة أشعار تافهة وحكايا قيان وجوار وخلفاء يذبح واحدهم الآخر في سبيل الملك. . مع ذلك فقد كان حظ سوريّا كبيراً في أن ثلّة البدو التي دخلت دمشق بعد سقوط بيزنطة فيها كانت من الأمويين؛ فهؤلاء كانوا، كما يشهد على ذلك تاريخ أمراء مؤمنين من نمط يزيد بن معاوية وهشام بن عبد الملك والوليد الثاني، حكّاماً باسم الإسلام: لم يكونوا مسلمين قط. باستثناء عمر بن عبد العزيز، الذي تقول الروايات إنه مات مسيحيّاً في أحد أديرة الخلقيدونيين .

دير مار سمعان قرب معرة النعمان. ولأن الأمويين لم يكونوا يقبضون الإسلام عموماً، فقد تركوا مساحة لا بأس بها للفكر الآخر كي يتنفّس: فلم تنته من التراب السوري التيارات الأخرى غير الإسلاميّة، وإن كان الزمن لعب الدور الأسوأ في تاريخ التعدّدية الثقافية في البلد، خاصة مع حقبة الاستعمار العثماني الذي جثم على صدر بلاد الشام أكثر من أربعمئة عام، كانت كافية للوصول بها إلى تخوم الانهيار المعرفي.

(كلّما تخيّلت أن يكون الطالبان أو القبيسيّات مكان بني أمية؛ وأن يكون بن لادن أو الشيخة منيرة القبيسي أو أحمد منصور مكان حبيبي وسيدي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، تنتابني رعشة خوفاً على قطعة الفسيفساء الإثنية . الدينية الدمشقية الرائعة التي وصلت إلينا من الأمويين).

ولأن سوريّا كانت راسخة المعالم ثقافيّاً، فناسها الذين اعتنقوا الإسلام لسبب أو لآخر لم تستطع أنوفهم تحمّل رائحة الإسلام بشكله الرعوي البعيد عن المدنيّة، فقد تمثّلوه وأعادوا إفرازه بما يتلاءم مع البيئة الزراعية الشاميّة: وهكذا، فسوريّا تنفرد اليوم، بين الدول الناطقة بالعربية، كما أشرنا، باحتوائها مذاهب إسلاميّة متعدّدة ذات جوهر فلسفي، بعيدة عن روح البداوة التي ميّزت على الدوام مذهب السنّة: الاسماعيليون أولاً؛ العلويون؛ الدروز؛ المرشديون..

اللوحة الجميلة.. محطمة:

هذه اللوحة الحضارية الجميلة، التي تناقلها السوريون عبر قرون، تقبع الآن على شفا التحطّم! لماذا؟؟؟ اسألوا البعثيين!!!

مع وصول هذا الحزب الطليعي إلى السلطة، خاصة أثناء حكم أمين الحافظ (حتى الآن لا أفهم كيف استطاع السوريون تحمّل غباء هذا الكائن)، وبزوغ نجم الطائفيّة بقوّة، بدأ التآكل يدبّ في أوساط اللوحة. صرنا نسمع مع مَقدمِ هؤلاء التقدميين مقولات علوي وسنّي؛ درزي وإسماعيلي؛ مسلم ومسيحي.. لكن الهاوية الكبرى التي دك حزب البعث سوريّا في دركها الأسفل، هو تغييب الديمقراطية. وفي اعتقادي أن تغييب الحافظ وزمرته للديمقراطية كان بهدف موضوع سلفاً هو التصرّف بالوطن وفق أهوائهم دون حسيب ولا رقيب؛ ورغم أنف الذين سوقوا الحافظ قبل أشهر . العبقري أحمد منصور الذي أقام هذه المومياء من بين الأموات ووطأنا بالموت . في الجزيرة، يبقى تاريخ هذا الرجل، خاصة الأخلاقي (مع رباحه الطويل جدّاً) وصمة عار في تاريخ سوريا.

ودون دخول في مزاودات فارغة لأن القائمين على ما يسمّى بالإعلام في النظام السوري الحالي يمنعون أي كتاب لي ولو كان في امتداح عظمة البعث، فقد حاول الرئيس حافظ الأسد (دون مواربة، فقد كان شعوري بالأمان غامراً في حياة هذا الرجل، رغم كلّ محاولات الأصوليين الإساءة إلي على الدوام) التأسيس لنوع من الديمقراطيّة البدئية: فماذا كانت النتيجة؟ استغلّت جماعات الإرهاب الإسلامي الفرصة، وراحت تنتشر بسرطانيّة مخيفة بين صفوف السنّة السوريين: لم يكن لدى هؤلاء برامج عمل أو طروحات سياسية أو مشروع لتداول

السلطة بشكل ديمقراطي . كان كل ما في جعبتهم هو أن النظام علوي كافر ولابدّ من تغييره بقوة السلاح. وهكذا، كان لا بدّ للنظام أن يردّ بالمنطق ذاته والسلاح ذاته والعقليّة ذاتها: ودفع الشعب السوري غالياً ثمن غباء الأخوان وردّة فعل النظام:

ماتت الديمقراطيّة المأمولة قبل أن تولد؛ وحلّت محلّها لاحقاً تركيبة لا علاقة لها بالديمقراطيّة عبر ما سمّي بالجبهة الوطنيّة التقدميّة (لا أدري من اختار لها هذا الاسم، خاصة إذا ما عرفنا أن بعض الوطنيين التقدميين في هذه الجبهة يمتلك أسطولاً من نساء لا تراهن الشمس وربما ينافس المرحوم ابن باز في التزامه) التي لا يعرف مواطن سوري عدد أحزابها أو أسمائها، والتي ينقسم فيها ما يسمّى بالحزب الشيوعي، كالبارميسيوم، كل موسم، أملاً بمكاسب جديدة، والتي يمكن وضع بعض أحزابها، بقاعدته الشعبية العريضة ومكتبه السياسي، في سيارة فولكسفاغن واحدة.

امتلأ حزب البعث حتى الثمالة بالانتهازيين والهاربين من تهمة الأخونة واللصوص الراغبين بشكل للحصانة إلى درجة أنه يمكن القول إن البعثي، بالمفهوم العقائدي لهذا الحزب، صار نادر الوجود: شخصيّاً، لم ألتق قط بعثيّاً بالمعنى الذي أفهمه للبعث في أدبياته ونظامه الداخلي.

غياب العمل السياسي عن الساحة السوريّة، والإنسان مليء بالطاقات الفكريّة التي تبحث عن أي متنفّس لها، أدى بمراكز أخرى، ذات صبغة معرفية، أي الكنائس والمساجد وما شابه، إلى احتلال الساحة . من ذا الذي يجرؤ على إقفال مكتب الله السياسي؟!

وهكذا انقسم الوطن، باستثناءات نادرة، إلى أقليّة بعثية ذات طابع انتهازي مكروه (لعب الإسلاميون الدور الأهم في زيادة تشويه حزب البعث، خاصة منظماته الشعبية: هل يمكن أن ننسى التهم الشنيعة التي كانوا يتداولونها بحق شبيبة الثورة والاتحاد النسائي على وجه الخصوص)؛ وغالبية طائفيّة أصولية يسيطر عليها وكلاء الله على الأرض، تعمل بوعي أو دون وعي على إعادة البلد إلى عصر الانحطاط بكافة السبل.

سيطرة القوى الأمنيّة على مقدّرات الوطن، مع ما يستتبع ذلك من إطلاق يد بعض الضباط للتصرّف في موضع عمله باعتباره ملكاً شخصيّاً له، بناسه وأرضه، وما أدى ذلك إلى تجاوزات قاتلة بحقوق الإنسان وكرامة المواطن.

ولأن الأخوان اختاروا النغمة الأسهل للسيطرة على الشارع . تكفير الحكّام باعتبارهم علمانيين أوّلاً وعلويين ثانياً . فقد اختار النظام أن يرد بأسلوب رجعي . مع أن الفرصة كانت مواتية تماماً لإعلان علمانية الدولة وإنهاء أية وضعية طائفية مرضية . تجلّى في مزاودة أصوليّة من قبل النظام على الأخوان جعلت الوطن كلّه يعيش كابوس رالي تخلّف ديني تأوج في الحالة الوهابيّة الطالبانية التي تعيشها سوريا الآن.

الوهابية الطالبانية: هل نحن نبالغ؟

سنتهم بالمبالغة طبعاً: بتشويه سمعة الوطن الغالي الذي يعمل إعلامه الفاشل على تسويقه باعتباره (مازالوا حتى الآن يستخدمون في الإعلام السوري المرئي بخاصة . المقروء غالباً لا يقرأ . المفردات الإنشائية التي كانت تستخدم زمن المرحوم عبد الناصر والتي يقصر استعمالها في دول العالم الثالث على طلاب الصف الرابع الابتدائي في مادة الإنشاء) مهد الحضارة ولحدها. لكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن التنظيمات الأصولية الإرهابية صارت التهديد الفعلي لمستقبل الوطن القريب جداً: إرجاء المصيبة لا يمنعها! إن حركة كالقبيسيّات، التي تضمّ بين جوانبها مجموعة من نساء وقريبات بعض من كبار الرموز، هي أقوى بما لا يقارن من تنظيم رسمي كالاتحاد النسائي! وهذه الحركات الإرهابية الكامنة، التي تسيطر الآن على المجتمع السوري اجتماعيّاً، يمكن أن تنقلب بين عشية وضحاها، كما حصل في مصر، إلى حركات عسكريّة سياسيّة يمكن أن تطيح تماماً

بما تبقّى من الموزاييك السوري. المصيبة، أن لا أحد يريد رؤية الواقع: لا أحد يمتلك رؤيا واضحة لكيفية التعامل مع هذه الوقائع المستجدّة الساعية الى الترسّخ بقوة غير مسبوقة.

ملاحظات حديثة:

كي لا يظل الكلام عائماً بلا ضوابط أو أمثلة، يمكن أن نقدّم الآن أمثلة حيّة عمّا يحصل الآن في سوريّا، ولا يتمّ التعامل معه بالحدّ الأدنى من المسؤوليّة:

في رمضان الماضي، وفي بلدة جرمانا التي يقيم فيها دروز ومسيحيون حصراً (وجود المسلمين غير ملاحظ إلا ما ندر)، قام قاض من المطوعين السوريين الجدد بإيقاف درزي لأنه كان يدخن وقت الصوم في مكتبته!

وفي رمضان الماضي أيضاً، حيث موسم الهيستيريا الدينية يكاد يصل إلى نقطة اللاعودة، قامت قيامة المشايخ على مسلسل كوميدي نقدي سوري تجرّأ . والعياذ بالله . على تناول ظاهرة القبيسيّات المرضية مما اضطر التلفزيون السوري المبجّل الامتناع عن بث حلقة أخرى قريبة في موضوعها تحكي عن شيخ أمثولة يدعى "سلتة".

وبسبب توزيع لا علاقة لي به لعملي النقدي التهكمي المطبوع في جونيه . وطني الفعلي والوحيد . مراثي اللات والعزّى، قام الأصوليون بنشر مقالة تكفيرية من أربع صفحات في شوارع دمشق وحاراتها، تحت مرأى ومسمع التقدميين الأفاضل، الذين لم يحاولوا حتى معرفة مصدر هذا المنشور ومموليه. وحين حاولت البحث عن وطن بديل أعيش فيه دون خوف، تعرّضت للمساءلة؛ بمعنى آخر، يجب أن نبتسم للإرهاب الإسلامي إذا حاول قتلنا كي لا نشوّه بامتعاضنا الصورة المشرقة التي يريد الإعلام السوري تعميمها في العالم.

ملاحظة:

بعد منعي من الكتابة في سوريّا، توجهت للعمل كصيدلاني في منطقة ريف دمشق! مع ذلك، فقد تمّت مهاجمة صيدليتي من قبل أحد رجال الدين من الوهابيين الذين ينتشرون في المنطقة بأكثر مما يمكن تخيّله، ورغم اعتراف الشيخ، فإن أحداً لم يتمّ توقيفه!!! وبعدها بفترة قصيرة، تسلّم الراية من الشيخ الذي لم يُعاقَب طبيبٌ وهابي دفع لبعض العاطلين عن العمل نقوداً كي يكتبوا تقارير للأمن تفيد بأني أتطاول على شخص الرئيس (التهمة التي استبدلت الآن بتهمة الانتماء إلى الأخوان أو الكتائب السابقة التي كانت الأسهل في إيصال المرء إلى السجن) فأرمى بالتالي في غياهب السجون ويقضى علي ماديّاً ومعنوياً، بعد أن حاولوا القضاء علي معرفيّاً بكل السبل الممكنة. ولولا بقية من شرفاء في بعض مراكز القرار السورية لكنت الآن في مكان غير مرغوب كثيراً.

خرافة ديمقراطية الإسلاميين:

أتعب الإسلاميون آذاننا؛ أرهقوا عيوننا؛ زكموا أنوفنا بأسطوانة ديمقراطيتهم المشروخة المملّة؛ فهل هم حقّاً ديمقراطيّون؟ إن التعريف الأبسط للديمقراطيّة، بحسب أحد المرجع؛ يقول: إنها "مشاركة جماهير الشعب في القرارات التي تصوغ شكل حياة أبنائه؛ حكم شرع الغالبية، مع الإقرار بحقوق الأقليّات؛ حرية الكلام، الصحافة، والتجمع؛ حريّة تشكيل أحزاب سياسيّة معارضة وحق هؤلاء في الوصول إلى الحكم؛ الالتزام بكرامة الفرد والفرص المتساوية للشعب من أجل الوصول بطاقاتهم الكامنة إلى أعلى درجاتها". فهل يؤمن هؤلاء بهذا الكلام؟ إذا كان أتفه قاض من الجماعات الأصولية قادراً على سحب أي من أبناء الأقليّات من أنفه إلى السجن (تخيّلوا مثلاً قاض سوري من المطوعين الدمشقيين الجدد وقد التقى السفير الأميركي مفطراً في شهر القرآن: ماذا كان قداسته سيفعل؟ المخصيّون لا يبحثون عن إثبات لذكوريتهم الضائعة إلا في حضور من يشعرون أنهم أضعف منهم) لأنّه أفطر في رمضان؛ فعن أية حقوق أقليّات نتحدّث؟ إذا كان أتفه شيخ قادراً على منع أي كتاب لا يعجبه (كذا) فعن أية حريّة كلام يتحدّثون؟ إذا كانوا يعتقدون أن الله هو الذي أعطاهم شرعهم وأفكارهم وعقائدهم، فهل

يمكن، إذا وصلوا إلى السلطة، لا سمحت الآلهة، أن يعطوها يوماً لغيرهم؟ وتداول السلطة أحد أهم دعائم الديمقراطيّة.

باختصار نقول: إنهم بعد أن أحكموا قبضتهم على رقاب الناس اجتماعيّاً، فهم يريدون الآن، عبر صناديق الاقتراع، أحكام قبضتهم على عنقه سياسيّاً أيضاً.

إنهم يريدون ديمقراطية سياسية لا معرفيّة: الأولى تقوّي سلطاتهم، والثانية تكشف حقائق خرافاتهم ودعاويهم وتفنّد أقاويلهم حول تاريخهم المقدّس وصحابتهم المعصومين ورسالتهم الخالدة.

سوريّا الآن في خطر لا مثيل له: الإسرائيليون وحلفاؤهم من الخارج، والوهابيون ومن لفّ لفهم من الداخل . فهل سنحافظ على هذا الوطن الذي لن يغفر لنا أبداً إذا ضيعناه؟

نبيل فياض، 10 ديسمبر 2003

ما هو الإسلام؟

www.annaqed.com

نبيل فياض

ما هو الإسلام؟

سؤال قد لا تكون الإجابة عليه سهلة! ما هو الإسلام؟

فخلال خمسة عشر قرناً من الانتشار "الأفقي" طوّر الإسلام منظومات معرفية وبنىً أيديولوجية ومعانٍ متعلّقة بالهوية – تختلف بالكامل عن ذلك المحتوى البسيط، شبه البدائي، الذي كان للإسلام الأوّلي. . مع ذلك، فما يزال المسلمون يلحّون عموماً، بإصرار ملفت في سذاجته، على أنهم «بنيان» واحد متكامل . مرصوص، بهوية واحدة، وحقيقة واحدة: الإسلام! وذلك يعاكس بالكامل كل الوقائع التي نتلمسها في أية بقعة من ذلك العالم المترامي الأطراف، الممتد من جاكرتا إلى كازابلانكا . والذي يختلف تماماً عن غيتو "طيبة" الصغير، الذي انطلقت منه تلك الفكرة، التي يستحيل اليوم أن نلمس حوافها الأصلية الفعلية.

وأخيراً.. صار الغيتو إمبراطورية:

كانت ابنة عاقّة، ناكرة للجميل: فما أن أنجبت اليهودية ابنتها الأولى، المسيحية، حتى راحت تلك الأخيرة بدوافع الكراهية المتأصلة بين الأم والابنة منذ اللحظة الأولى تعلن عقوقها على الملأ . ثم تجسّد ذلك العقوق عينياً عبر زواج الابنة من الفكر اليوناني، على يد الكاهن المتهلين، بولس الطرسوسي. لم تعد نصرانية متهودة: صارت مسيحية متهلينة. وفي أنطاكية، إحدى حواضر التهلين في ذلك الزمان، وتحت رعاية الطرسوسي ذاته، "دعي التلاميذ للمرة الأولى مسيحيين"!

وفعل الفكر اليوناني بالمسيحية فعلته:

1. فقد جردها من لغتها الأم، الآرامية . العبرية، وصفّاها من أي تعصّب لغوي، لأنه فكر كوزموبوليتاني: ليس لدينا اليوم حرف واحد في العهد الجديد، كتاب المسيحية المقدّس، إلا باللغة اليونانية . كأصل لكلّ الترجمات المتداولة الآن. وما يُحكى عن نصّ أصلي بلغة غير يونانية لمتى أو غيره، يظلّ . ما دام غير مؤيّد بالدليل العلمي . مجرّد كلام وتكهّنات.

– 2قضى الفكر اليوناني في المسيحية على مقولة الحامل القومي للمحمول الديني اليهودية الأصل والمنشأ. ففي عالم الهلينية المترامي الأطراف، المتعدد الجنسيات (. وأحياناً اللّغات .)، كان لابد للمسيحية أن تتخلّى عن قوقعتها القومية الحاخامية الحادّة، إذا ما أرادت الانتشار وتخطّي كل الحدود. وهكذا، فمنذ البداية الأولى، لم تكن المسيحية قومية: كانت إيماناً بشخص يسوع المسيح كمخلص للذات المؤمنة به . بغض النظر عن جنسية هذه الذات أو لغتها أو لونها أو جنسها.

3. ضمن صيرورة التهلين تلك، تخلّت المسيحية أيضاً عن الشكل اليهودي للألوهة . "يهوه"، الإله الذي لم يسمح لإله غيره بأن يوجد، ولم يسمح أتباعه بالتالي لأتباع إله غيره بأن يوجدوا، هو بالتالي أقسى شكل للألوهة وأكثرها إرهابية وتشرّباً للبدائية والبداوة والصحراوية. وإذا ما أخذنا الحضارية كمعيار لتصنيف مقولات الآلهة مراتبياً، فسوف يحتل يهوه الدرك الأسفل، كإله واحد أوحد، والذي لا تسمح وحدانيته المطلقة الدكتاتورية بأي شكل للتعددية الديمقراطية . والتعددية دعامة الحضارية الأولى. ولا يمكن إطلاقاً مقارنة يهوه هذا بالتعددية الحضارية الديمقراطية لآلهة اليونان أو سوريا القديمة.

"التعددية = ديمقراطية = حضارة؛ الوحدانية = قمع = بداوة".

الإله الأوحد اليهودي وكراهية "الغير" اليهودية وجهان لعملة واحدة . الإرهاب!

مقابل ذلك، فقد اهتدت المسيحية، في بحثها الدؤوب عن شكل للألوهة أكثر مناسبة للكوزموبوليتانية الهلينية ولخروجها الحضاري من الغيتو الحاخامي، إلى تركيبة جمع فيها بين التعددية الإلهية اليونانية الحضارية، والوحدانية الإلهية اليهودية الاستبدادية (. والبدوية .)، فكان أن ظهر للوجود ذلك "الإله الواحد في ثلاثة أقانيم" . لكن الكفة مالت غالباً لصالح التهلين، خاصة مع تبني المسيحية لعلم المصطلحات اليوناني الفلسفي لاستخداماتها العبادية: "أليس يسوع، أساس المسيحية وهيكل كنيستها، وهو اللوغوس اليوناني(1)؟".

****

الابن الوفي:

لقد خرج الإسلام من رحم اليهودية . التلمودية . الحاخامية!

فرغم كل ما قيل أو يقال حول العلاقة بين الإسلام والنصرانية(2) . وليس المسيحية . فالإسلام، في نهاية الأمر، لم يخرج إلا من الرحم الآنف الذكر. لقد أشار غنزبرغ في عمله الشهير "أساطير اليهود" إلى أن القرآن يعرف الهاغاداه أكثر مما يعرف التوراة . إنه ينظر إلى التوراة في الواقع في ضوء الهاغاداه(3). من الجانب الألماني، يطالعنا عمل أ. غايغر الطليعي، ماذا أخذ محمّد من اليهودية Was hat Mohammeds aus dem Judenthume aufgenomen؟ الذي قد يعتبر الأول من نوعه في حقل العلاقة الجوهرية بين الإسلام الأرثوذكسي واليهودية التلمودية الحاخامية. مع ذلك، ففي اعتقادنا أن هـ. شباير هو أفضل من كتب، بتفاصيل وافية، في ذلك الحقل حتى الآن: الحكايا الكتابية في القرآن Die biblischen Erzنhlungen im Quran، هو عمل شباير المحوري، الذي نقدّمه أيضاً، ضمن هذه السلسلة.

فعلى سبيل المثال، في القرآن مئتا موضع تتطابق بالكامل مع مواضع هاغادية مقابلة من التلمود البابلي؛ عشرون موضعاً من الأورشليمي؛ وسبعة عشر موضعاً من المشنا. أما من الجانب الهالاخي . التشريعي، فالتطابق يبدو مذهلاً أحياناً: لاشك أن شاخت، في عمليه الهامين، "مدخل إلى الشرع الإسلامي"، و"أصول الفقه المحمدي"، اللذين يُشار إليهما كثيراً في الهاجريون، قد أوضح ذلك بالتفصيل(4).

بعكس المسيحية، فقد كان الإسلام، في بداياته التكوينية، بعيداً عن الهلينية، جغرافياً وغير جغرافي. وبعكس المسيحية أيضاً، لم يكن بولسَ رسولَ، الشخصية القيادية في الإسلام التكويني، بل عبد الله بن سلام ووهب بن منبه . وكعب الأحبار. لقد تكوّن الجنين الإسلامي في رحم اليهودية . التلمودية . الحاخامية؛ وحين خرج من الغيتو الضيّق إلى عالم الأغيار الواسع، حمل معه تحت جلده غيتو خاصاً به. . فرغم الانتشار الأفقي الشاسع للإسلام الأرثوذكسي؛ رغم الإمبراطوريات الإسلامية التي لم يمكن "لغيمة إلا أن تهطل فيها"؛ رغم مئات السنين من الابتعاد الزماني عن الهيولى القديمة: ظلت الإمبراطورية إمبراطورية . غيتو: غيتو روح؛ غيتو نَفْس؛ غيتو مبادئ؛ وغيتو عقائد. . مع ذلك، تظل نقاط خلاف بين غيتو الرحم وغيتو الوليد ترمي بظلالها غير الضعيفة في لاوعي الطرفين:

بعكس اليهودية، أخذ الإسلام الطابع التبشيري والذي كان بحاجة ماسة له آنذاك (. والآن؟! .) من أجل تضخيم مضطرد لبنيان القوة فيه. وهكذا، كان لابدّ له أن يمتد إلى شعوب وإثنيات ولغات متباينة . لكن الإسلام، بعكس المسيحية هنا، بدل أن يكسر جدران الغيتو الأصلي لإنشاء حضارة عالمية ذات حقيقة إسلامية، أجبر الحضارات على حمل هويته الخاصة وأدخلها بالتالي في "غيتوه" طارحاً أمامها خيارات ثلاثة: إمّا أن تتمثّل قيم الغيتو وعالمه؛ أو أن تعيش داخل جدران ذلك الغيتو معزولة ومقهورة وقابعة في غيتوهات أصغر تضيق باستمرار؛ أو أن تقاتل حتى الفناء. . باختصار: عوض أن يكسر الإسلام جدران الغيتو

كي ينطلق حراً، خالياً من أثر الرحم الأصلية، وسّع جدران الغيتو حتى طوّقت العالم كله تقريباً. "لكنه ظلّ غيتو يهودي الرائحة والطعم والنكهة".

مقابل العبرية، فُرضت العربية على كل من أسلم أو تأسلم لأنها لغة الإله والملائكة والعبادات (ملائكة اليهود لا تفهم غير العبرية وبالتالي لا تستطيع أن تنقل إلى يهوه أية صلاة بغير تلك اللغة؛ وملائكة الإسلام لا تفهم إلا العربية).

مقابل يهوه، الإله الواحد الأحد الذي لا يسمح لغيره . ولا يسمح أتباعه لأتباع غيره . بالوجود؛ كان الله الواحد الصمد غيوراً واستبدادياً في مملكته (أوّل ما فعله محمد حين دخل مكّة كان إزالة الآلهة الأخرى المنافسة من الوجود . وإزالة أتباعها أيضاً من خارطة عالمه: إما بقتلهم أو بإجبارهم على الهروب أو بتركهم يعتنقون ديانة إلهه حتى لو كانوا ضمنياً غير مقتنعين بذلك وحتى لو كان هو ذاته يعرف أنهم منافقون . من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!).

لأن الإسلام خرج أساساً من رحم يهودي، فهو لم يستطع بالتالي أن يُنكر الشكل اليهودي للإله . والنصراني أيضاً. وهكذا كان الله أقل استبدادية من يهوه حيث سمح لليهود والنصارى بالتواجد . كمواطنين بلا درجة . في ظل "ذمّته": دون أن يخلو الأمر، من حين لآخر، من غزوة هنا وإغراء هناك لأتباع هاتين الديانتين كي يهجروا معتقداتهم ويدخلوا في دين الله.

لقد ساعد انتشار الإسلام إلى حضارات وثقافات متباينة في إضعاف تماسكه والإقلال من قساوة قشرته . بعكس اليهودية. وهذا ما أدّى بدوره إلى بروز حركات ثقافية وفكرية بلبوس إسلامي منذ بدايات الإسلام الأولى . وحتى الآن.

****

ما هو الإسلام؟

هل اتفق المسلمون يوماً على كل تفاصيل التراث الإسلامي بكل تناقضاته؟

هل توجد بين أيدينا مواد وثائقية يمكن أن تساعدنا في تكوين صورة مقبولة عن بدايات الإسلام التأسيسية؟

هل كان القرآن، مرجع المسلمين الأساسي، موجوداً زمن النبي، بحاله التي نعرفها الآن؟ وماذا نقول عن تلك الأحاديث في "الصحاح" والتي تتحدث عن شيء من عدم الأمانة في تناقلية النص المقدّس؟ وماذا أيضاً بشأن الحجّاج، الشخصية الأسوأ سمعة في تاريخ الإسلام، والذي يحكى عن دوره في إحدى عمليات تدوين النص القرآني . وكذلك عن بعض تلاعب له في النص، والأمر ليس بمستبعد بالنسبة لشخص على شاكلته؟

وإذا كان هنالك من يقول إن لديه مواداً تاريخية تثبت وجود مواد مكتوبة من هذا النص أو ذاك ترجع إلى البدايات الأولى، فما هو دليله على أن مواده التاريخية موثّقة وقابلة لأن تعتمد؟

مثال بسيط:

لقد عرف عثمان بن عفان في التاريخ الإسلامي بلقب "ذي النورين" . على أساس أنه تزوّج اثنتين من بنات النبي: رقية وأم كلثوم. لكن بين أيدينا الآن دراستان تسحبان بقوة هذا المجد المتداول شعبياً من تحت قدمي عثمان، وترميان بالتالي بظلال قوية من الشك حول السيرة النبوية ككل: الأولى كتيّب لمؤلف إمامي يحمل عنوان "بنات النبي أم ربائبه"، والثانية دراسة لكاتب أعتقد أنه إمامي منشورة في إحدى الدوريات المصرية الإثارية الواسعة الانتشار، وتحمل عنوان "بنات الرسول: من هن؟"(5).

إن كل ما في الإسلام الأولي من تراث مكتوب ظلّ لفترة طويلة بحالة شفوية: ولا نعتقد أن شيئاً دُوِّنَ قبل الحقبة الأموية. والأمويون الذين لم يكونوا مسلمين عموماً، بل حكام باسم الإسلام، لا يوجد ما يمنعهم عن استخدام

وسيلة الحكم هذه لغاياتهم الخاصة، حتى لو تناقض ذلك مع جوهر الإسلام المحمدي ذاته. فهل هذا الإسلام الذي يتداول حالياً في الأسواق والمكتبات والمساجد والتكايا، وعلى جبهات القتال في السودان والصومال وأفغانستان ومصر والجزائر.. هو ذاته تحديداً إسلام محمد؟ ببساطة: لا نعتقد ذلك.
منطقياً، فإن عليّ بن أبي طالب كان الإنسان الأقرب إلى شخص المؤسس؛ لذلك لا بد أن يكون الشكل العَلَوي . رغم مبالغات الشيعة وأساطيرهم التي أساءت كثيراً لهذا الشكل . للإسلام المحمدي هو النسخة الأقرب للأصل. لكن هذه النسخة أبعد ما تكون . أخلاقياً، فكرياً، وإلى حد ما دينياً . عن النسخة الأموية للشكل العمري للإسلام المحمدي: وهي النسخة المتداولة بشدة هذه الأيام.
****

المذاهب:
المذاهب في الإسلام، والتي يمكن تلمس أشكالها الجنينية حتى في الأيام الأولى، مسألة ليست غير مثيرة للتساؤل. فإذا كانت المسيحية قد انقسمت منذ البداية إلى أقلية انقرضت (النصارى) وأغلبية سادت العالم يوماً (المسيحية) بسبب ظهور بولس وسحبه إياها من الغيتو الحاخامي الضيق نحو عالم الأممين الواسع، فإنه لم يكن في الإسلام سحب كهذا. مع ذلك، فالفوارق الأيديولوجية العقائدية بين المذاهب . التيارات الإسلامية، لا تقلّ حدّة عن التناقض النصراني المسيحي. هذا يعني وجود أكثر من منظور للإسلام، كما أشرنا، منذ البداية الأولى. ولقد لعب الزمان، كالعادة، لعبته في بلورة تلك التناقضات عبر تيارات تحصّنت شيئاً فشيئاً خلف عباءة المذهب التي يصعب اختراق خيوطها الماورائية. ولا بأس هنا من الإدلاء ببعض الآراء، كمراقبين خارجيين، بتلك المذاهب وبمنظوماتها المعرفية والفكرية، وهو ما قد يفيد مساعدة القارئ الحيادي في التحضّر لدخول عالم «الهاجريون» الصعب، بأفكار غير ميثولوجية ولا عصبية:

1. المذهب السنّي:

وهو المذهب الأكثر انتشاراً والأوهى أسساً بين كلّ مذاهب الإسلام، خاصة وأنه يتبنى الأشعرية اللاعقلانية اللاسببية كعقيدة، ويغلق بالتالي عملياً ونظرياً، باب الاجتهاد . بمعنى أنه يرمي بالعقل في أقرب سلّة قمامة. هذا النوع من الإسلام هو الأسهل انتشاراً لأنه تحديداً الأقل تطلباً للتفكير ولإعمال العقل . وهكذا فنحن نجد أنّ قواعده الأرسخ هي بين الطبقات غير المثقفة أو تلك التي تلقت تعليماً مهنياً يعتمد التلقي أساساً ولا يحتاج إلى أدنى تفعيل لمقولات الفهم المثقفة (كالأطباء والمهندسين والصيادلة ومن على شاكلتهم).
وكما أشرنا، فالإسلام السنّي المتداول حالياً هو النسخة الأموية للشكل العمري للإسلام المحمدي . وقد حررها العباسيون، بعد دمغها بالختم الأشعري اللاعقلاني.
التيار الإسلامي السنّي . وهذا أمر يتضح بالكامل لكل من عايش التجربتين: الإسلامية السنية واليهودية الحاخامية . ممهور بالروح التلمودية. وأهم مراجعه تغصّ حتى الاختناق بالتراثيات الحاخامية. ورغم كل العدائية التي يظهرها شيوخ السنّة لليهود، إلا أنك تشعر بالمعاشرة وكأن حاخاماً صغيراً يسكن داخل كل شيخ، يبرمجه بأسلوب حاسوبي، ويتحكّم في تصرفاته منذ ولادته وحتى مماته. وحده عنصر الزمن، هذا العنصر السيئ السمعة، هو الذي يجعل الشيخ يشعر أنه نقيض الحاخام مع أنه النتيجة الطبيعية له.
وفي اعتقادنا، فالمشكلة تتجلّى في دخول اليهود بكثرة في الإسلام زمن عمر بن الخطاب . عمر هذا شخصية نقية، لكنها، ككل بدوي، ساذجة ومعادية للثقافة والمعرفة، وبالتالي الحضارة. لقد اخترق اليهود رأس الدولة . الخليفة ذاته. فأوصلوه إلى أن يعيد تنظيف الهيكل ويلغي الحظر الذي فرضه هادريانس على سكنهم القدس، فاستحق بذلك أن يسمّيه هؤلاء اليهود أنفسه، في مدراش يرجع على الأرجح إلى الحقبة الأموية، صديق (أو

حبيب) إسرائيل؛ بل بالغ بعضهم فاعتبره إيلياهو النبي، الشخصية اليهودية المقدسة التي يسبق ظهورها ظهور المشيح (المسيح اليهودي المنتظر)؛ وأطلق عليه بعضهم الآخر لقب مخلّص . فاروق.

لقد عاش التيار السني حالة سكونية معرفية متحجرة اعتمدت على تناغم مدروس بين المشايخ والخلفاء: تناغم يضمن فيه المشايخ للخلفاء أعلى حالات السكونية الاجتماعية . العقلية . المعرفية، وبالتالي . الاستقرار السياسي. مع ذلك، فهذا التناغم عَرِفَ في العصر الحديث . وهو ما يهمنا هنا . هزتين عنيفتين: الأولى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع ظهور المفكرين المتأثرين بالغرب والذين نادوا بنوع من التحديث في الإسلام: لكن هذه الهزة انتهت (أو أنهيت) مع زوال الحقبة الليبرالية القصيرة وبداية ما سمّي بالاشتراكية القومية (وهي طبعاً ليست اشتراكية ولا قومية بل أصولية إسلامية محدثة)؛ والثانية بدأت في نهاية السبعينات من هذا القرن (العشرين) مع انحسار المد القومي الاشتراكي (انحسار طبيعي لأنه كان مدّاً شاعرياً وليس عقائدياً فكرياً) وظهور بعض المفكرين النقديين، خاصة في مصر وإلى حد ما في لبنان وسوريا. وما ردات الفعل المريعة التي تواجه بها الهزة الأخيرة من المدافعين عن متحف السكونية المعرفية (أو أصحابه) إلا الدليل الدامغ على عمق تأثير الهزّة واتساع نطاقها.

وفي اعتقادنا، فإنّ التيارات العقلانية ضمن التيار السني تحديداً هي التي ستوصل في نهاية الأمر إلى خلق إسلام جديد . خاصة في مصر . والذي قد يكون نقياً من الحاخامية الفكرية. فالمثقفون من أصول سنية لا يعيشون إطلاقاً هواجس التشكيك بإسلاميتهم حين يقدّمون إطروحات جريئة بل حتى جذرية، خاصة وأن هؤلاء لا يمتلكون أحاسيس التكفيرية أو أن إسلاميتهم نفاقية . كتلك التي تعشعش في لاوعي أتباع المذاهب الأخرى من غير السنّة، والتي هي النتاج الطبيعي لصيرورة تكفير متواصلة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً: هذا من ناحية. . ومن ناحية أخرى، فالمذهب السنّي، والذي يشبه في تناقضيته وهشاشيته اليهودية الأرثوذكسية، هو أسهل المذاهب كسراً: وبالتالي فهو الأكثر مساعدة لأفراده المثقفين على هجرانه إلى الأبد!

2. المذهب الإمامي

التيار الشيعي الإمامي الإثنا عشري، وفق ما عرفناه وعايشناه، هو الأخطر على العقل وحق التفكير بين كل مذاهب الإسلام . باسم العقل وحق التفكير بالذات: بل قد يكون أخطر حتى من تلك الحركات السنية المتطرفة التي تحارب في غير مكان لإعلان حق وجودها . ففي حين أن التيار الإمامي مؤهل بإمكانياته الخاصة لأن يبقى وينتشر ويقتحم حتى معاقل السنّة، فإن تلك الحركات البائسة ستنتهي بالانقراض حتماً . كما في مصر أو الجزائر أو أفغانستان . لأنها لا تمتلك مقومات الوجود الفعلية: إنها ردّات فعل على الزمن الذي نسيها وعلى الحضارة الحديثة التي اتهمتها بالمتحفية . وردة الفعل تنتهي بانتهاء الفعل.

المذهب الإمامي قادر على البقاء والانتشار: فبسبب تاريخه المليء بالصراع لأجل البقاء، تعلّم كيف يغيّر جلده "التَقَوي" باستمرار دون أن يغيّر دواخله بأية حال.

وبسبب مهاراتهم الذاتية الخاصة، فالإماميون هم أقدر المسلمين على تزييف الحقائق . وإضفاء لمعان يعمي الأبصار على مذهبهم. فباسم العقل . تلك الكلمة المغرقة في جاذبيتها لكلّ من يهوى التفكير . الذي يعتبره الإماميون أحد مصادر عقيدتهم، يصادر الإماميون العقل: إنهم يصادرون العقل لصالح وَهْم عقل . عقل مزيّف لأنه محدد بالمقولات الإمامية. ففي حين يصفق لك الإماميون ويهلّلون حين تستخدم إحدى مقولات العقل في مناقشة التاريخ الإسلامي وتتفق معهم . وهم سادة الجدل التاريخي في الإسلام بسبب تاريخهم الصراعي الطويل مع السنّة . ضد التيار الإسلامي السنّي، فإنهم على استعداد لتكفيرك أو قتلك . وقد قتل الإماميون كثيراً من

المفكّرين في لبنان وخارج لبنان، مثلهم مثل أتباع ابن تيمية عدوهم اللدود . حين تستخدم مقولات عقل أخرى في انتقاد جانب آخر يطال الإماميون الآن(6).

وفي حين يشكو الإماميون دائماً . الشكوى والبكاء واللطم والنواح معالم إمامية أساسية تساعد كثيراً في نطاق اللاوعي على خلق نوع من التلاحم بين طبقات العوام الإماميين . من التكفير الذي لاحقهم باستمرار، فهم لم يتوقفوا قط عن تكفير غيرهم، إن بأسلوب تَقَوي حين لا يكونون قوة حاكمة، أو بأسلوب علني فاضح . مع قيام أوّل دولة إمامية في التاريخ الحديث.

يتحدّث الإماميون، بطريقتهم الجذابة لأنصاف المثقفين من المسلمين، عن فتح باب الاجتهاد . بمعنى حرّية العقل (. أو هكذا تتصوّر .) في الدخول إلى الدين من أوسع أبوابه. لكن هذا الطرح التَقَوي سرعان ما ينكشف حين تدخل إلى قلب الإمامية: فباب الاجتهاد الإمامي ليس سوى كوة صغيرة في أعلى الحائط لا يمكن حتى لضوء الشمس أن يمرّ عبرها. والحقيقة تقول إن النصوص المقدّسة وشبه المقدسة تغطي كافة جوانب الحياة تقريباً . وهذه لا اجتهاد فيها. يبقى الاجتهاد ممكناً في تلك المساحات العبثية، كغسل الميت المسلم في منطقة انعدام الوزن في الفضاء؛ أو كصحة عقد نكاح امرأة استبدل رأسها برأس امرأة أخرى؛ أو كمضاجعة المرأة ذات البظر الطويل لزوجها المأبون: اجتهادات واردة فعلاً في النصوص الشرعية لأحد ممثلي مسرح اللامعقول الإمامي من العراقيين المقيمين في دمشق.

العقل المشروط، أو: العقلانية الناقصة . هو سرّ قوة الإمامية، خاصة بين أوساط العامة أو أنصاف المثقفين. لذلك يخشاها السنّة . ونحن معهم . لأن نصف الحقيقة أسوأ كثيراً من الكذب.

3. المذهب الإسماعيلي

مشكلة هذا المذهب الشيعي الأصل نخبويته: فبعكس السنّة، الإسماعيلية تيار يبدو أنه من الصعب أن يتجذّر بين طبقات العامّة . لأنه فوق تفكيرها. لذلك انقرض الإسماعيليون بسرعة في مصر، البلد الذي أنهكه ثقافياً دخول عمر بن العاص وهروب النخبة الثقافية اليونانية، بعد وصول التيار الشافعي السنّي الذي قاده صلاح الدين الأيوبي. الإسماعيليون، الذين استوردتهم مصر من بلد الأعراف الثقافية الراسخة . سوريا . عبر تونس، والذين قدّموا لمصر حضارتها الثقافية الوحيدة حتى الآن (الناصرية كانت تياراً شعرياً عاطفياً هجيناً وليس حركة ثقافية راسخة بدليل زوالها آلياً بعد زوال المؤسس) بعد رحيل مدرسة الاسكندرية، لم يستطيعوا أن يتجذّروا بين طبقات مصر الشعبية: بسبب التركيبة الفكرية الخاصة بالفرد المصري والتي سيشير إليها الهاجريون بالتفصيل من جهة، ولأن الاسماعيلية، كفكر نخبوي عظيم، لم تسعَ كما يبدو إلى فرض مقولاتها على العوام.

ملاحظة:

لابد أن نذكر هنا أن الإسماعيلية، اليونانية القلب الإسلامية القشرة العربية اللسان، لم تضطهد المسلمين من غير الإسماعيليين عموماً ولم تقسرهم على اتباع مذهبها! ونحن هنا لا نستطيع اعتماد التشويهات المقصودة التي لطخ بها مؤرخو السنة الخلفاء الفاطميين لأن الوقائع تتحدث بشكل معاكس. فقد كان باستطاعتنا أن نجد كل المذاهب الإسلامية ناشطة في ظل الحكم الفاطمي لمصر. بالمقابل، فقد انقرضت الإسماعيلية تماماً في ظل الأيوبيين الشوافعة، الذين دمّروا حضارة مصر الثقافية، حين دمّروا التراث الفكري الإسماعيلي . وحولوا أغلفة كتب بيت الحكمة إلى أحذية لجواري الأكراد وجنودهم.

مع ذلك فالإسماعيلية لم تنته في وطنها الأم، سوريا: ربما لأن هذا الوطن، بسبب بنيانه الأنطولوجي . الأيديولوجي، قادر على امتصاص الفكر النخبوي وسرمدته مهما استفحلت مذاهب العوام.

..ورغم الانقراض المريع حضارياً، فقد استفادت الإسماعيلية من تجربة الحكم الفاطمي في مصر . إفادة لم تعرفها غيرها من الطوائف التي أينعت على هامش الإسلام السني: فمع الشعور الغامر بالحريّة والانفلات من قيود سلاسل الاضطهاد والتكفير السنية . التكفير هو السلاح الأقوى الذي يحتفظ به شيوخ السنّة لحماية عوامّهم من التيارات الإسلامية المتماسكة بنيوياً والقوية عقائدياً . لم يعد الإسماعيليون يخشون نشر أفكارهم ومعتقداتهم وتداولها أمام العامّة والخاصّة. ورغم الدمار الهائل الذي ألحقه الأيوبيون بالتراث الإسماعيلي العظيم، فالقليل الذي بقي يشير دون لبس إلى أن الإسماعيلية كانت صوت العقل الفعلي . وليس عقل الزيف . في عالم قتْل العقل ومصادرته.

الإسماعيليون، كما عرفناهم الآن، هم علمانيو الإسلام. ورغم ضآلتهم العددية . غير موجودين بفعالية خارج سوريا واليمن . فهم مؤهلون بالكامل، خاصة في سوريا، إذا سنحت الظروف، لتقديم نسخة عن الإسلام هي الأكثر قدرة على الدوامية . والأكثر انفتاحاً على مقولات العقل.

4. المذهب العلوي

للأسف الشديد، فالمذهب العلوي لم يعرف قط تجربة الحكم التي عرفها الإسماعيليون في مصر الفاطمية . وخارجها. وهكذا، فهو لم يستطع قط أن يخرج من قوقعة الخوف التي أحاط بها نفسه في مواجهة سيف التكفير السنّي ذي السمعة الرديئة. ونحن لم نستطع التعرّف بالتالي على كل مكنوناته الحضارية . ولم نخرج إذاً من دوامة الحدس والتخمينات!

بعكس كل الطوائف تقريباً التي عاشت على هامش التيار السنّي، لم يحظ العلويون بلحظة راحة قط، وظلّوا بالتالي مطوقين في حصونهم الجبلية بسياج الاضطهاد السني الذي لم يترك يوماً الفرصة تفوته لقتل هؤلاء والتنكيل بهم، حتى كادت خرافية غيبتهم الكبرى عن الحضارة أن تقضي على الجواهر الثقافية التي كانت أساس هذا المذهب.

العلويون . أو النصيريون كما كانوا يسمّون (نلاحظ هنا، أن بويريا، عاصمة النصارى، كانت موجودة في جبال العلويين، ولا بأس بنوع من التفكير حول العلاقة بين نصيري ونصراني) . برأينا، هم ورثة التراكمية الحضارية السورية: يمكن أن ندّعي بشعور من المبالغة، أن العلوية هي الديانة القومية لسوريا . كيف؟ إذا كانت الإسماعيلية . الهلينية . المتأسلمة أعمق ثقافياً من العلوية، فالعلوية أعمق أصالة من الإسماعيلية: الزواج اليوناني ـالإسلامي في الإسماعيلية جعل الأقوى (. الهلينية .) يستوعب الأضعف: الإسلام. لذلك كان الإسماعيليون نخبويين. لكن العنصر الهليني في العلوية، حتى وإن بدا ملحوظاً عند أول محاولة تنقيب جدية، لم يستطع أن يطغى لأنه مواجه هنا بعناصر ثقافية قوية، مشكّلة من تراكمية صلدة للطبقات الحضارية السورية.

وإذا كانت السنّية ديانة البدو المتحوخمين الصحراوية . بكل جفاء الصحراء وعقم الحاخامية الفكري، فالعلوية ديانة الحَضَر الزراعية: يكفي كدليل على ذلك هذا الكم الكبير من الطقوس الزراعية، غير البدوية، في المذهب العلوي. وإذا سمحت الظروف الموضوعية وكشفت لنا العلوية عن كنوزها . وهذا واجب حضاري: فالحضارة يجب أن لا تبقى حكراً على قلّة نادرة . فسوف نتأكد ربما أن هذا التيار خزّان يخبئ بين طياته طبقات الحضارة السورية المتراكمة، والذي لم تنجح القشرة الإسلامية في إفساد محتواه.

لكن مشكلة العلويين هي السنّة!

العلويون، برأينا، لم يتخلّصوا قط من هاجس التكفير السنّي . وهذا يجعلهم يؤكدون باستمرار على إسلاميتهم (شبه السنّية) وينافسون أكثر أهل السنة تزمتاً في تزمتهم الديني، حتى وإن كانت القضية مصطنعة برمّتها.

يعرف العلويون في قرارة أنفسهم أن المسطرة السنّية غير صالحة لقياس الحق والباطل: مع ذلك فهم لا يملكون الثقة الكافية كي يقيسوا أنفسهم علناً بمساطرهم الخاصة الأكثر حضارية.
العلويون، للأسف، يبحثون الآن عن حقيقة وهوية على أحد رفوف السوبرماركت الإمامي في السوق الإسلامية العجفاء . لكنهم لا يعرفون أن هذه السوق، بكل بضاعتها، ليست أكثر من رف صغير في متحفهم الحضاري الغني.
4. المذهب الدرزي
حين شاخ المذهب الإسماعيلي . الفاطمي، حين تعبت حضارته، حين وصل العقل السبعي إلى قمة نضجه، أينعت «دار الحكمة» المذهب . التيار الفكري الدرزي. ولمّا كانت مصر . وربما ما زالت!. غير مؤهلة لحركات أيديولوجية من هذا النوع، انتقل مؤسسو الحركة الدرزية إلى أرض الأفكار الخصبة . بلاد الشام.
إن من يدرس التراث الدرزي، كرسائل الحكمة على سبيل المثال، يكتشف بسهولة عمق هذا التراث وكثرة الروافد الفكرية فيه(7). إن "رسائل الحكمة"، دون مبالغة، هي دائرة معارف حوت أشياء كثيرة من علوم عصرها وثقافته، بدءاً بالفلسفة اليونانية وانتهاء بالإسلام الأرثوذكسي، مروراً بمقولات من الفرس والهنود وغيرهم.
لكن الحقيقة هي أن الدروز، بسبب مواقف الآخرين السلبية . السنّة تحديداً . منهم أوّلاً، وتركيبتهم العقلية الغيتوهية المشوهة ثانياً، أغلقوا أنفسهم على ما ورثوه من تراث حتى تجاوزهم الزمان ولفظهم في تجمعات انعزالية ذات رائحة مَتحفية عموماً. وكما يفسد كل شيء طبيعي إذا حُجب عن الهواء وأشعة الشمس، فقد فسد الدروز عموماً: فقدوا حقيقتهم فراحوا يبحثون عنها في الهند، وفقدوا هويتهم فراحوا يبحثون عنها في جيش الدفاع الإسرائيلي.
الدروز، بعكس العلويين المنغرسين في أعماق الهوية السورية، يمتلكون موسوعات شبه غريبة عفا عليها الزمان وغيتوهات شبه مغلقة تفوح منها رائحة الفساد وحقائق شبه مائعة ينقصها الإحساس بالهوية. لذلك، فهم "أقل" من يؤمل منهم أن يشاركوا يوماً في نهضة حضارية إسلامية.
****

العدائية للإسلام:
هل حقاً أن هنالك مؤامرة عالمية تحاك خيوطها هنا وهناك ضد الإسلام والمسلمين؟!
هل حقاً أن الغرب الإمبريالي الإستعماري الرجعي . إلى آخر قائمة المصطلحات الشيوعية التحنيطية . يريد إسقاط الإسلام بعد أن أسقط الشيوعية؟!
فرق أساسي: الشيوعية ديانة أرضية؛ والإسلام يعزو علته الأولى إلى كائن غير أرضي هو الله.
قد يكون هنالك بالفعل وجود لمؤامرة من هذا النوع. لكن إذا كان الأمر كذلك، فالمتآمرون الحقيقيون هم الإسلاميون أنفسهم، خاصة أولئك الذي يحاربون أي ميل لتحديث الفكر الإسلامي تحت رايات متباينة، يبدو بعضها الآن مهترئاً بالكامل.
بالمقابل، ثمة أصوات أخرى تعلو باضطراد بين المسلمين تعتبر أن ما يتداول حالياً من تجارب إسلامية حالية لا يعبّر إطلاقاً عن "جوهر الإسلام الحقيقي" الذي يمكن أن نجده في القرآن وفي الحديث النبوي المثبت. وهنا لابد من تقديم بعض الملاحظات:
1. نحن لا نعيش في بطون الكتب بل في قلب مجتمع بشري متحرك تحكمه هذه القوى السكونية. ونحن لا نستطيع أن نقول مثلاً لحزب توده الشيوعي الإيراني، الذي شارك في تصفية نظام الشاه ثم تعرّض هو ذاته لتصفية أعنف على أيدي الخمينية: "إن الخمينية لا تعبّر عن جوهر الإسلام الإمامي". والشخص البشري، أياً كان، أهم بما لا يقارن من أية فكرة موضوعية، أياً كانت.

2. يقال باستمرار الآن، في محاولة لخلق أوهام تبريرات، "يوجد مسلمون ولا يوجد إسلام". لكن أهمية الفكرة هي في إمكانية تجسيدها عملياً على أرض الواقع: وليس في بقائها محلّقة في أجواء المخيلة. والفكرة الرائعة إلى درجة عدم قابليتها للتطبيق هي فكرة ميتة أساساً: ولنا في الماركسية خير مثال.

3. إن هؤلاء الذي يقتلون في أفغانستان والجزائر ومصر والسودان باسم الإسلام، لديهم أيضاً ترساناتهم اللاهوتية التي يبررون بها كل جريمة ترتكب . ولا عجب إذا وجدناهم يعتبرون أن الطرف الآخر هو البعيد عن "جوهر الإسلام الحقيقي". فالتراث الإسلامي هو أشبه ما يكون بمصباح علاء الدين الذي يستطيع أن يلبي احتياجات الجميع مهما تباينت.

إذاً، يجب أن نناقش الإسلام على أساس واقعه المعاش وليس نصوصه الموضوعة فوق الرفوف، والتي كثيراً ما تتضارب وتتناقض. وهكذا نشكّل موقفاً من الإسلام، إيجاباً أو سلباً، وفق مواقف الإسلام الفعلية من مسألة الإنسان وحقوقه الأساسية . وليس ما يدعى بحقوق الإنسان الإسلامية التي هي مصادرة للحقوق باسم وهم الحقوق الإسلامي . والتي تشكّل العنصر المكوّن للحضارة الحديثة.

حقوق الإنسان الغيبية:

الدين، أولاً وأخيراً، مسألة اجتماعية . بيئوية . وراثية. "الصدفة . التربية" هي التي تجعل من موضوع جوهري هنا، كألوهية المسيح، مرفوضاً بالكامل هنالك؛ ومن حدث يعتبر تاريخياً فعلياً هنا، إسراء محمد ومعراجه، فانتازيا تخيلية "على الأقل" هناك. الدين، لأنه يحتل عقل الإنسان في وقت مبكر جداً . خاصة في الأقطار الإسلامية . وينغمس بالتالي في أعماق ذاته في وقت مبكر جداً، يرمي بشبكته حول عقل هذا الإنسان فيمنعه عن الرؤيا . والتفكير: ويمنعه بالتالي عن إدراك حقيقة أن "الصدفة . التربية" هي جرثومة الدين الأولى. باختصار: بدل أن يكون الإنسان مالكاً للفكرة، تصبح الفكرة مالكة للإنسان.

كل دين في هذا العالم يعتبر أنه "الحقيقة المطلقة" . وإلا لاستقال من الخدمة فأراح واستراح: ولمّا كان أتباع كلّ دين يعتبرون أنّ دينهم الخاص هو الحقيقة المطلقة، ولما كان بازار "الإديان" . الحقائق المطلقة . بلا بداية ولا نهاية، ولما كان جوهر كل تلك "الأديان" . الحقائق المطلقة . حبّة خردل ميتافيزيكية غير ملموسة ولا مثبتة مادياً وغير قابلة بالتالي لأن تفرض . كحقيقة مطلقة . فالحل الأوحد، في اعتقادنا، لهذه المعضلة المتشابكة هو الاعتراف لكل دين بحقّه في التواجد والدعوة التبشيرية بما لا يضير الأديان الأخرى ولا يشوهها. . فأين الإسلام من كلّ هذا؟

ما من داعٍ لفتح دفاتر الماضي الوسخ . لأنه ماضٍ . خاصة وأن الجميع تقريباً صادروا الإنسان تحت رايات القداسة، بدءاً بمحاكم التفتيش وانتهاء بأحكام أهل الذمة . لمن يحرّف مسألة أهل الذمة عن حقيقتها، ويحاول إعطاءها طابعاً إيجابياً وهمياً عن طريق تلاعب استغبائي بالألفاظ: ننصحه هنا بقراءة أحكام أهل الذمة لابن قدامة المقدسي! لكن ما كان يُقْبَل في الماضي لا يمكن أن نقبل به الآن: حتى وإن جاءنا محفوظاً في معلّبات . الحقيقة المطلقة . الفاسدة تلك. لكن الإسلام لم يتغيّر!

لقد استسلمت الكنيسة تحت وطأة مطرقة العقل . والعلمانية. واليهودية الأرثوذكسية . رغم وهم الصحوة، صحوة الموت، الذي يسوقه ابن عوباديا يوسف بأسلوب بوطوي يدعو إلى الشفقة والغيظ في آن . تسير في درب الانقراض القصير: تجرّها فيه عربة العلمانية الصهيونية، بشقيها اليميني واليساري، الخارقة لجدار الصوت بسرعتها. ورغم محاولات المفداليين وضع حواجز تلفيقية في وجه تلك العربة، إلا أن ريح الزمن تلعب، لحسن الحظ، ضدهم. والحقائق التاريخية لليهودية الدينية صارت محط نقد حتى في الدوائر اليهودية ذاتها.

وحده الإسلام الذي لم يُسْمح للحداثة أو العلمانية بالاقتراب منه أو تصويره، ما يزال يعتبر نفسه . الحقيقة المطلقة . والتي لا تسمح بالتالي لأية حقيقة أخرى، باعتبارها مزيفة، بأن تنافسها على أرضها. بل يزداد الأمر سوءاً بتقدّم الزمن لشعور الإسلاميين بزيف الكثير من حقائقهم وبالتالي خوفهم من اقتراب أية حقائق أخرى يمكن أن تحطّم الصدفة وتكشف العفن الداخلي.

أنتَ تمتلك فكراً مغايراً: حكمك الإسلامي: إما أن تعيش خانعاً بأسلوب أهل الذمّة، أو أن تهرب، أو أن تقتل!

أنا، كمسلم، كصاحب . للحقيقة المطلقة .، لي كل الحق، أيها المغاير، أن أشتمك وأهينك وأخوّنك وأكفرك . عند أية مبادرة تهديدية لحقائقي المطلقة.

أنتَ، أيها المغاير، لا تمتلك أدنى حق في سؤالي، تاريخياً، عن حرب الجمل وصفين والنهروان، عن حادثة السقيفة وموقعة الحرة، عن تهديم الكعبة وسرقة الحجر الأسود . حتى لا ترمي بحجر شك على حقائقي المطلقة الزجاجية.

أنتَ، أيها المغاير، لا تمتلك أدنى حق في سؤالي أو حتى سؤال نفسك، عقائدياً، عن الحقيقة التاريخية لآدم وحوائه اللذين هبطا (كذا) . بلا كيف ولا كم . علىالأرض، في تاريخ نسيا تسجيله، ومكان نسيا ذكره، رغم أنهما تذكرا تفاصيل أخرى تبدو مملة.

حقوق الإنسان الجنسية:

في حين ترسل الولايات المتحدة مركبة فضائية إلى المريخ وتكتشف "جينة الشيخوخة" في الإنسان، ينقسم مشايخ مصر وشعبها، بطريقة لا تثير غير مشاعر القرف، في مسألة حقوق المرأة الجنسية البديهية، عبر انقسامهم في ختان النساء: "هل سنشهد حرب بظر جديدة، بعد حرب الجمل القديمة؟".

يندر أن تجد ديانة في هذا العالم . باستثناء اليهودية التلمودية الحاخامية . تصادر الحرّية الجسدية وتقمع الجنسانية الأنثوية، كالإسلام: خاصة بعدما تخلّص الكاثوليك عملياً من عقدهم الجنسية الإخصائية المزمنة. ففي هذا الزمن القاسي، حيث الصعوبات الاقتصادية . "تكاثروا، فإني مفاخر بكم الأمم!" . تؤخّر سنّ الزواج، يقف الإسلام بالمرصاد نظرياً لكلّ من تسوّل له نفسه حق ممارسة حياته "الطبيعية" خارج الإطار الذي وضعه الإسلام وفرضه على الجميع. والإطار الذي وضعه الإسلام، بالمناسبة، على اختلاف تسمياته . زواج، تسرّي، متعة الخ . هو في النهاية تشييء للمرأة لحساب جنسانية الرجل. وإلا فماذا نسمّي وضعية المرأة في التسرّي الذي زال عملياً من حياتنا الاجتماعية لكنه ما يزال يعشعش نظرياً في نظرة المسلم للمرأة؟

"والمرأة متاع، ضلع أعوج، شر كلّها، و.. لعبة في زاوية البيت إن كانت لها حاجة وإلا: فلا؟!".

لو تناولنا هنا مشكلة المثلية الجنسية Homosexuality الأكثر انفتاحاً على النقاش هذه الأيام، وأخذنا بعين الاعتبار أن نسبة المثليين الجنسيين أو أصحاب الميل الجنسي المزدوج bisexualفي أي مجتمع بشري لا تقلّ عن 10%، وعرفنا أن مراكز العلم العالمية المحترمة تبدو منقسمة بشأن المسألة بين رأي "الجينية كعلّة" ورأي "التربية الاجتماعية . النفسية كعلة"، وأضفنا إلى كلّ ذلك الأزمات القاتلة أحياناً التي يعاني منها المثلي جنسياً: الرفض المزدوج لجنسانيته من مجتمع مليء بالمفاهيم الخاطئة الدينية جوهرياً حول الجنس ومن ذاته التي هي إفراز طبيعي لذلك المجتمع، لاكتشفنا أن الحلّ الإسلامي التقليدي (. القتل بأسلوب وحشي .) لتلك المعضلة ليس أقل من كارثي. والحلّ صالح لكل زمان ومكان، لأن النص الذي يحمله صالح أيضاً لكل زمان ومكان.

كل جنسانية يعتقد أنّها منفعلة مصادرة: علمياً، لا توجد جنسانية منفعلة . أنثوية كانت أم مثلية. (الغريب . وهذا جزء من التناقضية الإسلامية المدهشة . أن الإله الذي تدخّل بحسم في مسألة ثانوية جداً حضارياً وإن كانت

مركزية بدوياً: إفك عائشة، وقف حائراً بنوع من اللامبالاة أمام جريمة إنسانية وحضارية ارتكبتها المرأة ذاتها، راح ضحيتها ألوف المسلمين وما نزال ندفع ثمن آثارها اللاحقة حتى الآن: حرب الجمل).

"المشكلة هي أن المسلم، حتى وإن عاش في أكثر دول العالم تحضّراً، فهو يحتفظ تحت جلده بذلك الموقف البدوي من مسألة الجنس: بكارة المرأة شرفها، وشرفها شرف القبيلة، وشرف القبيلة شرف الأمة..". ليس العقل هو أعز ما تملكه الفتاة الشرقية؟

والمشكلة الأكبر هي الرغبة بفرض تلك العقلية البدوية حتى في أعتى مراكز الحضارة: تحت رايات القداسة الوهمية ذاتها.

حقوق الإنسان السياسية:

ماذا لو تأمّل واحدنا خارطة العالم وحاول تصنيف الدول وفق معيارين: الغالبية الدينية والديمقراطية السياسية . ماذا سيجد؟ باستثناء بعض دول إفريقيا وبقايا الركام الماركسي الذي سيسقط عاجلاً أم آجلاً (الطرفان على حد سواء يعانيان من أحد أشكال الإعاقة نحو التقدّم: إعاقة فكرية جينية جوهرياً عند الأول وإعاقة فكرية دوغماتية جوهرياً عند الثاني . مع فارق غير بسيط هو أن السود عوّضوا عن تخلفهم الفكري بتقدمهم الجسدي المذهل، في حين لم تقدّم الماركسية سوى الإفساد المحمي بشعارات ذات قداسة أرضية كاذبة)، سيلحظ بوضوح تام ذلك التناسب الكامل بين الانتشار الإسلامي والانحسار الديمقراطي . والعكس صحيح. فباستثناء لبنان الذي يسعون الآن إلى تكبيله بقيود "حريرية"، لا توجد دولة إسلامية تتبنى الديمقراطية السياسية . بالمعنى الفعلي للمصطلح.

من جهة، فالأقطار التي تدعي الديمقراطية هي أقطار تصادر الديمقراطية الفعلية تحت اسم ديمقراطية مزيفة:في مصر: يموت حزب الغالبية العظمى الوحيد بموت مؤسسه، وينشأ حزب غالبية عظمى غير وحيد هذه المرة (إحدى ضرورات الديمقراطية الكاذبة)؛ في الجزائر: يتشكل حزب غالبية عظمى عبر مرسوم "عسكري" في أربع وعشرين ساعة أو ما شابه؛ في تونس أو ما شابه: الديمقراطية موجهة والدكتاتورية أفضل بما لا يقارن من تلك الديمقراطية الموجهة . يكفي الدكتاتورية فخراً أنها رذيلة خالية من حمض النفاق.

"ربما أن تلك المجتمعات غير مؤهلة حتى الآن، لأسباب معرفية، لأن تكون ديمقراطية: وفي ذلك لا تختلف الأقليات غير الإسلامية، في بعض الأقطار . لقد كشفت حرب لبنان مثلاً، عن التخلّف الحضاري الهائل للمسيحيين، القابع خلف ستارة التحديث القشوري . عن الغالبيات المسلمة في هوس السيطرة والمصادرة".

كان يمكن لبعض تلك الأقطار، خاصة تلك المغرقة في عمقها الحضري، أن تصل إلى شكل "ديمقراطي . حضاري" لو أنها تُركت لتأخذ منحاها الطبيعي في التطور. فبعد خروج الانتدابات الأوروبية من تلك الأقطار (نحن، للعلم، نميّز تماماً بين الانتداب الفرنسي والاستعمار التركي)، بدأت ملامح حياة ديمقراطية بدائية تطل بوجهها على هذه الشعوب القابلة للتحضّر. لكن "حبيب الملايين" جاء . أو جيء به . بأمثولته القومية الاشتراكية القمعية لينهي التطور الطبيعي، وليغلق الأبواب والأنفس ثمان عشرة سنة أمام أي ارتقاء فكري حضاري حقيقي. ولأنه لم يسمح لغيره بأن يعلن وجوده، التجأ المجتمع، الذي فشل أن يعبّر عن نفسه فكرياً في مراكز معلنة والذي لم يقبل الانحطاط إلى سوية الفساد والانتهازية التي غرقت فيها المراكز الرسمية المعلنة الوحيدة، إلى مراكز أخرى غير معلنة سياسياً لكنها موجودة بحقها الخاص فكرياً: المساجد والكنائس. وهكذا، فما أن رحل حبيب الملايين، حتى كان المجتمع مقسوماً تحت سلطتين: سلطة حزب الدولة الفاسد الانتهازي الشكلية، وسلطة حزب رجال الدين، حزب الغالبية الساحقة "جداً"، القوي، الحاكم فعلياً.

ولأن حبيب الملايين كان ريفياً، فقد كان حزبه ريفياً أيضاً، بالمعنى السلبي للكلمة. وعوض عن أن يحضّر الريف، ريّف الحَضَر. ولأن حبيب الملايين كان ريفياً، ولأن الريفية تعني الغناء البسيط . وليس السمفوني . والشعر

البسيط . وليس الفلسفة . والإيمان البسيط . وليس اللاهوت العقائدي . والعاطفة المجردة . وليس العقل العملي أو النظري: فقد انتهى حزبه معه: لأنه حزب حالة عاطفية وليس حزباً أيديولوجياً.

وأمثولة حبيب الملايين لم تكن غير قابلة للتطبيق.

من جهة أخرى، فالأشكال الإسلامية للحكم، بحقائقها الكبرى المعادية للصيرورة، لا يمكن أن تكون غير معيقة للديمقراطية. الديمقراطية، كما عبّر عن ذلك الكثير من الإسلاميين، كفر. والكفر، بديهياً، معادٍ للإسلام. وحتى لو طرح بعض الإسلاميين الديمقراطية كحلّ، فالأمر لا يتعدى جانبين تكتيكيين: من ناحية، الديمقراطية، بالنسبة لبعضهم، كحكاية سفن طارق بن زياد حين دخل إسبانياً: لا بد من إحراقها ساعة الوصول إلى الحكم، حتى لا يفكر أحد باستخدامها ثانية؛ ومن ناحية أخرى، فالديمقراطية، لبعضهم الآخر، هي ديمقراطية إسلامية . وهذه أحد أسوأ أشكال الديكتاتورية.

لكن الإسلاميين في الغرب يؤيدون الديمقراطية؟ الإجابة بسيطة. الإسلاميون، بكافة أنواعهم، يعيشون في الغرب تحت رايات الديمقراطية حريات لم يحلموا بها قط حتى في أوطانهم.

إذاً، الإسلاميون يرفضون، بنفاقية لا مثل لها، الديمقراطية في بلادهم لأنها تضرهم، ويقبلون بالديمقراطية في الغرب لأنها تفيدهم.

لكن: لماذا يكره الإسلاميون الديمقراطية؟ لأنها ببساطة تكشف عوراتهم؛ هم والأنظمة المتحالفة معهم. فالإسلاميون والأنظمة المتحالفة معهم، مهما اختلفت مسمياتها، وجهان لعملة واحد: رفض كافة أشكال الحريات. الإسلاميون، الذين يملأون الدنيا ضجيجاً هذه الأيام بصحوتهم . الضجيج أشهر أشكال التعبير عن الذات إسلامياً . لا يعرفون (ربما؟!) أن هذه الصحوة ليست أكثر من عارض لمرض حضاري مزمن اسمه غياب الحريّات وبالتالي الجهل. فلو تسلّل الفعل النقدي إلى مقولات الإسلاميين المحنّطة، لما اختلف مصيرها عن مصير مثيلاتها في الأديان الأخرى، ولانتقل الإسلاميون من واجهة الأحداث إلى واجهات المتاحف. أما الأنظمة المتحالفة معهم والتي لا يهمها غير أن تبقى فيبدو أنها تفهم اللعبة جيداً، وتعرف أن الإسلاميين، حرّاس متاحف المفاهيم المحنّطة، هم أفضل من يحافظ على سكونية المجتمع في أدنى درجاتها، ويحفظ بالتالي للأنظمة أفضل الأجواء لحكم مستقر أبدي.

الإسلام الأرثوذكسي.. واليهودية:

باستثناء قلة يهودية أرثوذكسية معزولة، يبدو الآن وكأن الإسلاميين هم المدافعون الوحيدون عن الأفكار والأعراف اليهودية الحاخامية، لأنها تسللت إليهم، بطريقة أو بأخرى، واستقرّت في دواخلهم. ولعب الزمن، كالعادة، لعبته الإخفائية إلى درجة أن مسلماً متطرفاً يشتم اليوم بالفم الملآن اليهودية الحاخامية دون أن يعرف أنه نتيجتها الطبيعية.

ليس من السهل الحديث عن يهودية الإسلام الأرثوذكسي الحاخامية، لأن المسلمين دأبوا على مر العصور على اتهام كل من ينتقدهم بأحد أشكال التهود. وشكّلوا بذلك في اللاوعي الجمعي للعامة نوعاً من الهاجسية التهودية لأية مقاربة نقدية إسلامية: فكيف حين تهدف تلك المقاربة إلى قلب الصورة رأساً على عقب؟

التراث الإسلامي في جانبه الروائي الميثولوجي، منقول على نحو شبه حرفي، عن مقابله الهاغادي اليهودي، بدءاً بحكاية عذاب القبر وانتهاء بقصص الخلق والطوفان وما شابه. والجانب التشريعي في الإسلام، لا يقلّ حرفية في نقله عن مقابله الهالاخي اليهودي من الجانب الروائي.

قد يُقال إن احتمالية النقل ليست وحيدة، وإن احتمالية أن يكون كلّ طرف وصل إلى مجموعة معارفه باستقلالية كاملة عن الطرف الآخر، أو أن يكون الطرفان استمدّا كل تلك المعارف من طرف ثالث . واردة تماماً.

بالنسبة للاحتمالية الأولى: يمكن لإثنين أن يتوصلا باستقلالية تامة إلى المعلومة ذاتها . إذا كانت تلك المعلومة حقيقة علمية أو فلسفية أو حسابية أو أخلاقية: جاذبية الأرض، كل إنسان فان، 1+1=2، القتل فعلة إجرام . وذلك باستخدام طرائق معرفية متشابهة. لكن بأية طرائق معرفية يمكن لطرفين التوصل إلى معلومتين ميثولوجيتين متطابقتين حتى في أدق التفاصيل في زمانين ومكانين متباينين للغاية . مثل حكاية آدم وحواء وأولادهما أو قصة عذاب القبر؟

بالنسبة للاحتمالية الثانية: فقد أوصلت الكشوفات الأركيولوجية في سوريا الكبرى إلى نتيجة مؤكدة فحواها أن اليهود، وفق حدود معلوماتنا الحالية المحددة بدورها بما تم اكتشافه من آثار، أخذوا مقولات أساسية في تراثهم الديني عن الميثولوجيات السورية القديمة. وتتأكد ميثولوجية تلك المقولات اليهودية حين نقارنها أيضاً بالكشوفات العلمية في حقول كالفلك، الأنثروبولوجيا واللغات.

مثلاً: ما هو المقصود بالسماوات السبع إذا ما عرفنا أن لا وجود للسماء بمفهومها القديم، وأن الكون خواء تسبح فيه . ولا تعلّق . أجرام متعددة؟

كم هو عمر الإنسان على الأرض؛ وكيف استطاع أن يحتفظ بتفاصيل إقامته في الجنة المفروضة؛ ولماذا احتفظ بها باللغة العبرية تحديداً؟

إذا كان لا سبيل إلى دحض الإرتقائية البشرية عبر مئات ألوف السنين، فكيف يمكن البرهان على هذا الإنوجاد التام للكائن البشري الأولي؟

وإذا كان عمر الإنسان على الأرض لا يقلّ عن مليون سنة، فكم هو عمر اللغة العبرية التي استخدمت لتسمية أوّل الأزواج البشرية – بغض النظر عن الحيوانات والنباتات والملائكة؟!

العلماني، الإسلامي.. واليهودية!

كيف يستطيع من يؤمن عقائدياً أن بني إسرائيل مفضلون على العالمين أن يرفض اليهودية وجودياً؟

هل حقاً أن الحديث عن الأصول الحاخامية للتراث الإسلامي عموماً يصبّ في نهاية الأمر في صالح الإسرائيليين في صراع الوجود الحضاري العربي . الإسرائيلي؟

لكن: هل باستطاعة الإسلامي، الذي قد يكون أول المبادرين إلى التشكيك السابق، أن يناقش اليهودي بصحة مزاعمه، إذا كان هو ذاته يؤمن بتلك المزاعم عموماً؟

إن نقطة القوة اليهودية بالنسبة للإسلام هي أن الإسلام يؤمن بكلّ المسلمات اليهودية تقريباً، في حين ترفض اليهودية جوهر الإسلام: نبوّة محمد. لذلك يستطيع اليهودي الصول والجول، قدحاً وذمّاً، في الإسلام، دون أن يستطيع ذلك المسلم.

بالمقابل، فالعلماني يستطيع أن يقول لليهودي الذي يزعم أن يهوه . أو ما شابه . أقطع أرض فلسطين لإبراهيم ونسله من بعده: ما هو دليلك العلمي على الوجود التاريخي لإبراهيم هذا؛ وما هو دليلك العلمي على أنك من نسله؟

يستطيع العلماني أن يفكك التوراة نصياً بحسب نظرية التقاليد، وأن يبيّن على نحو دقيق لا تاريخية معظم حوادثها، وهي التي بنت عليها اليهودية هرمها الخرافي . السياسي . العقائدي برمّته . فهل يستطيع الإسلامي ذلك؟

يستطيع العلماني، باستخدام الميثولوجيا، أن يظهر دون لبس أن مقولات مركزية في اليهودية . كالخلق والطوفان . مسروقة على نحو مشوّه من الميثات السورية «الوثنية» («وفق التصنيف التوراتي ذاته») . فهل يستطيع الإسلامي ذلك؟

يستطيع العلماني، باستخدام علم الفلك الحديث، أن ينسف مقولات التوراة الفلكية الخرافية، وباستخدام الجيولوجيا الحديثة، أن ينسف مقولات التوراة الجيولوجية الخرافية . فهل يستطيع الإسلامي ذلك؟

يستطيع العلماني أن يوضح، باستخدام التوراة ذاتها، أن الشعب المختار كان أسوأ شعوب زمانه وأكثرها بدوية، وأن جعلهم "ليهواهم" يختارهم ليس أكثر من تعزية على الشعور البدوي بالدونية أمام الحضارات الكبرى المحيطة . فهل يستطيع من يؤمن بأفضليتهم على العالمين أن يفعل ذلك؟

إن حرب الوجود الحضارية بين العرب (سوريا تحديداً) واليهود هي الحرب بين العقل والخرافة . وما دام العقل العربي مأسوراً لخرافات الحاخامين أنفسهم، لن يكون هنالك جواب على سؤال: متى ننتصر؟

الهاجريون... كلمة أخيرة!

كانت السيدة باتريشيا كرونه، في رسائلها المتعاقبة، خائفة للغاية من نشر هذا الكتاب باللغة العربية. فهي لا تريد كما قالت "نسخة جديدة عن قضية سلمان رشدي". ولما ترجمنا الكتاب، ورأينا صعوبة لغته، وكثرة الألفاظ التي تحتاج إلى تعريف في سياق النص، والروح الفلسفية المرفرفة فوق صفحاته . أدركنا دون لبس أنّ المشايخ لن يستطيعوا أن يجعلوا منه "نسخة جديدة عن قضية سلمان رشدي" لأنهم ببساطة لن يستطيعوا فهمه . هذا إذا استطاعوا إكمال قراءته، وهم الذين اعتادوا على مسائل من نمط الحوارات الصحفية مع الجن المسلمين وختان النساء والأدعية النووية.. الخ.

مع ذلك، فهذا لا يمنع، كما حدث في قضية "الآيات الشيطانية" أن يوعزوا لبعض مستثقفيهم باستلال جمل من هذا الكتاب من سياقها، ليبني عليها المشايخ . كالعادة . أهرامات تكفير هي الدليل الأوضح على فشلهم المزمن في الردّ العلمي على كل من يطرح فكراً يفوق سوياتهم العقلية. وسوف نشكرهم إذا فعلوا ذلك . تماماً كما شكرهم سلمان رشدي من قبل.

الإسلام، الذي يعيش أعنف مخاضات عمره، لابدّ أنّه سينجب إمّا "بولتمان إمامي" أو "فويرباخ سنّي": وفي أيّ من الحالتين، سوف تحال نسخة الإسلام التقليدية إلى المتحف. وحتى يظهر هذا الإمامي أو ذاك السني، تبقى أزمة الغزوة الهاجرية الجديدة . غزوة البداوة لمراكز الحضارات في سوريا الكبرى وحوض النيل، خاصة بعد السبعينات: غزوة ستنتهي حتماً مع انتهاء النفط في آبار الصحراء.

دمشق 1997/8/15

===============

هذه الدراسة للكاتب نبيل فياض، نعيد نشرها هنا بتصريح من موقع "كتابات" التي سبقنا إلى نشرها.
www.kitabat.com

===============

1. من أجل تفاصيل إضافية حول هذا الموضوع راجع كتابات اللاهوتي الألماني، بولتمان، الذي نقدّم أحد أعماله في هذه السلسلة.

2. صدرت في بيروت ثلاثة أعمال تبدو وكأنها نسخ عن بعضها – وكلّها في النهاية منسوخة من عمل شويبس، المسيحيون اليهود: القرآن دعوة نصرانية، قس ونبي، والإسلام بدعة نصرانية. الأخطاء المشتركة في الأعمال الثلاثة هي:

آ : اعتمادها علىالحدس أو التخمين في كون النبي نصرانياً أو أبيونياً، ب: ابتلاع الحسّ العاطفي فيها لكلّ بذرة عقلانية؛ ج: اعتبارها أن النصارى لم يكونوا يؤمنون بألوهة المسيح.

3 . أنظر هنا، على سبيل المثال، العمل الشهير باللغة الفرنسية، للباحث د. سدرسكي: أصول الحكايا الإسلامية في القرآن وفي قصص الأنبياء، باريس 1933. Les Origines de lêgendes muslmanes dans le Coran et dans le Vie des Prophètes

4 . لا حاجة بنا طبعاً لذكر أن كتب التفسير والصحاح الإسلامية مليئة إلى حد مدهش بالروايات الهاغادية والتي ما نزال منذ زمن لا بأس به نتقصى آثارها بهدف جمعها في عمل موسوعي شامل.

5 . جعفر مرتضى العاملي، بنات النبي أم ربائبه، مركز الجواد للصف والطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1003. صالح الورداني في مجلة روز اليوسف، ع 3602، 1997/6/23، صص 62 - 63.
جعفر مرتضى العاملي هو الأنموذج الأمثل للكاتب الإمامي، الذي يحلّق في أجواء العقلانية حين يتعلق الأمر بصراع تاريخي شيعي – سني، ويغوص في أعماق الخرافة، حين يتعلق الأمر بالأساطير الشيعية حول البيت وآله: عندما يعالج مسألة أن زوجتي عثمان ليستا ابنتين للنبي، يحشد أدلة تاريخية دامغة وقرائن عقلانية لا لبس فيها؛ لكن حين يريد أن يؤكد أن فاطمة وحدها هي ابنة محمد وخديجة – وزوجة علي طبعاً– نجده وقد نقل الحمل بها إلى عالم اللامعقول حين جعل جبريل يأتي بتفاحة من الجنة تأكلها خديجة لتحمل بفاطمة.

6 . إن الإمامي الذي هو على استعداد مفرط لأن يصفق لك ويهلل إذا ما استخدمت العقل في انتقاد الرموز السنية المقدّسة، هو ذاته مستعد لتكفيرك وقتلك إذا استخدمت العقل ذاته في التساؤل عن معقولية ميتة الإمام الغائب أو عن الحقائق التاريخية لأنبياء بني إسرائيل المذكورين في النصوص المقدسة أو... أو...!!!

7 . أنظر مثلاً: أنور ياسين، مصادر العقيدة الدرزية.

